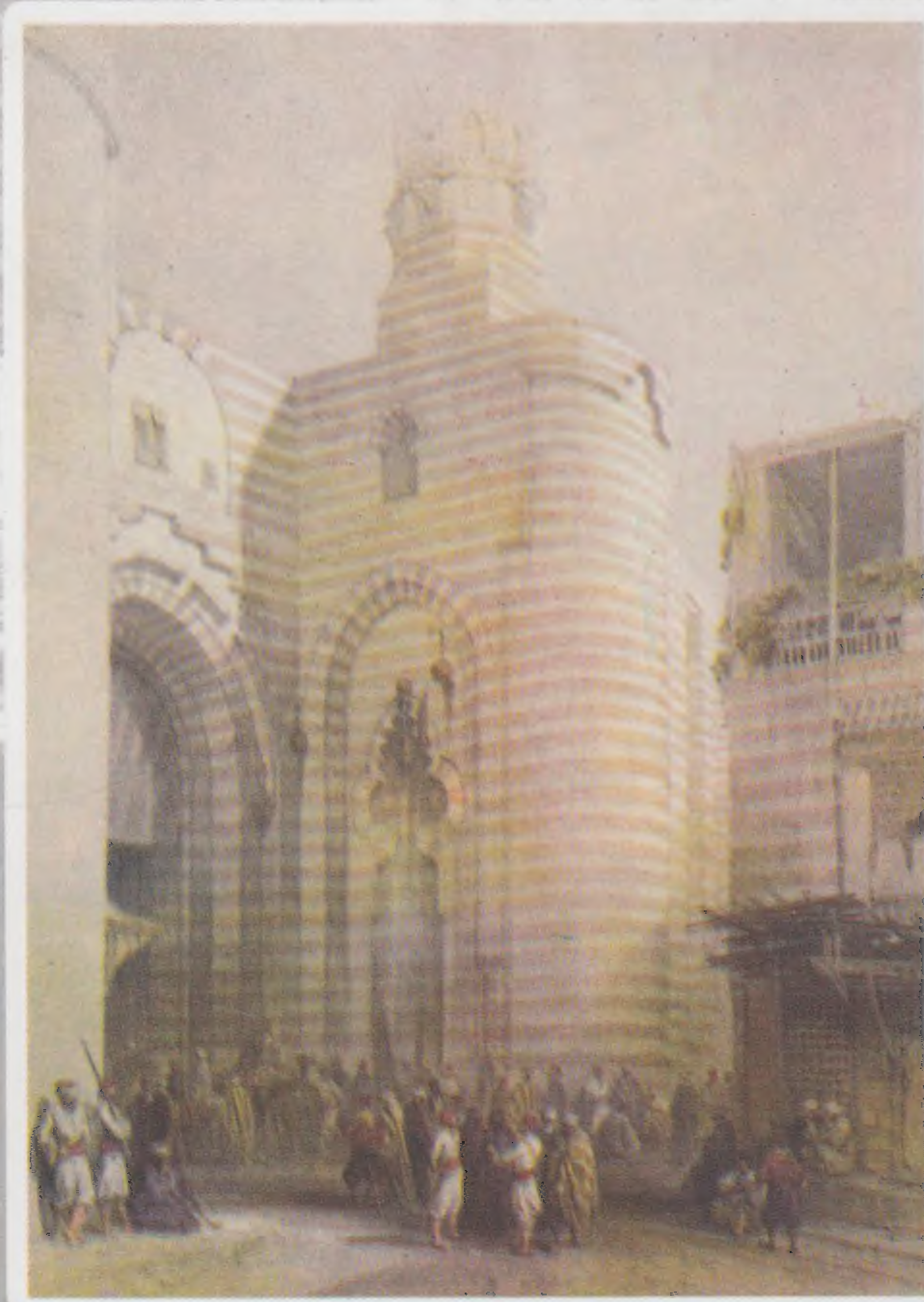


دكتور صلاح أحمد هريدى

دراسات فى
تاريخ مصر الحديث والمعاصر



دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر

٩٢٣ - ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨م

«الجزء الأول»

تاليف

دكتور صلاح أحمد هريدى على

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - فرع دمنهور

جامعة الأسكندرية

طبعة ٢٠٠٥



عين للدراسات والبحوث الانسانية والإجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع. تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Ein@hotmail.com

إهـــداء

إلى أستاذى العالم الإنسان ..

الدكتور عمر عبد العزيز عمر .. تحية ووفاءً .

صلاح أحمد هريدى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد رسول الله ﷺ وبعد ... أقدّم هذه الدراسات عن تاريخ مصر العثمانية ، ويتحدث الفصل الأول من هذا الكتاب عن الفتح العثمانى لمصر ونتائجه . وتعرضت للعلاقات المملوكية العثمانية ، حيث كانت حسنة وتدهورت بعد ذلك . ولذلك فقد كانت العلاقات حسنة فى أول الأمر ، ووضح ذلك عندما كان يحقق أى طرف نصراً على القوى المعادية ، فيقوم الطرف الآخر بإرسال التهانى وإقامة البشائر. وظهر ذلك واضحًا فى عهد السلاطين المماليك والسلاطن العثمانيين وتبادلهما رسائل الود والصداقة لتأكيد التحالف بينهما . وتأزمت العلاقات بين السلطنة المملوكية والإمبراطورية العثمانية بسبب متاخمة أراضيها وسبب صراعها على النفوذ ، خاصة وأن السلطنة المملوكية كانت فى حالة الانحطاط ، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الأوج وتطمع بزعامة العالم الإسلامى ، بشأن الدول الإسلامية الكبرى ، وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام بين المماليك والعثمانيين ، فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر .

وتمثل ذلك فى الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان ولجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى المماليك ، مثل لجوء الأمير سليمان العثمانى وأخته فاطمة شهرزادة إلى السلطان برسباى ، وأدى ذلك إلى تدهور العلاقات بين الطرفين ، وثورة الأمير جم ابن السلطان محمد الثانى والتجائه إلى السلطان قايتباى ، وأدى ذلك إلى تأزم العلاقات المملوكية العثمانية . وظل الحال إلى أن تولى سليم وهروب أبناء أخيه أحدهم إلى فارس ، وسليمان وعلاء الدين وقاسم ، إلى مصر وإن كان الغورى قد استقبلهم على مضض . وقد مات سليمان وعلاء الدين بالطاعون فأرسل سليم يطالب من الغورى تسليم قاسم . وكان أصغرهم ، لايتعدى الثلاث عشر سنة . فرفض الغورى طلبه بسبب أن الغورى كان يرى أن سليمًا الذى اجترأ على ارتكاب كل هذه الجرائم ، لايتورع عن التحرش به خاصة وأن الأمور قد تأزمت بين الدولتين بسبب الحدود ، أما سليم فقد وجد أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته . بالإضافة إلى قيام الإمارات التركمانية وأثر ذلك فى العلاقات بين المماليك والعثمانيين .

أما الفتح العثمانى للشام ومصر فقد تم بعد أن تدهورت العلاقات المملوكية العثمانية ، وخاصة بعد قيام الصراع بين الصفويين والعثمانيين وانتهت بانتصار العثمانيين فى موقعه تشالديران عام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م ، بدأت بعد ذلك الاستعدادات من جانب كل من الغورى وسليم ، ودخل المماليك المعركة ولم يستعدوا لها الاستعداد الكافى ، والنزاع بين المماليك الذين اصطحبوا السلطان الغورى إلى الشام ، بالإضافة إلى الخيانة التى دبت فى صفوف المماليك وانتهت بموقعة مرج دابق ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م بهزيمة المماليك ، واتخاذ السلطان سليم بعض الإجراءات فى الشام .

وبالنسبة للموقف فى مصر فقد تم اختيار السلطان طومان بعد موت السلطان قانصوه الغورى ، ورفض العرض المقدم من السلطان سليم بالتبعية ، وحدثت عدة معارك فى غزة ، ومساعدة بدو سيناء للعثمانيين ، والمتاعب التى ظهرت من جانب المماليك أنفسهم ، ووصل العثمانيين إلى الريدانية وحدثت موقعة مهولة ، حيث قتل فى هذه الموقعة سنان باشا الصدر الأعظم ، حيث ظن طومان باى أنه السلطان سليم . وانتقم العثمانيون لذلك أشد الانتقام من المصريين والمماليك ودخل سليم القاهرة . ولجأ طومان باى إلى الصعيد والوجه البحرى ، ودارت عدة معارك ، وبدأت الخيانة تدب فى صفوف المماليك مرة أخرى ، وانفض عرب هوارة الأشداء بالصعيد عن التأييد بعد أن أدركوا أن قضية طومان باى خاسرة ، ورفض عرب المغاربة الاشتراك معه لكونه مسلماً يحارب مسلماً .

وتم التعرُّض لموقف القبائل العربية الأخرى بالوجه البحرى وخاصة أولاد مرعى بالبحيرة وانتهى الأمر بتسليم طومان باى إلى السلطان سليم ، وتم اعدامه على باب زويلة ، واتخذالسلطان سليم عدة إجراءات إدارية فى مصر ، وعيّن جانم السيفى كاشفاً على البهنسا والفيوم ، كما عيّن اينال السيفى على الجيزة والغربية ، واعترف بقضاء المذاهب الأربعة إلى غير ذلك من الإجراءات . وانتهى هذا الفصل بشرح الأسباب التى أدت إلى هزيمة المماليك .

أما التنظيم الادارى فى مصر العثمانية ، فكان عنوان الفصل الثانى ، حيث تعرضت للتنظيم الإدارى الذى كان موجوداً قبل ذلك ومجهودات العثمانيين بعد الفتح ، والصراعات التى كانت تدور حول التسابق للحصول على منصب حاكم ولاية من الولايات الكبرى كالشرقية ، والغربية ، والمنوفية ، والبحيرة وجرجا . والكاشفيات التى كانت موجودة مثل الكاشفيات الكبرى والكاشفيات الصغرى التى كانت تتبع بعض الولايات ، وتدهور هذا النظام وخلط مابين كلمة كاشفية وولاية ، وادارة الأقاليم كانت تتم عن طريق صناجق يحملون لقب بك ، وكان منصب الصنجقية من المناصب الهامة ولها الكثير من الامتيازات مثل

حصولهم على نصيب عينى من القوافل الواردة من دار فور وسنار . وعلى هذا الأساس حرص الأمراء المماليك على جعل هذا المنصب قاصرا على أولادهم وأتباعهم .

فقد اشترك فى حكم مصر الباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثمانى ويحكمون الولاية ويشرفون على إدارتها ، وهيئة أمراء المماليك ورجال الحامية العسكرية يشتركون فى الحكم والإدارة أيضًا إلى جانب مهمتها الحربية .

فقد كان الباشا على قمة الجهاز الإدارى ، وألقابه ، ومقره ، ومدة حكمه ، واختصاصات الباشا المدنية المحافظة على النظام العام ، وتفقد أحوال الرعايا وأحوال الأموال السلطانية وحفظ وحراسة الولاية ورعايا الأمن ، وله حق الإشراف علي جيمع الشئون الإدارية فى مصر عن طريق رئاسته لجلسات الديوان العالي ويحضره قادة الأوجاقات وينفذ أوامر السلطان لإدارة مصر ، وهو المسئول عن تطبيق قواعد الحكم العثمانى فيها . ورعاية المبادىء الخلقية فى ذلك العصر، وإبطال المنكرات والخمامير ومواقف الخواطىء والبوظ . وإقامة الاحتفالات عند علمه بانتصار الجيوش العثمانية ، ورئاسة الاحتفالات بوفاء النيل ، والاحتفال بالعيدين ، وحفل خروج المحمل والكسوة فى طريقها إلى الحجاز .

وتم التعرُض لاختصاصات الباشا المالية ، حيث اعتبر المسؤول الأول عن مالية مصر ، والجهاز الذى يساعده فى ذلك مثل الدفتردار والروزنامجى ، وهو المسؤول عن إدارة خزينة مصر وموازنة إدارتها ومصروفاتها . وإرسال الخزينة الإرسالية إلى استانبول بالإضافة إلى الضريبة النوعية وتشمل مواد غذائية ترسل أيضًا . ودفع مرتبات الموظفين من مرتبات نقدية وعينية .

وعرفت أوامره الإدارية باسم البيورلدى وموارد الباشا ومصروفاته . وطريقة عزل الباشا وأسبابها ومحاسبته .

أما الديوان ، فكان يعرف باسم " ديوان محروسة مصر " و " ديوان حضرت ولى النعم والى مصر " ويرأسه الباشا أو الكتخدا . ويضم الديوان خلاصة العناصر التى تشترك فى إدارة مصر ، مثل الدفتردار ، والمهردار ، حامل الأختام والدويدار حامل الدواة ، وقاضى عسكر أفندى ، والمفتون على المذاهب الأربعة ، وكبار رجال الدين ، والأمراء الصناجقة وأغاوات واختيارية الأوجاقات السبع . ولهم مهمة ثابتة فى ذلك . كذلك وجد فى مصر الديوان الصغير وكان يجتمع فى كل الأيام فى قصر الباشا .

والحامية العثمانية والأوجاقات السبعة ، وهى هيئة حربية مهمتها الدفاع عن مصر والاشتراك فى حروب السلطان ، وكذلك لها اختصاصات أخرى غير حربية فهى تساعد الباشا

والصناجق فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر ، وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وتم التعرُّض للأوجاقات السبعة مثل جماعات السباهية (الفرسان) ومنهم جماعة الكوكليان ومهمتهم وتفنكجيان سوارى ، الجراكسة ، ومستحفظان وعزبان وجاوشان متفرقة وأهم أعمالهم .

ويأتى بعد ذلك القضاء كعنصر من عناصر الإدارة واختصاصاتهم الإدارية مثل الإشراف على الأوقاف والمرتبات الخيرية المخصصة للعلماء أو المجاورين بالأزهر . أو لأهل الحرمين الشريفين ... إلخ ومدتهم واختصاصاتهم القضائية وخاصة لقضاة الأقاليم . ويساعدهم المفتون وإيراداتهم ومدة خدمتهم بالإضافة إلى الشخصيات الدينية الأخرى مثل نقيب الأشراف .

أما الإدارة المالية ، فقد تم التعرض لأقسام الخزينة السلطانية إلى قسمين :

١ - ديوان الدفتردار أو الديوان الدفترى .

٢ - ديوان الروزنامة .

ومن عمد النظام الأوجاقات العسكرية ، لذا فقد تعرضت لأهم الأعمال التى تقوم بها ومشاركتها فى ادارة الريف ، واستغلالها للفرص باستيلائها على أجود الأراضى الزراعية ، مما جعلهم مصدر قلق وازعاج للسلطات الحاكمة فى القاهرة ، وقد ازداد نفوذهم وقوتهم حيث قاموا بعزل بعض حكام جرجا عام ١١٢٠هـ/١٧٠٧م وقاموا بتعيين آخرين مكانهم متجاهلين السلطات الحاكمة .

وبينت التغييرات التى طرأت على منصب القضاة بعد أن أبطل السلطان سليمان المشرِّع نظام القضاة الأربعة فى مصر وعيَّن قاضيا عثمانيا - قاضى عسكر أفندى - على أن يتصرف حسب المذاهب الأربعة ، وطريقة تعينه وتعيين نوابه ، والاهمال الذى تطرق الى هذا النظام ، كما تعرضت للمدة التى قضاها هؤلاء القضاة فى عملهم والمساعدين لهم ، وهم المفتون الذين كانوا موجودين بجانب القضاة .

أما الفصل الثالث عن بعض جمارك مصر فى القرن الثامن عشر الميلادى وهى جمارك الإسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس ، وقد ركزت هذه الدراسة على هذه الجمارك لأنها كانت تعد المنافذ الرئيسية لمصر فى البحر المتوسط وأهميته كحلقة إتصال بين الشرق والغرب .

وقد تم التعرض لأهمية موقع مصر الجغرافى ، وطرق المواصلات العالمية ودراسة هذه الموانى ، ودور كل منها فى حركة التجارة الخارجية لمصر خلال هذه الفترة ، والإدارة لكل منها والعناصر المشتركة فى إدارتها .

فقدمت هذه الدراسة ميناء الإسكندرية وأهميته ، وجمركه ونظام الادارة فيه ، والعناصر المشتركة فى إدارته . ثم تعرضت بعد ذلك لميناء رشيد وجمركها وانضمامه إلى جمرك الإسكندرية فى القرن العاشر الهجرى / منتصف القرن السادس عشر الميلادى . ثم أهمية جمرك رشيد فى القرن الثامن عشر الميلادى .

وميناء دمياط وأهميته الإقتصادية فى البحر المتوسط ، وإدارته وجمركه والعناصر المشتركة فى إدارته أيضا ، والبرلس حيث كانت أهميتها تأتى من كونها مركزاً للقوافل الواردة من شمال أفريقيا وفزان ، والخسائر التى لحقت به ، مما ترتب عليه إنضمامه إلى جمرك دمياط فى أواخر القرن الثامن عشر .

وبالنسبة لإدارة الجمارك فقد تم التعرض لها من حيث نظام التفتيش الدقيق للسفن الواردة والإجراءات التى كانت تتبع ، والرسوم التى كانت تفرض سواء على الأشخاص أو البضائع ، والمعاهدات التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية بهذا الخصوص . والمشاكل التى نجمت عن ذلك . والهيئات الأخرى التى كانت تشارك فى إدارة هذه الجمارك مثل القناصل وغيرهم .

وطبقت الدولة العثمانية نظام الإلتزام فى جماركها ، وسرى ذلك على مصر ، حيث أصبحت هذه الجمارك تمثل العنصر الثانى للايراد فى الدخل بعد الأرض وعملية نقل المزاد فى الجمارك إلى الملتزمين .

وتميز القرن السابع عشر بأن جمارك مصر المهمة أعطيت كالتزام للباشا ومقاطعاته المهمة ، وظل كذلك بالنسبة لجمرك الإسكندرية حتى نهاية القرن السابع عشر ، ثم سيطرت بعد ذلك الإنكشارية وتبع ذلك رشيد ودمياط والبرلس ومصر القديمة وبولاق . وأصبحوا يدفعون للباشا عوائدها وبالتالى إستولوا على إيراداتها .

أما فى القرن الثامن عشر . فقد تم تأجير مقاطعات جمارك إسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق ومصر القديمة إلى إختيارية المستحفظان وظل ذلك حتى عهد على بك الكبير ، وحاولت الدولة العثمانية أن تعيد التزام هذه الجمارك للباشا ولكنها لم تفلح . بل إننا قد لاحظنا إزدياد قوة الإنكشارية وتمادت حتى أنها ضغطت على الباشا وجعلته يدفع والعوائد المقررة عليها .

وبالنسبة للمصاريف التى كانت تنفق من حصيلة الجمارك فقد أوردتها الدراسة بالتفصيل.

وختمت الدراسة بنهاية القرن الثامن عشر وكيف استولى كل من مراد وابراهيم بك على جمارك مصر واقتسماها . وظل ذلك الوضع إلى نهاية هذا القرن والسياسة التى اتبعاها نحو

الأوروبيين ، وخاصة عندما فرضا رسوما اضافيا ، مما أدى ذلك لتدخل بعض الدول الأوروبية لحماية رعاياهم من مظالم مراد بك وإبراهيم بك ، وانتهى الأمر بعقد إتفاقيات تجارية معهم مثل فرنسا وإنجلترا .

وقد إعتمدت هذه الدراسة على سجلات الروزنامة بدار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة ، ودار المحفوظات القومية ، وأرشيف الشهر العقارى بالقاهرة والإسكندرية .

أما الفصل الرابع فقد دار حول التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر الميلادى وهناك جوانب عديدة مازالت فى إحتياج لإلقاء الضوء عليها فى تاريخنا الحديث ، ويمثل التعليم جانبا من تلك الجوانب ، ولذلك نتناوله بالبحث والحديث عنه فى مصر وبخاصة فى القرن الثامن عشر ، لما شهده هذا القرن من الأحداث المهمة والعديدة التى كان لها أكبر الأثر فى نواحى الحياة المتعددة ومن هذه الأحداث ذات الأثر الكبير تجدد الصراع بين البيوتات المملوكة بغرض السيطرة على السلطة ، فقد أثر هذا الصراع على نواح متعددة وما من شك أن التعليم قد تأثر بذلك الصراع فهو ناحية مهمة وحيوية من نواحى المجتمع وأثر عليه ذلك الصراع وبخاصة العلوم العملية منه فقد تدهورت أحواله .

إلا أنه فى أواخر هذا القرن قد شهد التعليم بعض التطورات المهمة للنهوض به وقد جاء ذلك متأخراً . فمصر قد واجهها قدوم الحملة الفرنسية عليها عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ، وكان لقدوم تلك الحملة على مصر أثر فى تلك النهضة العلمية وذلك لما إتخذته من خطوات إبان وجودها فى مصر من الناحية العلمية ، وما إتخذه محمد على من خطوات فى هذا المجال وفى مجالات أخرى .

ولذلك فقد تحدثنا عن الحياة العلمية فى مصر منذ عصر دولة المماليك والنشاط العلمى فى عصرهم ، وخاصة بعد إحيائهم للخلافة العباسية فى القاهرة وتشجيع كل من السلاطين والأمراء المماليك للحياة العلمية ، بل واشتغال بعضهم - أى الأمراء - بالتاريخ والفقه والحديث .. إلخ .

وإنتهى أمر مصر وسقطت فى أيدى الأتراك العثمانيين إعتباراً من عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م. وتدخل مصر مرحلة جديدة نلحظ منها وضع التعليم فيها وما أصابه . وقد كان للسلطان سليم الأول موقف من ذلك كله وخاصة عندما أصدر قراره بترحيل بعض علماء الأزهر إلى استانبول، ومعهم بعض الحرفيين وآخر خلفاء العباسيين وبعض الأعيان والتجار وترتب على ذلك إتخاذ البعض هذا القرار للتشهير بالدولة العثمانية . علما بأن السلطان سليمان القانونى

أصدر قراره بعودة هؤلاء بعد وفاة والده السلطان سليم عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م وتبع ذلك عدة قرارات وتباطئ البعض فى العودة .

وأصدر السلطان سليم عند وجوده فى مصر قرارا بعدم التعرُض للأوقاف التى كانت مخصصة للصرف على أوجه الخير ومنها التعليم . ومجهودات بعض باشوات مصر العثمانيين فى هذا المجال وخاصة فى العلوم الدينية . وهذا يرجع إلى طبيعة ذلك العصر الذى كان قائما على قانون العرض والطلب ، حيث تركت مهنة الطب والجراحة فى أيدى الحلاقين والمشايخ ، وإنحطت علوم الصيدلة وبعض العلوم الأخرى مثل الفلاحة والمساحة .. إلخ . بالإضافة إلى الإهتمام بدراسة اللغة التركية واللغة الفارسية ، وأهملت اللغات الأجنبية ولم يهتم بها إلا فى عهد محمد على .

أما عن مراحل التعليم المختلفه ، فكانت تتمثل فى الكتاب والمدرسة وبعض المؤسسات التعليمية الأخرى التى ساهمت بشكل واضح فى مجال التعليم وإن إختلفت وسائله ومناهجه مثل الروابط والزوايا والخانقاوات ، وأهل الذمه والأوروبيين ، وإن لم يتضح ذلك بالنسبة لهم- الأوربيين - إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

فتناولت الحديث عن الكتاب سواء كان للمسلمين أو المسيحيين أو اليهود ، والتعرُض إلى النظام الذى كان متبعا فى كل منهم ، والمواد التى تدرس ونظام العمل فيه ، وطريقة الثواب والعقاب ، وتتبعنا ذلك كله بدءا من دخول التلاميذ فى هذه المرحلة حتى إتمامها . والإجراءات التى كانت تتبع فى مثل هذه الحالات كما كانت هناك المكاتب العامه حيث كانت مهمتها تعليم أبناء الأيتام والفقراء مجانا ، ويتم الانفاق عليها من الأوقاف والمكاتب الخاصة التى يتم التعليم فيها الأجر ، بالإضافة إلى جهود العثمانيين فى ذلك .

أما كتاتيب المسيحيين فقد اكتسبت شهرة خاصة ، مما ترتب عليه إرسال بعض أبناء المسلمين إليها ، وقد حدث العكس أيضا بالنسبة لكتاتيب المسلمين . أما اليهود فلم يكن لهم نظام ثابت بسبب وجودهم فى الشتات . إلى أنهم كانوا يعيشون فى أحياء خاصة بهم . وبالرغم من ذلك فقد كان لهم نظامهم فى التعليم الخاص بهم .

أما المدارس وتطورها . والمواد التى تدرس بها ، وأسباب إنشائها ومجهودات كل من المماليك والعثمانيين والأهالى فى هذا المجال ، ودورها فى المجالات الأخرى ، والمبانى التى ألحقت بها مثل مساكن الطلبه والمدرسين ، وخضوعها لنظام التفتيش من جانب السلطات المختصه . ومدارس الأقباط فانها لم يتم إنشاؤها إلا فى القرن التاسع عشر ، كذلك كان هناك

المدارس اليهودية التى إلتحق بها بعض الطلبه المسلمين ، كما تعرضت للمناهج الدراسية والمدة التى يقضيها الطالب .

وكان هناك أيضا المؤسسات التعليميه الأخرى مثل المساجد والربط والترب والزوايا والتكايا، والمعاهد الخاصة بكل مذهب ، فقد كان للمسجد عدة وظائف أخرى غير التعليميه والصلاة ، فهو يمثل مركزا للاعلام ومركزا للاشعاع الفكرى والثقافى والسياسى ، ثم تكلمنا عن جهود كل من المماليك والعثمانيين فى هذا المجال ، والربط والزوايا والتكايا والمواد التى تدرس بها والغرض الذى من أجله انشئت . وأيضا جهود المسيحيين واليهود والأوربيين وهدفهم من إنشاء هذه المؤسسات التعليمية .

وتعليم المماليك ونظام تعليمهم والمواد التى كانوا يدرسونها ، وظهور بعض أمرائهم فى مجال التعليم وبخاصة فى بعض التخصصات . وتطور نظام تعليمهم بعد ذلك فى عهد محمد على ، والتعليم العسكرى والبدو ونظامهم ومجهوداتهم فى المناطق التى عاشوا فيها ، والصرف على التعليم وإنشائهم لبعض المدارس وغير ذلك ، وتم التعرض بعد ذلك لتعليم البنات المسلمات والمسيحيات واليهوديات وطريقة تعليمهن وغير ذلك .

أما عن الأزهر فقد كان يمثل مرحلة التعليم العالى ومعه بعض المعاهد الأخرى المنتشرة فى البلاد ، وكان للمسلمين والأتراك العثمانيين والأمراء المماليك جهود تذكر وتناولنا الحديث عن المواد التى كانت تدرس به ، وحفلة التخرج بالنسبة لطلبته والأجازات التى تمنح للطلبة ونوعها.

وإتصالا بالتعليم فقد أنشئت المكتبات التى وجدت فى الجوامع والمدارس والروابط والخوانق، والمكتبات الخاصة لدى الأهالى ، وتكلمنا عن ذلك وعن نظام الإستعارة ومدتها والموظفين العاملين فيها مثل خازن الكتب وإختصاصاته ، والمترجم ، والنساخ ، والمجلد ، والمناول ، والخادمون ، والفراشون .

أما الإدارة فى التعليم ، فكانت تنقسم إلى قسمين ، القسم الفنى ويشمل أعضاء هيئة التدريس فى الكتاب وهم المعلم أو الفقيه أو المؤدب والعريف والشروط التى يجب توافرها فى كل منهم. وفى المدرسة يكون المدرس والمعيد . وفى الأزهر كان يوجد الاساتذة المخصصون والالقاب العلمية ، التى كانوا يحملونها ، أما القسم الثانى من الإدارة ، فهو الناظر ، والمباشر والصراف ، والشادية وكاتب الغيبة ، والمعمار ، والمرخم ، والسباك ، والنجار ، بالإضافة إلى وظائف الخدمات مثل الطباخ والعاملين بالساقية والمزملة والبواب والفراش وإختصاص كل منهم .

أما الإنفاق على التعليم ، فكان من أموال الأوقاف الموقوفة للصرف على التعليم ولأغراض أخرى . وتسابق كل من العثمانيين والامراء المماليك والأهالى للصرف على هذه الأماكن وعلى طلبتها والعاملين فيها . وذلك بعكس أوروبا التى كانت الحكومة هى التى تتولى الصرف على التعليم . وكان تعليم المسيحيين هو الآخر يعتمد على الإعانات التى تأتيهم من الأديرة.

وتم التعرض بعد ذلك للركود والجمود الذى أصاب التعليم ، والأمثلة على هذا التدهور فى بعض العلوم المختلفة وأثر ذلك كله على التعليم .

أما الخاتمة فكانت للجهود المبذولة لحركة إحياء الثقافة فى جميع الدراسات الرياضية والفلكية والأدبية ، وجهود علماء الحملة الفرنسية وما ترتب على ذلك .

أما الفصل الخامس عن الأوبئة والأزمات الاقتصادية فى مصر العثمانية ، (٩٢٣هـ/ ١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م) ، فقد تعرض للأوبئة التى وقعت فى مصر العثمانية ، وقد نتجت هذه الأوبئة عن سوء الأحوال الصحية ودور الدولة العثمانية فى ذلك وقد تم التعرض إلى انتشار الطاعون وماترتب عليه وجهود الباشوات العثمانيين ازاء ذلك . ومن الملاحظ فى فترات انتشار هذا الوباء كان بعض الولاة أشد فتكا من الطاعون فمنهم من استغل الموقف وارتكب الكثير من المظالم ، خاصة ضد التجار وأصحاب الأموال . بالإضافة إلى أن الطاعون لم يكن واحداً ، فهناك الطاعون الأصفر ، وطاعون الحريق ، وطاعون عجيب انتشر فى الشتاء.

وكانت الكوارث الطبيعية التى حاقت بمصر العثمانية مثل احتراق سوق البارود ، وتعرض البلاد للزلازل ، والأمطار الغزيرة التى كانت حبيباتها فى حجم بيض النعام وتدميرها لبعض القرى .

أما الازمات الاقتصادية فكانت كثيرة ومتنوعة وكان لها آثارها السلبية فى الحياة الاجتماعية ، وأسبابها كثيرة منها ثورات جند السباهية ، والصراع بين البيوتات المملوكية ، وأثر ذلك على ارتفاع أسعار المواد الغذائية وموقف السلطات الحاكمة من ذلك والأهالى أيضا. بالإضافة إلى تزييف العملة وغشها فى عهد بعض الولاة وتحديد اسعار العملة ودور اليهود فى حدوث تلك الأزمات الاقتصادية والاختلاسات والعربان وانخفاض وزيادة منسوب النيل .

وختمت الدراسة بشهود مصر الرخاء وقد عبر النساء عن فرحهم بالزغاريد واستبشر الناس بذلك واحتفلوا بختان ابنائهم وأقيمت الأفراح .

أما الفصل لسادس : فيدور حول الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م . حيث تتعرض مشروع الحملة والاستعداد ، والسياسة الأوروبية فى تلك الفترة ، وحالة الإمبراطورية العثمانية ، وسياسة فرنسا تجاه الشرق والمفهوم الجديد للحضارة ، وظهور نابليون بونابرت والثورة والشرق . ثم الاعداد للحملة وموقف انجلترا والدولة العثمانية ، ووصول الحملة إلى الإسكندرية واحتلالها واحتلال القاهرة والمقاومة المصرية والإجراءات التى اتخذها نابليون فى مصر ، ثم رحيل الحملة ونتائج الحملة الفرنسية على مصر .

أما الفصل السابع فهو عبارة عن بعض الجوانب من تاريخ مصر الاجتماعى فى العصر العثمانى يمثل مجتمع الجوارى فى مصر العثمانية ، الأندلسيون وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية فى مصر العثمانية .

وأخيراً أرجو أن يسهم هذا الجهد المتواضع الذى أقدمه فى هذه الدراسات فى حركة اعادة كتابة تاريخ مصر الحديث .

اسبورتنج فى أغسطس سنة ١٩٩٩ .

صلاح أحمد هريدى

مقدمة الطبعة الثانية

تصدر الطبعة الثانية من هذا الكتاب «دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر» ٩٢٣-١٢١٣هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨م الجزء الأول بعد أن مر على طبعته الأولى ما يقرب من أربع سنوات كاملة، وهى فترة وإن كانت طويلة نسبيا ، إلا أنها سمحت بتوفير الجهد المطلوب لمراجعته وإعادة تقييمه فى ضوء ما أسفرت التجربة.

وقد سعدنا تمامًا بالاستجابة المشجعة وبالتقدير الذى حظى به هذا الكتاب مما أتيح لهم أن يصل أيديهم من أساتذة وباحثين وطلاب على السواء، وهو ما كان له أكبر الأثر فى حفزنا على إعادة اصداره فى صورة أوفى وأقدر على تحقيق الغرض منه .

ومرة أخرى نتقدم بأجزل الشكر وأعمقه لدار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية على نشر هذا الكتاب فى طبعته الجديدة المعدلة .

وبالله التوفيق،

صلاح أحمد هريدى

الاسكندرية فى ١٠ / ١٠ / ٢٠٠٤م

الفصل الأول

الفتح العثمانى لمصر ونتائجه

أولاً : العلاقات المملوكية العثمانية :

فى أول الأمر ، فإن المماليك لم ينظروا إلى العثمانيين بمنظار العداوة ، أو حتى المنافسين لهم فى السيطرة أو النفوذ فى العالم الإسلامى ، على أساس أنهم لم يعادوهم بعد ، لأنهم فى نظرهم لايرقون إلى مرتبتهم ، حتى وإن كانوا قد أحرزوا انتصارات هائلة على القوى الصليبية فى آسيا الصغرى وأوربا ، إلا أنهم فى رأيهم لايقيمون مثلهم في قلب العالم الإسلامى والعربى ، وإنما فى آسيا الصغرى وأوربا ، موئل شعوب غير إسلامية ، فهم اتخذوا القسطنطينية عاصمة الروم السابقة عاصمة لهم ، وإن سموها إستانبول بكل ماكانت تمثله من عداء شديد للإسلام طوال قرون عديدة ، لذلك فهم مسلمون مجاهدون فقط [(١)] .

وعلى العكس ، فإن المماليك بسبب وجود دولتهم فى الشرق الإسلامى ، اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام وعلى الخصوص بسبب اتخاذهم مصر قلب العروبة والإسلام ، مركز الثقل فيها ، قاعدة أصيلة لدولتهم الإسلامية المترامية الأطراف ، وخاصة أن سياستهم هى نفسها سياسة الفاطميين والأيوبيين من قبل ، باتخاذ مصر قاعدة للنضال فى سبيل الإسلام . ثم أن المماليك كان رصيدهم السابق بالنسبة للإسلام كبيراً جداً ، فهم الذين قطعوا دابر الصليبيين من الشرق، وإنهم هم الذين أوقفوا الخطر المغولى ، الذى لم يكن يقل تهديداً للبلاد الإسلامية عن الخطر الصليبى ، كما استطاعوا أن يعيدوا الخلافة التى قضى عليها المغول فى بغداد ، وبذلك أعادوا للإسلام ركناً هاماً فى شرعية وجوده ، بحيث أصبحت القاهرة مركز خلافة العباسيين. وبعد أن قاموا بهذه المهام الكبرى لصالح الإسلام العام ، فإنهم لم يستكينوا فى الجهاد ضد القوى المسيحية ، فهاهو برسباى يذكى روح الجهاد ويهاجم قبرص ثلاث حملات أخضعها له ، وانتصر على ملكهم جانوس الثانى لوزينان ، وأحضره معه أسيراً للقاهرة [(٢)].

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٤(٣) ٣٢٥ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٥ .

ولذلك ، فإن المماليك لم يكونوا يخلطون أنفسهم بالعثمانيين أبداً على الرغم من أن كليهما من الترك ، وإن سعى كل منهما إلى إيجاد أصل عربى ، على أساس أن العروبة هى مادة الإسلام ، فالجراكسة اعتبروا أنفسهم من أصل عربى ، فهم يربطون نسبهم بقريش . وحتى العثمانيين كانوا يرون أن جدهم عثمان هو عربى من سكان نواحى المدينة ، وإن اتصل بالسلاجقة في آسية الصغرى وتكلم لغتهم . ويظهر عدم خلط أنفسهم بالعثمانيين فى أنهم كانوا يطلقون على دولتهم إسم العثمانية ، نسبة إلى عثمان جدهم أو الروم أو مملكة الروم[١] ، أما سلاطينهم فيطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان[٢] ربما كان بسبب استقرارهم مكان الروم فى آسية الصغرى ، يطلق عليهم سلاجقة الروم ، لمجاورتهم لهؤلاء أو حتى لأنهم بعد ذلك أصبحوا مثل الروم يهاجمون فى بلاد الإسلام ، وهى على كل حال تسمية مقبولة من العثمانيين أنفسهم ، فقد كان سلطان العثمانيين - كما يظهر من مفاتيح الكعبة الشريفة - يسمى نفسه سلطان الروم[٣] .

وفى أول الأمر ، فإن المماليك مثل بقية المسلمين ، كان ثلج قلوبهم انتصارات العثمانيين على الروم ، وقضائهم نهائيًا عليهم . وفتحهم فى بلاد أوروبا ، بل يرون أنهم أفضل من سلاجقة الروم ، الذين عاصروا نشأة دولتهم ، ولو أن هؤلاء جاهدوا الروم والصليبيين من قبل، إلا أنه بسبب ضعفهم بعد ذلك ، نتيجة لانقسامهم فإنهم أصبحوا ضعافًا متداعيين . فكان مظهر التقدير للعثمانيين المجاهدين : هو أن الخليفة الذى يستظل بحماية المماليك فى مصر ، كان يرسل إلى سلاطين آل عثمان إذا وصل خبر انتصار للعثمانيين على الروم إلى مصر ، كانت تزين البلاد[٤] .

ومن ناحية العثمانيين ، فإنهم كانوا على وئام مع المماليك فى أول الأمر ، يظهر ذلك من الرسائل التى تبادلوها مع سلاطين المماليك ومعظمها بالعربية ، فيها تفخيم لهم باعتبارهم

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق ، محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢، جـ ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٥ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٦ .

قادة العرب ، وحماة الحرمين الشريفين ، أو أن السلطان المملوكى هو خادم المساجد الثلاثة ، أي المسجد الأقصى مضافًا للحرمين الشريفين . وأحيانًا تتبادل بتبادل عبارات الحب والوله . وإن كان ذلك من قبل سلاطين المماليك أيضًا [١].

ويظهر ذلك عندما تولى برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٣- ١٣٩٩م) عرش السلطنة فى مصر أرسل إليه السلطان العثمان مراد الأول (٧٦١ - ٧٩٢هـ/ ١٣٥٩- ١٣٨٨م) سفارة للتهنئة عام ١٣٨٨/٧٩٢م ومعها الهدايا وتحذره من تحركات تيمورلنك ، من تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية[٢] وإن لم يغفل برقوق نفسه عن هذا الخطر، إلا أنه كان يخاف أكثر من أطماع العثمانيين[٣] وخطورتهم على مستقبل دولته . فقال " أنى لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن كان أحد يساعدنى عليه وإنما أخاف من ابن عثمان[٤] .

وصدقت مخاوف برقوق ، فقد هاجم السلطان العثمانى بايزيد الأول (٧٩٣ - ٨٠٥هـ / ١٣٨٩- ١٤٠٢ م) قيصرية عام ٧٩٤ هـ / ١٣٩١م ، وقبض على أميرها الذى كان مشمولاً بحماية المماليك . ولكن بايزيد الأول سرعان ما أحس بحرج موقفه وخطأه مما أقدم ، عندما شعر بالخطر المغولى يقترب من بلاده ، ولاتصير له فى المنطقة سوى المماليك . فاعتذر لبرقوق عما أقدم عليه ، وأرسل له هدية ثمينة مع أحد رسله ، وطلب منه أن يبعث إليه أحد أطبائه المهرة لكى يشرف على علاجه ، فلبى برقوق طلب السلطان العثمانى ، وأرسل إليه الطبيب شمس الدين محمد بن الصغير ومعه الأدوية والعقاقير [٥].

وقد تبادل السلطانان رسائل الود والصداقة لتأكيد التحالف بينهما فقد أرسل برقوق رسالة إلى بايزيد الأول مع قاصده سعد الدين سعد الله البريدى ذكر له فيها " أن المملكتين كروحين

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع المصادر التركية والعربية المعاصرة له ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٥ - ٩ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٦ ، الطبعة الثانية ، ص ٢٦٦ ، إبراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية العلية ، المعروف بكتاب التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٥) نفسه ، ص ٢٦٧ .

فى جسد وساعدين فى عضد " وشكا له من سوء معاملة الجنويين وكفار كفه - مدينة فى شبه جزيرة القرم - تطل على البحر الأسود لتجار المسلمين وابن قابونى ، فرد عليه بايزيد الأول برسالة فى ٦ شوال عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩١م ، أوضح له فيها أنه أرسل قاصده إلى أمير جنوة وإلى مشركى كفة ، لتنبيههم إلى عدم التعرض لتجار المسلمين وأموالهم وإطلاق سراح السجناء منهم ، وابن قابونى وتسليم أموالهم إليهم كاملة ، وأكد على أواصر الصداقة بينهما ، وطلب منه الاستمرار فى المراسلة (١).

ورد برقوق على بايزيد الأول برسالة عبر فيها عن فرحته بما ورد فى رسالته ، وبما قام به نحو حماية تجار المسلمين من اعتداء الجنويين عليهم . وذكر له أن تاجرين عثمانيين أحدهما يدعى الحاج تنكر ورمش من مماليك التاجر خواجة قاسم ، قد اتجر فى مصر بأموال مولاهما فى تجارة الفلفل على خلاف القوانين المصرية ، ثم طلب منه أن يعفو عنهما لكى يعودا بما معهما إلى صاحبهما (٢).

دأب السلطان بايزيد الأول على تأكيد صداقته واحترامه لسلاطين المماليك ، فأرسل عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤م ، تحفًا وهدايا إلى الخليفة العباسى فى مصر هو المتوكل على الله فى ذلك الوقت ، طالبًا منه تشريفًا وتقليداً باعتماده سلطانًا ، فبعث له المتوكل بهذا التقليد ، وهذا دليل واضح على مدى مركز السلطنة المملوكية وسيادتها الإسلامية العليا ، فى المجال الدولى والعالمى(٣) . ومن ناحية أخرى فإن السلطان بايزيد الأول حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على التحالف الصليبى فى نيقوبوليس ٧٩٧ هـ / ١٣٩٦م ، كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتى أسير(٤) .

وفى عهد فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨١٥ / ١٤٠٠ - ١٤١٢م) أغار بايزيد الأول على أطراف دولة المماليك واستولى عام ٨٠١ هـ / ١٤٠٠م على ملطية ودائدرة . ولاشك فى أن

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٤- ٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٧ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٣) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير بعلبكى ، بيروت الطبعة العاشرة ، بيروت ، لبنان ١٩٨٥ ، ص ٤٢٠ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٩ ؛ عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٤٢ .

ذلك العدوان كان كافيًا لحد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بنى عثمان ، هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعًا إلى الاحتفاظ بود المماليك ، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جبهة متحدة ضد الخطر المغولى المقترب من بلادهما ، فرفض فرج ذلك التحالف بعد مشاورة امرائه[١] . وأرسلوا يذكرونه بعدوانه على ملطية [٢]، وبهذا تمكن تيمورلنك من مداهمة كلا القوتين على انفراد فهاجم أراضى المملوكية، وتمكن من إنزال الهزيمة بالمماليك عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م بالقرب من دمشق ، كما استطاع أن يهزم بايزيد الأول ويأسره فى موقعة " جوبوق أووه " القريبة من أنقرة فى عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م[٣].

وبعد أن أنهت آثار هزائم تيمورلنك عند كلا الجانبين عادت العلاقات الودية بين الدولتين من جديد ، ولكنهما اقتصرت على تبادل التهانى والهدايا عندما يتحقق النصر لأحداهما ضد عدوهما .

وفى عهد المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١م) الذى تولى عرش السلطنة، وتأخر سلطان العثمانيين الجديد محمد الأول فى تهنئته باعتلاء العرش وفى أواسط شهر ذى الحجة عام ٨١٧ هـ / ١٤١٤م أرسل السلطان محمد الأول كتابًا إلى السلطان المملوكى شيخ المحمودى على يد قاصده قوام الملك والدين قاض « اينه كول » من أعمال بروسة يعتذر فيه عن تأخره فى المراسلة بسبب ماوقع بينه وبين إخوته من نزاع عى العرش بعد موت أبيهم سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م ومساعدة تكفور[٤] من القسطنطينية عمانويل لهم وتحريضهم إياهم ضده ، ويهنئه باعتلاء العرش ، ويطلب منه تجديد أواصر الصداقة القديمة .

وقد أرسل محمد الأول هدية مع رسوله إلى السلطان المملوكى ، وقد رد السلطان المؤيد شيخ على رسالة السلطان محمد الأول ، يبين فيه سروره بما تحقق للسلطان محمد من نصر على تكفور القسطنطينية وأرسل هو الآخر هدية له . واستمرت العلاقات الطيبة بين الدولة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٢١.

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٩ .

(٣) نفسه ، ص ١٠ .

(٤) عبد الرزاق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

المملوكية والعثمانية ، وتبادل الطرفان الرسائل من آن لآخر تأكيداً لأواصر الصداقة وتبادل مايستجد من أخبار [(١)].

وتجددت العلاقات الودية بين السلطنة العثمانية والسلطنة المملوكية ، فأرسل السلطان العثماني مراد الثانى (٨٢٤ - ٨٥٤هـ / ١٤٢١- ١٤٥١م) سفارة عام ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ لتهنئة السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢- ١٤٣٨م) بالرسالة ومعها هدية ، وقد رد السلطان على الهدية ، ولكن قدر لهذه الهدية أن تقع فى أيدى قراصنة البحر المتوسط من القبارصة ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثانى من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى برسباى عام ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦م ، وقد أقامت هذه السفارة في القاهرة لحين مجيء ثالث حملات السلطان برسباى على قبرص عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧م ، وهى الحملة التى نجحت فى غزو الجزيرة وأسر ملكها جانوس لوزجنان ، وهنئه مراد الثانى بالفتح القبرصى ، الذى يسامى الفتح القدسى من قبل[(٢)] ويبدو أن أخبار هذا النصر الذى احرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثانى العثمانى ، فبادر فى العام التالي ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م ، بإرسال خمسين أسيراً أوربيًا للسلطان برسباى[(٣)] الذى رد على ذلك معبراً عن فرحته الشديدة بنصر الإسلام وجنود المسلمين .

وعندما استولى العثمانيون على قلعة سلاتيك فى ٥ رجب عام ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م أرسل السلطان العثمانى قاصده بدر الدين محمود بك برسالة إلى السلطان المملوكى يزف إليه بشائر النصر ويخبره أيضًا بانتصاره على حاكم المملكة الأرناؤطية المسمى إيوان بعد تظاهره بعدم القدرة على دفع الجزية ، كما أرسل مراد الثانى رسوله هذا ليقدم مراسم التعزية فى وفاة شيخ المحمودى والتبشير بنصر العثمانيين وقد جهز معه بعض الهدايا[(٤)] .

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٢- ١٣ ، عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٩٨(٢) ٣٢٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣١٨ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٤) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

وفى عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٢٨- ١٤٥٣م) زادت مظاهر الصداقة والود بين الطرفين ، وتوطدت العلاقة بينهما ، فتبادل مراد الثانى وجقمق الهدايا والرسل فى المناسبات المختلفة ، فبعد أن اعتلى جقمق سلطنة عرش مصر ، أرسل إلى مراد الثانى رسالة فى نفس العام مصحوبة ببعض الهدايا والتحف ، مع قاصده استدمر الخاصكى[١] . ليخبر مراداً بأخبار مصر . ولكى يظهر نواياه، الطيبة مع العثمانيين أمر نواب السلطان العثمانى أحمد بك ، الذى كان حاكمًا على سيواس وتوقات وآماسيا وغيرها ، ثم طلب من مراد الثانى فى نهاية رسالته أن يسهل عودة التاجر المملوكى خواجا زين الدين بكيسمان بما عسى أن يكون صحبته من المماليك الأجلاب[٢] .

وقد رد مراد الثانى بكتاب مصحوب ببعض الهدايا والتحف مع قاصده ولد بك لتهنئة جقمق بالجلوس على العرش ، ولتبشيره بفتح قلعة سمندرة ، وتخريب بلفراد وكوهين وطمشواز، وانتصاره على اليونانيين وقد امتلأت رسالة مراد الثانى بعبارات كلها تبجيل وإجلال مما يدل على مدى توثق عرى الصداقة والمحبة بينهما .

---

(١) الخاصكى : الخاصكية هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف ، ويتعينون بكوامل الكفال ، ويجهزون فى المهمات الشريفة ، ويتعينون للإمرة ، والمقربون فى المملكة ، كان عددهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا ، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا فى أيام الأشرف برسباى نحو ألف خاصكى ، ومنهم من هو صاحب وظيفة ، ومنهم من ليس له وظيفة .

وأما فى الدولة العثمانية فإن كلمة خاصكى تطلق على هذه الطوائف الثلاث :

(١) الخاصكية من النساء .

(٢) والخاصكية طائفة من موظفى القصر تابعة لجماعة البستانجية كانوا يرسلون فى المهمات السرية إلى الولاة وغيرهم من كبار رجال الدولة وكانوا أيضًا حملة البريد من القصر ، ومنهم من يعرف باسم تبديل خاصكى ، يتجسسون مبدلين قيافتهم ، ويصاحبون السلطان إذا خرج للعس ، ومنهم ستون رجلاً يحافظون على السلطان إذا خرج فى موكبه للسفر .

(٣) كانت فى الجيش الانكشارى أربع كتائب تعرف بالخاصكية وهى الكتائب الآتية الرابعة عشر والتاسعة والأربعون والسادسة والستون والسابعة والستون وكان من هؤلاء الخاصكية متخصصون فى تربية كلاب الصيد ، وكان أربعة منهم يصاحبون السلطان إذا خرج للصيد . (انظر : أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٨٤ - ٨٥) .

(٢) عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٥ .

ولما وقعت معركة فارنا ببلغاريا الحالية عام ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤م ، إثر حصار هنيادى نائب رئيس ترانسلفانيا لبلغاريا ، وانضم إليه لادسلاس Ladislas ملك المجر لحصار فارنا ، وقد انتصر مراد الثانى على هذا التحالف ولقى لادسلاس ملك المجر مصرعه . وأسر الكثير من الصليبيين فأوفد مراد الثانى إلى جقمق بعض الأسرى ومنهم بعض الأمراء . واستمرت المراسلات وتبادل القصاد بين الطرفين (١).

وكان لهذه العلاقة الوطيدة بين جقمق ومراد الثانى أثرها فى استمرار صفائها فى محمد بن مراد (محمد الفاتح) (٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١- ١٤٨١م) وتأكيداً لهذه العلاقة والمودة، أنه لما علم جقمق أن السلطان محمد الثانى أرسل جنده لتأديب بعض حكام شرق الأناضول الذين يقطعون طرق التجارة وينهبون الأموال ويستبيحون قتل الأنفس ، أرسل له عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١ رسالة شكر على ما قام به خدمة للمسلمين (٢).

وفى عهد برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ / ١٤٢٢- ١٤٣٨م) ازدادت أواصر الصداقة والمودة بين الأشراف برسباى وبين مراد الثانى (٨٢٤ - ٨٥٤ هـ / ١٤٢١ -١٤٥١م) ، وقد أظهر برسباى مع وفد عثمانى قدم إليه فى طريق الحج مودة ، وعامل أفراده معاملة طيبة . ولما ظهر خطر شاه رخ الخصم العنيد للمماليك والعثمانيين معا ، أعاد إلى الأذهان صورة أسر بايزيد الأول السابقة من تيمورلنك ، لذلك أسرع مراد بإرسال بعثة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣م إلى القاهرة لتهنئة برسباى بالسلطنة ومعها هدية .

واغتبط برسباى بمقدم البعثة وبما احضروه معها من هدايا ثمينة . ثم رد برسباى على هذه الهدية بما يناسب مقام السلطنة العثمانية ، وليؤكد المودة بين الجانبين ، ولكن قدرة لهذه الهدية أن تقع فى أيدى قراصنة قبرص فى البحر المتوسط . وكان رد الفعل من جانب برسباى إلى أنه أرسل عدة حملات للقضاء على القراصنة القبارصة ، ونجح فى ذلك وأسر ملك الجزيرة جانوس لوزجنان وأقام احتفالاً بذلك ، وقد صادف هذا الاحتفال وجود بعثة عثمانية شهد أعضاؤها الاحتفالات المقامة ، ولما عادت البعثة العثمانية ، أعادت ذكر الاحتفال والاستقبال أمام

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص٢٧ . ٢٨ ، يلماز اوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، استانبول ١٩٨٩م ، ص ١٢٧ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

سلطانهم الذى أثارته الغيـرة ، ودفعتـه إلى القيـام بحملة ضد إينال ، وزحف على بلاده فاستولى على طرسون وأدرنة وكولك ، وما أن سمع السلطان بهذه الأخبار ، عين على الفور تجريدة إلى ابن قرمـان وقد استطاعت هذه القوات إعـادة النظام والأمن إلى هذه المنطقـة ، واستعادة البلاد التى انتزعها بن قرمان .

أما موقف السلطان محمد الفاتح ، فقد أرسل فى جمادى الأولى عام ٨٦٠هـ / ١٤٥٦م سفارة عثمانية ثانية برسالة تنبىء بانتصار قواته على الصرب فى وقعة نوفو بردا وغيرها من الوقعات الدامية ببلاد يوغسلافيا الحالية . وأرسل هدية للتأكيد على علاقات المودة بينهما[١].

ولما تولى السلطان قانصوه الغورى بعد قايتباى سعى إلى أن يصلح الأمور أكثر مع بايزيد الثانى ، فأعلن فى رسالة أن سلفه قايتباى " انعوج على المصادقة إلا أنه على عكسه يسعى إليها ، ويعترف بمواقف بايزيد فى الجهاد ، ويصفه بالسلطان الغازى . وتبدو حيطة الغورى فى أنه رفض مجىء ابن بايزيد الثانى قرقورد ، إلى مصر فى طريقه إلى الحج ، إلا إذا أذن له والده بذلك ، الذى كان قد وصل إلى القاهرة برسالة[٢] أو التماس إلى أبيه يستأذنه فى ذلك، مع بعض علماء الأزهر الشريف ، بحيث أن بايزيد الثانى أرسل رسالة للغورى شكره على ذلك، ويلقبه فيها بالأخ ، مما يدل على أن العلاقات الودية قد عادت بين المماليك والعثمانيين بعد التوتر السابق[٣] .

من الطبيعى أن تتأزم العلاقات بين السلطنة المملوكية والإمبراطورية العثمانية ، بسبب متاخمة أراضيها ، وبسبب صراعهما على النفوذ ، خاصة وأن السلطنة المملوكية كانت فى مرحلة الانحطاط ، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الأوج ، وتطمع بزعامة العالم، بشأن الدول الإسلامية الكبرى ، وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام بين المماليك والعثمانيين ، فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر.

---

(١) عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٧-٣٣١ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٣١ .

(١) الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان :

تركز الصراع على النفوذ بين المماليك والعثمانيين فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى منطقة ألبستان Albistan على الفرات الأعلى بين مرعش وملطية ، وسميت المنطقة بذلك نسبة لمدينة تحمل الاسم نفسه . وقد احتلها الصليبيون ثم الدانشماند المتمركزون فى سيواس ، ثم سلاجقةالروم المتمركزون فى قونية بين ٧٣٨ - ٧٤٠ هـ / ١٣٣٧- ١٣٣٩م ، أصبحت البستان عاصمة إمارة ذى القدر ، وهى سلالة تركمانية حكمت حتى عام ٩٢٨هـ/١٥٢٢م . وقد استولى تيمورلنك عى هذه الإمارة فى عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م . كما أن السلطان محمد لأول تزوج من ابنة أميرها [١].

وفى عهد حاكم ألبستان ، ملك أرسلان (٨٥٨ - ٨٧هـ / ١٤٥٤- ١٤٦٥م) تهددت هذه الإمارة من قبل أوزون حسن (حسن الطويل) حاكم إمارة الشاه الأبيض . وفى سنة ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م اغتيل ملك أرسلان بتآمر أخيه شاه بداق ، الذى كان يؤيده السلطان المملوكى خشقدم ، والذى احتل مكانه ، بمساعدة السلطان العثمانى محمد الثانى ، وحين قوى شاه سوار رفض حماية العثمانيين له ، مما مكن المماليك من مهاجمته وقتله فى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ وأعيد شاه بداق إلى الحكم . ولكن العثمانيين أيدوا أخًا آخر لشاه بداق يدعى علاء الدولة ، الذى تزوجت ابنته من السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، وانجبت له سليمًا الذى أصبح فيما بعد السلطان سليم الأول ، وفى عام ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩م . استطاع علاء الدولة أن يطرد شاه من الحكم [٢].

ووضح ذلك من أعمال هؤلاء الأخوة الحاكمين ، الواحد تلو الآخر ، النزعة القبلية التركمانية التى سادت هذه الإمارة والتى وجدت مشجعًا لها ، فى موقع الإمارة الاستراتيجى، بين المماليك والعثمانيين ، الذى تمثل صراعهم على النفوذ فى المنطقة فى دعم أمير ضد آخر . ونتج عن ذلك ليس تأزم العلاقات بين أفراد الأسرة الحاكمة فى ألبستان فحسب ، بل اضطراب العلاقات بين المماليك والعثمانيين . كما أن توتر الوضع بين هاتين القوتين ، لأسباب أخرى ، كثيراً ما انعكس على العلاقات بين الأخوة فى الأسرة الحاكمة فى هذه الإمارة[٣] .

---

(١) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت على مصر ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٤٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) نفسه ، ص٤٥ .

وقد بدأوا أول صدام مسلح بين المماليك والعثمانيين باعتداء قام به علاء الدولة أمير ذو القادر ، ومعه بعض الفرق من جنود العثمانيين عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٣م على الحدود المملوكية، فتصدى له تمراز الشمسى للمعتدين واستطاع أن ينزل هزيمة فادحة ، وأسر جنداً من قوات العثمانيين وعلى الرغم من انتصار المماليك ، فقد آثر قايتباى حقن الدماء وأرسل قاصده أمير آخور[1] الثانى جانى بك حبيب عام ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥م ليعقد الصلح مع العثمانيين ، ويقدم للسلطان العثمانى تقليد الخليفة العباسى ، بأن يكون بايزيد سلطانًا على بلاد الدولة العثمانية وما سيفتحه من البلاد الكفرية .

التقى القاصد بعد أن عبر الحدود الملوكية العثمانية بعلاء الدولة أمير ذو القادر . فاستوقفه الأمير المذكور ، وأرسل ما معه من رسائل وأخبار إلى الصدر الأعظم مع مصلح الدين بك لكى يعرضها على السلطان ، وحمله رسالة شخصية إلى الصدر الأعظم قال فيها :

" وعندما قدم إلينا عبدكم مصلح الدين ، جاءنا شخص من الشام يدعى خاير بك . وجاء قاصد الخليفة العباسى فى مصر حاملاً معه رسالة . أخذ عبدكم المشار إليه الرسائل وحمل الأخبار وتوجه إلى خدمتكم لعرضها عليكم "[2] .

---

(١) آخور : من الفارسية بمد الألف بمعنى المعلف أو المذود . ثم أطلقت على الأسطبل . وقد عرف صاحب هذه الوظيفة عند سلاجقة الروم ، باسمين أمير آخور وكنداصطبل .

وأمير الآخور عند المماليك هو الناظر فى أمور الاسطبلات والمناخات السلطانية ورئيس العاملين بها جميعًا ، وأهم هؤلاء العاملين هو المسئول عن الأعلاف والمسمى بالسلاخور .

وكان يعاون أمير الآخور موظف إدارى من المتعممين : أي من غير الجند ، يمسك بالسجلات ، وعدد من أمراء الآخور أدنى من أمير الآخور المبير درجة ، ولكل واحد منهم النظر فى أمر نوع من أنواع الحيوان : فأمير آخور للمهارى وأمير آخور للدشار ينظر فى أمور الإبل ، وأمير آخور للبقر كان يسمى أحيانًا بأمير آخور السواقى ، ويرأس أمير الآخور طوائف أخرى من العاملين بالاسطبلات كالبياطرة والأوجاقية « أوجاق : من التركية " أوجاق بضم الهمزة ضمة مبسوطة مفخمة ومعناه الأول فى التركية الموقد والمدخنة ، ثم أطلق على كل ما تنفخ فيه نار فأطلق على البيت من وبر أو مدر ، ثم على أهله ثم على الجماعة تتلاقى فى مكان واحد ثم أطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف ، وعلى الصنف من أصناف الجند (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١٩٤ » والغلمان والسواس والسقائيين . وكان للبريد أمير آخور البريد يعنى بدواب حمل البريد . (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١١) .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

ويذكر أحمد فؤاد متولى[١] ويقول من المحتمل أن تكون الخيوط الأولى لخيانة خاير بك المشهورة فى تاريخ المماليك ، قد بدأت مذ ذلك الوقت الذى عبر فيه الحدود المملوكية العثمانية ، دون علم قايتباى ورغم وجود عداء شديد بين الدولتين ، واستمرت من بعد على شكل اتصالات مستمرة بين خاير بك وبين بايزيد الثانى وابنه سليم من بعده[٢] ونميل إلى الأخذ بهذا الاحتمال ، لأن الأحداث اللاحقة تؤيد ذلك .

ولم يذكر أحد المعارضين للفترة من مؤرخى العرب والعثمانين شيئًا عن توجه خاير بك إلى العثمانيين فى هذه الفترة . وليس هناك مجال للشك فى أن هذه أول مرة يعبر فيها خاير بك الحدود المشتركة لكى يلاقى العثمانيين [٣].

لم يستجب بايزيد الثانى لنداء الصلح ، وقام بالاعتداء على حدود المماليك المجاورة ، فإن قايتباى أرسل قائده أزبك بن ططخ نحوهم ، وأوقف تقدمهم واسترد المدن المستولى عليها ، وتكريمًا لهذا القائد ، أنشأ قايتباى مسجد عرف بمسجد الأزبكية ، حيث بقيت تسمية الأزبكية إلى وقتنا هذا ، على الرغم من زوال المسجد ، ولكن العثمانيين استمروا فى موقفهم العدائى ، وأرسلوا جيشًا كبيراً بقيادة على باشا ، الذى توغل مرة أخرى فى أطنة وطرسوس مما دعا قايتباى إلى أن يرسل أزبك من جديد ، الذى تمكن أن يهزم عليا باشا هزيمة منكرة[٤] .

ولما لم يكن قايتباى حينذاك فى وئام تام مع امرائه المماليك ، فإنه أقام السلام مع العثمانيين بقصد وقف العداء بينه وبينهم حقنًا لدماء المسلمين ، وقد استعان على ذلك بوساطة باى تونس المسمى عثمان الذى أرسل زين الدين أحد فقهائه المشهورين للتوسط بين بايزيد وقايتباى ، ومع لباقة الفقيه التونسى ، فإن الوساطة لم تنجح ، مما جعل قايتباى يتنازل للعثمانيين على أطنة وطرسوس ، وكان هذا أول وهن للماليك أمام العثمانيين [٥].

(٢) لجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى المماليك :

فى عام ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م لجأ إلى القاهرة الأمير سليمان العثمانى واخته فاطمة شهر زادة فراراً من السلطان مراد الثانى ، فأنزلهما السلطان برسباى القصور السلطانية برسباى القصور

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥ .

(٣) نفسه ، ص ٣٦ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٠ .

(٥) نفسه ص ٣٣٠ .

السلطانية وأحسن وفادتهما ، ورفض طلب السلطان مراد الثانى إعادتهما إليه ، وذلك خشية أن يقتل الأمير سليمان خوفًا على عرشه ، على جارى عادة السلاطين العثمانيين فى قتل إخوانهم وأقاربهم ، فساءت العلاقات بين الطرفين . وقد التحق سليمان بحاشية يوسف بن برسباى ، وانضمت فاطمة إلى حريم القصر . وفى عام ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م تزوج برسباى فاطمة شهر زادة [١]. ولما فشل مراد فى استردادهما من برسباى دبر محاولة لإغراء العبد الذى هرب بهما إلى القاهرة لكى يحضرهما إلى استانبول ، ولكن المحاولة باءت بالفشل . لذلك ساءت العلاقة بين الطرفين مؤقتًا [٢] .

أما الحدث الثانى فهو الحادثة المعروفة بثورة الأمير جم وهو ابن السلطان العثمانى محمد الثانى (٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١- ١٤٨١م) وقد عيِّن حاكمًا على صنجق[٣] قسطمونى (فى شمال الأناضول) ثم ذهب إلى أدرنة لحمايتها ، حين كان السلطان محمد الثانى منهمكًا فى القتال ضد أوزون حسن . وحين انقطعت لفترة ، أخبار محمد الثانى عن جم أقنعه مستشاروه فى عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م بالبيعة له مكان أبيه ، وعندما عاد محمد الثانى قتل مستشارى جم . ويدل هذا الحادث على أن جم كانت تحدثه نفسه بالسلطنة ، متجاوزًا بذلك أسبقية أخيه الأكبر بيازيد الثانى ، ويبدو وبالفعل استمر جم يعمل فى هذا الاتجاه . وقد عين فى عام ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م حاكمًا على ولاية كرمان . وكان قرمانى محمد باشا الصدر الأعظم (٨٨١ - ٨٨٦هـ/٤٧٦-١٤٨١م) مقربًا إلى جم ، فى حين أن بيازيد الثانى كان يعارض سياسة قرمانى ، وخاصة إجراءاته المالية [٤].

---

(١) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(٢) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٣) صنجق : من التركية سنجاق وهى العلم والقسم من ولاية كبيرة ، والحاكم على قسم من ولاية ، وقد تكون الصنجقية أيضًا مجرد رتبة ، وصنجق طبل خانة يجمع بين مصطلحين ، مصطلح عثمانى ، ومصطلح مملوكى . فبعض الأمراء فى دولة المماليك ، كانوا أمراء طبلخانة ، أى يكسبهم مقامهم أن تدق لهم الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية ، التى تتكون منها طبلخانة السلطان ، ولم يكن عدد الصناجق دائمًا أربعة وعشرين ، وقد احتفظت حكومة الدولة لنفسها بتعيين صناجق الثغور الثلاثة المهمة الأسكندرية ودمياط والسويس وكذلك كتخداء الوزير أو الباشا .

أما التعيين للصنجقيات الباقية ، فكان يحدث فى مصر نفسها لقوة المتنافسين عليها . فكان الرجل ذو النفوذ يسعى لأن يجعل الصناجق أو مماليكه وهكذا (انظر ، محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، رسالة حسين أفندى الروزنامجى ، ص ١٤) .

(٤) يلماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

وعندما توفى السلطان محمد الثانى عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م ، تجمع أعداء الصدر الأعظم، قرمانى محمد باشا فقتلوه ، وجعلوا بيازيد الثانى سلطانًا فى استانبول . ولكن جم توجه إلى بروسة ، وأعلنت له الخطبة فيها ، وضربت النقود بأسمه كسلطان . وقد رفض بيازيد اقتراح جم باقتسام السلطنة وهزم جم فى موقعة ينى شهر فى عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م ، وهرب جم إلى قونية ومنها إلى طرسوس التى كانت تحت نفوذ المماليك . والتجأ جم فى السنة نفسها إلى حلب فدمشق التى دخلها فى ٢٢ جمادى الأول عام ٨٨٦هـ / ١٩ يوليو ١٤٨١م ثم سافر فى ٣ رجب / ٢٨ أغسطس متوجهًا إلى مصر حيث رحب به السلطان المملوكى قايتباى ، وقد حج جم فى تلك السنة ليعرف المسلمين ، كما يبدو يعمل لقضيته[١] وقد أخطأ قايتباى بموافقة أمراء المماليك فى مصر فى تشجيع العنصر الضعيف وهو جم ضد بيازيد الذى نجح فى تولى السلطنة بفضل الانكشارية [٢] وكبار رجال الدولة العثمانية على أساس تقدير قايتباى أن يمد يد المعونة إلى جم فى مصلحة دولة المماليك [٣].

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٤٣ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ؛ ابراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية المعروف بكتاب التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص ٧١ ؛ يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٨٦ .

(٢) انكشارى : تركية من الكلمتين – يكى yeni بالنون الخيوشمية جديد (٢) جرى cery بالجيم المشوبة بمعنى العسكر ، يكيجرى = العسكر الجديد ، ترد فى الجبرتى بصيغة الينكجرية .

جيش من المشاة ، أنشىء فى عهد أورخان (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) كانت نواته من أهل الفتوة فى الأناضول ، ثم اعتمد على أبناء نصارى البلقان بعد تتريكهم وتنشئتهم على الإسلام ، كان جنوده عزابا ، ثم سمح لهم فى عهد السلطان الأول بالزواج بشرط كبر السن ، ثم أطلق حق الزواج ، جرى هذا الجيش على سنة أرباب الحرف فى اختيار شيخ patron لكل طائفة ، وكان شيخه هو الصوفى التركى الحاج بكتاش ولى .

كان لهم عدا المشاركة فى الحروب وظائف داخلية منها حراسة الديوان الهمايونى فى أثناء الاجتماعات ، والمحافظة على الأمن فى استانبول .

خسر معظم المعارك التى خاضها طوال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، واستعصى مع ذلك كل محاولات الإصلاح ، ورفض التدريب على فنون القتال الحديثة ، وقد استطاع السلطان محمود الثانى أن يدمره هو والطريقة البكتاشية (فى الواقعة الخيرية سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٨م) (انظر ، أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٩ .

ترك الأمير جم مصر أمه ووالده ، وسار باتجاه بلاد الشام ، بعد أن ساعده السلطان قايتباى بالعتاد ضد بيازيد الثانى ، وفى ٧ ربيع الأول عام ٨٨٧ هـ / ٢٦ أبريل ١٤٨٢م خرج الأمير جم من دمشق متجهًا نحو حلب . ثم تابع سيره باتجاه الأناضول وانضم إليه أنصاره ، حيث هزم مرة أخرى ضد بيازيد فى موقعة ينى شهر فى ٢٣ جمادى الأولى / ٢ يوليو[١] ، وكان دعم السلطان قايتباى للأمير جم سببًا هامًا فى تأزم العلاقات المملوكية العثمانية ، التى انتهت بعد توتر دام ثلاث سنوات زال فى نهايتها خطر الأمير ، باصطدامات مسلحة بين الطرفين .

طلب بيازيد الثانى من أخيه جم الاستقرار فى القدس ، بعد تقديم مايحتاجه من مال ، إلا أن جم عقد اتفاقًا مع رئيس فرسان الاستبارية القديس يوحنا فى رودس ، ليساعده فى العبور إلى روميلية لمتابعة الثورة من هناك ضد بيازيد ، وقد اتصل رئيس الفرسان بالبابا إسكندر السادس طالبًا مساعدته لتأييد جم ، وذلك لإضعاف الدولة العثمانية . ولكن عقد السلطان بيازيد اتفاقًا مع رئيس الفرسان ، تنازل بيازيد بموجبه عن بعض الامتيازات لقاء احتجازهم فى رودس . وبالفعل خدع رئيس الفرسان جم بأن أعلنه بأنه سينقله بطريق فرنسا إلى هنغاريا لمتابعة الثورة منها ، ولكنه احتجزه مدة سبع سنوات بدئًا من عام ٨٧٧هـ / ١٤٨٢م . وقد توسط السلطان قايتباى وملك هنغاريا لانقاذ جم دون جدوى . ونقل جم فى عام ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م إلى روما ، وأرسل بيازيد وفداً إلى البابا لاحترام الاتفاق الذى عقده مع رئيس الفرسان . وقد حاول أيضًا ملك فرنسا نقل جم إليه ، ليساوم عليه ، ولكن جم توفى في نابلى فى عام ٩٠٠هـ / ٢٥ فبراير ١٤٩٥م[٢] ويزعم أن دس له البابا السم خوفًا من أن يهاجم بيازيد الثانى فى إيطاليا[٣] فاحضر السلطان جنازته إلى بورصة ودفن فيها .

وهكذا نرى كيف أن المساعدة التى قدمها المماليك للأمير جم قد أفسدت العلاقة بينهم وبين العثمانيين [٤]. عندئذ قرر بيازيد الثانى الانتقام من قايتباى بالتحرش ببقايا الدولة

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٤- ٣٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ إبراهيم بك حليم ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٣ ؛ يلماز أوزتونا ، المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

التيمورية فى إيران ، التى كان قايتباى قد حالفها ، ربما استشعاراً لطموح العثمانيين حيث كانت الدولة التيمورية على عداوة لهؤلاء منذ غزو تيمورلنك [١].

وبعد موت بايزيد الثانى ، تجدد النزاع بين العثمانيين والمماليك ، وحدثت حوادث متشابهة بالتجاء أحد أمراء آل عثمان إلى مصر ، بسبب النزاع على الحكم ، فقد قام بيازيد الثانى ، قبل موته بأن وزع مملكته بين أولاده ، مما أغضب ابنه سليمًا ، فتآمر سليم ضد والده معتمداً على الانكشارية ، على الخصوص وأجبره على التنازل عن السلطنة ، ودخل استنابول ، مما جعل والده يتركها إلى الكُوفةْ بالعراق الذى توفى فيها عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢م . ثم حارب سليم أخاه الأكبر أحمد الذى لحق بأبيه خوفًا منه ، ولم يسمع بأحمد بعد ذلك إذ يبدو أن سليمًا قد قتل بيده معظم إخوته بما فيهم قرقورد ، وربما دس لأبيه السم ، كما يعتقد جمهور المؤرخين وهو ظن صائب بلاشك ، حتى عرف باسم ياووز Yuvuz أى الصارم أو الجبار البطاش[٢] .

ومع ذلك فقد تمكن أبناء أحمد لمقتول من الهروب ، فقد هرب مراد إلى فارس ، أما الذين هربوا إلى مصر وهم على التوالى : سليمان وعلاء الدين ، وقاسم ، وإن كان الغورى قد استقبلهم على مضض . وقد مات سليمان وعلاء الدين بالطاعون . فأرسل سليم يطلب من الغورى تسليم قاسم ، وكان أصغرهم ، لايتعدى الثلاث عشر سنة . فرفض الغورى طلبه ، بسبب أن الغورى كان يرى أن سليمًا الذى أجترأ على ارتكاب كل هذه الجرائم ، لايتورع عن التحرش به ، خاصة وأن الأمور قد تأزمت بين الدولتين ، بسبب مدن الحدود ، أما سليم فقد وجد أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته ، وعزم على حربه حربًا شاملة[٣] .

ومع ذلك فقد تأخر حرب سليم للمماليك ، بسبب حربه فى إيران ، التى اختصت بمذهب الإمامية الشيعى ، الذى يدعو إلى سلالة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، من سلالة على بن

---

(١) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، آخر المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، ص ١٨- ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٩ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣١.

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

أبى طالب ، فعرفت بالجعفرية أيضًا ، نسبة إلى جعفر الصادق وبخاصة الإثنى عشرية ، بسبب استكمال الأئمة إلى إثنى عشر حيث آخرهم هو محمد بن الحسن المعروف بصاحب السرداب ، بسبب أنه غاب فى سرداب مسجد سامراء فى أيام المعتصم العباسى وهو الذى أصبح مهديهم المنتظر[١] بالإضافة إلى ذلك أدت سوء العلاقات ، قد أضيف إليه عنصر ثالث ألا وهو الصراع فى إمارة البستان بصورة غير مباشرة إلى ازدياد تأزم العلاقات بين المماليك والعثمانيين [٢].

٣ - قيام الإمارات التركمانية وأثر ذلك فى العلاقات بين المماليك والعثمانيين :

شهدت منطقة جنوب - شرق الأناضول - منذ معركة منزيكرت فى عام ٤٦٩هـ / ١٠٧١م تجمع قبائل تركمانية تمكن بعضها أحيانًا من تشكيل إمارات فيها ، مثل إمارة البستان ، أو دعم إمارات غازية ، مثل إمارة الدانشماند . وكان هذا الوضع ، بالإضافة إلى طبيعة المنطقة الهضبية المتوسطة ، الموقع بين سهول آسية وغربى الأناضول ، وروميلية ، البعيدة نسبيًا من سيطرة مراكز المدن الكبرى ، ومشجعًا للتركمان على اللجوء إليها[٣] .

وفى منتصف القرن الرابع عشر ، شكلت القبائل التركمانية المتجمعة فى ديار بكر ، والمناطق المجاورة لها إمارتين ، عرفت إحداهما باسم آق قيونلو أى الشاه الأبيض ، التى نشأت أساسًا فى آذربيجان أو منطقة الجبال ، موطن الإيرانيين الأوائل[٤] وكانت مناطق نفوذها ديار بكر ، وعرفت الأخرى باسم القراقيونلية أو الشاه الأسود ، وكانت مناطق نفوذها شمالى بحيرة وان Van وربما كانت التسمية نسبة لتربية الشاهين أو نسبة لتوثم خاص بهذه القبائل . وكانت هاتان الإمارتان عى نزاع مع بعضهما ، وزاد فى حدة ذلك أن إمارة الشاه الأبيض ، كانت سنية ، بينما كانت إمارة الشاه الأسود شيعية[٥] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٢ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، طومان باى آخر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٨٧، ص ١١٣ .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

كان مؤسس إمارة الشاه الأبيض قرة بولاق حسن ، وقد تغلب على أمير إمارة الشاه الأسود قرة محمد حوالى عام ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م ، كما تغلب على برهان الدين حاكم سيواس العثمانى حوالى عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧م . وبمجىء تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ، وقف إلى جواره قرة بولاق عثمان ، واشترك معه فى معركة أنقرة عام ٨١٥ هـ / ١٤٠٢م ، فكافأه تيمورلنك بإعطائه حكم منطقة ديار بكر . ولكن قره بولاق عثمان لم يستطع بعد موت تيمورلنك ، إثبات نفوذه ، فى وجه منافسيه ، أمراء الشاه الأسود ، وظل الأمر كذلك حتى وفاته فى عام ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م ، ثم تلت ذلك فترة من الصراع بين أبناء قرة بولاق عثمان إلى أن ظهر أوزون حسن (٨٧١ - ٨٨٢هـ / ١٤٦٦ - ١٤٧٨م) ورفع من شأن إمارة الشاه الأبيض[١] .

انتصر أوزون حسن فى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م على شاه جيهان ، آخر حكام الشاه الأسود، وضم إمارته إليه ، فازدادت بذلك سلطته كثيراً وامتدت نفوذه على أرمينية الكبرى ، وشمالى العراق ، وجزء من فارس ، مما أوقعه فى نزاع مع العثمانيين ، وكان هؤلاء يحاولون آنذاك ، بعد أن توطدت فتوحاتهم فى البلقان ، الاستيلاء على مابقى من الإمارات المسلمة فى الأناضول ، مما اضطر أمراء كرمان المهددين أن يتفقوا مع جارهم فى الشرق أوزون حسن . وقد أخذ العثمانيون يخشون أوزون حسن ، لأنه كأمير تركمانى سنى باستطاعته تهديد سلطاتهم المدنية والدينية فى منطقة حدودهم الجنوبية الشرقية حيث يسكن كثير من التركمان ، كما خشوا احتمال اتفاقه مع المماليك ضدهم[٢] .

حدثت عدة اصطدامات بين جيش السلطان العثمانى محمد الثانى وجيش أوزون حسن فى عامى ٨٧٧ ، ٨٧٨ هـ / ١٤٧٢ ، ١٤٧٣م ، وقد هزم العثمانيون فى موقعة قرب الفرات جيش أوزون حسن عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م . وكانت البنادق التى استخدكها الجيش العثمانى حاسمة فى القتال ضد فرسان أوزون حسن ، وفى هذا درس بليغ للمماليك . ولم يتابع السلطان العثمانى هجومه على إمارة أوزون حسن ، فسلمت ولكن هزيمة أوزون حسن كانت ضربة معنوية له ، جعلته يطلب النجدة من الدول الأوروبية وخاصة البندقية ، التى كانت تحاول

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٢) نفسه ، ص ٥٠ .

الإبقاء على نفوذها فى شرقى البحر المتوسط . ولكن السؤال لماذا يطلب النجدة من هذه الدول وليس من المماليك ؟ كان أوزون حسن بالنظر إلى موقع إمارته وإلى توسع سلطته ، يعتبر خطر بالنسبة للمماليك والعثمانيين ، على حد سواء ، وقد حاول أوزون حسن فى البدء كسب مودة المماليك ، ليتمكن من استخدام أراضيهم للوصول إلى ساحل البحر المتوسط والحصول على المعونة من الأوروبيين . ولم يكن المماليك آنذاك بحاجة إلى التحالف مع هذا الأمير الطموح لأنهم لم يكونوا واثقين من قدرته على البقاء فى الحكم ، ولأن ذلك سيدخلهم فى نزاع مع العثمانيين ، الذين كانت علاقاتهم بالمماليك طيبة آنذاك ، قبل أن تسوء بثورة جم. وفى محاولته الوصول إلى ساحل البحر المتوسط ، احتل أوزون حسن فى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧١م ، حصن جرجر على الفرات ، جنوبى شرقى ملطية من أيدى الأمراء الأكراد ، الخاضعين للمماليك، فرد هؤلاء باحتلال مدينة البيرة منه . وقد حاول المندوب العثمانى لدى المماليك أثارتهم ضد أوزون حسن ، ولكن المماليك لم يشنوا عليه حربًا كبيرة ، ربما ليبقوه شوكة فى جنب العثمانيين[١].

نشب صراع داخلى فى أسرة أوزون حسن ، إثر هزيمة فى عام ٨٧٨هـ / أغسطس ١٤٧٣م. ولم تشجع هذه الهزيمة الدول الأوروبية وخاصة البندقية على مساعدته ، فعقدت هذه الأخيرة الصلح مع الدولةالعثمانية فى عام ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م ، وقد توفى أوزون حسن فى تبريز فى رمضان عام ٨٨٢ هـ / يناير ١٤٧٨م . فخلفه ابنه يعقوب الذى حكم حتى عام ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م ، دون حدوث أزمات كبرى فى عهده . وقد حاول التقرب من المماليك ، ولم يهدد ممتلكات العثمانيين الذين شغلوا فى عهده بثورة جم ، وبالصراع مع المماليك على النفوذ فى إمارة ألبستان[٢] .

وبدأ الصراع يدب بين أبناء يعقوب ، بعد وفاته ، واستغل ذلك الصفويون الذين بدأوا بتقويض حكم إمارة الشاه الأبيض السنية ، بواسطة دعاياتهم الشيعية بين قبائل التركمان وفى عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م تغلب الشاه إسماعيل الصفوى على إمارة الشاه الأبيض فى معركة شرور ، فانتقل مركز حكم الإمارة إلى ماردين ، وساعدت فيما بعد العثمانيين ضد الصفويين ، وقتل آخر أمرائها فى حوالى ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م [٣].

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) نفسه ، ص ٥١ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

إن قيام إمارتى الشاه الأبيض والشاه الأسود فى جنوبى شرقى الأناضول ، جذب إلى هذه المنطقة كثيراً من القبائل التركمانية التى قد انتقلت فى العهد السلجوقى إلى غربى الأناضول. وزاد فى اتجاه هذه القبائل من غربى الأناضول نحو الشرق استتباب الحكم العثمانى فى الغرب بالتدريج وكره القبائل ، تبعًا لذلك ، ازدياد وطأة السلطة المركزية . وهكذا إن الفترة التى شهدت انهيار سلطة الشاه الأبيض ، شهدت أيضًا تكاثر التركمان فى شرقى الأناضول . وقد التفت غالبية هذه القبائل بالإضافة إلى القبائل المنشقة من إمارة الشاه الأبيض ، حول قوة جديدة بدأت تظهر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فى المنطقة الممتدة بين شرقى الأناضول وشمالى فارس ، وهى قوة الصفويين التى ملأت بالتدريج الفراغ السياسى الذى بدأ يشمل هذه المنطقة[1] .

وينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين اسحق (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤م) الذى أسس طريقة صوفية فى أردبيل فى أذربيجان فى أواخر القرن الثالث عشر . وحين مر تيمورلنك بأردبيل ، إثر عودته من الأناضول طلب منه الشيخ على حفيد صفى الدين أن يطلق أسرى الروم (العثمانيين) ففعل وألحقهم بخدمته . كما أغدق تيمور على الصفويين الامتيازات والنعم .

وفى الفترة بين ٨٥٢ و ٨٦١ هـ / ١٤٤٨ ، ١٤٥٦ م طرد الشيخ جنيد ، حفيد على من أردبيل ، فاتصل بأوزون حسن ، وأقام عنده ثلاث سنوات (٨٦١ - ٨٦٣ هـ / ١٤٥٦ - ١٤٥٩م) وتزوج من أخته . كما أن الشيخ جنيد أقام مع السلطان العثمانى . وفى عهد الشيخ حيدر ، ابن الشيخ جنيد ، ازدادت أتباعهما وبسبب ازدياد قوتها عسكريًا ، فظلوا لما التفف من حولها من تركمان ، وقد اتصل الشيخ حيدر ، كما فعل والده من قبله ، بأوزون حسن ، وتزوج ابنته ، ولكنه قتل ، كما قتل والده من قبله ، فى حربه مع حاكم شروان ، شمالى آذربيجان فى عام ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨م . وبعد أن تنبه الصفويون إلى إمكانية التوسع فى غربى أردبيل ، أى فى شرقى الأناضول وشمالى فارس ، أتاح لهم ضعف إمارة الشاه الأبيض إثر وفاة أوزون حسن الفرصة لتأسيس دولتهم فى هذه المنطقة [2].

يعتبر الشاه إسماعيل بن حيدر ، وهو سادس شخص ينحدر من صفى الدين ، المؤسس الفعلى للدولة الصفوية . وقد توصل إلى زعامة الصفويين فى عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م متخذاً

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٣ .

تبريز عاصمة لهم ، كما ضم أجزاء من الأناضول المجاورة للدولة العثمانية ، وحتى أجزاء من بقايا الدولة التيمورية ، التى قامت فى بلاد ماوراء النهر ، وهزم قبائل السنية التى استقرت مكانها . وأكثر من ذلك أن الشاه إسماعيل الصفوى ضم أجزاء كثيرة من بلاد العرب مثل بلاد الجزيرة والعراق حتى أصبح يعرف بملك العراقين[١] إثر صراع على السلطة مع أخوته وسجل فى العام التالى نصراً عسكريًا على إمارة الشاه الأبيض ، مما أخاف المماليك ، فأخذوا يستعدون لقتاله . ويذكر أن إسماعيل الصفوى قد اعتمد على سبع قبائل تركمانية أسس منها جيشًا بلغ عدد أفراده سبعة آلاف دعوا بالقزلباش[٢] . وفى عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م احتل إسماعيل شروان وآذربيجان ، وقسمًا كبيراً من العراق ، واتخذ لقب شاه أى ملك وبذلك أصبح الحاكم الصفوى يتمتع بسلطة سياسية بالإضافة إلى السلطة الدينية فهو كحاكم سياسى كان يلقب شاها ، وكزعيم روحى فى النظام الصوفى الشيعى كان يلقب بالمرشد الأكبر[٣] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١١٤ .

(٢) القزلباش : اسم أطلقه العثمانيون على تسع قبائل من التركمان كانت تلبس قلانس حمراء على الرؤوس . وهى روملو وشاملو واستاجلوا وبه لو وذو القادر وأفشار وقاجار وورساق وصوفية قرا باغ . والكلمة عبارة عن لفظين تركين الأول تزل) ومعناه أحمر اللون والثانى (باش) ومعناه رأس ومعنى الاصطلاح (أصحاب الرؤوس الحمراء) .

استطاع الشيخ صفى الدين الأردبيلى وأولاده من بعده – بزعامتهم لجماعة المتصوفة والدراويش – جذب الكثير من المريدين ليس فى إيران فحسب بل فى الولايات العثمانية من آسيا الصغرى والشام والعراق العربى بتأثير دعاياتهم القوية . وكان التصوف قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الإيرانى فى ذلك الوقت .

وقد تحولت فرقة الدراويش التى يتزعمها الشيخ صفى الدين إلى مركز مذهبى لبث الدعوة الشيعية . وكان لممارسة شيوخ الأسرة الصفوية للناحيتين الدينية والعسكرية معًا الأثر الكبير فى إبراز قدرتهم ونفوذهم . وقد مهد لشيخ صفى الدين وأبناء جنيد المناخ لخليفتهم إسماعيل الصفوى الذى أعلن قيام الدولة مستفيداً من مركزه الروحى والمعنوى ومستخدمًا أفراد القزلباش الذين لايهدفون إلى شىء سوى التضحية فى سبيل نصرة شيخهم ومرشدهم الكامل . ولايستطيع دارس للعصر الصفوى أن يتجاهل دور هذه القبائل فى إيجاد الكيان الصفوى .

وتطلق الوثائق العثمانية والعربية التى كتبها العثمانيون والمماليك فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) على إسماعيل الصفوى لقب الصوفى وعلى القزلباش لقب الصوفية ، وتصفهم بصفات مختلفة ، منها (الصوفية الملاحدة) (القزلباش) والطائفة المخذولة الأوباش و (الأوباش القزلباش الملاعين) و (طائفة الملاحدة الملاعين) دمرها الله . (انظر : أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٤٣) .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ٥٣ ، يلماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

قاد الشاه إسماعيل الصفوى الأول فى عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م حملة كبيرة ضد علاء الدولة حاكم ألبستان وتغلب عليه . وبذلك وصل الصفويون إلى جانب المماليك والعثمانيين ، ميدان الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان ، وحلوا فى هذا المكان مكان إمارة الشاه الأبيض . وعلى غرار أوزون حسن ، حاكم هذه الإمارة السابق ، حاول الشاه الاتصال بالفرنجة فى محاولة لإيجاد حلفاء . وقد توسعت ممتلكات الشاه إسماعيل فى عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م ، فأصبحت تمتد من هراة فى الشرق إلى بغداد وديار بكر فى الغرب ، وجعل مركز حكمه مدينة تبريز ، كما جعل المذهب الشيعى مذهب الدولة الرسمى ، وأخذ ينشره خارج حدوده ، مما أثار جيرانه السنيين . خانات بخارى والسلاطين العثمانيين . أما المماليك وهم سنيون أيضًا ، فكانوا بسبب ضعفهم ، ومنافسة العثمانيين لهم ، يحاولون التفاهم مع الصفويين(١) .

تغلب الشاه إسماعيل على شيبانى حاكم تركستان فى معركة قرب مرو فى عام ٩١٦ هـ / ١٥١٠م ، وأمن بذلك لفترة ، حدود فى الشرق ، ولكن نزاعه مع العثمانيين لم يكن يمثل تلك السهولة فالصفويين كقوة ناشئة ، كانوا يعتبرون بالنسبة للعثمانيين ، خطراً جديداً بتهديدهم وزاد فى الأمر أن الصفويين ، كشيعة متحمسين أثاروا نقمة العثمانيين(٢) . فقد كان يسكن مقاطعات الأناضول الشرقية ، الواقعة ضمن الدولة العثمانية كثير من القبائل تتجاوب مع دعوة الشاه الشيعية ، لأنها اعتبرته تركمانيًا مثلها ، وقامت فى عام ٩١٦هـ / ١٥١٠ - ١٥١١م حركة بين تركمان الأناضول بقيادة رجل يدعى شيطان قولى (وتعنى عبد الشيطان ، وربما سمى بذلك من قبل أعدائه لشره) الذى أعلن ولاءه للشاه إسماعيل ، والتفت من حوله جموع من التركمان ، مما اضطر العثمانيين إلى إرسال قوة قضت على حركته . وكانت هذه الحركة إنذاراً للعثمانيين بالخطر الذى يمثله الشاه إسماعيل بالنسبة لسكان الإمبراطورية العثمانية بالذات (٣).

أدت العوامل السابقة إلى تأزم العلاقات بين الصفويين والعثمانيين ، وزاد فى ذلك وصول السلطان سليم الأول العثمانى إلى الحكم فى عام ٩١٨هـ / ١٥١٢م . فقد تعرَّض السلطان سليم فى أول عهده إلى ثورة عليه من قبل إخوته الطامعين فى الحكم ، والتجأ ابن أخيه أحمد

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) مرعى بن يوسف الحنبلى ، نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، ص ٥٤.

(٣) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٦ .

الثائر إلى الشاه إسماعيل الذى استغل وجوده لتأليب المعارضة على السلطان سليم . وبعد أن وطد سليم سلطته فى الحكم عام ٩١٩ هـ / ١٥١٣م التفت إلى مقارعة الشاه إسماعيل الذى بدأ بدوره يستعد للدفاع . وكان السلطان سليم قد عقد ، أو ربما اتفاق مع الدول الأوروبية ، لإقامة السلم على حدوده فى الغرب ، وذلك ليتفرغ لقتال الصفويين ، ونتج عن استعدادات العثمانيين والصفويين أن اشتبكت جيوشهما فى القتال فى موقعة جالديران قرب تبريز فى عام ٩٢٠هـ / ٢٣ أغسطس عام ١٥١٤م وانتصرت قوات السلطان سليم على قوات الشاه إسماعيل . وقد أظهرت هذه الموقعة فعالية بنادق الرصاص والمدفعية التى استخدمها الانكشارية المشاة العثمانيون ، على نطاق واسع ضد قوى الصفويين المؤلفة بغالبيتها من التركمان الفرسان ، وتمكن العثمانيون من احتلال تبريز ، عاصمة الصفويين ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء نهائيًا علي الصفويين أو على الشاه إسماعيل لأسباب كثيرة ، أهمها طبيعة بلاد فارس الجبلية ، وصعوبة المواصلات فيها ، وتمرد الانكشارية فى جيش السلطان سليم ، وكثرة الغلاء والقحط فى المنطقة بسبب سياسة الأرض المحروقة التى اتبعها الشاه إسماعيل بعد انسحابه ، إذ أتلف كل مايمكن أن يفيد منه العدو[١] وأيضًا بسبب ماذكر من تعرض المماليك لقوافل المؤن العثمانية[٢] وقد احتل العثمانيون نتيجة معركة جالديران ، منطقة الموصل ، ولكن منطقتى بغداد والبصرة بقيتا فى هذه الأثناء فى أيدى الصفويين إلى أن ضمها السلطان سليمان القانونى فى الربع الثانى من القرن السادس عشر ، وقد حاول الشاه إسماعيل أثر هزيمته فى جالديران التحالف مع الدول الأوروبية ضد العثمانيين ، ولكن بعد المسافة ، وعدم وجود حدود مشتركة لم تجعل ذلك ممكنًا[٣] .

أظهرت هزيمة جالديران ، بالنسبة للصفويين ، ضعف الأسس التى كان يقوم عليها جيشهم. فالشاه إسماعيل الصفوى كان يعتبر فى النظام الصوفى المرشد الكامل ، والمظهر الحى المتوارث للإله ، ودعى أتباعه من القزلباش المريدين . ولكن انكسار الشاه إسماعيل فى جالديران ، وهو أول انكسار له حطم أسطورة عدم غلبته . ورغم أن القزلباش ظلوا يعترفون ظاهريًا بهذه الأسطورة إلا أنهم لم يعودوا يقدمون عمليًا طاعة عمياء للحاكم . وبتحطم

---

(١) مرعى الحنبلى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٥ – ٥٦ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٥ – ٥٦ .

الرابطة الدينية بين إسماعيل وأتباعه ، تشجع هؤلاء على التمرد عليه . واحتاج الشاه بعد ذلك إلى مقدرة كبيرة لإخضاع جنوده لأوامره ، وعوضًا عن أن يأمر فيطاع ، أصبح يبتهل إلى مشاعر أتباعه وولائهم بمخاطبتهم بتعبير شاهي سيفان أي الذين يحبون الشاه . وأخذ ولاء القزلباش يتحول من الشاه نحو القبيلة وزعيمها . وينعكس أثر هذا التبديل في الولاء وفي العلاقة بين الصوفيين ومرشدهم ، في انحطاط تعبير (صوفي) إذا ماقورن بتعبير (قزلباش) فتعبير صوفي فقد كثيراً من قيمته على مر الزمن ، حتى أنه أطلق في عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م على الكناسين خارج القصر الملكي[١] .

وبعد أن ضعف ولاء القبائل التركمانية ، نحو الشاه أخذ يحاول توطيد سلطته في وجه معارضتهم . وبدأت عملية التوطيد هذه بعد وفاة الشاه إسماعيل في عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م، في عهد ابنه طهماسب الذي طرد أفراد القبائل المتمردة من الجيش . وبلغت هذه العملية أوجها في عهد الشاه إسماعيل عباس الأول (٩٩٦ - ١٠٣٩هـ / ١٥٨٧ - ١٦٢٩م) الذي أنقص عدد جنود القبائل ، وأوجد إلى جانبهم جنوداً من نوع آخر مزودين بالأسلحة النارية ويدينون بالولاء للحكومة المركزية مثل الجنود الإنكشارية في الدولة العثمانية . وكان يؤتى بالقسم الأكبر من هؤلاء الجنود الجدد من جورجيا والقفقاس ويدربون في مدارس خاصة . واستعادت بذلك الدولة الصفوية كثيراً من هيبتها العسكرية ، وتوالت اصطدامها مع الدولة العثمانية[٢].

ثانيًا : الفتح العثماني للشام ومصر :

وكان موقف المماليك من هذا الصراع بين العثمانيين والصفويين ، موقف المترقب الذي ينتظر دوره ، إذ تيقن المماليك من طموح العثمانيين إلى الفتح في الشرق الإسلامي أيضًا ، ولو لجأوا إلى محاربة المسلمين ، مثلما يحاربون الفرنجة ، خصوصًا وأن سليمًا كان قد أرسل إلى السلطان قانصوه الغوري يتهدده أن تدخل في النزاع بينه وبين الشاه إسماعيل الصفوي[٣].

---

(١) مرعي الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ص ٣٣٦ .

وعلى كل حال أدرك الغورى أن قصد سليم من تحركه إلى الشرق لم يكن محاربة الصفويين، بقدر محاربته هو ، بدليل أن السلطان سليم لم يسر فى هزيمة الصفويين للنهاية ، وربما أيضًا بسبب أن بلاد الصفوى واسعة وجبلية أو حتى خوفًا من أن يهاجمه المماليك فى الوقت نفسه[١] ومع ذلك كان سليم فى وقت محاربته للصفوى يتحرش بالغورى ، بحجة أنه ينحاز إلى جانب الشيعة ضده[٢] واعتبر ذلك تحديًا له . وفى الوقت نفسه الذى أرسل فيه سليم إلى الغورى رسالة يصفه فيه بالوالد[٣] وذلك على حسب التقليد الذى جرى عليه سلاطين العثمانيين فى مكاتباتهم لسلاطين مصر ، ويطلب فيها سكراً وحلوى[٤] حيث أسرع الغورى بإرسال مائة قنطار[٥] منها فى علب كبار ، فإنه أخذ يهاجم الإمارات التركمانية الحليفة للغورى على الحدود ، التى تقع بين العثمانيين والصفويين والمماليك ، وتعتبر لهؤلاء منافذ للتجارة القادمة من الشرق[٦] وبعد انتصار سليم على الصفويين قضى على إمارة ذى القادر[٧] التى تقع فى وديان طوروس ، حليفة الغورى ، كما استولى على بعض مدن الحدود المصرية مثل مرعش التى كان نائب الغورى عليها ، وهو علاء الدين الذى ساعد الشاه إسماعيل من قبل ضد سليم ، وأصبحت حدود سليم ملاصقة لحدود مصر[٨] .

ويبدو أن إرادة قتال العثمانيين المماليك أصبحت أمراً مسلمًا به لديهم ، بسبب أن المماليك كانوا يسيطرون على الحرمين الشريفين ، وأن العقلية الإسلامية وقتذاك لاتقبل أن يكون صاحب سيادة وشرعية على المسلمين ، إلا من كان يسيطر على الحرمين الشريفين . ولما كان

---

(١) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٧١ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٧ ؛ إبراهيم بك حليم ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٣) محمد بن إياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٣٤ .

(٤) نفسه ، جـ ٤ ، ص ٤٣٥ .

(٥) قنطار : وحدة من وحدات الوزن ، وكان حجمه يختلف تبعًا للزمان ، كذلك المكان الذى يستخدم فيه عملية الوزن ، وفى أواخر العصر المملوكى كان يتراوح وزن القنطار مابين ٤٥ ، ٩٦ كيلو جرام ، وفى سنة ١٦٦٥م وصل وزنه إلى ١٢٠ كليوجرام . (انظر : سميرة فهمى ، إمارة الحج فى مصر العثمانية ، ص١٢٠).

(٦) إبراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٧٧ .

(٧) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ٣٤٢– ٣٤٥ .

٨ – عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٨ .

العثمانيون يريدون أن تكون لهم زعامة المسلمين دون المماليك : فإنهم لم يتهيأ لهم هذه الزعامة إلا بالاستيلاء على أملاك المماليك في الحرمين الشريفين ، ومن قبل فإن سليمًا قد أرسل إلى شريف مكة بركات هدايا منها مفتاح وطبلة للكعبة ، وذلك دون استئذان الغورى الذى غضب على شريف مكة[(١)] .

ويؤيد الطموح العثمانى تلك الأقوال التي نقلت عن سليم ومن حوله[(٢)] قبل فتح مصر ، فقد وجه الصدر الأعظم العثمانى ، هرسك زاده أحمد باشا ، أخبره بقوة المماليك عندما أسر . وحذره من ذلك كذلك ورد على لسان آخر فى حاشية سليم قوله " ... إن ولاية الحرمين وقيام الخلافة ، سيؤولان إلى أسرة العثمانيين ، وحتى شيخ الإسلام زنبللى على أفندى[(٣)] قد إفتى بشرعية التحرك إلى مصر وشن حرب عليها ، فقال " الحرب ولقتال مع أهلها غزو وجهاد ... والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد "[(٤)] .

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٢٤- ١٢٥ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٣٩ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) أفندى : من الكلمة اليونانية (أفنديس) المأخوذة من الكلمة اليونانية Avbents دخلت اللغة العثمانية الأناضولية في وقت مبكر . واستعملها العثمانيون فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فى الحديث عن ملكة خاتون بنت جلال الدين الرومى بقول الأفلاكى (أفندك يرمك قيرى) أى بنت أفندينا أى سيدنا ، وكثر استعمالها بعد ذلك فى العهد العثمانى ، وقد استعملها محمد الفاتح فى فرمانه الموجه لأهل غلطة ، حيث قال جمله بمعنى أنا السيد العظيم ، واستعملها العثمانيون لقبًا للرجل الذى يقرأ ويكتب ولقبًا لبعض كبار الموظفين ، فقد كان يقال لرئيس الكتاب «رئيس أفندى» ولقاضى استانبول « استانبول أفنديسى » أى أفندى استانبول . وكانت لقبًا للأمراء أولاد السلاطين ، وأطلقت على مشايخ الإسلام ، وكثيراً ماتقول (العلا أبو السعود أفندى ، وكان العثمانيون يطلقونها على روساء الديانات الأخرى ، وكان الجيش العثمانى يلقب الضباط بلقب أفندى حتى رتبة البكباشى ، فأما الملازمون واليوزباشية (والآلية العلالية) أى المتخرجون فى الالاى ، وهم الذين يقال لهم فى مصر من تحت السلاح ، فقد كانوا لأميتهم يلقبون أغا لا بلقب أفندى وكانت المرأة تلقب بلقب أفندى . فيقال (خانم أفندى) وكان يقال لزوجة السلطان (قادين أفندى) وربما الحقت كلمة أفندى بكلمة بك . وكانت كلمة أفندى تطلق فى العربية على الكاتب الموظف فى الدولة ، وكان الروزنامجى فى مصر هو رئيس الأفندية (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ص ٢٠) .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٤٤ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

غادر قانصوه الغورى مصر ، باتجاه الشام ، فى ١٥ ربيع الثانى عام ٩٢٢هـ / ١٨ مايو ١٥١٦م على رأس جيش كبير ضم حوالى خمسة آلاف من القرانصة[١] والأجـــلاب وأولاد الناس ، عدا عن السيفية ، وعين طومان باى نائبًا عنه[٢] واصطحب معه الخليفة العباسى المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المستمسك بالله الذى كان مقيمًا فى مصر يتحكم به سلاطينها ويستخدمون نفوذه الدينى لأغراضهم ، وأهل العلم جيمعًا فى مصر وقضاة القضاة والمتصوفة وغيرهم [٣] وكان هدف الغورى استعادة مرعش من العثمانيين وتخليص ألبستان من نفوذهم [٤]ودخل الغورى دمشق فى ١٨ جمادي الأول عام ٩٢٢ هـ / ١٩ يونيو ١٥١٦م. واستقبل فى دمشق استقبالاً رسميًا حافلاً ، برز فيه كبار الإداريين المماليك والقضاء والعلماء الفرنجة المستأمنون فى دمشق . ونثر صدقة اليهودى الدراهم[٥] على الأهالى بهذه المناسبة للتعبير عن ولائهم ولكسب رضى السلطان ، وربما لاستثارة الشعب للترحيب به وفى يوم

---

(١) القرانصة : هم مماليك السلاطين السابقين فهم مماليك تابعين لسلطان حاكم ، وكانوا قبلاً أجلاب السلاطين السابقين وسموا قرانص أو قرانصة وتألف هؤلاء من طوائف مختلفة ، وكانت كل منها تتبع سلطانًا. ونظراً لكثرة عدد السلاطين بسبب قصر مدد حكمهم ، خاصة فى عهد المماليك الجراكسة ، ازداد عدد هذه الوظائف ، وازدادت بالتالى المنافسة بينهم . وكان هذا عامل إضعاف لهم أجلاب السلطان الحاكم المؤلفين من طبقة متراصة متجانسة واستغل السلطان الحاكم المؤلفين من طبقة متراصة متجانسة . واستغل الحاكم كثرة طوائف القرانصة لضرب طائفة بالأخرى . والرابطة الوحيدة التى كانت تجمع بين القرانصة هى كرههم للأجلاب الذين هم عادة أصغر منهم سنًا وأقل خبرة ويحاولون مع ذلك أن يطغوا بنفوذهم عليهم (انظر ، عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٦) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٤٤ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٩ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ص ٤٧ .

(٥) الدرهم : وحدة من وحدات السكة الإسلامية الفضية ، وهو مشتق من اسم الدراخمة اليونانية ، وقد استعاره العرب فى المعاملات من الفرس إذ كانت الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامى تتعامل بالدرهم الفضية عند الفتح العربى لها . ويزن الدرهم ١٥ قيراطًا . والقيراط أربع حبات والحبة واحدة . الحب وتعنى بذور الشعير ، ويبلغ وزن الشرعة سبعة أعشار الدينار أى ٢,٩٧ جرامًا . ولازالت بعض البلاد العربية تستعمل الدراهم كعملة أساسية إلى اليوم ، وإن كانت غير فضية . (انظر ، سميرة فهمى ، المرجع السابق ، ص ٨٢) .

الأربعاء ٢٤ جمادى الأولى ٩٢٢ هـ / ٢٥ يوليو ١٥١٦م غادر الغورى دمشق متجهًا نحو حلب ، وانضم إليه فى القطفة نائب حلب خاير بك ، ونائب حماة جان بردى الغزالى [١].

ولم يستمع الغورى لنصيحة نائبه فى الشام سيباى[٢] الذى كان يتمتع باحترام وتقدير أهل الشام ، بأن لايأتى لمحاربة سليم بنفسه ، وإنما يمده بالعسكر[٣] واستحلفه ألا يحارب فى هذا العام لوجود قحط فى البلاد[٤] وعلى العكس فإن الغورى كان يتخوف من سيباى ، ويظن بأنه يسعى أن يحل محله ، ويسأل رجال الطالع ، فيقولون له أن من يتولى السلطنة من بعده يبدأ اسمه بحرف سين[٥] فيظن له أن هو سيباى فى الشام ، وربما قد أتى هذا الخوف من سيباى ، من أن نواب الشام كثيراً ماكانوا يثورون ضد سلاطينهم وأحيانًا يتولون السلطنة من دونهم[٦] .

كذلك كان المماليك الذين اصطحبوه إلى الشام فى نزاع فيما بينهم مماليك الجلبان[٧] أى الذين اشتراهم السلطان لنفسه ، وجلبهم من خارج مصر وبلغ عددهم فى عهد السلطان الغورى ١٣ ألفـــا[٨] أصبحوا يعادون مماليك السلاطين السابقين قبله ، والذين عرفوا بالمماليك السلطانية أو القرانص أو القرانصة أو القرانيص ، ولعل أساس النزاع بن الفريقين قد أتى من تقريب الغورى لمماليكه الجلبان على حساب الآخرين[٩] فكان يترتب على تنازعهم حدوث فوضى وفتن فى البلاد ، حتى قيل أنه قبل سيره إلى الشام ، وكان قد قتل أحد جلبانه ، فاتهم به القرانصة[١٠] وربما كان تحت تحريض الجلبان من مماليكه ، فإنه ترك كثيراً من القرانصة فى مصر [١١] .

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٠.

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٥٢ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٥) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٦) نفسه ، ص ٣٥١ .

(٧) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٨) نفسه ، ص ٣٥١ .

(٩) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(١٠) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٥٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص ٣٤١ .

(١١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٣ .

ومما يؤكد أن الغورى قد أخذ حرب سليم بخفة ، من أن خروجه إلى الشام سمى فقط تجريدة[١] وليس حملة وأنه خرج فى موكب تتقدمه الأفيال تفوح منها رائحة البخور ، وحتى صحبته المغانى[٢] كما أخذ معه آلات السلاح الفاخر ، المستعملة فى المواكب الرسمية من ذخائر السلاطين السابقين ، مثل السيوف والسروج المذهبة والمزينة بالجواهر ، وحملت على خمسين جملاً[٣] .

وظن الغورى أن مجرد ظهوره على الحدود الشمالية من سلطنة سيخيف سليم فيتنازل له عما يريد . وكان الغورى فى الوقت ذاته يفاوض الشاه إسماعيل الصفوى ليتحالف معه ضد العثمانيين . ولكن وقوع مراسلات الغورى مع الشاه إسماعيل فى أيدى العثمانيين ، جعل سليمًا يتعجل الأمر للقضاء على جيش المماليك . ولهذا استولى سليم عنتاب واستعد للمسير نحو حلب للقاء الغورى ، فقد قصد فعلاً من مجيئه إلى بلاد الشام مجرد إخافة العثمانيين ودفعهم للتنازل له عما يطلب ، فيكون ، إزاء ماحدث قد أساء التقدير ، لأنه بعمله هذا استثار العثمانيين ودفعهم إلى القتال[٤].

وقد أسرع الغورى فور وصوله إلى حلب بإرساله الأمير مغلباى إلى سليم ، ومعه نص الصلح ، كما أن خطبة إمام جامع حلب كانت كلها عن الصلح ، وحتى الأمراء المماليك ينتظرون الجواب بالصلح ، ويحنون العودة إلى الوطن[٥] إلا أن سليمًا رفض الصلح وقبض على رسول الغورى[٦] ووضعه فى الحديد ، وحلق لحيته[٧] وربما أرسل إليه الغورى آخرين ، فقطع سليم رؤوسهم[٨] ، مما جعل الغورى يدفع بطوالع جنده إلى مرج دابق[٩] من مدن الحدود ،

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٥٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٢ .

(٣) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٥٣ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٥) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص ٣٤٣ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

(٧) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

(٨) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٩) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

قرب حلب ، وقال إنها إرادة الله . وخوفًا من غدر أمرائه فإنه جمعهم وجعلهم يقسمون على المصحف الشريف أن لايخونوه ولايغدروا ، فأقسم كلهم على ذلك ، أما غير الأمراء من الجند، فإنهم مروا تحت سيفين على هيئة قنطرة ، عنوان القسم على الولاء [١].

ولقد قسم الغورى عسكره ، بإزاء عسكر سليم ، فوضع فى المقدمة سيباى نائب الشام ، وميمنة على رأسها جان بردى الغزالى نائب حماة ، وميسرة على رأسها خاير بك نائب حلب ، أما هو فقد أقام لنفسه فى الوسط سرادقًا كبيراً ، وقد أحاط به الخليفة وقضاة القضاة ، وأعلام رجال الصوفية ، وقاسم بك ابن أخ سليم وغيرهم ، وحولهم أربعون مصحفًا منها مصحف الصحابى الخليفة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، الذى قتل وهو يقرأ القرآن . وقد طلب الغورى من القراء قراءة الختمة[٢] وقرأها معهم ، كما أكثر من الصلاة ، وعلى الرغم من أن سيباى قد شك أن خاير بك يتراسل مع سليم وأراد قتله ، إلا أن الغورى لم يستمع له ، خوفًا من أن يقتتل المماليك فيما بينهم[٣] .

واصطدم الجيشان المملوكى والعثمانى فى ٢٥ رجب عام ٩٢٢هـ / ٢٤ أغسطس ١٥١٦م، فى موضع يعرف بتل الفار فى مرج دابق ، وإن أحاطت بها الخيانة منذ بدايتها . فقد سرت إشاعة مغرضة بأن الغورى يريد أن يتخلص من القرانصة ، وأنه طلب من الجلبان وهم مماليكه ألا يقاتلوا ، مما جعل لقرانصة الذين كانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتال[٤] ، مما ترتب عليه الهزيمة الكاملة وفرار المماليك بجميع فئاتهم ، وكان خاير بك أول من هرب من الأمراء[٥] وتبعه جان بردى الغزالى فلعلهما كانا متفقين في الباطن مع سليم[٦] حيث كان كلاهما يرى فى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغورى ، ومع ذلك لم يكن تصرفهما جديداً على الأمراء

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٦٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٣.

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٤ .

(٣) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٦٤ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٥) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٩ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

المماليك الذين تعودوا على خيانة سلطانهم[١] هذا كان الحال بالنسبة للمماليك أما الجيش العثمانى بالمقابل ، يتمتع بكثير من التنظيم إذ أن الفساد لم يدب بعد بشكل كبير فى صفوف الأنكشارية ، فكانوا عنصراً فعالاً فى القتال ، وأحسنوا استخدام الأسلحة النارية . وكانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها تخرج من نصر إلى آخر . وكان انتصار قواتها قبل فترة وجيزة وفى منطقة قريبة فى جالديران عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م ثبطًا لهمة المماليك بقدر ماكان مشجعًا للعثمانيين على القتال [٢].

وقد حاول الغورى أن يوقف فرار المماليك – خاصة من الجلبان – حيث أصبح فى نفر قليل، وكان ينادى بصوته[٣] هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة ، إلا أن المماليك استمروا يفرون ، حينئذ طوى حامل راية السلطان الصنجق السلطانى رايته ، وحدث شلل مفاجيء للسلطان وفاضت روحه ، بعد أن انقلب عن فرسه ، وأن يبدو أن رأسه قد قطعت ، حتى لايتعرف عليه العثمانيون فلم تظهر له جثة بين القتلى[٤] وكأن الأرض ابتلعتها فى الحال إذ كانت جثث كثيرة ملقاه بلا رؤوس ، فقد قتل كثير من أمراء الشام ومصر فوق الأربعين منهم سيباى نائب الشام [٥].

حينئذ أستولى سليم على خيام الغورى ، وأستولى على ما فيها من أسلحة ، وخاصة سيفه، ومال وتحف واحتوى على خيام الأمراء ، بحيث لم يقع لأحد من سلاطين العثمانيين مثل ذلك ، كما أنه أخذ الخليفة وعدداً كبيراً من الأسرى[٦] .

عاد الغزالى إلى دمشق يوم الثلاثاء فى ٥ شعبان عام ٩٢٢هـ/٣سبتمبر ١٥١٦م ، ونادى به الأمراء المماليك نائبًا عليها ، أما السلطان سليم فتابع سيره إلى حلب ، يرافقه خاير بك ،

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ٣٤٤ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧٠ – ٧١ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٠ – ٣١ .

(٣) نفسه ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٤) نفسه ، ص ٢٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٥) نفسه ، ص ٢٩ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧١ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٥ .

فخلع زى المماليك ، ويرغبهم فى الدخول تحت طاعة سليم ، ويعدهم بأن يبقى كل أمير فى منطقته ويحفظ له رزقه[١] بحيث سماه سليم " خاين بك " بدلاً من خاير بك وبذلك أشبه الوزير ابن العلقمى ، الذى خان خليفته المستعصم آخر خلفاء العباسيين فى العراق وملك بغداد[٢]. والخليفة العباسى ودخلها بقبول أهلها الذين طردوا عساكر المماليك الهاربين حين حاولوا اللجوء إليها ، وذلك بسبب ماقاسوا منهم قبل المعركة ، وخطب للسلطان سليم فى جوامع حلب فى يوم الجمعة ٨ شعبان ، ولقب بخادم الحرمين الشريفين ، وقد أستولى على أموال المماليك فيها ، وأحسن إلى العلماء . وبعد أن عين حاكمًا عثمانيًا عليها ، توجه للاستيلاء على دمشق[٣] .

وعين الغزالى الذى ظل يؤيد فى الظاهرة ، السلطنة المملوكية حكامًا من قبله على حماة وحمص ، وتحالف مع ناصر الدين بن الحنش ، الأمير البدوى المسيطر عى البقاع ، وعينه حسب طلبه نائبًا على حمص ، لقاء تعهده بمقاومة العثمانيين وحماية المنطقة الممتدة بين حماة والبقاع . كما عين صهر ابن الحنش ، ابن جانباى البدوى الملقب بأمير الشام ، على بلاد حوران والمرج . إلا أن أخبار تقدم السلطان العثمانى جعلت حاكمى حماة وحمص يفران إلى دمشق . وأخذ المماليك ومن بينهم الغزالى يخرجون منها باتجاه مصر . وتسلم نائب القلعة المملوكى المحافظة على الأمن فى دمشق . وقد استغل الذعر فى المدينة اضطراب الوضع السياسى ، وقاموا بهجمات المماليك وحصل نزاع بين أهل المزة وداريا الذين استفادوا من الفوضى لتصفية خلافات قديمة [٤].

أرسل السلطان سليم الرسل إلى دمشق يطلب تسليمها ، فاجتمع العلماء ومشايخ الحارات، وقرروا تسليم البلد . ولكن نائب القلعة المملوكى عارض ذلك واعتصم بالقلعة . وكان هدف العلماء ومشايخ الحارات الذين ألقيت عليهم القبض المسؤولية، حماية البلد من النهب، وخاصة وأن حكم المماليك وتعدى الجند على الأهالى،لم يكن فيه ما يجعلهم يدافعون

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٧١ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٠ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

عنه ، بعد أن فشل المماليك عسكريًا . وساعد على ذلك أن عرب الشام لما تحققوا من موت السلطان الغورى ، وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشام ، واضطربت أحواله[١] وحتى دمشق التى قد بدأت المقاومة على يد ابن الحنش[٢] أمير العربان إلا أن أحوال دمشق كانت قد فسدت بعد مقتل سيباى نائب الشام ، بحيث نهبت أسواقها واضطر أهلها إلى الخروج منها ، فقتل العثمانيون لما دخلوها عدداً كبيراً من أمرائها المماليك ، ومن كانوا قد لجأوا إليها غير الرعية[٣] . وفى يوم الجمعة ٢٩ شعبان / ٢٧ سبتمبر دخل فريق من العثمانيين إلى دمشق ضم المتسلم ، وخاير بك . وقدم بعد ذلك الوالى العثمانى يونس باشا المعين لدمشق . وقد وفق خاير بك بين الوالى ونائبه فى القلعة ، ريثما يصل السلطان العثمانى . وخطب فى ذلك اليوم فى الجامع الأموى اسم السلطان سليم وأخذ الجنود العثمانيون يتوافدون على دمشق . كما وصل إليها ، القاضى الحنفى زين العابدين بن الغزى الرومى فتعاطى الحسبة[٤] فيها ، وعين من قبله قضاة من المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية، وأدخل بعض التنظيمات القضائية[٥].

وصل السلطان سليم فى رمضان عام ٩٢٢ هـ / ٢٩ سبتمبر ١٥١٦م إلى برزة فى ظاهرة دمشق ، فقدم له قضاة المذاهب الأربعة والسيد كمال الدين بن حمزة ومعه جماعة من الأشراف[٦] خضوعهم ، وكذلك فعل نائب القلعة المملوكى . وكان مع السلطان سليم الخليفة

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٠ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧١ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧٤ .

(٤) أمين الاحتساب : وصحته أمين الحسبة ، وهو الشخص المسئول عن الإشراف على طوائف الحرف القائمة على صنع المأكولات ، للتأكد من صحتها وخلوها من الغش ، ومراقبة الأوزان والمقاييس والمكاييل ومعرفة الأسعار ، ومعاقبة كل مخالف لها ، والتشهير به . (انظر : محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٠) .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ١٠٢ .

(٦) الأشراف : كلمة أشراف تعنى أولئك الذين هم من نسل سيدنا محمد (ﷺ) ، سواء إن كان ذلك عن طريق إنحدارهم من الأب أو الأم ، ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين ، وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح ، وقد تمتع الأشراف باحترام خاص بين جموع الناس ، وشكلوا جماعة منفصلة ، وكان يطلق على =

العباسى ، وقد هرع ناصر الدين بن الحنش أمير البقاع فقدم الطاعة للسلطان سليم فمنحه صنجقًا وبعض الإقطاعات والتزام ابن الحنش بأن يقدم البدو ولاءهم للسلطان العثمانى[١] .

وأدخل الإداريون العثمانيون فى دمشق تنظيمات جديدة فيما يختص بالقضاء والعلماء والشئون المالية . وطلب القاضى الحنفى العثمانى من أرباب الوظائف الدينية إحضار مستنداتهم للموافقة عليهما من قبله ومن قبل قاضى العسكر [٢]العثمانى ، وكانوا يدفعون رسمًا لقاء ذلك . وبدأ الدفتردار[٣] العثمانى بتسجيل الدخل والمنصرف ، وطلب إحضار المربعات والمناشير التى منحت بموجبها الإقطاعات ، فى السابق ، لينظر فيها ، كما أجرى إحصاء للسكان ، والممتلكات فى دمشق . حدث كل هذا والسلطان مقيم فى برزة ، وقد كان أثناء ذلك فى إحدى حمامات دمشق ، كما صلى فى الجامع الأموى . وكانت قوته العسكرية

= رئيس هذه الجماعة ، اسم نقيب الأشراف أو النقيب ، وتختاره الدولة من أبرز هؤلاء الأشراف ، وكانت وظيفته محترمة ، وكان لنقيب الأشراف فى استانبول سلطة على نقباء الأشراف فى الولايات وهو الذى كان يعينهم ، وكان له سلطة قضائية عليهم . (انظر : عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٨م ، ص ٣٢٤) .

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) قاضى العسكر : أنشأت الدولة العثمانية على رأس النظام القضائى قاضى القضاة أو رئيس القضاة. وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم قاضى عسكر . وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة فى سائر أنحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يقع اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ، ويراقب أعمالهم ، ويعد حركات تنقلاتهم ، وتعرض عليه التقارير والمذكرات التى يبعث بها إليه قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضى عسكر أجهزة فنية وإدارية يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له، وأطلقت عليهم شتى المصطلحات ، نذكر منها على سبيل المثال ، المطبعجى ، والتطبيقجى والمكتوبجى وكان يحتفظ بعضهم بسجلات تحوى أسماء القضاة وفئاتهم ، وكان يختص بعضهم بإعداد كشوف مرتبات القضاة ، ومن إليهم ، بينما كان يحتفظ فريق آخر بصور من أختام القضاة للتحقيق من صحة الأختام على المذكرات والتقارير التى ترفع إلى قضاى العسكر (انظر : عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق جـ ١ ، ص ٤٢٤) .

٣ - دفتردار : دخلت كلمة دفتردار فى الفارسية بلفظها وبمعنى جماعة الصحف ، وأما (دار) ففارسية بحت ، ومعناها الصاحب أو القيم ، فالدفتردار لغويًا هو صاحب الدفتر . وكان الدفتردار بمثابة وزير للمالية . وينص قانون محمد الفاتح على أن فتح الخزينة الخاصة بالمال وخزانة الدفاتر وإغلاقها إذا لزم الأمر بمحضر من الدفتردار (انظر : أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٩٨ - ٩٩ ؛ وانظر أيضًا : محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص ١٦) .

وخاصة الأسلحة النارية التى جربها فى تظاهره قوة ، وهو فى برزة ، فظنت أهل دمشق أن السماء انطبقت على الأرض مرهبة للأهالى ، فلم يشوروا على الإجراءات التى قام بها موظفوه. ولكن حصل تعد من قبل الجنود العثمانيين على الأهالى فى دمشق إذ استخدموا منازلهم للسكن ، ولم يوقروا حتى العلماء مما أثار النقمة فى النفوس [١].

ويبدو أن هدف السلطان سليم من إقامته فى برزة مراقبة الوضع فى دمشق ، وتهيئة الجو لدخوله ورؤية رد فعل الدمشقيين تجاه الإجراءات وجد السلطان سليم الجو مناسبًا ليدخل دمشق كمنقذ لأهلها ، فدخلها فى ١٣ رمضان / ١٠ أكتوبر ووزع المال على العلماء ، وعزل يونس باشا من نيابة دمشق فى محاولة منه[٢] ، كما يبدو لإرضاء الدمشقيين ، وعين مكانه شهاب الدين أحمد بن يخشى . كما أنه عين لنيابة القلعة أميراً عثمانيًا . وعزم سليم على هدم البيوت والمحلات المبنية حول القلعة وسور المدينة ، ليعزز تحصيناته العسكرية ، كما فعل فى حلب . ويدل وجود البيوت والمحلات فى هذه الأماكن الاستراتيجية على الإهمال العسكرى زمن المماليك ، ويفسر ذلك بعدم تعرض المماليك إلى غزو خارجى منذ غزو تيمورلنك فى مطلع القرن الخامس عشر [٣]. وقد حاول سليم التعويض على أصحاب الأماكن إلا أن كثرة التعويضات على هذه الأماكن المقدرة جعلته يعدل عن خطة الهدم . ويظهر أيضًا أنه كان يحرص فى هذه المرحلة على كسب رضى الأهالى ، ويؤيد ذلك طرده للدفتردار العثمانى الذى تشكى عليه أهل القرى بسبب متطلباته المالية . وفى محاولة من سليم لزيد تقربه إلى السكان، وليكسب عطف العلماء والرأى العام الإسلامى ، وليظهر أنه جدير بلقب خادم الحرمين الشريفين فقد زين ثوب المحمل ، الذى يرافق الحاج إلى الحجاز ، وعين جنداً كثيراً إلى غزة والقدس والمناطق المجاورة للمحافظة على سلامة الحاج ، ويبدو أن إرسال هؤلاء الجند كان يقصد منه أيضًا رؤية رد الفعل لدى مماليك مصر فيما لو توسع جنوبًا وهاجم مصر [٤].

ويبدو أن سليمًا لم يكن فى هذه الأثناء ، مهتمًا جداً بفتح مصر . لقد حطم إمكانية التحالف بين الصفويين والمماليك ، وفتح بلاد الشام ، وفى هذا فوائد عسكرية ودينية كبيرة .

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٣ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٣ .

ثم أن حملته على مصر ستعرضه لمخاطر اجتياز منطقة سيناء ، بما فى ذلك خطر هجوم البدو عليه ، وامتداد خطوط مواصلاته[١] وأن سهولة فتح بلاد الشام يجب ألا تؤخذ مقياسًا فى فتح مصر . والمماليك فى بلاد الشام كانوا قلة ، إذا ما قورنوا بأعدادهم فى مصر . كما أن كراهية الشعب فى بلاد الشام للمماليك ونقمته عى ظلمهم وتعسفهم ، وخاصة منهم الأجلاب، بسبب اعتدادهم برعاية السلاطين المباشرة لهم ، سهلت الفتح العثمانى الذى لم يلق مقاومة شعبية . ومع ذلك فإن الفتح العثمانى والحق يقال ، لم يلق ترحيبًا حاراً ، لأن السكان المحليين إنما كانوا يستبدلون حاكمًا (تركى اللغة بحاكم آخر تركى اللغة) وكان سليم يتوقع أن تكون المقاومة المملوكية أثر عنفًا فى مصر ، نظراً لتمركز المماليك فيها ، واعتبارهم مصر آخر معقل لهم . ويضاف إلى هذه الاعتبارات أن توغل العثمانيين فى مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استجماع قوتهم ، وإعادة تهديد المناطق العثمانية ، وهذا ماتم بالفعل ، بعد قليل ، إذ هرع سليم ، إثر فتحه لمصر لرد خطر هجمات الصفويين على بلاده . كما أن فتح العثمانيين لمصر سيترتب عليه التزامات دفاعية جديدة ، ويجعلهم وجهًا لوجه أمام الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر . ولهذه الأسباب مجتمعة فاوض السلطان سليم وهو فى دمشق ، طومان باى سلطان المماليك الجديد على الخضوع له ، والبقاء حاكمًا فى مصر من قبله ، شريطة أن تضرب السكة فى مصر باسم السلطان العثمانى ، وتكون الخطبة باسمه أيضًا[٢] .

١ - الموقف فى مصر :

فى ذلك الوقت نجد أن أهل القاهرة لما علموا بموت السلطان قانصوه الغورى فى حربه مع العثمانيين ، اختاروا نائب الغيبة طومان باى على أساس أن محمداً ابن الغورى كان صغير السن ، ولأن الغورى نفسه كان قد أوصى جميع أمرائه أنه إذا ما أصابه شىء أن يسلطنوا عليهم طومان باى[٣] إلا أن طومان باى امتنع فى أول الأمر غاية الامتناع ، بسبب قلة المال ، والخوف من عدم التفاف المماليك حوله ، وإمكانية الغدر به ، واستمر تمنعه مدة خمسين يومًا ،

---

١) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣١ - ٣٤ .

(٢) محمد ابن أياس الحنفى، الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٢٢ - ١٢٥ ؛ أحمد بن زنبل الرمال، المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٨٥ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط رجال الدين ، فى مصر وبخاصة عالم وشيخ كبير منهم ، اسمه أبو السعود الجراحى [١]. فكانت مبايعة طومان باى بالسلطنة فى مصر فى يوم ١٤ رمضان ٩٢٢هـ / ١١ أكتوبر ١٥١٦م ، ولقب بالملك الصالح ، فكان رجال الدين يأتون بالأمراء المماليك ، ويجبرونهم على وضع أيديهم على المصحف الشريف ويحلفون عليه ، أنهم إذا سلطنوه ألا يتآمروا ولايغدروا ولايثيروا شغبًا ، وأنهم ينهون عن مظالم المسلمين قاطبة . ولا شك ماقام به زعماء المصريين فى هذا الصدد كان مبدأ خطيراً فى تقاليد مصر الإسلامية[٢] وفى اليوم التالى عيَّن طومان باى جان بردى الغزالى نائبًا من قبله . وكانت الخطبة فى مصر أعلنت فى الفترة بين وصول أنباء موت السلطان الغورى وسلطنة طومان باى ، باسم الخليفة فقط . وكان الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله محتجزاً آنذاك ، لدى سليم، ويرافقه فى تنقلاته ، بينما كان والد الخليفة يعقوب وشقيقه هارون موجودين فى مصر، وكان المماليك يلجأون إليهما لاسباغ الشرعية على أعمالهم ، ولإثارة الرأى العام الدينى على العثمانيين ، كما حدث فى مبايعة يعقوب للسلطان طومان باى بطريقة الوكالة عن الخليفة محمد المتوكل على الله[٣] .

رفض طومان باى تحت إلحاح أمراء المماليك ، عرض التبعية للسلطان سليم ، وقتل المماليك رسل العثمانيين الذين حملوا العرض إلى مصر . وليس هذا الرفض بالأمر الغريب نظراً لتألم المماليك من انكساراتهم ، ولأن قبولهم العرض العثمانى يعنى مساهمتهم فى القضاء على سلطنتهم . ولكن الغريب حقًا استمرار اعتداد المماليك بفروسيتهم رغم ماقاسوا فى سبيلها من انكسارات وعدم اعترافهم بفاعلية رصاص العثمانيين ، وبالتالى عدم استخدامهم له بصورة فعالة فى صفوفهم ، وإزاء هذا الرفض وبإلحاح من خاير بك على السلطان سليم بالتوجه إلى مصر طمعًا بحكمها من قبل العثمانيين وخوفًا على حياته إذا لم يقض على السلطنة المملوكية ، بعد الاستيلاء على مناطق غزة والقدس وانعدام المقاومة الشعبية له ، (أرسلت قلعة صفد مفاتيحها للسلطان سليم وهو فى دمشق) ، غزو مصر

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٨٦ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٠٢ - ١٠٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

وبالفعل فإن وجود قوة معادية للسلطان سليم فى مصر من شأنه أن يهدد حكمه فى بلاد الشام[١].

ومع ذلك ، فقد حدثت معركة حقيقية فى غزة ، بحيث اعتبر أنه لم تحدث معركة فى الشام، بعد مرج دابق ، إلا فيها وخاصة وأن نائب الغورى فيها ، كان قد طلب من طومان باى أن يمده بالعسكر[٢] وبالفعل شرع طومان باى فى إعداد الجند وجمع منهم عشرة آلاف[٣] فأرسل إليه بعض المماليك الذين كانوا فى الطباق - وهى المدارس الحربية المملوكية - ولم يكونوا قد اشتركوا فى القتال بعد[٤] ، كما أرسل إليها بعض الذين هربوا من الأمراء ومماليكهم من مدن الشام الأخرى ، وإن كانت سمة هؤلاء التباطىء والتراخى والتقاعس الزايد بسبب أن طومان باى لم يجد المال الكافى لينفق عليهم[٥] ، وأظهر بعضهم الجبن وأراد أن يهرب من القاهرة[٦] بحيث اضطر طومان باى أن يظهر أنه يذهب بنفسه لقتال سليم[٧] ويستحثهم طلب منهم القتال عن أعراضهم وأموالهم . كذلك أرسل بعض رماة البنادق من أهل مصر وسودانها[٨] - العبيد - بقيادة الأمير جان بردى الغزالى ، أما العثمانيون بقيادة الوزير سنان باشا[٩] فى ١٦ ذى القعدة / ١١ ديسمبر وذلك عند خان يونس ، وأسر جان بردى الغزالى ، وكاد العثمانيون يجزون رأسه لولا غلمانه الذى خلصوه . وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب أنهم ساعدوا المماليك ، فقتلوا منهم ألف إنسان من الرجال والنساء والأطفال[١٠] ، أما المماليك الذين نجوا من هذه المعركة - وهم قلة - فإنهم عادوا إلى وهم فى أسوأ حال ، بعضهم جاءها راكبًا الحمير ، وقد فقد سلاحه ، وملابسه ، أو حتى حافيًا [١١].

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .
(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٧٥ .
(٣) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٧٩ .
(٤) نفسه ، جـ٥ ، ص ٨٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .
(٥) محمد بن أياس الحنفى ، جـ ٥ ، ص ٨١ - ٨٤ .
(٦) نفسه ، جـ٥ ، ص ٨١ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٩ .
(٧) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨١ .
(٨) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨٢ .
(٩) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨٢ .
(١٠) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨٩ .
(١١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ،ص٩١؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٩ .

وزاد من مشاكل القاهرة ، أنه بعد هزيمة غزة بالذات هاجر إلى القاهرة أهالى الشرقية وبلبيس خوفًا من النهب والقتل إذا ما تحرك العثمانيون نحو مصر ، فكانت هجرتهم من الكوارث ، إذ تبع ذلك أن قلت الأقوات وأرتفعت أسعارها ، وقل الدقيق والخبز ، وتعطلت الطواحين مما جعل طومان باى يغير المحتسب [١].

وقد ساعد بدو سيناء العثمانيين فى معركة خان يونس ، وأرهب هذا الانتصار بدو بنى بقر المسيطرين على إقليم الشرقية فى مصر ، فقدم شيخهم أحمد بن بقر وأولاده عبد الدايم وبيبرس ولاءهم للسلطان سليم الذى أبقاهم وغيرهم من مشايخ البدو المؤيدين له على مناطقهم وامتيازاتهم [٢]وكان ولاء البدو عاملاً هامًا ، فى نجاح العثمانيين لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان بإمكانهم إشغال قسم كبير من الجيش العثمانى فى قتالهم ، فى منطقة هم أدرى بجغرافيتها ، عدا عن تهددهم لقوافل المؤن . ولم تخرج قافلة الحاج المصرى ، فى هذه الأثناء إلى الحجاز ، للاضطرابات فى مصر ، وكان أثر ذلك شديداً لدى الرأى العام الإسلامى[٣] .

وكان من رأى طومان باى أن يهاجم سليمًا فى وسط الطريق ، ولايتركه حتى يأتى إلى القاهرة ، على أساس أن صحراء شرقى مصر وقسوتها ، من الممكن أن تنهك جيشه[٤] ولكن تحت إلحاح أمراء المماليك ، فإنه اضطر أن يطرح استراتيجية للمعركة كما كان يريدها ، جانبًا وأجبر على انتظار مجيء العثمانيين . ولذلك لم يجد هؤلاء أى مقاومة فى زحفهم على مصر، إلا من بعض العربان الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى النهب والسلب ، فكانوا يقطعون بعض رؤوس العثمانيين ويرسلونها إلى القاهرة ، لقبض الثمن[٥] ومع ذلك فإن طومان باى قد أمر بحرق بعض الشون التى تقع خارج القاهرة[٦] حتى لاتقع فى أيدى العثمانيين[٧] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٤٨ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١١٨ - ١٢٨ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ١٢٨ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٥) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤١ .

(٦) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٤٢ .

(٧) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٢.

وعلى كل ، استعد طومان باى لمقابلة العثمانيين بجوار القاهرة - فى المطرية - فى مكان اسمه الريدانية واستعد ، وأمر طومان باى الأمير ماماى الصغير المحتسب بضرورة التنبيه على أرباب البضائع والزياتين أن يتوجهوا بمنتجاتهم إلى الريدانية ، وأصدر أوامره إلى جيشه بأن كل من يحاول الهروب سيكون مصيره الإعدام[١] .

إلا أن المتاعب مالبثت أن ظهرت من المماليك أنفسهم ، على الرغم من أن طومان باى ، كان قد أصدر أمره للذين جمعوا فى الريدانية من بقايا المهزومين فى غزة أو المقيمين منهم فى القاهرة أو غيرها ، حتى تجمع لديهم أكثر مما تجمع للغورى من قبل[٢] ، بأن يكونوا فى الميدان بكامل اللباس من آلة السلاح ، إلا أن أغلبهم رفضوا المبيت فى المعسكر ، فكانوا يرجعون إلى بيوتهم فى المساء[٣] .

وحتى الأسلحة النارية المملوكية ، التى كانت من المنتظر أن تلعب دوراً حاسمًا فى المعركة، لم تقم فيها بأى دور بسبب أن المدافع كانت قليلة ، لم تتعد المائة ، بينما كانت العثمانية زحفت بستمائة مدفع[٤] منها المائة والخمسون مدفعًا كبيراً . وبينما كانت هذه سهلة الحركة ، تتحرك على عربات فى أي اتجاه ، فإن المدفعية المملوكية وضعت على قواعد ثابتة وأصبحت غير قابلة للحركة - وزاد الطين بلة - أنها طمرت فى الرمال عمداً ، زيادة فى إخفائها وهى معمرة[٥] حيث قيل أن الذى أمر بوضعها هكذا هو الأمير جان بردى الغزالى[٦] الذى هزم فى موقعة غزة ، وخان قانصوه الغورى ، وتنبه طومان باى لذلك ، فأراد قتله لولا أن الأمراء منعـــوه[٧] لوصول العثمانية إلى الريدانية فى يوم الخميس ٢٨ ذى الحجة عام ٩٢٣ هـ /

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٤٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٢ .

(٢)- محمد بن زياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٤ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٧ .

(٥) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٠ - ٥٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص٣٥٣.

(٦) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٧) نفسه ، ص ٥٢

٢٢ من يناير ١٥١٧م وتدفقت القوات العثمانية بأعداد هائلة بلغت ٢٠٠ ألف أو أكثر بقصد الالتفاف حول المدافع المملوكية ، بالتواجد وراء فوهاتها ، ولم توجد فرصة لهذه المدافع لمواجهة العثمانيين فلم تنطلق إلا واحدة[١]، مما أرعب العثمانيين ، الذين مالبثوا أن أدركوا عجز مدافع المماليك ، مما جعلهم ينهبون بارودها[٢] .

حينئذ لم ينتظر طومان باى وتوجه إلى معسكر سليم الذى أقيم فى أول الريدانية ، فوقعت وقعة مهولة[٣] وصفها المؤرخون العثمانيون فى دائرة مخابرات - وهى دفاتر المخابر العثمانية بأنها أعظم من الواقعة فى مرج دابق ، كما وصف البعض[٤] القتال فيها بأنه كان قتال الأبطال إذا اقتحمه طومان باى ومن معه بشجاعة نادرة ، وقتل من العثمانيين أعداداً هائلة ، بمن فيهم سنان باشا نفسه ، الصدر الأعظم ، الذى بارزه طومان باى وقتله بيده بأن رفعه إلى أعلى رأسه ثم ألقاه على الأرض بعنف فطبق أضلاعه بين جنبيه ، ثم جز رأسه ، ربما ظنًا منه أنه هو السلطان سليم نفسه ، وإن كان سليم لم يكن موجوداً وقتذاك [٥].

وقد حزن سليم على وزيره الكبير حزنًا كبيراً ، واعتبر فقده خسارة كبرى ، وفكر فى الانتقام ، وقال استولينا على مصر ، ولكن فقدنا سنان باشا ، خسارتنا فيه لايمكن أن تعدلها دولة [٦]. فكانت الجند العثمانية تنتهك حرمة المساجد بدخول الخيل فيها[٧] وطلعت المآذن وصاروا يطلقون البنادق ، فكان معظم القتلى المماليك من رصاص البنادق[٨] وقد قدر عددهم بعشرة آلاف ، وبقى طومان باى فى قليل المماليك والرماة العبيد - السودان - الذين دافعوا عنه ببنادقهم ، فلما تكاثرت العسكر العثمانلية عليه انسحب إلى طرا المجاورة من كثرة البنادق [٩].

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٥٥ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٥) نفسه ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٤ .

(٦) أحمد بن زنبل ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٤ ؛ محمد بن أبى السرور البكرى ، اللطائف الربانية على المنح العثمانية فى الدولة العثمانية ، ص ٨٠ - ٩٩ ؛ عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ٧٢ .

(٧) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٥ .

(٨) نفسه ، ص ٣٥٦ .

(٩) محمد بن أبى السرور البكرى ، المصدر السابق ، ص ٩٩ .

وبمجرد دخول طلائع العثمانيين القاهرة ، شرعوا فى تعقب المماليك فى كل مكان وحتى فى البيوت والمقابر ، فمن كان يقبض عليه ، تضرب عنقه فوراً ، وساعدهم فى ذلك العربان ، بحيث أنه قتل منهم فى يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأساً[١] مما جعل المماليك يتخفون فى زى الفلاحين[٢] أو يلبسون ملابس حرافيش القاهرة وهم صعاليكها أو فقراؤها . كذلك عمد العثمانيون إلى قتل الأهالى بوحشية لانظير لها خاصة وأن سليماً وهو فى الشام كان قد هدد إذا ما دخل القاهرة - مصر - أن يحرق بيوتها قاطبة واللعب فى أهلها بالسيف[٣] فكانوا يقتلون الأهالى ويربطونهم من رقابهم بالحبال ، لافرق بين أعيانهم وخدامهم[٤] ومع أنه أعلن الأمان للناس ، إلا أن سليماً كما يلاحظ ابن أياس لم يكن له أمان[٥] ، وفى الوقت ذاته ساد النهب فى القاهرة ، بحجة البحث عن المماليك ، بحيث صار الجند العثمانيون ينهبون مايلوح لهم ، فلم يتركوا خيلاً ولا بغالاً ولا أقمشة ولا قليلاً ولا كثيراً[٦] .وقد دخل سليم نفسه القاهرة فى ٣ محرم عام ٩٢٣ هـ / ٢٦ يناير ١٥١٧م[٧] وكان قد سبقه إليها الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله ، برفقة العثمانيين ، ونادى بالأمان وهدفه من ذلك أسباغ الشرعية على الحكم العثمانى وتهيئة الجو لدخول سليم إلى القاهرة[٨] وقد أثار دخول العثمانيين فزعاً كبيراً بين أهل مصر وشبه دخولهم القاهرة بدخول هولاكو بغداد ، وأن ماجرى فى مصر بسبب ذلك ، لم يحدث مثله منذ أن دخلها البابليون فى الزمن القديم[٩].

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٤٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص٣٥٧ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٥٦ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ .

(٥) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ .

(٦) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٦ .

(٧) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٥٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٨) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٩) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٧ .

ولكن مايحس سليم وهو فى القاهرة ، ولم تمض خمسة أيام على انتصار العثمانيين عليه، إلا طومان باى يطوقها معتمداً فى هذه الحرب على مؤازرة المصريين من أحياء القاهرة وخاصة من حى بولاق ، ومن رماة البندق من العبيد ، ولعل هذه أول مرة يشترك فيها المصريون فى مقاومة العثمانيين إذ أنهم بحسهم الوطنى قدروا أبعاد الكارثة التى وصلت بهم نتيجة لمجىء العثمانيين لمصر ، فلم يكن من الممكن أن يقفوا سلبين على طول الخط من هذا النضال بين المماليك والعثمانيين ، وخاصة أن أهل القاهرة كان لهم دور إيجابى فى اختيار طومان باى سلطانًا عليهم [١].

ففى ليلة الأربعاء الخامس من محرم عام ٩٢٣ هـ / ٢٩ من يناير ١٥١٧م ، تمكن طومان باى من تسريب أتباعه فى حاراتها حتى وصلوا إلى معسكر سليم ، حينئذ أطلق فيه جمالا محملة بمادة مشتعلة ، مما جعل معسكر سليم يشتعل بالنار ، وظن سليم أنه مأخوذ لامحالة ، فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالى إلى يوم السبت ظهراً فيها على العثمانيين . وبسبب انتصار طومان باى فإنه خطب له فى الجمعة ، مع أنه فى الجمعة الماضية كان قد دعى لسليم [٢].

ويبدو أن حرب الحارات التى أكره عليها العثمانيون لم تعد تلائمهم ، مما جعلهم يلجأون إلى تكتيكهم السابق فى الحرب بالبارود وحده ، الذين يعتمدون عليه فى حرب ناجبة لتفوقهم فطلعت الانكشارية من رماة البندق إلى المآذن والأهالى على وقف المقاومة ، وخاصة وأنهم قد تعبوا من القتال المستمر طيلة هذه الأيام ، دون راحة فانسحب الجميع بما فيهم المماليك ، بحيث لم يبق إلا طومان باى وحوله رماة البندق من المصريين ، وبعض خاصة مماليكه - ممالك سلطانية - واضطر طومان باى هو الآخر أن ينسحب إلى خارج القاهرة [٣] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٧ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥٧ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص٣٥٨ .

وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم ، وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف[١] أو ستين ألفًا[٢] تركوا جثثهم فى الطرقات تنهشها الكلاب ، حتى كاد أن يفنى أهل القاهرة . نتيجة لذلك . كذلك قتل العثمانيون كل من وقع فى أيديهم من المماليك ، الذين تخفوا فى بيوتهم أو فى أماكن أخرى ، بلغ عددهم نحو ثمانمائة[٣] من الأمراء والمماليك العاديين ، بما فيهم كرتباس والى مصر - الفسطاط - الذى هتف وهو يموت بحياة طومان باى فى نصرة الله[٤] .

ولقد اعتبرت هذه المحاولة الفاشلة من قبل طومان باى الكسرة الرابعة للمماليك على أيدى العثمانيين ، بعد مرج دابق ، وغزة ، والريدانية ، مما يبين انتصار العثمانيين فيها ، بالفعل إنه بعد أن إستتبت الأمور للعثمانيين فى القاهرة طلع سليم القلعة لأول مرة فى موكب حافل ، ارتجت له القاهرة وذلك يوم الثلاثاء ١١ محرم ٩٢٣ هـ / ٣ فبراير ١٥١٧م[٥] .

ومما تجدر ملاحظته تضارب الأنباء فى الشام حول تقدم الجيش العثمانى وانعكاس ذلك على الأحداث المحلية . فقد راجت إشاعات تقول بهزيمة العثمانيين ، وحدثت اضطرابات نتيجة لذلك ، ففى صفد ثارت فتنة ضد العثمانيين وفى دمشق تحرك بعض الذعر فى ٢٢ محرم ٩٢٣ هـ / ١٤ فبراير ١٥١٧م ، ضد أعوان العوانية من المماليك ، وضد العثمانيين فلجأ هؤلاء إلى القلعة وفي ٢٧ محرم / ١٩ فبراير استعراض والى دمشق ، ونائب القلعة والقاضى الرومى القوات العثمانية تحت القلعة وفى الميدان لطمأنة الأهالى[٦] .

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٦ ؛ محمد بن أبى السرور البكرى ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٠ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ١٨٩ ؛ عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٤ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٦ ؛ محمد البكرى ، تحفة الظرفاء فى ذكر الملوك والخلفاء ، ص ١١٢ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٦) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

وردت إلى دمشق فى ٣ صفر عام ٩٢٣ هـ / ٢٥ فبراير ١٥١٧م أنباء عن انتصار العثمانيين فى الريدانية ، وفى ٦ صفر وردت إليها بلاغات عثمانية حول انتصار العثمانيين هذا واستيلائهم على القاهرة . وتذكر البلاغات قتل العثمانيين لكثير من العوام فى القاهرة بسبب مساعدتهم للمماليك . وتشيد أيضاً بمساعدة خاير بك للسلطان سليم فى الالتفاف حول خطوط دفاع المماليك ودحرهم ، وفى هذا تذكير لعوام دمشق بوجوب الخضوع للعثمانيين ، وتشجيع الموالين على غرار خاير بك ، وقد زينت دمشق لهذه الأنباء ، وأخذ العثمانيون ، إثر ذلك يوطدون نفوذهم فيها ، فبدأ بإبطال العملة القديمة ، وإصدار عملة عثمانية جديدة ، كما حضر الوالى العثماني زعماء الحارات ، وجعلهم مسؤولين عن سلوك العوام فى حاراتهم[١].

٢ - لجوء طومان باى إلى الصعيد والوجه البحرى :

وقد لجأ طومان باى هذه المرة إلى الصعيد فى البهنسا[٢] فأقام فيها فيها متخذاً من النيل كخط دفاعى له ، بأمل أن يعاود الهجوم فى الوقت المناسب . وفى الوقت نفسه لجأ سليم إلى الحيلة مع طومان باى فأرسل له أماناً مع القاضى عبد السلام البكرى مع مندوب الخليفة[٣] يعينه فيه على بلاده مدى الحياة ويرضى أن تكون له الخطبة والسكة ، وحمل الخراج إليه ، إلا أن المماليك المتطرفين قتلوا الوفد ، ويبدو أن العثمانيين الذين استولوا على القاهرة ، وأثبتوا مقدرتهم العسكرية كانوا يحاولون كسب الوقت للإيقاع بطومان باى الذى سيبقى شوكة فى جنبهم إذا لم يقض عليه ، وربما كانوا مضطرين لتسوية الأمور بسرعة فى مصر ، نظراً لورود أنباء عن تحرك الشاه إسماعيل الصفوى فى منطقة آمد والرها وطرده الحكام العثمانيين منها[٤].

---

(١) عبد الكريم رافق ، ص ١٠٨ .

(٢) البهنسا : يعتبر هذا الإقليم من الأقسام الإدارية القديمة العهد ، وسمى فى عهد الفراعنة باسم وابو ، وقاعدته مدينة برمزيت (البهنسا) وسمى باسم أوكسير نشيث فى عهد البطالسة والرومان ، وسمى باسم كور البهنسا فى عهد العرب ، وسمى بعمل البهنسا فى عهد المماليك الجراكسة وباسم ولاية البهنسا فى عهد الدولة العثمانية . (انظر : محمد رمزى ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، جـ ٣ ، ص ٦) .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٥٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ جلال يحيى ، مصر الحديثة ، الإسكندرية بدون تاريخ ، ص ١٠٨ - ١٠٠ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

وفى تلك الأثناء ، كان طومان باى قد قوى بكثرة من أتاه من العسكر ، حيث جند أهل الصعيد والأسكندرية والعربان وزحف بهم من جديد إلى الجيزة[١] وفى محاولة لكسب المؤيدين له ، أعلن طومان باى إلغاء ضريبة الخراج لمدة ثلاث سنوات ، فهرع لتأييده كثير من الفلاحين[٢] وخرج إليه سليم بنفسه ، وفى صحبته ابن الغورى سيدى محمد ليناوىء به طومان باى[٣] بمدفعيته التى وضعها على شواطىء النيل . ومع عدم تكافؤ قوة الأخير مع سليم إلا أنه قرر أن يخوض المعركة ، فكانت بالنسبة له ، ولزملائه أمراء المماليك ملحمة من ملاحم الفروسية النادرة . وقد رمى سليم فى هذه المعركة رماة البندق والمدافع[٤] بحيث زلزلت الصحارى من حولها ، وكانت نتيجة المعركة أن قتل معظم من كان مع طومان باى من الأمراء والجند[٥] . ولكن الخيانة أخذت تدب فى صفوف طومان باى ، فهرب الغزالى ، ومن معه من أمراء المماليك وانضم إلى العثمانيين بعد أن انكشف تراطؤه معهم ، وكان يطمع بمنصب كبير. وانضم أيضًا إلى العثمانيين جانم السيفى كاشف[٦] الفيوم بعد أن وعده سليم الفيوم إقطاعًا

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ ، ص ٣٥٩ ، أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٤) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٥) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٦) الكاشف : وهى كلمة مأخوذة من الفعل كشف فى العربية ، لأن فى وظيفة الكاشف أن يكتشفوا أحوال المديريات ، وهذا اللقب لم يكن معروفًا فى الإمبراطورية العثمانية ، وكان الكشاف أقل مرتبة من السنجق ، وكانت الكشوفية (الكاشفية) عبارة عن وحدة إدارية مالية ، على رأسها أحد البكوات المماليك برتبة كاشف له حق الإشراف على مجموعة من المقاطعات التى تقع داخل حدود الكاشفية ، ولم تثبت حدود الكاشفيات على وضع ثابت فكثيراً ماتحولت بعض الولايات إلى كاشفيات ، مثل المنصورة وأسيوط والجيزة والفيوم ، وأحيانًا كان ينفصل جزء من ولاية ليكون وحدة إدارية قائمة بذاتها ، مثل فارسكور التى فصلت عن ولاية الجيزة فى عام ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠م بقصد إخراجها من حوزة القبائل العربية المسيطر عليها . (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ٧ - ١٣ ، القاهرة ١٩٧٨) وكانت مهمتهم تنحصر فى الإشراف على جسور النيل وصيانتها ، والإشراف على جميع الضرائب والأموال فى كشوفاتهم ، وإرسالها إلى الخزانة العامة بالقاهرة ، والإشراف على الأمن وحماية القرى من البدو . (انظر ، جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ - ١٦٦) .

وعينه مستشاراً له ، وانفض عرب هوارة [١] الأشداء بالصعيد عن التأييد بعد أن أدركوا أن قضية طومان باى أصبحت خاسرة ، وأن العثمانيين يفتكون بالأعداء بالأسلحة النارية . وقد استخدم العثمانيون الأمراء المنضمين إليهم فى قتال المماليك ، وكان هذا إضعافًا لجبهة طومان باى مع العثمانيين[٢] وقد حفظ السلطان سليم هذا الجميل لهم وثبتهم فى حكم الصعيد[٣] وإذا كان عربان هوارة قد رفضوا الحرب بجانب طومان باى ، فقد رفض عربان المغاربة[٤] الاشتراك أيضًا معه لكونه مسلمًا يحارب مسلمًا[٥] .

---

(١) عرب هوارة : وهى قبيلة مغربية ، استقرت فى إقليم البحيرة ، ولكنها اضطرت تحت ضغط قبائل زنارة وحلفائهم من عربان البحيرة إلى الهجرة جنوبًا ، وزاد نفوذهم عام ٧٨٣ هـ / ١٣٨١م فى عهد حكم الأمير برقوق (٧٨٤ - ٨٠٢هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٩م) ، وقد قاموا بإصلاح الكثير الكثير من الأراضى التى طغت عليها الصحراء ، ونجح الهوارة دون سائر القبائل الأخرى التى هاجرت من المغرب فى توطيد أقدامهم بوادى النيل وزاد عددهم وقوى بأسهم وانتشروا فى معظم الصعيد . (انظر ، نسيم مقار ، أضواء على تاريخ الهوارة فى صعيد مصر ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٢٦ ، ص ١٩٢) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٤ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ؛ ليلى عبد اللطيف أحمد ، شيخ العرب همام وحكم جرجا ، ص ٥٣ - ٥٤ ، القاهرة ١٩٨٤م.

(٤) المغاربة : جاءت بعض القبائل المغربية ، سواء أكانت من أصول بربرية أم من أصول عربية إلى مصر، فى فترات مختلفة ، سابقة للعصر العثمانى ، وقد استمر مجىء القبائل المغربية فى العصر العثمانى كذلك . وأتيحت لهذه القبائل المغربية فرصة الاستقرار فى الريف المصرى لمن أراد من هذه القبائل ، بينما آثر بعض هذه القبائل حياة التجوال والترحال ، بين أرجاء هذا الريف وعلى أطرافه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، من أقصى غربه إلى أقصى شرقه ، وقد قدر للقبائل العربية التى استقرت فى بعض المناطق الريفية الزراعية أن يصبح لها وضعها على خريطة الريف المصرى ، بينما ظلت القبائل المتجولة غير مرتبطة بمنطقة معينة لأنها لاتجد بغيتها فى هذا النمط من الحياة (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، تونس ١٩٨٢م ، ص ٣١) .

(٥) محمد بن أبى السرور البكرى ، اللطائف الربانية على المنح الرحمانية ، ص ٩٩ .

بعد فشل هذه المعركة الخاسرة الحاسمة انسحب طومان باى إلى سخا[١] حيث كان ينتشر فيها عرب قبيلة غزالة ، ولكن بسبب عداء عربانها له ، تركها بسبب أنهم كانوا قد انضموا إلى سليم فى قتاله واتجه إلى إقليم البحيرة [٢] أو لأنه كانت له علاقة ودية مع عربانها من قبيلة محارب وهم غير قبيلة غزالة وكانوا يسمون أولاد مرعى حيث كان طومان باى أطلق شيخها حسن بن مرعى من حبس الغورى لما تولى السلطنة [٣].

وبالفعل فإن حسن بن مرعى ، وأخاه شكر ، قد أحسن استقبال طومان باى ومن معه ، حتى أن حسن بن مرعى قبَّل يدىْ طومان باى ، وأقسم له بأيمان الطاعة هو وعشيرته . وقد أراد حسن بن مرعى أن ينزل طومان باى فى منزله مبالغة فى الضيافة ، إلا أن طومان باى فضل أن يلجأ ومن معه إلى أحد الأودية المجاورة فى قرية تروجة[٤] ولكن سليمًا عن طريق

---

(١) سخا : هى من القرى القديمة ذكرها جوتييه فى قاموسه باسمها المصرى Khast و Khasouout و Skhaouout واسمها الرومى Xois والقبطى Skhouy وهى سخا قاعدة القسم السادس بالوجه البحرى قديمًا ، وذكر لها أميلينو فى جغرافيته اسمًا قبطيًا آخر وهو Sekhôou .

وهى من أعمال الغربية (انظر : محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ، ص ١٤١) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٨ .

والبحيرة هى الأقسام الإدارية التى استحدثت فى عهد العرب باسم كورة البحيرة ، وفى أيام الدولة الفاطمية أضيفت إليها كور أخرى مجاورة لها فصارت إقليمًا كبيرًا باسم البحيرة ، وفى عام ٧١٥ هـ / ١٣١٥م أطلق عليها أعمال البحيرة ، وفى سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧م ولاية البحيرة ، وفى سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م مديرية البحيرة ، ثم فى عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م محافظة البحيرة . وكانت أيام العثمانيين من الولايات الخمس الكبرى . (انظر : أحمد جلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق محمد فؤاد الماوى ، عام ١٩٧٨م ، ص ٧٥٦) .

(٣) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٢ .

(٤) تروجة : هى من البلاد المصرية القديمة وردت معجم البلدان بأنها قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية أكثر مايزرع بها الكمون ، قال وقيل اسمها تروجّة ووردت فى التحفة تروجة من أعمال البحيرة .

وقد اندثرت هذه القرية ومكانها اليوم تروجة الواقع بحوض تروجة رقم ٨ فصل أول بأراضى ناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير بالبحيرة (انظر محمد رمزى ، القاموس الجغرافى فى القسم الأول ، البلاد المندرسة ، ١٩٠) .

جان بردى الغزالى ، اتصل بعربان أولاد مرعى ، ووعد حسن بن مرعى ، أن سلمه طومان باى ، فإنه يقدمه على جميع مشايخ العربان فى مصر ، ويجعل أرضه التى فيها إقطاعًا له ، ولايأخـذ دراهم[١] ويبدو أن حسن بن مرعى ، قد استجاب لطلب سليم ، إذ مالبث أن جاءت الخيل العثمانية لأخذ طومان باى ، فقاوم الأمراء القليلون من حول طومان باى على غير جدوى ، وإن استطاع الأمير شريك وحده الإفلات ، أما طومان باى الذى كان يعرف أنه مأخوذ لم يبد أى مقاومة ، حينما أحاطت به العسكر العثمانية ، وهى تقدر أنها وقعت على فريسة عظيمـة[٢] وسلم الأمر أحمد بن بقر من زعماء الشرقية الأمير شريك ، إلى السلطان سليم محاولة منه للتقريب للعثمانيين للاعتراف بسلطنته[٣] .

وحينما وصلت البشرى لسليم بالقبض على طومان باى ، وأنه فى الطريق إليـه ، أبدى ارتياحه العظيم ، وقال الآن ملكنا ملك مصر وأمر بالزينة فى القاهرة ومصر[٤] - الفسطاط - وجعل الطبول والكوسات - نوع من الطبول - تدق فى أرجائها . فزين الناس مضطرين جميع البيوت والدكاكين ، والناس لاتعلم سبب الزينة[٥] وسرعان ماعلمت بعد ذلك وهى لاتكاد أن تصدق أن طومان قد قبض عليه[٦] .

ولما وصل طومان باى أمام سليم ، استقبله ، وقد أحاط به خاير بك وجان بردى الغزالى والوزير يونس باشا ، وقد وقفت العساكر العثمانية على حسب مراتبها ، وأسلحتها من البنادق فى أيديها ، فسلم طومان باى سلام الملوك ، فرد عليه سليم كما يجب ، ولم ينتقص فى سلامه ، وقد استمر طومان باى واقفًا ، إلى أن أمره بالجلوس فجلس . ودارت مناقشات وانتهى الأمر بأن قرر سليم شنق طومان باى على باب زويلة[٧] وجد أن حبل المشنقة معد له ،

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٤ ، أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص١٠٧ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١١١ ؛ عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٤ .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٤) نفسه ، ص ١١٨ .

(٥) نفسه ، ص ١١٨ .

(٦) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٥ .

(٧) باب زويلة ، بناء أمير الجيوش بدر الدين الجمالى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م وهو وزير المستنصر بالله، وهذا الباب باق إلى الآن . (انظر تقى الدين المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، جـ ١ ، ص ٣٨٠).

فأسرعوا به وأنزلوه عن البغلة بقصد شنقه من غير مهلة ، فتقدم طومان باى نحو الحبال بقلب جسور ، وحوله جنود العثمانية مسلولة السيوف ، فطلب طومان باى من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات قرأت والناس معه ، ثم قال للمشاعلى[1] أعمل شغلك ، فكاد الحبل يقطع به مرتين ، وفى كل مرة يعلقوه من جديد ، وشنق إلى أن مات ، وكان شنقه يوم الأحد ٢١ ربيع الأول عام ٩٢٣ هـ / ١٥ أبريل ١٥١٧ فأكد بذلك نفوذه سليم وقضى على الشائعات القائلة بأن طومان باى مازال طليقًا [1].

وصلت أنباء إلى دمشق فى ٨ ربيع الثانى عام ٩٢٣ هـ / ٣٠ أبريل ١٥١٧م أنباء القبض على طومان باى ، وأعلن نبأ شنقه فى اليوم التالى ، وأمر بتزيين دمشق مدة سبعة أيام . وقد تعاظم نفوذ العثمانيين فى الشام وتوطدت سلطتهم ، وقاموا بعد ذلك باتخاذ إجراءات هامة كتخفيض سعر العملة العثمانية بمقدار النصف ، فتضرر الدمشقيون كثيراً ولكنهم لم يجرؤا على الثورة واتخذت إجراءات أمن مشددة لردع الخارجين على القانون ، وإعدم إثنان من اللصوص ، وأقيمت الخوازيق[2] فى الحارات لإرهاب الأهالى وأوعز للوالى والقاضى والدفتردار بضبط الممتلكات خارجها وبالتفتيش على المستندات المتعلقة لمعرفة النذور فيها كما طلبت مستندات الأوقاف لتوقيعها . وهكذا نرى كيف استغلت انتصارات العثمانيين فى مصر لإدخال كثير من التنظيمات فى الشام [3].

وقد قام السلطان سليم إثر القضاء على طومان باى ، ببعض الإجراءات الإدارية فى مصر . ولم تكن هذه شاملة أو ذات صبغة عثمانية جذرية ، بل كان الهدف منها كعادة العثمانيين بعد

---

(١) المشاعلى : هو الشخص المكلف بتنفيذ حكم الإعدام .

(٢) الخازوق : عبارة عن عمود حديدى يسمى un Pieu يقوم الجندى المختص بتسخينة بالنار حتى يتوهج العمود بالإحمرار من شدة الحرارة ثم يقوم الجلاد بإجلاس من يرد تعذيبه حتى الموت على الطرف المدبب لهذا العمود الذى يتغلغل فى جسمه من فتحة الشرج بفعل السخونة وبتأثير وزن الجسم وثقله حتى يصل إلى الأمعاء فيمزقها . وكانت هذه الطريقة تستخدم فى مصر والشام إبان عصر دولتى المماليك والعصر العثمانى والحملة الفرنسية وحكم محمد على .

وقد أدخلت هذه الطريقة فى أيام حكم السلطان محمد الثانى والعامة فى مصر تقول « المخوزق يشتم السلطان وذلك لأن سب السلطان كان يستوجب الإعدام الفورى فكان الشخص الذى يموت بتلك الطريقة البطيئة بسبب السلطان لكى يعدم فوراً حتى يتخلص من عذاب الموت البطيء على الخازوق . (انظر : أحمد جلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٩٢٦ - ٩٢٧) .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

فتوحاتهم تسيير الأمور بشكل مؤقت والإبقاء على الإدارة المحلية بكاملها تقريبًا ، ريثما تصدر تنظيمات أشمل وأدق . وقد عين السلطان سليم جانم السيفى كاشفًا على البهنسا والفيوم مكافأة له على دعمه العثمانيين كما عين زميلاً لجانم إينال السيفى على الجيزة وأقليم الغربية ، واعترف بقضاء المذاهب الأربعة ، كما كان عليه الأمر زمن طومان باى وأبقى امتيازات أصحاب الإقطاعات والأرزاق[١] ، الأوقاف من المماليك وأولاد الناس على ماكانت عليه . وقد خلع على الأمير على بن عمر شيخ قبيلة هوارة فى الصعيد ، وأبقى له إمارة الصعيد التى كانت مركزها فى جرجا ، وكذلك أبقى أكثرية أمراء البدو الآخرين فى إمارتهم[٢].

وقد أمر السلطان بإرسال عدد من أصحاب الحرف والصنائع إلى استانبول بحراً بطريق الاسكندرية للاستفادة بخبرتهم . وذكر أن البنائين والنجاريين والحدادين والمبلطين ، من مسلمين ومسيحيين ، ممن أرسلوا من مصر إلى استانبول سيستخدمون فى بناء مدرسة على غرار مدرسة السلطان الغورى فى القاهرة . وقد أمر السلطان سليم أن يجلب بالمقابل ، من استانبول إلى مصر عدد من أفراد ، لم تذكر المصادر المحلية هوياتهم أو نوعية مهنهم . ويبدو أن هذا الإجراء يتفق مع عادة مألوفة فى الدولة العثمانية ، بإجراء تنقلات بين السكان إثر الفتح، لنقل الخبرات ، أو لترسيخ الصبغة العثمانية فى البلد المفتوح . وقد أرسل أيضًا من

---

(١) الرزق : جمع رزقة ، وهى الأراضى الزراعية المحبوس على أوجه البر والخير ولايفرض عليها مال . (انظر : محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص ٣١ ، هامش ٣) وكانت تمثل مساحات واسعة من الأرض ، فى جهات عديدة من البلاد ، أنعم بها السلاطين السابقون على بعض الناس ، وأصبح حق الانتفاع بها ينتقل بالميراث للورثة . وأصبح لأصحابها حق الانتفاع أن يتصرفوا فيها فى كافة وجوه الانتفاع، وكان أكثر أراضى الرزق موقوفًا على مكة والمدينة ، وأسبلة لسقى الناس ، وأحواض لسقى الدواب ، ومقارىء لتلاوة القرآن وبعض الأشراف ، وكانت أراضى الرزق معفاة من الضرائب ، ولايدفع عنها للروزنامة إلا ضريبة رمزية باسم مال حماية ، نظير حماية رجال الإدارة لهذه الأراضى ، من العبث بها أو السطو عليها ، ولذا فإن بعض الملتزمين لجأ إلي عمليات الاحتيال فى رصد جزء من الأراضى الداخلة فى التزاماتهم على أعمال البر وجعلوا الجزء الأكبر من هذه الأراضى وقفًا على ورثتهم وأرقائهم ، وكان السائد أن يلجأ الملتزم إلى وقف جزء من أراض وسيته ولايلجأ إلى وقف أراضى الفلاحة إلا نادراً . (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى ، فى القرن الثامن عشر ، ص ٦٩ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

مصر إلى استانبول عدد من كبار المماليك وأسرهم . وسمح السلطان سليمان القانونى فيما بعد لكثير من هؤلاء بالعودة إلى مصر[١] .

وقام السلطان سليم بزيارة إلى الإسكندرية ، وعين نائبًا عنه فى القاهرة يونس باشا . ثم عاد منها وبدأ يستعد لمغادرة مصر بعد أن وصلته أنباء عن تحركات الشاه إسماعيل الصفوى[٢].

وتلقى السلطان سليم وهو فى مصر وفداً أرسله الشريف بركات شريف مكة ، الذى قدم إليه الخضوع ، فأقره سليم فى شرافته وحرّضه على قتل حاكم جدة المملوكى . وأبقى سليم على نظام الشرافة كما كان من قبل مع إنشاء صنجقية عثمانية فى جدة أطلق عليها العثمانيون اسم ولاية الحبش . وعين عليها حاكمًا عثمانيًا يدعى حسين الرومى وكان مرتبطًا بوالى مصر خاير بك[٣] . وهكذا ظهر العثمانيون فى البحر الأحمر وأخذوا يعملون على إنقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى . ولما كان هدف السياسة العثمانية فى البحر قائمًا - كما يرى بعض المؤرخين المحدثين - على أساس أحياء تجارة الشرق فى البحر الأحمر ومصر [٤]. وصنع سليم كما فعل فى دمشق كسوة للمحمل الشريف ، مما أكسبه عطف المسلمين . وقد ترك من عسكره لدى خاير بك نحو خمسة آلاف فارس ونحو خمسمائة رام بالبندق ، وعين أميراً عثمانيًا هو خير الدين باشا نائبًا على قلعة القاهرة . ثم غادر سليم مصر فى ٢٣ شعبان عام ٩٢٣ هـ / ١٠ سبتمبر ١٥١٧م متجهًا إلى دمشق . وكان قد خرج قبل ذلك إلى أستانبول الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله بناء على أوامر سليم [٥]. ويبدو أن إخراج الخليفة من مصر قصد منه عدم تمكين أى تأثير محلى من استغلال سلطته الدينية ضد العثمانيين . كما أن إقامة الخليفة فى أستانبول يضفى عليها مجداً دينيًا كمركز لزعيم المسلمين . ولم تذكر المصادر المحلية بعد ذلك ، ماحل بالخليفة العباسى أو بخلفائه .

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢) نفسه ، ص ١١١ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ٩٥ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٧ - ٢٠٦ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٨ .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

وبقى السلطان العثمانى وحده زعيم المسلمين ، رغم أنه لم يتخذ لقب خليفة ، بشكل جدى حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وذلك فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، وباستيلاء العثمانيين ورثوا السلطنة المملوكية ومسئولياتها فى حماية الحرمين الشريفين ، وأصبحت بذلك زعيمة المسلمين السنيين[١] .

وصل السلطان سليم إلى دمشق فى ٢١ رمضان ٩٢٣ هـ / ٧ أكتوبر ١٥١٧م ، وقد أصبح العثمانيين فيها أكثر استقراراً عما كان عليه يوم دخلها السلطان سليم فاتحًا . وقد عرفنا كيف أنه حاول أنذاك التقرب من الأهالى بإعفائهم من بعض التنظيمات العثمانية الضارة بهم ، لأن الخطر المملوكى لم يقض عليه بعد . ورأينا أيضًا كيف أن كل انتصار للعثمانيين على المماليك فى مصر كان يتلوه اتخاذ إجراءات غير شعبية فى بلاد الشام ، واهتم السلطان سليم فى دمشق بأمور ثلاثة[٢] :

- أدخل بعض التنظيمات العثمانية فى دمشق ، بقصد إيجاد المال للدولة .
- توطيد السلطنة العثمانية خارج دمشق لإيجاد الاستقرار ولحماية قافلة الحج .
- الانتقال بسرعة إلى الأناضول لمواجهة خطر الشاه إسماعيل الصفوى .

ولم تكن التنظيمات العثمانية فى دمشق شاملة أو عقيمة على غرار التنظيمات العثمانية التى تمت فى مصر ، تسيير الأمور بصورة مؤقتة . وبعد يومين من دخول السلطان سليم إلى دمشق أى فى ٢٣ رمضان / ٩ أكتوبر أمر العثمانيون عرفاء الحارات ونفراً من أكابرها بحصر البيوت فى دمشق وكتابة أسماء أصحابها استعداداً لفرض ضريبة على كل شخص فيها . وبالفعل فرض أشرفى[٣] على كل شخص ، ولكن نظراً لاستياء الناس من ذلك عمد

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٣)الأشرفى : يعرف بالشريفى طره لى أو الطره لى أو الطرلى نسبة إلى الطراء (الطغراء) وهو نقد ذهب تركى ضرب فى عهد السلطان مصطفى الثانى (١١٠٦-١١١٥هـ/١٦٩٤-١٧٠٣م) وكان يزن ٢,٦جرام ، وأطلق عليه فى الدولة العثمانية (طغرالى التون) طغراً نسبة إلى نقش الطغراء أو الطره باسم السلطان على أحد وجهى العملة ، وقد أطلق عليه الجبرتى الجنزرلى أو المحبوب الجنزرلى نسبة إلى الحلقة المشرشرة لهذا النقد وهى أشبه بالإطار أو الجنزير (انظر : عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص ٥٧٥ - ٥٧٦) .

العثمانيون إلى حساب مايمكن أن تجمعه هذه الضريبة من المال ، ووزع مجموع ذلك ، بشكل متفاوت على السكان حسب مراتبهم فى الفقر قد خففوا أعباء الطبقات الفقيرة ، دون أن يخسروا شيئًا من المال . وقد فرض العثمانيون إلى جانب ذلك ، ضريبة من القمح على كل حارة فى دمشق . وزاد فى تضجر الناس من العثمانيين هجوم كثير من عساكرهم على البيوت للسكن فيها ، وطلب القاضى العثمانى محاسبة نظار الأوقاف على وارداتهم[١] .

وقد أمر السلطان سليم ببناء جامع وتكية عند قبر محى الدين بن عربى فى الصالحية . ومن شأن ذلك أن يكسبه عطف من رجال الدين وخاصة من الصوفية فى دمشق . وسمح العثمانيون لأصحاب الإقطاعات بالبقاء فى إقطاعاتهم ، ولأرباب الوظائف المدنية بالبقاء فى وظائفهم . ولابد أن هذا الإجراء قد أرضى كثيراً من المنتفعين ، ورغم استمرار كثير من التنظيمات المملوكية التى كانت فى صالح جان بردى الغزالى فى المستقبل . وقد وطد العثمانيون الأمن والهدوء فى دمشق ، وفتكوا باللصوص الذين حاولوا استغلال تبديل السلطة السياسية ،فحفظوا بذلك هيبة حكمهم وحافظوا على أموال الناس وأمنهم . وهكذا نرى أن العثمانيين وازنوا فى سياستهم بين الاستثمار والتسامح فى سبيل استمرار حكمهم[٢] .

واتخذ سليم إجراءات تنظيمية خارج دمشق ، فأبقى الأمراء المحليين الذين أيدوه ، وأزال من السلطنة الذين عارضوه . وقد حاول أولاً القضاء على أمير البقاع البدوى ناصر الدين بن الحنش بسبب ازدياد نفوذه وتحكمه بمنطقة البقاع الغنية التى تمر فيها الطرق الرئيسية بين دمشق وبيروت ، وأيضًا بسبب إيوائه كثيراً من المماليك الفارين . فهرب ناصر الدين إثر سماعه بخروج سليم بنفسه على رأس حملة ضده . وعين السلطان سليم مكانه الأمير محمد بن قرقماش الشركسى ، وأضاف إليه حكم بيروت وصيدا . وقد تضرر الأمراء التنوخيون فى جبل لبنان بسبب تأييدهم لناصر الدين فيما بعد . وكان الأمراء التنوخيون زعماء جبل لبنان زمن المماليك ، إلا أنهم خسروا هذه الزعامة لصالح المعنيين ، وزعيمهم فخر الدين ، الذين أيدوا العثمانيين فى معركة مرج دابق ، فاعترف بهم العثمانيون بهم أمراء على جبل لبنان ، وقدم أمير منطقة صفد البدوى ، ابن طراباى ، خضوعه للسلطان سليم ، فاعترف بسلطته ، وجعله

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٢) نفسه ، ص ١١٤ .

نائبًا على صفد . وكان سليمًا مهتمًا بسلامة الحاج ، ولم يخرج الحاج عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م خوفًا من اعتداء البدو عليهم(١) .

اشتد تهديد الصفويين لمقاطعات العثمانيين فى شرقى الأناضول ، حين كان السلطان سليم منشغلاً فى قتال المماليك فى مصر . واستمرت أنباء تهديد الصفويين ومناوشاتهم مع العثمانيين تصل سليم حين كان فى دمشق ، وعززت تبعًا لذلك ، الحامية العثمانية فى ديار بكر وإزاء هذا الوضع وبعد غياب فى بلاد الشام ومصر دام سنة ونصف ، غادر سليم دمشق فى ١٠ صفر عام ٩٢٤هـ / ٢١ فبراير ١٥١٨م وكان قد عزل عنها وإليها شهاب الدين أحمد بن بخشى الرومى ، فعين بدلاً منه جان بردى الغزالى الذى كوفىء أخيراً عى خيانة المماليك ، ونال ماطمع إليه على غرار خاير بك . وكانت المنطقة التى عهد إليه بولايتها تمتد من معرة النعمان إلى عريش مصر . وقد عين ولى الدين بن الفرفور الدمشقى لمنصب القاضى الحنفى فى دمشق ، وجعل قضاة المذاهب الأخرى فى ولاية الشام تحت إمرته . وفى ٢٣ رمضان ٩٢٤هـ / ٢٨ سبتمبر ١٥١٨م . وصلت إلى دمشق أنباء عن استيلاء العثمانيين لبعض القلاع التى كانت استولت عليها قوات الشاه إسماعيل الصفوى(٢) .

٣ - أسباب ضعف المماليك ونهاية دولتهم :

يرجع هذا الضعف إلى جذور عميقة على رأسها :

أولاً : فساد النظام الإقطاعى ، الذى قام على أساسه الحكم المملوكى ، وعجز هذا الحكم عن الوفاء بالمطالب الأساسية لبقائه ، فالدولة المماليكية دولة إقطاعية بيروقراطية يسند وجودها اقتصاد متين وجيش قوى ، وأرض مصر التى هى ملك السلطان توزع إقطاعيات على جنده وأى هزة زراعية معناه إنهيار النظام وبالتالى الدولة ، وإذا حرصت الدولة ، عندما عجزت الأرض التى أهملوها عن الإيفاء بمتطلباتهم ، على البحث عن موارد مالية جديدة تتمثل فى رفع الضرائب وتحصيلها مقدمًا ، ثم تنشيط التجارة عبر بلادهم تعويضًا عن هذا النقص المادى . وقد ساعدهم على هذا تحول التجارة نحو مصر والشام وتدفق الأموال على خزائنهم . وكلما زادت احتياجاتهم زاد تعلقهم بالتجارة ، واحتكارهم لكل مصادرها ،

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٢) نفسه ، ص ١١٥ .

فأقصوا عنها الكارمية ، وتسلموها على غير مران وأجبروا التجار الأجانب على شراء التوابل الشرقية قسراً وبالسعر الذى يحددونه ، والويل والعقاب للمتنع عن الشراء ما أدى إلى تذمر الأجانب وعزوفهم عن الحضور لمصر والشام وتكدس المتاجر وبوارها . فكان هذا بالإضافة فساد نظام الاحتكار وانهيار النظام الإقطاعى الزراعى ، وجهل المماليك بالنظام التجارى إيذانًا بالانهيار القريب للاقتصاد وللدولة ، ولم يبق إلا وضع النقط عى الحروف وإعلان الانهيار ، وتم هذا فعلاً فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بالحدثين الخطرين : تحول التجارة ، وسقوط دولة سلاطين المماليك(١) .

ثانيًا : العوامل الداخلية : التى تكمن فى طبيعة تكوين الدولة نفسها والصراع بين أمرائها على السلطة والنفوذ ، فقد اختل نظامهم الاجتماعى والحربى ، لإهمالهم الأسس التى قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى ، ولم يعودوا يصلون لمصر صغاراً يتعلمون الطاعة ويتحلون بالدين والأخلاق ، ويتدربون على الحرب وفنونها ، بل ولوا شبانًا تتنازعهم أهواء واتجاهات وتعليم متضارب ، ففقدوا روح النظام والطاعة ، وحل محلها العصيان والتمرد ، وفشا بينهم التنازل عن الاقطاعيات والمقايضة بها من الباطن ، وخرجت الأراضى والذمم ، وانقسم المماليك شيعًا وأحزابًا ، يتجسسون بعضهم على بعض ، ويعمدون إلى حوادث النهب والسلب ويتنازعون السلطة والحكم . وظهر ذلك بوضوح منذ وفاة السلطان قايتباى ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م حتى تولى الغورى السلطة عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م ، وتأرجح الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهوراً وأيامًا ، مما يعطى انطباعًا صادقًا بمدى الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت البلاد فى الدور الأخير من حياة هذه الدولة ، حتى أن كبار الأفراد كانوا يعزفون عن تولى السلطة خوفًا من القتل . كما فعل قنصوه الغورى الذى اشترط لقبوله الحكم ألا يقتلوه إذا أرادوا عزله ، ولكن كانت الأحداث السياسية أقوى من أمنياته ، حتى أن مماليكه الجلبان كثيراً ما عصوه بسبب النفقة (٢).

ثالثًا : العوامل الخارجية : التى تضافرت جميعها لهدفين أساسين أولهما القضاء على مصدر ثراء الدولة المدعم لقوتها العسكرية ، وهو التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين

---

(١)نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٣٧٠ .

(٢) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

الشرق والغرب . وثانيهما القضاء على الدولة ذاتها ، ووقع الهدف الأول على عاتق القطالنة والبرتغاليين ، فى حين وقع الثانى على عاتق العثمانيين ، مع ما بين الطرفين من تباعد وتناقض وإن اتحدت الأهداف . ويقترن العمل الأول كذلك بنمو القوميات فى أوروبا ، وخاصة فى البرتغال وأسبانيا ونجاح الأخيرة فى إنهاء الحكم العربى فى الأندلس عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م . أما محاولة تعقب العرب فى عقر دارهم ، فقد وقع عبؤه على البرتغاليين الذين حاولوا الاتصال بملك الحبشة المسيحى لتطويق المماليك، وفى سبيل ذلك داروا حول إفريقيا ، ووصلوا للهند، ودمروا الأسطول المماليكى فى وقعة ديو ٩١٥هـ / ١٥٠٩م ، وأنهوا السيطرة المماليكية على المياه والتجارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر . أما الهدف الثانى فقد وقع على عاتق العثمانيين[١].

أما عن العلاقات المصرية العثمانية بعد ذلك فقد قضى العثمانيون على السلطة المملوكية وفتحوا سوريا ومصر فى ١٥١٦-١٥١٧، بما يشكل مرحلة كبرى فى العملية المزدوجة الخاصة بتكوين اقتصاد عالم عثمانى وإعادة بناء جماعة موحدة من المؤمنين . وينبع إدماج العالم العربى فى النظام العثمانى من هذه الأزمة المزدوجة : بداية تحول الطرق التجارية التقليدية إلى الهند، والراجع إلى اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى الذى يمر برأس الرجاء الصالح، وتصدع المجال الإسلامى السنى فى القرون الأخيرة للعصور الوسطى، والناشئ عن تحول الإسلام الشيعى فى فارس إلى دين للدولة تحت قيادة الصفويين[٢].

والحال أن السلطنة العثمانية البارزة بالفعل فى عالم الإسلام السنى بفضل فتحها للبلقان على حساب القوى المسيحية وبفضل الاستيلاء على القسطنطينية الذى يمنحها الاستمرارية الامبراطورية لروما ولبيزنطة، إنما تصبح أكثر من ضرورية للدفاع عن مصالح الجماعة فى وجه هذا الخطر القاتل المزدوج ، وبعد سنوات قليلة من فتح مصر، فإن أفريقيا الشمالية ، فيما عدا المغرب الأقصى، تنضم بدورها إلى العثمانيين، ومما له دلالته أن خلافة العباسيين الشبحية فى القاهرة تختفى دون ضجيج وأن الشارات التى ترمز إلى شرعية واستمرارية الخلافة تنتقل إلى السلالة الحاكمة العثمانية التى تصبح حارسة للمدن المقدسة وحامية للحج وخلال الأزمنة

١- نعيم زكى ، المرجع السابق، ص٢٧٣ .

٢- هنرى لورنس، شارل جيليسى، جان كلود جولڤان ، كلود ترونيكر، الحملة الفرنسية فى مصر، بونابرت والإسلام، ترجمة بشير السباعى، دار سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٥م، ص٧٣ .

التـاليـة، يكتـفى البـاديشـهـات، أو السـلاطين من آل عـثـمـان، بدمج الخلافـة فى الألقـاب السلطانيـة، المتـوفرة بما يكفى بالفعل. لكن أحداً لاتخامـره شكوك حـول ذلك، فـهم يمارسون بالفعل كامل الوظائف الضروريةللدفاع عن الإسلام السنى ضد جميع خصومه .

والواقع أن الصفويين ، فى أثر نزاعات عسكرية عديدة ضاعفت منها مواجهة ايديولوجية وحرب دعائية بين الإسلام الشيعى والإسلام السنى. وفى داخل الامبراطورية العثمانيـة تعرّض السكان الشيعة لقمع قاس من جراء محاولاتهم الانتفاضية وتعرضوا بشكل متواصل للتحجيم وللسيطرة وغالبا ما جرى ابعادهم أو دفعهم إلى الهرب بعيداً عن المناطق الاستراتيجية . وهذا التصدع لمجال الإسلام يجعل من الإمبراطورية الممثل الجديد للجماعة الإسلامى . فهى لا جار لها غير المغرب الأقصى الذى يتميز بتقاليده الدينية الخاصة والإمبراطورية الفارسية الشيعية وهى- الامبراطورية العثمانية - لاتحتفظ إلا بعلاقات باهتة مع القوى السنيـة فى أفغانستان والهند (١).

وفى البـحر الأحـمر وفى الخليج العربى وفى المحيط الهندى، يبنى العثمـانيـون أساطيل ويحاربـون البرتغاليون بل إن إسطولا عثمانيا يتحرك فى عام ١٥٣٨ من السويس لكى يصل إلى الهند ويجرى انشاء قاعدة أمامية فى اليمن. وتستمر الحرب البحرية أكثر من عشرين سنة وتكفل للعثمانيين السيطرة على البحر الأحمر، ويعاد مؤقتًا فتح الطريق التقليدى لتجارة الهند . ولم يك بوسع البرتغاليين تدبير القوة والامكانات الضرورية لوقف تجارة البحر الأحمر بصفة مستديمة.

وكـان لابد من انتظار أشكال التقدم الفنى التى عرفـهـا القرنان التـاليـان ، وظهور سفن الإنجليز والهولنديين البحرية الضخمة حتى يمكن للبحر الأحمر، المحظور على الأوروبيين، أن يكف عن أن يكون مهمًا من الناحيـة الاقتصادية كطريق للمرور بين أوروبا والهند. وقد رأى المستشرقون والمؤرخون فى القرن الثامن عشر فى نهاية تجارة التراتنزيت بين الهند وأوروبا أحد الأسباب الرئيسية للانحطاط المتصور للامبراطورية العثمانية (٢).

١- هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق، ص ص٧٣-٧٤ .

٢- هنرى لورنس، المرجع السابق ، ص٧٤ .

لقد حددت موقعة مرج دابق عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م الموقف بالنسبة للشام، كما حددت موقعة الريدانية عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م مصير مصر والشام معا ، وكثر الجدل حول سلطنة مصر في وقت لايحتمله النظام ولا الظروف التى تمر بها البلاد ، فعرض منصب السلطنة على نائب السلطان طومان باى ، الذى رفض قبوله فى أول الأمر، ثم قبله بعد أن أقسم له الجميع على المصحف بعدم خيانته وإطاعة أوامره [١]. وخضعت مصر للسيادة العثمانية ، وأصبحت ولاية بعد أن كانت مقرا للحكم ابان العصر المملوكى. وكانت لوالى مصر فى القرن السادس عشر مكانة خاصة دون الولايات الأخرى، حيث خلع خاير بك على نفسه لقب «ملك الأمراء» وكان ذلك أرفع من لقب بكلربك (أمير الأمراء) لكنه دون لقب سلطان . كان يصبو إلى أن يكون هذا اللقب رمزا لوضع مصر الخاص كحليف للباب العالى تتميز به عن باقى ولايات السلطنة الأخرى . وكان لخاير بك جيشه الخاص وحاشيته مع برتوكول مملوكى مثالى ، كما أنه تمتع باستقلال تام فى شؤونه الداخلية، واحتفظ كذلك بالتنظيمين الدينى والإدارى السابقين فى البلاد ، وحافظ على التقاليد المحلية فى حياة الدولة، وكان انكشارية مصر خلافا لانكشارية استانبول وغيرها من المدن العثمانية يتقاضون راتبا شهريا على غرار «مماليك الخندكار» [٢].

وكان يطلق لقب بكلربك على والى مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وفى أواخر القرن السادس عشر بدأ يندر وجوده فى الوثائق العثمانية، وأخذ يحل محله تعبير «ايالت» للدلالة على ولايات الدولة الكبرى[٣]. هذا بينما كان الولاة فى جميع ولايات الامبراطورية وخاصة الولايات العربية، يعد بها إلى ولاة يحملون رتبة وزير ولقب باشا وبطبيعة الحال، كان لدرجة أهمية كل ولاية هامة من حيث عدد سكانها وحجم نشاطها الاقتصادى والدخول التى يمكن استخلاصها منها، كان لها ولاة يحملون رتبة وزارية[٤] فعقب فتح مصر عين يونس باشا الوزير الأعظم واليا عليها وبعد انتهاء مدة ولاية خاير بك بوفاته.

١- محمد بن إياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٥ ، ص٨٥، ٨٦ .

٢- المصدر نفسه، ج٥، ص٣٦٧، ص٤٠٩ .

٣- سيد محمد السيد ، تاريخ مصر فى العصر العثمانى، فى القرن ١٦ ، ص٦٨-٦٩ .

٤- أندريه ريمون، الولايات العربية (القرن السادس عشر- القرن الثامن عشر، ضمن كتاب الدولة العثمانية ، ج١ اشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى ، ص٥٣٠ .

منحت مصر للوزير الثانى مصطفى باشا (٩٢٨-٩٢٩هـ / ١٥٢١-١٥٢٢م) ثم الوزير الثانى مصطفى باشا (٩٢٩-٩٣٠هـ / ١٥٢٢-١٥٢٣م) [١].

ونظرا لأهمية مصر بالنسبة للدولة العثمانية ، فإنها قد قامت بتعيين وزراء القبة على بعض ولاياتها الهامة مثل مصر ، وبودين ، وبغداد ، فقد استدرك الأمر، وبدأ فى تشكيل وزارى جديد للقيام على شؤون ولايات الدولة الهامة، وعرف المنتسبون لهذا المنصب باسم «وزارة الايالة» أو وزراء الخارج، وذلك لمواجهة احتياج الدولة لرجال يمكن منحهم صلاحيات واسعة فى المناطق الحساسة منها، ويظهر هذا الأثر جلياً فى القرنين التاليين فمنذ عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م وامتدادا إلى عام ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م (امتداد من القرن العاشر الهجرى إلى الثانى عشر الهجرى) بدأ تعيين أمير أمراء مصر برتبة الوزارة بصفة دائمة [٢]. وكان أيوب باشا (١٠٥٤-١٠٥٦هـ/ ١٦٤٤-١٦٤٦م) وعلى باشا (١١٥٣-١١٥٤هـ/ ١٧٤٠-١٧٤١م) (وأحمد باشا كور، قد تولوا منصب الصدر الأعظم قبل أن يتولوا منصب والى مصر. وكان محمد رامى باشا مفوضاً مطلق الصلاحيات للسلطان خلال التفاوض على معاهدة كارلو فيتز ثم صدراً أعظم قبل أن يصبح واليا من عام ١١١٦-١١١٨هـ / ١٧٠٤-١٧٠٦م) وبالمقابل فإن باشوات القاهرة السابقين، غالبا ما سوف يستدعون لتولى مناصب رفيعة ففى عام ١١٥٦هـ / ١٧٤٣م، غادر يحيى باشا القاهرة التى ظل بها لتولى مهام القابودان [٣].

وكانت لأمير أمرائها صلاحيات واسعة فى المنطقة ، لتثبيت أقدام الإدارة العثمانية، وتعتبر هذه الولاية أو تلك مقاطعة خاص يمنح لأمير الأمراء مقابل إدارة الولاية وإعداد جنده، وتجهيزهم وخروجهم تحت قيادته وقت الحرب، فقد بدأت الإدارة العثمانية فى التعامل مع ايالة مصر بطريقة مختلفة ، حيث ضمت أراضى الايالة للدولة ، وخصص مرتب سنوى للوالى عرف باسم ساليانة، وكما منعت الادارة العثمانية بقايا المماليك من اتخاذ أراضى الايالة ، كمقاطعات مملوكة لهم، وإعادتهم للدولة ثم منحها لهم ، أو لغيرهم بطريق الالتزام، لم تعط هذه الأراضى أيضا لأمراء السناجق ولا لكشاف الولايات كأراضى تيمار أو زعامة ، مقابل خدماتهم كما كان يحدث من قبل ، وإنما كانت تدفع لهم ساليانات (مرتبات سنوية) من

١- سيد محمد السيد، تاريخ مصر فى العصر العثمانى، ص٧٠-٧١ .

٢- المصدر نفسه، ص٧٢ .

٣- أندريه ريمون، الولايات العربية ... نفس المصدر، ج١ ، ص٥٣٠ .

حصيلة خراج النواحي الموجودة تحت إشرافهم ، وكانت ترد المبالغ المتبقية إلى خزينة الدولة[١]. وفي ظل العلاقات المصرية العثمانية، نجد أن الدولة العثمانية جعلت مصر مسؤولة عن تنفيذ سياستها ، والحفاظ على أملاكها ومصالحها في العالم الإسلامي والعربي ، ووضح ذلك عندما أعلن جان بردى الغزالي الثورة في عام ٩٢٨هـ / ١٥٢٠-١٥٢١م وحاصر حلب. وحاول الانفصال بحكم الشام، واستعان السلطان سليمان القانوني بوالي مصر خاير بك ، للقضاء على هذه الثورة[٢] وتم اتخاذ الاجراءات لعثمنة الادارة تدريجيا ، حيث أرسل السلطان الداماد ابراهيم باشا في عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م إلى مصر، وبدأ بالاصلاح القضائي فعوضا عن نظام القضاة الأربعة الكبار «قضاة الشرع» استحدث منصب قاضي القضاة في القاهرة الذي أخذ في اصدار أحكامه وفقا للمذاهب الأربعة[٣] وفي الوقت نفسه ، تم حل الجهاز الضخم من المساعدين والأمناء الذين كانوا يعاونون القضاة وهم من بلغ عددهم مئات عدة، وعين قضاة من المصريين بدلا منهم، وأعيد تنظيم إدارة الأوقاف ، وأملاك الخزينة ، وقلل الضرائب ، لكي تتفق والنمط العثماني[٤] واجتمع بأصحاب الشكايات من الشعب واستمع إليهم، وفي جامع عمرو بن العاص [٥].

وبالنسبة لتنفيذ والي مصر سياسة الدولة العثمانية وخاصة في إدارة منطقة الحرمين الشريفين، فقد ارتبطت هذه الأراضي المقدسة بوالي مصر، وخاصة أنه أثناء وجود السلطان سليم الأول في مصر، استقبل أبا نمي بن الشريف بركات الثاني بن محمد - شريف مكة الذي جاء ليعلن خضوع وطاعة والده مثلما كان يخضع سابقا للسلطان المملوكي، فأقره سليم في شرافته، وحرضه على قتل حاكم جدة المملوكي، وأبقى سليم على نظام الحبش ، كما كان من قبل مع انشاء صنجقية عثمانية في جدة أطلق عليها العثمانيون ولاية الجيش، وعين عليها حاكما عثمانيا يدعى حسين الرومي وكان مرتبطا بوالي مصر خاير بك وهكذا ظهر العثمانيون

١- سيد محمد السيد ، مصر في العصر العثماني ، ص٧٥ .

٢- جلال يحيى، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ص٣٤٢ .

٣- محمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور ... نفس المصدر ، ج٥ ، ص٤٥٣ .

٤- نيقولاي ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦-١٥٧٤)، ص١١٤ .

٥- بليماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ، ص٢٦٥ .

فى البحر الأحمر وأخذوا يعملون على انقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى [١].

ولقد ارتبطت إدارة الحرمين الشريفين المالية منذ دخولها تحت الحكم العثمانى ، بإيالة مصر، حيث كان أمير الأمراء يقوم بتنفيذ الأوامر السلطانية فى الحرمين، كما يعرض حاجة هذه المنطقة للتعينات، فكانت الدولة تقر اقتراحاته، وكانت معظم الوظائف الإدارية فى الحرمين توجه لرجال الدولة، حيث كانوا يعينون من استانبول مباشرة بموجب عرض أمير الأمراء . ولكن فى أواسط القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى ، بدأت هذه الوظائف الإدارية الهامة مثل نظارة الحرمين الشريفين «ومشيخة الحرم» فى حملات الدولة فى المنطقة، كانوا أيضا يكلفون كبقية جماعات مصر العسكرية بخدمات الحماية فى الحرمين الشريفين ، وفى إيالة اليمن وإيالة الحبشة، وبالاشتراك فى الفرق العسكرية المعدة لاصطحاب الخزينة الارسالية المصرية إلى الاستانة [٢].

ولقد كانت مصروفات الحرمين الشريفين من الخزينة المصرية، ممثلة فى الصرة النقدية، والمصروفات العينية، وتتمثل فى اخراجات حرمين شريفين، واخراجات الكسوة الشريفة، وتعينات أشراف الحرمين الشريفين، ومصروفات الحرمين من الأوقاف وهى ممثلة صرة الأوقاف السلطانية (الصرة الرومية) مثل وقف الدشيشة الكبرى، والدشيشة المرادية، ووقف الدشيشة المحمدية، ووقف الأحمدية[٣] كما استمر أيضا خروج موكب أمير الحاج من مصر على رأس الحجاج الذين يتوجهون إلى الحرمين لأداء فريضة الحج عن طريق مصر ، حتى أن الدولة كانت تعلن حالة الطوارئ فى ثغورها لحماية قوافل الحجاج المتوجهين إلى الحرمين من كل مكان ، وكان من اختصاص أوجاق المتفرقة[٤] وكان الباشا العثمانى العثمانى فى مصر يعتبر فى كثير

١- عمر عبد العزيز عمر، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، المشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثامن عشر، ص٩٥ .

٢- سيد محمد السيد، مصر فى العصر العثمانى، ص٣٢٠ .

٣- سميرة فهمى عمر، امارة الحج فى مصر العثمانية (٩٢٣-١٢١٣هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ كلية الآداب بالاسكندرية عام، ١٩٨٣م، ص٢٦ .

٤- ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٢١٠ .

من فترات التاريخ مسؤولا عن الحالة السياسية والاقتصادية فى الحجاز [١]. بالإضافة إلى ذلك ، كانت مصر مختصة بتزويد قلعة المدينة المنورة بحاميتها التى عرفت فى الوثائق باسم جماعة قلعة مدينة منورة. وكان رجالها يتقاضون من خزينة مصر مرتبات نقدية وعينية[٢].

وأنه كان على مصر أن ترسل لكل حملة سلطانية فرقة من قواتها الخاصة تتكون عادة من ثلاثة آلاف وخمسة آلاف رجل، يؤخذون من الفرق العسكرية ويقودهم آغا الانكشارية أو سردار يمثله . وكانت أجورهم عادة جزءا من التزامات خزينة مصر، ولكن تكاليف نقلهم بالبر أو بالبحر والامدادات الغذائية اللازمة لهم كانت تتحملها الخزينة الإرسالية، وقد وصلت تلك التكاليف فى بعض السنوات إلى ثلاثين مليون بارة، وكان المفروض أن تقدم خزينة مصر لهؤلاء الجند «ترقيات بمناسبة سفرهم»[٣].

وكان على الخزينة أيضا أن تتحمل نفقات القوات العثمانية المرسلة إلى الجزيرة العربية واليمن، والتي كان تأتى بالبحر إلى دمياط، وتمر بالقاهرة قبل الذهاب إلى مقرها، وكانوا يبقون فى مصر مدة من الوقت، قد تصل إلى ستة أشهر، وكان مصرحا للباشا أن يقدم لهم من حساب مبلغ الخزينة الإرسالية تكاليف مؤونتهم وإقامتهم وكانت هذه التكاليف كثيرة فى القرن السادس عشر. كما كان يدفع من الخزينة الارسالية أيضا جزءا من نفقات امدادات قطع الأسطول العثمانى التى تزور موانئ البحر المتوسط [٤].

ولقد ألقيت على والى مصر مهام أخرى في اليمن والحبشة ، وظهر ذلك واضحا عندما أصدر خاير بك والى مصر أوامره عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م إلى نائب جدة بضم السواحل اليمنية[٥] ولقد كان من أهداف الدولة العثمانية السيطرة على الجنوب العربى ، ولم يستطع السلطان سليم أن يعد حملة لفتح اليمن، لأنه كان مشغولا فى أوروبا، وعلى الرغم من ذلك لم يغب عن ذهنه مراقبة الحوادث فى البحر الأحمر [٦]، وشرع فى بناء قوة بحرية عثمانية، إلا

١- فائق بكر الصواف، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز فى الفترة ما بين ١٢٩٣-١٣٣٤هـ/ ١٨٧٦-١٩١٦م، ص٤٥ .

٢- ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة .. . نفس المرجع، ص٢١٣ .

٣- المصدر نفسه.

٤- المصدر نفسه ص٣٥٨ .

٥- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٣٢ ، عبد الحميد البطريق، من تاريخ اليمن الحديث ، ص٢٢ .

٦- سيد مصطفى سالم، الفتح العثمانى الأول لليمن، ص١٤٦ .

أنه توفى قام ابنه سليمان باتمام هذا المشروع ، وعمل جاهدا على صد الخطر البرتغالى ، فأصدر أوامره إلى واليه فى مصر سليمان باشا الخادم فى عام ٩٤٤هـ / ١٥٣٨م ، باعداد حملة عرفت باسم حملة الهند وبدأ بانشاء أسطول فى السويس مستعينا ببعض البحارة البنادقة الموجودين بالاسكندرية [١]، وبعد أن تم بناء أسطوله توجه إلى الهند ، وانضم إليه أسطول آخر بقيادة بربروس[٢] وحددت مهام سليمان باشا وهى: العمل على تدعيم الوجود العثمانى في البحر الأحمر، وإنهاء مظالم البرتغاليين ضد مسلمى الهند، وإعادة فتح طرق تجارة الهند أمام التجار العرب المسلمين ، وطرق المرور للدولة العثمانية، لمصر كولاية عثمانية[٣]. وقد اتخذت الدولة العثمانية اجراء آخرا مهما فى عام ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م حيث عينت الدولة بيرى رئيس ، قائدا عاما للأسطول العثمانى فى المحيط الهندى بالإضافة إلى منصب قابودان أسطول مصر[٤] وعندما قامت الثورة فى اليمن عام ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م، أصدرت الدولة العثمانية أوامرها إلى والى مصر داوود باشا بالقضاء على هذه الثورة، فأرسل بيرى باشا بالأسطول وقضى عليها وكوفئ على ذلك[٥].

وكانت الأوامر الصادرة من الدولة العثمانية دائما إلى كل من والى مصر ووالى اليمن. بضرورة التعاون من أجل مواجهة خطر البرتغاليين الذين يهددون السفن التجارية الواردة من الهند، كما أن على والى مصر تقديم البحارة الحربيين، والمجدفين ، والتموين، وتضع بعض الشروط فى هؤلاء فبالنسبة للحربيين ألا يكونوا من الجراكسة أو العربان الشيوخ، أما المجدفون فيكونوا من المجرمين غير المحكوم عليهم بالاعدام[٦] مع ضرورة إرسال الفلاحين ، والحرفيين وخاصة الأساكفة، ويرجع ذلك إلى أن الجنود العثمانيين بمصر تقاعسوا عن الاشتراك

١- جلال يحيى ، العالم الإسلامى ... نفس المصدر ، ص٠٠٤ .

٢- بليمار أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص٣٢٧ . .

٣- المصدر نفسه، ص٣٢٨ .

٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى، فى أصول التاريخ العثمانى ، ص٩٨ .

٥- سيد مصطفى سالم، الفتح العثمانى الأول لليمن، ص١٩٦ ، محمود على عامر، النظم الإدارية فى اليمن، ص٩٨ .

٦- محمود على عامر، النظم، نفس المصدر، ص١٠٥ .

فى الحروب، لأنهم ألفوا الراحة والدعة وتنعموا بالملذات المتنوعة ، وتعلقوا فيها بكل أسباب الحياة ، وكثرت أولادهم ، وصارت مصر موطنا لهم [١].

وكلف بيرى رئيس عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م ، بالعمل على طرد البرتغاليين من مسقط ، فاستطاع تأدية مهمته ، ثم اتجه إلى هرمز وحاصرها ، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة عليها ، فاضطر لرفع الحصار عنها ، نتيجة لوصول أسطول برتغالى وهبوب عاصفة ، مما أدى إلى تشتيت أسطوله فعاد إلى مصر محملا بالأموال التى جمعها ، وعندما عاد أمر السلطان العثمانى بقتله متهما إياه بالخيانة[٢]، ثم كلف والى مصر مراد باشا عام ٩٦١هـ / ١٥٥٣م بقيادة الأسطول والتوجه إلى الخليج العربى، لجمع بقايا أسطول بيرى رئيس ، وعندما وصل إلى البصرة ، انضم إليه أسطول عثمانى ، واشتبكا مع الأسطول البرتغالى الذى أوقع الهزيمة بالأسطول العثمانى ، واضطر مراد باشا إلى الانسحاب عائدا إلى استانبول [٣].

وفى عام ٩٧٢هـ / ١٥٦٣م أصدرت الدولة العثمانية أوامرها لوالى اليمن بتسهيل مهمة الأسطول المرسل من السويس إلى المحيط الهندى لمواجهة خطر البرتغاليين- مع تسليحه بالذخيرة وإمداده بالتموين[٤] بالإضافة إلى ذلك يكلف الوالى العثمانى بمصر ضرورة إمداد الحملات المرسلة إلى اليمن بالمهمات والجنود والأسلحة والجمال، والبغال التى يشرف على جمعها مشائخ القبائل العربية اليمنية الموجودة بمصر، مع تحمل الخزينة المصرية مرتب والى اليمن النقدى والعينى [٥]. وعندما قام التمرد فى اليمن ضد الحكم العثمانى عام ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م، ويبدو أنه كان قويا لدرجة أن الدولة طلبت من والى مصر قوجا سنان باشا باعداد حملتين إحداهما بحرية بقيادة قورد أوغلو والأخرى برية بقيادة الوالى، واستطاعت هذه الحملة القضاء على هذا التمرد[٦]. أما بالنسبة للحبشة، فقد ألقيت على والى مصر أيضا مهام بها،

١- قطب الدين النهروانى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، ص١٩٩، محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٤، ص١٣٤ .

٢- سعيد أحمد برجاوى ، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسى والعسكرى، ، ص١٢٣-١٢٤ .

٣- محمد أنيس ، الدولة ... نفس المصدر، ص١٣٤ .

٤- محمود على عامر، النظم... نفس المصدر، ص١٠٢ .

٥- المصدر نفسه، ص١٠٩ .

٦- ابن الديبع ، الفضل المزيد فى أخبار زبيد، ص٧٥ ، قطب الدين النهروانى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، ص٢٠٩ ، بليماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية، ص٣٦٢ .

فقد أرسل سليمان باشا الخادم عام ٩٦١هـ / ١٥٥٣م أزدمير بك بأسطول فى النيل بهدف الكشف الجغرافى ، واتجه الأسطول ووصل إلى النوبة والبحر الأحمر فى سواكن ، ثم ضم إليها بعد ذلك جزءا كبيرا من أرتيريا وآخر من الحبشة، وارتبط هذا الجزء بولاية مصر إداريا، ونظرا لبعد هذه الأجزاء عن القاهرة ، فقد وجد من الأفضل تأسيس ولاية الحبشة مع تعيين أزدمير باشا واليا عليها عام ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م [١].

ونظرا لوجودها فى أقصى حدود الدولة الجنوبية حيث كان أهالى هذه المنطقة من ذوى الطبيعة القبلية ، يقومون بحركات عصيانية ومشاحنات مستمرة مع الإدارة العثمانية هناك، نشأت فكرة تعيين فرق جند مصر وجند الدركاه العالى للحفاظ على الأمن فى تلك المناطق ولحماية الحدود فى الصعيد، إلحاقها بايالة الحبشة، حتى يتيسر لقوات الدولة القضاء على حركات عصيان القبائل العربية التى كانت موجودة فى المناطق التى كانت تفصل بين ايالتى الحبشة ومصر، مع امداد مصر لها بالحبوب والبارود [٢]. كما أن الدولة العثمانية أعطت لوالى مصر صلاحيات مطلقة، كما أن تعيين ولاة الحبشة ، كانوا دائما من مصر، ممن كانوا على معرفة جيدة بعادات الأهالى هناك بحيث أصبحت الإدارة العثمانية جزءا لايتجزأ من التشكيل الإدارى فى مصر، بالإضافة إلى ذلك، فان احتياجات الحبشة الضرورية والطارئة توفر لها من مصر وإن لم يتوفر فيها ذلك فيرفع الأمر مباشرة إلى استانبول عن طريق والى مصر ، وبموجب هذا كانت الدولة تعمل على تحويل جميع الأمور بايالة الحبشة إلى والى مصر لكى يبت فيها[٣].

هذه بعض المهام التى كلف بها والى مصر، وقام بتنفيذها تجاه البحر الأحمر والمحيط الهندى، أما بالنسبة للبحر المتوسط، فقد أوكلت الدولة العثمانية مهمة أساسية على قابودنات مصر فى البحر المتوسط مثل دمياط والاسكندرية بالذات، بامداد الأسطول العثمانى فى شرق البحر المتوسط وغربه بارسال الجنود المطلوبين من الأوجاقات العسكرية المختلفة مثل مستحفظان ، وعزبان وجاوشان إلى أماكن القتال وعليه أن يتفق مع السفن التى تنقلهم، مع

١- بليماز أوزترنا، تاريخ الدولة العثمانية، ص٣٣١ .

٢- سيد محمد السيد ، مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٠-٤٤١ .

٣- المصدر نفسه، ص٤٤٤ .

دفع أجـور تلك السـفن[١]. كما أنه كان يقوم باعداد الذخيرة اللازمة لهم[٢] وكـان من واجبه الاحتفاظ بخمسين سفينة على الأقل فى الاسكندرية بصفة احتياطية يقدمها عند اللزوم[٣].

ولذلك ظهر دور مصر فى البحر المتوسط فى إطار هذه العلاقات ، وعندما قام السلطان العثمانى سليمان القانونى بحصار جزيرة رودس عام ٩٦٨هـ / ١٥٢٢م ، أرسلت مصر ٢٠ سفينة حربية مع بعض الجنود من الأوجاقات العسكرية الموجودة بالاسكندرية، مع تموينهم من المواد الغذائية ، وتم الاستيلاء على هذه الجزرة بفضل المساعدة المصرية [٤]. كما ألقيت أعباء أخرى على مصر، وهى القيام بدوريات منتظمة فى موسم الربيع بين إيطاليا ورودس والاسكندرية لمواجهة سفن القراصنة ، كما صدرت الأوامر لقابودان الاسكندرية لحراسة سفن تجار المسلمين حتى تتجاوز الأماكن الخطرة فى البحر المتوسط، كما صدرت الأوامر للقابودونات فى مصر بضرورة الانضمام إلى الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط بأسلحتهم وذخيرتهم وتموينهم فى حالة القيام بعمليات حربية[٥] أما فى حالة السلم فإنه يتعين بقاء جزء من الأسطول فى الموانئ ، ويقوم الجزء الآخر بأعمال دورية منتظمة فى البحر المتوسط.

أما بالنسبة للعلاقات الخارجية لولاية مصر، لقد تولتها الدولة العثمانية مع دول العالم ، بحكم خضوع مصر وغيرها من الولايات العربية لها منذ عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وحرمت مصر منذ ذلك الوقت من ممارسة سيادتها فى إقامة علاقات متوازنة مع القوى الدولية، واستمرت علاقاتها مع الخارج من خلال وضعها لكيان الدولة العثمانية ، وكان أوضح مظهر لهيمنة الدولة على الأمور الخارجية هو التزام الولايات العربية ومن بينها مصر بتطبيق المعاهدات التى

١- سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية ، سجل رقم ٥٥، مادة ٥٦، بتاريخ ١٢ ربيع الثانى عام ١٠٢٩هـ/ ١٦١٩م.

٢- سجل رقم ٦٣، مادة ٢٣١، عام ١١٢٨هـ / ١٥٧١م.

٣- S.J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution , pp. 80-81 . Idem. The Financial and Administrative Organization and development in ottoman Egypt , pp. 184-188 .

٤- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص٢٦٣ .

٥- سيد محمد السيد ، مصر .. نفس المصدر، ص٣٣٨ - ٣٣٩ .

تبرمها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية على أراضيها وإن كانت هذه الدولة التى لها علاقات دبلوماسية مع الدولة العثمانية، توفد ممثلين لها «قناصل فى الولايات العربية ، لرعاية مصالح التجار والرعايا التابعين لهذه الدول، دون أن يمتد هذا إلى حد إقامة علاقات سياسية، مع موظفى الولاية كالباشا » ممثل السلطة المركزية أو القوى المسيطرة ، وإلى جانب هذه العلاقات المحدودة بين الولايات والعالم الخارجي فإن عدة عوائق تواجدت لتزيد من بعد الولايات عن العالم الخارجى، فكان هناك العائق الدينى ، المتمثل فى الاعتقاد السائد عند القاعدة العريضة من المسلمين فى الولايات العربية، بأن أوربا تلك البلاد المسيحية الصليبية التى لاتقترب من بلاد الإسلام إلا لإيذاء المسلمين، فكأن الانعزال عن أوروبا هو الأمان والحفاظ على الإسلام[1].

وكان العائق الاجتماعى يقف فى وجه تحقيق الاتصال بين الولايات والعالم الخارجي بسبب أزمة الثقة بين المسلمين والأجانب ، ويمكن ملاحظة ذلك فى أسلوب التعامل مع الأوروبيين المشتغلين بالتجارة العربية، إذ كانوا يعزلون فى «خانات» أو أحياء خاصة بعيدة عن أماكن تجمع المسلمين حيث يقيمون متاجرهم ويأوون فيها ، ويمارسون عباداتهم ويحفظون دوابهم- بل أن أماكن كانت تخصص لدفن موتاهم ، وتلحق بمحال إقامتهم - ولهذا كان الاتصال يكاد يكون منعدما بين الأجانب وأهل الولايات الإسلامية فعاشوا على هامش المجتمعات الإسلامية . كما أن اكتفاء أهالى الولايات العربية ومن بينها مصر بالدراسة فى مركز الدراسات الإسلامية كالأزهر والكوفة والبصرة والقيروان والأماكن المقدسة حال دون تبادل ثقافى بين المسلمين وأوربا فضلا عن إيمان المسلمين بأن بلاد الغرب هى مهد الكفر والكفرة [2]. ويأتى العائق الاقتصادى ليضيف جديدا إلى فقر العلاقات مع العالم الخارجى فاقتصاد الولايات العربية كان يقوم على الزراعة التى تكاد تفى بحاجيات السكان ، والصناعة المحلية تكاد تكفى المتطلبات داخل الولاية ، والمبادلات التجارية تقتصر على بلاد الشام والحجاز ومصر واليمن والشمال الأفريقى مع ندرة المبادلات مع أوربا اللهم، إلا فى مجال الكماليات كما وقفت اللغة حائلا دون الاتصال[3] إلا أن حجم التجارة بين التجار الأوروبيين ومصر تزايد

١- عبد العزيز محمد الشناوى، الدولة .. نفس المصدر، ج٢ ، ص٧٢٠-٧٣٥ ، عبد الوهاب بكر، مصر والدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ص٧١ .

٢- المصدر نفسه .

٣- الشناوى ، الدولة العثمانية، نفس المصدر، ج٢ ص٧٢٠-٧٣٥ ، عبد الوهاب بكر... نفس المصدر، ص٧١ .

بفضل الوضع الجغرافى لمصر من ناحية- وبفضل الامتيازات التى كانت تمنح هؤلاء التجار حقوقا جمركية فى شكل رسوم منخفضة من ناحية أخرى، كما أن اليهود ومسيحيى الدولة كانوا يتمتعون أيضا بميزات تجارية حسنة[١].

ولقد وقعت الدولة العثمانية معاهدات تجارية مع كل من البندقية فى عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، لتشجيع رعايا هذه الجمهورية القدوم إلى الاسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى فى جو من الطمأنين والعدالة والأمن. ثم عقدت معاهدة أخرى مع البندقية عام ٩٢٨هـ / ١٥٢١م ، وجددت هذه المعاهدة عام ٩٤١هـ / ١٥٣٤م واستمرت تجدد فى عهد كل سلطان جديد. ومع دولة دوبرونيك (راجوزة) عام ٩٢٨هـ / ١٥٢١م [٢]. وجددت هذه المعاهدة فى عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م أما بالنسبة لانجلترا فتعتبر سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م، بداية التاريخ الفعلى والرسمى لتنفيذ معاهدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الإنجليز فى أملاك الدولة العثمانية والتجار العثمانيين فى انجلترا [٣].

وبموجب هذه المعاهدات كان يمكن للتجار الأجانب بعد أن يدفعوا الرسوم الجمركية على بضائعهم ، أن يقوموا بالبيع والشراء فى أسواق القاهرة والاسكندرية ورشيد وبولاق أيضا. حيث كانت معاملاتهم مع المسلمين فى هذه المدن تسجل فى سجلات الموانئ ، وبعد أن تتم عملية البيع والشراء التى كان يقوم بها هؤلاء التجار الأجانب كان يحصل منهم رسم قدره ٥ , ١٠ أقجة كرسوم جمركية وغيرها [٤]. وحتى تتمكن الدول التى عقدت معها معاهدات تجارية وغير تجارية مع الدولة العثمانية ، من تطبيق هذه البنود الخاصة بالمعاهدات ، طلبت كل من البندقية وفرنسا من الدولة العثمانية، تعيين قناصل لهما فى القاهرة والاسكندرية . ولما كان قناصل البندقية وفرنسا يشرفان على شؤون الرعايا الإنجليز - قبل عقد معاهدة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م - والدوبرونيك فى مصر ، لم تنقطع شكوى هؤلاء خلال القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، لدرجة أن السلطان كان يرسل للوالى يأمره بمنع ظلم هؤلاء القناصل لرعايا انجلترا ودوبرونيك فى مصر ، وعدم تدخلهم فى شؤونهم وأخيرا تمكنت انجلترا ودوبرونيك من الحصول على إذن بتعيين قناصل لهما فى الاسكندرية .

١- الشناوى ، الدولة ، المصدر نفسه ، ج٢، ص٧٠٧ .

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه، ج١، ص٧١٨ .

٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى، فى أصول .. نفس المصدر ، ص٩٥ .

لم يكن لهؤلاء القناصل علاقات مباشرة مع الباشا فى مصر، وإنما كانوا يعرضون مسائلهم وأمورهم على الحكومة العثمانية فى استانبول حيث كان الديوان الهمايونى يناقش الأمر، ويفصل فيه هناك ثم ترسل الأوامر بعد ذلك لتطبيق قرارات الدولة إلى الباشا وقابودان الاسكندرية وقاضيها، وأنه على الرغم من أن سفن البندقية التى تصل إلى الميناء تقوم بتسديد جمركها دون نقصان ، فقد كان الأمناء فى الميناء يعترضون هذه السفن ولايتركونها مخالفين بنود المعاهدة الموقعة بين الدولة العثمانية والبندقية ، وبذلك صدرت الأوامر للباشا العثمانى ، وقابودان الاسكندرية وقاضيها ، بضرورة تقصى هذه الأحوال ، ومنع الأمناء من التدخل خلاف الميثاق . ومن ناحية أخرى كان الباشا العثمانى، يرسل الرسائل إلى بعض الدول الأجنبية ، من أجل تيسير معاملات التجار المصريين الذين كانوا يتوجهون إلى تلك النواحى، وذلك بموجب المعاهدات المبرمة بين الطرفين[١].

وبالنسبة لتجارة مصر الخارجية فى تلك الفترة ، فإنها قد تأخرت وضعفت بشكل واضح ، نتيجة لقلة البضائع التى تمر فى البلاد، مما أدى إلى قلة حصيلة الضرائب الجمركية ، وقلة ما تستفيد مصر من أجور النقل، هذا فى الوقت الذى زادت فيه الصعوبات أمام تصريف المنتجات المصرية فى الأسواق الخارجية ، وظلت العلاقات التجارية موجودة بين مصر وبقية الولايات العربية والبلاد الأفريقية . ولكن قيمتها قلت نتيجة لضعف الانتاج الزراعى والصناعى فى البلاد، ونتيجة لضعف رأس المال والثروة العامة ، وتناقصها باستمرار واشتغال عدد من الأجانب المقيمين بمصر بالتجارة الخارجية ، وكان منهم بعض الفرنسيين والايطاليين، وكانوا يقيمون فى فنادقهم أو وكالاتهم، التى كانت تشمل على مخازنهم ومساكنهم فى كل من القاهرة والاسكندرية ودمياط [٢]. أما بالنسبة للعلاقات الاقتصادية بين الدولة العثمانية وولاية مصر، فنجد أن مصر كانت تصدر إلى الدولة العثمانية ٣٠٠٠ قنطار بارود أسود سنويا فى القرن السادس عشر ، وازداد هذا المقدار فى أوائل القرن السابع عشر فوصل إلى ٥٠٠٠ قنطار سنويا . بجانب كميات هائلة من الحبوب مثل: الأرز والعدس والفريك البربرى[٣]. وكانت مصر تستورد من الدولة العثمانية ، الأمشاط ، الملاعق الخشبية الواح من

١- سيد محمد السيد، مصر فى العصر العثمانى، ص٤٥١-٤٥٢ .

٢- جلال يحيى، مصر الحديثة ص٢٠٧ .

٣- سيد محمد السيد، مصر فى العصر العثمانى، ص٣٠٩ .

خشب الصنوبر ، لعب الأطفال دواسات عصى ، مجاديف ، الأوانى الخشبية ، قرب جلد ، ملابس حريمى، أحذية حريمى، مكانس ، رحى طاحونة ، خراطيم، مواسير ، أكلمة، موسلين تركى، الأقمشة الحريرية والكتانية، والفحم ، الكبريت، ماء النار صنع قبرص ، القطران ، توتيا ، قلنونية، الجلود لصنع الأحذية المناسبة ، ورنين طلاء الحبال، النحاس القديم، الأوانى النحاسية ، القطران الأبيض ، البذور الخضراء ، المشكلة على شكل أقراص ، قمر الدين، قراصيا ، الخروب، سحلب، الزيتون، فستق ، العنب ، حلوى جافة ، الزبيب ، حلويات مشكلة، أفيون ، فاصوليا جافة ، تبغ تركى، عصفران [١].

أما من الناحية المالية، فقد ارتبطت مصر ماليا بالدولة العثمانية، حيث كانت تصدر نقودها باسم السلطان وكانت تستورد الذهب اللازم لهذه العملية من دارفور، وتستورد النحاس من استانبول. وقد ربطت العملة المصرية بالعملة العثمانية، بشكل جعل أى تأثير يحدث فى قيمة العملة الأخيرة يؤثر على قيمة النقود والعملة فى مصر، وكان يتم الغاء التداول ببعض أنواع النقود واستبدال غيرها بها، وتقدير قيم رسمية جديدة للعملة الباقية ، يحدث فى بعض الحالات فى وقت إرسال الجزية إلى استانبول ، الأمر الذى كان يؤدى إلى تخفيض قيم النقود المتداولة ، وإلى زيادة الأعباء على دافعى الضرائب .

ولقد كانت مصر تتعامل بالدينار الذهبى الذى كان يشتمل على عشر قطع فضية تسمى دراهم، واستبدل العثمانيون بالدينار عملة ذهبية تساويه فى الوزن، والعيار وتسمى البندقى. أما الدرهم فقد حلت محله عملة جديدة تسمى الميدى، وكانت تساوى نصف الدرهم ، وتطور الميدى بمرور الزمن وسمى بارة وتساوى هذه البارة جزءا من أربعين من القرش . وحتى الآن يصعب على دارس تاريخ هذه الفترة تحديد قيمة ثابتة لهذه القطع المعروفة فى ذلك الوقت فى العالم، وذلك نتيجة للتغيير المستمر فى قيمتها ، ومع ذلك كانت قيمتها ثابتة . وكان أهمها «الدوقى» أو «البندقى» وهو عملة البندقية ، والريال الهولندى، الذى ضرب على أحد وجهيه رسم الأسد، وكان يسمى أبوكلب، والريال الأسبانى الذى ضرب على أحد وجهيه نسر داخل شكل يشبه النافذة ، وكان يسمى «أبوطاقة» [١].

١- Shaw, Ottoman Egypt in the Eighteenth Century ..., op. cit ., p. 45 .

٢- جلال يحيى، مصر الحديثة، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

أما المقاييس والمكاييل والموازين ، فنجد روح الفوضى التى ظهرت ميدان العملة، قد ظهرت كذلك فى هذا الميدان نتيجة لعدم خضوعها لرقابة فعالة، وأدى كل ذلك إلى اضراب فى الأسواق وانعدام للثقة وزيادة الغش والتزوير وبالتالى إلى تدهور الحالة الاقتصادية ، ورغم أن العثمانيين قد ساروا على نفس الموازين والمكاييل والمقاييس التى كانت موجودة فى البلاد ، ومع ادخال تعديل بسيط عليها، إلا أن هذا التعديل ، كان فى اتجاه خفض القيمة، ونتج عن ذلك قلة مساحة الفدان، عما كانت عليه من قبل، كما اختلفت هذه المقاييس من اقليم إلى آخر، وهدف العثمانيون من ذلك زيادة كمية الضرائب المربوطة على الأراضى الممسوحة وإلى زيادة ايراداتهم بطريقة غير واضحة على حساب الفلاح[١].

هكذا كانت العلاقات المصرية العثمانية التى ظهرت فى كافة المجالات وقابلت مرحلة الازدهار فى الدولة العثمانية مرحلة استقرار ادارى فى مصر خلال الفترة (٩٣١-٩٦٧هـ / ١٥٢٤-١٥٥٩م) التى اعتلى فيها السلطان سليمان القانونى عرش السلطنة. ولكن لتقدم عمر السلطان وتراخى قبضته فى السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد فى أواخر سنوات حكمه (توفى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م) بدأ تدخل رجال القصر فى إدارة شئون الدولة، واتساع صلاحيات أصحاب النفوذ فى مختلف مؤسسات الدولة، مع عدم تقيدهم بتنفيذ أوامر السلطان ، وتطبيق نظم الدولة بالسياسة الشرعية فى مختلف معاملاتها الداخلية والخارجية ، فكان لكل هذا تأثير سلبى على مركز الدولة وعلى ولاياتها فى الشرق والغرب فى نفس الوقت.

لقد ظهرت بوادر هذا الفساد أول ما ظهرت فى ايالة مصر، حيث انتقلت إليها عن طريق الولاة والأمراء الصناجق الذين كانوا يختارون من الأعضاء البارزين فى الهيئة الديوانية بمركز السلطنة حتى أن الجند العثمانى الذى كان يرسل من الآستانة بطريق المناوبة لحماية الإيالة ومؤسساتها المختلفة، أصبح من أهم عوامل الفساد فى البلاد فكان أمير الأمراء يتعرضون للعزل كل عام وعامين بسبب تجاوزاتهم[٢].

١- سيد محمد السيد ، مصر فى العصر العثمانى، ص١٥٢ .

٢- محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق، ص١٨ ، جلال يحيى، مصر الحديثة ، ص٢٢٦ .

Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p. 83 .

الفصل الثانى

التنظيم الإدارى والمالى فى مصر العثمانية

كانت النتيجة النهائية للفتح العثمانى لمصر ، أن أصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت مقر السلطنة والحكم ابان العصر المملوكى وتم عمل التنظيمات الادارية لمصر العثمانية ، وساهمت هذه التنظيمات فى الحفاظ على الكيان السياسى بعض الوقت ، وتبع ذلك عملية الفصل أو الاستقلال عن الولاية . كما حدث فى ولاية جرجا التى لعبت دورا هاما فى تاريخ مصر العثمانية ، وفى مقدمتها الأحداث السياسية الهامة التى تمثلت فى الصراع بين البيوتات المملوكية، وظهرت بشكل واضح فى الصراع بين القاسمية والفقارية وغير ذلك من الأحداث الهامة التى شهدتها تلك الفترة .

وقبل التعرض للتنظيمات الإدارية التى وضعها العثمانيون لمصر بصفة عامة ، لابد من الإشارة إلى التنظيمات الإدارية التى كانت موجودة فى عصر المماليك .

فقد كانت الإدارة الإقليمية فى أعمال الوجهين البحرى والقبلى خارج القاهرة والاسكندرية فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هى القلوبية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والغربية والمنوفية وأبيار والبحيرة وفوة النستراوية، وحكم كل منها وال ماعدا البحيرة فكان يحكمها نائب . ولعل السبب فى ذلك يرجع بأمر البحيرة ، هو تخوف سلاطين المماليك من كثرة الاعراب وما يقومون به فيها من فتن وثورات بين حين وآخر ، أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها واليها ، وهى الجيزة والفيومية والأشمونية والأخميمية والأطفيحية والبهنساوية والأسيوطية والقوصية ، وكانت أسوان تتبع قوص ولكنها استقلت وصارت عملا قائما بذاته فى عهد الناصر محمد (٦٩٣هـ/١٢٩٣م - ٧٤١هـ/١٣٤١م) ويلاحظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى الا فى عصر دولة المماليك الجراكسة أو الثانية ، أما فى دولة المماليك البحرية فوجد كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا ، وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكاشف "والى الولاة "وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له[١] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٥٨ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص١٤٣ ، ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص١٠٨ .

أما الإسكندرية فقد كانت لها ادارة خاصة ، فقد عين لها نائب على أنها نيابة مثل نيابات الشام وذلك لزيادة أهميتها واعتبارها ثغر مصرالأول على البحر المتوسط ، وكثرة الجاليات الأجنبية بها مما تطلب اعطاؤها عناية خاصة(١) وسنتعرض لها كمثال لنظام ادارة الموانى .

وأعاد العثمانيون النظر فى التقسيم الادارى القائم منذ الفتح العربى ، فغيروا كلمة أعمال باسم "ولاية" وقسموا البلاد من الوجهة الادارية إلى ١٣ ولاية ، منها سبع فى الوجه البحرى وست فى الوجه القبلى هذا بخلاف ستة موانى هى الاسكندرية ورشيد ودمياط والعريش والسويس والقصير(٢) .

وكان يرأس كل ولاية "كاشف" أو حاكم ويرأس كل ميناء قبودان ، غير أن الموانى الثلاثة الاسكندرية ودمياط والسويس اعتبرت تابعة رأسا للدولة العثمانية يحكمها ثلاثة قبودانات من أمراء البحر يعينهم السلطان(٣) :

وأما القاهرة فكانت تحت ادارة أمير من المماليك ، وكان مقر السلطات الحاكمة والادارة ويشرف عليها الباشا ورجال الادارة كأغا الانكشارية الذى يقوم بالسلطة العليا للبوليس فى القاهرة يشاركه فى حفظ الأمن وتنظيم الشئون البوليسية والتموينية وفيها زعماء مصر الثلاثة وهم : زعيم مصر ، أو والى مصر وزعيم بولاق وزعيم مصر القديمة وأمين الاحتساب(٤) وكان والى القاهرة أو شيخ البلد يأتى من حيث الأهمية بعد الباشا مباشرة ثم ازدادت سلطته فيما بعد على سلطة الباشا(٥) .

وعلى هذا فقد ارتكز التنظيم الادارى لمصر العثمانية على خمسة أقاليم ادارية كبرى تسمى باسم ولاية ، وكانت على النحو التالى(٦) .

١- الغربية وعاصمتها المحلة الكبرى .

٢- المنوفية وعاصمتها منوف .

٣- الشرقية وعاصمتها المنصورة .

٤- البحيرة وعاصمتها دمنهور .

٥- جرجا وعاصمتها جرجا .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص١٤٣ .
(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٣٨٢ ، عمر ممدوح ، أصول تاريخ القانون ، ص٣٦١ .
(٣) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص٣٦٢ .
(٤) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٨٢ .
(٥) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص٣٦١ .
(٦) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٣٨٢ .

ويلاحظ على التنظيم الإدارى الذى تم فى ذلك الوقت أن الوجه البحرى كانت له أربع ولايات ، أما الوجه القبلى فكان عبارة عن ولاية واحدة ، وربما يرجع ذلك الى عدم اهتمام العثمانيين بالصعيد ، أو أن القوى المسيطرة على الصعيد ، كانت فى مقدورها السيطرة عليه، ولاسيما عربان هوارة بالذات الذين حكموا الصعيد من المنيا إلى الشلال وأصبحت ولايات الوجه القبلى بعد ذلك كالآتى[١] . بهنساوية ، أشمونين ، منفلوط ، جرجا ، أطفيح البر الشرقى ، الواح من داخل جرجا (أى الواحات) وسميت الواحات فى الصحراء الغربية بإقليم الواحات خلال حكم خاير بك ، وتعتمد فى دخلها على الرسوم التى كانت تجبى من القوافل الآتية من سنار ودار فور المحملة بالذهب والعبيد ، وقد كانت تعتبر محطة وتمتعت بهذا الاستقلال إلى عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م حتى أنه إبان استقلالها كانت تابعة لولاية جرجا والجيزة والفيوم .

وكثيرا ماينشب الصراع بين الصناجق من الأمراء المماليك حول تولى حكم هذه الولايات الخمس الكبرى (الشرقية - الغربية - المنوفية - البحيرة - جرجا) ، وبخاصة ولاية جرجا التى أصبحت مطمعا للكثيرين منهم ، ويرجع ذلك إلى أهميتها الاقتصادية ، حيث كانت تعد مركز التموين الأول للبلاد وخاصة القمح[٢] .

تلك كانت أهم الولايات الأساسية ، ولكن وجد بالإضافة إلى ذلك أربعة وعشرون قسما آخر عرفت باسم الكاشفيات وكانت موزعة على النحو التالى [٣]:

ثلاثة بمصر السفلى ، وهى بلبيس وقليوب ، وشرق الدلتا ، ثم الطرانة غرب الدلتا وكانت تابعة لولاية البحيرة ، وسبعة فى مصر الوسطى ، وهى اطفيح (شرق النيل) الجيزة ، الفيوم ، بنى سويف ، المنيا ، أشمونين ، منفلوط (غرب النيل) وأربعة عشر فى مصر العليا ، وتشمل أسيوط ، وأبوتيج ، وطما ، وطهطا ، واخميم ، وفرشوط ، وبرديس ، وبهجورة ، وقنا ، وقوص ، وابريم ، والواحات واسنا وهو .

ولم تكن هذه الكاشفيات مستقلة بذاتها ، وان كان بعضها تمتع بما يشبه الاستقلال لانفصالها فى تدبير بعض شئونها الداخلية عن الولاية الكبرى [٤] كما أن نظام الولايات قد

(١) محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص٣٣ : . Shaw, Op. Cit., pp. 15-16

(٢) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٢٣ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص٢٦ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٣٨١.

(٤) حسن عثمان ومحمد توفيق ، تاريخ مصر فى العهد العثمانى ، ص٢٥٣ .

تدهور فى أواخر القرن الثامن عشر وتم الخلط بين استخدام كلمة "ولاية" وكلمة "كاشفية". وكان يحكم الأقاليم الخمسة الكبرى حكام بكوات ، ويحمل كل منهم رتبة الصنجقية ، ويحصل على لقب حاكم . وكانت الصنجقية من أسمى الرتب فى مصر العثمانية وأمر السلطان سليم بعد أن فتح مصر أن يكون بها أربعة وعشرون طبلخانة ، أى أمراء تدق لهم الطبول وغيرها من آلالات الموسيقية تعبيرا عن مكانتهم العالية .

وكان منصب الصنجقية من المناصب الهامة ولها امتيازات مالية ، وقد تكون الصنجقية رتبة فقط أى يحملها صاحبها دون أن يشغل منصبا هاما ويعرف بأنه صنجق بطال ويرقى الصنجق الى رتبة بك ، طبقا لثروته ومركزه ، وكان أمراء المماليك يسعون دائما لجعل الصناجق من أولادهم وأتباعهم[١] .

وكان حكام الأقاليم يقيمون دائما فى القاهرة ، ويعودون لبعض الوقت إلى أقاليمهم غير أن حاكم جرجا استقر فى اقليمه ، وقد ساعده ذلك على التمكن من اقليمه وكل بلاد الصعيد بحيث أصبح تحت ادارته ، العديد من القادة مثل قائد الشاويشية وأغا الانكشارية . وكان يحصل بك جرجا على نصيب عينى من السلع التى كانت تأتى من سنار ودار فور مع قوافلهم[٢] .

اشترك فى حكم مصر فى العهد العثمانى عدة عناصر . فالباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثمانى ويحكمون الولاية ويشرفون على ادارتها . وهيئة أمراء المماليك من رجال الأوجاقات "العسكرية" يشتركون فى الحكم والادارة أيضا إلى جانب مهمتها الحربية . فوجد تشابك وتداخل فى اختصاصات هذه العناصر ، كما وجد توازن بينها فى حكم البلاد . ولقد نظم قانون سليمان قواعد الحكم العثمانى كما اقتضتها ظروف الأحوال فى مصر . واليك وصفًا عاما عن أهم عناصر الحكومة والادارة فى ذلك العهد .

الباشا :

كان الباشا فى مصر العثمانية هو ممثل السلطان ونائبه فى الحكم والادارة ، ونظرا لأن مصر كانت من أهم الولايات فى السلطنة العثمانية ، فقد كان السلطان يبعث اليها بولاة من ذوى الخبرة ممن شغلوا منصب الصدارة العظمى أو عملوا فى المناصب الرئيسية فى البلاط العثمانى أو فى المناصب الادارية الهامة في الدولة العثمانية أو فى ولاياتها[٣] .

---

(١) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ١٦ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٢٩٣ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٧٢ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٦١ .

ومن أشهر رجال الصدارة العظمى الذين تولوا باشوية مصر ، الوزير ابراهيم باشا (٩٣١هـ/١٥٢٥م) محمد رامى باشا (١١١٦-١١١٨هـ/١٧٠٤-١٧٠٦م) ومحمد عزت باشا (١٢٠٥-١٢٠٨هـ/ ١٧٩٠-١٧٩٣م) .

ومن الباشاوات الذين شغلوا مناصب رئيسية فى البلاط العثمانى ، قبل توليهم باشوية مصر ، داوود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) الذى نشأ فى قصر السلطان سليمان القانونى ، وكان خازنداره ، وعلى باشا الذى تولى باشوية مصر (١١٠٢-١١٠٧هـ/ ١٦٩٠-١٦٩٥م) كان قائم مقام الركاب السلطانى[1] .

ومن الشخصيات ذات الخبرة فى الإدارة العثمانية المركزية وفى ادارة الولايات ، أويس باشا الذى تولى باشوية مصر (٩٩٤-٩٩٩هـ/١٥٨٥-١٥٩٠م) وكان قد تولى القضاة والدفتردارية فى السلطنة نفسها قبل توليه حكم مصر وسليمان باشا الخادم (٩٣١-٩٤١هـ/ ١٥٢٥-١٥٣٤م) الذى كان قائدا للحملة التى أرسلت لمساعدة الامراء المسلمين فى الهند[2]. وقره محمد باشا (١١١١-١١١٦هـ/١٦٩٩-١٧٠٤م) عمل فى منصب كتخدا الباشا السابق له فى مصر اسماعيل باشا وأحمد باشا الذى تولى باشوية مصر (١٠٢٤-١٠٢٧هـ/ ١٦٠٥-١٦١٧م) عمل دفتردارا قبل تولية حكمها ، وابراهيم باشا (١٠٨١-١٠٨٤هـ/ ١٦٧٠-١٦٧٣م) عمل محافظا لكريت ، قبل قدومه إلى مصر ، واسماعيل باشا الحلبى (١١٠٧-١١٠٩هـ/١٦٩٥-١٦٩٧م) قدم إلى مصر من ولاية الشام[3] .

وكثيرا ماخرج الباشاوات بعد نقلهم من مصر إلى منصب الصدارة العظمى ، مثل حسين باشا الذى تولى حكم مصر (١٠٢٩-١٠٣١هـ/١٦١٩-١٦٢١م) ومحمد راغب باشا (١١٥٩-١١٦١هـ/١٧٤٦-١٧٤٨م) وأحيانا كان باشا مصر يخرج منها بعد عزله حكم ولاية

---

(١) قائم مقام الركاب السلطانى : رئيس معظم ضباط الخدمة الخارجية وهم الذين عرفوا بأغوات الركاب، وقد استخدمت كلمة ركاب عند العثمانيين من قبيل الاستعارة للاشارة إلى السلطان أو إلى حضرته، اذ أن الحاكم فى الأيام الأولى كان يتلق العرائض والشكاوى وهو على ظهر حصانه ، وقد استخدم العثمانيون هذه الكلمة للاشارة إلى المواكب والاجتماعات التى يظهر فيها السلطان . ومن أغوات الركاب مير علم ، قابيجى باشا ، مير آخور ، طوبجى باشى (أنظر ، هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى ، جـ١ ، ص-١٢٠ ، القاهرة ١٩٧١) ، ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٦١ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٦٢ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٢ .

أخرى من ولايات السلطنة ، وفى بعض الحالات كان الباشا يعود إلى مصر لتولى حكمها مرة ثانية بعد العمل فى الولايات الأخرى أو القيام بحملات حربية[١] .

وقد اختلفت شخصية باشاوات مصر فلم يكونوا كلهم من طراز واحد ، فقد كان منهم باشاوات على جانب كبير من الحزم وحسن الادارة ، مثل ابراهيم باشا (٩٣١ هـ ١٥٢٥م) الذى قام بتنظيم الادارة فى مصر بناء على تكليف من السلطان سليمان القانونى ، وسليمان باشا الخادم (٩٣١-٩٤١هـ /١٥٢٥-١٥٣٤م) الذى قام أدق مساحة الأقاليم مصر تلك المساحة التى سجلت فى ربيع سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م . وقد ظل ذلك الدفتر أساس لمساحة مصر طوال العهد العثمانى[٢] ومحمد باشا (قول قران ومعمر ومبطل الكرية) (١٠١٦-١٠٢٠هـ/١٦٠٧-١٦١١م) استطاع بحزمة وقوة شخصيته أن يقضى على أخطر تمرد فى مصر العثمانية[٣] .

وقد شهدت فترة الحكم العثمانى لمصر باشاوات من طراز آخر فبعضهم كان محبا لجمع المال مثل محمود باشا المقتول (٩٧٣-٩٧٤هـ/١٥٦٥-١٥٦٦م) والذى كان لايلبس هو وأتباعه الا الديباج وجميع أوانيه من الفضه ومنهم من اشتهر بحب اللهو والخروج إلى المتنزهات فى خلاعة مثل محمد باشا (دوقة لين) ومعناها الخليع (٩٦١هـ-٩٦٣هـ/١٥٥٣-١٥٥٥م) [٤].

واشتهر باشاوات آخرون بالقسوة وسفك الدماء مثل على باشا السلحدار (١٠١٠-١٠١٢هـ/ ١٦٠١-١٦٠٣م) الذى كان سفاكا للدماء ، وكان اذا ركب يقتل عشرة أنفار وزيادة ويمر فى دمائهم بحصانه[٥] كما أخذ على بعض الباشاوات الاسراف فى الظلم وأخذ رشوة ، مثل حسن باشا الخادم (٩٨٨-٩٩١هـ/١٥٨٠-١٥٨٣م) بحيث أن خروجه من مصر لم يكن الا من على الترب من كثرةظلمه وخوفه من الرعايا[٦] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٦٣ .

(٣) يوسف الملوانى الشهير بابن الوكيل ، تاريخ مصر العثمانية من ٩٢٣-١١٣١هـ/١٥١٧-١٧١٩م ، من خلال مخطوطه ، دراسة وتحقيق ابراهيم يونس محمد ، لنيل درجة الماجستير من قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٨١ ، ص١٦٣ ، محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، دراسة وتحقيق وتعليق ، عبد الرازق عبد الرازق ، القاهرة ١٩٩٨م . ص١٨١ .

(٤) يوسف الملوانى ، تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، ص١٣٨ .

(٥) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٧٤ ، مصطفى الشافعى القلعاوى ، صفوة الزمان فيمن تولى مصر من أمير وسلطان ، ص١٥٠ .

(٦) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٤٦ ، محمد البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٥٩ .

وعلى النقيض من هذا اشتهر باشاوات آخرون بالعدل وتكريم أهل العلم مثل على باشا الخادم (٩٦٦-٩٦٧هـ/١٥٥٨-١٥٥٩م) فقد كان حاكما عادلا محبا للعلماء والفضلاء وكثير الاحسان لهم بحيث لم يوجد فى خزانته عند وفاته سوى سبعة دنانير ومن اللباس والتجملات شئ قليل[١]. وبينما كان بعض الولاة أميا لايقرأ ولايكتب مثل اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) كان البعض الآخر على جانب كبير من العلم مثل جعفر باشا (١٠٢٨هـ-١٦٩٥م) الذى كانت له اليد الطولى فى غالب العلوم خصوصا علم التفسير ، داوود باشا الخادلم (أطول باشاوات مصر العثمانية عهدا (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) وكان على درجة كبيرة من العلم وقد اهتم بجمع الكتب العربية ونسخ له النساخ كثيرا منها فتكونت لديه مكتبة كبيرة كان مواظبا على الاطلاع فيها[٢] . وعبد الله باشا الكبورلى (١١٤٢-١١٤٤هـ/ ١٧٢٩- ١٧٣١م) كان ميالا إلى الأدب مما جعل الشعراء فى مصر يمدحونه لفضله وميله إلى الأدب[٣] وأحمد باشا كور (١١٦٢-١١٦٣هـ/١٧٤٨-١٧٤٩م) كان مهتما بالعلوم الرياضية وأتصل بالشيخ حسن الجبرتى واشتغل عليه برسم المزاول والمنحرفات حتى أتقنها[٤].

ومن الشخصيات الفريدة بين ولاة مصر محمد باشا ملك (١١٩٥-١١٩٦هـ/ ١٧٨٠-١٧٨١م) ، وكان من أفاضل العلماء متضلعا فى سائر الفنون ويحب المذاكرة والمباحثة والمسامرة وأخبار التواريخ وحكايات الصالحين وكلام القوم[٥] . وقد اشتهر كثير من باشوات مصر بحب الخير ، ووقف الأوقاف العديدة واقامة المساجد والأسبلة والمكاتب العلمية والتكايا ، فقد أقام سليمان باشا الخادم (٩٣١هـ/١٥٢٥م) مسجدا ببولاق وأوقف عليه وقفا كبيرا وعمرمسجد سيدى سارية بقلعة الجبل[٦] ومحمد باشا (قول قران) (١٠٠٦هـ/١٧٠٦م) أوقف

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص١١٣ ، يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١١٢.

(٢) أحمد كتخدا عزبان الدمرداش ، كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، تحقيق ، عبد الرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص٢٧ .

(٣) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١٣٦ ، محمد البكرى ، النزهة الزهية ، ص-١٤ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٦٦ ، عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الاثار فى التراجم والأخبار ، جـ١ ، ١٤٤ .

(٥) نفسه ، ص١٨٦ .

(٦) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٣٤ .

عدة قرى ووكائل بثغر رشيد وأرضا بالأزبكية وبلغ ايراد تلك الأوقاف عشرين ألف دينار وجعل منها سحابة الحاج الشريف (أربعون جملا من الماء كل عام) [١] . واسكندر باشا (٩٦٣هـ/٩٦٦هـ-١٥٥٥-١٥٥٨م) أقام جامعا بباب الخلق وتكية تجاه هذا الجامع وأوقف عليهما أوقافا كثيرة[٢] وخسرو باشا (٩٤٠-٩٤٣هـ/١٥٣٣-١٥٣٦م) أنشأ عمارة بسوق الصاغة صهريجا ومكتبا يقرأ فيه الأيتام مع ترتيب الخير لهم[٣] ، وقرة محمد باشا (١١١١-١١١٦هـ/ ١٦٩٩-١٧٠٤م) أقام جامعا وتكية لفقراء الخلوتية من الأروام فى حى الأربعين بجوار باب قرا ميدان وأسكن الأروام بالتكية وأنشأ تجاهها مطبخا ودار لضيافة الفقراء ، وفى اعلاها مكتبا للأطفال يقرءون فيه القرآن الكريم ورتب لهم مايكفيهم وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبد القادر الجيلانى وجعل به فقراء مجاورين ورتب لهم مرتبات وأنشأ صهريجا بداخل القلعة[٤] . وقد أقام اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) تكية فى قرا ميدان ووقف عليها وعلى سحابة بطريق الحجاز سبعة قرى أخذها من المحاليل فى اقليم البحيرة[٥] وقد قام بعض الباشاوات بتعمير الجامع الأزهر وتجديده مثلما فعل محمد باشا (١٠٠٤-١٥٩٥م) فقد عمر الجامع الأزهر وجدد ماهدم منه ورتب له من الشون العدس يطبخ فى كل يوم للفقراء ، ولأجل ذلك تسامعت الناس فأتوا اليه بطلب العلم من أقصى القرى[٦] .

ولم تقتصر أوقاف الباشاوات وخيراتهم على مدينة القاهرة وحدها بل امتدت إلى مختلف أنحاء البلاد فسنان باشا (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) الذى أقام مسجدا وسوقا وحماما ببولاق[٧]

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٨١ .

(٢) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٣٩ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١١٢ .

(٣) محمد بن أبى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص١٢٩ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٣٠ .

(٥) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص٢٦ ، عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٠٠ .

(٦) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٥١ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق، ص٦٦ .

(٧) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٦٦ .

أنشأ أيضا جامعا كبيرا ببندر القصير على البحر الأحمر ، وأوقف على الجامع وعلى الخدمة به وقفا كبيرا بلغ ألفا وخمسمائه وسبعين فدانا من الأراضى الزراعية التى كانت من أملاك الباشا فى الوجه القبلى[١] .

ألقاب الباشا :

فى أوائل العهد العثمانى كان حاكم مصر يلقب بلقب بكلربك[٢] وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء باشوات مصر منذ بداية العهد العثمانى إلى النصف الأول من القرن السابع عشر مقرونة بهذا اللقب[٣] وكان أول من لقب به خاير بك وقد أشار قانون نامه مصر إلى حاكم مصر بهذا اللقب[٤] .

ومن ألقاب الباشا الأخرى ، لقب والى ، فقد كان السلطان يخاطب باشا مصر بلقب والى مصر فيرد فى الفرمانات مثلا إلى عزت محمد باشا فى فرمانه بلقب (الباشا والى مصر) دون ذكر اسم الباشا بالتحديد . وتذكر ليلى عبد اللطيف[٥] ومن الالقاب التى أطلقت على باشا مصر ووردت فى الوثائق والمصادر المعاصرة :

«لقب الوزير الاعظم كافل المملكة الشريفة الإسلامية بالديار المصرية والثغور المحمية والاقطار الحجازية» .

محافظ أو حافظ مصر المحروسة

حافظ الديار المصرية والأقطار الحجازية .

وبعد صدور الأمر السلطانى بتعيين باشا مصر كان يأخذ طريقه إليها إما برا عن طريق الشام، إذا كان قادما إلى مصر من إحدى ولايات الشام أو العراق وإما بحرا إلى الإسكندرية إذا كان قادما من السلطنة نفسها [٦] . وفى الحالة الأولى كانت بعثة الاستقبال الرسمية

---

(١) ليلى عبد اللطيف، المرجع السابق .

(٢) محمدبن ابى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص١٥٢ .

(٣) قانون نامة مصر ، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد متولى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص١٥ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٦٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص٦٧ .

(٦) نفسه ، ص٦٨ .

تخرج لمقابلة الباشا فى العريش وفى الحالة الثانية كانت البعثة تذهب لاستقباله فى الإسكندرية .

وإذا كان الباشا قادما عن طريق الإسكندرية ، كان يتوقف بها لزيارة مقامات كبار الأولياء مثل أبى العباس المرسى ، أبى الفتح الواسطى ، وقد يوقف بعض الأوقاف الخيرية ويقدم العطايا والانعامات للفقراء ثم يزور قلعة قايتباى ثم يزور مدينة رشيد[١] . وبعد اتمام مراسيم الاستقبال يتوجه الباشا إلى مقره بالقلعة حيث يبدأ مباشرة مهام منصبه[٢] .

أما عن مقر الباشا فقد كانت القلعة مقرا للباشا الحاكم كما كان الحال فى العصور السابقة وقد بدأ اتخاذها مقرا لحاكم مصر العثمانية منذ ولاية خاير بك أول والى لمصر من قبل العثمانيين .[٣] ولما كان الباشاوات يشعرون بأنهم مؤقتين فى القاهرة فانهم لم يكن يهتموا كثيرا بالقصر الذى كانوا يسكنون فيه . ويذكر بعض القناصل ومنهم دى ماييه . أن قصر الباشا فى حالة سيئة ، ونادرا ما كان أحد الباشوات يفكر بادخال أى أصلاح عليه ، ولكن نجد أن بعض الولاة المحبين للبذخ مثل اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥)[٤] فقد أدخل بعض الاصلاحات على هذا القصر فى مدة ولايته ، وذلك بمناسبة الاحتفالات التى أقامها لختان ابنه، فأقام جناحا جديدا للقصر ، وزرع حديقه كان يحضر لها الماء يوميا على ظهور الجمال[٥] .

وقد حدد قانون نامه مقر الباشا ، أن يقيم كاسلافه فى القلعة ، ولكن القانون لم يربط الباشا بالقلعة كما وردت بعض المراجع الحديثة ، فقد وصف بعضهم بأن باشا القاهرة الأسير وأن قانون نامه قد حبس هذا الباشا بين جدران القلعة ، وقد أصبح الوالى سجينا

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، كشف الكربة فى رفع الطالبة ، تحقيق عبد الرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٢٣ ، عام ١٩٧٦ ، ص٣٢٨ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٤) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص٢٧ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ١٩٧ ، جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٦ .

(٥) جلال يحى ، مصر الحديثة ، ص١٣٧ .

فى القلعة[١] وهذه الأوصاف عن تقيد حرية الباشا وربطه بالقلعة أبعد ماتكون عن الحقيقة فقد كان باشوات مصر ينزلون من قصورهم فى القلعة[٢] ويتجولون بكل حرية فى مختلف أنحاء البلاد فابراهيم باشا (٩٩١-٩٩٢هـ/١٥٨٣-١٥٨٤م) ذهب بنفسه إلى جميع أقاليم مصر إلى الصعيد الأقصى [٣] وكان الباشاوات يذهبون إلى كبار العلماء فى منازلهم ويرأسون الحفلات العامة مثل الاحتفال بوفاء النيل ، ويذهبون للتفتيش على الشون الأميرية وأداء الصلاة بالجامع الأزهر وغير ذلك[٤] .

وربما كان ضعف سلطة الباشا وسيطرة العصبيات المملوكية على الادارة فى مصر العثمانية- تلك السيطرة التى بلغت ذروتها فى القرن الثامن عشر هى التى أوحت إلى المؤرخين المحدثين بفكرة تحديد اقامة الباشا فى القلعة[٥] .

أما عن مدة حكم الباشا ، فقد كانت سياسة الدولة العثمانية بالنسبة للتعيين فى الوظائف الكبرى تقوم على اجراء التعينات لتلك الوظائف سنة واحدة لا أكثر وان كانت تعد فى الواقع فى كثير من الأحيان عن طريق التجديد بتقرير خاص يصدر لتجديد مدة الباشا وهو ماعرف بتقرير السنة الجديدة . وكان التقرير الخاص بتجديد مدة الباشا أو تعينه يصدر دائما فى شهر شوال من كل عام وكانت هذه عادة الدولة بالنسبة لجميع ولاياتها اذ تصدر التوجيهات السنوية بالمناصب أو مدها فى هذا الشهر من كل عام[٦] .

---

(١) هاملتون جب ، هارولد بوون ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص١١ ، جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٧ .

(٢) Starford Shaw, The Fianancial and Administrative Organization and development of ottoman Egypt, P. 316 .

(٣) عبد الرحمن الجبرتى، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٥٢ ، ليلى عبد اللطيف الادارة فى مصر ، ١٧١.

(٤) محمد بن ابى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص١٣١ ، ليلى عبد اللطيف ، أحمد، الادارة فى مصر ، ص٧١ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٧١ .

(٦) أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص١١٢ .

وقد اختلفت مدة حكم الباشوات فى مصر ففى الفترة الأولى من العهد العثمانى الممتدة من بدايته إلى أواخر القرن السادس عشر ، استمر الباشاوات فى شغل مناصبهم لفترات طويلة وكانوا لاينقلون منها الا اذا رقوا لمناصب أعلى أو اضطروا إلى الاستغناء بسبب كبير السن ومن أطول الولاة العثمانيين عهدا فى مصر داوود باشا الخادم ، الذى ظل واليا على مصر من (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) حتى وفاته بها وهو فى منصبه الذى شغله لمدة أحد عشر عـــامـــا [١] وسليمان باشا الخادم الذى تولى حكم مصر وادارتها لمدة عشر سنوات من (٩٣١-٩٤١هـ/١٥٢٥-١٥٣٥م) ثم عاد إلى باشوية مصر وشغلها لمدة عام وخمسة أشهر من ٩٤٢-٩٤٣هـ /١٥٣٥-١٥٣٦م) ومـــسـيح باشـا اســتــمـر بحكم مــصــر من ٩٨٢-٩٨٨هـ/١٥٧٤-١٥٨٠م) أى لمدة خمسة أعوام وأويس باشا ، تولى باشوية مصر من ٩٩٤-٩٩٩هـ/١٥٨٥-١٥٩٠م) حـيث توفـى بهـا بعـد حكم دام خمس سنوات وخـمـسـة أشهر[٢] .

وقد لوحظ فى هذه الفترة طول عهد الولاة اذا ماقورن بالفترة التالية ، ويمكن تفسير تلك الظاهرة بالهدؤ النسبى الذى وجد فى مصر حينذاك حيث لم يتعرض الباشاوات بصفة عامة إلى معارضة قوية وذلك للقضاء على العناصر المتمردة التى شاركت فى ثورة أحمد باشا الخائن وثورة إينال وجـانم السـيـفى [٣]. وقد كان للنفوذ الذى حصل عليه باشاوات الفترة الأولى لخدماتهم التى أدوها للدولة - أثركبير فى احتفاظهم بمناصبهم فترة طويلة ، فسليمان باشا الخادم الذى تولى حكم مصر مرتين ، كما سبق الإشارة كان قد أدى أجل الخدمات للدولة بقيادة حملاتها فى اليمن وفى المحيط الهندى ، وسنان باشا الذى تولى باشوية مصر من (٩٧٥-٩٧٦هـ/ ١٥٦٧-١٥٦٨م)ثم عـاد إلى حكم مـصـر ثانيـة من (٩٧٩-٩٨١هـ/ ١٥٧١-١٥٧٣م) منح الحكم فى المرة الثانية مكافأة له على حملاته فى اليمن[٤] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٧٢ .

(٢) نفسه ، ص٧٢ .

(٣) نفسه ، ص٧٣ .

(٤) نفسه ، ص ٧٤ .

ويضاف إلى الأسباب السابقة التى أدت إلى طول عهد ولاة الفترة الأولى الفرصة لهم لاقامة المنشآت الهامة التى كان منها ماهو للنفع العام وماهو للنفع الخاص(١) .

وقد تميزت الفترة الثانية من فترات الحكم العثمانى فى مصر ، والممتدة من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر - بقصر عهد الباشاوات ولم يدم حكم أطولهم مدة عن خمسة أعوام بدءاً بالوزير ابراهيم باشا حاجى لم يدم حكمه الا ثلاثة أشهر وعدة أيام ، اذ تولى من ١٤ ذى الحجة ١٠١٢هـ/١٥ مايو ١٦٠٣م وقتله الجند فى آخر ربيع الثانى (١٠١٣هـ/٢٧ أغسطس عام ١٦٠٤م) (٢) وجعفر باشا لم يدم حكمه الا حوالى خمسة أشهر ، اذ توفى فى ٩ ربيع أول ١٠٢٨هـ/٢٥ فبراير ١٦١٨م) وعزل فى ١٤ شعبان من السنة نفسها (فى ٢٨ يوليو ١٦١٨م) وموسى باشا تولى حكم مصر فى (٣ جمادى الأولى ١٠٤٠هـ/٩ ديسمبر ١٦٣٠م وعزل فى (ذى الحجة ١٠٤٠هـ/يوليو ١٦٣٠م ، بعد حكم ثمانية أشهر تقريبا(٣) .

ويمكن تفسير قصر عهد ولاة الفترة الثانية بكثرة الاضطرابات التى حدثت فى مصر فى هذه الفترة ، وتمثلت فى ثورات الجند ومنازعات ومطامع الأمراء المماليك وسعيهم للسيطرة على ادارة مصر وقد أدى ذلك إلى كثرة عزل الباشاوات بالإضافة للأسباب الاقتصادية والتى بدأت فى انتشار الغلاء الذى كان يقع كثيرا اما لسوء الأحوال الطبيعية أو لانخفاض قيمة النقد ، ذلك الأمر الذى كان مرتبطا باقتصاد الدولة العثمانية نفسها ، كما أن تكرر حدوث الطواعين والأوبئة أدى إلى تعطيل الطاقات البشرية . لكثرة الوفيات - وبالتالى إلى عدم استقرار الحالة الاقتصادية ، الأمر الذى كان يثير شكاوى الأهالى فتقوم الدولة بعزل الباشاوات المسئولين عن ذلك(٤) .

---

(١) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٩٩ .

(٢) نفسه ، ص٢٢٥ .

(٣) نفسه ، ص ٢٣٩ ، يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١٧٧ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٧٤ .

(٤) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص٣٨ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ٧٥ .

وكان تجديد مدة حكم الباشا يتم بارسال خط شريف (عرف بتقرير السنة الجديدة) من السلطان إلى الباشا فى مصر ويحمل هذا الأمر رسول خاص قد يكون أحد الأغوات أو قابيجى باشا[١] أو أمير آخور[٢] .

أما اختصاصات الباشا ، فقد لخص قانون نامه مصر اختصاصات الباشا فى الفقرة التالية (تفقد أحوال الرعايا وأحوال الأموال السلطانية وحفظ وحراسة المملكة ورعايا الأمن[٣]). وتشير عبارة تفقد أحوال الرعايا إلى الاختصاصات المدنية والادارية للباشا ، كما تعنى العبارة التالية وهى تفقد أحوال الأموال السلطانية والاختصاصات المالية للباشا أما العبارة التالية وهى حفظ وحراسة المملكة ورعاية الأمن ، فتعنى الإختصاصات العسكرية للباشا وسلطته فى حفظ الأمن وفى الشئون الجنائية ، وسيتم التعرض إلى هذه الاختصاصات فيما يلى :

من حيث الاختصاصات الإدارية والمدنية للباشا ، فقد كان له حق الاشراف على جميع الشئون الإدارية فى مصر عن طريق رئاسته لجلسات الديوان العالى أهم مجلس ادارى فى الولاية ، وقد كان من أهم أعمال الباشا كما جاء فى قانون نامه ، أن يقيم الديوان أربعة أيام فى الأسبوع ، لايفوته منها من غير مانع شرعى [٤] .

وقد استمر الباشاوات فى مصر طوال العهد العثمانى يعقدون الديوان ويرأسون اجتماعته بأنفسهم فيما عدا بعض الجلسات ذات الطابع الخاص والتى كان يرأسها نيابة عن الباشا كتخداه أو قاضى العسكر ، وعرف الديوان باسم الديوان العالى ويحضره قادة الأوجاقات

---

(١) القابيجى باشى : رئيس فرقة القابيجية وهم حرس بوابات القصر السلطانى ، وقد اقتصرت دخول هذه الفرقة على أبناء البكوات والباشاوات وبعض الأعيان الآخرين وقد كان للقابيجية مهمة أخرى فقد كانوا يوظفون فى المحل الأول بصفتهم تشريفاتية فى حفلات الاستقبال التى تجرى بالقصر والبعثات ذات الأهمية الخاصة والسرية بوجه خاص ، مما كان يوفد إلى الولايات . وقد بلغ عدد القابيجية ١٥٠شخصا فى القرن الثامن عشر ، وكان اثنا عشر منهم يصاحبون السلطان فى ذهابه إلى المسجد يوم الجمعة . (أنظر ، ليلى عبداللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٥) .

(٢) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ، ص٨٥ .

(٣) قانون نامة مصر ، المرجع السابق ، ص٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص٧٣ .

والبكوات وكبار العلماء [(١)] وكان هناك ديوان اخر عرف بالديوان الصغير أو ديوان الباشا وينعقد يوميا فى قصره بحضوره مع الدفتردار والروزنامجى وكتاب الخزينة لتصريف الشئون الادارية العادية[(٢)] . وكان على الباشا أن يتلقى وينفذ أوامر السلطان لإدارة مصر ، وهو المسئول عن تطبيق قواعد الحكم العثمانى فيها [(٣)] .

ومن أهم اختصاصات الباشا المدنية المحافظة على النظام العام ، وكثيرا ما كان الباشاوات يتدخلون لحل الصعوبات التى تهدد أو تنذر باضطراب ذلك النظام كما حدث أثناء احدى أزمات ارتفاع الأسعار ، فقد أرتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا كبيرا فى عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م، مما إلى سخط المجتمع فقد وصل سعر أردب القمح إلى مائة وثمانيين نصف فأمر عبد الرحمن باشا - حاكم مصر حينذاك أن يباع الأردب بمائة وثلاثين نصفا فقط[(٤)] فى عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، نزلت بالبلاد مجاعة شديدة فى عهد اسماعيل باشا (فلما رأى الباشا ما فيه الناس من الكرب والغلاء أمر بجمع الفقراء والشحاذين بقراميدان ، فلما اجتمعوا أمر بتوزيعهم على الأمراء والاعيان على كل قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانب ولأعيان دولته جانبا وعين لهم مايكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء إلى أن انقضى الغلاء[(٥)] .

والأمثلة على حدوث هذا التدخل من الباشاوات للمحافظة على النظام العام كثيرة ومتعددة طوال العهد العثمانى فى مصر .

ومن أهم اختصاصات الباشا المدنية ، المحافظة على نظافة العاصمة فقد كان يأمر (بقطع السفايف والدكاكين لتوسيع الطرق والأسواق) ويهتم بتمهيد الأرض كما فعل قرة محمد باشا (١١١١هـ/١٦٩٩م [(٦)] كما أصدر محمد باشا فى عام (١٠١٦هـ/١٦٩٩م) أوامره إلى

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٧٧ ، جلال يحيى ، المرجع السابق ،ص١٣٨ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٧ .

(٥) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص-٣٠ .

(٦) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية، ص١٨١ .

الأهالي بقطع ذراع في عمق الأرض تجاه بيوتهم ودكاكينهم [١] وذلك في كل شوارع القاهرة حيث تراكم الأتربة والقاذورات قد أدى إلى تشويه منظر العاصمة[٢] وفي عام ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م) أمر محمد باشا نظار المساجد في القاهرة بتبيضها مما جعل الناس يطلقون عليه لقب (أبي النور محمد[٣] كما أمر مقصود باشا (١٠٥٢هـ/١٦٤٢م) بحفر الخليج الحاكمي والخليج الناصري اللذين تهددهما تراكم الطمي[٤] وأرتبط اسم حسين باشا (١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) بترميم العيون التي تهدمت من الكوبري القريب من الجيزة[٥] ولم يفتر حماس الباشاوات في مجال التنظيم ورعاية نظافة القاهرة الا في أواخر القرن الثامن عشر[٦].

ولقد اهتم الباشاوات برعاية المبادي الخلقية في ذلك العصر من ذلك ما كان من قيام محمد باشا البدكشي (١١٥٦هـ/١٧٤٣م) بابطال تدخين الدخان من مصر والتشديد في منع ذلك من الشوارع والمحلات التجارية وأبواب البيوت[٧] وقد اشتهر بعض الولاة بابطال المنكرات من مصر مثل عبد الله باشا الكبورلي (١١٤٢هـ/١٧٢٩م) الذي وصل به الأمر الى التنازل للوالي (الزعيم) عن جزء من ايرادته نظير ذلك[٨] فقد أمر هذا الباشا بابطال المنكرات والخمامير ومواقف الخواطئ والبوظ من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة ، وجعل للوالي والمقدمين عوضا عن ذلك في كل شهر كيسا من كشوفيات الباشاوات وكتب ذلك حجة شرعية[٩] .

---

(١) يوسف الملواني ، تحفة الأحباب ، ص١٩٦ .

(٢) نفسه ، ص١٨٩ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة في مصر ، ص٧٨ .

(٣) نفسه ، ص١٨٩ ، نفسه ، ص٧٨ .

(٤) يوسف الملواني ، المرجع السابق ، ص١٨٩ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص٧٨ .

(٦) نفسه ، ص٧٨ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتي ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٥١ .

(٨) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، تاريخ وقائع مصر ، تحقيق صلاح هريدي ، ص٣٦٤ .

(٩) عبد الرحمن الجبرتي ، المرجع السابق ، ص١٤٤ . جـ١ .

ومن الاختصاصات المدنية والادارية الأخرى للباشا ، اقامة الاحتفالات عند علمه بانتصار الجيوش العثمانية[١] ورئاسة الاحتفالات العامة مثل الاحتفالات بوفاء النيل ، وله فرحة كبيرة عند الجميع ، فهو دلالة على الرخاء بالنسبة للفلاح ، ودلالة على جميع الأموال بالنسبة للحاكمين[٢] .

وكان يشارك فى صلاة الاستسقاء لنزول المطر فى سنوات الجفاف وانخفاض النيل[٣] .

ومن الاحتفالات العامة ذات الأهمية والتى كان الباشا يرأسها أيضا الاحتفال بالعيدين[٤] ويرأس حفل خروج المحمل والكسوة فى طريقها إلى الحجاز[٥] .

أما الاختصاصات المالية للباشا ، فقد اعتبر الباشا المسؤول الأول عن تنظيم مالية مصر[٦] يساعده فى تلك المهمة الدفتردار والروزنامجى والادارة المالية التابعة لهما ،وكان على الباشا أن يضمن للدوله حسن استغلال مصادر الثروة فى مصر حتى يمكنه الوفاء بمصروفات الولاية وقد اعتبرت ولاية مصر مقاطعة يأخذها الباشا من الدولة لادارتها مقابل ايرادته منها ، ومما يؤيد ذلك ماذكر عن الوزير على باشا الحكيم الذى عقد أول جلسة للديوان (عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) فى قرا ميدان بحضور مجموعة كبيرة من الأمراء وأرباب المناصب ، حيث قال لهم بعد تلاوة مرسوم ولايته على مصر أتيت لأعطى كل ذى حق حقه وحضرة السلطان أعطانى المقاطعات وأنا أنعمت بها عليكم فلاتتعبونى فى خلاص المال والغلال وأخذ عليهم حجة بذلك[٧] . وكان الباشا هو المسئول عن ادراة خزينة مصر وموازنة ايراداتها ومصروفاتها لذا كان ينص فى دفاتر الخزينة على أنها دربهاء الباشا أى فى عهدته[٨] .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٧ .

(٢) نفسه ، ص١٣٨ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٨ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٩ .

(٥) جلال يحيى ، مصرالحديثة ، ص١٣٩ .

(٦) نفسه ، ص١٣٩ .

(٧) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٩ .

(٨) نفسه ، ص٨٠ .

ومن أهم واجبات الباشا المالية ارسال الخزينة الارسالية . وكان ارسال هذه الخزينة إلى استانبول يمثل أحد الواجبات الرئيسية للباشا وهناك بعض التلميحات فى كتابات القناصل أو المؤرخين عن ارسال هذه الخزينة إلى السلطان . ولم يشك الرحالة فرانسوا دى با فى عام ٩٣٣هـ/١٥٨٥م فى مسألة انتظام دفع مصر لهذه الجزية ، وحددها بنفس المبلغ الذى كان يصل إلى ٦٠٠,٠٠٠ قرش أى ما يعادل ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه فرنسي وذكر أنها كانت ترسل إلى استانبول بريا فى حراسة مشددة . وكان القناصل يذكرون من وقت إلى آخر أن الباشا كان يؤجل بعض العمليات نتيجة لانشغاله بارسال الخزنة إلى استانبول . وكانت هذه العملية تتم فى احتفال خاص ، يشارك فيه عدد من كبار الموظفين . ولذلك فان الخزينة الارسالية كانت تتم بطريقة منتظمة حتى منتصف القرن الثامن عشر ، ولكنها وصلت بشكل منقطع فى أثناء النصف الثانى من هذا القرن فانقطعت فى عام ١١٧٣هـ/١٧٥٩م.وهى السنة التى سيطر فيها على بك الكبير على مصر ، وكان يطمع فى الاستقلال ورفض ارسال الخزينة الارسالية. أما محمد بك أبو الذهب ، الذى كان على علاقات أحسن مع السلطان ، فإنه سمح للوالى بعد أن أصبح شيخا للبلد ، بالقيام بواجبه من جديد ، فأرسلت الخزينة الارسالية فى عام ١١٨١هـ / ١٧٧٤م إلى استانبول ، وشكر السلطان أبا الذهب على ذلك ، وحينما ترك حسن باشا قبودان البحرية العثمانية مصر ، بعد حملته اليها فى عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م أوصى وكيله الذى سيصبح اسماعيل باشا فيما بعد بضرورة اعادة أمر ارسال الخزينة الارسالية بشكل منتظم . وحينما عاد ابراهيم بك ومراد بك إلى القاهرة فى عام ١٢٠٦هـ/١٧٩١م بعد أن كان القبودان باشا قد طردهما منها ، انقطع وصول الخزنة إلى استانبول . وفى أثناء العقد الأخير من هذا القرن كان من المؤلم على نفوس رجال الباب العالى أن يروا انقطاع وصول الخزينة من القاهرة[1] .

وكان باشا مصر يرسل كذلك إلى استانبول ضريبة عينية تشتمل على مواد غذائية ، وعلى كميات من الحلوى لسيدات القصر ، وكانت تصل فى قافلة بحرية تضم عدداً من السفن ، مزودة بالمدفعية ، وكانت تشتمل على الأرز والسكر والتمر والزعفران والفلفل والمسك والسنامكي والصمغ ، هذا علاوة على البخور والحناء ، وكان ذلك يمثل أعباءا بالنسبة للباشا

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٤٤ .

في القاهرة[١] والباشا هو المسئول عن ادارة شتى شئون مالية مصر فى الحدود التى ترسمها له الدولة وفى حدود التعليمات التى كانت تصله باستمرار من الباب العالى[٢] .

ولابد من الحصول على موافقة الباشا على أى عملية نقل حق الالتزام (سواء فى الأرض أو الجمارك) من شخص إلى آخر فقد (أذن له السلطان بالختم والعلامة على جميع التمكينات[٣] التى يقع فيها التغيير بالبيع والشراء[٤] .

والباشا هو المختص بتعيين كل موظفى الادارة فى مصر ، وعند موافقته على تعيين أى موظف يصدر له بيورلدى[٥] بذلك وقد طبق هذا النظام بالنسبة لجميع موظفى الادارة فيما عدا منصب الدفتردار وأمير الحج فقد كان الباشا هو الذى يرشح بعض الأمراء لشغل هذين المنصبين الهامين ويرسل أسماء المرشحين إلى أستانبول ، وغالبا ما كانت الدولة تؤيد رأى الباشا وترسل خطا شريفا سلطانيا بالموافقة على تعيين من رشحها الباشا[٦] كما اختص الباشا بمنح رتبة الصنجقية لأمراء مصر أو عزلهم منها[٧] .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٤٦ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٨٠ .

(٣) التمكينات : من أهم اصطلاحات العصر العثمانى ويعنى التمكين منح الحق فى الانتفاع بأرض أو جمرك أو وظيفة ، وقد عرفت تمكينات الأرض والجمارك التى كانت تصدرها الروزنامة بعد اعتماد الباشا لها وتوقيع الدفتردار عليها باسم التقاسيط وبهذه التقاسيط كان الملتزم يثبت حقه فى حصة الالتزام الزراعى أو جهة الجمرك المعينة له وبتمكين الوظيفة يثبت الموظف حقه فى وظيفه . (أنظر ، محمد شفيق غربال ، مصر عند مفرق الطرق ، ص١١ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٨١) .

(٤) نفسه ، ص ٨١ .

(٥) بيورلدى : كلمة تركية تعنى أمرا عاليا صادرا من الباشا ومحل بالطغراء أو الخاتم (انظر ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٤٤٢) .

(٦) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ٢١٢ ، عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٥٠ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٣٦ .

ومن أهم الاختصاصات المالية للباشا قيامه بدفع مرتبات الموظفين من ساليانات[١] ومواجب وعلوفات[٢] وجرايات[٣] ويقدر مايكون الباشا سخيا فى منح العلوفات بقدر مايعلو شأنه ويوصف بالكرم ، فقورد باشا (١٠٠٣-١٠٠٤هـ/١٥٩٤-١٥٩٥م) ، كان كريما يعطى العلوفات لكل من سأله من الرجال والعلماء والفضلاء والأصاغر حتى النساء ، وكذلك فعل فى الجرايات مثل فعله فى العلوفات [٤] .

واذا ما حاول الباشا تخفيض علوفات الجند كان يتعرض لمهاجمتهم ومحاولتهم الاعتداء عليه ، فعندما حاول أويش باشا فى عام (٩٩٧هـ/١٥٨٨م) قطع علوفة ثلاثة أيام من سائر العسكر ، هاجمه الجند وتعدوا على قصره ونهبوا أمتعته وقتلوا بعض أتباعه ، ثم أخذوا ابن الباشا رهينه عندهم حتى يستجيب لمطالبهم وهاجموا الجوانيب ونهبوا المنازل ، فاضطر الباشا لارسال بيورلدى للقاضى حتى نفذ مطالبهم[٥] .

وبالنسبة لاختصاصات الباشا فى الشئون العسكرية وفى رعاية الأمن ، فهو الرئيس الأعلى للأوجاقات العسكرية وهو المسئول عن الدفاع عن البلاد ضد أى عدوان خارجي ، وعليه اعداد وتوجيه الحملات العسكرية اللازمة ، لحفظ الأمن فى الداخل من ثورات المتمردين والعربان وعلى الباشا واجب تجهيز الفرق المطلوبة للاشتراك فى حروب السلطان خارج مصر ، والتى كانت تذهب بقيادة أحد كبار الصناجق بناء على تكليف الباشا له بذلك[٦] .

---

(١) ساليانة : مرتب سنوى نقدى يصرف من الخزينة للباشا ولكبار الأمراء والصناجق وغيرهم من كبار الموظفين . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٤٤٨) .

(٢) علوفة : جمعها علوفات وهى مرتبات العسكر . (أنظر ليلى عبد اللطيف ، أحمد ، المرجع السابق ، ص٤٥٠) .

(٣) جراية وعليق ، جمعها جرايات وعلائق وتعنى المرتبات العينية من قمح وشعير والتى كانت تصرف من الخزينة للباشا وكبار موظفى الادارة ترد فى الوثائق بمعنى دفتر أو قائمة . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٤٤٤) .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٤٤٤ .

(٥) محمد بن أبى الرور البكرى ، كشف الكربة ، ص٣٠١ ، ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ٨٢ .

(٦) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٨٢ .

وقد اهتم الباشاوات فى مصر برعاية الأمن عن طريق محاربة قطاع الطرق والقضاء على اللصوص ، وقد اشتهر منهم فى هذا المجال داوود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨م-١٥٤٩م) الذى تتبع المفسدين وقتل أعداد كبيرة منهم [١] وقد غالى بعض الباشاوات فى ذلك حتى وصفهم المؤرخون المعاصرون بأنهم كانوا سفاكين للدماء مثل على باشا السلحدار (١٠١٠-١٠١٢هـ/١٦٠١-١٦٠٣م) فقد أستأصل المفسدين وكان سفاكا للدماء[٢] ومسيح باشا الخادم (٩٨٢-٩٨٨هـ/١٥٧٤-١٥٨٠م) كان قتالا سفاكا للدماء يقال أنه قتل فى هذه المدة نحوا من عشرة آلاف نفس وغالبهم من أهل الفساد ، ولأن اللصوص كانت كثيرة فى زمن حسين باشا الذى سبقه فقطعها مسيح باشا المذكور[٣] .

وقد عبر المؤرخون المعاصرون عن اعجابهم باهتمام الباشاوات بشئون الأمن ونشر الرخاء بين الرعية فذكروا عن داوود باشا (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩) أن الرخاء فى زمنه موجود والجور والظلم فى دولته معقود والرعايا فى الرفاهية وتسهيل الأرزاق من غير مشقة[٤] .

وقد اشتهر بعض الباشاوات بالمغالاة فى استخدام هذه السلطة مثل محمود باشا (٩٧٣-٩٧٤هـ/١٥٦٥-١٥٦٦م) والذى عرف عنه أنه بمجرد وصوله إلى القلعة ، قدم اليه أمير الصعيد الأمير محمد بن عمر الهوارى بسفينة كبيرة مشحونة بأنواع الهدايا والتحف قدرت بخمسين ألف دينار ، ولكن كان رده على ذلك بمصادرة أمواله وممتلكاته[٥] . وقد اشتهر هذا الباشا بالظلم حتى على الموظفين وكان لايتورع بالقتل والمصادرة ، وقد كانت نهاية هذا الباشا بالقتل على يد مجهول ، بتحريض بعض الأمراء المماليك[٦] وهناك الأمثلة العديدة على ذلك .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات ، ص ١٢٧ .

(٢) محمد بن أبى الرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٥٧ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٣٦ .

(٣) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٥٧ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة ص٨٢.

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٨٢ .

(٥) يوسف الملوانى ، تحفة الاحباب ، ص١٣٦ .

(٦) نفسه ، ص١٣٦ .

وبالنسبة لأوامر الباشا الادارية ، فقد عرفت أوامره الادارية باسم البيورلدى ، وهى كلمة تركية تعنى أمرا عاليا ، ويصدر البيورلدى دائما باللغة التركية ويحلى بالطغراء أو الخاتم الباشوى ويشار إليه باسم بيورلدى شريف حضرة وزير أى الأمر الشريف الصادر من الباشا الذى كان يصدر أوامره لسائر الشئون الادارية فى مصر[١] .

وفى القرن الثامن عشر عندما سرى التدهور الى النظم الادارية فى مصر ، كان يشار إلى أوامر الباشا بلفظ فرمانات[٢] وقد حدث ذلك من قبيل التجاوز اذ المسلم به أن الفرمان لايصدر الا عن السلطان فهو أمر سلطان وليس أمرا باشا[٣] .

أما موارد الباشا ومصروفاته ، فقد كان له ايرادات من موارد دخل متعددة كرسوم بعض الجمارك وقرى الكشوفية وضريبة كشوف أرباب المناصب والمرتب أو الساليانة التى تصرفها له الخزينة[٤] وايرادات من قرى الحلوان[٥] .

وبالنسبة لعزل الباشا ومحاسبته ، فقد وجدت أسباب متعددة لعزل الباشا من ولاية مصر منها [٦] :

١- اعتلاء سلطان جديد عرش السلطنة .

٢- سوء تصرفات الباشا .

٣- النقل للعمل فى ولاية أخرى .

٤- النقل لمنصب الصدارة العظمى أو غيرها من المناصب العليا فى السلطنة .

٥- فساد الإدارة المركزية .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٨٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ٨٤ .

(٣) نفسه ، ص٨٥ .

(٤) نفسه ص٨٦-٩٨ .

(٥) نفسه ، ص٩٨ .

(٦) نفسه ٩٨-١٠٧ .

٦- مؤامرة الادارة المركزية .

٧- مؤامرات الحامية وأمراء المماليك .

وبعد صدور الأمر بعزل الباشا لم يكن يسمح له بمغادرة مصر قبل محاسبته على يد الباشا الجديد عن خزينة البلاد وايراداتها ومصروفاتها ، وإذا حاول الباشا مغادرة مصر قبل وصول خلفه ، وقبل القيام بعملية محاسبته كان الأمراء المماليك يمنعونه من السفر بالقوة ، فحين عزل مصطفى باشا فى عام ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م حاول السفر قبل وصول الباشا الجديد ولكن منعه الصناجق من السفر حتى يحضر بيرام باشا لمحاسبته ، وفعلا لما حضر وجد أن الخزينة تحتاج إلى عشرين كيسا فالزمه بدفعها وتم ذلك[١] وهناك الكثير على ذلك .

وعلينا أن نذكر أن معاونى الباشا فهو القائم مقام والكتخدا ، والخازندار والتورجمان ، وسر متفرقة وسر كيلار الوزير وسنجقدار ، كاتب الديوان وديوان أفندى ، مقابلة حضرة وزير ، ومهردار ختم ، ميرخو ، سرطباخين ، والجاشنكير وسر منادين ، وسر جاوشان ، وكيل خرج، رئيس الديوان[٢] .

ديوان الباشا :

قبل صدور قانون نامه ، كان باشا مصر يرأس مجلسا اداريا مكونا من رؤساء الحامية ومن الكتخداء والدفتردار وأمير الحج الذين يعاونون فى ادارة البلاد كما يحولون دون اساءة استعمال لسلطته . وقانون نامه قد حول ذلك المجلس الادارى إلى ديوان على غرار ديوان استانبول . وهذا الديوان تسميه وثائق القاهرة (ديوان محروسة مصر) و(ديوان حضرت ولى النعم والى مصر) ويرأس الباشا أو الكتخدا اجتماعاته . وفى بعض الأحيان كان الباشا يتابع جلساته من وراء الستار كما كان يحدث فى استانبول . ويضم الديوان خلاصة العناصر التى تشترك فى ادارة مصر ، فيحضره طائفة من الموظفين مثل الدفتردار والمهردار ، حامل الاختام، والدويدار ، حامل الدواة ، وأكثر من فرمانجى لتحرير الفرمانات مع جماعة من الكتاب والتراجمة . وكذلك يحضره قاضى عسكر أفندى أى قاضى القضاة والمفتون على المذاهب

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ١٢٥-١٢٦ .

(٢) نفسه ، ص١٢٧ .

الأربعة ، وكبار رجال الدين والأمراء الصناجقة وأغاوات واختيارية الأوجاقات السبع ، وعضوية هؤلاء الأشخاص ثابتة وتابعة لوظائفهم ، لذا كان لابد من حضورهم جلسات ارسال الخزينة الارسالية ، واعلان وفاء النيل ، واستلام أمير الحج لأموال الحرمين الشريفين ومحاسبة الباشا وغير ذلك[١] وكان الباشا يتلقى مباشرة فرمانات السلطان التى يخاطبه فيها عن ادارة مصر ، وكذلك يخاطب دفتردار وقاضى عسكره وأمراء مصر من البكوات المماليك ورجال الحامية ، فيعملون جميعا على تنفيذ أوامر السلطان . والباشا يدعو الديوان إلى الإجتماع أربع مرات فى الاسبوع ، وتتلخص اختصاصاته فى ادارة شئون الولاية مثل الاجراءات المالية وأعمال الخزينة ، وضرائب الأرض وبحث القضايا الهامة والباشا لم يكن يستطيع أن يقطع فى شئون الادارة الا بعد الاستفتاء بآراء ممثلى الأمراء المماليك ورجال الأوجاقات كل فيما يخصه. وكانت تعرض أوراق الديوان المختلفة على الباشا فيصدر عليها أوامره التى تعرف باسم "بيورلدى" أى تفضل وتوقع بخاتم الباشا . وكذلك كان يصدر الباشا وفى أغلب الأحوال بناء على رأى الديوان . فرمانات باشوية باعتباره ممثل السلطان العثمانى ، وتفتتح عادة بهذا التعبير (صدور هذا الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف عن ديوان مصر المحروسة) وكانت تسجل فرمانات الباشا فى القلم المختص بها[٢] .

وكذلك وجد فى مصر الديوان الصغير ، وكان يجتمع فى كل الأيام فى قصر الباشا ، ويحضره الكتخدا والدفتردار والروزنامجى وبعض رجال الأوجاقات السبعة ، وكان ينظر فى المسائل الادارية ويشرف على تطبيق قواعد الادارة العثمانية فى مصر[٣] .

هيئة المماليك ، الصناجق والكشاف :

بعد أن أتم السلطان سليم فتح مصرلم يعمل على القضاء على المماليك - كما رأينا - مكتفيا بما نالهم من الهزيمة . وأول والى على مصر العثمانية كان خاير بك وهو من المماليك . فلماذا اتبع السلطان سليم هذه السياسة أولا لأن المحافظة والابقاء على أمراء

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥١ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص ٢٥٢ .

المماليك كان متمشيا مع سياسة الدولة العثمانية فى حكم الشعوب التى خضعت لها ، فالدولة العثمانية لم تكن تغير كثيرا فى نظم البلاد المفتوحة ، وامراء المماليك كانوا أدرى بعادات البلاد وحكمها. ومن ناحية أخرى فانه لم يكن من المستطاع القضاء نهائيا على قوة المماليك الحربية ، فلم يكن هناك بد من استخدام المماليك فى حكم مصر وفى الدفاع عنها . ومن ناحية ثالثة رأى السلطان سليم ومن بعده السلطان سليمان أن يدع المماليك يشتركون فى حكم البلاد وفى الدفاع عنها لكى يكونوا عنصرا موازنة ازاء الباشا ورجال الأوجاقات العثمانية[١] .

وكان الصناجق من أمراء المماليك المصريين عنصرا هاما فى حكم وادارة البلاد .ويعرف زعيمهم بشيخ البلد ومقره القاهرة ، وهو ثانى شخصية فى مصر بعد الباشا ، وكان يوازن سلطته وأحيانا يحل محل الباشا المخلوع حتى يأتى الباشا الجديد . وكان الباشا يعهد إلى بعض الصناجق البكوات بمهمة توطيد الأمن وحماية القاهرة من اعتداء العربان ويطلق عليهم لقب وال . وكان الصناجق يقومون أيضا ببعض السفارات الخاصة ، ويحمل أحدهم خزينة مصر إلى استانبول ، وكان يعهد اليهم أيضا بقيادة بعض فرق الأوجاقات العثمانية فى مصر ، أو بقيادة الفرقة المصرية العثمانية الذاهبة للاشتراك فى حروب السلطان أو بوظيفة الدفتردار أو أمير الحج[٢] .

الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة :

الحامية العثمانية هيئة حربية مهمتها الدفاع عن مصر والاشتراك فى حروب السلطان . وكذلك لها اختصاصات أخرى غير حربية ، فهى تساعد الباشا والصناجق فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر ، وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وكان أغوات الحامية يحضرون اجتماعات ديوان القاهرة ، وهم كهيئة رسمية لهم كلمة مسموعة فى ادارة البلاد ، ويتضح ذلك فيما كانوا يقدمونه من المطالب إلى الباشا اذا ما أحسوا

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٣ .

(٢) نفسه ، ص٢٥٤ .

منه خروجا على العرف القديم ، وكلما فكروا فى استحداث قاعدة جديدة يعدلون به نصوص قانون نامه . وكذلك كان رجال الحامية العثمانية يشتركون فى صيانة الأمن فى القاهرة ويساهمون فى حكم الأقاليم وفى جمع الأموال الأميرية[١] .

وكان رجال الفرق السبع اما مشاة (بيادة) أو فرسان (أسباهية) ولكل أوجاق أغا أى رئيس وكتخداه . وقد اشتملت الحامية العسكرية منذ بداية العهد العثمانى على عنصرى العثمانيين والمماليك ثم دخلها أخلاط من الشوام والمغاربة وبالتدريج أخذ عنصر المماليك فى الحامية يقوى على حساب العنصر العثمانى حتى طغى عليه فى أواخر العهد العثمانى بمصر[٢] وكان عدد الحامية يتراوح بين ١٣ ألفا و١٥ ألفا وكانت طبقا لقانون نامه مصر منذ صدوره عام ٩٣١هـ/١٥٢٥م قواعد الجهاز العسكرى فى ولاية مصر ، حيث حددت مهام كل جماعة (طائفة أو أوجاق) على حده منعا لحدوث الاحتكاك والتنافس بين الجماعات كما كان يحدث قبل ذلك وأشار القانون أيضا إلى عدد كل جماعة وعلوفات العسكر على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، وفضلا عن ذلك وضع الضمانات الضرورية للاحتفاظ ، بالصبغة العسكرية لرجال الأوجاقات تفاديا لوقع الاختلال والتفكك بين صفوفها فى سبيل ذلك أعطى الأغاوات والباشا الحاكم عدة سلطات لمعاقبة الخارجين على القانون ، وندرس فيما يلى تلك النواحى بالتفصيل :

أ- جماعات السباهية (الفرسان) :

١- جماعة كوكليان : وقد وصفهم القانون بأنهم من الفرسان الذين يركبون الخيول ويتقنون استخدام الرماح فى حذق ومهارة ، فهم يجيدون اطلاقها يمينا ويسارا . وتنحصر مهمة أفرادها فى الأقاليم (الكشوفيات والصنجقية) فى خدمة الكشاف (حكام الاقاليم) وهم يخضعون لقادتهم وكبرائهم وينفذون أوامرهم ، ويقوم أفرادها بحفظ الأمن وحراسة البلاد

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص١٧٧ .

(٢) نفسه ، ص١٧٧ .

والتصدى لاعتداءات العربان على الأراضى الزراعية وعليهم الامتثال لأوامر الكاشف ونواهيه[١] .

وكان للأسباهية حاميات خاصة فى اقليم جرجا وابريم ، أى على حدود مصر الجنوبية عرفت فى الوثائق باسم جماعة كوكليان محافظين جرجا وابريم وكذلك جماعة التفنكجيان[٢] .

وكانت السباهية مصدر إزعاج دائم للفلاح المصرى ، الذى كانوا يرهقونه دائما بطلباتهم الكثيرة وظلمهم ، مما أدى إلى حصولهم على الامتيازات الكثيرة واستغل البعض ذلك ، أمثال الهوارة الذين امتنعوا عن دفع الضرائب بحجة انتمائهم إلى هذه الأوجاقات العسكرية ، وظهر ذلك واضحا فى عام ١١٠٩هـ/١٦٩٨م ، ولولا اعلان تنكر هذه الأوجاقات لهم لما دفعوا أموال الميرى والغلال اللازم لحاكم جرجا عبد الرحمن بك فى ذلك الوقت[٣] .

وازداد نفوذهم وقوتهم ، حتى أنهم تدخلوا فى عزل حاكم جرجا فى عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م محمد بك لأنه أنزل عربان المغاربة وأمنهم ، وتعللوا بأن القيام بمثل هذا العمل من جانب حاكم الولاية سيؤدى إلى الفساد ، وانتهى الأمر برضوخ الباشا فى القاهرة لاجابة مطالبهم وعزل الحاكم وعين بدلا منه محمد بك قطامش[٤] .

ولم تقف قوتهم عند هذا الحد ، بل وصل تحديهم لسلطات القاهرة ، وأعلنوا استقلالهم بمصر وقتلوا واليها ابراهيم باشا عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م ووصلت البلاد الى حالة من الفوضى حتى اضطر السلطان العثمانى أحمد الأول (١٠٠١هـ/١٦٠٣م - ١٠٢٦هـ/١٦١٧م) إلى ارسال محمد باشا (١٠١٦هـ/١٦٠٧م - ١٠٢٠هـ/١٦١١م) المعروف بقول قران وقضى على نفوذهم تماما ، وعلى النفوذ السياسى والعسكرى للماليك مؤقتا ، وعرف عنه أنه أبطل الطلبة التى فرضوها على الفلاحين ، ونفى زعماءهم الثلاثة عشر إلى ابريم ،

---

(١) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثمانى فى مصر ، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص٧٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف احمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٢٤ .

(٣) يوسف الملوانى ، المصدر السابق ، ص٣٣٧ .

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٦١ .

وقضي على قوتهم تماما عام ١٠١٧هـ/١٦٠٨م[١]. وعرف ذلك بالفتح العثمانى الثانى ، ومما يجدر الاشارة اليه أن عربان هوارة قد اشتركوا فى القضاء على نفوذهم[٢] .

٢- جماعة تفنكجيان سوارى : ويقوم رجال هذه الجماعة مع زملائهم من الكوميلية بحراسة الأقاليم وحفظ الأمن بها وحمايتها من أغارات البدو كما يتعهدوا بحراسة الجسور للعناية بنظام الرى وحسن توزيع المياه على الأراضى الزراعية[٣] ومساعدة الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين[٤].

٣- جماعة الجراكسة : وأفراد الطائفة من المماليك الجراكسة الذين دخلوا فى خدمة الدولة، واستظلوا بالسيادة العثمانية بعد أن سمح السلطان لهم بذلك ، وهم من الفرسان الذين اشتهروا بركوب الخيل واتقان فنون الفروسية ويعملون على تنفيذ وأداء الخدمات السلطانية ومسرح نشاطهم فى الاقاليم أيضا[٥] .

ب- أوجاق مستحفظان :

وهؤلاء هم الانكشارية ، وكانوا أقوى الأوجاقات وأكثرها عددا ، عرفوا بأوجاق السلطان ومهمتهم مساعدة الباشا فى تنفيذ أوامر السلطان كما كانت لهم رقابة عليه ، ومنهم طائفة من كبار أصحاب المناصب مثل كتخدا الباشا فى بعض الأحيان ، وأغا الانكشارية الذى كانت له الرياسة العليا على ضبط مدينة القاهرة ، وكذلك سردار الحج وسردار الخزينة[٦] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المصدر السابق ، ص١٣١-١٣٤ وكانت الطلبة قد فرضت على الفلاحين منذ زمن أويس باشا عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م وقد وصلت قوة السباهية إلى اصدار أوامرهم بعدم استخدام العربان المماليك البيض ولايستخدم النصارى جوار ولاعبيد وبطشوا بهم (انظر ايضا محمد البرلس السعدى ، بلوغ الأرب برفع الطلب ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، بالمجلة التاريخية العدد ٢٤ ، ص٢٨٦).

(٢) محمد بن ابى السرور البكرى ، كشف الكربة برفع الطلبة ، ص٣٥١ .

(٣) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثمانى فى مصر ، ج١، ص٧٦ .

(٤) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٧ .

(٥) قانون نامه مصر ، ص٣١ .

(٦) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٧ .

جـ- أوجاق عزبان :

كان لرجال هذا الأوجاق عدة اختصاصات فمنهم بحارة ترسانة الاسكندرية والسويس وكان من رجاله أمين البحرين وهو المشرف على ساحلي بولاق ومصر القديمة ، فيما يتعلق بالسفن وبالضرائب المفروضة على الغلال الواردة لهذين الساحلين . وكذلك كانت لهم اختصاصات بوليسية فتتألف منهم مراكز البوليس بالقاهرة ويشرفون أيضا على الملاهي والبهلوانات[١].

د- أوجاق جاوشان :

كان العمل الرئيسى لهذا الأوجاق تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها إلى خزينة الروزنامه ،ومن واجبه أيضا الاشراف على شون الغلال الأميرية ، وكان المحتسب فى العهد العثمانى من رجال الجاوشان ، وتلخص اختصاصاته فى الاشراف على الاسواق وضبط الموازين والمكاييل وتسعير المواد التجارية وضبط الأمن [٢] .

و- أوجاق متفرقة :

أهم أعمال هذا الأوجاق حفظ القلاع التى تحيط بمصر مثل قلاع الإسكندرية ، ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وابريم ، ولكل من هذه القلاع طوائف من المتفرقة المشاة والفرسان والطوبجية مع جماعة من الطبالين ونافخى البورى والمعمارين والنجارين . ويشرف هذا الأوجاق أيضا على تشهيل القوافل ونقل الغلال ومختلف البضائع والمهمات بين الصعيد والقاهرة والسويس ويتولى هذا العمل قافلة باشى أى رئيس القافلة ، وكذلك يعنى أوجاق المتفرقة بجمع البارود اللازم لشئون الدفاع عن مصر الذى يرسل جانب منه إلى السلطان[٣] .

القضاء :

أولى العثمانيون شئون القضاء فى مصر جانبا كبيرا من اهتمامهم ، اسوة بما كانو يتبعونه فى مراكز السلطنة فى مختلف الولايات ، فأحاطوا منصب القاضى بأهمية كبيرة ومنحوه

---

(١) نفسه ، ص٢٥٧ .

(٢) نفسه ، ص٢٥٦ .

(٣) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٦ .

سلطات واسعة قضائية وادارية ، مما جعل الوثائق تطلق عليه لقب الحاكم الشرعى ، فالقاضى هو المختص بالفصل فى خصومات الأفراد ، والنظر فى شئون تركاتهم ووصاياهم وسائرشئونهم الشرعية ، فلا يتم اتفاق بين شخصين الا أمام القاضى ، وأمامه تجرى جميع عمليات البيع والشراء فى الأرض والعقارات . وكل موظف لايستطيع أن يمارس مهامه المحددة له الا اذا أثبت لدى القاضى صحة تعينه ، وسجل براءة هذا التعيين فى سجل المحكمة . ويشترك القاضى اشتراكا فعليا فى ادارة شئون الولاية عن طريق عضويته بالديوان العالى وهو أعلى مجلس ادارة فى الولاية[١] .

وأصبح القضاء فى مصر العثمانية تابعا للقضاء الإسلامى فى استانبول ، وكان السلطان يرسل إلى مصر ، قاضى القضاة المعروف باسم "قاضى عسكر أفندى ، ويأتى فى البروتوكول العثمانى من حيث الترتيب ، بعد قضاة استانبول ومكة المكرمة والمدينة وبروصة ، بذلك يتضح أنه كان فى مقدمة قضاة الدولة العثمانية [٢] والذى تنعته الفرمانات العثمانية "بأقضى قضاة المسلمين .. وارفع اعلام الشريعة والدين ٠٠ مولانا قاضى مصر ، ويشترك فى محاسبة الباشا فى آخر ولايته ، ويشرف على القضاء فى أنحاء البلاد . وفى بدء الحكم العثمانى فى مصر كان السلطان يرسل قضاة عثمانيين يعاونون قاضى العسكر فى تطبيق العدالة فى مصر، وهؤلاء يستعينون بالتراجمة لجهلهم لغة البلاد وتقاليدهم . وفى العهد العثمانى أصبح مذهب أبى حنيفه هو المذهب السائد ، ولم يمنع ذلك وجود مفتين على مذاهب الشافعى ومالك وابن حنبل ، يرجع اليهم القضاة عند الضرورة . وكان القضاة يفصلون فى أغلب القضايا المدنية والجنائية ، ولايصدرون أحكامهم الا بعد اثبات الحادث . وكانت أحكامه قابلة للنقض بعد الرجوع إلى المفتين وكانت تعرض المشاكل القضائية المهمة على ديوان الباشا لابداء الرأى فيها[٣] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٤٢ .

(٢) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى لمصر العثمانية (١٥١٧-١٧٩٨م) القاهرة ١٩٩٨ ، ص٨٤ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٤٢ .

وكذلك من اختصاص القضاة فى مصر العثمانية الاشراف على ادارة الأوقاف والمرتبات الخيرية المخصصة للعلماء أو المجاورين بالأزهر . أو لأهل الحرمين الشريفين ، وتقسيم التركات وتحصيل الرسوم على المبايعات ، والتصرفات العقارية مع تسجيل حجج البيع والشراء . وكانت تحول إلى قاضى العسكر الأوراق من الديوان الدفترى ، فيما يستدعى التحقيق من عرائض الشكوى ، ومشاكل الملتزمين ، فينظر فيها ويصدر عنها أحكامه الشرعية التى يأخذ بها الباشا العثمانى[1] .

كما اختص قاضى العسكر فى قضايا ذات اختصاص نوعى إضافة إلى ماسبق هى [2] .

١- فسخ الأنكحة .

٢- مبايعة الأنقاض .

٣- الكتابة على الواقف بماله من الشرط .

٤- الكتابة على أوقاف الدشايش .

وتصدر عن المحاكم الشرعية "حجج شرعية يثبت فيها صرف مرتبات العساكر وتسجل بها حالات انتقال الالتزامات و (اعلامات شرعية) وتحتوى على أحكام قاضى العسكر فى مسائل الالتزام ، واشهادات شرعية تسجل فيها حالات معينة كانشاء سفن نقل الغلال إلى الحرمين الشريفين أو حماية اليهود من استبداد الانكشارية ، و "تمكينات شرعية" تسجل فيها بعض المرتبات والمنح ، أو ينص فيها على حق الموظفين فى وظائفهم[3] .

وكان قاضى العسكر وسائر القضاة يحصلون على مراكزهم بالشراء فى نظير الرسوم التى يحصلونها مثل رسوم التمغات والقضايا ومعاينة التركات وتقسيمها ورسوم الحج والأوراق التى تصدر عن المحاكم . وقد يؤثر القاضى أحيانا الاقامة فى العاصمة دون الذهاب إلى مقر عمله فيرسل من ينوب عنه . وعندما ضعف النفوذ العثمانى فى مصر نقص العنصر العثمانى فى القضاة ، وحل مكانهم قضاة من المصريين . وقد نشأت قصص عن ذمم القضاة وشططهم

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٨ .

(٢) نفسه ، ص٢٥٩ .

(٣) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٩ .

في جمع الرسوم دون العناية بتحقيق العدالة ، فكانت الحكومة تتدخل وتحاول أن تمنع ذلك الاختلال ، وأن تعمل على تحقيق العدل ، الا أن ذلك لم يكن من المستطاع في الغالب في عصر تأخر الدولة العثمانية[١] .

أما عن مدة تولية قاضي القضاة ، فنجد في بداية العهد العثماني كان قاضي القضاة ، يشغل منصبه لسنوات طويلة وصلت إلى ستة عشر عاما متوالية ، ثم قصرت مدة شغل القاضي لوظيفته تدريجيا ، فأصبحت تتراوح بين ثلاث سنوات وسنة واحدة ، وفي القرن الثامن عشر وحتى أواخر العهد العثماني أصبح قاضي القضاة يعين لمدة سنة واحدة[٢] .

وفي حالة وفاة قاضي العسكر وهو في الخدمة أو عند انتهاء مدته كان الباشا يصدر فرمانا بتعيين قائم مقام عنه حتى يصل القاضي الجديد من استانبول وفي هذه الحالة كان القائم مقام يطلع إلى الديوان ، ويتولى أعمال القائم مقام حتى قدوم قاضي العسكر إلى مصر[٣] .

بالإضافة إلى ذلك يوجد قضاة الأقاليم حيث قسم الاقليم المصري إلى ستة وثلاثين قضاة يضم ست رتب ، وكانت المرتبة الثانية في كلا القسمين تسمى موصلة تمهيدية . وكان القضاة في الاقاليم درجات أعظمهم قضاة المديريات البحرية والثغور .

ويعين قاضي عسكر الأناضول قضاة الاقاليم ولاتوجد سلطة لقاضي عسكر عليهم منهم مستقلون عنه تماما . كما أن كل اقليم مستقل من الناحية القضائية عن الآخر[٤] .

أما الاختصاصات القضائية لقضاة الأقاليم نظر قضاة الشرع في الأقاليم في كافة أنواع القضايا التي تعرض عليهم ، فلم تكن هناك قضايا مخصصة لهم ، ومرد ذلك أن القاضي في الاقليم كان رئيس الهيئة القضائية بهذا الاقليم ، لذا فلم تكن هناك نوعية محددة من القضايا

---

(١) حسن عثمان، المرجع السابق ، ص٢٥٩ ؛ ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص٢٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص٢٤٨-٢٤٩ ، عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء في مصر العثمانية ، ص٨٧ .

(٣) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء في مصر العثمانية ، ص٨٥ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص٢٤٨-٢٤٩ ، عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء في مصر العثمانية ، ص٨٧ .

أو اختصاص قضائي نوعي ومن حق الناس اللجوء إلى المحاكم في أي وقت ورفع الدعوى على خصوصهم وطلبهم امام الشرع . ويقدم مقدمو الادراك وهم المسئولون عن الأمن في الاقاليم - من يقبضون عليه من المفسدين إلى القاضي الذي يقوم بالنظر في حالته أو الأمر بسجنه حتى يظهر من أمره ماتكشف عنه التحريات[١].

وفي المحاكم الاقليمية أيضا ولدى القاضي كان يجرى تنصيب مشايخ طوائف الحرف وعزلهم أيضا[٢] واختصوا أيضا بالطب الشرعي والكشف على الجثة قبل دفنها وذلك بمساعدة الجراحجية[٣] وتحديد أسعار المأكولات ، كأنواع اللحوم والخبز وغير ذلك ، ويكون ذلك بحضور بعض المسئولين عن بيع هذه المأكولات ثم يقوم القاضي عن طريق رجاله بالجهر بالنداء بالتسعيرة الجديدة في الأسواق[٤] .

أما عن مدة شغل القاضي لوظيفته تصل إلى عامين أو أكثر في أوائل العهد العثماني ، ولكن في القرن الثامن عشر لم تعد مدة خدمة القاضي تزيد عن سنة واحدة[٥] .

المفتون :

وقد عرف نظام الافتاء في مصر في العصر المملوكي السابق لوجود العثمانيين في مصر اذ كان المماليك يعينون مفتيا من كل مذهب يقيم في دار العدل القائمة في عاصمة كل نيابة . وفي القرن السادس عشر كان كثير من المفتين في مصر والشام من أصل رومي أي من الأناضول أما في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد غدا المفتون في مصر وغيرها من البلاد العربية شخصيات محلية عربية ، والمفتي عالم ديني ولم يكن يشترط تخرج رجال الافتاء في الاقاليم من مدارس استانبول كقاضي العسكر وانما كان يقبل تخرجهم من أية مدارس أخرى[٦] .

---

(١) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، القضاة في مصر العثمانية ، ص٩٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص٢٧٥ .

(٣) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٢٧٨ .

(٥) نفسه ، ص٢٨٥ .

(٦) نفسه ، ص ٢٩٠ .

وقد وجد فى مصر مفتون على المذاهب الأربعة فى الاقاليم كانوا يحضرون مجالس الشرع فى المحاكم الاقليمية حينما يكون موضوع الجلسة متعلقا بادارة الاقليم . ويأتى المفتى فى الاقليم بعد القاضى ، وفوق نائبه ، فلم يكن للمفتى فى مصر الدرجة التى وصل اليها المفتى فى دار السلطنة نفسها . وفى مصر العثمانية كان العلماء المحلين هم الذين يختارون مفتيهم ثم تعمل السلطات على الاعتراف بهم[١] .

أما عن ابرادات المفتين ومدة خدمتهم ، فقد كان المفتون يحصلون على بعض مرتبات الجراية والعليق من قمح وشعير يكون قد وقفها عليهم بعض الباشوات وهى مرتبات خيرية سنوية تصرف لهم من الخزينة . وبالنسبة للمدة فقد كان المفتى يحصل على منصبه لمدة الحياة لا لسنوات محددة ، ولايرتقى واحد منهم من منصب إلى آخرولا ينال أجرا من الدولة[٢].

ومن الشخصيات الدينية الأخرى التى وجدت فى مصر العثمانية :

نقيب الأشراف :

وكلمة أشراف تعنى أولئك الأفراد الذين هم من نسل سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكان ذلك عن طريق الأم أو الأب ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح وان العلاقة القوية التى وجدت بين أرباب الحرف والاشراف نظرا لوجود كثير من الاشراف بين الحرفيين قد أفادت الاشراف من ناحيتى التنظيم والقوة فقد دعمهم أرباب الحرف وهم عادة ذوى سلطة سياسية وقد تمتع الاشراف باحترام خاص من مجموع الشعب وشكلوا جماعة منفصلة ومتميزة وحتى تراقب الدولة هذه الجماعة وتمنع الناس من ادعاء هذا النسب الشريف أوجد العباسيون ثم المماليك بعد رئيسا للاشراف اطلق عليه نقيب الاشراف سارت الدولة العثمانية على نفس المنهج وكان لنقيب الأشراف فى استانبول سلطة على نقباء الاشراف فى الولايات وهو الذى يعينهم وله سلطة قضائية عليهم[٣] وكان نقيب

---

(١) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ، ص.٢٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩١ .

(٣) عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها الجزء الأول ، ص١٣١ .

الاشراف فى مصر يرسل من استانبول فى بداية العهد العثمانى واستمر ذلك حتى القرن الثامن عشر ثم أصبح يتولاها شيخ السجادة البكرية من آل البكرى فى مصر . ويعتبر جمع الأشراف فى مصر أتباع للنقيب وله أن يمارس عليهم سلطة قضائية تصل إلى عقوبة التغريز وعقوبة الحبس ولم تصل تلك السلطة إلى حد عقوبة الاعدام . وكان لنقيب الأشراف نواب يمثلونه فى الاقاليم ويمارسون نفس سلطته على الاشراف فيها . ويحضر نقيب الاشراف الاجتماعات الادارية الهامة التى كانت تعقدها الادارة فى مصر فى شكل جمعيات لحل الازمات المحلية وذلك باعتباره شخصية لها وزنها فى المجتمع ولها تأثير على اتباعها ويتولى نقيب الاشراف منصبه لمدى الحياة . ولم يكن له مرتب من الخزينة ، وانما كانت أوقاف معينة من أراضى أوقفها السلاطين ليستعين بها النقيب فى معاشه ونفقة أتباعه[١] .

الإدارة المالية :

كانت لمصر فى العهد العثمانى ادارة مالية دقيقة ، اشترك فى ادارتها الديوان الدفترى وديوان الروزنامه ، وفريق من رجال الحامية العثمانية ووزعت الأراضى الزراعية والجمارك بطريق الالتزام ، وكانت تجبى الضرائب ، وتجمع ايرادات الولاية ، ثم تصرف فى الوجوه المخصصة لها ، وماتبقى يرسل لخزينة السلطان ، ولنعرض لهذه النواحى بصفة عامة[٢] .

واستبقى العثمانيون فى بداية حكم فى مصر الموظفين والكتاب الذين سبقت لهم الخدمة فى خزينة السلطنة المملوكية ، وعهدوا إليهم بإدارة الخزينة العامرة ، وقد عين العثمانيون "متحدثا" أو مباشرا أو مفتشا لكل اقليم وكان أكثرهم من القضاة "ويتولى "المتحدث" الاشراف على سجلات الأراضى الزراعية الخاصة باقليمه ، ويحدد مقدار الضريبة المطلوبة منه، ويستلم ايراداتها من العمال والكشاف الذين يسلمونه اياها فى القاهرة فى مقر الخزينة بالقلعة، وكان يرأس هؤلاء المباشرين فى عملهم ويراقبهم رئيس أطلق عليه لقب "ناظر الأموال" ويساعده فى اداء مهمته أمين الشهر[٣] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٧ .

(٢) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٦٠ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٧ .

أما أقسام الخزينة السلطانية فى مصر والعاملون بها ، نجد أن الخزينة السلطانية فى انقسمت آلى قسمين :

١- ديوان الدفتردار أو الديوان الدفترى .

٢- ديوان الروزنامة .

١- الديوان الدفترى :

هو بمثابة ديوان المالية ، ويرأسه الدفتردار أى صاحب الشئون المالية وهو فى العادة من الصناجق المصريين ومهمته الاشراف على شئون الولاية وتحصيل أموالها ، والتعجل بانجاز مهام الحرمين الشريفين وصرة أهالى مكة والمدينة ، و"تشهيل خزينة السلطان ومعتادات الآستانة" ومحاسبة الباشا فى آخر ولاية عهده بالولاية . وللدفتردار ساليانة ثابتة نقدية يصرف له من الخزينة ومقدارها ٨٩٢٠٠ بارة سنويا ، يضاف اليها مبلغ ٣٤٩١ بارة تصرف له من الخزينة أيضا وقت ارسال الخزينة الارسالية . وكان يحصل أيضا على مرتب عينى من القمح والشعير وهو ماعرف باسم جراية وعليق وصلت الى ١٠٠ أردب غلال فى السنة ٥٠٠ أردب قمح و ٥٠٠ أردب شعير[١] وعوائد مختلفة مثل بعض أموال على أصحاب المرتبات الثابتة ، وعلى بعض أموال على أصحاب المرتبات الثابتة ، وعلى بعض وجوه ايراد الباشا ، وللدفتردار وكيل ومهر دار ، وموظفون يعملون تحت اشرافه . وكان الديوان الدفترى عصب النظام المالى القائم على نظام الالتزام ، فهو الذى يطرح مقاطعات الالتزامات فى المزاد ، وهو الذى يقرر من يرسو عليه المزاد ، وهو الذى ترفع اليه أوراق الملتزمين من ديوان الروزنامة التابع له ، ويضع عنها البيانات اللازمة ، ويقدمها للباشا فى "عرضحال" خاص فيصدر الأوامر المناسبة ، ومن ثم يصدر عن الديوان الدفترى "تقسيط الالتزامات المحرر بخطى قيرمة والديوانى والمذيل بطغراء الدفتردار والمهمور بخاتم الباشا كما يصدر الديوان الدفترى "مراسيم دفترية" خاصة برفع أو تخفيض أموال وغير ذلك من الشئون المالية[٢].

وقد حل الدفتردار مكان ناظر الأموال ، وكان الدفتردار فى بداية العهد العثمانى شخصية عثمانية يعين لرئاسة الادارة المالية فى مصر من بين رجال الخزينة السلطانية المركزية فى

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٠ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٨ .

(٢) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٠ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٩٨ .

استانبول ويلقب الدفتردار فى الوثائق بلقب دفتردار أفندى دفتردار خزينة عامرة . وكان الدفتردار شخصية كبيرة فكان يتولى مناصب ادارية هامة بالإضافة لمنصبه فى رئاسة الادارة المالية فى مصر مثل منصب قائم مقام الباشا فى بعض الأحيان[١] .

ولم يكن للدفتردار مدة محددة بل كان يستطيع الاحتفاظ بمنصبه طالما هو فى مركز القوة والسادة بين أقرانه من البكوات الصناجق فى مصر[٢] .

٢- ديوان الروزنامة :

كان تابعا للديوان الدفترى مهمته جمع الأموال الأميرية وصرفها فى وجوهها المختلفة تحت اشراف الديوان الدفترى ، وكان يقوم بالعمل فيه أفندية من الكتاب أطراهم المؤرخون المعاصرون ووسموهم باللباقة ورقة الحاشية ودماثة الخلق ، وآثارهم المودعة فى دار المحفوظات المصرية ، تنبئ عن دقتهم وطول باعهم فى العلوم الحسابية ومختلف شئون الادارة والزراعة وجباية الأموال وجمال خطوطهم ينبئ عن مهارة خطية ترتفع إلى مصاف كبار الخطاطين . ولعل هذه الوثائق من دفاتر وأوراق من الآثار التى توسم بالدقة فى عصر غلبت عليه القلاقل والفتن.

وكان أفندية الروزنامة يرأسون أقلام الروزنامة والتى تسمى بالمقاطعات ويؤدون أعمالهم لمدى الحياة ، ويورثون أبناءهم أو مماليكهم وظائفهم بعد التمرن على أعمال الروزنامة . وسجل على الروزنامة طوال العهد العثمانى جو من السرية والتكتم ، وتعددت الأوامر فى وثائق ذلك العصر بالا يفشى أحد الأفندية شأنا من شئون الروزنامة الا بأمر من الباشا نفسه . وضمن لهم سرية أعمال الروزنامة تحريرهم دفاترهم ومعظم أوراقهم بهذا الخط السرى العجيب - خط القيرمة- الذى يصعب قراءته الا بعد التمرين على مختلف قوالب الكلمات والجمل[٣] .

والروزنامجى هو المدير العام لديوان الروزنامة وكبير الأفندية وكان الباشا يعينة بموافقة شيخ البلد والصناجق ورؤساء الأوجاقات ومهمته الاشراف على تحصيل الأموال المقررة

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٣٠٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٠١ .

(٣) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٢ .

وصرفها، وتعرض عليه الأوامر الصادرة من الباشا فيحيلها بدوره إلى الاقلام المختصة ، ويرفع البيانات المتحررة من مختلف أقلام الروزنامة إلى الديوان الدفترى . والروزنامجى معاونون مساعدون وأهمهم أربعة خلفاء أو قلفاوات[١] وكان أهمهم "الباش مباشر" أو "الباش خليفة" أو "الباش قلفة" أو سر خليفة وكان هو الوكيل الأول للروزنامجى ، ويحل محله اذا خلا منصب الروزنامجى فيعمل فيه كقائم مقام بدل الروزنامجى وكان الروزنامجية دائما يؤخذون من طبقة الباش خليفة ، ثم يأتى بعد الباش خليفة ، ثانى خليفة ، ثم رابع خليفة[٢] ومنهم يتألف مكتب مدير الروزنامة وهو الخلفاء أو القلفاوات يشرفون على كل الأعمال الحسابية التى يقوم بها الأفندية ، على كل السجلات التى تحت أيديهم[٣] ومن مساعدى الروزنامجى الآخرين ثلاثة صبيان شاكرديه وكيسة دار[٤] .

والروزنامجى عضو أساسى فى الديوان العالى ولابد من حضوره فى الجلسات الخاصة بالنواحى المالية ومعه بعض مساعديه ليقدم البيانات المطلوبة عن مالية مصر فى حالة محاسبة الباشا بعد عزله . وفى حالة ارسال الخزينة الارسالية للسلطان ، وارسال مال الحرمين الشريفين وغير ذلك من الجلسات التى تعقد للاغراض المالية[٥] .

وينقسم ديوان الروزنامة إلى عدة أقلام أو مقاطعات يرأس كل منها أفندى تنعته الوثائق "بالمقاطعجى" وتوزع الاختصاصات الحسابية والمالية على هذه الاقلام أو المقاطعات ، ولديها سجلات متعددة مثل سجلات التزامات الأراضى الزراعية وسجلات التزامات الجمارك وسجلات الغلال المطلوبة عينا من الوجه القبلى ، وسجلات معتادات الاستانة وأموال الحرمين الشريفين وسجلات الغلال المخصصة للباشا وللدفتردار ، ولقاضى عسكر أفندى وللأمراء الصناجق وسجلات الأراضى الموقوفة والاحسانات والمنح ولديها أيضا سجلات "مواجبات العسكر وجامكياتهم" والذى كان يعاون أفندية الروزنامة فى تشهيلها أفندية الأوجاقات السبعة الممثلين فى ديوان الروزنامة وقلم "الخزينة دار" من الاقلام المهمة ، وهو قلم مدير خزينة

---

(١) حسن عثمان، المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٣٠٦ .

(٣) نفسه ، ص٣٠٧ .

(٤) نفسه ، ص٣٠٧ .

(٥) نفسه ، ص ٣٠٤ .

الروزنامة التى هى خزينة مصر ، ويتولى جميع الأموال الأميرية وقيدها وصرفها فى وجوهها المعينة ، كما يراقب جميع الأعمال المالية فى ديوان الروزنامة[١] .

ويضاف إلى أفندية الروزنامة بعض الموظفين مثل "التذكرجى" وهو الذى يحرر مختلف تقاسيط الالتزام والتذاكر الديوانية عن مختلف المرتبات والمخصصات الأميرية ، و"التاريخجى" وهو الذى يضع تاريخ كل مستند رسمى ، وروزنامجى واردات ويكون دائما أحد أتباع الباشا وهو يقيد ايراداته ، و"اغاء جبة جيان" وهو الذى يقيد المطلوب من ملح البارود للجبة خانة العامرة و"أمين الصناديق" وهو بمثابة أمين دفتر خانة أو محفوظات الروزنامة،"كاغد أمين" أى أمين الأوراق والمهردار وهو حامل أختام الروزنامة[٢] .

ويعزل الروزنامجى من منصبه فى حالة فشله فى اصلاح مالية مصر وتجاوز الأزمات التى كانت تحل بها أو لاتهام الباشا له بالاثراء بطريقة غير مشروعة باستغلال منصبة وفى بعض الحالات كان الروزنامجى يعزل من منصبه لعجزه عن اداء عمله لمرضه أو بخلو المنصب لوفاة صاحبه[٣] .

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٢ .

(٢) نفسه ، ص٢٦٢ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٣٠٥ .

الفصل الثالث

دراسة عن بعض جمارك مصر فى القرن الثامن عشر
(الاسكندرية - دمياط - رشيد- البرلس)

موقع مصر الجغرافى :

إمتازت مصر بموقعها الجغرافى الفريد بين القرات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ولقد لعبت الملاحة دوراً مهما فى ربط مصر بشعوب تلك البلاد عن طريق البحر المتوسط شمالا ، والبحر الأحمر شرقا ، ثم بحر النيل الذى يربط بين أجزائها وبين شعوب أفريقيا جنوبا .

ويعد البحر المتوسط منذ أقدم العصور . مركزاً للحضارات الكبرى ، وأداة وصل بينها شرقا وغربا . وقد حمل لواءها الشعوب المطلة عليه ، كالمصريين القدماء والفينقيين واليونان والرومان ثم العرب . وساهمت مصر بنصيب كبير فى هذا المضمار ، لطول سواحلها وكثرة قواعدها ، وقوة أساطيلها التى تمخر فى عبابه .

وتطل مصر على البحر المتوسط بساحل يمتد من رفح حتى السلوم[١] ورغم طوال السواحل المصرية ، فإن قلة الموانى الصالحة وملائمة الظروف الطبيعية والإقتصادية للنشاط البشرى وغنى البيئة فى الدلتا والوادى جعلت هذا النشاط البحرى قريبا من منفذ الدلتا إلى البحار ، ويتضح ذلك فى كثير من عهود التاريخ المصرى ، وقد أدت ضرورة توفير هذه المنافذ إلى انشاء ميناء الاسكندرية والعمل على توسيعها وتدعيمها لتلائم احتياجات السفن الحديثة ذات الغاطس الكبير ، فأهملت تبعاً لذلك الميناء الشرقية منها[٢] .

ولما جاء الاسكندر إلى مصر اختار موقع الاسكندرية فى مكان راقوده المواجهة لجزيرة فاروس البعيدة عن غرين النيل . وبدأ يشحن منها الإغريق قمح مصر . وقد جعل هذا الميناء من الاسكندرية عاصمة العالم الثقافية فى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد . أما بعد عهد

---

(١) محمد فاتح عقيل ، أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية ، فى كتاب تاريخ البحرية المصرية، عام ١٩٧٤ ، ص١٩ .

(٢) نفسه ، ص٤٣ .

الاسكندر فقد برزت قيمة موقع مصر وسواحلها وأصبح تاريخ مصر وحياة مجتمعها مرتبطاً أشد الإرتباط بهذا الموقع وبدأ البطالمة فى اعداد مصر لان تكون قاعدة صالحة للتحكم فى طرق المواصلات العالمية ، ثم التوسع التجارى والثقافى ، والتفتوا نحو فتح طرق التجارة خصوصا طريق البحرالأحمر إلى الشرق والهند ، فأصبحت مصر بالتدريج حلقة الاتصال التجارى فى العالم[١] .

وفى العهد الإسلامى إهتم العرب بالبحر الاحمر ، أكثر من أهتمامهم بالبحر المتوسط[٢] وعلى البحر المتوسط شهدت سواحل مصر نشاطا كبيراً فى هذه الفترة وكانت التجارة الوافدة من ممالك أوروبا من آسيا الصغرى والشام وجزر البحر المتوسط تصل إلى موانى مصر الشمالية ثم تنتقل بالقوافل إلى الفسطاط عن طريق النيل وفروعه وترعه .

وظهرت أهمية البحر المتوسط فهوحلقة اتصال بين الشرق والغرب[٣] ويتضح من ذلك كله أن مصر كانت بمثابة المحور الرئيسى الذى تتم عن طريقه عملية التبادل التجارية ، والاستثمارات الإقتصادية بين البلدان العربية ، فمنها تخرج القوافل التجارية إلى مختلف المناطق العربية فى الغرب والشرق على السواء ، وفيها تعود هذه القوافل محملة بمنتجات هذه المناطق ، وهى مركز لعمليات التصدير والإستيراد مع كل البلدان الاوربية والاسيوية[٤] .

وكانت السلع والبضائع الشرقية الواردة من الشرق الأقصى ومن الصين والهند وغيرها من بلاد شرق وجنوب شرق آسيا فى طريقهاإلى أسواق أوروبا الغربية تمر بثلاث طرق رئيسية[٥] :

---

(١) محمد فاتح عقيل ، المرجع السابق ص٤٦ .

(٢) نفسه ، ص ٥٠ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . العلاقات الإقتصادية والإجتماعية بين الولايات العربية فى العصر العثمانى ، ١٥١٧-١٧٩٨م ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد التاسع ، المجلد الثالث عام ١٩٨٣ ، ص١٦ .

(٤) زيجريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية على أوربا ص٣٤ .

(٥) أسامه أحمد اسماعيل ، الإسكندرية فى عصر دولتى سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الاسكندرية عام ١٩٨٧ ، ص٧٨ .

١- الطريق المصرى أو كما كان يعرف أيضا بطريق البحر الأحمر .

٢- الطريق الشامى ، أو طريق الشرق الأقصى ، الخليج العربى .

٣- الطريق البرى ، الذى يشق أواسط آسيا ويمكن تسميته بطريق البحر الاسود .

أولا : الاسكندرية :

كانت الاسكندرية تتصل بالمغرب اتصالا وثيقا منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، فقد كانت الهدف الاول لحملات الفاطميين الأولى على مصر برا وبحرا ، وبها نزلت جنود هذه الحملات وأساطيلها وأيضا نزلت جنود الحملة الفاطمية الرابعة التى نجحت فى فتح مصر . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مقر أسطول الخلافة ، وتعرضت الاسكندرية كما تعرضت دمياط لغزوات الفرنج الصليبية ، وقد أتى إلى الاسكندرية أسطولهم فى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م وأستطاعوا النزول إلى الاسكندرية فى عهد صلاح الدين(١) .

وفى عصر الايوبين إرتفعت مكانة الاسكندرية حتى أصبحت ميناء مصر الأولى ، وميناء المرور لتجارة الشرق والغرب . وتحولت اليها أنظار الصليبيين أو بقاياهم فى جزر البحر المتوسط وأوروبا بعد أن منيت حملاتهم على دمياط فى عهد الملك الكامل محمد والملك الصالح نجم الدين أيوب بالهزيمة(٢) .

وأصبحت تمثل مركز الصدارة فى التجارة العالمية فى البحر المتوسط ؛ وكانت معظم الطرق العالمية تمر عليها .

وكان ميناء الاسكندرية من أكبر المراكز التجارية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ، حيث صدر منها منتجات الشرق الاقصى ، وقد حرص السلاطين المماليك على الترحيب بالتجار الاوروبين الذين يفدون إلى الاسكندرية ودمياط لشراء الحاصلات الشرقية ، وكان هؤلاء التجار الأوروبيون يفضلون الإقامة دائما بالمدن التجارية بالثغور على شاطئ البحر المتوسط(٣).

---

(١) جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ؛ العصران الايوبى والمملوكى ، ص٢٢٧ .

(٢) محمد عقيل ، المرجع السابق ؛ ص٥٤ .

(٣) ابراهيم حسن سعيد ، البحرية فى عصر سلاطين المماليك ، ص٢٠٤ .

وكانت الاسكندرية بحكم موقعها مع بداية العصر العثمانى تفوق القاهرة ويرجع ذلك لاتصالها بأوروبا مباشرة[١] وموانئ مصر أبان العصر العثمانى هى الاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس . وكانت هذه الموانى . لها إدارة خاصة استقلت عن الباشا ، فكان الباب العالى يرسل إلى مصر ثلاثة قبودنات أحدهم للاسكندرية والثانى لدمياط ورشيد والثالث للسويس[٢] .

ويحمل هؤلاء القبودنات رتبة الباشوية بالإضافة إلى حملهم رتبة الصنجقية مثل كتخدا[٣] (الباشا فيعتبرون من صناجق المقررة للبكوات الصناجق من مرتب نقدى (ساليانة) ومرتب عينى (جراية وعليق) تصرف لهم من خزينة مصر ولكنهم لم يكونوا أعضاء فى الديوان العالى مثل البكوات الصناجق ولادخل لهم بإدارة مصر ، بل كانت مهمتهم الأساسية حفظ القلاع ، وربط البنادر والحكم بين الرعايا بالعدل والشفقة وعوائدهم على طرف الميرى[٤] من أصل السالیانات المرتبة وعلى جانب التجارات المحضرة بالبنادر[٥] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٨٧ .

(٢) نفسه ، ص٣٣٨ .

(٣) كتخدا ، بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء ، وفى التركية كتخدا من الفارسية كتخدا ، والكلمة فارسية من كلمتين (كد) بمعنى البيت وخدا بمعنى الرب والصاحب ، فالكتخدا هو الأصل رب البيت ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك ويطلقها الترك على الموظف المسئول والوكيل المعتمد ، والأمين ، فقد كان يقال مثلا وزراء كتخدا سى أى أمين الخزانة . (أنظر ، أحمد السعيد سليمان ، تأصيل لما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، ص١٢٧) .

(٤) الميرى ، كان المال الميرى يمثل الضريبة الرسمية إلى قدرت على أرض الفلاحة ، وقد حددت الروزنامة مقدار المال الميرى المقرر على كل حصة تبعا لمساحتها وجودة كل جزء من أرض هذه الحصة ، حيث قسمت أرض كل حصة حسب جودتها إلى (عال) و(وسط) و(دون) أو إلى (عال) و(وسط) أو إلى (دون) و(وسط) (أنظر عبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص١٠ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٣٨٨ .

١- القابودان (*)

يعد هذا الشخص على قمة الجهاز الإداري بالإسكندرية ، وكانت الدولة العثمانية تعينة مع غيره من القبودنات الذين يعينون فى دمياط ورشيد والسويس . وكان قابودان الإسكندرية أهم هؤلاء القبودنات ، وتتمثل مهمة قبودان الإسكندرية فى إمداد الأسطول العثمانى بالسفن عند قيامه بالعمليات البحرية فى شرق البحر المتوسط وغربه ، وكان من واجباته إرسال الجنود المطلوبين من الأوجاقات العسكرية المختلفة ، مثل مستحفظان ، وعزبان ، وجاوشان إلى أماكن القتال ، وكان عليه أن يتفق مع السفن التى تنقلهم ، وأن يدفع أجور تلك السفن[٢] كما أنه كان يقوم باعداد الذخيرة اللازمة لهم[٣] وكان من واجبة الاحتفاظ بخمسين سفينة على الأقل فى ميناء الإسكندرية بصفة احتياطية يقدمها عند اللزوم [٤] .

وكان عليه أيضا أن يشرف على إرسال السلع المصدرة للدولة العثمانية مثل الحبوب والسكر والبقسماط[٥] فضلا على تصدير بعض السلع الغذائية إلى الخارج مثل الأرز ، والعدس والحمص والسكر . وكان يساعده فى ذلك وكيل خرج السلطنة [٦] وكان يحضر الاتفاقات التى تعقد بين السلطات المختصة بالمدينة والسفن الأوروبية لكى يضمن شحن

---

(١) ليلى عبد اللطيف، المرجع السابق ، ص٣٨٧ .

(*) القابودان : "أوقبطان كلمة تركية صحة كتابتها "قبودان" وهى بمعنى آمر رئيس السفينة (قبطان) وتعنى أيضا أمير البحر أوناخوذة . (انظر ، ابراهيم محمد يونس ، المرجع السابق ، ص١٧٤ .

(٢) أرشيف الشهر العقارى بالإسكندرية ، محكمة الإسكندرية ، سجل رقم ٥٥ ، مادة ٥٦ ، عام ١٠٢٩هـ/١٦١٩م سأشير اليها بعد ذلك بالعقارى .

(٣) العقارى ، سجل رقم ٦٣ ، مادة ٢٣١ ، ص١٣١ ، عام ١١٢٨هـ/١٧١٥م ، سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٤٩ ، ص٣٠٥ عام ١١٢٩هـ/١٧١٦م .

(٤) S.J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revoluion pp. 80-81; Idem, The financial and Administrative Organization and Development in Ottoman Egypt, pp. 184-188 .

(٥) العقارى ، سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٨ ، ص١١٢ ، عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م .

(٦) العقارى ، سجل رقم ١٥ ، مادة ١٤ ، ص٩ ، عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م .

البضائع المصدرة إلى الخارج ، إلى جانب على أنه كان يحدد إجمالى المبلغ المطلوب دفعه ويقف على كيفية تسديد المبلغ الباقى[1] .

وبالإضافة إلى اختصاصاته السابقة كان هو المسئول الأول عن الأمن وعن اتخاذ الإجراءات المناسبة لذلك كان يعقد الاتفاقات مع بعض القبائل العربية لكى تقوم بهذه المهمة ، أى مهمة حفظ الأمن فى الطرق ما بين رشيد والاسكندرية ، وفوة ، فتتعهد تلك القبائل بحماية أمن المسافرين والبضائع فى تلك المناطق[2] وقد اطلقت بعض المصادر المعاصرة على هؤلاء العرب المدركين . وكان حاكم ولاية البحيرة يشترك مع هذا القابودان فى هذه المسئولية ويرجع ذلك إلى اشتراك الحدود بين الاقليمين الاسكندرية والبحيرة .

وكان من واجب هذا القبودان أيضا الاشراف على ملء الصهاريج الموجودة بالمدينة بالماء ، وملء السواقى ، وتعيين المختصين للاشراف على تشغيلها وكان هذا القبودان يتابع قيامهم بهذه المهمة بكل دقة وكان عليه أن يمدهم بالمساعدين من النجارين والحدادين والجيارة والبنائين والمكارين ، كما كان يعين شيخ السقائين . وكانت رواتبهم تصرف لهم من كشاف ولاية البحيرة . ويبدو أن رواتبهم كانت لاتكفيهم لذلك تقدموا بالتماس إلى القبودان يشكون فيه من قلة رواتبهم ، فبادر - القبودان - بإجابة مطالبهم ورفعها بمقدار النصف أى ٥٠٪ كى تتناسب مع العمل الذى يقومون به[3] .

وكان من واجبات قبودان الإسكندرية تعيين الجوربجى فى سردار مستحفظان أوجاوشان[4] وكانت الفرمانات تصل إليه من القاهرة ،لتحديد المسئول ، عن دلالة الجلود فى المدينة وكانوا فى الغالب من اليهود . وكان من واجباته ايضا تحديد قيمة السمسرة بين البائع والمشترى[5] كما كان يقوم بإصدار الأوامر إلى القاضى وإلى أغاوات الحوالة وسدادرة البلوكات السبعة

---

(١) دار المحفوظات المصرية بالقلعة بالقاهرة ، سجل محكمة الإسكندرية رقم٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٩٥ ، مادة ٥٩٠عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م . وكان المبلغ المتفق عليه مائة وعشرون ريالا ، دفع منه خمسة وثلاثين ريالا ، واتفق على أن يدفع كل يوم مبلغ اثنى عشر ريالا . سأشير إليها بعد ذلك بالمحفوظات.

(٢) المحفوظات ، سجل محكمة الاسكندرية ، رقم٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٥٣ مادة ١٨٥ ، عام ١١٢٧هـ/١٧٢٤م .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٩٥ ، مادة ٢٩٠ ، عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م .

(٤) المحفوظات ، سجل محكمة اسكندرية رقم ٦ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠٤م .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ١٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م ، ص١٠١ ، مادة ٣ . السمسرة ٢٪ وقد حدد الأمر هذا السمسار .

للاجتماع لمناقشة بعض الأحداث المهمة المتمثلة فى امتناع الحمالين والشيالين والبائعين عن دفع الرسوم المقررة عليهم إلى السلطات المختصة بالمدينة. وكانت هذه المهمة من اختصاص أوجاق المستحفظان[١] وقد انتهت المناقشة باتفاق الجميع على اختصاص الأوجاق المذكور بهذه المهمة[٢] .

وكان قبودان الاسكندرية يحصل على دخل سنوى قدره(٨٠٠ر٠٠٠ بارة من الرسوم التى يفرضها على البضائع الصادرة من ميناء الإسكندرية واسواق المدينة والواردة إليها ، كما كان يحصل على ساليانه سنوية من خزانة مصر قدرها ٣٠٠ر٠٠٠ باردة ، كان ذلك فى القرن السابع عشر ، ثم هبطت هذه الساليانة إلى ٩٨ر٢٢٦ بارة فى السنة ، أسوة بما حدث من تخفيض لساليانات جميع البكوات والصناجق إلى جانب ذلك كان لقبودان الإسكندرية مرتب عينى بلغ ٥١٥ أردب من الغلال كانت تصرف له من الأنبار الأميرية[٣] .

وكان يعاونه فى الإدارة ، الديوان ، والقضاة ، والمفتين، وناظر الأوقاف وأغا الحوالة، وأمين بيت المال، وأمين الجمرك، والأوجاقات العثمانية، وتنحصر مهمة أمين الجمرك فى متابعة تحصيل الرسوم الخاصة بالديوان والالتزام بتوريدها إلى الجهات المختصة . ويُصدر به فرمان من الباشا موجه إليه وإلى جميع المسئولين بالمدينة[٤]، وكان عليه تسجيل مفردات الأمتعة المتحصلة من العشور فى سجله ، وكان من الأفضل أن يُباع النفيس منها فى القاهرة ، فيرسله العامل مع رجل موثوق به إلى القاهرة، ومعه دفاتر تسجيل المفردات، وكان ناظر الأموال والأمين (زمين البلد) يقومان ببيعه بالمزاد ، ثم يُرسل ثمنه إلى الخزانة وكان يخصم ذلك من أقساط العامل، ويدون بالتفصيل مفردات المتاع المشابه الذى يُفضل بيعه هناك، ويوقع عليها القاضى، ثم يخطر ناظر الأموال وأمين البلد، ويُباع فى الميناء ما يكون بيعه هناك أجدى وأنفع بعد أخذ موافقتهما[٥].

أما ميناء رشيد . فقد عرف باسم ميناء رشيد النيلى ، وتحرم السلطات المماليكية دخوله من البحر المتوسط لصفته الحربية ، ونقلت نشاطه التجارى إلى ميناء بلدة فوة جنوبه ، وهى تتصل بالأسكندرية بقناة ملاحية ظلت تعمل حتى أواخر القرن الخامس عشر[٦] .

---

(١) المحفوظات ، سجل رقم ١٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٤٢ ، عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٨٣ ، عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م .

(٣) ليلى عبد اللطيف احمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٨٧ .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم٦ ، ٦٩٤ ، مخزن ٤٦ تركى، ص١٠٥ ، عام ١١٥٠هـ / ١٦٣٦م.

(٥) قانون نامة مصر، ص٤٧ .

(٦) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ص١٤٣ .

ومن جنوبى رشيد تخرج قناة تصل إلى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط وهو مفتوح طول العام، وله مدخلان الشمالى للسفن المسيحية ، والغربى للسفن الإسلامية من المغرب وتتبع الموانى . نائب الاسكندرية الذى يحصل مندبوه رسوم الدخول وشحن وتفريغ السلع . وقد ذكرت البرلس فى وثائق البندقية وفلورنسا فى العصور الوسطى ، وإن كانت لاتظهر على الخرائط ، وكان بها قنصلية للبندقية وفندق لمواطنيهم(١).

وقد ضمت الجمارك فى اسكندرية ورشيد منذ منتصف القرن العاشر الهجرى / منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، ثم الحق بها مقاطعه تنظيم الملاحة فى المينائيين (مقاطعة تعريف المراكب) ومقاطعة تنظيم وتحصيل الرسوم على التجارة المتجولين الذين يرغبون فى إستخدام أسواق هذين المينائيين (مقاطعة سرد بازاران)(٢) والحقت بهذا الجمرك عام ١١٢٣هـ/١٧١١م مقاطعة كانت مستقلة من قبل وهى مقاطعة تنظيم أسواق المأكولات والأوزان فى الإسكندرية ورشيد (مقاطعة احتساب فى نظام القبانى ؛ وبالمثل أضيفت اليه أيضا مقاطعة التنظيم والتحكيم فى بوغاز النيل قرب رشيد مقاطعة خدمة رئيس بوغاز رشيد(٣) .

واحتلت رشيد مكانة اقتصادية مهمه فى العصر العثمانى نظراً لموقعها وكانت تعد مستودعات للبضائع القادمه من القاهرة ومدن صعيد مصر ، ويتم نقلها بعد ذلك إلى أوروبا ،بالإضافة إلى أنها تستقبل البضائع الواردة من أوروبا التى تنتقل بعد ذلك إلى القاهرة عن طريق النيل . وقد ساهم أهل الذمه هناك فى النشاط الإقتصادى بجانب بعض الأوربيين وبخاصه اليونانيون ؛ وهدفهم من ذلك ممارسه النشاط الاقتصادى(٤) .

ولم يكن الغرض من انشاء جمرك رشيد تقرير رسوم جديدة ، بقدر ما كان الهدف منه هو التحقق مما إذا كانت لم ترتكب أيه عمليه خداع أو تدليس فى جمركى بولاق والاسكندرية . وهناك كان يتم التحقق من أن كميه ونوع السلعه قد جاءتا مطابقتين للمخالصات الجمركيه

---

(١) صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة العصور الوسطى ، المجلة التاريخية مايو ١٩٥٢ ، ص١٢ ، أسامه أحمد ، المرجع السابق ، ص٧٨٤) .

(٢) بازاران ، كلمة فارسية وتعنى المشتغل بالمسائل التجارية والبازار كان باشى : هو كبير الموردين للمنسوجات اللازمة للقصر السلطانى فى أستانبول وهو أحد أعوان الباشا ، وقد أختص بشئونه وكان عادة من اليهود ويحضر ضمن حاشيته وتنهى مدة عمله بانتهاء مدته وكان فى بعض الاحيان يبقى فى مصر ليعمل فى خدمه الباشا الجديد (أنظر هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، جـ٢ ، ص٣٤٢.

(3) Pcceke, Adeseription of the Egypt. P. 116 .

(4) Ibid, p. 171 .

التى كان لابد من ابرازها . وذلك بجعل حمولات السفن القادمة إلى هذا الموقع ، تنتقل من مراكبها إلى مركب أخرى ، وقد توصل رجال الجمارك قبل مجئ الفرنسيين بسنوات قليلة إلى القيام بعمليات المراجعة والفحص هذه فيتم فرض رسوم على كل كميات السلع وان كان الأوربيون قد تمسكوا بامتيازاتهم ، ولم يخضعوا مطلقا لهذه الرسوم ، وفى نفس الوقت سمح مراد بك ، بعد أن غرته المكاسب الهائله التى سوف تعود عليه من تصدير الحبوب إلى العالم الأوروبى ، مقابل تحصيل رسم قدره زر محبوب[1] واحد عن كل أردب[2] ، وأدت عمليات الشحن البحرى التى كانت تتم فى رشيد إلى نشأة جمرك جنى منه مراد بك . هو الذى كان يديره لحسابه الخاص أموالا طائله[3] .

وحيث لم يكن يدفع أى مال ميرى إلى الخزينة عن جمركى القصير ورشيد فإن من الضرورى أن نشير إليها باعتبارهما عبئاً مضاعفا على حركة التجارة وليس باعتبارهما يشكلان جزءاً من عوائد السلطان .

---

(١) الزرمحبوب : هو نقد ذهب تركى ، ضرب فى السلطان مصطفى الثانى (١٠٦-١١١٥هـ/١٦٩٤-١٧٠٣م) وهو يزن أربعين حبة أى ٢٫٦ جرام ، وقد أطلق عليه فى تركيا «طغرالى ألتون» وإذا كانت ألتون فى التركية تعنى الذهب فان طغرالى نسبة إلى نقش الطغراء أو الطره باسم السلطان على أحد وجهى هذا النقد وقد أطلق الجبرتى على هذا النقد فى أسواق مصر أسم «دينار طرلى» سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م والدينار هنا إمتداد للنقود الذهب الإسلامية منذ عهد المماليك أما «الطرلى فهى بالنسبة إلى «الطره» (الطغراء) ، كما أطلق عليه الجبرتى أحيانا اسم الجنزرلى أو المحبوب الجنزرلى نسبة إلى الحافه المشرشرة لهذا النقد ، وهى أشبه بالإطار أو الجنزير ، وحدد الجبرتى سعره عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م بمائتى نصف فضة ، ويبدو أنه انخفض بعد ذلك فتشير الوثائق إلى سعره فى سنة ١١٥٤هـ ، ١١٥٥هـ/١٧٤١ ، ١٧٤٢ بمائة وعشرين نصف فضة . ورغم تعدد هذا النقد الذهبى فى الشرق العربى كله سواء أكان من ضرب استانبول أو مصر هو زر محبوب (انظر عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص٥٧٥) .

(٢) أردب ، يستخدم فى وزن الحبوب والأشياء الصلبة ، وكان حجمه الحقيقى يختلف تبعاً للحبوب الموزونه وكذلك المكان الذى كان يستخدم فيه عملية الوزن . وفى القرن الخامس عشر كان يقدر بـ٩٠ لترا . وفى سنة ١٦٦٥م قدر بلترا ، وفى القرن الثامن عشر ضعفت قيمته وأصبح يساوى ١٨٤ بوشل ، وفى نهاية القرن الثامن ، كان الأردب ينقسم إلى أربعة وعشرين جزءاً وأحيانا ما كان ينقسم إلى ١٣٠ أوقة .

(أنظر Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the french Revolution, p. 170 .

سميرة فهمى : امارة الحج فى مصر العثمانية ص١٢٠) .

(٣) استيف ، النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية ، ص١٧٢-١٧٣ .

ثانياً : ميناء دمياط والبرلس

ويعتبر هذا الميناء ، ميناء بحرى نهرى ، وهو مخرج لتجارة مصر لمدن وموانئ الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وكريت وقبرص ، والدولة العثمانية ، كما يتصل بالقوافل البرية إلى موانئ البحر الأحمر ، وبسبب شدة التيار من النيل لاتدخل السفن مباشرة دمياط . كما تم ردم جزء من فم البحر عندها . ولذا يخرج من دمياط قناة تصل إلى بحيرة المنزلة حيث تدخلها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس على بعد سبعين ميلا منه - البحر المتوسط - ومثلها من قناة دمياط وهى فى الواقع مركز تبادل السلع الواردة والصادرة بين وإلى دمياط . وقد وجد بالمدينة الأوروبيون من يونان وبنادقة وجنويين وفلورنسيين . وبها قنصلية خاصة بفرسان القديس يوحنا فى رودس ، وظلت هذه القنصلية موجودة حتى الفتح العثمانى لمصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ؛ ويقال أن المماليك كانوا يحصلون على الأسلحة عن طريقهم ، ولكن المصادر المعاصرة أكدت عكس ذلك [١] .

وخلفت مدينة الاسكندرية دمياط باعتبارها ميناء مصر الأول على البحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءاً من الميناء وردموا فم بحر دمياط حتى يأمنوا أى غزو أوروبى منه ، لذا لم يعد فى استطاعة السفن الأوروبية الكبيرة الوصول إليها وأصبحت ترسو بالبحر قريباً من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب النيلية بينه وبين الميناء[٢] .

واعتبر ميناء دمياط مخرجا لتجارة مصر فى العصر العثمانى حيث كانت يرد إليها الواردات القادمة من سوريا وفرنسا وغيرها . وتوفرت لديها التسهيلات اللازمة للنقل والملاحة لوجودها على ثنية النيل البارزة[٣] .

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ، ص٩٢ .

(٢) نعيم زكى ، المرجع السابق ، ص١٣٠ ، حاشية (٢١) .

(٣) عبد الوهاب بكر ، ميناء دمياط ودوره فى العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الليفانت خلال القرن الثامن عشر ، ص١٨ .

وكانت دمياط مزدهرة إقتصاديا في العصر العثماني ، وظلت محتفظة بذلك حتى مجئ الحملة الفرنسية عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م . هذا بالإضافة إلى شهرتها التى اكتسبتها من كونها مدينة صناعية وخاصة فى صناعة النسيج ، حيث كان يشرف على هذه الصناعة الأقباط (١) .

وكان لها قبودان يشار إليه باسم قبودان بندر دمياط مع رشيد ومهمته امداد الاسطول العثمانى بحاجاته عند مروره بمصر ، كما كان عليه أن يقوم نيابة عن قبودان الاسكندرية بحماية الشواطئ ، عندما يستدعى الأخير للإنضمام للأسطول العثمانى ، وعليه أيضا تنظيم الملاحة فى مينائى دمياط ورشيد ورعاية النظام فيهما .

وتقدم له الخزينة المال اللازم لصيانة صهاريج المدينة التى كانت مخزناً للمياه العذبة التى تمدها بالماء أثناء فيضان النيل وكانت تصرف تحت اسم نفقات سد سدود دمياط ، وقد بلغ المقرر لذلك فى عام ١١١١هـ/١٦٩٦م ، ١٣٢٦ بارة سنويا (٢) .

ويحصل على رسوم يفرضها على الملاحة بين مينائى دمياط ورشيد وقد وصلت تلك الرسوم إلى ١٧٥ بارة عن كل قبطان تمر سفينته بين هذين الميناءين ويحصل على مايقرب ٢٠٠ر٠٠٠ بارة سنويا ، كما كان يحصل على مرتب نقدى ساليانة سنوى من خزينة مصر بلغ ٣٠٠ر٠٠٠ بارة سنوياً ، ومرتب عينى بلغ ٥١٥ أردبا من الغلال سنوياً فى القرن الثامن عشر (٣) .

وظل قبودان الاسكندرية وقبودان دمياط يتقاضان مرتباتهما حتى منتصف القرن الثامن عشر أى إلى عام ١١٦٣هـ/١٧٤٩م وبعد أن أعاد جسن باشا القبودانات العثمانيين الا أنهم قد طردوا بعد إستيلاء مراد بك وإبراهيم بك على السلطة مرة أخرى فى عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م ومما يؤيد خلو الاسكندرية من وجود قبودان ، أن السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية ، كان أمين الجمرك فى عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م (٤) .

---

(١) جمال الشيال ، مجمل تاريخ دمياط ، ص٤٧ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٤٩ .

(٣) نفسه ، ص٣٨٦-٣٨٧ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٣ ، ص٦٢-٦٣ .

البرلس ، نظراً لموقعها فى الدلتا جنوب دمياط، فكانت تعد فى المقام الأول سوقا رئيسية لمنتجات وسط الدلتا ، وكانت مركزا للقوافل الواردة من شمال أفريقيا وفزان ، الا أن هذه التجارة قد تدهورت فى القرن الثامن عشر[١] وقد حقق جمركها الخسائر الفادحة ، ولذلك انضم هذا الجمرك إلى جمرك دمياط[٢] وقد كان ضمن إلتزام الانكشارية[٣] .

وكانت التجارة مع أوروبا تسير وفق اتفاقيات تحدد الرسوم التى يجب أن تدفع ، ولذلك فقد كانت أقدم الاتفاقيات التى عقدت مع البندقية عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م . بين السلطان سليم والبندقية ، ونجد أنه فى هذه الاتفاقية إستمرار نفس الامتيازات التى حصل عليها البنادقة سابقا فى عهد دولة المماليك الجراكسة[٤] . وكان هدف العثمانيين من ذلك هوتشجيع رعايا الدول الأوروبية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية[٥] . ومعاهدة أخرى بين السلطان سليمان القانونى مع فرانسوا الاول ملك فرنسا عام ١٥٢٨م ، وفى هذه المعاهدة جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التى سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الجراكسة للفرنسيين وأهل كتالونيا Le Catalans . ويمكن الحاق معاهدة ١٥٢٨م بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧م من حيث الهدف ، اذ كانت موادها مقصورة فى الغالب على بلاد الشام ومصر بعامة ومصر بخاصة[٦] وعقدت معاهدة أخرى بين فرنسا والدولة العثمانية عام ١٥٣٥م. وعرفت هذه المعاهدة باسم «معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا[٧] .

---

(١) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ص٣٥ ، S. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p. 130 .

(٢) محمد غربال ، المرجع السابق ، ص٣٥ . Icem, The Fianancial and Adminstrative Organi-zation and Development, of ottoman Egypt p. 113 .

(٣) نفسه .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ٢ ، ص٧٠ .

(٥) المرجع السابق، ج٢ ، ص٧٠٧ .

(٦) نفسه ، ص٧٠٨ .

(٧) نفسه ، ص٧٠٨ .

واتبعت ذلك أيضا أيضاً انجلترا فكانت هناك بعض المحاولات الفردية فى أول الأمر كمحاولة أنطونى جنكنس Anthony Jenkinson الذى استطاع مقابلة السلطان سليمان القانونى عام ١٥٥٣م فى حلب أثناء استعداده الزحف على فارس ، ونجح هذا الانجليزى فى الحصول على موافقة السلطان له بالاتجار داخل ممتلكات الدولة على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين وعلى الا يدفع أكثر من الرسوم المقررة . الا أن هذا الحادث الأول من نوعه لم يفتح لانجلترا عهدا تجاريا مهما على الرغم من الامتيازات الواسعة التى منحها سليمان لذلك التاجر الانجليزى[١] .

واستقبلت الحكومة العثمانية عام ١٥٧٨م ، بعثة انجليزية واستطاعت هذه البعثة أن تحقق نجاحا كبيرا فى وضع الحجر الاساسى للتجارة الانجليزية فى الدولة العثمانية . وفى عام ١٥٨١م صدر العقد التأسيسى لإنشاء شركة الليفانت The Levant Company وهى شركة انجليزية مارست إختصاصات سياسية وتجارية واسعة . فهى التى كانت ترشح سفراء انجلترا فى استانبول وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان جميع قناصل انجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين فى ممتلكات الدوله العثمانية يعدون مستخدمين فى الشركة ويتقاضون منها مرتباتهم . وظل هذا التقليد ساريا أكثر من قرنين من الزمان حتى عام ١٨٠٣م .

وإنتهى الامر بعقد إتفاقية بين انجلترا والدولة العثمانية عام ١٦٧٥م جددت فيها الامتيازات التجارية التى سبق منحها فى معاهدة سابقة وأضيفت إليها مواد جديدة وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم «المعاهدة النهائية للامتيازات بين الامبراطورية العثمانية وانجلترا[٢] Final Treaty of Capiulation the ottoman Empire and England .

وكان لهذه الاتفاقيات التى عقدتها الدول العثمانية مع الدول الأخرى أثرها الواضح فى دفع الرسوم ، ويكفى أن نقارن الرسوم التى كان رعايا السلطان يدفعونها [٣] ، بتلك الرسوم بالغة الاعتدال والتى تحصل من الأوروبيين ، لذلك سمح لهم بدفع رسوم أقل بكثير مما يدفعه رعايا السلطان ، فقد كانوا يخضعون لرسوم ثابتة ، بينما يدفع الأوروبيون رسوما أقل[٤] .

(١) عبد العزيز الشناوى، المرجع السابق، ص٧١٥ ، ص٧١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص٧١٦-٧١٧ .

(٣) نفسه ، ص٧١٨ .

(٤) استيف ، المرجع السابق ، ص١٦٥ .

ورغم ذلك تعرضت التجاره الأوروبية للإبتزاز من جانب الأمراء المماليك والمعاملات السيئة عند تقدير الرسوم ، ولقد كان من المتفق عليه أن السفينة الأوروبية التى تسدد الرسوم فى أحد ثغور الإمبراطورية العثمانية تمتع باعفاء كامل فى بقية الثغور بمجرد إبرازها التذكرة التى حصلت عليها من الجمرك السابق ، ولكن لا يؤخذ بذلك ، وتعامل كأنها دخلت الميناء لأول مرة[١] .

ثالثا : الجمارك

خضعت السفن التجارية لنظام تفتيش دقيق فى جمرك[٢] أو ديوان[٣] الإسكندرية إلى إجراءات حكومية متعددة فى العصر المملوكى ، ونظراً للعلاقات التجارية للمدن الإيطالية فقد أعطى لها مخازن مسقوفة يحمل القنصل مفاتيحها وتتولى هيئة الجمارك حراسة السلع

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص١٦٦ .

(٢) والجمرك من الإيطالية Cmnercio واليونانية Conmerciuni وحرفت إلى جمرك فى العربية وكمرك فى التركية . الجمرك هو الهيئة المختصة بتنظيم وفرض الضريبة على التجارة الصادرة والواردة (أنظر، أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، ص٧٠ ، وأنظر ليلى عبد اللطيف أحمد ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام أبان العصرالعثمانى ، ص١٢١ ، عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ١ ، ص١٧١) وعرف الجمرك بالاسكالة ، وقد ألحقت بالجمارك مقاطعات مدنية أقيمت فى أسواق القاهرة ، وأختصت بجمع رسوم معينة مثل مقاطعة إحتساب ومقاطعة خردة ومقاطعة كيالة غلال بولاق . لذا كان يشار إلى الجمارك فى الوثائق دفتر أصول مال أسلكلهات ومقاطعات . (أنظر بهذا الخصوص ، سجلات الروزنامة ، بدار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة) .

(٣) ديوان ، استخدم مصطلح الديوان للدلالة على الإدارة الجمركية فى الميناء وقد أنتقلت كلمة الديوان إلى اللغة الأسبانية Aduana بمعنى الجمرك ، ومازالت تستخدم بهذا المعنى حتى يومنا هذا . (أنظر ، أسامة أحمد ، المرجع السابق ، ص٣-٨٠) وقد أطلق على الأدارات فى العصر العثمانى أيضا لفظ دواوين ، يوجد ديوان الروزنامة ، وديوان الجمارك . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص١٣١) .

الموجودة بها نظير رسم معين يدفعه التجار للحكومة ، وترك التجارة أو نقلها معه إلى الفندق[١] وسار نفس النظام المعمول به فى العصر العثمانى أيضا .

إدارة الجمارك :

تتمثل إدارة الجمرك فى وجود أحد الموظفين وهو من قبل السلطان ومهمته تحديد شراء السلع لمتجر السلطان مثل الخشب والقطران وغير ذلك . مع وجود موظف آخر يقوم باستجواب التجار أو الوافدين أو العابرين عن الحالة السياسية فى أوروبا ووظائفهم ، وأن كان لهذا التاجر أو الوافد أو العابر صفة دبلوماسية ففى هذه الحالة يستجوب عن مقاصده وعن أمراء وملوك أوروبا وعما إذا كان هناك حملات صليبية جديدة . وبعد الانتهاء من هذه الإجراءات يسمح لهم بالمبيت فى فنادقهم وفرز سلعهم . وكان يسمح فقط لقنصل فرنسا حضور عمليات التفتيش[٢] .

ولكن الحال يختلف فى ميناء السلسلة فهو مخصص لتجار ومسافرى المغرب والجنسيات الأخرى من أتراك ويمنيين وهنود وفرس ، وتتخذ معهم الإجراءات فيقوم الموظفين المختصين بحصر أنواع وكميات السلع الموجودة إحضار جميع المسلمين بالسفينة وكتابة أسمائهم وحقيقتم، وبلادهم ، والإستفسار عن دفع أموال الزكاة على السلع التى بحوزتهم ، ومن كان منهم ذا صفة سياسية فيطاف به على المسئولين تحت الحراسة للقاضى وأهل الديوان والحاشية . وفى كل مرة يستجوب ثم يطلق سراحة ، وانزال السلع للتفتيش عليها ، وتقدير الرسوم الجمركية . وقد لوحظ أن هذه الإجراءات الجمركية تتخذ فى كل جمارك مصر والشام[٣] .

---

(١) نعيم زكى فهمى ، طرق التجاره العالمية فى العصور الوسطى ، ص٣١٤ ، وكلمة فندق ، أسم مأخوذ من الكلمة اليونانية pandekeicn ونقلت إلى اللغة الإيطالية لتدل على المبنى الذى أسفلة مخازن وأعلاه نوم لسكنى الأجانب ، ويعرف فى مصر بأسم فندقى ، وفى بعض الأحيان وكالة . (أنظر ، صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة العصور ، الوسطى ، المجلة التاريخية ، العدد ١٤ ، ص٣٨٢) .

(٢) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص٣١٤ ، ٣١٥ .

(٣) أبى العباس بن على القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج٣ ، ص٤٦٤ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٢٠١ ، ٢٠٢ .

وكانت هذه الإدارة فى منتهى القسوة فى البحث والتفتيش ، على كل مايحمله التجار والمسافرين من متاع وأموال ولا يفرقون بين مسلم ومسيحى ولم تكن هذه القسوة فى جمارك مصر فقط ، وكانت متبعه فى جمارك مدن غرب البحر المتوسط ، حيث كان يراقب التاجر مراقبة شديدة ودقيقة ، ولا يترك حرية إختيارمسكنه ، بل يوضع فى فندق خاص بالأجانب ، وفيه يصير تخزين سلعه[١] .

بالإضافة إلى هيئة الجمارك السابقة ، وجدت هيئة أخرى تشرف على التجارة الخارجية ، وهى هيئة تمثل القناصل التجاريين ومهمتهم تغطية وتسويق وعبور المتاجر الشرقية والغربية ، وكان يعاون القنصل هيئة تتكون من موثق العقود وترجمان كان يحرم عليه - القنصل - الاشتغال بالتجارة لحسابه أو لحسابه غيره[٢] ويعاونه مجلس أعلى مكون من إثنى عشر مواطنا من مواطنيه[٣] .

وقد طبقت الدولة العثمانية نظام الألتزام على الجمارك التى كانت قائمة فى جميع موانئ الدولة[٤] وكان يطلق على هذه الموانى كلمه أساكل[٥] dec Eéchlles كما كان يطلق على

---

(١) نعيم زكى ، المرجع السابق ، ص٣٢١ .

(٢) نفسه ، ص٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٣) Heyed, Op. Cit., V; 11. pp. 539-546 .

Combe Etiltenne : L'Egypte Ottoman ée la Conaqéte par Sélim 1517 a l'arrivée de Bonaparte (1798) p. 88 .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ، ص٧٠ .

(٥) أساكل ، ومفردها أسكلة ، وأقتبست من الكلمة الإيطالية desce بمعنى أن ميناء أو ثغر ، وهى تكتب فى المصادر والمراجع العربية والتاريخية فى أشكال شتى .

فى صيغة المفرد - أسقالة - سقالة - صقاله - أسكلة

فى صيغ الجمع ، أسقالات ، سقالات ، أساكل ، أساكيل

وتردد أحيانا فى بعض المصادر التاريخية العربية كلمة سكلر ، وهى مقتبسة من اللغة الأسبانية ، ومعناها ميناء العابرين أو المارين (أنظر ، عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٧١) .

إيرادات الجمارك «محصول أسكله» وكانت تباع رسوم كل جمرك إلى الشخص الذى يرسو عليه المزاد مقابل مبلغ من المال يؤديه للحكومة ، ويصبح لقبه الملتزم . ثم يشرف على جبايه الرسوم الجمركية .

وكانت حصيلة الرسوم الجمركية تأتى فى المرتبة الثانيه بعد ضرائب الأراضى الزراعيه بالنسبة لإيرادات الحكومة[١] ولايدير الملتزم الجمرك بل كانت لديه هيئة من الموظفين يرأسهم موظف يسمى «كمرك أمينى» أى أمين الجمرك ، وأطلق عليه أحيانا الجمركى ، ويكون عادة رجلا يهوديا[٢] وكان ذلك قبل عهد على بك الكبير ، وعندما غالوا فى فرض الرسوم على التجار الأجانب ، قبض عليهم وصودرت أموالهم ، وعهد إلى المسيحيين الشوام الكاثوليك الذين هاجروا إلى مصر فى القرن السابع عشر بادارتها[٣] .

وعندما تولى الشوام إدارة الجمارك ، فرضوا رسوما باهظة على البضائع المرسله إلى ليفورنيو وتريستا ، كما خضعت السفن العثمانية والأوروبية التى كانت تشحن فى دمياط بالإضافة إلى ذلك لأداء اتاوة قدرها ٢٠٠ بوطاقة[٤] ظلت تتضاعف خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، حتى بلغت رسوم الشحن ، وحيث أنه لا تقدم فى أية ذرائع لتبرير مثل هذه المظالم ، فقد كان بمقدور التجار أن يجدوا دوافع حقيقة لإلقاء اللوم على وكلاء الدول الأوروبية فى تساهلهم فى هذه الأمور لولا أنهم يدركون أنه من العسير على هؤلاء أن يصارعوا النجاح ضد رجال الجمارك فى مصر[٥] .

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص١٧١ ، جـ١ .

(٢) دار الوثائق القومية ، دفاتر الروزنامة ، سجل أصول مال وأسكلهات ومقاطعات ، رقم الحفظ النوعى ١٢ ، مسلسل ٤١٥٠ ، مخزن تركى رقم (١) عين (٥٣) عام ١١١٠هـ/١٦٩٨م .

(٣) محمد رفعت . على بك الكبير ، ص ٨٩-٩٠ .

(٤) أبو طاقة ، هو الريال النمساوى وكان يعرف (بأبو طيره) نسبة لطائر النسر المنقوش ، وسمى أحياناً بالريال (أبو طاقة) نسبة لرسم النافذة أو الطاقة أو هيئة الشباك الصغير ، (أنظر عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص٥٥٨) .

(٥) Shaw, The Fianacial and Adninstrative and , Organization P. 103 .

وعمل بعض الإيطاليين فى بعض الجمارك ، وقد ظهروا بشكل واضح فى جمرك دمياط ، كما أنهم عملوا وسطاء بين التجار الأوروبيين والأهالى[١] .

وقد التزم أحد الشوام بضمان جمارك مصر فى الفترة ١٧٧٤-١٧٨٤م ، وذلك فى عهد كل من على بك الكبير ومحمد أبو الذهب ، وابراهيم بك ومراد بك وقد رفع بدل ضمانه حينما تولى إدارة الجمارك من ثلاثين كيسا إلى مائة كيس . وإزداد هذا البدل تدريجيا حتى بلغ ألف كيس[٢] وقد استمر التزام الجمارك فى يد الشوام الكاثوليك إلى عهد محمد على[٣] .

وكان اسم الجمركى فى الولايات العربية يذكر مسبوقا بكلمة المعلم الذى يعين وكلاء عنه فى المدن والثغور لجباية الرسوم الجمركية ، وكان يختارهم بطبيعة الحال من بنى جنسه ، وكانت الحكومة تضع سلطتها تحت تصرفهم[٤] ومعه قاضى الميناء[٥] وأغا الحوالة[٦] وأمين الاحتساب وسدادرة البلوكات السبعة[٧] وهؤلاء هم الذين يوجه اليهم الباشا قراراته الادارية

---

(١) كارستن نيبور ، رحله إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢م ، ترجمة مصطفى عبد لقادر ، ص١١٤ .

(٢) عبد الله عزباوى ، الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، ص٣١ .

(٣) نفسه ، ص٣٤ .

(٤) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير ، ص٨٩-٩٠ .

(٥) أغا الحوالة ، الأغا من الكلمة التركية من المصدر أغمق ، ومعناه الكبير وتقدم السن وقبل أنها الكلمة الفارسية (أقا) وجرى العرب على إضافة تاء اليها إذا وقعت مضافاً ، تطلق فى التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة وعلى الخادم الخصى الذى يؤذن له بوخول غرف النساء . (أنظر أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، ص١٧) والحوالة هو الشخص الذى خولت له السلطات أنذاك جمع الأموال السلطانية من العمال وغيرهم من المكلفين بتحصيلها لتسليمها إلى الميرى . (أنظر قانون نامه ، ص٤٨) .

(٦) البلك ، أو البلوك ، بلوك من المصدر التركى بولمك أى أن يقسم وكلمة البلوك يعنى القسم أو الجزء ، وكان الأوجاق ينقسم إلى وحدال صغرى تعرف باسم البلوكات . ويحمل كل بلوك رقماً منسوبا إلى الاوجاق الذى ينتمى اليه مقرونا باسم الوجاق . (أنظر عفاف مسعد العبد ، دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر ص١٥٣) .

الخـاصـة بادارة الموانى[١] وكانت تلك القرارات تسجل فى سجلات المحكمة الشـرعيـة[٢] بالإضافة إلى إنه وجدت وظائف أخرى غير رسمية ، وقد اتخذت السلطات الحاكمة الإجراءات الكفيلة لطردهم[٣] .

ولابد من الحصول على موافقة الباشا على عملية نقل حق الإلتزام (سواء فى الأرض أو الجمارك) من شخص إلى آخر ، فقد أذن له السلطان بالختم والعلامة على جميع التمكينات التى يقع فيها التغيير بالبيع والشراء .

وفى القرن السابع عشر طولبت معظم جمارك مصر المهمة بالإلتزام للباشا الذى كان عليه أن يدفع مال الخراج المقرر عليها بالخزينة ، ويحتفظ بفائض الإيراد السنوى ربحاً له ، وقد كانت الجمارك من أهم مصادر الثروة فى مصر بعد الأرض، وأهم الجمارك فى مصر العثمانية:

١- جمرك اسكندرية ورشيد وتوابعها .

٢- جمرك بولاق ومصر القديمة .

٣- جمرك دمياط وبرلس وتوابعها .

٤- جمرك عشور أصناف بهار .

٥- جمرك سمسارية بحرين وتوابعها .

وقد ألحقت بالجمارك السابقه مقاطعات جمع الرسوم فى الجهات الاتية :

١- مقاطعة حمام خاصة الذى أنشأة السلطان سليم فى القلعة (لإستخدام الجنود العثمانيين) .

٢- مقاطعة خردة وتوابعها .

٣- مقاطعة كيالة أرز بياض در بندر دمياط .

٤- مقاطعة بحيرة سمك بندر دمياط .

٥- مقاطعة إحتساب نفس محروسة مصر .

---

(١) سجلات محكمة اسكندرية ، سجل رقم ١٣ ، ص١٢٠ ؛ عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م .

(٢) قانون نامه ، ص٥٦ .

(٣) نفسه ، ص٢٦ ، وسجل رقم ١٣ ، ص٧٧ عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م .

٦- مقاطعة كيالة غلال بولاق .

٧- مقاطعة مرتجع سرء بازاران در بندر رشيد[١] .

وقد كان للباشا فى القرن السابع عشر التزام أهم جمارك مصر وهو (مقاطعة أسكلة اسكندرية وتوابعها مع تعريف المراكب ورسم جلود بقرى وجاموسى در بندر رشيد) وكان هذا الجمرك مختصاً بالرسوم التى تفرض على التجارة الصادرة من مصر إلى السلطنة العثمانية وأوروبا وكذلك التجارة الواردة اليها من تلك البلاد . بالإضافة إلى هذا الحق تنظيم الملاحة فى المينائيين (حق تعريف المراكب) والرسوم المفروضة على تجار الجلود البقرى والجاموسى فى أسواق رشيد[٢] .

وقد ظل التزام جمرك اسكندرية وتوابعه من حق الباشا حتى أواخر القرن السابع عشر ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، ثم سيطرت فرقة الانكشارية بالإضافة إلى معظم جمارك مصر العثمانية الأخرى[٣] ولذلك عندما إستولت الانكشارية عليها - الجمارك - دفعوا عوائد ثابتة للباشا من ايراد هذه الجمارك وتشمل اسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس وبولاق ومصر القديمة وقد بلغت تلك الضريبة ٠٠٠ر٠٨٩ر٢ بارة فى السنة[٤] .

وقد تم تأجير مقاطعات جمارك اسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق ومصر القديمة لاختيارية[٥] فرقه المستحفظان[٦] وتم لهم ذلك حتى عهد على بك الكبير[٧] .

---

(١) دار الوثائق القومية بالقلعة ، دفاتر أصول مال أسكلهات ومقاطعات مسلسلة تبدأ من ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م إلى عام ١٢٢٧هـ/١٨٢١م وهى السنة التى بدأ فيها محمد على الغاء التزام الجمارك ، وتحوى تلك الدفاتر أسماء الجمارك والمقاطعات وتكوينها والمال الميرى المطلوب منها للخزينة كل عام .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٩ ؛ استيف ، النظام المالى فى مصر العثمانية ، ص١٢٣ .

(٣) دفتر أصول مال اسكلهات ومقاطعات تابع قلم شهر عام ١١٠٧هـ/١٩٦٥م برقم ٤١٤٦ .

(٤) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٣٤ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٩٦ .

(٥) اختيارية ، هم المسنون من رجاله ، وأقدمهم الباش اختيار (أنظر محمد شفيق غربال . المرجع السابق، ص١٨) .

(٦) قانون نامه ، ص١٥) .

(٧) سجلات الديوان العالى ، رقم ١ ، ٣١٠٢ ، عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م رقم ٢ ، ص٧٥ عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م .

وحاولت الدولة العثمانية أن تعيد التزام هذه الجمارك إلى الباشا فى القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تفلح وإزداد الانكشارية فى دفع المبلغ المطلوب للباشا [١] ولوحظ أن ايراد الباشا من الجمارك فى عام ١١٧٣هـ/ ١٧٦٠م كان ٢٫٢٥٠٫٠٠٠بارة سنوياً وفى عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥ ، حصل الباشا على ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون بارة[٢] ولكن انخفضت هذه الايرادات إلى أقل من مليون بارة فى عام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م[٣] .

وبالرغم من ذلك فقد استطاع الباشا أن يحتفظ لنفسه طوال العهد العثمانى بأغنى المقاطعات للجمارك فى مصر وهى مقاطعة جمرك السويس ومقاطعة عشور أصناف بهار وتوابعها وسمسارية بهار وتوابعها مع مقاطعة قصير شامي[٤] ، ونتيجة لذلك أنخفضت ايرادات الباشا من الجمارك فى نهاية القرن الثامن عشر من ١٢ مليون إلى ٧٫٥ مليون بارة .

وكان على الباشا أن يدفع ضريبة وهى التى تعرف بضريبة الكشوفية الكبيرة على الجمارك، وهى فى الأصل كانت مقررة للخزينة على جمارك الاسكندرية ورشيد كانت مقررة أساساً على فرقة الانكشارية التى استولت على التزام هذه الجمارك . ولكن لتزايد قوتهم وسلطتهم على الباشا أرغموه على دفع تلك الكشوفية للخزينة وسدادها بدلا منهم وقد بلغ مقدارها من بعد عام ١١٢٦هـ/١٧١٤م ، ١٫٣٣٣٫٢٤٩ بارة سنويا ، وظل يدفع هذا المبلغ حتى نهاية القرن الثامن عشر[٥] .

الرسوم الجمركية :

كانت السلطات الحاكمة فى عصر دولة المماليك ، تفرض رسومات تتراوح مابين ٢-٢٫٥٪ على التجارة العابرة[٦] وكانت إجراءات الجمارك تتم على ثلاث مراحل رئيسية :

---

(١) أحمد كتخدا عزبان ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، جـ٢ ، ص٤٤٥ .

(٢) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٩٦ .

(٣) سجل الروزنامه مقاطعات اسكلهات الدفتر رقم ٢٢٦٢ .

(٤) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٩٧ .

(٥) دفاتر مقاطعات اسكلهات لسنوات ١١٢١هـ برقم ٤١٧٨ ، ١١٣٤هـ/١٧٢١م برقم ٤١٨٣ ، ١١٧٦هـ/١٧٦٢م برقم ٤٢٢٣ .

(٦) القلقشندى ، المرجع السابق ، جـ١٤ ، ص٣٩١-٣٩٢ .

فالمرحلة الأولى ، تبدأ بمعرفة جنسية السفينة ، وعدد المسافرين والبضائع التى يحملونها ، وتبلغ هذه المعلومات إلى أمير الإسكندرية الذى يقوم بدوره تبليغ هذه المعلومات عن طريق الحمام الزاجل(١) .

وتبدأ المرحلة الثانية عند دخول السفينة الميناء ، ترفع عنها أشرعتها ، وبعد إتخاذ الإجراءات المناسبة . يسمح للقبطان والركاب بالنزول ، بموجب تصريح بذلك ، وتتخذ إجراءات فى غاية الدقة إذا كانت هذه السفينة لدولة فى حالة حرب مع المماليك ، خوفا من وجود أسلحة معهم(٢) .

أما المرحلة الثالثة ، فهى تحصيل الرسوم الجمركية وتشمل دوكتين(٣) لكل فرد وخمسة اذا كان من الحجاج وهى ماتعرف بجزية الرأس ، ٢٪ من قيمة السلع وتعرف برسم الدخول ، ١٠٪ من قيمة السلع وهو مايعرف بالرسوم الجمركية(٤) ولكن هذه النسبة لم تكن ثابتة دائما بل كانت ترتفع أحيانا إلى ١٥٪ (٥) أو تزيد على ذلك وتصل إلى ٢٠٪ وهو مايطلق عليه الخمس(٦) .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٣٦٣ .

(٢) Hyed, Histcrie éu Con merce ée Levant au Moyen Ages, V; II P. 39 .

(٣) دوكات ، هى العملة الذهبية لجمهورية الادرياتيك ويرجع ضربها إلى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى ، وكانت تتميز بالإستدارة التامة وثبات العيار والوزن ، الذى كان يبلغ ٣ر٤٥ جرام ، وكان ذلك من أسباب انتشارها فى أسواق الشرق الأدنى الاسلامى وبخاصة الاسكندرية المركز التجارى العالمى مع بداية القرن ٨هـ/٤ م فى وقت اتسمت فيه العملة المملوكية بتذبذب الوزن والعيار والقطر وقد بلغ من ذيوعها فى الأسواق العالمية أن البندقية قدرت مبلغ ما ضرب فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى / النصف الأول من القرن التاسع الهجرى بحوالى مليون قطعة . (انظر عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص٩٥-٩٦) القاهرة ١٩٦٤ .

(٤) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص٣١٤ .

(٥) تقى الدين المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص١٠٩ ، القلقشندى ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٣٦٣ .

(٦) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص٣٢٢ .

وقد تزايدت هذه الرسوم ، وأدى ذلك إلى إرتفاع أسعار التوابل واستاء التجار الأجانب ، ورفعوا شكواهم للسلطان المملوكي فرج برقوق ، واستجاب لشكواهم وخفض الرسوم[١] .

أما إجراءات تحصيل الرسوم الجمركية فى العصر العثمانى ، فكانت تحصل من طائفة التجار الرسوم والعشور ، كما كانت تحصل بموجب العوائد والقوانين المعمول بها منذ عهد قايتباى ، ولايؤخذ شئ مخالف لها ، وشدد بعدم رفع رسوم الجمارك على أمتعة المسلمين ، أو تخفيضها على التجار . وكان المتبع عند وصول السفينة الخاصة بأية دولة أوروبية ، على قنصل الدولة التابعة لها - السفينة - أن يحضر إلى الجمرك ومعه البيانات الخاصة بالبضائع ويقدم هذه البيانات إلى مجلس القضاء ، ويطلع عليه ناظر وأمين الجمرك . وترسل منها صورة إلى القاهرة والهدف من ذلك القضاء على الاختلاسات[٢] .

وكان يدون مفردات الأمتعة التى تحملها السفن التى تقلع بحمولتها فى الدفاتر ، ويحصلوا عليها رسوما ، وعلى قاضى المدينة أن يتابع ذلك بنفسه ، ويكون موجودا عند تحصيل الرسوم أيضا ، وعدم التهاون فى تحصيل هذه الرسوم ، وتورد هذه الرسوم إلى الخزينة مرة كل ثلاثة شهور ، حتى يتمكن الروزنامجى[٣] من تسجيلها[٤] .

وقد يصاحب بعض جنود السباهى أو أحد من أشرف الحجاج أو الأكابر مع من يلوذ بهم من التجار عند وصول سفينة أو إقلاعها فيخلصون كل من فى السفينة من رسوم الجمارك ولا يأخذون منهم شيئاً أو يساعدوا على تقييم أمتعتهم بأبخس الأثمان ، فيدفعوا رسوما زهيدة ، ويلحق الضرر والخسائر نتيجة لذلك بالأموال السلطانية[٥] .

أما الرسوم على البضائع ، فكانت تحصل بنسب متفاوته ، فقد فرضت رسوما جمركية على السلع التى ترد من بلاد السلطان ١١٪ على المشمش والصوفان (الأسفنج الطبى) واللوز ، ٥٪ على الصلب والأبر والشبة ، ومن ٣ر٥٪ على البضائع الواردة من مرسيليا والبندقية

---

(١) نعيم زكى فهمى، المرجع السابق، ص٣٢٣ .

(٢) قانون نامه ، ص٥٣ .

(٣) نفسه ، ص٥٤ .

(٤) نفسه ، ص٥٤ .

(٥) نفسه ، ص٥٤ .

وليفورنيو وترستا و٥٪ على البضائع الواردة من أوروبا عن طريق أزمير وأيضاً الزئبق ، والأسلحة ، سلفور الرصاص زرنيخ ، جوارب ، مجوهرات ، أسيبيداج أبيض ، خشب فرنامبوك ، قلنسوات حمراء شمع ، خمارات ،شال أنقرة ، صنوبر ، قرمزية (للصبغة الحمراء) نحاس (جديد ، مصنوع ، خام ، قديم) أوراق مذهبة ، أجواخ ، عقاقير طبية . قصدير ، أقمشة ، زنك ،كتل من الحديد ، سنابك الخيل ، قرنفل ، قطران ، قطع غيار للساعات زيت الصباغة نحاس أصفر ، رقائق فضية وفالصو ، صمغ ، خردوات ، جوز ، ورق ، جلود وفراء ، ورصاص ، كبريت ، مناشف (فوط) شراب السكر ، حرير ، أحذية ، سجاجيد للأرائك ، لوازم النسيج ، أقمشة من بيروت ، أقمشة حريرية ، أقمشة حريرية منقوشة ، خراطيم النارجيلة[1].

وتفرض رسوما مابين ١٠ . ١١٪ على الحرير والقطن الواردة من بلاد السلطان ، والبرادق الفخارية من بلاد المغرب والبرنس (معاطف صوف) سمن ، قلنسوات حمراء ، وكراويه وشيلان صوف وحلويات ، جلود فاسى فاصور (عقار طبى) جياقلو (للصباغة) ، أحرمة (حرام) من كل نوع حرام صوف من البربر وبلاد السلطان ، وعسل ، ومناديل سيدات ، خراف زيتون (الملكان) كافورية صوانات البندقية ، سمك مجفف وملح قتيب (عقار طبى) صابون عجين وسائل كبريت ، أحذية قديمة من بلاد السلطان مصنوعات زجاجية ، أقمشة من الهند ، تبغ منفاخ ، السروج والركاب ، عنب طازج ، ذيول الخيول ، شعر الماعز ، أمشاط خشبيه ، بطيخ من يافا ، بيض السمك كافيا ، جوز لصنع النرجيلات ، موسلين ، عسل ، كاب أو قباب للسيدات ، فواكه جافه ، جبن فوه (عقار طبى) فناجين ، حديد ملاعق خشبيه ، زغب القطن حبال ، حلويات[2] .

وفرضت رسوما على السلع المصدرة من ميناء الإسكندرية إلى ولايات السلطان فى القرن الثامن عشر كما يلى :

تفرض ٥٪ على القافلة ، شمشم ، ثمار جوز الهند ، كوبال (صمغ للطلاء) ثمرة البوصير (سم السمك) ، بخور ، عقاقير ، عقاقير طبيه من كل نوع ، كركم ، كتان أهليج ، مر ،

---

(١) أستيف ، النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية ، ص١٢٧-ص١٤٧ .

(٢) نفسه ، ص١٢٧-١٤٧ .

فلفل، زغفران ، وملح النوشادر ، خراطيم نارجيلات ، على شكل أعواد جذور الزغفران ، و١٠٪ على المهم من الهند ، خشب الألوه ، شيلان وأقمشة من الهند ، موسيلين من الهند ، الخزف ، والتبغ[١] .

وفرضت رسوما ثابته على حسب الوزن أو الكمية أو النوع ، فكان يفرض ٣٠ مدينى على قنطار البن ، ٢ مدينى على قفة الرمادا والصودا [٢]، ٣ مدينى على شيلان صوف من الفيوم، ٤ مدينى لأغطية الرأس الحمراء ، ٤ مدينى للجلد ، وجلود بقر وجمال وثيران ، ٢ مدينى للجلد الواحد ، ٣ مدينى لقفة البلح العجوة ١٢ ، ١٣القنطار العجوة ، ٢٥ مدينى للعبد الأسود ٤ ، ٦ مدينى للجوال تبعاً لحجمه وحناء لصبغ أظافر وشعر النساء، ٢ مدينى للعباءات الصوفية للفلاحين ومدينى واحد لكل جلد ، ٤١ مدينى للسمك المملح للبرميل الكبير ، ٨ مدينى لبرميل السمك المجفف ، ٢ مدينى لقطعة القماش من الكتان للقمصان[٣].

والرسوم التى كانت تفرض على السلع المصدرة إلى بلاد البربر فكانت على النحو التالى :

٨٦٪ على كوبال (صنع الطلاء) أما الألوة فكانت ٢٢ مدينى للقنطار ، ٣٣ مدينى لقنطار الحتليت ، وخيوط وبر ، ٢ مدينى للقطعة ٣٠ مدينى على مشافة (وبر) حرير للقطعة، وبر صنع القاهرة ١٥ مدينى للقطعة ، ٢٥ مدينى للقطعة وبر عادى وأحمر ، ١٦ مدينى لقنطارالبن ، ٣٣ مدينى قنطار القافلة ، ٣٣ مدينى قنطار شمشم، ٣٣٠ مدينى لقنطار سن سمك ، ٢ مدينى على قطعة ديميتى منقوش وهو أقمشة قطنية تسمى نانكين أو بازان ويسيميها الانجليز ديميتى ، ٣٠ مدينى لقنطار البخور ، ٦ مدينى لقنطار عقاقير طبية من كل نوع ، ٨٦ مدينى لقنطار زنجبيل ، ٢٦ مدينى لقنطار الصمغ ، ٣٣٠ مدينى لقنطار ألك

---

(١) نفسه ، ص١٢٧ ، ١٤٧ .

(٢) المدينى هو قطعة نقدية بالغة الصغر ، يزن الألف منها ٧٣ درهما أى ١٠٠٠ر٢٢٤٧٦ جراما بعيار قدره ٣٥٠ (من الألف) من الفضة الخاصة على أحد وجهيه توقيع سلطان القسطنطينية أو طغرائه وحدها ويحمل على الوجه الآخر عباره ضرب فى مصر (أى القاهرة) سنة تنصيب السلطان . (أنظر . سميرة فهمى ، المرجع السابق ، ص١٦٣) .

(٣) أستيف ،المرجع السابق ، ص١٥٢ ، ١٦٢ .

(صمغ) ٥ر٦ مدينى لبالة حناء (لصبغ أظافر وشعر النساء) ٣٣٠ لقنطار أصابع هرمس ١٢٥ مدينى لقنطار العاج ، ١١٠ مدينى لقنطار الكنح ، ١١٠ مدينى لقنطار خولان (عقار طبى) ، ٨٦ مدينى لقنطار كركم ، ٢٧ مدينى لبالة الكتان ، ٦ مدينى لاردب الخضروات وحبوب وعلف ، ٤ مدينى لبالة الكتان ، ٦ مدينى للبالة الصغيرة ٨٦ مدينى قنطار أهليج ، وقنطار المر ، والفلفل أسود ، ٤ مدينى لأردب الارز ، ٥ر٢٧ مدينى لقنطار الزهور الجافة ، ١٣ مدينى لبالة الزعفران ، ٣٠ مدينى لقنطار ملح النوشادر ، ٢٦ مدينى لقنطار بذور اليسر ، ١ مدينى لقطعة الخيش ، ٦-١٢ مدينى للقطعة مناشف (فوط) ١٨ مدينى لقنطار سكر مكرر تمر هندى ٤٥ مدينى للقنطار ، ، ٥ر٣٧ مدينى لقنطار لوازم النسيج ، ٤ مدينى لقنطار أقمشة همايون ، ١٥ مدينى لقطعة أقمشة عاتكى ، ٣ مدينى لقطعة أقمشة زرقاء ، ٣٠ مدينى لقطعة أقمشة ضابولى من القسطنطينية ، ٥ مدينى للقطعة قماش ضابولى من مصر ، ١٠ مدينى لقطعة القماش التابولى العادية ، ٦ مدينى لقطعة أقمشة ملونة ، ٤٠ مدينى لقطعة القماش فيتلى درجة أولى ، ٣٠ مدينى للعادية ، ٢٠ مدينى لقطعة الأقمشة الجبشية ، ٤٠ مدينى لبالة أقمشة الأرائك ، ٣ مدينى بقطعة أقمشة سهن ، ٣٠ مدينى لقماش العمائم ٢٦ مدينى لقنطار الزعفران[١] .

أما الرسوم الجمركية على البضائع المصدرة إلى أوروبا من الإسكندرية وكانت تسمى بلاد النصارى على النحوالتالى :

٣٪ على الألوة (الصبر) ، وحتليت ، مشاقة (وبر) خرز ، وبر صنع القاهرة ، وبر عادى . كوبال (صمغ للطلاء) ثمرة البوصير (سم السمك) قطن فى شكل رزم ، غزل قطن من الهند ، أغطية حمراء ، جلود جاموسى ، جلود بقر وجمال وثيران ، عجوة بلح مجفف (تمر) سن سمك، ديميتى منقوش . بخور عقاقير طبية من كل نوع ، صمغ ، أصابع هومس ، عاج ، كركم ، صوف ، كتان ، كتان مغزول ، اهليج ، مر ، ملح النظرون ، جوزة القبئ ، ريش النعام ، فلفل زعفران ، ملح النوشادر ، ملح البارود ، بذور اليسر ، سنامكى ، سكر تمر هندى ، لوازم النسيج ، أقمشة زرقاء من القطن ، أقمشة من الكتان ، أقمشة من الهند ، أقمشة ملونة ، أقمشة للأرائك جذور الزعفران[٢] .

---

(١) أستيف ، المرجع السابق ، ص١٥١ - ١٦٢ .

(٢) نفسه ، ص١٥١- ١٦٢ .

وفرضت رسوم على حسب الكمية والوزن والنوع ، ٤٠ مدينى لقفة الرمادا والصودا ، والأرز ١٣٣ مدينى للأردب .

والرسوم التى تفرض على السلع المصدرة عن طريق جمرك دمياط إلى بلاد السلطان والبربر وأوروبا على النحو التالى :

١٠٪ على الألوة (الصبر) واليسنون ، وحتليت ، أطباق من الخزف ، خشب هندى ، خشب عطرى ، وخشب للصباغة ، قاقلة ، شيلان وأقمشة من الهند ، خمارات (خمار) القرمزية ، ثمار جوز الهند ، كوبال (صمغ للطلاء) ثمرة البوصير (سم السمك) قرون الثيران والماعز ، قطن على هيئة لوزات ، قطن فى شكل رزم ، شعر عرفه الخيول ، ماء الزهر ، بخور ، عقاقير طبية من كل نوع ، تصدير أقمشة حريرية من الاسكندرية والمحلة الكبرى ، زنك ، حديد على هيئة قضبان صمغ الك ، أصابع هرمس ، عاج ، كلخ ، خولان (عقار طبى) كركم . صوف ، حواشى جوخ ، قدور فخارية ، وموسلين من الهند ، مر سنامكى كبريت ، سكر ، سكر مكرر ، تبغ ، بودرة تبغ (سعوط) تفتاز . تمر هندى ، مناخل (منخل) ناعة فناجين من الخزف ، أقمشة من الهند ، خراطيم نارجيلات على شكل أعواد ، جذور الزعفران ، ١٢٪ على مسامير حجم كبير ، ٣ مدينى لقنطار البن ، ٢٠ مدينى لكل ١٠٠ اطار (أطواق ٣ مدينى على كل من قطعة شيلان صوف من الفيوم ، جلد جاموسى والبقر والشيران ، ٣ مدينى لقفة العجوة والبلح المجفف (تمر) ٤٥ مدينى ، ٥ مدينى لقطعة الصوف تسمى زعبوط ، ٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل زنجبيل ، ١٥ مدينى لأردب الكمون ٢ مدينى لكل حمولة خميش[١] .

أما الرسوم على السلع الواردة فكانت الآتى :

١٠٪ على المشمش الطازج ، والصلب والأبر ، ١٢٪ على المشمش الطازج ، والصلب والابر ، ١٢٪ (قمر الدين والصوفان (سفنج طبى) واللوز ، والعنبر الأصفر وهلب للمراكب . ولم تكن الرسوم فى جمرك دمياط تتغير مطلقاً تبعا للأمة التى تأتى منها السلع كما هو الشأن فى الاسكندرية ، وكانت الرسوم التى يحصلها هذا الجمرك والتى تفرض بشكل متساو على سلع أوروبا وآسيا وبلاد البربر تسدد جزءاً منها نقدا ، والجزء الآخر عينا ، كما كانت الرسوم النقدية تتحدد وفق تقيم خاص وقريب من الواقع بالنسبة لقيمة السلع ، وكان يتم ذلك بمجرد إتمام عملية الانزال[٢] .

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص١٥١ - ١٦٢ .

(٢) استيف ، المرجع السابق ، ص١٢٧ .

ولذلك فرضت ١٠٪ على بعض السلع مثل الفضة والأسلحة ، وبرادق فخارية ، برنس ، (معاطف صوف) اسبيداج أبيض ، قلنسوات حمراء ، منسوجات خشنة لصنع الملابس ، بن جلود ، خرفان ، ماعز ، لحم مملح ، شيلان ، شيلان صوف ، خمارات شال أنقره ، شموع ، ثمار جوز الهند ، حلويات ، مرجان ، مرجان فالصو ، ملاعق خشبية ،جلود ثيران ، نحاس ، سن الفيل ، أوراق مذهبة ، ماء القرنفل ، مشروبات روحية ، أسفنج ، قصدير أقمشةمن الأموى ، أقمشة من تركيا ، فاصور (عقار طبى) حديد ، فناجين ، فواكه جافة ، صمغ من سوريا ، أحرمة من كل نوع ، كاب أو قبعات للسيدات ، العرقسوس ، رقائق فضية ، وفالصوه ، مشروبات روحية ، سلع من الهند ، خردوات ، موسلين ، جوز لصنع الارجيلات ، زيتون ، بطيخ من يافا ، خرف ، خردة وحدايد من كل صنف ، عنب فى صناديق ، مواقد طينية مناشير، ملح البارود ، السروج ، حرير مطبوع وقيطان حرير ، سجاجيد للأرائك من كل نوع أقمشة من الهند ، أقمشة حريرية ، أقمشة منقوشة ، خراطيم النارجيلة ، مصنوعات زجاجية وكريستال ، أحذية قديمة .

وكانت تفرض١٢٪ على زئبق بلسفور ، الرصاص ، مجوهرات ، اسبيداج أبيض خشب للوقود ، خشب فرنامبوك ، شمع ، شيلان ، خمارات قلفونية ، حلويات حبال ، زغب القطن ، زرد ، ملاعق خشبية ، جلود فاسى ، عقاقير طبية ، قصدير فاصور (عقار طبى) دوباره ، فواكه جافة ، عفصة ، صمغ من سوريا ، حشيش مفرط فاصوليا ، زيت ، زيت للصباغة . جرار مليئة بالعرقسوس ، صوف ، نحاس أصفر ، عسل ، هاونات ، موسلين مطبوع ، بندق ، جوز ، بصل ، رصاص ، شعر ماعز ، خزف ، رصاص بنادق ، بودرة ، حراص (اللصق) عنب جاف ، عرقسوس ، صابون حرير مطبوع وقيطان حرير ، أحذية ، سكر ، ودك (شحم للأمعاء)(١) .

وتفرض أحيانا على الوحدة أو على عدة وحدات ١٨٠ مدينى العجل الواحد ، ٦٠ مدينى على قطعة الحرير ووبر الحرير والقطن ، ٢ مدينى لكل طروق ، ١٠ مدينى لكل قطعتين الكستناء ، ١٨٠ مدينى على كل حصان ، ١٤٦ مدينى على كل أربعة من قطع الأقمشة الحلبية ٧ مدينى لربع بذور الخيار ، ٨ مدينى لجوال بذور النيلة ٥٠ر١ مدينى بذور البطيخ ،

---

(١) استيف ، المرجع السابق ،ص١٢٦-١٤٧ .

٣ مدينى لأقمشة الحشيش المفرط ، ٨٠ مدينى للقفص الزجاجى ، ١٨ مدينى لقطعة ماء سودوات ، ١٥ مدينى لقفة بيض السمك المسمسى كافيار ، ٣ مدينى للقربة الواحدة ٢٠-٣ مدينى لرطل الورق ، ١ مدينى لجلد الماعز الواحد ، ٢٩ مدينى لكل ١٠ ألواح من الرصاص ، ٣٠ مدينى لصندوق التفاح ، ٣٦ مدينى لصندوق العنب ، ٣٠ مدينى للباليه الصغيرة من الصابون السائل والعجين الوارد من سوريا ، ١١-١٢ مدينى المرطل من شراب السكر ، ٥ر١-٥ر٢ مدينى للسرج الصوفية ، والتركية ٢-٤ مدينى للاقة الخل ، ٥٠ مدينى للبرميل وحناء (لصبغ أضافر وشعر النساء) ٨ مدينى للبالة الصغيرة ، ٨٠ مدينى لقنطار النيلة الدرجة الأولى ، ٦ مدينى للدرجة الثانية ٤٠ مدينى لقنطار الدرجة الثالثة ، ١٠٠ مدينى لأردب الخضروات والحبوب والعلف ، ١٨ مدينى لكل ١٠٠ رطل مغزول ٥٠ر٢٦ مدينى لكل ١٠٠ رطل اهليج ، ٢ مدينى للحصيرة الواحدة ، ٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل بندق من الهند ومدينى واحد لكل جلد ، ٣ مدينى لكل جلد من الجلود الرقيقة ، ٩ مدينى للأردب الحمص ، ٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل فلفل أسود ، ٣٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل مسحوق لصباغة الخيول، ٧٠ مدينى لأردب الأرز ، ٣ مدينى لقطعة العباوات الصوفية للفلاحين ، ٦ مدينى لكل ١٠٠ رطل زعفران ، ٢٥ مدينى لكل ١٠ أرادب ملح ، مدينى لرطل ملح النشادر ، ٣٠٠ مدينى للبالة الأقمشة ، مدينى لقطعة أقمشة القلاع[١] .

وبالإضافة إلى الرسوم السابقة ،فانه كان يحصل رسوما أخرى ، وخاصة عندما تكون واردة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فانها تخضع للرسوم المبينة :

بالنسبة للإسكندرية ، لا يوجد رسوم ، فقد كانت تجبى فيها الرسوم كاملة أما بالنسبة لرشيد فكانت تفرض فيها الرسوم التالية :

الكبريت ٣٠ مدينى للبرميل الكبير ، الأحذية ٤٥ مدينى للبالة ، تبغ وارد تركيا ٤٣-٨٠ مدينى للبالة ، سجاجيد للصلاة ٩٠ مدينى للبالة ، سجاجيد موبرة ومساجد قدم ٤٥ مدينى للبالة ، وردى ٩٠ مدينى للبرميل تنباك ٤٥ مدينى للبرميل ، زجاج نوافذ ٣٠ مدينى للصندوق ، أملاح معدنية الصلب ٤٥ مدينى للصندوق والابر والقلنسوات الحمراء ، والحلويات من البندقية ، السكاكين الشعبية ، النحاس سن الفيل ، الأقمشة الصوفية من بلاد البربر ،

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص٢٦ -١٤٧ .

الزنك ، جلد فاس أحمر ، وأصفر ، مستكة ، صدف لؤلؤ ، وللصندوق وقرب المياة ٤٥ مدينى، ولصندوق الفستق ، ١٥ مدينى للبالة من الصوفات ، ٢٠ مدينى لقفة اللوز ، ٩٠ مدينى للعنير ، ٣٠ مدينى سلفور الرصاص ، ٢٠ مدينى لقنطار خشب الصباغة ، ٩٠ مدينى لصندوق الشموع ، ٢٠ مدينى للأساور الزجاجية ، ١٠ مدينى لقفة الخروب ، ٩٠ مدينى للبالة الصغيرة لشال صنع أنقرة ، كستناء ٣٠ مدينى للبرميل الكبير ، ٩٠ مدينى لبرميل القرمزية ٩٠ مدينى لصندوق البوصيرى ، ٢٠ مدينى لبرميل بوتقات الصاغة ، ٦٠ مدينى لبالة سن الفيل ، ٩٠ مدينى لبالة أجواخ الصغيرة ، ٩٠ مدينى لبرميل القصدير ، ٥ مدينى لسلة الفوانيس الزجاجية من البندقية ، ٢ مدينى لقضيب الحديد فى شكل قضبان ، ٣٠ مدينى ورد اللاوندة ، ٦٠ مدينى لقفص الزنجبيل ، ٩٠ مدينى لبرميل القرنفل ، ٢٠ مدينى صنع الكثيرا، ٦٠ مدينى للصنع العربى ، ٩٠ مدينى لصنع الطلاء ، مدينى لجرة زيت الزيتون ، المحالب ٣٠ مدينى للبالة ، ٢ مدينى للرخام للصنوق ، مدينى متر مربعات الرخام ، ٩٠ مدينى لسلع فى صناديق ، ٤٥ مدينى لصندوق المستكة ، ٩٠ مدينى لصندوق المرايا ، ٦٠ مدينى لقفص المر ، ١٥ مدينى لجوال البندق ، ٢٠ مدينى لقفة الجوال ، ٩٠ مدينى لبالة ذهب البراق ، ٤٥ مدينى لصندوق قرب المياه ، ٢٢ - ٤٥ مدينى لبالة الورق وارد جنوه وأيضا البندقية ، ٢٠ مدينى لكوم الجلود المصبوغة ، ٢٠ مدينى لبرميل قداحات البنادق ، ٤٥ مدينى لصندوق الفستق ، ٥ مدينى لسبيكة الرصاص ، ٩٠ مدينى لصندوق ريش العام ، ٩٠ مدينى لصندوق الفلفل ، ٩٠ مدينى لبالة الخزف ، ٢٠ مدينى لجوال جذور نبات القوة ، وجذور السحلب ، ٢٠ مدينى لصندوق العنب الجاف ، ٣٠ مدينى لبالة عنب لصنع الخمور ، ١٣ مدينى لكل ١٠ أقراص راتنج(١) .

أما بالنسبة لجمرك دمياط ، فكانت تفرض رسوم ٦٪ على آبا قدار (نوع من البذور) عجين المشمش (قمر الدين) الصلب ، الابر الصبار ، الصوفان ، اللوز ، العنبر ، هلب مراكب، فضة سبائك ، طباشير ، خشب للوقود ، اللوز ، العنبر ، هلب مراكب ، فضة سبائك . طباشير، خشب للوقود ، خشب للصباغة ، شموع ، أساور زجاجية ، زفت ، أحزمة مطرزة ، خمارك ، فحم مقصات ، مسامير ، مسبحات ، خشب قرمزية ، جوز الهند ، حلويات ، مرجان

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص١٧٢ -١٨٢ .

حبال ، حاس مطهر للاذن ، سن الفيل ، أجواخ : ماء قرنقل ، دبابيس ، أسفنج ، قصدير زنك حديد فى شكل قضبان ، بنادق ، صمغ عربى ، قطران ، زيت زيتون ، مصابيح زجاجيه ، مشروبات روحيه ، جلد فاسى أحمر وأصفر ، مستكة ، زئبق ، رحى طاحون ، مرايا ، هاودنات ، موسلين ، صدف لؤلو ، بندق ، جوز ، زيت ، ذهب خام ، شبـاشب ، وارد القسطنطينيه ، رصاص ، ريش النعام ، خزف منافيخ ، تبغ وارد سورا ، سجاجيد للصلاة ، خراطيم للنارجيلة، أكواب والرسوم الأخرى فكانت ١٦ مدينى لعلبة القلنسوات الحمراء ، ٣٠ مدينى لقنطار البن ، إذا لم يدفع فى بولاق ، ١١/٢ مدينى لرزمة الورق وارد جنوة ، ٦ مدينى لرزمة الورق وارد البندقية ، ٥ مدينى للجرة رصاص البنادق ، ٣٠ مدينى برميل راتنج ، ٩٠ مدينى لجرة الزغفران ، ٩٠ مدينى لبالة قشاغ ، ٢ مدينى لصندوق الصابون ، ٩٠ مدينى لبالة الحرير ، ٩٠ مدينى لصندوق الأحذية ، ١٨ مدينى لكل ١٠٠ رطل كبريت ، ٢ر١١ مدينى لزوج الأحذية ، ٤٨ مدينى للقفة تبغ وارد سوريا وأيضا تركيا ، والنشوق ، ٤٠ مدينى لكل ١٠٨ رطل تمر هندى[١] .

وعندما تخرج السلع من المدن الموضحة ، وتكون مخصصة للاستهلاك المحلى فانها تخضع للرسوم التالية :

بالنسبة لجمرك اسكندرية فانها كانت تفرض رسوما على البن من ٢٢-٥٠ مدينى للبالة ، ولم تفرض أية رسوم أخرى .

وبالنسبة لرشيد . فكانت على الصبر ٦٠ مدينى للبالة ، وحتليت ٦٠ مدينى للبرميل بوصيرى ، ومن ٣٠ -٦٠ لبالة ماء القرنفل ، ولا نرى رسوما خلاف ذلك ، ولم تفرض أية رسوم فى دمياط خلال القرن الثامن عشر[٢] .

وكانت السلع التى تصل إلى رشيد تودع فى وكالة الباشا وتخضع لدفع رسم يسمى رسم إقامة لصالح ملتزم هذه المنشأة[٣] .

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص١٥١ -١٦٢ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص١٥١-١٦٢ .

وكانت حصيلة الرسوم الجمركية التى يتم تحصيلها من كل جمرك تخصص لها جهة ، مثل مرتب الباشا العثمانى ، ضباط الحامية ، الصرة ، وهى الأموال التى ترسل إلى الحجاز كل سنة مع قافلة الحج المصرى ، وجزية السلطان[١] .

ونظراً للظروف السياسه التى مرت بها مصر فى القرن الثامن عشر ، طبق نظام الالتزام على الجمارك تطبيقا سليما ، فقد أشرف الملتزمون وأعوانهم فى ابتزاز الأموال من المشتغلين فى تجاره الاستيراد والتصدير ، وكانت غالبيتهم من الاجانب مثل البنادقة واليونانيين والفرنسيين وبعض الانجليز[٢] .

ولما تم للانكشارية الإستيلاء على الجمارك وايرادتها فقد أدى هذا إلى تقوية مراكزهم والتحكم فى إدارة مصر خلال هذه الفترة ، وقد حصل الانكشارية فى عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م من ايرادات الجمارك مبلغ ٢٢ر١٢٥ر٠٠٠ بارة من جمارك الاسكندرية ودمياط والبرلس وبولاق ومصر القديمة دفعوا منها للخزينة السلطانية مبلغ ١٤ر٦٤٨ر٨٥٢ بارة ، ومبلغ ٦ر٧ر٠٠٠ بارة كشوفية صغيرة للباشا ، والباقى قدره ٧٢٦ر١٤٨ بارة صافى ربحهم [٣] .

واحتفظ الانكشارية طوال القرن الثامن عشر بأرباح هذه الجمارك الأربعة فيما عدا بضع سنوات قليلة ، عندما أنفرد على بك الكبير بحكم مصر (١٧٦٨-١٧٧٣م) حاول القضاء على بعض عيوب تطبيق الالتزام على الجمارك . ولكن بعد وفاته عادت عيوب تطبيق نظام الإلتزام تطل برأسها ، وفى عهد محمد بك أبوالذهب[٤] .

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، إستولى مراد بك وابراهيم بك على مقاليد الأمور فى مصر، واقتسما دخول كل الجمارك فيما بينهما بالتساوى فيما عدا جمرك القصير فقد ترك لبكوات الصعيد[٥] .

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٧٠ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ١ ، ص١٧٢ .

(٣) سجلات الروزنامه ، دفاتر الجمارك أرقام ٤٢٤٢ ، ٤٢٤٣ ، ٤٢٤٤ ، لسنوات ١١٨٦هـ، ١٧٧٢م ، ١٧٨٦هـ /١٧٧٢م ١١٨٧هـ/١٧٧٣م .

(٤) سجلات الروزنامه ، المرجع السابق .

(٥) على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ،جـ٧ ،ص١٥٦ .

ولقد إحتفظ مراد بك لنفسه بديوان القاهرة المكون من مكتبى مصر العتيقة وبولاق ، وكذلك بجمارك دمياط ورشيد والاسكندرية ، ولم يحتفظ ابراهيم بك إلا بجمرك السويس[١] وأتضح أن جمرك دمياط كان ألتزاماً لابراهيم بك فى عام ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م[٢] وأستمر ذلك الوضع إلى عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م وفيه أعيد التزام الجمارك إلى الانكشارية[٣] .

وكان الملتزم العام أو المدير العام لجمارك مراد بك يختار ويضع تحت امرته ، مأمور الجمارك الرئيسية لمكاتب بولاق ورشيد والاسكندرية ، وكان كل من هؤلاء يرأس عددا من الموظفين يتناسب مع حجم السلع التى تصل إلى كل من هذه الأماكن والتى تتحتم المرور عليها من هناك .

وبالنسبة لعدد العاملين بجمرك الاسكندرية ، فقد كان كثيرو العدد ، ويرجع ذلك لضخامة العمل فيه ، ويليه مباشرة دمياط ثم رشيد ؛ حيث كان بجمرك الاسكندرية اثنا عشر كاتبا وستون مرؤساً ، ودمياط ثمانية كتبه وخمسون مرؤساًورشيد ثلاثة كتبة وعشرون مرؤساً [٤].

أما رواتبهم فكانت على النحو التالى :

مرتب المأمور العام لجمرك الاسكندرية يحصل سنويا على ٤٠٠٠ ريالا[٥] بوطاقة .

مرتب المأمور العام لجمرك دمياط يحصل سنويا على ٤٠٠٠ ريالا بوطاقة .

مرتب المأمور العام لجمرك رشيد ، يحصل سنويا على ٤٠٠٠ ريالا بوطاقة .

من الملاحظ هنا أن مرتب مأمور الاسكندرية يتساوى مع مرتب مأمور دمياط ، علماً بأن العمل فى جمرك الاسكندرية مضاعف ، ويرجع ذلك إلى أهميتها فى التصدير والاستيراد .

---

(١) ب.س جيرار ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر جـ١ ، ص٣٥٢-٣٥٤ .

(٢) دفتر أصول مال اسكلهات ومقاطعات ، رقم ١١٣ ، عين ٥٤ ، مخزن تركى (٢) مسلسل رقم ٤٢٥١ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ،المرجع السابق ، ص١٨٨ .

(٤)ب . س جيرار ، المرجع السابق ، جـ ، ص ٣٥٤ .

(٥) الريال ، اللفظ مقتبس من Royal بمعنى ملكى ، وقد كان الاسبان أول من تداولوا هذا النقد فى الاسواق التجارية ، وهو عبارة عن النقد الفضى المسمى (بيزو) وأطلق الريال فى العالم العربى منذ القرن السابع عشر الميلادى على نقود فضية كبيرة . فرنسية ، وأسبانية وهولندية وألمانية ونمساوية . (أنظر عبدالرحمن فهمى ، المرجع السابق ، ص٥٨٧) .

ويحصل الكاتب على ٦٠ - ٣٠٠ بارة فى اليوم ، ويصل راتبه السنوى إلى ٧٣٠ ريالا بوطاقة ، ويحصل كل الموظفين المرؤسين عادة على ٤٥ بارة فى اليوم أى ١٨٢ بوطاقة فى العام .

ولم يكن مأمورا الجمارك أو أى تابعيهم يحصلون على مكافآت عن الحصيلة التى يجمعونها ، ومع ذلك فلم يكن من النادر أن يحصلوا على بعض الهدايا البسيطة من جانب التجار ، أما بالنسبة للملتزم فانه بالإضافة إلى الديون المستحقة له ، والتى تضيع عليه ، وهو أمر يحدث له بصفة دائمة ، وبالإضافة كذلك إلى بعض الترتيبات والتسويات الخصوصية، والتى تتم بين المتعاملين مع الجمارك ، وبين مأمورى هذه الجمارك ، فقد كان يقوم بنفسه من وقت لآخر بتقديم هدايا تتفاوت قيمتها إلى مراد بك وإلى المقربين اليه[1] .

وكان لابد أن يفيد هذا الملتزم فى كل الأحوال بين كل المنافع التى تنتج عن ذلك ، ومع هذا فحين تصل هذه المنافع إلى مبالغ فيها يفوق ماهو معتد من هذا الأمور يتعرض الملتزم لمظلمة تتنزع عنه إما حقق من كسب ، وبهذه الطريقة حطم مراد كثيرا من رجال جماركه واحدا بعد الآخر[2] .

وكان الملتزم العام للجمارك يدفع إلى مراد بك نحو ٠٠٠ر٢١ بوطاقة فى الشهر ، وبذلك يبلغ جملة مايدفعه فى العام ٠٠٠ر٢٥٢ بوطاقة .

وبالنسبة للمصاريف التى كان على الملتزم أن ينفقها هى :

حوالى	٠٠٠ر١٢٤ بوطاقة
ثمن التزامه	٠٠٠ر٢٥٢ بوطاقة
مجموعة المصاريف	٠٠٠ر٣٧٦
فى حين تبلغ حصيلة الرسوم	٠٠٠ر٤٨٠
	٠٠٠ر١٠٤

(١) جيرار ، المرجع السابق ، ص٣٥٥ .

(٢) على مبارك ، المرجع السابق ، جـ٧ ، ص١٥٧ .

ويعتبر هذا المبلغ شديد الضخامة لدرجة أكبر مما ينبغى الأمر الذى يثير لعاب جشع البكوات ونهمهم ، فيجاب الكثير من المغارم والمظالم التى كانت تضيع على الملتزمين العاملين للجمارك[١] .

وكانت كل الرسوم التى تحصل عن مختلف السلع الواردة إلى مصر تنظم تبعا لتعريفات لم تناولها سوى تعديلات طفيفة منذ وضعها ، ومع ذلك فقد كان البن الذى يصل عن طريق السويس مثقلا برسوم كانت ترتفع بصفة مستمرة حتى بلغت ٢٢ بوطاقة من الفردة الواحدة .

وكانت الرسوم التى تحصل فى جمرك السويس تبلغ فى السنة الاعتيادية وتبعاً للأحوال ٤٠٩ر٣٦٥١ بوطاقات أى أنها كانت تعادل حصيلة الجمارك الأربعة فى القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية . فى حين كانت مصاريف التحصيل (فى جمرك السويس) أقل منها بكثير (منها فى هذه الجمارك) وهذا مايفسر لماذا إكتفى إبراهيم بك وهو الذى كان يقتسم السلطة مع مراد بك بعائد جمرك السويس وحده تاركا لزميله عوائد الجمارك الأخرى[٢] .

وكانت هناك ظاهرة تكررت ، وهى أنه كلما إحتاج هذا الأميران المملوكيان إلى أموال وفيرة تصل قيمتها فى كل مرة إلى خمسمائة ألف بارة ، كانا يستدعيان ملتزم الجمارك لتقديم المبلغ ، فلا يتردد الملتزم فى أداء ما يطلبان ، وارتاح الملتزم إلى أمثال فى رفع الرسوم الجمركية بصورة غير رسمية تعويضاً له عن المبالغ التى دفعها . وهكذا كان الملتزم لايتقيد بالتعريفه الجمركية . وكان يفرض ما شاء له جشعه من رسوم إضافية لاتغطى المبالغ التى يدفعها للأمراء المماليك فحسب ، بل لتحقق له مزيداً من الأرباح . وعلى هذا النحو تلاقت أو التحقت مصالح ملتزمى الجمارك مع مصالح الأمراء المماليك ، وقد شخصوا بأبصارهم إلى الرسوم الجمركيه باعتبارها مورد مالى لاينضب معينه وقد إرتفعت أصوات التجار بالشكاوى من تصرفات ملتزمى الجمارك ، وتظاهر مراد بك برغبته فى القضاء على عيوب نظام إلتزام الجمارك وقرر أن ينفرد هو دون سواه بالإشراف على الجمارك وإزداد الموقف تدهوراً ، اذ لم يكن هدفه الاصلاح وإنما الاستيلاء على حصيلة الرسوم الجمركية ، دون أن يشاركه فيها زميله فى الحكم المملوكى إبراهيم بك[٣] .

---

(١) جيرار ، المرجع السابق ، ص٣٥٥ .

(٢) جيرار ، المرجع السابق ، ص٣٥٦ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٧٤ .

ونتيجة للتدهور قامت بعض الدول الأوروبيه مثل فرنسا وانجلترا لحسم الموقف مع مراد بك وإبراهيم بك ، وعقد إتفاقيات لأجل هذا الغرض فعقدت فرنسا مع مصر ثلاث معاهدات فى يناير عام ١٧٨٥م ، الأولى مع مراد بك ، وفيها تعهد بصيانة التجارة الفرنسية عند مرورها بمصر ، وحدد الضرائب على متاجر الهند بمقدار ٢٪ للوالى فى مصر ، ٤٪ للبيك الحاكم ، ٣٪ فقط إذا كانت هذه المتاجر مصدرة لفرنسا ، وتعهد . يوسف بعدم زيادة الرسوم على المتاجر الفرنسية ، وتحصيل ٥ر٪ من قيمة المتاجر المفرغة إلى السويس ، وكانت المعاهدة الثالثة مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ الأعراب وفيها تعهد بنقل المتاجر الفرنسية بأمان فى طريق القاهرة مقابل مبلغ معين عن كل جمل(١) .

على أية حال فقد كان لهذه المعاهدات رد فعل مهم ، فلما علمت الحكومة الانجليزية بعقد هذه المعاهدات ، وبدأت تهتم بالمخططات الفرنسية بمصر . وتفاوضت عن طريق قنصلها بمصر مع البكوات المماليك لابرام معاهدةتجعل الرعايا الإنجليز على قدم المساواة مع الفرنسيين . وعقدت معاهدة مع مراد بك وإبراهيم بك على نمط المعاهدة الفرنسية . ولكنها لم تهتم بالمعاهدة لانشغالها بقيام الثورة فى فرنسا(٢) .

هكذا سلطت الدراسة الأضواء على نظام الجمارك فى مصر العثمانية وإدارتها . والعناصر المشتركة فى إدارتها ، ونظام التفتيش الدقيق الذى كان يطبق فيها ، والمراقبة المحكمة من جانب هذه الأجهزة والرسوم الجمركية المختلفة التى كانت تفرض على الأشخاص والبضائع التى اختلفت رسومها أما بالنسبة المئوية أو بالقطعة وغير ذلك .

وأبرزت الدراسة الوظائف التى كانت موجودة والنقود المستخدمة وتم شرحها من واقع المراجع المتخصصة . ونظراً للأحداث السياسية التى شهدتها مصر خلال القرن الثامن عشر ، فقد لوحظ أن هذا أدى إلى تذبذب الدخل فى تلك السنوات .

وبالنسبة لإيراد جمرك الاسكندرية ورشيد ، فنجد أن إيراده ظل ثابتا فى القرن الثامن عشر ، فقد كان إيراده الإجمالى هو ٥٠٧ر٥٠٤ر٥ بارة فى السنة . بخصم منه مصاريف ثابتة

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص٩٣ .

هى ٤٥٦ر٢٢٥ر١ بارة تنفق على الحرمين الشريفين ، ومسموح علماء ، ونفقات قلاع .. الخ فأصبح المبلغ الصافى هو ٩٤٥ر١٧٤ر٤ بارة ، وهو نصيب الملتزم[(١)] .

وإبتداء من عام ١١٧٧هـ/١٧٦٣م إنخفض هذا الإيراد فأصبح ٦٦٨ر٤٠٤ر٥ بارة يخصم منه مصاريف ثابتة هى ٤٥٦ر٢٢٥ر١ بارة ، فيصبح الصافى ٢١٢ر٢٧٩ر٤ بارة[(٢)] وظل هذا المبلغ ثابتا إلى عام ١١٨١هـ/١٧٦٧م ، أصبحت النفقات التى تخصم هى ٥٦٠ر١٨٣ر١ بارة[(٣)] وفى عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م ، وأصبح قيمة المبلغ الذى يخصم هو ٤٩٥ر٢٠٢ر١ بارة[(٤)] وظل ذلك حتى عام ١١٨١هـ/١٧٧٥م ، فأصبح الخصم هو ٦٧١ر٢٥ر١ بارة[(٥)] وإستمر ذلك حتى عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م ، فأصبحت قيمة الخصم ٦٧١ر١٢١٥ر١ بارة[(٦)] وإستمر ذلك حتى عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م[(٧)] .

ولم أعثر على السجلات الخاصة بالفترة من ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م حتى عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م ، وقد حاول المسئول بالدار القومية العثور على هذه السجلات ولكن دون جدوى حيث أن الدار تنقل سجلاتها إلى دار الكتب المصرية ، على الرغم من أننى قد اطلعت عليها فى فترات سابقة .

وتشمل حصيلة الرسوم تعريف مراكب ومال سنوى ومال ميرى ومستحفظان وموجب ريس بوغاز ، وموجب قبانى رشيد .

أما إيراد جمرك دمياط خلال القرن الثامن عشر ، فكانت حتى عام ١٢١هـ/١٧٠٩م تصل إلى مبلغ ٢١٠ر٢٤٤ر١ بارة ويخصم منه ٤٠٨ر٢٩٩ر٠ بارة فيصبح الصافى ٨٠٢ر٩٤٥ر٠ بارة وأوجه الصرف الثابتة تتمثل فى مصاريف قلاع والأموال المخصصة للحرمين

---

(١) دفاتر الالتزام ، الخاصة بالجمارك .

(٢) دفتر أصول مال اسكلهات ومقاطعات اسكلة اسكندرية ورشيد وتوابعها رقم الحفظ النوعى ٢٩٤ ، عين ٥٤ مخزن ١ تركى ، مسلسل رقم ٤٢٢٤ عام ١١٧٧هـ/٧٦٣م .

(٣) دفاتر مسلسل ٤٢١٧ ، ٤٢٣١ ، سنوات ١١٨٠هـ/١٧٦٦م ، ١١٨١هـ/١٧٦٧م .

(٤) دفتر مسلسل رقم ٤٢٣٦ ، عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م .

(٥) دفتر مسلسل رقم ٤٢٤٣ عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م .

(٦) دفتر رقم ٤٢٥٢ عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م .

(٧) دفتر رقم ٢٤٦٢ ، عام ١٧٨٣م .

الشريفين والمرتبات التى تدفع للعلماء والمشايخ ، واللحم الضانى ومرتبات القلاع[١] ومنذ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م ، زاد الإيراد فأصبح ٤٩٦ر٢٩٦ر١ بارة وإزدادت معه قيمة خصم المصروفات فأصبح ٣٠٨ر٣٥٩ر٠ بارة فأصبح الصافى ٨٨ر٩٣٧ر٠ بارة[٢] وأصبح منذ عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م مبلغ ٤٩٦ر٤٤٦ر١ بارة ، وإزداد معه قيمة الخصم فأصبح ٠٨٨ر١٨٧ر١ بارة . الصافى ٤٠٨ر٣٦٩ر٠ بارة[٣] وإنخفض فى عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م إلى ٤٩٠ر٤٤٦ر١ بارة وترتب على ذلك تخفيض قيمة المصاريف إلى ٩٨٢ر٢١٩ر٠ بارة فصار الصافى ٥٠٨ر٢٢٥ر٠ بارة[٤] وإزداد عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م إلى ٣٥٦ر٥٠٤ر١ بارة ، يخصم منه ٥٨٢ر ٢٢٦ر٠ بارة فيصبح الصافى ٧٦٤ر٣٧ر١ بارة[٥] ، وإبتداء من عام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م ، إرتفع الإيراد إلى ٥٣٠ر٥٦٤ر١ بارة يخصم منه ١٥٤ر٢١٩ر٠ بارة فيصبح الصافى ٣٧٦ر٣٤٥ر١ بارة[٦] وفى عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م . أصبحت قيمة خصوماته ٦٦٢ر٢٢٨ر٠ فاصبحت قيمته الصافية مبلغ ٨٦٨ر١٣٥ر١ بارة[٧] .

وإبتداء من عام ١١٩٤هـ/١٧٨٠م أصبحت قيمة الخصومات هى ٠٤٧ر٢١١ر٠ بارة فأصبح الصافى ٤٨٣ر٣٥٣ر١ بارة وإستمر ذلك حتى عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م[٨] .

أما جمرك البرلس فكان إيراده حتى عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م هو ٢٨٨ر١٤٥ر١ بارة يخصم منه ٤٠٨ر٢٩٩ر٠ فيصبح الصافى ٨٨٠ر٩٤٦ر٠ بارة[٩] ومنذ عام ١١٢٤هـ/١٧١٢م قل إيراده إلي ٨١٨ر١١٧ر بارة يخصم منه ٥٨٣ر٩٧٥ر٠ بارة فيصبح الصافى ٢٣٥ر٢٠ر٠

---

(١) دفتر رقم ١٤٧١ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م .

(٢) دفتر رقم ٤١٧٢ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م .

(٣) دفتر رقم ٤١٨٢ ، عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م .

(٤) دفتر رقم ٤٢٠٢ عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م .

(٥) دفتر رقم ٤٢٠٥ ، عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م .

(٦) دفتر رقم ٤٢٢٥ ، عام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م .

(٧) دفتر رقم ٤٢٥٩ ، عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م .

(٨) دفتر رقم ٤٢٩٠ ، عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م .

(٩) دفتر رقم ٤١٧٢ عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م .

بـارة[١] ، وظل ذلك ثابتا حتى عام ١٢٩ه‍/١٧٦م ، فأصبح إيراده ٣٥٧٥ر٥٠٤ر١ يخصم منه ٧٥٨ر٩٠٠ر فأصبح صافى ايراده ٧٧٦ر١٦٠٤ بارة [٢] وإنخفض الإيراد مرة أخرى عام ١١٥٩ه‍/١٧٤٦م إلى ٨١٨ر١١٧ر٠ بارة يخصم ٥٨٣ر٩٧٥ر٠ بارة فأصبح الصافى ٩٧٨٥ بارة [٣] وإزداد منذ عام ١١٦٣/١٧٤٩م ، إلى ٥٣١ر١٢٢ر٠ بارة يخصم من ٥٨٠ر٩٧٥ر٠ بارة فيصبح الصافى ٩٥١ر٢٤ بارة[٤] ، ومنذ عـام ١١٧٣ه‍/١٧٥٩م أصبح الإيراد ١٤٢ر٤١٢ر٠ ويخصم منه ٥٨ر٩٧٠ر٠ فيكون الصافى ٥٦١ر٣١٤ر٠ بارة [٥] وإستمر ذلك حتى عام ١١٨٨ه‍/١٧٧٤م ، فأصبح إيراده٤٦٦ر١٨٦ر٠ بارة يخصم منه ٢٥٢ر٢٧٠ر بارة فيصبح الصافى ٢١٤ر١٣٩ر بارة[٦] .

وإبتـداء من عـام ١١٩٠ه‍/١٧٧٦م ، وإزداد الإيراد إلى ٩٦٦ر٢٤٨ر٠ بارة يخصم منه ٢٥٢ر٥٧٠ر٠ بارة فيصبح الإيراد ٧١٤ر١٩١ر٠ بارة[٧] وفى عـام ١١٩٥ه‍/ ١٧٨٠م إزداد الإيراد إلى ٩٦٦ر٢٧٣ر٠ بارة يخصم من ٥٢٥ر٥٧٠ر٠ بارة فيصبح الصافى ٧١٤ر٢١٦ر٠ بارة [٨] . وظل ذلك ثابتا إلى أن إنتهى به الأمر وضم إلى جمرك دمياط .

(١) دفتر قيد رقم ٤١٧٣ عام ١٧١٢م .

(٢) دفتر رقم ٤١٧٨ عام ١١٢٩ه‍/١٧١٦م .

(٣) دفتر رقم ٤٢٠٣ عام ١١٥٩ه‍/١٧٤٦م .

(٤) دفتر رقم ٤٢١٢ عام ١١٦٣ه‍/١٧٤٩م .

(٥) دفتر رقم ٤٢٢٥ عام ١١٧٣ه‍/١٧٥٩م .

(٦) دفتر رقم ٤٢٤٦ عام ١١٨٨ه‍/١٧٧٤م .

(٧) دفتر رقم ٤٢٤٩ عام ١١٩٠ه‍/١٧٧٦م .

(٨) دفتر رقم ٤٢٥٣ عام ١١٩٥ه‍/١٧٨٠م .

الفصل الرابع

التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر

أولا : الحياة العلمية فى العصر العثمانى :

أصبحت مصر مركزاً للنشاط العلمى فى عصر المماليك، ويرجع ذلك لإحيائهم الخلافة العباسية فى القاهرة، بالإضافة إلى أن السلاطين المماليك أنفسهم كانوا يشجعون العلم والعلماء ، وأشتهر فى عهدهم بعض العلماء والمؤرخين أمثال محى الدين بن عبد الظاهر ، وابن خلكان وجمال الدين بن واصل (١).

كذلك حرص السلطان قانصوه الغورى على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين كل أسبوع . واشتغل بعض أمراء المماليك وأبنائهم فى مصر بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم (٢).

وعندما خضعت مصر للحكم العثمانى، أصدر السلطان سليم مرسومًا عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، بعدم التعرض للأوقاف الموقوفة على أوجه الخير ومنها الخاصة بالجوامع والمدارس والتكايا والزوايا والمعابد التى تمت فى عهد السلطان الأشرف الغورى، والصرف عليها نقداً أو عينًا ونبه على الإدارة العثمانية بضرورة مراعاة ذلك(٣).

كما أمر السلطان سليم أثناء إقامته بمصر بترحيل بعض علماء الأزهر إلى استانبول ، وكان من بينهم صفوة علماء الفقه ومذاهبه وعلوم القرآن الكريم والحديث والمواريث والافتاء ونواب القضاه على المذاهب الأربعة ، فضلاً عن الصناع المهرة، وكان ترحيلهم مادة خصبة استند إليها بعض الباحثين للتشهير بالدولة العثمانية (٤).

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ص٣٢٩-٣٣٠ .

(٢) نفسه ، ص٣٣١ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقلعة ، دفاتر رزق القوصية ، مخزن تركى رقم (١) مسلسل رقم ٤٦١٦ ، تاريخ ٢٤ ربيع آخر عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.

٤- عبد العزيز الشناوى، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج١ ، ص ص٢٩٠-٦٩٦ ؛ حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، ص ص٣٣-٣٥ .

ولاجدال فى أن هذا القرار قد أدى إلى حرمان الأزهر من فريق خيرة علمائه. ولكن هذا الحرمان وقتيًا استمر ثلاثة أعوام. فقد توفى السلطان سليم عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، ورأى إبنه السلطان سليمان القانونى، إعادة جميع المصريين الذين أخرجوا من بلادهم فى عهد والده، ومن ثم أصدر فرمانًا عام ٩٢٧هـ / ١٥٢١م بهذا المعنى. ولما وجد أن بعض المصريين يتأخرون فى العودة أصدر فرمانًا لاحقًا فى نفس العام أنذر فيه بالشنق لكل من يتباطئ فى العودة إلى بلاده . وعقب ذلك وصل العلماء وغيرهم إلى مصر أفواجًا ، حتى أتخذت عودتهم شكل ظاهرة طرأت على المجتمع المصرى فى ذلك الوقت[١].

وتميزت الإدارة العثمانية فى مصر بأنها كانت إدارة تقليدية تنحصر وظائفها فى تحقيق الأمن العام والصحة العامة والدفاع عن البلاد. وكانت تترك فيما عدا ذلك من الشئون الإدارية لنشاط الأفراد فلم توجه عناية خاصة لشئون الزراعة أو الصناعة أو الصحة أو التعليم، تلك المهام التى تطلع بها الإدارة الحديثة. وكان هذا نابعًا من فلسفة العثمانيين فى حكم الدولة حتى القرن التاسع عشر ، فقد قامت تلك الفلسفة على أساس أن تتخفف الدولة بقدر ما تستطيع من أعباء الإدارة المباشر فتترك الرعية يديرون شئونهم بأنفسهم ، فإذا احتاجوا إلى شئ من التعليم التمسوه عند من يحسنونه ، وإذا استبد بهم داء التمسوا له الطب عند بعض العارفين ، والتعليم فى الأزهر والمساجد يسير على مألوف ما أعتاد العلماء والمجاورون من الطلاب[٢].

واستأنف علماء الأزهر وغيرهم نشاطهم العلمى والفنى، وقد تكون المدة التى قضوها فى استانبول وهى ثلاث سنوات ذات أثر على حياة الفرد ولكنها لاتكون بأى حال من الأحوال ذات أثر على مسيرة الأزهر العلمية لأن الشعب المصرى لم يبدأ من فراغ، وإنما هو ذو ماضى حضارى يطول الزمان وجوداً ، ولما جاء نابليون بونابرت إلى مصر بعد قرابة ثلاثة قرون وجد الأزهر يموج بنشاط علمى كثيف [٣].

وقد اشتهر بعض باشوات مصر العثمانيين بالعدل وتكريم أهل العلم مثل داود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ / ١٥٣٨-١٥٤٩م) فقد كان على درجة كبيرة من العلم، وقد اهتم بجمع

---

(١) محمد بن اياس الحنفى، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٥ ، ص٣٩٧ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد، الادارة فى مصر العثمانى، ص٤٣ .

(٣) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة ، ج١ ، ص١٨٣ .

الكتب العربية ونسخ له النساخ كثيراً منها فتكونت لديه مكتبة كبيرة، كان مواظبًا على الإطلاع فيها، وعلى باشا الخادم (٩٦٦-٩٦٧هـ / ١٥٥٨-١٥٥٩م) وسنان باشا (٩٧٦هـ / ١٥٦٩م) كان حكيمًا محبًا للرعية فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الأعظم من طلبة العلم، وكان شديد التعليم بالعلم وبذويه [١]. ومحمد باشا الصوفى (١٠٢٠-١٠٢٤هـ/ ١٦١١-١٦١٥م) الذى كان محبًا لأهل العلم [٢]، وجعفر باشا (١٠٢٨هـ / ١٦١٨م) الذى كانت له اليد الطولى فى غالب العلوم خصوصًا علم التفسير [٣]، وظهر بعض العلماء مثل ابن سهراب أفندى والذى كان عارفًا بعلم الرمل والزايرجية والروحانى والنجم والميقات والكيمياء إبان تولية عمر باشا (١٠٧٤-١٠٧٧هـ) ١٦٦٤-١٦٦٧م) ، وعبدالله باشا الكبورلى (١١٤٢-١١٤٤هـ / ١٧٢٩-١٧٣١م) الذى كان ميالاً للأدب ، وأحمد باشا كور (١١٦٢-١١٦٣هـ / ١٧٤٨-١٧٤٩م) ومحمد باشا ملك (١١٩٥-١١٩٦هـ / ١٧٨٠-١٧٨١م) وكان من أفاضل العلماء متضلعًا فى سائر الفنون ويحب المذاكرة والمباحثة والمسامرة وأخبار التواريخ وحكايات الصالحين وكلام القوم [٤].

وإذا كان بعض باشوات مصر قد اهتموا بالعدل وتكريم أهل العلم فإن بعضهم كان عكس ذلك مثل خضر باشا (١٧ ذى الحجة عام ١٠٠٦هـ / ٢١ يوليو ١٥٩٨م) أمر بقطع الأعطيات والجرايات التى كانت توزع على العلماء والفقراء من الحنطة، ولم يقتصر على الايقاع بهؤلاء الضعفاء ، بل تجاوزهم إلى الضابطة فأحرمهم زادهم، فتجمهروا فى ٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩هـ / ١٦٠١م وساروا إلى قاضى العسكر ثم اتحدوا والقاضى فى مقدمتهم وتوجهوا إلى الديوان يريدون الانتقام ، فقتلوا كخيا باشا وأمراء آخرين ، فخاف الباشا فسلم لهم بما كانوا يطلبونه وأعاد الأعطيات كما شاءوا وخمدت الثورة وعادت الحياة إلى مجاريها، إلا أن الباشا لم يلبث هينة حتى جاءه الأمر بالاقالة [٥].

---

(١) جرجى زيدان ، مصر العثمانية، تحقيق ودراسة وتعليق محمد حرب، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠١م ، ص٩٢ .

(٢) محمد سيد الكيلانى، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، ص١١ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشوات ، ص١٦٣ .

(٤) توفيق الطويل، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، ص٣١ .

(٥) جرجى زيدان ، مصر العثمانية، ص١٠٠ .

وبالإضافة إلى ذلك فقد ظهر بعض العلماء الذين تفوقوا فى بعض العلوم مثل الشيخ حسن الجبرتى عالمًا من أكبر علماء عصره فى العلوم الشرعية والرياضية ، تعلم الخط فأجاده والنقش على فصوص الخاتم، فأحكمه، وتعلم اللغة التركية، واللغة الفارسية فأجادهما . ثم اشتغل بالعلوم الرياضية فأتقن منها الفلك، والهندسة والحساب والجغرافيا ، والمساحة والأوقاف ، وحل الرموز، وفتح الكنوز ، وانتهت إليه الرياسة فى الصناعة، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة.

ونزل القاهرة عالم متضطلع فى الرياضة والحكمة والفلسفة ، اسمه الشيخ حسام الدين الهندى، واستقر بمسجد بمصر القديمة، فقصده الشيخ وأعجب كلاهما بصاحبه وأحبه، فلم يزل بالشيخ الهندى حتى نقله إلى داره، وأفرد له مكانًا وأكرم نزله وأنفق عليه ، وظل مقيمًا عنده حتى رحل إلى بلاده [١].

وأخذ معارف الصوفية على الشيخ العارف عبد الخالق بن وفاد، وكانت له فيها قدم، وسلك طريق السادة النقشبندية ، وحفظ القرآن فى العاشرة [٢].

وكان يدرس فى الأزهر علوم الحكمة والهيئة والهندسة والتوقيت ، وهو آخر من درسها فيه . وكان طلابه وتلامذته يقصدون إليه فى بيته لتلقى الدرس بالصناديقية ، وكان بعض تلامذته يقيم فى بيته طاعمًا كاسيًا ليتعلم ويراجع ما يشاء فى مكتبة الشيخ العامرة ، التى جعلها مباحة ميسرة لمن يشاء القراءة والمراجعة والاستفادة ، ونظراً لمكانتة راسله السلطان العثمانى مصطفى (١١٧١-١١٨٧هـ / ١٧٥٧-١٧٧٣م) وأرسل إليه الهدايا والصلات والكتب . وكانت لهذا السلطان معرفة وعناية بعلوم الرياضة والنجوم، وكذلك أهديت للشيخ الهدايا من ولاة تونس والجزائر ، وأكابر الدولة العثمانية [٣].

وكان الشيخ حسن محبًا للكتب جماعًا ، يبذل فى اقتنائها المال الكثير، فكانت داره عامرة بالكتب النادرة وبعضها باللغة التركية والفارسية مثل الشاهنامة وتواريخ العجم ، وفيها آلات فلكية وهندسية ، وأفرد فى بيته مكانًا خاصًا جمع فيه الكتب المتداولة بين علماء عصره فى الفقه، والحديث والتفسير والتوحيد والمنطق واللغة وغيرها، فكان العلماء والطلاب يجيئون

---

(١) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر، ج١ ، الطبعة الثانية، الأنجلو، القاهرة ١٩٥٧، ص٥ .

(٢) المرجع السابق، ج١ ، ص٦ .

(٣) نفسه ، ج١ ص٧،٨ .

هذا المكان ويأخذون ما يشاءون من الكتب بغير استئذان، وكان منهم من يأخذ الكتاب ولايرده ومنهم من يأخذ كتابًا ويرد غيره والشيخ سمح لايمنع [١]. وكان يجمع الحاذقين من أهل الصناعات عنده ليتعلم منهم، ويعلمهم ، حتى تعلم خدمه عنده بعض هذه الصناعات وجاء طلاب من أوروبا ليتعلموا علم الهندسة، والطب، والموازين ... الخ [١].

أما مؤلفاته فهى: نزهة العين فى زكاة المعدنيين، والأقوال المعربّة عن أحوال الأشربة ، وكشف اللثام عن وجوه محذرات النصف الأول من ذوى الأرحام ، وبلوغ الآمال فى كيفية الاستقبال، ومؤلفات أخرى فى العروض، وشرح الدر المختار، ومناسك الحج، وتقييدات على العصام والحفيد والمطول والمواقف والهداية، وحاشية على شرح قاضى زاده على الجغمينى، وبراهين هندسية شتى وغير ذلك[٢].

ومحمد بن زين العابدين بن محمد بن أبى الحسن بن أبى السرور البكرى (ت ١٢ ربيع الأول ١٠٨٧هـ / ٢٥ مايو ١٦٧٦) عاش حياة علمية حافلة، فقد اشتغل بعلوم الحديث والتفسير وعلوم القول، وأصول التصوف والتاريخ ، واشتغل بالتدريس فى الجامع الأزهر ، وله مؤلفات عديدة ، تعالج تاريخ مصر منذ بداية الحكم العثمانى وحتى الفترة التى عاصرها[٣] ولما تقدمت به السن اعتزل التدريس فى الجامع الأزهر ، واشتغل بالإفادة فى منزله، وآلت إليه رئاسة البيت البكرى. وحج إلى بيت الله الحرام فى عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م. وكان مسموع الكلمة عند العامة والخاصة وشفاعته مقبوله عند الكبراء والوزراء [٤].

---

(١) محمود الشرقاوى، المرجع السابق، ص٩ .

(٢) نفسه، ص١٠ .

٣- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى، كشف الكربة فى رفع الطلبة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ٢٣، القاهرة ١٩٧٦م، ص٣٠٤، ٣٠٥ ومن مؤلفات:

- الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة.
- اللطائف الربانية على المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية .
- المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية .
- النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية.
- الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة.

(٤) نفسه، ص٣٠ .

الشيخ عبدالله الشرقاوى ، كان من كبار الرجال فى ذلك العصر ، ورئيسًا ثلاث مرات للديوان الخصوصى الذى انشأه نابليون وخلفاؤه ، وقد كتب الشيخ رسالة فى تاريخ مصر سماها «تحفة الناظرين فى من ولى مصر من الولاة والسلاطين» . ونستطيع أن نعرف مستواه الذهنى ، ومدى فهمه للتاريخ وذلك من ثنايا صفحاته ، قيمة ادراكه الوطنى واحساسه أو رأيه فى أهل مصر [١]، وتولى مشيخة الأزهر.

والإدكاوى وقد عرف بالعمدة الفاضل الكامل، والأديب الماهر، الناظم الناثر الشيخ عبدالله بن عبدالله بن سلامة الإدكاوى ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م ، ثم قدم القاهرة فحفظ القرآن وحضر دروس العلماء وأدرك الطبقة الأولى، كالسيد على برهان زادة، نقيب الأشراف، وكبير أدباء عصره، والشيخ الشبراوى ، والشيخ الحفنى. وكان إلى تبريزه فى الشعر والنثر، جيد الخط، له فيه قاعدة اشتهرت باسمه، وتدارسها الناس فى مصر .

وقد صار ، فى الشعر ، والنثر والخط، أوحد زمانه، حتى توفى شيخه الحفنى فتغير حاله، واعترته الأمراض، ومرض أيام ثم مات، فى اليوم الخامس من جمادى الأولى سنة ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م[٢].

اسماعيل أفندى ابن خليل الظهورى (ت ١٢١١هـ / ١٧٩٦م) وهو شاعراً اشتغل بالموشحات الأندلسية فجاد منها بشئ ما . كان رجلاً قانعًا يتكسب بالكتابة، جيد الخط ، حسن الذوق فيه، كان له متجر يبيع فيه البن بوكالة البقل، بالقرب من خان الخليلى . وهو إلى ذلك له معرفة جيدة بعلم الألحان والموسيقى وضرب العود[٣]. وللظهورى بعض من الشعر يدل على أنه كان على شئ من الثقافة العلمية، استخدم فيه علم الفلك، على وجه لابأس به [٤].

وعامر الأنبوطى ، وهو شاعر ماجن ظريف، كان هجاءاً وكان يجيئ من بلده إلى القاهرة فيزور العلماء والأعيان، ويتلقى ما يتداولونه من شعر فيضع، على وزنه وقافيته شعراً آخر هازلا ، يتناول فيه الطعام، وأصناف المأكولات وكان الشعراء يكرهون ذلك منه ، ويتحامونه حتى لايحيل شعرهم إلى سخرية ، وكان الشيخ عبدالله الشبراوى يكسوه ويكرمه ، ثم يقول له

---

(١) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر ج١، ص٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ج١ ص٦٠ .

(٣) نفسه، ج١ ، ص٧٨ .

(٤) نفسه، ج١ ، ص٨٠ .

بالله يا شيخ عامر لا «تزفر» قصيدتى ، وهذه جائزتك ثم يعطيه . وكان الشيخ الحفنى يكرمه أيضًا ، ويغدق عليه يستطيب الاستماع له وكان الشاعر الأنبوطى شيخًا كبيراً صالحًا ، يكحل عينيه ، ويعنى بهيئته وهندامه . وصنع الشيخ الأنبوطى الفية فى الطعام، على وزن ألفية ابن مالك فى النحو[١].

ومصطفى اللقيمى الدمياطى، كان واحدامن أخوة أربعة كلهم شعراء وألف مقامة طويلة سماها «المدامة الأرجوانية فى المقامة الرضوانية» ألفها فى مدح الأمير رضوان الجلفى، وضمنها كثيراً من شعره ووصف فيها قصور هذا الأمير. وصفًا شائقًا بارعًا [٢].

وقد نشطت بصفة رئيسية «مدرسة التراجم» مثل ابن آياس (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) والإسحاقى (ت ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م) وقد يكون أكثر مؤرخى مصر انتاجًا فى هذه المرحلة محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى (ت بعد ١٠٧١هـ/ ١٦٦١م) وأحمد شلبى عبد الغنى (ت ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م) ونختتم هذه المرحلة بأكبر مؤرخيها وهو الجبرتى (ت ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م) الذى هو فى الواقع بداية المرحلة الثانية من تاريخ الحياة الفكرية فى العصر العثمانى فى الولايات العربية [٣].

كذلك فإن «العلوم الرياضية» من حساب وهندسة وفلك، فقد جذبت هى الأخرى الكثير من العلماء والمدرسين والمؤلفين فى علم الحساب مثلا له صلة بحاجة الناس وهو أساس فى «علم الفرائض» أى توزيع التركات على وارثيها . وعلم الهندسة أيضًا تستند إلى هندسة الأبنية المتنوعة، ولاسيما الحربية واقامة الجسور، وباختصار عملية العمران بصفة عامة. وكان هذا العمران نشيطا خلال هذه المرحلة ، سواء أكان فى ميدان المؤسسات الدينية التعليمية أم فى حقل القلاع والقصور وغيرها فى جميع الولايات العربية. أما «علم الفلك» فصلته الوثيقة بالتوقيت وبعبادات المسلم، ناهيك عن علاقته بأسفاره وحياته اليومية العملية واضحة ويلاحظ أن بعض من عمل فى ميدانها عمل أيضًا فى علوم أخرى، كالعلوم الشرعية واللغوية والتصوفية والتاريخية وغيرها. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر . الشيخ أبوبكر بن على المعروف بالجمال المصرى المقيم فى مكة (ت ١٠٠٦هـ / ١٥٩٧م) الذى عمل فى ميدان

---

(١) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر ج١، ص٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج١، ص٨٢ .

(٣) ليلى الصباغ، معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى، ضمن كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، اشراف وتقديم أكمل الدين احسان أوغلى، نقله إلى العربية صالح سعداوى، استانبول، ١٩٩٩، ج٢، ص٣٥٤ .

الحساب والفرائض والجبر والمقابلة وأعمال المناسخات بالصحيح والكسور والحل إلى جانب مشاركته التامة فى العلوم اللغوية والشرعية والشيخ حسن الجبرتى (ت ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م) الذى درس علم الفلك والهيئة ، ودرسها وأخذ عنه عدد من العلماء هذا إلى جانب شهرته بعلوم الموازين والرياضيات والعلوم الشرعية والفلكية (١).

ورضوان المصرى (ت ١١٢٢هـ / ١٧١٠م) وله عدة مؤلفات هامة فى الفلك منها (الزيج الرضوانى على أصول الجديد للسمرقندى.

وفى ميدانى علمى الحيوان والنبات، فإن علماء هذه المرحلة لم يغفلوها ، فأحيوا ما كان أسلافهم قد تدعوه فى جعليهما شرحًا وتلخيصًا وتحشية وانتقاء . وقد ألف عبد الرؤوف المناوى (ت ١٠٣١هـ / ١٦٢١م) عدة رسائل عن الحيوان والنبات (٢).

وكانت مهنة الطب والجراحة فى أيدى الحلاقين والمشايخ الذين تخصصوا فى إعطاء العلاج لبعض الأمراض عن طريق عمل الأحجبة والتمائم ضد الأمراض ، ولم يكن شائعًا أن نجد قاضيًا أو عالمًا على رأس رابطة أطباء أو رجال الدين يمارسون الطب. وكان الطب فى تلم الآونة يعتبر تجارة أكثر منه علمًا من وجهة النظر الأكاديمية، ولم يلق الاهتمام الكافى(٣). وكان اليهود أكثر إقبالاً على الاشتغال بالطب من المسلمين(٤) وأيضًا بعض الأقباط ولسيما الرهبان(٥).

ومن الأطباء تدين القوصونى المصرى (المتوفى بعد ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م) وله قاموس الأطباء من تجارب وفوائد فى الطب والتشريح مرتبًا حسب حروف المعجم . وأحمد القليونى المصرى (ت ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م) وله مؤلف «الطب والعلاج العربيان» وقد ترجم بعض فصول منه إلى الفرنسية ونشرها المستشرق الفرنسى «بنيامين رفائيل سجنتى

---

(١) ليلى الصباغ ، المرجع السابق، ج٢ ، ص٣٤٩-٣٥١ .

(٢) نفسه ، المرجع السابق ج٢، ص٣٥٢-٣٥٣ .

(٣) G. El Din Shayyal, Some Aspects of Intellcuall and Socia life Eghteenth Century in Egypt; p. 199 , Lane pool . Soical life in Egypt, p . 89 .

(٤) أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، سجلات محكمة الإسكندرية ، سجل رقم ١١ مادة ١٤٧١ ، ص٣٦٦ بتاريخ ٨ صفر عام ٩٧٩هـ .

(٥) El Shayyal, Op. cit., p. 199 .

(٦) ليلى الصباغ ، المرجع السابق، ج٢، ص٣٥٢- ٣٥٣ .

(١٨١١-١٨٣٣م) فى باريس سنة ١٨٦٦، مع معجم المصطلحات الطبيـة، وله أيضا مؤلف بعنوان «المصابيح السنية فى طب البرية وقد حققه حديثًا مصطفى هاشم محمد من مركز احياء التراث ببغداد[1].

وهناك موضوعات طبية حظيت بالاهتمام والتأليف «وباء الطاعون» وطرق التغلب عليه لكثرة ما أصاب البلاد العربية منه . وقد ألف فى ذلك الكثير من الأطباء بل من الأدباء. ومن بعض كتب فيه على سبيل المثال لا الحصر «عبد الرءوف المناوى (ت ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م) فى كتابه منحة الطالبين لمعرفة أسرار الطواعين [2].

وبالرغم من ذلك كله فقد وجد فى القاهرة خلال هذه الفترة مدرسة للطب فى المارستان المنصورى الذى استخدم كمستشفيات عادية وللأمراض العقلية ويوجد بمستشفى السلطان قلاوون (بيمارخانة) مدرسة لتعليم الطب حيث يمارس دراسة الطب ، مع الأطباء وتلاميذهم ويحضرون لكل مريض ما يوافق طبعه من الطعام والدواء . وللحكماء أتباع من المرضين لهم الجرأة وطبع الجلادين، يطعمون بعض المرضى الفاقدى العقل خسافًا من عصا الشوم فيعقلون . وقد لاحظ بعض الرحالة إذا قدم إلى مستشفى قلاون مريض مضى عليه ثلاثة أعوام أفاق فى أربعين يوما . لأن فيه حكماء كبقراط وسقراط وأفلاطون وفيثاغورث والتوحيدى وأبى على بن سينا، لكل منهم حكيم كالمسيح يحيى الموتى. والحكماء معظمهم من المصريين والعرب . وكان الدواء يحضرونها من الصعيد والواحات والحبش وبلاد الفنج وجبل القمر أنواعًا من النبات والأعشاب والحيوان لايوجد فى الهند أمثالها . فترد تلك العقاقير إلى القاهرة فيستعملها الحكماء فى علاج المرضى ، فلهذا اشتهر مستشفى قلاون فى بلاد الترك والعرب والعجم .

وخصص جانب من هذا المستشفى لعلاج النساء، وجميع خدمه من النساء، وليس به رجال غير الحكماء وهم من المحارم، فلذا يدخلونه بلا خوف ويعالجونهم[3].

---

(١) ليلى الصباغ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٢) محمد المحبى، خلاصة الأثر ، ج٢ ، ص٤١٦ .

(٣) أوليا جلبى ، سياحة نامة مصر، ترجمة محمد على عونى، تحقيق عبد الوهاب عزام، أحمد السعيد سليمان ، تقديم ومراجعة أحمد فؤاد متولى، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٣٤٧، ٣٤٨ .

وقد انحطت علوم الصيدلة ، وخاصة بالنسبة للعقاقير المستخدمة فى هذا العصر، كان ينقصها التكوين الطبى، وكانت تصنع من النباتات فى أغلب الأحيان، ومن تلك زيت اللوز المر[١]. ولعلاج بعض الأمراض يستخدم ما يعرف بالقرص من جسم الحية . ولأوقاف السلطان قلاون أربعون مستخدما يقيمون بقرية ابن الخبير من قرى الجيزة ويقومون بالخدمة مرة فى كل عام. وتلك الخدمة هى صيد الحية التى يصنع منها «ترياق الفاروق» ، وإذا حان وقت صيد الحيات وهو شهر يوليو، اجتمعوا فى موضع ولبسوا ثوبًا مصنوعًا من اللباد الغليظ ، فلم يبق من أجسامهم عاريًا إلا العيون، وربطوا بطرف عصى طويلة لباداً أبيض وذهبوا إلى جهات بهنسا والفيوم والجبل الأخضر، ثم قصدوا مبكرين الأماكن التى تعيش فيها تلك الحية ، وذلك لأن الحيات تكون مخدرة قبل اشتداد الحرارة ومع ذلك تقاتل الصيادين قتالا شديداً حتى يصطادوا منها الآلاف ويضعونها فى قفف مدهونة بالفاروق فتنام ويخيطوا فتحاتها. وقد يحدث أن تثب حية فلتدغ الصياد من عينه فتقتله . وبعد ذلك تدخل هذه الحيات فى مكان يعرف بالفارقخانة وهى مدرسة عظيمة كسيت جدرانها الداخلية وأرضيتها بالواح من الرخام . ولايدرس فيها غير الطب ، وحول حرمها أروقة ، وكانت الأروقة مفروشة ويوجد بها رئيس الحكماء (حكمباش) ثم الناظر وكاتب الأوقاف ومرشدها ، وعشرة من مساعدى الحكيمباش ، والداعى واثنا عشر نفراً من الصيادين والطهاة والجزارين . ويتم فرز الصالح من الحيات لعمل العقاقير المطلوبة [٢].

مراحل التعليم

وتشمل مراحل التعليم المختلفة فى تلك الفترة، فالمرحلة التعليمية الأولى وتشمل الكُتَّاب[٣] سواء بالنسبة للمسلمين والأقباط واليهود، والمواد التى تدرس فى كل منهم والمدرسة والمؤسسات التعليمية الأخرى مثل المساجد والربط والتكايا والزوايا والترب، وتشمل المرحلة الثانية من التعليم ، أما المرحلة الثالثة فهى التعليم العالى.

---

(١)عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ج٢ ، ص٤ .

(٢) أوليا جلبى، سياحة نامة ، ص٣٤٨-٣٤٩ .

(٣) والكتاب : موضع تعليم الكتاب أى الكتابة، ولكن استخدام الكتاب للقراءة والكتابة ولاشئ سواهما ، ولما كان الصبيان هم الذين يتعلمون فى هذا الكتاب وهم الذين يتعلمون فى المعهد الآخر الذى كان مخصصًا لتعليم القرآن والدين، فقد كان ذلك سببًا فى أن أطلق اسم الكتاب على المعهد الثانى أيضًا ، =

١- الكتاب :

والكتاب يقوم مقام مدارس المرحلة الأولى فى وقتنا الحاضر، حيث يبدأ الطفل مرحلة التعليم الأولى، وقد عرفت مصر نوعين من الكتاب هما، الكتاتيب الخاصة ، وهى التى يدفع والد الطفل أجرة تعليمه ، والمكاتب العامة، وهى التى أنشئت بهدف تعليم الإيتام والفقراء ، ويصرف عليها من الأموال الموقوفة وتصرف منها على حسب شروق الواقف [١].

ومنذ قيام الدولة العثمانية ، أن لم يكن قبل ذلك كان النمط الوحيد من التعليم فى البلدان الإسلامية يكاد يقتصر على التعليم الدينى. وكانت مكاتب تحفيظ القرآن هى الأساس العام لكل أنواع التعليم، سواء أكان مدنيًا أم إداريًا أم فنيًا أم دينيًا. ومن المحتمل أنه لم يوجد إلى جانب هذه المكاتب أى تنظيم اجتماعى آخر، نجح فيه الروح العالمى للإسلام نجاحًا كاملاً فى فرض التماثل على كافة أرجاء العالم الإسلامى الذى انتشرت فيه موضوعات هذا التعليم الابتدائى وطرائقه التقليدية المتبعة[٢].

وقد أنشئ فى وقفى أمير الأمراء خاير بك والأمير جانم الحمزاوى مكاتب لتعليم يتامى المسلمين القرآن الكريم، والعبادات والخط العربى[٣] وقام بعض الولاة بإنشاء بعض المكاتب لنفس الغرض مثل مسيح باشا الخادم (٩٨٢-٩٨٨هـ / ١٥٧٥-١٥٨٠م)[٤] وأيضًا أبو النور

= ثم شاع هذا الإطلاق ، وأصبح اسم الكتاب يطلق على المعهد الذى يتعلم فيه الصبيان أيا كان الموضوع الذى يعلمونه قرآنًا كان أو قراءة وكتابة (انظر : ابن منظور ، لسان العرب، مادة كتب، ج٢ ، ص١٩٢ ، وانظر: أحمد شلبى ، تاريخ التربية الإسلامية، ص٤٨) .

ووجد هذا النوع من الكتاتيب قبل ظهور الإسلام ، ولو أنه كان قليل الانتشار ويقال أن أول من تعلم الكتابة بالعربية من أهمل مكة هو سفيان بن أمية ابن عبد شمس ، وأبوقيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وقد تعلماها من بشر بن عبدالملك الذى تعلمها من الحيرة . والذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية، ويقال حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدرة ، (انظر : أحمد شلبى، المرجع السابق، ص٢٤) .

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطى، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص٩٩ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، حفاظ العثمانيين على التراث الإسلامى، المجلة العربية للعلوم الإنسانية العدد ٣١، المجلد ٨ ، صيف ١٩٨، ص١٣٧-١٣٨ .

(٣) جميل عرفة منتصر ، دور علماء الأزهر فى مصر العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ص١٣٤ ،رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الاسكندرية١٩٨٣م .

(٤) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب بمن تولى مصر من الملوك والنواب، ص١٤٦ .

محمد باشا (١٠٦٣-١٠٦٦هـ/ ١٦٥٣-١٦٥٦م)[١] وقرة محمد باشا (١١٠١١-١١١٦هـ / ١٦٩٩-١٧٠٤م) الذى أنشأ مكتبًا للفقراء يقرؤن فيه القرآن الكريم، وجعل لهم من الجرايات من يكفيهم [٢]، وكان للأمراء المماليك جهود فى هذا المجال مثل مصطفى جوربجى[٣] مستحفظان ، الذى أنشأ مكتبًا فى عام (١١١٦١هـ / ١٧٠٠م) وعين له فقيه مؤدبًا للأطفال وعريف ليُعين ذلك الفقيه، وخصص له راتبًا شهريًا يصرف من الوقف المخصص له [٤].

ويتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات ، فى نفس الوقت الذى يتدربون فيه على نطقها . وينحصر تعليمهم الأولى فى هذا ويردد التلاميذ بصوت عال، وهم متجمعون داخل فناء الدروس التى سبق أن تلقوها. وهنا يحدث ضجيج ، وعلى المؤدب أن يكون متعوداً عليه، فكان الأطفال يستذكرون دروسهم بطريقة الغناء[٥] أما الحساب فيتعلمونه فى مرحلة لاحقة ويتعلمها عند قبانى القرية أو أحد أصحاب حوانيتها [٦]، ويحفظون بعض الآيات القرآنية[٧] وأصبح القرآن نقطة الارتكاز فى هذه الدراسة[٨].

---

(١) يوسف الملوانى، المرجع السابق، ص١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٦٧ .

(٣) جوربجى : أو شوربجى حرفيًا رجال الشوربة أو ممونوا الشوربة وهو المسئول عن طعام الأورطه لأن القوات الإقطاعية لم تكن تقبض رواتب من الدولة ، بل أيضًا لاتلقى منها مؤنتها اليومية . ويبدو أن الألقاب المخلوعة على كثير من رتب سلك الضباط توضح أن المهمة الرسمية لأصحابها هى مواجهة هذه المشكلة قبل كل شئ (انظر : هاملتون جب، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسينى، ج٢ ، ص١٧٦) . وكان هذا الاسم يطلق فى الاستعمال العثمانى على ضباط الانكشارية وعلى مختارى القرى المتقدمين فيها أو بعبارة أخرى على أعيان الجهات (انظر : محمد شفيق غربال، مصر عند مفترق الطرق، ص٢١ ، هامش رقم ١) .

(٤) جميل عرفة منتصر ، المرجع السابق ، ص١٣٥ .

(٥) H. Dunne : An Introduction to the History of Education in Modern Egyt , p. 3 .

(٦) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عهد محمد على، القاهرة ١٩٣٨، ص١٣ .

(٧) ج. دى شابرول ، دراسات فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، المجلد الأول، ترجمة زهير الشايب، ص٦١ ، جومار وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة أيمن فؤاد، ص٢١٣، إدوارد لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلى طاهر نور، ص٥٦ .

(٨) P. J . Valikitis, The Modern history of Egypt , p. 22 .

ويرى أحمد عزت عبد الكريم أن هذه لاشك طريقة حسنة فى التعليم ، لايخرج عنها كثيراً مبدأ التعليم الفردى الذى تنادى به التربية الحديثة الآن ، ذلك المبدأ الذى يبث فى التعليم روحًا من المرونة يلائم قدرات الطفل وميوله . وكان أحرانًا نحن تتبع هذه الطريقة ثم نلائم بينها وبين ما يقتضيه العصر من اصلاح لولا أنا درجنا على أخذ تقاليدنا عن أوربا بعد أن تصبغها هذه بصبغتها العلمية الحديثة.

غير أن هذه الطريقة المثلى فى التعليم قد شوهها الحفظ والاستظهار وإهمال التهذيب العقلى للناشئ ، فكانت نتيجة ذلك أنه لم ينبت شئ مما بذر وإن نبت فإنه لم ينضج وكلما كبر الولد نسى القراءة والكتابة لأنه قلما تسنح له فرصة لدوام المران عليها ولأنها كانتا مرتبطين أكبر ارتباط بحفظ القرآن[١] .

وعندما يحرز الأطفال تقدمًا فى القراءة والكتابة، يبدأ التعليم بطريقة الإملاء . ولايكلف المعلون أنفسهم مطلقًا عناء تعليم تلاميذهم لا الصلاة ولا القوانين التى فرضها الرسول ﷺ، ويلتزم الآباء بتعليم قواعد الشريعة فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الأب دروسه الأولى[٢].

ويكتب الدرس عادة على ألواح[٣] من الخشب المصبوغ بالأبيض، تمسح بعد كل درس ويكب عليها الدرس الجديد[٤] ثم يتعلمون بعد ذلك الكتابة بالمداد، ومما يذكر أن معلم الخط غير معلم القرآن، علمهم بكتب الأشعار وسواها، ولايكتبون القرآن فى الألواح تنزيهًا له، فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتب لأن معلم الخط لايعلم غيره[٥] ويجلس جميع التلاميذ مربعى السيقان[٦].

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص١٤ .

(٢) أحمد شلبى ، المرجع عالسابق ، ص٥٥ .

(٣) إدوارد لين، المرجع السابق، ص٤٥-٥٥ ؛ محمد كامل الفقى، الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة، ص١٩ .

(٤) إدوارد لين، المرجع السابق، ص٥٦ .

(٥) جومار، المرجع السابق ص٢٤ .

(٦) إدوارد لين، المرجع السابق، ص٥٥؛ دى شابرول ، المرجع السابق، ص٦٠ ؛
Dunne, op . cit , p. 4 .

وبالنسبة لسن الالتحاق فى هذه المرحلة فيتراوح ما بين الرابعة أو الخامسة ، فالذى يهمه تعليم طفله يحرص على أن يجعله فى هذا السن أحيانًا يتردد على المكاتب حتى يتعود على شكل الحروف، ولكى يدركها دون مشقة كبيرة(١). وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخًا وهو أصل لما بعده، لأن السابق للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال بنى عليه(٢) فإذا بلغ الطفل الحلم صرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر(٣).

أما نظام التغذية فى هذه المكاتب ، فإنه كان يمنع الأطفال من إحضار الطعام معهم إلى المكتب أو إحضار النقود لشراء احتياجاتهم أثناء الدراسة لأن ذلك يؤثر بشكل ضار على نفسية وإحساس الطفل الفقير الذى يعود إلى بيته (٤)، وأحيانًا يسمح للأمهات أن ترسل وجبات لأطفالهن، ويقتسم هؤلاء الأطفال طعامهم مع زملائهم المعوزين ، وهذه العادة تتبع عن معتقدات ، فبهذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خيرين، وكيف تنمو مع نموهم هذه الميول الخيرة التى تحض عليها مبادئ الدين(٥).

وكان هناك الإشراف الصحى على الأطفال ، فإذا اشتكى أحد أطفال المكتب من مرض أو تعب، يبلغ فوراً ولى أمره لعلاجه ، وفى نفس الوقت لحماية باقي الأطفال من العدوى(٦).

أما نظام العقاب داخل هذه المكاتب ، فقد وجدت العقوبات فيها، وأصبحت عصا المعلم شيئًا لايخلوا منها كتاب قط، وشاعت عنها عبارة عصا المعلم من الجنة، ومن أجل هذا كان المؤدب يستطيع أن يضرب الطفل أكثر مما يستطيع أقرب الناس إليه ، وكانت الأم تقبل أن يضرب المؤدب أبنها، ولكنها تتدخل فى حالة إن ضرب والده له ، وذلك لأن عصا المعلم من الجنة، ولكن عصوات الآخرين ليست كذلك(٧).

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٤٣٩ .

(٢) سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص٣٢٦ ؛ جومار، المرجع السابق ص٢١٣ .

(٣) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص١٠٢ .

(٤) شابرول ، المرجع السابق ، ص٦٠؛ إدوارد لين، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٥) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق، ص١٠٣ .

(٦) المرجع السابق، ص١٠٣ .

(٧) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص٢٢٠؛ عبد الحليم منتصر، دور العرب فى تقدم العلوم، ص٦٣ .

وأبيحت العقوبات البدنية للصبيان الذين تجاوزوا العاشرة من أعمارهم ولم يبلغوا الشباب، فلايجوز ضرب الأطفال قبل العاشرة ، ولاضرب الذين تقدمت أعمارهم. ولايستطيع المؤدب أن يلجأ إلى العقوبة البدنية إلا عند الضرورة القصوى ، ويجب عليه ألا يكثر استعمالها ، وإذا استعملها فيجب ألا يكون منشقًا قاسيًا ، بل مؤدبًا رحيمًا، ويكون الضرب بالدرة على أن تكون رطبة مأمونة ولايضرب على الرأس ولا على الوجه، بل يضرب على الأفخاذ وأسافل الرجلين لأن هذه المواضع لايخشى منها مرض ولاغائلة(١).

أما عن نظام المكافآت للطفل نظير تفوقه فى مسابقة تسمى جائزة ، ومنها ما يستحقه نظير تفوقه بدون مسابقة ويسمى مكافأة ، وإن كان أغلب الكتاب يتحررون مع ملاحظة وجه الخلاف بين اللفظين فيصفون كلاً منها فى موضع الآخر فى كثير من الآحايين ، وكثيراً ما كان مؤسسوها يجعلون لها حصيلة خاصة فى أوقافهم(٢).

وإذا تم التلميذ المرحلة الأولى وهى حفظ القرآن الكريم، احتفل به احتفالاً كبيراً يسمى «الاصرافة» فتزين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحرير ويقوم أهل الطفل بزينته بقلائد الذهب والعنبر، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقًا فيها ثياب من حرير وعمائم ، على حين مشى بين يديه بقية الصبيان ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته ، وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأهل صاحب الأصرافة وعليهم تقديم هدية قد تكون عينية فى شكل ملابس وهى عبارة عن عمامة وقفطان وزوج من الأحذية ، أو مالية وهذا على حسب مقدرة الوالد المالية(٣).

ويجب ملاحظة أن أمر إهداء المؤدب هدية يصبغ فى حكم العرف سائر المواسم والأعياد شرط أن تكون هبة من أهل الصبى غير إجبارية، له بشرط ألا تؤثر على نوعية المعاملة التى يلقاها الصبية من المؤدب ، فإن من حقهم جميعًا على مؤدبهم أن يعدل بينهم فى التعليم والمعاملة ، ولايفضل أحد منهم على الآخر بغض النظر عما يقدمه البعض من الهدايا وأن يكون الصبيان عنده بمنزلة واحدة سواء من كان منهم غنيًا أو فقيراً (٤).

---

(١) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص٢٧٤ .

(٢) نفسه ، ص٢٧٥ .

(٣) إدوارد لين ، المرجع السابق، ص٢٦ ؛ سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص٢٣٦ ؛ Dunne, op. cit, p. 36 .

(٤) عبد الغنى محمود عبد المعطى ، المرجع السابق ، ص١٠١ .

من الأمور المعتادة أن يكون هناك مكتب فوق كل من الأسبلة التابعة للجوامع التى بناها السلاطين، بالإضافة إلى أسبلة الوزراء والوكلاء والأعيان والأثرياء، ويحفظ الصبية القرآن الكريم داخلها .

ومن الملاحظ أنه فى النصف من رمضان جمع معلمو كتاتيب السلاطين والوزراء والأعيان الأطفال الذين يعلمونهم وهم من الأيتام والفقراء وعلى صدورهم ألواح مكتوب عليها آيات من كلام رب العزة وساروا معهم مارين بالأسواق يصيح بعضهم «ياحنان» وبعضهم «يا منان» وذهبوا إلى ناظر الكتاب الذى خلع على كل صبى ثوبًا من النسيج المصرى، وعراقية حريرية ، وأربعين أو خمسين بارة مصرية من الأوقاف الخيرية وهى رواتبهم ، وإذا تم ذلك انصرفوا عائدين فرحين مسرورين متصايحين «يا حنان يا منان» وتستمر هذه الحركة من نصف رمضان حتى يوم الوقفة ، فتشاهد الصبية رائحين غادين بين الكتاتيب ودور نظارها، كأنهم يتظاهرون، أنها لأوقات عظيمة حقا[1].

أما كتاتيب الأتراك وهى لسيت مبنية على أسبلة مزخرفة ، وإنما هى فى حوانيت الخطاطين المهرة والمعلمين فى داخل الأحياء، يتعلم الصبية القراءة والكتابة والحسابات ، وعلم القراءات وليس لها صبية من أبناء المصريين ومعلمو الأتراك يسكنون بتلك الأماكن[2].

هذه هى «الكتاتيب» إلى عصر محمد على كما كانت منذ نشأتها ، أصابها ما أصاب التعليم كله فى مصر من روح الجمود . ولو أنها تابعت الزمن فى تطوره فعلمت طرفًا من مبادئ العلوم الحديثة، واعتنى باعداد مدرسيها وبوعد بينها وبين الحفظ والاستظهار مع احتفاظها بطريقته التعليمية القائمة على الفردية، لكان لنا الآن تعليم أولى صالح يتفق وحاجة البلد ولايخجل أن يواجه طرائق التربية الحديثة.

وجاءت حكومة محمد على، وكانت تدفعها أغراض عاجلة ملحة ، رأت معها أن هذه المكاتب على حالتها تلك لاتستجيب لها فى تحقيق هذه الأغراض، ولهذا لم تأبه لتحويلها إلى مدارس تسير فى تعليمها على النظام الحديث بل أهملتها وأنشأت بجانبها مدارس على النسق الأوروبى. أما هذه المكاتب فلم تأبه إذ ذاك لهذه النزعة الحديثة فى التعليم ، وآثرت كما فعل الأزهر أن تسير فى طريقها الذى درجت عليه وجمدت أمام التطور[3].

---

(١) أوليا جلبى، سياحتنامة مصر، ص٣١٦، ٣١٧ .

(٢) المرجع السابق، ص٣١٧ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص١٥ .

أما نظام الكتاتيب عند الأقباط فانه يختلف عما عند المسلمين ، فأولاً يتعلم الأطفال الدين والسلوكيات الطيبة والقراءة والكتابة باللغة القبطية ، ويتعلمونها عن طريق الأغانى ثم بعد ذلك مزامير داود[١]، ورسائل الرسل باللغة العربية ثم الأناجيل باللغة القبطية[٢]، ويتعلمون أيضًا الحساب وقياس الأراضى[٣]، أو الإشراف على بعض الصناعات التى كانت منتشرة خلال هذه الفترة[٤].

ويرسل الأقباط أولادهم إلى مدارس صغيرة، ويتمتع بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز، لكن الفتيات لايستطعن الذهاب إلى المدرسة إلا بموافقة أمهاتهن اللاتى يعترضن على ذلك فى بعض الأحيان، وقد لوحظ أنه فى القاهرة لاتوجد فتاة واحدة تتعلم، وعلى العكس من ذلك فى الصعيد حيث يذهبن إلى المدارس هناك مثل الأولاد ولاينقطعن عن الذهاب إلى المدرسة فى سن الثامنة أو التاسعة وهو السن الذى يبدأن فيه فى التشكيل ولايعدن أطفالا[٥].

وكانت هذه المكاتب محاطة بجو من السرية، فكانوا يقيمونها فى الأحياء البعيدة أو فى جوف المنازل[٦]. واكتسب مكاتبهم شهرة خاصة فى تعلمهم الحساب وبيد أن تلك الشهرة قد أقنعت بعض المسلمين بتفوق الأقباط فى علم الحساب، فأخرجوا أولادهم من مكاتب المسلمين وأرسلوهم إلى تلك الكتاتب لكى يتعلموا الحساب ، وعرف أغنياء المسيحيين نوعًا من التعليم المنزلى لأطفالهم[٧].

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عهد محمد على، ص٦٦٨؛ كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمود مسعود، ج٢، ص٢٠٦ ؛ دى شابرول ، المرجع السابق، ص٦٢ .

(٢) ادوارد لين، المرجع السابق ، ص٤٥٢ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص٦٦٨ .

(٤) على مبارك ، الخطط التوفيقية، ج٩ ، ص٨٧ .

(٥) ج. دى، المرجع السابق، ص٢١ .

(٦) أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص٦٦٨ ؛ . Dunne , op. cit ., p. 185

(٧) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى، ص١٤٢ .

وإذا كان بعض المسلمين قد ألحقوا أبنائهم بالمكاتب القبطية ، فان طلاب العلم من غير المسلمين قد ألحقوا فى مسجد قرطبة، وكانوا يفدون من شتى بلاد أوروبا وخاصة من روما للدراسة هناك. وقد وصل أحدهم إلى كرسى البابوية ، وكذلك يقال عن الجامع الأزهر ، فالى يومنا هذا يحضر الكثيرون من غير المسلمين الدروس فيه إلى جانب الألوف من المسلمين الذين ينهلون العلم من موارده التى لاتنضب [١].

أما بالنسبة لتعليم الأطفال عند اليهود فلم يكن لهم نظام ثابت بسبب وجود اليهود فى الشتات، وكان التعليم يبدأ لديهم بشكل عام بتعليم أطفالهم فى المنازل تعليمًا خاصًا ، أو فى مدرسة أعدت لغرض التعليم الأولى[٢].

ولم يكن هناك معلومات كافية لأن اليهود كانوا يعيشون فى حى خاص بهم فى القاهرة[٣].

ولذلك كان التعليم عندهم ينصب أساسًا على تعلم أطفالهم القراءة والكتابة وبعض الأدعية والصلوات التى كانوا يتلونها فى صلوات السبت والمناسبات الدينية، ويطلب من المؤدب تعليم الأطفال القراءة فى النواحى الأربع للورقة رغبة فى الاقتصاد وبسبب ارتفاع أثمان الكتب وأجور النساخين ، وكان ذلك في مكاتبهم الخاصة والتدريس يتم باللغة الإيطالية والعبرية والفرنسية بالإضافة إلى مبادئ الحساب والجغرافيا[٤].

أما المتقدمين فى السن من اليهود فيتعلمون التلمود مرة كل أسبوع أما عن سن الالتحاق بهذه الكتاتيب فكانت تتراوح بين ثلاث سنوات وست سنوات [٥].

أما طريقة شرح الدروس فكان المؤدب يشير إلى الحروف بعصا من الخشب فيتبعه على الأثر له رنين ونغم فى الوقت الذى يهز فيه التلاميذ رؤسهم إلى الخلف والأمام دون انقطاع[٦].

---

(١) حسين مؤنس ، المساجد ، ص١٧١

(٢) قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق، ص١٤٢ .

(٣) Dunne, op. cit, p. 91 .

(٤) محمود الشال، تاريخ مدارس الطوائف الدينية ومدارس الجاليات الأجنبية فى مدينة الاسكندرية فى القرن التاسع عشر، ص٨٥ ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب بالاسكندرية، جامعة الاسكندرية، ج١، ١٩٨٤م.

(٥) إلياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل، ص٢١٥ .

(٦) محمد فؤاد شكرى، بناء دولة مصر محمد علي، السياسة الداخلية، ص٢٨٧ .

٢- المدارس :

كانت المدارس هى المرحلة التالية للتعليم الأولى، ولذلك كانت المدرسة فى مصر القديمة تتألف من قاعة ذات أفنية وبهو وأعمدة ويستقر فيها تمثال رب الآداب والعلوم ومقاعد للأساتذة وصناديق للكتب تتكون منها مكتبة وهى تشهد بفخامة الدور الحكومية التى كثيراً ما منى المدرسون تلاميذهم الصغار بالالتحاق بها[١].

أما فى العصر الإسلامي ، فيعتبر عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م حداً فاصلاً فيما يختص بأمكنة التعليم عند المسلمين ففى هذا العام افتتحت فى بغداد أول مدرسة من مجموعة المدارس الكثيرة المنظمة التى انشأها الوزير السلجوقى نظام الملك، وقد انتشرت هذه المدارس فى العالم الإسلامى حتى شملت البلدان والقرى الصغيرة، بالإضافة إلى المدارس الكبرى فى عواصم الأقاليم، ثم اقتدى بنظام الملك كثير من الملوك والعظماء[٢].

ولم تكن فى مصر مدارس فى عهد الطولونيين والإخشيدين، فكانت الدروس تلقى فى قصور الأمراء والوزراء وفى منازل العلماء[٣].

أما فى الدولة الفاطمية فسارت على أن يعقدوا مجالس علمية صاخبة من حين إلى آخر، وقوام هذه المجالس أساتذة دار الحكمة الذين كانوا ينقسمون إلى جماعات تبعًا لمواد دراستهم وتخصصهم ، فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل، وهناك الفقهاء، والمحدثون، وفى مكان ثالث علماء الرياضة ، ويشغل الأطباء مكانًا رابعًا وهكذا [٤].

وفى الدولة الأيوبية أنشئت الكثير من المدارس مثل المدرسة الناصرية[٥] لتدريس الفقه الشافعى، والصلاحية التى بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب وكانت المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى[٦] ولعبت هذه المدرسة دوراً هامًا فى خدمة الفكر

---

(١) أحمد شلبى، تاريخ التربية فى الإسلام ، ص٤٣ .

(٢) نفسه، ص٩٣ ؛ عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، ص٥٤ .

(٣) أحمد شلبى، المرجع السابق، ص٥٤ .

(٤) نفسه ، ص٩٤ .

(٥) تقى الدين المقريزى ، الخطط المقريزية ، ج٢، ص٣٦٢ .

(٦) إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى الشهير بابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج٤، ص٩٣ .

الإسلامى[١] والقمحية[٢] لتدريس الفقه الملكى وسميت بهذا الاسم، لأنها كانت توزع على مدرسيها ومعيدها وطلبتها قمحًا ، والمدرسة السيوفية [٣]، لتدريس الفقه الحنفى، أما نظام التخصص الدقيق، فقد أختصت كل مجموعة معينة بتدريس مذهب معين من المذاهب[٤].

وكان المماليك يكثرون من إنشاء المدارس، ويرجع ذلك إلى حرصهم على الظهور فى صورة حماة العقيدة الإسلامية السنية؛ العاملين على نشرها وذلك لينسى لهم رعاياهم ماضيهم الذى ارتبط بالرق، فضلا عن اغتصابهم الحكم من بنى أيوب وأرادوا أيضًا أن يظهروا بمظهر المتصلين والمشجعين للثقافة الإسلامية واللغة العربية ولاسيما بعد انتهاء الأخطار الكبرى الخارجية والتى تمثلت فى الصليبيين والمغول . وليتخذوا من المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم فى أيديهم وتساعدهم على تدعيم مركزهم فى أعين الشعب . بالإضافة إلى ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ؛ مما أكسب المماليك مركز الزعامة الروحية فضلاً عن زعامتها السياسية فى العالم الإسلامى[٥].

وكانت نتيجة تحكم مصر فى مسارات تجارة العصور الوسطى، وحصولها على أرباح هذه التجارة؛ ووجود فائض لديها من هذه الأرباح مكنها من إقامة المؤسسات التعليمية والدينية والاجتماعية[٦].

وليس ذلك بالسبب الوحيد الذى دفع إلى الاستكثار من بناء المدارس وترتيب الأوقاف للصرف من ريعها على المدرسين والطلبة؛ فثمة سبب آخر يتعلق بالحياة السياسية الداخلية فى عصر المماليك؛ وما اتسمت به من عدم استقرار . إذ أن الأمراء، بل والسلاطين أنفسهم كانوا يتعرضون لحوادث المصادرة والسجن مما جعلهم يرون فى الأوقاف وسيلة وملجأ يلجأون إليه عند الضرورة ؛ وضمانًا لذريتهم من بعدهم [٧].

---

(١) أحمد شلبى ، مصر مركزا للدراسات الإسلامية فى عصر الجبرتى؛ ضمن أبحاث ندوة الجبرتى؛ ص٤٢٨ .

(٢) المقريزى ، المرجع السابق، ج٢، ص٣٦٥ .

(٣) المقريزى ، المرجع السابق، ج٢، ص٣٦٥ ؛ وابن دقماق، المرجع السابق، ج٤، ص٩٤ .

(٤) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة؛ ج١ ص١٠٥ .

(٥) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٥٥-١٥٦ .

(٦) نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومواصلاتها فى العصور الوسطى، ص٢٧٨ .

(٧)عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص١٥٤ .

وكانت وظيفة المدرسة هى فى الأساس تأدية الوظيفة التعليمية، وبالرغم من ذلك فقد أقيمت بها الشعائر الدينية واتخذت كمسجد تقام فيه الصلوات المفروضة وصلاة الجمعة والعيدين أيضاً[١].

ومن المدارس العديدة التى انشأها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطت الظاهر بيبرس عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م، والمدرسة الناصرية التى شيدها الناصر محمد عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م ومدرسة السلطان برقوق عام ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م . ولم يقتصر إنشاؤهم المدارس فى المدن الكبرى ، ولكنهم شيدوا العديد منها فى القرى مثل مدرسة سرياقوس التى انشأها السلطان برسباى[٢].

أما الأمراء المماليك فقد انشأوا العديد من المدارس منها المدرسة الطيبرسية، وقد بناها الأمير علاء الدين طيبرس عام ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م [٣]. والمدرسة الأقبغاوية التى بناها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد استادار عام ٧١١هـ / ١٣٤٠م [٤]. وقد قام الأمير عبد الرحمن كتخدا بتجديد هذه المدرسة فيما بعد [٥]. والمحمودية التى بناها الأمير جمال الدين محمود عام ٨١١هـ / ١٤٠٨م[٦] ومدرسة الجوهرية التى بناها جوهر القنبقائى عام ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م ومدرسة جانبلاط التى أسسها عام ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م[٧].

ومع كثرة ما كانت تملك مصر من جوامع ومساجد ومدارس وزوايا وخوانق قبل ضم العثمانيين لها فى عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، فإن الولاة العثمانيين واداريهم الكبار، لم يألوا جهدا فى انشاء الكثير من المؤسسات الدينية التعليمية فى القاهرة عاصمة الولاية، وفى بعض المدن المصرية الأخرى، وقد توالى هذا حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، أى بعد نجاح

---

(١) المقريزى ، المرجع السابق، ج٢ ص٣٦٥-٣٩٧ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص٣٣١؛ إبراهيم طرخان، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط، ص٣٢٥ .

(٢) المقريزى ، المرجع السابق، ص٣٢٥ .

(٣) نفسه، ص٣٨٢ .

(٤) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة ، ج١، ص٢١٤ .

(٥) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق، ج١ ، ص٢١٥ ؛ جومار، المرجع السابق، ص١٨٦ .

(٦) جومار ، المرجع السابق، ص١٨٦ .

(٧) المقريزى ، المرجع السابق، ج٢، ص٣٩٥-٣٩٧ .

المماليك فيها فى النصف الثاني من هذا القرن، بتحقيق استقلال ذاتى عن السلطنة العثمانية. فقد بنى خاير بك[١] أول ولاة الدولة العثمانية فى مصر، مدرسته سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م وعرفت بجامع خاير بك ومثله فعل الوالى سليمان باشا الخادم [٩٣٣-٩٤١هـ / ١٥٢٧-١٥٣٥م] وتولاها ثانية [٩٤٣-٩٤٥هـ/ ١٥٣٦-١٥٣٨م] فقد أقام عدة جوامع ومنها جامع «بولاق» وجامع سيدى سارية بقلعة الجبل[٢] وبقى يبنى فيها حتى بعد انتهاء مدة ولايته فاليه تنسب «تكية السليمانية» [٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) التى ذكر النقل عليها عند تأسيسها بأنها مدرسة[٣] ورفع الوالى داود باشا سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م، ببنيان المدرسة الداوودية[٤] وأقام الوالى اسكندر باشا [٩٦٣ / ٩٦٦هـ / ١٥٥٦-١٥٥٩م] جامعًا فى باب الخرق مع تكية تجاهه ووقف عليها أوقافا كثيرة ، وشيّد الوالى محمود باشا [٩٧٣-٩٧٥هـ / ١٥٦٦-١٥٦٨م] جامعه عام (٩٧٥هـ / ١٥٦٨م] . وانشأ الوالى سنان باشا [٩٧٩ - ٩٨١هـ / ١٥٧١-١٥٧٤هـ] عدة جوامع وربط وتكايا وأشهرها جامعه ببولاق والاسكندرية[٥] وبنى الوالى مسيح باشا [٩٨٢ / ٩٨٨هـ / ١٥٧٥-١٥٨٠م] جامعًا فخمًا بباب القرافة للعالم الشيخ نور الدين القرافى وهو المعروف بـ «مسجد مسيح» أو بالمدرسة المسيحية[٦] وفى سنة ١٠١٩هـ / ١٦١٠ شيّد عثمان أغا «أغا دار السعادة لصالح » الملكة صفية» الجامع الذى سمى باسمها[٧] وفى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى / آخر القرن السابع عشر الميلادى، أسس الوالى «اسماعيل باشا (١١٠٧-١١٠٩هـ / ١٦٩٥-١٦٩٧م، المدرسة الاسماعيلية[٧] وخلال هذا القرن أيضا انشأ السلطان محمود الأول عام ١١٦٤هـ /

---

(١) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية، ج٦ ، ص١٦ .

(٢) محمد بن أبى السرور البكرى ، المنح الرحمانية، تحقيق ليلى الصباغ ، ص ١٥٧ .

(٣) ليلى الصباغ ، المرجع السابق، ج٢، ص٣١٦ .

(٤) على مبارك ، المرجع السابق، ج٥، ص٢٣١، ٢٣١؛ ليلى الصباغ، المرجع السابق، ج٢، ص٣٢١ .

(٥) ليلى الصباغ ، المرجع السابق، ج٢ ، ص٣٢٢ .

(٦) المرجع السابق، ج٢ ، ص٣٢٢ .

(٧) على مبارك ، المرجع السابق، ج٦، ص٢-٤ ، ليلى الصباغ ، المرجع السابق، ج٢، ٣٢٢ ، أحمد شلبى عبد الغنى، المرجع السابق ، ص١٩٩ .

١٧٥١م سبيلاً وتكية، وضعت فى نقش تأسيسها بأنها مدرسة مثل التكية السليمانية، وقد بنيت الاثنتان على النمط الهندسى لمدارس استانبول [١].

وسار الأمراء المماليك على هذه السياسة ، ولم يكتفوا بالتأسيس الحديث للجوامع وانما سعى الولاة وكبار العاملين فى ادارة الولاية ومعظمهم من المماليك بترميم عدد من المدارس والجوامع وتجديدها لا فى القاهرة فحسب ، وإنما فى بعض مدن مصر الأخرى . فقد قام ابراهيم أغا مستحفظان عام ١٠٦٢هـ / ١٦٥١-١٦٥٢م ، بترميم جامع «اق سنقر» فى القاهرة[٢] «وحسن أغا» بتجديد جامع السلطان حسن عام ١٠٨٢هـ / ١٦٧١م، وفى القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى فى عام ١١٤٨هـ / ١٧٣٥م، قام أحمد كتخدا الخربوطلى بتعمير جامع الفاكهانى الذى كان قد شيده الفاطميون عام ٥٤٣هـ / ١١٤٧م، وفى عام ١١٧٣هـ / ١٧٥٩م جدد عبد الرحمن كتخدا المدرسة السوفية ووسع الجامع الأزهر وجمّله[٣] وعمّر على بك الكبير الذى حكم مصر حكما شبه استقلالى [١١٦٨-١١٨٧هـ / ١٧٥٤-١٧٧١م] ، جامعة وقبة ومدرسة فى مدينة طنطا، سميت بالمعهد الأحمدى، ورتب فيه فقهاء ومدرسين وطلبة[٤] وبنى محمد بك أبو الذهب مدرسته عام ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م تجاه الجامع الأزهر وزوّدها بمكتبة كبيرة[٥].

وبالنسبة لتصميم المدرسة فى العصرين المملوكى والعثماني فكانت فى الغالب أربعة أيوانات متعامدة متقابلة أكبرها إيوان المحراب وأصغرها الإيوانان الجانبيان ، ويتوسطهما فى الغالب صحن مكشوف به الفسقية وألحق بالمدرسة مدفن للمنشئ ، وسبيل يعلوه مكتب لتعليم الأيتام، عدا مسكن للطلبة والمدرسين [٦]. ولذلك أصبحت المدرسة أقرب ما تكون إلى

---

(١) ليلى الصباغ ، المرجع السابق، ج٢، ص٣٢٢ .

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٣٢٣ .

(٣) سجل القسمة العسكرية أرقام ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، مواد ٥٨١ ، ٨٠٠، ٨٢١ ، الجبرتى، المرجع السابق ج١ ، ص٦ .

(٤) محمد رفعت رمضان، على بك الكبير، ص١٢٠ .

(٥) نفسه .

(٦) المقريزى ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٠١ ؛ محمد عبد الستار عثمان، وثيقة وقف جمال الدين يوسف الاستادار، دراسة تاريخية وثائقية ، ص٨٧ .

الخانقاه[١] وفى بعض الحالات خانقاه بالفعل ، ففى بعض الأحيان كان الطلبة أنفسهم الصوفية المنزلين بالخانقاه [٢].

واعتبرت هذه المدارس امتدادات مكانية للأزهر، حيث يتصدر كبار علماء الأزهر الحلقات الدراسية التى تعقد فى هذه المدارس [٣].

وكانت هذه المدارس تخضع للتفتيش من قبل القاضى ، وعندما يتبين له أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المدارس وتلاميذها قد صرفت فى غير أغراضها فإن له الحق فى أن يرغم القائمين على إدارتها على الامتثال لرغبة مؤسسها [٤].

ومن وظائف المدرسة أنها أعدت أساساً لتكون مكاناً للتدريس ومبيت للطلبة والمدرسين ، وبالإضافة إلى باقى الموظفين الذين يقومون بخدمتهم. كذلك قامت المدرسة بدور المسجد حيث يتمكن الطلبة وأعضاء هيئة التدريس أن يقيموا بها شعائر الصلاة فيما عدا صلاة الجمعة[٥] وتعددت الأغراض فى استخدام المدارس فى غير التعليم، فقد استخدمت مقراً للقضاة ونواب دار العدل للفصل فى القضايا . كما كانت تنفذ تحت شباكها أحكام الإعدام[٦] وكذلك استخدمت فى بعض الأحيان كسجن مؤقت لمن يقبض عليهم حتى يقدموا للمحكمة إلى أن تقام عليهم البينة أو ثبت براءتهم[٧]. بالإضافة إلى ذلك فقد استخدمت بعض المدارس فى بعض الفترات كاستراحة لعمال البريد كالمدرسة القراسنقورية [٨].

---

(١) الخانقاه : كلمة فارسية تعنى المكان الذى ينقطع فيه المتصوف للعبادة ، ويفصل المقريزى معنى الخوانك، «جمع خانقاه وهى كلمة فارسية معناها بيت الأكل وقيل أصلها خونقاه أى الموضع الذى يأكل فيه الملك. ونشأت هذه الخوانك فى حدود القرن الرابع الهجرى، أما فى مصر فلم تظهر الخوانك إلا فى القرن السابع الهجرى، وفى عصر صلاح الدين (أنظر سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون،، ج٥ ، ص٥٦) .

(٢) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ١٢٥٠- ١٥١٧م، ص٢٣٩ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق، ج١، ص ٢١٦ .

(٤) ج. دى شابرول ، المرجع السابق، ص٦٣ ؛ Dunne, Op. cit., pp. 3,4.

(٥) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص١٨٤-١٨٥ .

(٦) نفسه، ص١٨٨ .

(٧) نفسه، ص١٨٩ .

(٨) المقريزى ، المرجع السابق، ج٢، ص٣٨٢ .

وكان لقرب بعض المدارس من القلعة وميدان الرميلة مثل مدرسة السلطان حسن ومدرسة الأشرف شعبان، كان لهذا القرب- أثر على الأمراء المتصارعين على السلطة فى أن يستولوا على هذه المدارس وظهر هذا واضحًا عندما حدثت أول فتنة من عساكر الإسباهية حيث هجموا على أويس باشا (٩٩٤- ٩٩٩هـ / ١٥٨٦-١٥٩١م) وهو فى الديوان، فقفز منهم وهرب إلي الحريم، فنهبوا ما وجدوه ، ثم خرجوا فقتلوا كتخدا الجاويشية[١] وطلبوا من قاضى العسكر أن يحضر لهم بعض القضاة وقتلوهم لأنهم شجعوا أويس باشا على ظلمه ، وأدى ذلك لتأزم الموقف فى البلاد. وترتب على ذلك اجتماع قاضى العسكر والدفتردار وأعيان العسكر بمدرسة السلطان حسن، وطالبوا السباهية بالعدول عن موقفهم ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل [٢]. وعندما قتل موسى باشا عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م، قيطاس بك الكبير اجتمع العسكر وقاضى العسكر ونقيب الأشراف، فى مدرسة السلطان حسن وطالبوا بعزل الباشا [٣]. والأزمة التى حدثت بوفاة الشيخ محمد النشرتى، الذى كان يتولى وظيفة التدريس فى المدرسة الابتغارية ، فانقسم المجاورون فرقتين ، فرقة تطلب الشيخ أحمد النفراوى، وأخرى تطلب الشيخ عبدالباقى القلينى ، وتأزم الموقف، مما أدى إلى تدخل الأوجاقات السبعة[٤].

كما اجتمع نقيب الأشراف والعلماء وأرباب الأشاير فى مدرسة الشيخونية بالصليبة. إبان حدوث فتنة أفرنج أحمد عام ١١٢١هـ / ١١٧١١م، وأصدروا فتوى بنفى الانكشارية إذا لم يمتثلوا للأوامر فامتثلوا [٥].

---

(١) الجاويشية : جمع فارسى لكلمة جاوش Cavusوهى مشتقة من المقطع التركى جاو Cav الذى يدل على معنى الصياح والنداء، والصوت والصيت ، والجاويش منصب عسكرى يطلق على أنواع مختلفة من الجند منهم الرسل والحرس الخاص بالسلطان العثمانى وكانوا يترأسون موكبه حين خروجه من القصر ويصحبونه حين يخرج إلى الحرب (انظر : هاملتون جب، هارولد بوون، المجتمع الإسلامى والغرب ، ج٢، ص٢٢٦-٢٢٧) .

(٢) يوسف الملوانى ، المرجع السابق، ص١٥٠ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشوات ، ص١٤٣ ؛ الملوانى ، المرجع اسابق، ص١٧٦ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى، المرجع السابق ، ص٢٣٢ . وكان الباشا هو حسن باشا السلحدار .

(٥) الملوانى، المرجع السابق، ص٢٥٩ .

أما بالنسبة لمدارس الأقباط فلم يكن لهم مدارس نظامية حتى عهد الخديوى اسماعيل، وهذا يعنى أن النصف الأول من القرن التاسع لم يشهد أية محاولة لانشاء مدرسة قبطية على غرار المدارس النظامية التابعة للجاليات الأوربية [١]، وكان ذلك على أيدى الأنبا كيرلس الرابع (١٨٠٦-١٨٦١م) الذى أسس أول مدرسة للأقباط فى عام ١٨٥٥م [٢].

أما اليهود فقد كانت لهم مدارسهم . فقد لوحظ أن بعض الطلبة المسلمين قد التحقوا بهذه المدارس، ويرجع ذلك إلى تفضيلهم الالتحاق بهذه المدارس على غيرها من المدارس التابعة للجاليات الأوربية والتى كانت مهتمة بالفعل بالعامل التبشيرى أكثر من اهتمامهم بالتعليم نفسه [٣] والمواد التى تدرس فى مدارسهم هى الشرائع والقوانين اليهودية والتاريخ المقدس واللغة العبرية ، ثم يأتى التدريب العملى من خلال المشاركة فى خدمات واحتفالات السبت والأعياد اليهودية [٤].

٣- المؤسسات التعليمية الأخرى:

كانت هذه المؤسسات تساهم بجانب المكاتب والمدارس فى مجال التعليم خلال هذه الفترة، فقد كانت هناك مؤسسات تعليمية خاصة بالمسلمين مثل المساجد والخوانق ، والزوايا ، والربط والأسبلة وبعض الترب، وبالنسبة لأهل الذمة، فقد كان التعليم وخاصة للأجانب يعتمد على الهيئات الكاثوليكية منها الفرنسيسكان والجزويت والفرير والراعى الصالح والقلب المقدس وغيرها [٤].

وبالنسبة للمؤسسات التعليمية الإسلامية، نبدأها بالمساجد واستخدمت كمعاهد للتعليم، لأن العلم دائما من اختصاص الجماعة، فلم تكن دول الخلافة أو دول السلاطين مسئولة عن التعليم فى عصر الخلفاء الراشدين، وإنما كان التعليم من اختصاص الأفراد والجماعة [٥].

---

(١) محمود الشال، المرجع السابق، ١٢٤ .

(٢) جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ص٦٦ .

(٣) قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق، ص١٤٣ .

(٤) جرجس سلامة، المرجع السابق، ص٤٠ .

(٥) حسين مؤنس، المساجد ، ص٣٥ .

وكانت المساجد أقدم معاهد للتعليم التى وجدت بمصر خاصة قبل ظهور المدرسة كمؤسسة تعليمية، ولم يقلل ظهور المدارس وانتشارها من شأن المساجد وعدم اختصاصها بفئة معينة دون أخرى[١].

وكون المدرسة ملحقة بأحد المساجد يعد سمة من السمات البارزة فى العصر العثمانى شأنه فى ذلك شأن العصور الإسلامية الأخرى. فلم تقتصر وظيفة المساجد الكبرى فى العالم الإسلامى على إقامة الصلوات، بل كانت تلحق بها منشآت خيرية أخرى تضم مكتبة تحتوى على التراث الفكرى الإسلامى ، المدون فى البلدان العثمانية باللغات العربية والفارسية والتركية[٢].

وتتميز الدراسة فى المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة فى اختيار مناهج الدراسة وأسلوبها وأوقافها ، إلا ما وجد منها خاضعًا لما قام به البعض من ترتيب الدروس والأوقاف للصرف منها عليهم والتى كانت شروط الواقف تعتبر ملزمة لمن يكون بالدروس من الطلبة والمدرسين [٣].

وتختلف الدراسة فى المساجد عن المدارس ففى المساجد لايحدد عدد الطلبة ويتحدد عددهم بالنسبة لشهرة المدرس نفسه فى الوسط العلمى. واختلفت أيضًا عن المدارس حيث أنها كانت تسير على نظام الحلقات العلمية والتى لها احترامها من رواد المسجد أو كانوا من أصحاب الدروس الأخرى. فإذا زاد عدد الطلبة فتكون الحلقة فى شكل دائرة كاملة. أما إذا كان العدد أقل فإنه يكون فى شكل نصف دائرة . ويكون الدرس عبارة عن إلقاء المحاضرات وإملائها ، ولكن فرصة المناقشة تكون محدودة وبالنسبة للطلبة الوافدين من خارج مصر والقاهرة فيجدون فى هذه الأماكن مساكن خاصة لهم [٤]، وأيضًا كمستشفيات ومطاعم للفقراء وخانات وحمامات وآبار، كان السلاطين والأمراء يتنافسون فى إنشائها [٥].

---

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص١٦٠ .

(٢) عبد الغنى محمود، المرجع السابق، ص٢١٠ .

(٣) المرجع السابق، ص٢١٠ .

(٤) نفسه، ص٢١١ .

(٥) كارل بروكلمان ، الشعوب الإسلامية، ص٤٣٤-٤٣٥ .

ومن المساجد المشهورة والتى كانت تقوم مقام المدرسة، مسجد داود باشا [١]، ومسجد محمد بك أبو الذهب بالأزهر، وأنشأه فى الأصل برسم جامع، وعين فيه من أعضاء هيئة التدريس، منهم من يقوم بالدروس ومنهم بالخطبة والإمامة[٢] وجامع شيخون، حيث كان يدرس فيه الشيخ مرتضى الزبيدى (١١٤٥-١٢٠٥هـ / ١٧٣٢-١٧٩١م)[٣] ومسجد كتخدا بالأزبكية[٤] ومسجد المشهد الحسينى حيث تصدى للإقراء مجموعة كثيرة من شيوخ العصر وقادة المفكرين [٥].

وكانت هناك مدارس بالمساجد المنتشرة فى سائر مدن مصر فى الوجهين القبلى والبحرى، وقد أطلق البعض كليات قائمة فى المساجد [٦]. وكانت الدراسة فيها تسير على نمط الدراسة فى الأزهر ، ومن أشهرها المدارس التى كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد مثل طنطا ودسوق والاسكندرية ورشيد والمنصورة والمحلة الكبرى والفيوم وأسيوط وقوص وقنا وطهطا وقفط وأبريم ، وكان الطلاب فى هذه المدارس يلتحقون بالأزهر [٧].

وكانت لقرب بعض هذه المساجد من أماكن الأحداث التى شهدتها مصر خلال هذه الفترة ، نجد أن كلا الفريقين المتصارعين يحاولان الاستيلاء على هذه المساجد، ووضع ذلك إبان حدوث فتنة أفرنج أحمد عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م استولى فريق على جامع قلاوون والفريق الآخر جامع السلطان حسن وجامع المحمودية[٨] وجامع الماس، واستيلاء الفقارية على جامع بشتك فى درب الجماميز [٩]، وتم الاتفاق على اختيار صنجق من الصناجق نائب وعزل الباشا ووافق الجميع على ذلك.

---

(١) سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ج٥، ص١٠٥ .

(٢) محمد سيد الكيلانى، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، ص٤١ .

(٣) نفسه، ص٤١ .

(٤) أحمد شلبى، مصر مركزا للدراسات الإسلامية فى عصر الجبرتى، ص٤٤٠-٤٤١ .

(٥) نفسه، ص٤٤٠؛ سعاد ماهر، المرجع السابق، ج٥، ١٠٥ .

(٦) El Shyaal, op. cit., pp. 111-112.

(٧) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة ج١، ص١٦٩ .

(٨) أحمد شلبى عبد الغنى، وأوضح الإشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات، ص٢٧٦-٢٧٧ .

(٩) يوسف الملوانى، المرجع السابق، ص٣٢٤ .

والتعليم فى الخوانق يكاد ينصب على الأحاديث وروايتها فضلاً عن أداء الواجب للضيوف وروادها من المستحقين، وكانت أول خانقاه أنشئت فى مصر للصوفية، هى خانقاه سعيد السعداء. وظلت موجودة إبان الحملة الفرنسية حيث تغيرت إلى جامع وعرفت باسم جامع سعيد السعداء[١] والزوايا[٢] والرباط[٣] والتكايا[٤] وبعض الترب التى أتخذت كأماكن للتعليم والعبادة [٥].

وكان التصوف يعلم فى الزوايا والخوانق ، وتدرس فيها كتب التصوف الشهيرة ، كما كان يدرس أيضًا فى بعض المدارس الدينية والجوامع ، إلى جانب العلوم الشرعية والعقلية بدليل أن عدداً غير قليل من المتفقهين بعلوم الدين، وعلوم اللغة العربية ؛ بل بالطب والعلوم العقلية الأخرى قد أخذ الكثير من «علم التصوف» بل وانخرط فى سلكه واشتهر فى ميدانه [٦].

---

(١) المقريزى، المرجع السابق، ج٢، ص٤١٥ ؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج١، ص.٩٠؛ وخانقاه سعيد السعداء ، كانت فى الأصل داراً لبيان وقيل قنبر أو عنبر خادم الحافظ لدين الله أحد الأستاذين المتمكنين والملقب «سعيد السعداء» توفى عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م وبعد وفاته صارت هذه الدار سكنًا للوزير الصالح طلائع وولده ورزيك بن طلائع الذى فتح سردابًا بين دار الوزارة المواجهة لها. كذلك سكنًا الوزير شاور السعدى، ولما تولى صلاح الدين جعلها فى عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م . خانقاه للصوفية ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانية بجوار بركة الفيل (انظر : جومار ، المرجع السابق ، ص١٨٠) .

(٢) الزاوية: وهى مأخوذة من الفعل أنزوى وبمعنى اتخذ ركنًا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد، أنشئت الزوايا فى أول الأمر ملحقة بالمساجد ثم تطورت إلى أبنية صغيرة للتعليم والصلاة والعبادة يتخذها أحد المشايخ المشهورين بالتقوى والصلاح مسكنًا له ولمن يرد عليه من العابرين ، ويقوم بالوعظ والإرشاد لمن يتردد عليه من الناس . (أنظر : سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص١٦٩) وكانت الزاوية تطلق على الرباط الذى تنشئه إحدى جماعات الفرق الصوفية وقد خلط البعض بين الزوايا والخوانق.

(٣) الرباط فى الأصل البناء المحصن الذى يقام قرب الحدود، والمرابطة ملازمة ثغر العدو. إلا أن الرباط يطلق على الدار التى يسكنها أهل طريق الله إذ يرى الصوفية فى قوله تعالى (وصابروا ورابطوا) أى واصلوا على مواقيت الصلاة ، وقيل أن المقيم بالرباط على طاعة الله إنما يكون مرابطًا فى انتظار الصلاة بعد الصلاة. (انظر : سعيد عاشور، المرجع السابق ، ص١٦٨ ، عبد الغنى محمود، المرجع السابق، ص٢٣٧) .

(٤) التكية : دور يستقبل فيها المسافرين الفقراء أو الأشخاص الموصى عليهم، حيث يجدون فيها ضيافة بلا مقابل (انظر : جومار ، المرجع السابق، ص١٩٣) .

(٥) توفيق الطويل ، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، ص١٧ .

(٦) ليلى الصباغ ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٣٧ .

وكانت نوعية الدراسة فى هذه الأماكن هى التبحر فى علوم الشريعة والحديث بالإضافة إلى بعض العلوم المساعدة كالتفسير وأصول الدين وغيره من العلوم . ويمكن القول أنها كانت مؤسسات صوفية بها حياة علمية، ولكن من نوع خاص يقوم به الصوفية بدون أن يكون لذلك وقت معين أوطبقًا لشروط محددة من قبل الواقف[١] وقد نهضت الزوايا الصوفية بنشر العلوم الدينية وإن انصرف اهتمام أهلها إلى مزاولة الشعائر الدينية وممارسة الحياة الصوفية صادقين أم كاذبين [٢].

أما الأسبلة فكان التعليم فيها عن طريق المكاتب التى كانت بها مثل سبيل خسرو باشا الذى انشأ عام ٩٤٢هـ / ١٥٢٢م[٣] وسبيل تغرى دى بردى[٤] وسبيل الأمير محمد عام ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م[٣] وسبيل وقف النقادى عام ١٠٢٧هـ / ١٦١٨م[٥]. وسبيل مصطفى أغا عبد الرحيم أغا دار السعادة[٧] عام ١٠٢٨هـ / ١٦١٨م[٧]. وسبيل يوسف أغا الحين عام ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م [٩]، سبيل وزاوية مصطفى باشا [١٠].

---

(١) عبد الغنى محمد، المرجع السابق ، ص٢٣٨ .

(٢) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص٤٠ .

(٣) محمود حامد الحسينى، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة، ص١٢٢ .

(٤) نفسه، ص١٢٧ .

(٥) نفسه، ص١٢٩ .

(٦) نفسه، ص١٣٢ .

(٧) دار السعادة : اسم يطلق عند الجراكسة والعثمانيين على دار الحكم، ولذلك أطلق على مدينة القسطنطينية وهى استانبول العاصمة القديمة للدولة العثمانية وتطلق دار السعادة أيضًا على دار الحكومة التى يقيم فيها الحاكم أو الوالى لإدارة شئون الولاية أو المقاطعة (انظر: سميرة فهمى، المرجع السابق، ص٣١٧) .

(٨) محمود حامد الحسينى ، المرجع السابق، ص١٣٥ .

(٩) نفسه، ص١٢٧ .

(١٠) نفسه، ص١٢٧ .

١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م، سبيل وقف قيطاس بك المعروف (بسبيل بيبرس) عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م[(١)]، سبيل مصطفى سنان عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م [(٢)]، سبيل الكريديلية عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م[(٣)] سبيل خليل أفندى المقاطعجى عام ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م[(٤)] وسبيل سليمان جاويش عام ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م[(٥)] وسبيل يوسف بك بمراسينا عام ١٠٤٤هـ / ١٦٣٧م[(٦)]، سبيل سليمان بك الخربوطلى عام ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م[(٧)] سبيل جمال الدين الذهبى عام ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م[(٨)] وسبيل مصطفى بك طبطاوى عام ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م[(٩)] وسبيل البازدار[(١٠)] عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤١م[(١١)] سبيل وقف كلس منتصف قرن ١١هـ / ١٧م[(١٢)] وسبيل إبراهيم أغا مستحفظان عام ١٠٥١هـ / ١٦٤١م[(١٣)] وسبيل السيد على بن هيزع عام ١٠٥٦هـ / ١٦٥٢م[(١٤)] وسبيل عمر أغا عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٧م [(١٥)].

---

(١) محمود حامد الحسينى ، المرجع السابق، ص١٤٠ .

(٢) نفسه، ص١٤١ .

(٣) نفسه ، ص١٤٣ .

(٤) نفسه، ص١٤٥ .

(٥) نفسه، ص١٤٧ .

(٦) نفسه، ص١٥١ .

(٧) نفسه، ص١٥٣ .

(٨) نفسه ، ص١٥٤ .

(٩) نفسه، ص١٥٦ .

(١٠) البازدار: لفظة فارسية مؤلفة من باز بمعنى مقر ودار من المصدر داشتن بمعنى ممك، ومعناها حامل الصقر ، وكان البازدار موظفًا من أرباب الخدم، مكلف بحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده عند الخروج للصيد، وقد عرفت هذه الوظيفة منذ عهد السلاجقة (انظر ، حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، ج١، ص١٩٢) .

(١١) محمود حامد الحسينى، المرجع السابق، ص١٥٨ .

(١٢) نفسه، ص١٦٠ .

(١٣) نفسه، ص١٦١ .

(١٤) نفسه، ص١٦٦ .

(١٥) نفسه، ص١٦٧ .

بالإضافة إلى بعض الأسبلة التى أنشئت فى القرن الثامن عشر نذكر منها على سبيل المثال سبيل إبراهيم جوربجى مستحفظان عام ١١٠٦هـ / ١٦٩٤م سبيل أغا كوكليان ١١٠٦هـ / ١٦٩٤م[٢]، سبيل مصطفى جوربجى مستحفظان الشهير بميرزا عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م[٣]، وسبيل أحمد أفندى سليم عام ١١١١هـ / ١٦٩٩م [٤]، سبيل حسن أفندى كاتب عزبان عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م[٥] وسبيل على بك الدمياطى ١١٢٢هـ / ١٧١٠م[٦] وسبيل عافين بك أبو الأقبال عام ١١٢٥هـ / ١٧١٣م[٧] وسبيل إبراهيم بك المناسترلى عام ١١٢٦هـ / ١٧١٤[٨]، سبيل مصطفى موصلى جوربجى مستحفظان عام ١١٢٧هـ / ١٧١٥ . وأمر عابدى باشا عام ١١٢٩هـ / ١٧١٧م ببناء سبيل ومكتب [٩]. وقد أمر محمد باشا السلحدار فى عام ١١٤٥هـ / ١٧٣٢ بتعمير الصهريج والمسجدان اللذان ببركة الأزبكية بجوارالشيخ أبوطاقية وتم تحديد الرواتب له ، وجعل على الصهريج مكتباً[١٠].

وقد اهتم باكير باشا (١١٤٧-١١٤٩هـ / ١٧٣٥-١٧٣٧م) بالتعليم واهتم ببناء مساجد وأسبلة وكتاتيب وبالصرف عليها من أوقاف وغير ذلك[١١].

أما عثمان كتخدا ، فإن له من المآثر الحميدة مسجده والسبيل والكتاب الذى انشأه بالأزبكية ، وأحمد كتخدا [١٢] .

---

(١) محمود حامد الحسينى ، المرجع السابق ، ص١٩٠ .

(٢) نفسه، ص١٩٢ .

(٣) نفسه، ص١٩٤ .

(٤) نفسه، ص١٩٦ .

(٥) نفسه، ص١٩٨ .

(٦) نفسه، ص٢٠٠ .

(٧) نفسه، ص٢٠٢ .

(٨) نفسه، ص٢٠٤ .

(٩) أحمد شلبى عبد الغنى، أوضح الاشارات ، ص٢٩٠ .

(١٠) المرجع السابق، ص٥٧٧ .

(١١) نفس المرجع ، ص٥٩٩ .

(١٢) نفس المرجع ، ص٦٢٥ .

وفى عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م اشترى باكير باشا القصر والحوض والسبيل والمكتب الذى أحدثهم يوسف كتخدا عزبان [١]. وهذه الأسبلة كانت على سبيل المثال لا الحصر [٢].

أما عن تعليم الأوروبيين، فقد بدأ لأغراض دينية بحتة حيث كانت البابوية تسهدف نشر نفوذها فى الشرق وفى مصر خاصة . واخضاع الأقباط الأرثوذكس لرئاستها، وكذلك بذلت الإرساليات الدينية البروتستانية- مجهودات كبيرة لتحويل أقباط مصر إلى البروتستانية- وترجع مجهودات الكاثوليك فى هذا السبيل إلى القرن الثالث عشر الميلادى على يد الآباء الفرنسيسكان [٣]. وكان مركزهم بيت المقدس، وانشأوا الكنائس الخاصة بهم بعد ذلك ، وقد انتشروا بالوجه القبلى ثم استقروا بالإسكندرية فى عام ١٥٧١م، وانشأوا ديرا خاصًا بهم، عرف بدير سانت كاترين بالاسكندرية عام ١٦٣٢م. ونقلوا نشاطهم بعد ذلك إلى القاهرة، وانشأوا كنيسة لهم فى مصر القديمة عام ١٦٩٨م، ولكن استولى أقباط مصر عليها بعد ذلك[٤]. وكان نشاطهم التعليمى فى بداية الأمر محدود جداً[٥].

وبدأ الرهبان الفرنسيسكان نشاطهم التعليمى عام ١٧٣١م. وكان هدفهم من ذلك التأثير على أقباط مصر، لكى يرسلوا أبنائهم إلى روما لتعليمهم وفق العقيدة الكاثوليكية. وبالفعل أرسل البعض أبناؤهم . ورغم أن هذه الطريقة لم تنجح إلا أن بعض هؤلاء قد عادوا إلى القاهرة وهم يتقنون اللغة الإيطالية واللاتينية[٦].

ورغم اخفاق مجهودات الفرنسيسكان الدينية إلى حد ما، فإنه قد وفد إلى مصر فى القرن الثامن عشر الكثير من السوريين الكاثوليك وبعض الموارنة اللبنانيين الكاثوليك وبعض التجار الأوروبيين الكاثوليك أدى ذلك إلى تشجيع الفرنسيسكان فى مصر لزيادة نشاطهم،

---

(١) نفسه، ص٦٣٣ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى، المرجع السابق، ص٢٩٠ .

(٣) جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ص٤٠ .

(٤) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عهد محمد على، ص٦٦٨ .

(٥) H. Dunne , op. cit , p. 343 .

(٦) Ibid ., p. 88 .

ووافق الباب العالي عام ١٧٣٢م على إنشاء كنيسة وديراً لهم في الموسكي[١] والحقت بالكنيسة مدرسة لتعليم الأطفال تحت إشراف الرهبان[٢].

ولما تواجد عدد من الكاثوليك يحتاج أبناؤهم إلى عناية من الناحية التعليمية ، انتقل نشاط الفرنسيسكان من الناحية الدينية إلى الناحية التعليمية لخدمة الأغراض الدينية، ولذلك فقد كان يدرس في مدرسة الكنيسة اللغتين العربية والإيطالية، وكانت هذه أول مدرسة في مصر تدرس بها لغة أجنبية أوربية هي اللغة الإيطالية[٣].

وشهد القرن الثامن عشر مجهودات لإرساليات أجنبية أخرى مثل إرسالية هوكر (E. W. Hoker) وإرسالية بيلدر (G. Pilder) في عام ١٧٥٣م وإرسالية انيسته (J. Antes)في عام ١٧٥٦م. وإرسالية دانك (J. H. Dank) في عام ١٧٦٨م . وإرسالية وينجير (Wieniger) في عام ١٧٧٠م وكانت هذه الإرساليات تنتمي إلى الحركة المارونية، ولذلك انتهت بالفشل[٤].

وأقام الفرنسيون بعد وصول الحملة الفرنسية مدرستين في القاهرة لتعليم أبنائهم المولودين في مصر [٥]. والمناهج في هذه المدارس هي اللغة العربية والإيطالية [٦]. وقد لوحظ أن الأوربيين في الإسكندرية الذين لايجيدون اللغة العربية قد تحدثوا باللغة الإيطالية، وتعلم بعض الأهالي اللغات الأوربية مثل الفرنسية والألمانية وهدفهم من ذلك هو القيام بأعمال الترجمة، أو العمل على السفن الأوربية وخدمتها[٧].

أما عن جهود اليونانيين ، فإنهم كانوا على غير وفاق مع الكنيسة الكاثوليكية نظراً لاختلاف مذهبهم الديني الذي كان على المذهب الأرثوذكسي، وقد هاجر اليونانيون إلى مصر

---

(١) Dunne. op. cit., p. 90.

(٢) Ibid., p. 90 .

(٣) Ibid., p. 91 .

(٤) Ibid., p. 90 .

(٥) أحمد أحمد بدوي ، رفاعة رافع الطهطاوي، ص٦ .

(٦) Dunne, op. cit., p. 90 .

(٧) كارستن نيبور، رحلة إلى مصر، ص١٧٦١-١٧٦٢ ، ترجمة مصطفى ماهر، ص١٢٠ .

منذ القدم . غير أن التعليم اليونانى قد بدأ فى القرن السابع عشر، وخاصة منذ عام ١٦٤٥م وكان يعتمد فى ذلك على الكنيسة اليونانية والجالية اليونانية حيث افتتحت مدرسة خاصة بها فى دير سان جورج بواسطة البطريك أيونيكو (Uoanikio) ثم توسعوا فأنشأوا مدرستين أخريين إحداهما فى حارة الروم . والأخرى فى حى الجوانية فى القاهرة. وانشأوا مدرسة أخرى فى الاسكندرية فى دير سان ساباس[١].

وكانت تدرس بهذه المدارس اللغة اليونانية وتلاميذها من اليونان فقط وليسوا من المصريين.

أما جهود البروتسانت فى هذا السبيل ، فيرجع إلى القرن التاسع عشر وعلى ذلك فإن التعليم الأجنبى فى مصر استطاع أن يحول عدداً كبيراً نسبيًا من الأقباط الأرثوذكس فى مصر إلى الكاثوليكية والبروتستانتية، وصحيح أن الفكرة الأولى التى كانت ترمى إليها البابوية الكاثوليكية هى أن تعترف الكنيسة الأرثوذكسية القبطية برئاستها ، وهو لم يحدث قط، ولكن ذلك لم يمنع الإرساليات الكاثوليكية من أن تقوم بنشاطها الكبير لتكسب عدداً من الأقباط وتحولهم إلى المذهب الكاثوليكى، مما يدل على ذلك تنوع الجاليات الكاثوليكية فى مصر وقد بلغت سبع جاليات هى الجالية الأرمينية ، والكلدانية، والقبطية الكاثوليكية، واليونانية الملكانية ، واللاتينية، والمارونية، والسريانية، وزيادة عدد الجاليات زيادة محسوسة، وكثرة الكنائس الكاثوليكية، وتعدد المدارس الكاثوليكية بشكل كبير ملموس.

ولكن رغم ذلك كله، ورغم مجهودات البابوية من ناحية، والإرساليات من ناحية أخرى فان الكنيسة القبطية ظلت راسخة البنيان بحيث لم تستطع لا البابوية فى روما ولا الإرساليات أن تؤثر فيها تأثيراً كبيراً. بل إن شعور الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بخطر هذه الإرساليات أدى إلى نهضة كنيستها بحيث انشأ الأقباط مدارس اللاهوت على المذهب الأرثوذكس وعلموا القسس والوعاظ لكى يستطيعوا المحافظة على كيانهم وانشأوا المدارس القبطية ، وكان ذلك فى القرن التاسع عشر على أيدى الأنبا كيرلس الرابع (١٨٠٦-١٨٦١م) [٤].

---

(١) D. Kallinahos, Patriarh's Alexandria Creek Schools , at Cario , p. 4' Dunne, op. cit, p. 91 .

(٢) جرجس سلامة، المرجع السابق، ص١٨ .

(٣) المرجع السابق، ص٦٦ .

(٤) جرجس سلامة، المرجع السابق، ص٦٦ .

ويأتى الحديث عن تعليم فئات أخرى مثل تعليم المماليك والتعليم العسكرى ، والبدو ، وتعليم البنات.

فقد كان تعليم المماليك بهدف تدريبهم على الفروسية ، وكان الحصول على الجياد والخيل من لوازم حياتهم وأيضًا الأسلحة. ولكن رغم تفوقهم فى التدريبات العسكرية، لم يهتموا كثيراً بدراسة العلوم والرياضيات والأدب ولا حتى بدراسة الجغرافيا والتاريخ، التى قد تفيدهم فى حياتهم كمحاربين وحكام. وبطبيعة الحال كان لهذه القاعدة بعض الاستثناءات ولكنها كانت بسيطة فى عددها[١] وتربوا تربية دينية بعد اعتناقهم للإسلام وهم يتعلمون اللغة التركية واللغة العربية ويتلقنون القرآن الكريم[٢].

ومن المماليك من كان يعرف علوم اللغة ويتقنها ويدرس الكتب العسيرة الشاقة، أو يشتغل بالأدب الخالص منها، واشتغاله بالفقه مثال ذلك عثمان بك ذو الفقار الذى كان يقرأ على الشيخ حسن الجبرتى مقامات الحريرى ، وقام الأخير بكتابتها لهذا الأمير بخطة الجميل فى خمسين جزءاً كل جزء على حده ، كما كان الأمير يقرأ على الشيخ حسن الجبرتى كتبًا فى فقه أبى حنيفة ، ولم يجالس عثمان بك إلا أرباب الفضائل والعلم[٣] والأمير عثمان كتخدا (ت ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م) ارتاد مجالس العلماء مثل الشيخ عبدالله الادكاى، والأمير أحمد أفندى الروزنامجى (ت ١٢٠٢ / ١٧٨٧م). الذى تلقى العلم عن مشايخ عصره واشتهر بحفظه ألفية ابن مالك فى النحو والصرف [٤].

وبعد فتح مصر ، استقر جنود الحامية بالعاصمة، ثم وزعت الأوجاقات وحددت مهامها فى القاهرة والأقاليم ، وبدأ العسكر فى الاحتكاك بأفراد الرعية خاصة وقد اقتحم كثير منهم مجالات الحياة الاقتصادية فى الزراعة والحرف والتجارة ، ولذا كان من الضرورى حدوث تقارب بين الفريقين ، وبات ملحًا أمام العسكر تعلم اللغة العربية للتفاهم مع أبناء الرعية من المزارعين وأهالى القرى والتجار والحرفيين ومن ناحية أخرى أقبل رجال العلم من المشايخ وطلبة الأزهر على تعلم اللغة التركية لغة الحكام الرسمية، وقد شاع استخدام كثير من الكلمات والمصطلحات التركية فى اللغة العامية التى تداولها الناس.

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة، ص١٦٢-١٦٣ .

(٢) عراقى يوسف محمد، الوجود العثمانى المملوكى، ص٣٦ .

(٣) عصمت محمد حسن، الجبرتى ومنهجه فى كتابة التاريخ ، ص١١٩، رسالة ماجستير غير منشورة.

(٤) عصمت محمد حسن، المرجع السابق، ص١٢٠ .

ومن الملاحظ أن بعض أمراء العسكر والأفراد قد اتقنوا اللغة العربية إلى جانب لغتهم التركية كما عرفوا اللغة الفارسية ، وكانوا على نصيب من الثقافة فاهتموا بالعلوم الدينية من تفسير وفقه وسيرة وقراءات، كما اعتنوا بدراسة النحو والأدب والشعر، وقرأوا فى التاريخ الإسلامى والأنساب والتصوف وتوفر نفر منهم على دراسة الطب والفلك والبيطرة والمعادن[١] .

ويبدو أن نفراً من هؤلاء العسكر قد جاوروا فى الجامع الأزهر والمدارس الأخرى مثل مدرسة ازبك اليوسفى وغيرها، خاصة وقد كانت العلاقات بين الأجناد ورجال الأزهر طيبة فكان العسكر يلجأون إلى الجامع الأزهر إذا تعرضوا للنفى من أوجاقاتهم ليتدخل العلماء وطلبة العلم لمحاولة اعادتهم وقد عقدت بعض المصاهرات بين الجانبين [٢].

واهتم بعض العسكر باقتناء الكتب النادرة فى مختلف صنوف المعرفة السائدة فى ذلك الوقت، ويوقفونها بعد وفاتهم على رواق الأروام بالجامع الأزهر لينتفع بها طلاب العلم، ومن المعرف أن الجامع الأزهر كان بمثابة المدرسة الإسلامية الكبرى فى مصر والعالم الإسلامى خلال العصر العثمانى يقصده الطلبة من سائر البلدان الإسلامية لنهل العلم، وقد تصدى للتدريس فى أروقة الأزهر المختلفة العلماء المصريون وغيرهم من المغاربة والشوام والأروام[٣].

ولكن بعد مذبحة المماليك فى عام ١٨١١م ، جمع محمد على غلمانهم وصغارهم فى القلعة بمدرسة على غرار المدارس التى كان أمراء المماليك يقيمون فيها فى قصورهم ، وأحضر لهم المعلمين يعلمونهم القراءة والكتابة واللغة التركية والفنون الحربية ثم زيد عليها الرسم والرياضيات واللغة الإيطالية ثم أرسل فيما بعد كبار تلاميذ هذه المدرسة وبعض غلمانه وغلمان كبار موظفيه إلى أسوان حيث أنشئت لهم مدرسة حربية يتعلمون فيها على أيدى المدرسين الأوربيين وعلى رأسهم الكابتن سيف الذى تسمى بعد ذلك باسم سليمان باشا الفرنساوى[٤] .

---

(١) عراقى يوسف محمد، الوجود العثمانى فى مصر، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، دراسة وثائقية ، ص٣١٣ .

(٢) محكمة الباب العالى سجل ١٥، ص١٠٧ .

(٣) عراقى يوسف محمد، المرجع السابق، ج١، ص٣١٤ .

(٤) عبد الرحمن زكى، التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير، ص٢٩٢ .

والبدو قليلو التعليم، وبالكاد كان من بينهم الشيوخ قد يعرفون القراءة والكتابة، ولهم بعض الممارسات فى مجال الطب، كما لايمكن الاستهانة بفن البيطار عندهم [١]، ومن ناحية أخرى نجد أن بعض مشايخ العربان عملوا على تثقيف أبناء المناطق التى يقيمون بها . وكان هذا العمل مرتبط أولاً وقبل كل شئ بالشعور الدينى، فقد طلب الشيخ اسماعيل بن عبد الله وهو أحد مشايخ هوارة أحد العلماء لكى يعلم أبناء الناحية أمور دينهم. ولم تكن هذه الظاهرة عامة بل كانت نادرة جداً [٢].

وهناك حالة أخرى عن أهل الحلة، الذين كانوا معروفين بالكبرياء والجهل، ويرجع ذلك إلى أنهم إدعوا بأنهم ذكروا فى القرآن، لأنهم عند تلاوة القرآن سمعوا الآية التى تقول «يسألونك عن الأهلة» كما أنهم لم يعلموا أطفالهم القراءة لأنهم كانوا يظنون أن التعليم سيقلل من شجاعتهم ومن كفاءتهم على الإغارة والقتال، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يستحضرون الأئمة من المدن لمجرد التباهى بذلك فقط . أما عن أنفسهم فان الصلوات والدين لم يكن ينفعهم بشئ. ويبدو أن هذا الاتجاه قد تغير فى القرن التاسع عشر . إذ صاروا يتسمون بالرقة والرأفة، وشيد منهم الكثير من المدارس بالقرب من منازلهم بل وذهب بعضهم إلى الأزهر الشريف طلبًا للعلم، وعملوا على تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم[٣].

أما تعليم البنات فلا يتعلمن حتى مجرد القراءة والكتابة، وإن حدث فانهن يتعلمن فى معقل الحريم، ويكون مدرسيهم فى هذه الحالة رجالاً متقدمون فى السن أو محرومين من نعمة البصر. ولايستطيع مثل هؤلاء المدرسين أن يعلموهن أكثر من حفظ بعض آيات القرآن الكريم[٤] وخاصة سورة يوسف[٥] لأن هذه السورة تناولت قصة امرأة العزيز، مع يوسف عليه السلام وأخطاءها وخطيئتها التى كشفها القرآن الكريم وبين سوء نيتها وبراءة يوسف عليه السلام . ولذلك فإن سورة سيدنا يوسف توضح بعض النقاط التى يجب على البنات أن تعرف منها وهى كالآتى :

---

(١) دى . بوا . ايمييه، القبائل العربية فى صحراوات مصر، ص٢٢٠ .

(٢) نفسه، ص٢٢٠ .

(٣) ج. بيير دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة، ص٢٤ .

(٤) ج. دى. شايرول ، المرجع السابق، ص٦ ؛ جومار ، المرجع السابق، ص٢١٤ .

(٥) Dunne, op. cit., p. 14 .

أولاً : خطيئة امرأة العزيز فى أنها راودت يوسف أى عجلت لمواقعته إياها وهيأت لنفسها أن تستمتع به فقفلت الأبواب ونادته ورفض هو ، وحاول الهرب فأمسكت به ومزقت قميصه من الخلف ، ودليل خطيئتها :

١- شهادة ابن عم لها أو ابن خال وكان صبياً فى المهد .

٢- تمزيق القميص من الخلف وليس من الأمام .

٣- اعتراف زوجها بقوله واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

٤- اعترافها هى نفسها حين كثرت الأقاويل فاستدعت النساء وأدخلت يوسف عليهن لترى ما يصنعن بأنفسهن فيجرحن حتى يعذرونها فيما صنعت .

٥- كذبها فحين أحست بقدوم زوجها ادعت كذبًا على يوسف أنه أراد بها سوءاً وطلبت له السجن والتعذيب . وبرأه الله سبحانه وتعالى وأظهر خطيئة زليخا أو راعول .

وقد كان المعلمون يعنون عناية خاصة بتحفيظ الفتيات سورة النور[١] والحكمة من ذلك ، أن بعض الصحابة قد أدعوا على السيدة عائشة الفاحشة مع صفوان ابن المعطل حينما فقدت عقدها فى إحدى الغزوات ، وتركوها وحملها مصعب فى بعيره فقال المنافقون فيها السوء ومنهم عبدالله وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت سطح بين أثاثه ، وكثر القيل والقال حتى نزلت براءة عائشة ونزلت هذه البراءة فى سورة النور، بقوله تعالى [لكل امرء منهم ما كسبت من الأثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم][٢] هذه تبرئة من الله سبحانه وتعالى لأم المؤمنين التى ادعوا فى حقها الفاحشة. ومن الآداب التى جاءت فى سورة النور عقوبة الزانى والزانية وذلك لنهى الفتيات عن فعل هذه الفاحشة ، كذلك ورد فى سورة النور اللعان بين الزوج وزوجته حين يدعى عليها الفاحشة وليس معه شهود .

ويستخدم بعض الأغنياء «شيخة» لتزور الحريم يوميًا ، فتعلم بناتهن وجواريهن إقامة الصلاة وتلاوة بعض سور القرآن الكريم، أما البنات اللاتى يحفظن القرآن تصبح بعد ذلك شيخة [٣]، وقد يتعلمن القراءة والكتابة وهناك عدة مدارس تعلم فيها البنات الخياطة

---

(١) أحمد شلبى ، تاريخ التربية الإسلامية، ص ٥٧ .

(٢) الآية ١١ .

(٣) Dunne, op. cit., p. 92 .

والتطريز . ولكن إذا سمحت الظروف يعهد بالبنات إلى معلمة تعلمهن تلك الأشغال فى منازلهن [١].

وقد يحضر لها أهلها أحيانًا إن كانوا من المستنيرين فكريًا معلمًا طاعنًا فى السن أو أعمى. وقد تتابع بعضهن دراستها وحدها أو بارشاد من بعض ذويها كالأب أو الأخ أو الزوج. ومن المعروف أنه كان هناك فى المرحلة السابقة للمرحلة العثمانية ، محدثات عديدات وقد أخذن الحديث من علماء كبار معاصرين ، كما أخذ محدثون العلم الشريف عنهن ، ونالوا اجازات منهن ومن هؤلاء ابنة الطبيب المصرى «أحمد بن سراج الدين» التى تولت مشيخة الطب فى القاهرة بعد أبيها .

ومع ذلك ، يمكن القول بأن المرأة لم تدخل الحياة الفكرية بشكل فعال خلال هذه المرحلة على الرغم من تمتعها باستقلالها المبدئى فى شؤونها المالية[٢].

أما تعليم البنات المسيحيات، فقد كان لايسمح لهن بالتعليم فى المدن الكبرى كالقاهرة، ولكن يسمح لهن فى الصعيد فى سن مبكرة بالتعليم مع الأولاد، حتى يصلن إلى الثامن أو التاسعة وهى السن التى ينقطعن فيها عن الدراسة[٣] وبالنسبة لتعليم بنات اليهود فإنهم لم يهتموا بها إلا فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر [٤].

٤- التعليم العالى :

أصبح الأزهر منذ السيطرة العثمانية لمصر موئل الدراسات العالية الوحيد الذى اعتمدت عليه مصر فى مسيرة حياتها العلمية واستقبال الوافدين عليها لطلب العلم.

ومع هذا فقد كان هناك عدد غير قليل من المدارس فى القاهرة وضواحيها لكنها كانت قليلة الأثر قليلة الحركة، فلم تكن على وتيرة واحدة من البقاء أو الاستمرار فى مسيرتها التعليمية ، كما أنها لم تستطع النهوض بأعباء الدراسة كما يجب فى هذا العصر، لهذا فان الطبقة المثقفة كانت تنظر إليها على أنها مرحلة فقط، حتى أصبح من المثقفين عليه فيما بينهم

---

(١) إدوارد لين، المرجع السابق، ص٥٧ .

(٢) ليلى الصباغ ، المرجع السابق، ج٢ ، ص ص٣٥٩-٣٦٠ .

(٣) Dunne, op. cit., p. 91.

(٤) Ibid., p. 92 .

الطبقة المثقفة كانت تنظر إليها على أنها مرحلة فقط، حتى أصبح من المثقفين عليه فيما بينهم أن المتعلم مهما بلغ من التعلم لايقال له عالم ولايؤخذ عنه العلم إلا إذا تخرج فى الأزهر وأجيز من رجاله ومن هنا كان الأزهر محط طالبى العلم ومعلميه من سائر الأقاليم الإسلامية.

وإذا كان المستوى العلمى والتعليمى لهذا العصر يأتى فى مستوى تال لمستوى العصور السابقة عليه، فان هذا لايعنى أن مواتاً علمياً وتعليمياً قد انتشر فى ربوع مصر ومنها الأزهر كما زعم كثيرون ممن تصدوا للبحث التاريخى فى العصر العثمانى، فقد ثبت بما لايدع شكا أن حركة علمية موصولة بما قبلها من عصور جعل بها الأزهر فى العصر العثمانى، وأن علماء الأزهر انتشروا فى مجتمعات مصر يعلمون طلبة العلم فى المدارس والمساجد كما يعلمون سائر الناس فى المساجد ، وأن جماعة منهم انتشرت فى القاهرة والأقاليم لتعلم الصبية فى الكتاتيب القراءة والكتابة ومبادئ الفقه وشيئاً من القرآن الكريم ومن المعلوم أن تعليم الصغار لايقل خطره فى مستقبل الأمة عن تعليم الكبار[١].

وفى العصر العثمانى، ارتفع عدد أساتذته إلى ستين أو سبعين ووفد عدد من الطلبة إلى الأزهر من القاهرة وسائر المدن المصرية فى حين كان غيرهم ينتمى إلى بلاد إسلامية أخرى[٢].

بالإضافة إلى ذلك فانه كان يوجد بمصر خلال هذه الفترة المدارس الخاصة بالدراسات العليا فى المدن المختلفة، وكان المدرسون الأساسيون فى تلك المدارس من خريجى الأزهر، بيد أن طلبة تلك المدارس بدورهم ، كانوا يمدون الأزهر بكثير من طلاب المنح البارزين ... وأنه لأمر غريب للغاية لم يكن يوجد واحد من كبار مشايخ الأزهر فى القرن الثامن عشر من أصل غريب للغاية لم يكن يوجد واحد من كبار مشايخ الأزهر فى القرن الثامن عشر من أصل قاهرى. وكانت أكثر تلك المدارس الإقليمية نشاطاً بالإسكندرية ودمياط والمنصورة والمحلة الكبرى ودسوق وطنطا فى الوجه البحرى، ثم قوص وقنا وطهطا فى الوجه القبلى [٢].

ولم يتدخل العثمانيون فى شئون الأزهر، وإذا كانوا قد فرضوا اللغة التركية لغة رسمية فى دواوين الحكم فى مصر إلا أنهم لم يجعلوا اللغة التركية لغة الدراسة فى الأزهر، ولم يفرضوا عليه الدراسات التركية والدراسات اللغوية أو الأدبية من نحو وصرف ، ولم يقحموا فى خط الدراسة فى الأزهر دراسة الحضارة التركية والفكر التركى، وفى وسط الوجود العثمانى عاش

---

(١) عبد الجواد صابر اسماعيل ، مصر تحت الحكم العثمانى، ص٥٣، ٥٤ .

(٢) محمد سيد الكيلانى، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، ص٢٩ .

الأزهر كالواحة الإسلامية يفئ إليها الظامئون إلى المعرفة يتلقون الدراسات الإسلامية العربية العليا [١].

بالإضافة إلى ذلك فان السلطات العثمانية ، لم تقم بانشاء معاهد أو مدارس لتعليم اللغة التركية ونحوها ولم يحاول المصريون من ناحيتهم تعلم اللغة التركية سواء بدافع ذاتى أو جبرى وراء مغانم يظفرون بها[٢].

أما العلوم التى حفلت بها حلقات الدراسة فى الأزهر فهى علوم الشريعة، وعلوم اللغة، والعلوم العقلية ، وعلوم الحكمة، والرياضيات ، والطب غير أن المجموعات العلمية الثلاثة الأولى وهى الشريعة واللغة وعلوم العقل كانت أكثر العلوم انتشاراً فى حلقات الأزهر لكثرة اقبال الطلبة عليها لأنها كانت علوم العصر الرائجة، إذ أن المجتمعات فى ذلك الوقت كانت مجتمعات دينية ، وكانت الدراسة فى الأزهر مبنية على قاعدة الحرية فى اختيار الحلقة، والأستاذ تبعًا للمادة التى يلقيها ، فلم يكن هناك عرف أو قانون يلزم طالبًا بحلقة و بأستاذ معينيين، كما لم يكن هناك عرف أو قانون يلزم أستاذ بطلبة معينين، وكان هذا من عوامل رواج الحركة التعليمية والعلمية فى العصر العثمانى وما سبقه من عصور[٣].

فلقد تلقى علماء علومهم فى الأزهر، وتفوقوا فى ذلك مثل العلامة الرياضى عبد الغفار ، حيث تلقى العلم فى حلقات الأزهر الرياضيات وعلوم الحكمة ، وابن حجر الهيتمى، فى العلوم الشرعية والعقلية فى الجامع الأزهر . ودرس الشيخ على المقدسى فى حلقات الأزهر العلوم الشرعية وعلوم اللغة وعلم المواليد [الأحياء] وعلمى الحساب والهندسة ابان القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى ونبغ بعض العلماء فى علوم الحساب والهيئات والميقات والموسيقى بعد أن تلقوها فى حلقات الشيخ الشريف الطحان. وكان للشيخ محمد بن النقيب البيرونى حلقة دراسية فى الأزهر، يلقى فيها واحد وعشرين علما منها علم الطب[٤].

---

(١) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة، ج١ ، ص١٦٤ .

(٢) S.J. Shaw, Ottoman , Egypt in the Eighteenth Century, p. 38 .

(٣) عبد الجواد صابر المرجع السابق، ص٥٤، ٥٥ .

(٤) محمد بن فضل المحبى، خلاصة الأثر، ج٢ ، ص١٩٣، ١٩٤ ، ٤٥٦ ، ج٣ ، ص ص١٨٠، ٨١، ١٩٥، ١٩٦ ، عبد الجواد صابر ، المرجع السابق، ص٥٥ .

ومارس بعض علماء الأزهر الطب فى ميدانه العلمى بأعظم مستشفى فى القاهرة وهو «دار الشفاء المنصورى» كما قاموا بتدريس الطب للأطباء المبتدئين فى هذا المستشفى ومن هؤلاء العلماء الشيخ الرئيس ابن الصائغ [١٠٠٧هـ / ١٦٠٧م] .

وهناك مدرسة ينبغى ألا نهمل ذكرها لأنها كانت ذات طابع خاص يدرك على ما كان لدى علماء هذا العصر من طموح علمى، هذه المدرسة هى المدرسة السنانية بالقاهرة والتى كانت ناديًا علميًا للعلماء، إذ كانوا يعقدون فيها حلقة علمية لايحضرها إلا العلماء، وكان يتصدر هذه الحلقة أفضل الحاضرين علما وأكفؤهم منطقًا كالشيخ مصطفى العزيزى [١١٥٤هـ / ١٧٤١م] والشيخ أحمد بن شاهين [١١٨٨هـ / ١٧٧٤م] ، لقد كانت هذه المدرسة ميدانًا علميًا يحتد فيه علماء هذا العصر ومدرسوه شباب معارفهم[١].

وكما كان فى القاهرة عدد من المدارس، كذلك كان فى المدن الإقليمية عدد من المدارس أيضًا كالاسكندرية ودمياط ورشيد ودسوق وطنطا والمحلة الكبرى ومنفلوط وجرجا وقوص .

وكما استقبل الأزهر طلبة العلم الوافدين من جميع أرجاء العالم الإسلامى ، فكذلك استقبلت مدرستا الاسكندرية ورشيد بعض طلبة العلم القادمين من شمال أفريقيا كما قام بعض علماء المغرب بالتدريس فيها ، ومع هذا فقد كان معظم طلبة هاتين المدرستين يتممون دراستهم فى الأزهر[٢].

وكانت الدراسة بالأزهر متنوعة فهناك دراسة الحديث وكتبه المشهورة كالبخارى ومسلم، وأبى داود، والترمذى وابن ماجه ، ومسند أحمد والشافعى، ثم عمدة الأحكام للحافظ عبدالغنى، وشذور الذهب، للشيخ جمال الدين بن هشام، وجامع الجوامع ... إلخ [٣].

والمنهج الدراسى غير محدد بأى فترة زمنية ولو أن معظمهم متفرغين. وكان للمذاهب الأربعة مشايخهم فى الأزهر ومعظمهم للمالكيين والثانية للحنفيين والحنابلة والمشايخ الأساسيين فى الأزهر إما شافعيين أو مالكيين ، ولكل مذهب المفتى الخاص به أو رئيس

---

(١) عبد الجواد صابر، المرجع السابق، ص٥٧ .

(٢) نفس المرجع.

(٣) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق، ج١ ، ص١٥٢؛ إدوارد لين ، المرجع السابق، ص١٥٦ ، ويذكر أن الطلبة لايدفعوا أجوراً نظير تعليمهم في الأزهر ويصرف عليهم من إيرادات العقارات الموقوفة على الأزهر؛ Dunne, op. cit., p. 90 .

المفتيين فهو المفتى[١] العثمانى للإمبراطورية ، وحتى القرن الثامن عشر كان باستطاعة أى رجل أن يغير مذهبه [٢].

والطلاب فى الأزهر ليسوا ببساطة مجرد مستمعين عاديين، فبامكانهم إيقاف المدرس عند نقطة معينة لم يتعهدوا معانيها ، وأن يعارضوا رأيه برأى شيخ آخر فيتبعوا بذلك نوعًا من الجدل حتى يستخلصوا الحقيقة بشكل أفضل ومن جهة أخرى فإن الشيخ بدوره يسأل طلابه لكى يعرف ما إن كانوا قد فهموا وتقدموا [٣].

وبالنسبة لحفلة التخرج من الأزهر ، فإنه إذا فرغ أحد الشيوخ من تدريس كتاب أقيم لذلك حفل عظيم، وكانت العادة فى الختم أن يحضر يوم الختم أنجب تلاميذ المدرس وكبراء إخواته ، فاذا فرغ المدرس قرأ القارئ آيات من القرآن الكريم بقراءة مطربة ومنهم من يقرأها بالقراءات السبعة . وبعد فراغه ينشد منشد بصوت رخيم قصيدة من إنشاد بعض التلاميذ فيها مدح النبى ﷺ والترضى عن مؤلف الكتاب المقروء والدعاء للشيخ الذى يدرسه، ثم يقوم آخر ويثنى على الله ورسوله ثناء بليغ . ثم على آل رسول الله ﷺ ، وأصحابه وتابعيهم باحسان ثم يترضى عن المشايخ أرباب المراتب كل ذلك بنثر بديع ولفظ فصيح . ثم يقرأ الفاتحة ويهدى ثوابها إلى حضرة النبى ﷺ . وإلى من ذكر بعده، ويبالغ فى الثناء إلى أن يصل إلى الشيخ المدرس فيدعو له وللحاضرين بأبلغ دعاء بقلب حاضر ، وصوت خاشع ويؤمن الحاضرين على دعائه ، ثم يختم وبعد هذا يقوم أهل المجلس كلهم ويصافحون الشيخ . ويدعون لهم ويحضر الختم جمع عظيم من الناس وآل الفضائل والمجاذيب[٤].

وكان الشيوخ يمنحون طلابهم أجازات، إن هى إلا شهادة كتبها الشيخ على الورقة الأولى أو الأخيرة من الكتاب ، يثبت فيها للطالب قراءة هذا الكتاب ويجيز له تدريسه . وكان يجوز أن يحصل على أجازة فى موضوع معين. وما زال طالبًا فى موضوع آخر ، وكانت الأجازات تسلسل من المؤلف إلى آخر ما وصلت إليه وكان يشترط لمن يشتغل بالطب، أن يجتاز امتحانًا وينال شهادة مكتوبة ، تحدد له الأمراض التى يمكن أن يتصدى لعلاجها[٥].

---

(١) Dunne, op. cit., p. 37.

(٢) Ibid., p. 39.

(٣) ج. دى. شابرول، المرجع السابق، ص٦٦ .

(٤) محمد سيد الكيلانى، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، ص٤٣ .

(٥) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ص٦٣ .

وكانت الأجازات التى تصدر عن علماء الأزهر ثلاثة أنواع[١] الأجازة الأولى أجازة بالفتيا والتـــدريس[٢] والثـانيـة أجازة بعـراضـة الكتب[٣] والثـالثـة أجـازة بالمرويات على الاستدعاءات[٤].

هذا بالنسبة للتعليم العالى عند المسلمين. أما بالنسبة للمسيحيين فانه لم يكن سهلاً فى المجتمع القبطى، وإن كان ذلك فى القرن التاسع عشر[٥].

أما المناهج التعليمية فى مدارس الجاليات الأوربية ، فقد تنوعت أغراضه، بحيث كان من أهم هذه الأغراض المحافظة على عادات وثقافات ولغات الجاليات الأوربية. على الرغم من أنه كان قد استخدم لنشر المذاهب البروتستانتية والكاثوليكية ، ولكنه استخدم أيضًا بالنسبة لبعض الجاليات اليونانية والأرمنية والإنجليزية للمحافظة على كيان هذه الجاليات وذلك خوفًا من أن تذوب هذه الجاليات فى المحيط المصرى[٦].

ولذلك فقد تعلم اليونانيون اللغة العربية، وبدءوا يتجرون بأنواع معينة من التجارة فى مصر، وأخذوا يستقرون فيها غير أنهم شعروا أنهم لو تركوا أنفسهم هكذا فإنهم سوف يذوبون فى بحر الثقافة واللغة والعادات المصرية ذات الحضارة العريقة، فكان لابد لهم من أن يرسموا

---

(١) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة ، ج١ ، ص١٤٨؛ ١٤٩ ؛ عباس العقاد، الإمام محمد عبده ، عبقرى الإصلاح والتعليم، ص٣٣ .

(٢) إجازة بالفتيا والتدريس، وكانت تعطى هذه الشهادة للطالب الذى وصل إلي مستوى علمه لإصدار الفتاوى والتدريس بمقتضى هذه الشهادة بأن له شيخه فى أن يفتى وأن يدرس. وكان هذا النوع من الشهادات ينص على الإذن للطالب فى تدريس مادة أو مذهب معين فقهى والإفتاء به. (انظر: الشناوى، المرجع السابق، ج١ ، ص٤٩) .

(٣) أجازة بعراضة الكتب، كانت هذه الشهادة تعطى للطالب، إذا حفظ كتاب فى الفقه أو فى أصول الفقه أو النحو أو البلاغة أو الأدب أو غير ذلك (انظر : المرجع نفسه، ج١ ، ص١٤٩) .

(٤) أجازة بالمرويات على الاستدعاءات . وتعطى هذه الشهادة من علماء الأزهر إلى عالم يقيم فى بلد إسلامى آخر. ويعرف كل شئ عن إنتاجه العلمى وحسن الخلق. ولكن يعنى ذلك إعطاء هذه الشهادة عن طريق المراسلة، (نفسه ج١، ص١٥٠ ؛ الكيلانى، المرجع السابق، ص٤٢) .

(٥) Dunne, op. cit., pp. 86-87 .

(٦) M. Papastefanou , Greek Education in Egypt, p. 13؛ جرجس سلامة، المرجع السابق، ص٧٢ .

لأنفسهم خطة للمحافظة على عاداتهم وثقافتهم ولغتهم وكانت وسيلتهم لذلك هى المدارس اليونانية، التى اعتمدت على الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وعلى المنح الخاصة لذوى اليسار من أعضاء الجالية[١].

وكانت المواد التى تدرس فى المدارس اليونانية هى اللغة الإغريقية والفرنسية لجميع التلاميذ [٢].

أما التعليم فى المدارس الأرمنية ، فلم تبدأ مدارس الأرمن إلا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر [٣]. كما كان لهم مدارسهم الابتدائية التى ركزت مناهجها التعليمية على اللغات الأرمنية، والتركية والفرنسية، وبدرجة أقل على الانجليزية والألمانية، ودرست جغرافية الدولة العثمانية وتاريخها بشكل أساسى وجغرافية أرمنية وتاريخها بشكل غير رسمى. وكان لها أيضًا مدارس عالية مثل المدرسة المركزية الأرمنية بالآستانة ومدرسة سانا ساريان بأرخروم، وكذا مدارس لاهوتيه بقيصرية والقدس[٤].

وبدأ التعليم الإيطالى فى مصر فى القرن الثامن عشر على أيدى الفرنسيسكان ودرست بها اللغة الإيطالية، والفرنسية والحساب والإنجليزية واللغة العربية والجغرافيا والتاريخ والخط، وكان ذلك فى مراحل تعليمية مختلفة[٥].

وهكذا نرى أن أنواع التعليم اليونانى والأرمني والإيطالى قد قصد بها- فى أغلبها- المحافظة على عادات وثقافات ولغات هذه الجالية الأجنبية. وكانت هذه الأنواع من التعليم هى الوسيلة إلى تحقيق هذا الغرض إلى جانب صبغتها الدينية من حيث ارتباطها بالكنيسة وبرجال الدين بشكل أو بآخر . وليس فى كل هذه المناهج شئ عن مصر أو العالم العربى، والتلميذ فى هذه المدارس لايقرأ وجهة النظر المصرية العربية لأنه لايقرأ الكتب العربية.

---

(١) جرجس سلامة، المرجع السابق، ص٧٥ .

(٢) نفسه ، ص٧٦ .

(٣) نفسه ، ص٨٣ .

(٤) محمد رفعت الامام، تاريخ الجالية الأرمينية فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩، ص٣٤ .

(٥) نفسه، ص٩٧ .

٥- المكتبات :

واتصالاً بالتعليم فانه لايمكن أن يكون هناك نظام للتعليم فى مكان ما، دون أن يكون هناك مكتبة. وكانت هذه - المكتبات- فى المدارس والجوامع والخانقاوات وغير ذلك من أماكن العلم، تحقيقًا للفائدة المرجوة [(١)]، كما كان لكل رواق من الأروقة الموجودة فى الأزهر مكتبة كان يطلق عليها «كتبخانة»[(٢)] وبالجامع الأزهر حوالى ٩٠٠ مكتبة مملوءة بالكتب وسائر حاجات الناس طلبة العلم من طعام وشراب .

والجامع الأزهر حافل بالعلماء المصريين الذين يقومون بالقاء الدروس فى سبعين مكانًا ، فهناك رواق الروم (الترك) وله أوقاف كثيرة ، والرواق الغربى، والرواق المغربى وسائر الأروقة هى رواق الفنج ، ورواق الأكراد، والرواق البلخى، ورواق التتر ورواق الداغستانيين، ورواق العجم، ويقيم الطلبة بأروقتهم المخصصة لهم، ويتعلمون كافة العلوم المختلفة ، ولجميع الفقراء من طلبة الأزهر رزق مقرر وهو عبارة عن حساء الأرز والعدس ورغيف خبز، وفى كل ليلة جمعة يقدم إليهم الأرز واللحم بالبصل والحلو. وفيه قضاة حكام من المذاهب الأربعة، وله أوقاف كثيرة[(٣)].

بالإضافة إلى ذلك وجدت المكتبات الخاصة مثل مكتبة بيت الشواربى- حيث وجدت فيها أندر الكتب وأغلاها ثمنًا، وأباحوا لمن يشاء الاطلاع عليها من العلماء وأهل الفكر [(٤)].

أما نوعية الكتب التى تحويها هذه المكتبات فكانت بدورها تخضع للهدف الذى أنشئت من أجله المدرسه وخدمته، فكانت مكتبة المدرسة الشافعية خاصة بكتب فقه المذهب الشافعى وهكذا. أى أنها مكتبات متخصصة حسب المواد التى تدرس فى كل مدرسة طبقًا لنصوص لائحتها ومع ذلك وجدت الكثير من المدارس التى يدرس بها فقه المذاهب الأربعة، بالإضافة

---

(١) سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص٣٣٤ ؛ وإدوارد لين، المرجع السابق، ص١٨٤ .

(٢) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر، ج١ ، ص١٠١ .

(٣) أوليا چلبى، سياحتنامه مصر، ص٢٧٢، ٢٧٣ .

(٤) عبد العزيز الشناوى، المرجع السابق ، ج١، ص٢٥ .

إلى علوم الحديث والقراءات والنحو وغيرها. والمتعارف عليها فى تلك الفترة إن لم يكن كلها[١]، أى مكتباتها شاملة لمعظم مواد الدراسة.

وكانت تغذية المكتبات بالكتب مستمرة، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التى يحبسها صاحب المدرسة على خزانتها ، استمرت المكتبات تحصل على الجديد من الكتب إما عن طريق الهدايا والهبات ، وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء[٢].

ولم تخل مكتبة ذات شأن ، سواء كانت عامة أو خاصة من فهرس يرجع إليه لسهولة استعمال مجموعة الكتب، وكانت هذه الفهارس منظمة للغاية ، فهى تشمل الكتب التى بالمكتبة مرتبة على حسب موضوعها ، وبجانب هذه الفهارس العامة كانت هناك ورقة خاصة ملتصقة بكل دولاب من دواليب الكتب، وقد كتب على هذه الورقة عناوين الكتب التى يحويها ذلك الدولاب وأرقامها فيه ، وبالإضافة إلى عنوان الكتب ورقمه ، كانت الفهارس تشكل ملاحظات عن الكتب التى فقدت بعض أوراقها أو لم توجد أجزاؤها[٣].

وقد كانت عملية استعارة الكتب كفيلة بأن يستغنى بعض العلماء عن شراء الكتب ولم تكن الاستعارة على أية حال مطلقًا تمامًا ، بل وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وسيره، ولذلك كانت مكتبة القاهرة تعير الكتب إلى القاطنين فى القاهرة فقط[٤] وأحيانًا يدفع المستعير ضمانًا إذا كان من غير العلماء الأفاضل [٥]، ولايسمح للمستعير كتابة أى شئ أو يصلح أى خطأ ولايعيره لغيره وعليه أن يلتزم بالمدة المقررة للإعارة[٦]. وقد وجدت فى عهد مبكر عادة الاستهانة بالكتاب المستعار أو عدم رده ، وكان ذلك سببًا فى أن كره بعض العلماء والأدباء إعارة كتبهم خوفًا عليها[٧].

---

(١) عبد الغنى محمود، المرجع السابق، ص٢٥٠ .

(٢) سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص٣٣٤ .

(٣) أحمد شلبى ، تاريخ التربية فى الإسلام ، ص١٥ .

(٤) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، ص٥٦ .

(٥) أحمد شلبى، المرجع السابق، ص١٥٦ .

(٦) أحمد شلبى، المرجع السابق، ص١٥٦ .

(٧) عبد الحليم منتصر ، المرجع السابق، ص٥٧ .

أمـا إدارة هذه المكتـبـات فكانت فى «الخـازن» و«المتـرجم» و«النسـاخ» و«المجلد» و«المناول»:

وكـان «خازن الكتب» يشرف على المكتـبة ومـهـمتـه ترتيب الكتب وتنظيـمـهـا وحفظهـا وحبكها وترميمها بين حين آخر. فضلاً عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع ، لذلك كان يختـار لخزانة الكتب عـادة فقـيـهًا أو عـالمًا يراعـى فيـه سعـة العلم والأمـانـة. وأحيـانًا يكون للمكتبة أكثر من خازن واحد إذا كانت المكتبة كبيرة الحجم (١).

وكـان المتـرجم من مـوظفى المكتـبـة . يقـوم بنقل علـوم اليـونان والسـريان والقبط والفـرس والهنود إلى اللغة العربية، من الكتب المتخصصة فى الطب والفلك والكيمياء(٢).

أما النساخون وإن لم تكن وسائل الطباعة الحديثة قد وجدت بعد ، فعينوا نساخين عرفوا بالدقة وجودة الخط، وكانت الكتب الحديث يؤتى بها لهؤلاء النساخين، ينقلوا صورة منها تزود بها المكتبة ، فإذا ضن مؤلف الكتاب أو ملك باعارته بضعة أيام للناسخ خوفًا عليه، فانه من الممكن أن ينتقل إليـه النساخ ليقوم بعمليـة الكتـابة تحت إشرافه ، والحق أن هؤلاء النسـاخين أدوا واجبهم خير أداء . وأمدوا المكتبات بكل جديد وطريف دون تأخير أو تقصير(٣).

ووجد المجلدون متلازمين مع النساخين ، وأقدم ما عرف عن تجليد الكتب عند المسلمين هو الذى كان يقوم به الصناع المصريون المهرة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ثم تطور فن التجليد عند المسلمين حتى أصبح التذهيب والترويق شائعين، وأصبح مجلد الكتب فى العالم الإسلامى معروفًا باتقانه وسيطرته على هذا الفن الجميل(٤).

أما وظيفة المناولين فهى ، إرشاد القراء إلى موضع الكتب فى الرفوف ، إذا لم يعـرفوا طريقها ، أو إحضار الكتب لهم من أمكنتها إلى حيث يقرؤن، ومن هنا سمى من يؤدى ذلك العمل مناولاً . وهو لايتساوى مع الخازن ، وعمله يتساوى مع الخادمين أو الفراشين(٥).

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج٢، ص٣٦٦ .

(٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٤٦؛ إبراهيم طرخان، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط، ص٣٢٧ .

(٣) أحمد شلبى، المرجع السابق، ص١٦٤-١٦٥ .

(٤) نفسه، ص١٧٦ .

(٥) المقريزى ، ج١ ، ص١٧٦؛ عبد الحليم منتصر، المرجع السابق، ص٥٦ .

وكان بناء المكتبة مزوداً بحجرات متعددة ، تربط بينها أروقة فسيحة وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب ، وبعض الأروقة كان يخصص للاطلاع على الكتب، كما كانت تخصص بعض الحجرات للنسخ ، وبعضها لحلقات الدراسة، وانتظمت بعض المكتبات كذلك حجرات للموسيقى يلجأ إليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط. وكانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثًا فخمًا مريحًا ، وقد فرشت الأرض بالبسط، أما مدخل المكتبة فقد كانت له ستارة سميكة تحول دون دخول الهواء البارد فى الشتاء إلى الحجرات(١).

ونختم ذلك بالإشارة إلى «مكتبات الأسر» وكانت كثيرة وفى كل مدينة من المدن العربية . ولقد تعرضت المكتبات والكتب فى هذه المرحلة لحملة خفية من أوروبة، إذ أخذت دولها وعن طريق جالياتها التجارية فى المدن العربية وبعثاتها الدبلوماسية والتبشيرية تسعى جاهدة لشراء المخطوطات العربية ، وكان جهل بعض من يملكون تلك المخطوطات بقيمتها سببًا فى ترسبها إلى الخارج وبابخس الأثمان وأن ما تقتنيه مكتبات أوروبا اليوم من كنوز المخطوطات العربية فى مجال كثير من العلوم يرجع فى الدرجة الأولى إلى تلك المرحلة(٢).

٦- الإنفاق على التعليم:

كان يصرف عليه من الأوقاف من أرض وبيوت وأسواق ومعاصر زيت وغيرها وهى أوقاف يتفق مع ريعها على الكتاب أو المدرسة ومن فيها من مدرسين وطلاب علم وموظفين(٣).

وتسابق كل من الأهالى والأمراء والمماليك، وبعض الولاة العثمانيين في وقف الكثير من الأماكن للصرف على أماكن التعليم مثل المساجد والأسبلة والمدارس والبيمارستان وغيرها من أوجه الخير الأخرى مثل الصرف على أهالى مكة والمدينة والحرمين الشريفين(٤).

وأوقف بعض الأمراء المماليك للصرف على هذه الأماكن ، وحدد أوجه الصرف على بعض الأسبلة ، وإقامة الشعائر الإسلامية والتدريس داخل بعض المدافن ، كما حدد أيضًا المواد التى

---

(١) عبد الحليم منتصر ، المرجع السابق، ص٥٦ .

(٢) ليلى الصباغ ، الجاليات الأوروبية فى الشام، ج٢ ، ص٩٠٣-٩٠٧ ، نفس المؤلف، المرجع السابق، ج٢ ، ص٣٥١ .

(٣) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ص١٤٧-١٤٨ .

(٤) أرشيف الشهر العقارى بالقاهرة ، سجل الباب العالى، رقم ٢٤٢ ، مادة ٣٣٤، ص١٦٠ ، بتاريخ غرة محرم عام ١١٨٢هـ / ١٧٦٨ م ، سجلات القسمة العسكرية، أرقام ١١٥ مادة ٢٧ ، سجل ١٢٠ ، مادة ٥٧ سجل ١٥ مادة ٦٤ ، سجل ١٥٢ ، مادة ١٠٣ .

تدرس فيها مثل الفقه الحنفي والشافعي والمالكي . وحدد جهة الوقف ومساحتها والرواتب النقدية والعينية[١].

كما شملت الأوقاف عدة أماكن منها ما هو خاص بالتعليم في بعض الزوايا والأسبلة والمكاتب والجوامع، ويحدد الواقف هنا أوجه الصرف عليها، والقيام بأعمال تعميرها وصيانتها، وأحيانًا تكون هذه الأماكن خارج مصر مثل مكة والمدينة[٢].

ثم أوقف على كل ذلك وقفتين الأولى بتاريخ ١٠ شعبان عام ١١٨٣هـ / وتشمل أراضي زراعية من قرى القوصية بولاية الأشمونين تغل ٧١٨,٩٧٥ أردبًا من القمح سنويا . وأما الوقفية الثانية فتاريخها ١٨ ذى القعدة عام ١١٨٥هـ / ١٧٧١م.

وتشمل حوالى ١٧,٠٠٠ فدانا بنواحى طنطا وبلناج هذا عدا العقارات المبنية من وكايل وقيسارية وصهاريج وغيرها كان يبلغ صافي ريفها السنوى حوالى ٨٤٨,٥٢٥ نصف فضة[٣].

كما خصص مبلغ [٨٥,٠٠٠ نصف فضة) أى ما يعادل [٣٥٠ جنيها مصريًا] تقريبًا ، يصرف سنويًا فى ثمن كساوى تشترى لكافة العلماء والمجاورين والعميان والأيتام بالمسجد المرقوم من بغتة وزعابيط وقماش أبيض كل شخص بما يليق[٤].

---

(١) دار الوثائق القومية بالقلعة ، دفتر رزق ، رقم الحفظ النوعى ١١، عين (٦١) . مخزن تركي رقم (١) مسلسل عمومى ٤٦٢٥، وهى حجة وقف من الميراللو الشريف السلطانى الأمير صالح بك بجهة منية الخصيب بتاريخ ٤ ذو القعدة عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م فقد خصص المبلغ المنصرف للجامع ٣٢٦٠٠ نصف فضة (*) مرتبات للموظفين ؛ ٩٩٨ أردب غلال ، مبلغ ٢٠٠٤٧ نصف فضة ٦٣٠ أردب لعمال الساقية ، والمبلغ المخصص للمدفن هو ١٠٣٨ نصف فضة ٩٣٠ نصف فضة للفقهاء.

(نصفة فضة : نقد تركى ، ترجع أقدم إشارة إليه فى عام ١٥٨٣م، وقد ضرب أولاً من الفضة بقيمة أربع أقجات (أخشا) وسرعان ما اختلف مركز الأخشا باعتبارها الوحدة النقدية الصغرى، أصبحت الفضة تساوى ١: ٤٠ من القرش (انظر : عبد الرحمن فهمى، النقود المتداولة أيام الجبرتى، ضمن بحوث ندوة الجبرتى ، ص٥٧٣) والقرش فى الأصل تعريب Croshén الألمانية وهى تعنى البياستر Piaster أى النقد الأسبانى الفضة الذى ضرب وتداول فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى، ثم استقر التعامل التجارى مع بلدان الشرق العربى فى مصر، ضرب هذا النقد فى الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان الثانى (١٦٨٦-١٦٩٠م) وفى مصر ضربت القروش لأول مرة فى عهد على بك (١١٨٣هـ / ١٧٦٩م) انظر: عبد الرحمن فهمى، المرجع السابق، ص٥٢٥) .

(٢) محمد رفعت رمضان، على بك الكبير، ص٩٧ .

(٣) المرجع السابق، ص٩٨ .

(٤) نفسه .

كما خصص وقفية (١١٨٥هـ / ١٧٧١م) مبلغ ٢١٦٠ نصف فضة [أي حوالى ٧٢ جنيها مصريا] يصرف سنوياً فى معلوم رجل عالم من علماء الإسلام ، العاملين بكتاب الله تعالى. التابعين لسنة نبيه سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، يقرأ فى المسجد المذكور درساً من القرآن العظيم لتعليم السادة المجاورين بالمسجد المرقوم وأهالى الناحية المرقومة- طنطا)[١].

ومبلغ ٧٢٠ نصف فضة «يصرف سنويا فى معلوم رجل يعد مقرئ للمدرس المرقوم كما خصص مبلغ ٢١٦٠ نصف فضة يصرف سنويا فى معلوم رجل عالم من علماء المسلمين المحدثين يقرأ بالمسجد المرقوم فى كل يوم درساً من حديث البخارى للسادة المجاورين بالمسجد المذكور وغيرهم من أهالى الناحية المذكورة» ومبلغ ٧٢٠ نصف فضة يصرف سنويا فى معلوم رجل معيد للمدرس المذكور يكون فيه أهلية لذلك [٢].

أما علم الميقات فقد خصص له فى وقفية (١١٨٥هـ / ١٧٧١م) مبلغ ٣٦٠٠ نصف فضة يصرف سنوياً فى معلوم رجلين عالمين بعلم الميقات يعرّفان الأوقاف ليلا ونهاراً بالمسجد المرقوم، زيادة عن المعلوم بالوقف الأصلى أى وقفية ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م وقدره خمسة أرادب من القمح كل سنة [٣].

كما شملت الأوقاف عدة أماكن منها ما هو خاص بالتعليم فى بعض الزوايا والأسبلة والمكاتب والجوامع، ويحدد الواقف هنا أوجه الصرف عليها، والقيام بأعمال تعميرها وصيانتها ، وأحياناً تكون هذه الأماكن خارج مصر مثل مكة والمدينة[٤].

وقد أوقف الأمير محمد بك أبو الذهب الكثير من الحوانيت والقيسارات[٥] وأراضى زراعية فى ولاية الغربية، للصرف على المساجد ومنشآت التعليم مثل المدارس الملحقة

---

(١) محمد رفعت رمضان، على بك الكبير، ص٩٨ .

(٢) المرجع السابق، ص٩٨ .

(٣) نفسه، ص٩٩ .

(٤) دفتر ثانى الجيزة احباسى، رقم الحفظ النوعى ٦، عين (٦١) مخزن تركى رقم () مسلسل عمومى ٤٦٢٠ ، بتاريخ ٢٣ ربيع أول عام ١١٥٨هـ / ١٧٤٥م. وقد حدد الواقف مبلغ ٩٧٥٠ نصف فضة على المدرسة والمكتب.

(٥) القيسارية ، يتفق معظم الباحثين على أن كلمة القيسارية التى تعنى السوق المعمارية فى المدينة الإسلامية وهى: بمعنى السوق الإمبراطورى أو القيصرى، التى تقيمها الدولة، ويكون خاضعاً لإدارتها. بخلاف الفندق الذى يقيمه الأفراد وتؤول ملكيته إليهم، فى حين يفسرها بعض الدارسين بأنها سوق التجار، ويرى بعض الباحثين أنها اشتقاق من كلمة القصر العربية. =

بالمساجد[١]، وقد أوقف البعض من أمراء المماليك عدة أراضى للصرف منها على مكاتب وزوايا وأسبلة ، ومرتبات الموظفين العاملين بها [٢].

وأوقف بعض الولاة العثمانيين للكثير من الإحباسات للصرف على أماكن التعليم ، مثال ذلك سنان باشا ، الذى أوقف الكثير من أجل الصرف على جامع بالمحلة الكبرى مخصصًا للتدريس [٣]، كما أوقف بعض التجار المغاربة عدداً من القراريط للصرف على البيمارستان المنصورى[٤].

= والقيسارية مؤسسة تجارية متسعة النطاق ، تختلف نوعًا ما من مدينة إلى أخرى وتتكون فى بعض الأحيان من فناء مركزى فسيح به أروقة مسقوفة تقام فيها الحوانيت ، والمصانع الصغيرة والمخازن، ومنازل الغرباء من التجار على نمط الفندق أو لخان أو الوكالة ، وأحيانًا أخرى تتخذ شكل شارع مسقوف بقبوات من الآجر أو بمعروشات العنب أو بأسقف الخشب القرمدة أو يترك مكشوفًا وتتوزع على جانبيه حوانيت الباعة ، وأحيانًا ثالثة بشكل بدروبه المستقيمة الضيقة حبًا مصغراً من أحياء المدينة، وقد يكون ساحة فى الباعة ، وأحيانًا ثالثة بشكل بدروبه المستقيمة الضيقة حبًا مصغراً من أحياء المدينة، وقد يكون ساحة فى وسط المدينة تتوزع حولها المنشآت التجارية (انظر: أحمد الطوخى، القيساريات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس ، مجلة كلية الآداب سوهاج ، العدد (١٨) ، ١٩٨٢، ص٦٨، ٦٩ .

(١) دفتر الرزق رقم الحفظ النوعى (٦) ، عين (٦١) مخزن رقم (١) .

(٢) دفتر الرزق ، رقم الحفظ النوعى (٦) ، عين (٦١) مخزن رقم (١) مسلسل ٢٠٠ ، عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م من الأمير عبد الرحمن جاويش مستحفظات القازدغلى ملتزم ناحية جبارس . وقد حدد الواقف أغراض أخرى مثل فرش الجامع بالحصير ونوعها والشمع اللازم للإضاءة ونوعه ومرتبات ناظر الوقف والمساعدين له؛ ويحدد أيضًا مرتب الفقيه نظير تأديب الأطفال وتعليمهم (انظر دفتر الرزق ، رقم الحفظ النوعى (١١) عين (٦٢) مخزن تركى رقم (١٠) مسلسل عمومى ٤٦٢٥ كما حدد البعض المرتبات النقدية والعينية ، وشراء الورق والكراريس الخاصة بلوازم هذه المؤسسات وصيانتها. (انظر دفتر الرزق رقم ١١، عين (٦١) مخزن تركى رقم ١٠) مسلسل عمومى ٤٦٢٥ . حجة وقف من جانب الأمير صالح بك شاهين أميرالحاج المصرى سابقًا بتاريخ ٢٠ جمادى أول عام ١١٧٥هـ / ١٧٦١م) .

(٣) دفتر رزق ، رقم الحفظ النوعى (٦) مخزن تركى رقم مسلسل ٤٦٢٠ .

(٤) دفتر الرزق ، رقم الحفظ النوعى، (٥) ، عين (٦١) مخزن تركى رقم ٤٦٦٢ .

وأحيانًا يمتنع بعض الملتزمين عن دفع خراج الأوقاف وخراج الرزق المرصدة على المساجد، إبان حدوث أزمات سياسية فى البلاد مثل أزمة كوجك[١] محمد ولكنهم ألزموا بالدفع[٢].

وتكون عادة الأموال والممتلكات وفيرة بشكل واضح بحيث يسمح للصرف على هذه الأماكن من تعليم وكساء الأطفال الفقراء منهم مهما كان عددهم، وكان باستطاعة أى طالب أن يأتى إلى الأزهر ويتلقى علومه دون أن يدفع أى مبلغ . ويقول البعض أن الطلبة يأتون إلى الأزهر أو المدارس الأخرى من أجل وجبة الطعام التى تقدم لهم وهو أمر مبالغ فيه[٣].

كما كانت الإقامة الدائمة فى الرواق بالمجان طوال السنوات التى يقضيها كل منهم فى تحصيل العلم ورحابه ، ويوزع عليهم بدون مقابل نقود يومًا بعد يوم وفق نظام رتبت الجراية . وهى عدد معين من أرغفة الخبز، كما صرف لأعداد منهم مرتبات نقدية فى أول كل شهر هجرى ويقدم لطلبة الأروقة الأطعمة والحلوى والعطايا فى المناسبات الدينية كشهر رمضان المبارك والعيدين والمولد النبوى الشريف وما إلى ذلك[٤]. أما الفقيه فكان يصرف له بفتة محلاوى ومقطع قماش أبيض وشاش بلدى ثمنها ٢٠٠ نصف فضة مرة كل سنة ، كما كان يصرف لكل عريف جبة صوف ومقطع قماش أبيض ثمنها ١٥٠ نصف فضة[٥].

أما بالنسبة للمدارس الخاصة بالمسيحيين ، فكانت تعيش على الإعانات والعطايا الخيرية مثل الأديرة[٦] ومرتبات المدرسين ، وكان يحصل عليها من الأتعاب المتواضعة التى يجمعها من التلاميذ [٧].

---

(١) كوجك : كلمة كجك هو الكلمة التركية أى الصغير (انظر : أحمد السعيد ، المرجع السابق، ص٦٥) كما تعنى كلمة كوجك الصغير أو الحقير (انظر : على الشاذلى الفرا، ذكر ما وقع بين عسكر مصر المحروسة ص٣٩٣، هامش٤) .

(٢) دفتر الرزق ، رقم الحفظ النوعى (٦) ، عين (٦١) مخزن تركى ١ مسلسل ، ٤٦٢٠ .

(٣) G. ElShayyal, op. cit., p. 118 .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق، ج١ ، ص٢٤١؛ إدوارد لين ، المرجع السابق، ص١٨٦ .

(٥) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير، ص١٠٠ .

(٦) ج. دى. شايرول، المرجع السابق، ص٦٢ .

(٧) نفسه، ص٦٢ .

ومرتبات المدرسين فى المدارس اليهودية. فكانت أجرة المدرس فى المدارس المجانية تصل إلى ٥٥٤ قرشًا ، إلا أن هذا لايعنى ارتفاع أجور جميع المدرسين، فكان مدرس اللغة العبرية يتقاضى ١٠٧٧ قرشًا سنويًا ، ومدرس اللغة الإيطالية ٥٧٧ قرشًا ، ومدرس اللغة الفرنسية والجغرافيا ٣٨٥ قرشًا واللغة العربية ١٢٦ قرشًا فقط[١].

وكانت مرتبات مؤذن الأطفال تحدد على حسب شروط الواقف فقد خصص البعض مبلغا وقدره ستة أنصاف فضة شهريا[٢] وحدد آخر عشرين نصفا من النقود الجدد[٣] وحدد ثالث ثلاثين نصف فضة[٤] بالإضافة إلى المرتب العينى من الخبز يوميًا أربعة أرغفة[٥].

أما مرتبات المدرسين بالمساجد والمدارس فقد كانت تتراوح ما بين عشرين نصف[٦] وثلاثين نصف فضة شهريا[٧] وعلماء الأزهر فقد خصص لهم المرتبات النقدية إلى جانب المرتبات العينية ، حيث حدد لأحدهم مرتبًا سنويًا وقدره مائتان وإثنان وسبعون نصف فضة بجانب الجراية المخصصة له يوميا[٨].

وكان هناك أعطيات خاصة لشيوخ الأزهر وعلمائه . وكانت الدولة هى التى تشرف بصفة عامة على «الأوقاف الخيرية» ففى مصر مثلا كان يجرى فحص حسابات الأوقاف سنويا أمام الباشا، ثم ترسل نسخة منها إلى استانبول . وعندما يشغر منصب متولى الوقف، فإن القاضى الحنفى الرومى يقدم توصية رسمية إلى الباشا لصالح شخص عالم، وذى أخلاق مستقيمة لتعينه، ويوافق على ذلك «الخازن» فى الولاية. ولايعتبر تعينه نهائيًا حتى تأتى البراءة من أستانبول[٩].

---

(١) محمود الشال ، المرجع السابق، ص٣٤٢ .

(٢) حجة شرعية رقم ٢٩٨ بتاريخ ١٨ ذى القعدة عام ٩٣٤هـ / ١٥٢٨م .

(٣) حجة رقم ٣٥٧ بتاريخ ٤ صفر عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م.

(٤) حجة رقم ٣٦٢ بتاريخ ١٣ ذى الحجة عام ١٠٨٧هـ / ١٦٧٧م.

(٥) حجة رقم ٣٤٩ ، بتاريخ ٤ صفر عام ١٠٣٨هـ / ١٦٢٨م.

(٦) حجة رقم ٣٦٢ ، بتاريخ ١٣ ذى الحجة عام ١٠٨٧هـ / ١٦٧٧م.

(٧) سجل محكمة البحيرة رقم ٢٧، مادة ٢١١ ص١١١ بتاريخ أواخر شعبان عام ١١٠٣هـ/ ١٦٩٢ .

(٨) سجل تقارير النظر، رقم ٦، مادة ٤٦ ، ص٩١، بتاريخ ٢١ محرم عام ١١٦٤هـ/ ١٧٥ .

(٩) فريدون امجدن، المرجع السابق، ج٢ ، ص٣٣٤ .

كان ذلك بالنسبة لأوجه الإنفاق على التعليم فى مصر خلال هذه الفترة وقبل ذلك . فكان التعليم يقع على عاتق كل من الأمراء والأهالى على حسب أوقافهم وهذا بعكس أوروبا فان عبء التعليم وإنشاء مؤسساته العلمية ورعايتها تقع على عاتق الحكومات ، وهذا أدى إلى الوصول لدرجة عالية من التوهج العلمى والأدبى، وأنه خضعها بوسائل تشبه ما عليه مؤسساتنا المعاصرة[١].

رابعًا : هيئة التدريس :

إن الحديث عن هيئة التدريس تشمل الكتاب والمدرسة والمؤسسات التعليمية الأخرى، وأيضًا التعليم العالى، والمهام التى يقوم بها كل منهم.

فأعضاء هيئة التدريس بالكتاب تتمثل فى ، المعلم أو الفقيه أو المؤدب[٢] والعريف. وكان الفقيه يقضى وقتًا من حياته فى الأزهر أو تلقى العلم فى إحدى المدارس الملحقة بالمساجد الكبرى على يد متخرج من الأزهر[٣] وكان أغلبهم قليل الاطلاع والقليل منهم من يتعدى حفظه للقرآن وبعض الأناشيد والأدعية فيؤجرون تلاوتها وتلاوة القرآن الكريم، فى المناسبات الخاصة ، واشترط عليه أن يكون خيراً أمينًا على أطفال المسلمين، متين الخلق عفًا متزوجًا عارفًا بضاعته صالحًا للتعليم ، وربما كان فى المكتب أكثر من واحد، وعريف إذا تطلب كثرة الأطفال، ففى مثل هذه الحالة يعين له عدد من الأطفال، ليقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم[٤].

وكانت مهمته الإشرافية تتلخص فى الإشراف على تصرفات وتحركات الصبية داخل وخارج المكتب ، وعليه مراعاة ظروف الأطفال الاجتماعية والفروق الاقتصادية بينهم، فلايسمح لأطفال الأثرياء إحضار دكة أو غيرها للجلوس عليها، لأن ذلك ترفيعًا لابن الغنى على غيره[٥]، ويجب عليه أن يتحرى على أطفاله وأن يكونوا حسنى الخلق والسلوك، ألا يترك

---

(١) خوليان ريبرا، التربية الإسلامية فى الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيرها الغربية، ترجمة الطاهر أحمد مكى، ص١٢ .

(٢) مؤدب ، أشتق المؤدب من الأدب والأدب إنما خلق أو رواية ، وقد أطلقوا كلمة مؤدب على معلمى أولاد الملوك إذ كانوا يتولون الناحيتين جميعًا (أنظر: أحمد شلبى، تاريخ التربية فى الإسلام ، ص٥٨) .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عصر محمد على، ص٤-٨ .

(٤) سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص٢٣٥ .

بينهم أحداً ممن عرفوا بسوء الخلق، أو من يكون ناهز الاحتلام ، وله جرأة ويخشى عليه من الفساد ، لأن فى ذلك سبيلاً للوقيعة فى حق بعض الصبيان (١).

وعليه مراقبة الأطفال داخل المكتب حتى لايتشاغلوا باللعب عن دراستهم وألا يترك أحداً من الباعة يقف أمام المكتب حتى لايجذب انتباه الصبية إليه، وفى نفس الوقت يجب ألا يتشاغل هو عنهم بالحديث مع من يمر عليه من الناس أو القيام بأى عمل آخر سواء بالكتابة أو غيرها بغير ضرورة شرعية إلا إذا كان انشغاله فى الكتابة (٢).

وأن يتوخى الحذر فلايرسل أحداً من الصبيان إلى داره وهى خيالية، حتى لاينظر إليه الشك والتهم، وألا يرسل صبيًا مع امرأة ليكتب لها كتابًا ولاغير ذلك حرصًا على سمعة الصبيان، حتى لايستطيع أحد من النساء التغرير بهم (٣).

ويعلم الطفل احترام الناس ومراعاة الذوق والأدب طبقًا للعرب الجارى وأن يلقى السلام على من يدخل عليهم أو يمر بهم من الناس وخاصة الوالدين إذ يفترض على الأولاد تقبيل أيديهما عند الدخول والبر بهم(٤) بالإضافة إلى مهامه التعليمية.

وكانوا يخضعون لرقابة المحتسب ، فتقضى قوانين الحسبة ألا يعلم الخط فى المساجد، حتى لايعبث الأطفال بالكتابة على جدرانها ، وألا يستخدم الصبية فى قضاء حاجاته(٥) ألا بعد موافقة والده(٦).

وتصدر قرارات تعيين مؤدبى الأطفال من شيخ الإسلام، قاضى القضاة ، ويصدر بالقرار بأنه مؤدبًا ومعلمًا للأطفال فى مكتب تأديب الصبية، وحددت مرتباتهم الشهرية(٧) وكان بعض المؤدبين من المغاربة أحيانًا (٨).

---

(١) سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص١٠٣ .

(٢) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص١٠٣ .

(٣) إبراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ص٣٢٨ .

(٤) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق ص١٠٦ .

(٥) ابراهيم طرخان ، المرجع السابق، ص٣٢٨ .

(٦) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص١٠٦ .

(٧) جميل عرفه منتصر، دور علماء الأزهر فى مصر العثمانية، ص١٣٥ .

(٨) أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، سجلات المحكمة الشرعية ، سجل رقم٥ ، مادة ٣٥ ، ص١٣٤ .

أما العريف ، وهو في الأصل طالب متفوق، يقوم بمساعدة المعلم، لتعليم الأطفال الكتابة متدعيًا ضعف البصر[١] وهو أشبه بالمعيد فى الجامعات فى عصرنا الحالى، وغالبًا كان يأخذ مكان المعلم عندما ينتقل إلى مكان آخر أو عند موته [١].

أما أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة منهم المدرسون والمعيدين ، وكانت وظيفة المدرس فى العصر المملوكى جليلة القدر ، يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له توقعين من ديوان الإنشاء مختلف باختلاف المادة التى يدرسها المدرس تفسيراً كانت أوحديثًا . ويقدم السلطان النصح بأن يظهر «مكنون علمه» للطلاب ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه منشرح الصدر ليستميل إليه طلبته ويربيهم كما يربى الوالد ولده، «كذلك طلب منه» أن ينظر فى طلبته ويحثهم كل الوقت على الاشتغال[٣].

وقد اشترط فيمن يتولى التدريس بعض الصفات التى يجب أن تتوافر فيه، وفى مقدمتها الديانة والورع والتقوى بجانب ما يمتاز به من العلم فى فروع تخصصه .

وعليه أن يتدرج فى التعليم فى ذلك العصر قد اتسمت بطابع الأرستقراطية ، وليس ذلك بغريب فى مجتمع طبقى نمى غالبًا نحو الجمود، إذ حرض المدرسون على ألا ينظرون إلى زمرتهم من العوام[٤].

وينبغى أن يكون المدرس الموكل إليه بأمر التدريس قادراً على القيام بمهام وظيفته ، وأن يكون حافظًا للقرآن، وإذا ما رأى القاضى أنه أقل كفاءة ، مما يقتضيه العمل فباستطاعته أن يرغم القائم على أمر إدارة المدرسة أن يختار مدرسًا آخر أكفأ، ولكن مهنة التدريس لاتحظى بالعناية الكافية ومكانتها بالغة الضعف. وإذا ما كان المدرس كفئًا لحد أمكنه أن يجذب عدداً كبيراً من التلاميذ فله عندئذ أن يأمل بعض النفع ، وإلا فعليه أن يعيش خامل الذكر، وفى حال تقرب من العوز، وليس له أن ينتظر نفعًا[٥]، وفروع التخصص للمدرسين هى الفقه

---

(١) إدوارد لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ص٥٧؛ .Dunne, op. cit, p44

(٢) سيد إبراهيم الجيار، تاريخ التعليم الحديث فى مصر وأبعاده الثقافة، ص١١ .

(٣) .Dunne, op. cit, p. 34

(٤) إبراهيم طرخان ، المرجع السابق، ص٣٢٥ .

(٥) ج. دى شارل ، المرجع السابق، ص٦٢-٦٣ .

والتفسير والقراءات والحديث ، واشترط على كل متخصص منهم بعض الشروط [١]. فاشترط على مدرس الفقه أن يكون ملماً بالمذاهب الأربعة وكان منهم من هو دون المستوى الأمر الذى أدى إلى سخرية وتندر الناس بهم، وبالنسبة لعلم التفسير اشترط على مدرسه أن يكون قد سبق له دراسة علوم اللغة والنحو والتفسير والمعانى والبيان وعلم البديع والقراءات ، كما يستعين بأصول الفقه وعلم الحديث، واشترط على مدرس القراءات معرفة أنواع الرواية وأحكامها وشروط الرواة والتأكد من براءتهم من الجرح والفعلة ، وأضبط الكتب التى صنفت فى ذلك وأصحها رواية صحيح مسلم، وصحيح البخارى والسجستانى والترمذى وغيرهم[٢] واشترط فى مدرس الحديث أن يكون عالمًا فى اللغة والنحو حافظًا لحديث رسول الله ﷺ ، بطريقة الرواية والدراسة والعلم بأسماء الرجال، وطرق الأحاديث والمعرفة بالأسانيد [٣].

أما المعيد فقد ارتبطت وظيفته بالمدارس فى مصر منذ نشأتها . فقد عين صلاح الدين معيد بالمدرسة الناصرية المجاورة للشافعى ، إلى جانب مدرسها . وبعد ذلك رتب بعض الواقفين المعيدين فهو دون المدرس وأعظم درجة من الطلبة. ومن المعتقد أن هذه الوظيفة قد ظهرت فى القرن الخامس الهجرى، وارتبطت غالبًا بالمدارس التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن الخامس[٤].

ويختاره المدرس من أحسن تلاميذه النابغين المتفوقين ، وكانت وظيفته شرح بعض الدروس لمن يحتاج ذلك من الطلبة[٥] فقد حرص أن يكون فى بعض المدارس ، بعض المعيدين أو أكثر، ووظيفته تشبه إلى حد كبير وظيفة المعيد فى الجامعات فى العصر الحديث، وعليه أن يحضر الدروس التى يكلفه بها المدرس ليقرأها أثناء الدرس [٦]، وكان من الجائز أن يندب معيد للقيام بعمل مدرس فى مدرسة أخرى أو أن يرقى إلى مدرس فى نفس المدرسة[٧].

---

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق، ص٢٦٨-٢٦٩ .

(٢) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص٢٧١ .

(٣) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، ص٦٢ .

(٤) سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص٣٢٢؛ محمد سيد الكيلانى ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، ص٣٩ .

(٥) محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، ص٢٤٦ .

(٦) عبد الحليم منتصر ، المرجع السابق، ص٦٢ .

(٧) نفس، ص٦٢ .

وبالنسبة لأعضاء هيئة التدريس بالأزهر، لم يكن للأزهر قانون يقيد الدراسة فيه بنظام معين ، بل كان أساس ذلك رغبة الطالب نفسه، فهو الذى يختار دروسه ويختار أستاذه ، ويبقى فى الأزهر ما شاء له أن يبقى، إلى أن يأنس فى نفسه الكفاية فيتقدم بإذن الله من شيخه إلى حللقة درس يحضرها بعض الطلاب والأقران فيقرأ لهم ويناقشهم ويناقشوه ، فان فهموا وأفادوا منه أقبلوا عليه وازدحم درسه وكان ذلك بمثابة شهادة بأنه صار من العلماء ، وإن كان العكس انصرف هو إلى الاصلاح من شأنه وتكميل نقصه وترقية معلوماته .

على هذا النحو تكونت هيئة التدريس بالأزهر، وكان يرأسها شيخ الأزهر وهو «الإمام الأكبر لجميع رجال الدين العلم والدين بالنسبة لأهل العلم وحملة القرآن الشريف سواء كانوا منتسبين إلى الجامع الأزهر أو المعاهد الدينية أو الأقسام العامة أو غير منتسبين إليها . وكان ولىّ الأمر هو صاحب الشأن الأوحد فى تعيين شيخ الجامع، كلما خلا مكانه يختاره ممن اشتهر بين كبار أهله، بالعلم والدين والتقوى ويتعهد بالرعايتج والعطف وإنفاذ الكلمة ، واستمرت الحال على ذلك فلا قوانين مقررة ولا لوائح موضوعة حتى صدر أول قانون للأزهر فى عهد الخديو اسماعيل ، فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٨٨هـ / ٣ فبراير ١٨٧٣م وأهم ما فيه إنشاء شهادة «العالمية» ثم توالت القوانين واللوائح [١].

فكان يتم تعيين العضو بمرسوم يذكر اسمه مسبوقًا بالألقاب العلمية، ويشتمل المرسوم على توجيهات الأستاذ برعاية مصالح الطلبة، وإعزازهم والاشتمال عليهم، كما كانت هذه المراسيم تختلف صياغتها اللفظية من مرسوم إلى آخر. باختلاف المادة التى يسند تدريسها إلى الأستاذ من الفقه الشافعى، أو الفقه المالكى، أو الحديث أو الرقائق أو التفسير أو القراءات ، أو الدراسات اللغوية من نحو وصرف وغيره، أو الدراسات الأدبية وما إلى ذلك [٢].

ورتب لهم السلطان تراتيب عظيمة وخيرات كثيرة من جانب مال ميرى وغلال الميرى فى كل سنة . ولهم على الباشا فراوى وأصواف جيب حين حضوره بمصر[٣].

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ص١٢، ١٣ .

(٢) عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، ص-١٣٠ ؛ عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة، ج١، ص١٥٢ .

(٣) محمد شفيق غربال، المرجع السابق، ص٢٤ .

٨- الجهاز الإدارى فى المدارس والمؤسسات التعليمية الأخرى:

كان الجهاز الإدارى فى هذه المؤسسات ، يتكون من الناظر، والمباشرين، والجباه، والصيارفة، والشادية ، وكاتب الغيبة ، والوظائف الفنية مثل المرخم ، والمعمار، والسباك والنجار، بالإضافة إلى وظائف الخدمات ، مثل الوظائف الخاصة بالمطبخ ووظائف خاصة بالساقية والمزملة ، ووظائف خاصة بالنظافة والحراسة مثل الفراشين، القومة والبوابين.

فكان الناظر على قمة الجهاز الإدارى فى الوقف الخاص بالمدرسة، وفى بعض الأحيان يكون الواقف هو نفسه، أو ناظر يقرره الواقف نيابة ويتقاضى مرتبًا سنويًا مقابل القيام بنظارته . وكان يشترط فيمن يتولى وظيفة النظر على الأوقاف أن يتمتع بالكثير من الصفات الخلقية كالأمانة والكفاية والعدالة. ويقوم بتنفيذ شروط الواقف التى تعتبر اللائحة الإدارية الخاصة بالمدرسة والموظفين الذين جرى تعينهم فيها، وشروط العمل وشروط السكن سواء أكان ذلك بالمدرسة أو الخانقاه أو غير ذلك من المؤسسات التى أنشئت بغرض التعليم فى تلك الفترة[١].

ولم يكن يكن نظار المدارس من المصريين فقط بل شاركهم فى ذلك المغاربة[٢] والحجازين[٣] وعليهم جميعًا تنفيذ شروط الواقف من حيث الصرف على أجور المدرسين ، وصيانة المبانى وترميمها ، والمواد التى تدرس ، وإذا خالف البعض وصية الواقف، ففى مثل هذه الحالة يتدخل بعض العلماء ، ويصدروا فتوى بالزامهم بتدريس المواد على حسب شروط الواقف[٤].

---

(١) تقى الدين المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٣٦٣ ؛ محمود حامد الحسنى، الأسبلة فى مصر العثمانية، ص٣٠٣ .

(٢) أرشيف الشهر العقارى ، سجل رقم ٣، مادة ٦٠٨، ص٢٠٧ .

(٣) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٢٩، ص٦٦ .

(٤) سجل رقم ٩ ، مادة ١٤١، ص٤٥ .

والمباشرون ، ومهمتهم عمل حسابات الوقف وضبطه واستلام المتحصل من الجباه وصرفه على الوجه الذى حدده الواقف[١] والجباه، ويشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من أهل الذمة ، ويقوم بجباية ربع الأوقاف وأن تكون لديه المقدرة على تحصيلها ، وألا يترك قسطًا إلى أن يستحق قسطًا آخر[٢]. والصيرفى الذى يتولى صرف مستحقات الموظفين ، وقد يقوم الجابى أو المباشر بمهام هذه الوظيفة[٣] .

والشادية أو المشد، وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون ثقة أمين ومن أهل الخير والدين وله همة وأن يكون أمينًا جداً ، وهذه الوظيفة متعددة الجوانب إذ أن صاحبها يعتبر مشرفًا على الأقسام الثلاثة، إذ يقوم بالإشراف على العمارة وصيانتها ، والإشراف على العمال الفنيين، والمعاونة فى جباية ربع الأوقاف وعمل مصالحها بالإضافة إلى إشرافه على أرباب وظائف الخدمات بالمدرسة وحثهم على العمل[٤].

ويشترط فى كاتب الغيبة أن يكون من أهل الأمانة، ويكتب أسماء المتخلفين عن الحضور للمدرسة من سائر الموظفين فاذا كانت غيبة الموظف بدون عذر قطع عنه المعلوم عن الأيام التى تغيبها ، أما بالنسبة لغيبة الطلبة فغالبًا ما يقوم بها النقيب[٥].

أما الوظائف الفنية، فيتولاها المعمار، فهو المختص بأعمال الصيانة وتفقد المبانى وإصلاح ما يحتاج إليه الإصلاح فيها، والإشراف على العمال والفعلة أثناء عملية البناء أو الترميم ، وإحضار ما يحتاج إليه من المون والآلات وغير ذلك[٦] والمرخم ، ومهمته القيام بعملية تركيب الرخام وصيانته ، وإصلاح ما يتطلب ذلك من الرخام الذى بالجدران أو أرضية المدرسة وفسقيتها [٧]،والسباك ومهمته صيانة مجارى المياه بالمدرسة وإزالة العوائق التى تسدها[٨]

---

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص١٩٦-١٩٧ .

(٢) محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص٣٠٤ .

(٣) نفسه، ص٣٠٥ .

(٤) محمد عبد الستار عثمان، وثيقة جمال الدين الاستادار، ص١٥٨ .

(٥)عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص١٩٨-١٩٩ .

(٦) محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص١٦٩ .

(٧) محمد أمين، المرجع السابق، ص٣١٨ .

(٨) المرجع السابق، ص٣١٨ .

ومهمة النجار الأساسية صيانة السواقى المعدة لرفع الماء لما لها من أهمية فى حياة المقيمين بالمدرسة[١].

وبالنسبة لوظائف الخدمات بالمدرسة فتشمل المطبخ، وكانت وظيفة الطباخ من الوظائف النادرة فى المدارس. وكان أصحابها- المدارس- فى بادئ الأمر يؤجرون الطباخين لطهى ما يرغبون فيه فى مدارسهم. أما كون الطباخ موظفًا دائمًا فى المدرسة فهي وظيفة لم توجد إلا فى مدرسة السلطان برقوق [٢]. ويساعده واحد أو أكثر من المساعدين له يسمى حوائج كاشيد، واختصاصاته القيام بشراء احتياجات الطبخ وإحضارها للمدرسة، ويساعد الطباخ فى تأدية عمله والقيام بعملية النظافة داخل المطبخ . ويقوم بالإشراف على المطبخ أحد المشرفين تكون مهمته الإشراف على توزيع الطعام على مستحقيه [٣].

أما الوظائف الخاصة بالساقية والمزملة فكان السقا هو الذى يتولى نقل المياه من البحر الأعظم إلى صهاريج المدرسة أو الأسبلة الملتها، بالروايا والقرب على ظهور الجمال أو الحمير. وكان عملهم موسميًا أو سنويًا ولعدة أيام فقط، وغالبًا أثناء موسم الفيضان ولهذا كان يتم استئجارهم مقابل مبلغ محدد بعدها يمارسون عملهم فى الشوارع والبيوت[٤] وهذه الفئة لاتتبع الواقف أو ناظر الوقف وإنما كانوا تابعين لشيخ طائفتهم، والشروط التى يجب أن تتوافر فيهم، أن يكون رجلاً أمينًا لايخلط ماء البحر بغيره من المياه المالحة ، ولايتخذ راوية أو قربة جديدة حتى لايتغير طعم ولون ورائحة الماء من أثر الدباغة [٥].

والمزملاتى هو الموظف المختص بالعمل فى السبيل ، وكان عليه فتح وإغلاق السبيل فى الأوقات التى حددها الواقف فى كتاب وقفه، وعليه نقل الماء من الصهريج وصبه فى أحواض المزملة، ثم يتولى تفريقه على المارة والمترددين من الناس والطلبة فى أوقات الدراسة. وقد اشترط عليه أن يكون من الرجال ومسلمًا ، وأن يكون من أهل الخير والدين والصلاح ، نظيف

---

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطى، المرجع السابق، ص٢٠٢ .

(٢) نفسه ، ص٢٠٣ .

(٣) نفسه، ص٢٠٤ .

(٤) محمود حامد الحسينى، المرجع السابق، ص٣٠٧ .

(٥) المرجع السابق، ص٣٠٨ .

الشباب والبدن، سالمًا من العاهات ، قوى النهضة، قادر على العمل ورجل ثقة وأمينًا وجميل الهيئة[١].

وبالنسبة للوظائف الخاصة بالنظافة والحراسة ، فنجد أن الفراش يقوم برش الماء أمام المبنى وكنسه وتنظيفه ، وإنارته وهى من المهام التى تولاها المزملاتى . والقومة هو الذى يتولى الإشراف على إنارة المدرسة والمئذنة وتعمير القناديل ووقودها وطفيها وعمل الصيانة اللازمة لها من المسح والتنظيف[٢] والبواب هو الذى يقوم بحراسة باب المدرسة أو السبيل وغيره. وحفظ ما بها من متاع ومنع غير المرغوب فيهم من أرباب التهم والفساد وأصحاب الحرف الدنيئة من دخولها . وفى بعض الأحيان نجد أن البواب يقوم بوظيفة البوابة والفراشة والنظافة أن تمكن من القيام بذلك بمفرده ، فان تعذر فيمكن زيادة عدد الأفراد [٣].

وأخيراً علينا أن نذكر أن مؤسسى المدارس لم يهملوا الرعاية الطبية الشاملة للمدرسين والطلبة ومن معهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة سواء كانوا المقيمين بالمدرسة أو المقيمين خارجها، على أن هذه الرعاية لم تشمل كل المدارس كلها، ولكنها وجدت بالمدارس الكبيرة فقط[٤].

أما بالنسبة للأجازة بهذه المؤسسات التعليمية فإنها تبدأ من شهر رجب حتى الأسبوع الأول من شهر شوال ، ويقضى أعضاء هيئة التدريس والطلبة أجازاتهم فى مدنهم وقراهم ، والأجازة القصيرة هى الخاصة بالعيد الكبير ويقضى طلبة الصعيد والأجانب هذه الأجازة في الأزهر، وهذا بعكس طلبة الوجه البحرى[٥]. وبالنسبة للأروقة تأخذ الأجازة فى نفس الوقت أيضًا وتستمر فى تقديم الجرايات والمرتبات النقدية والأعطيات وما إلى ذلك من وجوه البر للطلبة المقيمين فيها على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم الدينية[٦]. أما أجازات الموظفين فهى أجازة الحج إلى بيت الله الحرام، وثلاثين يومًا لزيارة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه [٧].

---

(١) محمود حامد الحسينى، المرجع السابق،، ص٣٠٣ .

(٢) نفسه، ص٣٠٩ ؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى، ص٢٠٤ .

(٣) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق، ص٢٠٥ .

(٤) محمد أمين، المرجع السابق، ص٣٢٤ .

(٥) Dunne, op. cit., pp. 36-37 .

(٦) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة، ج١ ، ص٢٨٩ .

(٧) سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج٥ ، ص٢٦٦ .

أما الزى ، فإننا لانجد من المصادر شيئًا عن ملابس التلاميذ، فانه يبدو أنه لم يكن هناك زى معين ، أما بالنسبة للأزهر فان طلبة الأروقة يختلفون فى الزى لاختلاف بلادهم. وقد يلبس الطلبة الوافدون من الصعيد جلاليب زرق ذات خيوط بيضاء. وكان هذا النوع من الجلاليب يصنع فى أخميم أو فى جرجا. وقد يرتدى الطلبة الموسرون الثياب المفرنجة من جبب وقفاطين وجوارب فى أقدامهم تشبها بأهل القاهرة ، ولكن جميع الطلبة الأغنياء والفقراء، يتفقون فى غطاء الرأس وهو العمامة، ونادراً جداً أن يوجد طالب لايرتدى العمامة[1].

أما عن ملابس العلماء، فإنهم يلبسون العمائم ، ونظراً لأنها الجزء الأكبر أهمية فى ملابسهم ، فقد أطلق عليهم لكونهم طبقة قائمة بذاتها «أرباب العمائم» أو «المتعممون» . وهذا لايعنى أنهم كانوا الوحيدين الذين لهم عمائم فوق رؤوسهم ، غير أن عمائمهم كانت أكبر حجمًا وأكثر أهمية من عمائم الآخرين وتتضح أهمية العمائم عن بقية الملابس الأخرى عند الحديث عن العمائم الملونة التى كان يمكن بها تمييز المسيحيين واليهود عن المسلمين، حيث كان المسيحيون عمامتهم زرقاء واليهود صفراء[2].

وبصفة خاصة كانت ملابس العلماء من المسلمين تستند إلى الطبقة التى ينتمى إليها صاحبها فى الهيئة الاجتماعية أو المركز الذى يشغله ف خدمة الحكومة . وكان من المألوف أن يرتدى القضاة والعلماء عمائم كبيرة الحجم شاذة فى ضخامتها وكان لبعضهم أطراف عمائم أو ذوائب تسترسل بين الكتفين حتى تبلغ «قربوس» سروجهم إذا ركب ومنهم من يجعل عوض الذوابة الطيلسان العنق ، ويلبس فوق ثيابه دقًا (جبة) متسع الأكمام طويلها مفتوحًا من الأمام سابلاً على قدميه. أو يلبس بدل الدلق فرجية مرجة من أعلاها إلى أسفلها مزورة الأزرار[3].

---

(١) عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة، ج١، ص٢٩٥-٢٩٦؛ عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء والعرب فى تقدمه ، ص٦٤ .

(٢) ل.م. ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، ص٩٠ .

(٣) المرجع السابق، ص٩١ .

٩- تدهور التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر:

لقد تدهور التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر بشكل ملحوظ لدرجة أن أحد باشوات مصر، أحمد باشا (١١٦٢-١١٦٣هـ / ١٧٤٩-١٧٥٠م) كان رجلاً متعلمًا، ومغرمًا بالرياضيات . وعقب وصوله إلى القاهرة أعلن عن رغبته فى مقابلة علماء الأزهر، كى يناقشهم فى بعض المسائل الرياضية. وفى اجتماعية الأول لم يستطع العلماء الإجابة عن تلك الأسئلة ، ولكن ذكروا اسم أحدهم وله دراية بهذا الموضوع، وكان الشيخ حسن الجبرتى، وناقشه وأجاب، وقال له الشيخ عبدالله الشيرازى «ألا فليسترك الله كما سترت وجوهنا أمام الباشا فلو لم توجد لعدنا الباشا حميراً»(١).

وتوضح الدراسات والإنتاج الأدبى لهذا القرن على وجه العموم الخاصية ذاتها فى الانحلال، وأحيانًا يوصف هذا الانحلال بتركيز زائد على المؤلفات الدراسية والدينية والسحرية ، ولايشكل هذا إلا جزءاً من الحقيقة فالواقع أنه رغم أن الإنتاج التعليمى كان وفيراً إلا أنه كان قليل الأصالة.

وإننا لانتوقع غير ذلك ، لأن غرس الأدب كان يتوقف إلى حد كبير على تشجيع الكبار، كما أن إخضاع الأقاليم العربية للسيطرة العثمانية ، فقد حرمها من تأييدهم، اللهم إلا فى نطاق ضيق. ويذكر جب وبوون ذلك بقولهما «ويجب البحث عن الأسباب الرئيسية لتدهور الأدب فى أحوال وجودها ، وبخاصة فى إنعدام الاتصال المستمر بالعالم الخارجى» . ولما كان هذا الأدب يعوزه أى دافع صحى أو نقد يأتيه من الخارج ، لذا كان يعانى نوعًا من الانطواء، وكان يعيش على ماضيه . وحتى صلاته بالأدب المعاصر. التركى والفارسى، كانت صلاته طفيفة ، وباستثناء حلب وثمة سبب آخر لهذا الضعف ، وهو ضيق فى دائرة الأدب ، ونتائج المستويات الزائفة التى لامناص منها ... وهى التى ثبطت همة الابتكار والأصالة(٢).

ولذلك فإننا نجد أنه بالنسبة للمنهج الدراسى، فان المدرسين لم يكتبوا أى كتب جديدة أصيلة ، إذ أنهم قرروا الكتب القديمة التى كتبها من سبقوهم.

---

(١) G. El Din El Shyyal , some Aspects.. p. 118 . Dunne, op. cit., p. 78 .

(٢) G. El Din El Shyyal, op. cit., p. 118 .

ويتضح ذلك من تواريخ حياة العلماء وشيوخ العصر أن بعضهم كتب عدداً من الكتب والملازم ، ولكن لم يكن لأى من هذه الكتب فائدة كبرى، أو إضافة جديدة للمعرفة، وكل ما قاموا به ، هو كتابة تعليقات على النصوص القديمة أو إضافة مذكرات لهذه التعليقات ، وفى الواقع يمكن أن نطلق عليه عصر التعليقات[١].

ويمكن تقدير وضع مصر العلمى فى القرن الثامن عشر من خلال فحص كتب العلماء والمفكرين. وزيادة عدد المتصوفين ، وصارت الصوفية نوعًا من الهلوسة واعتقد الناس كثيراً فى السحر والخرافات ، وأعتبرت المصحات أماكن للأولياء واعتبر المعتوهين مشايخ محترمين. وكان المشايخ الذين كتبوا كثيرا أحجبة محل تقدير من قبل العامة والطبقة المثقفة[٢].

يمكننا أن نضيف أن نوع الحياة التى عاشها رجال الأدب فى خلال ذلك العصر كانت مسئولة أساسًا عن ضعف إنتاجهم، وهبط الوضع الاقتصادى ، وساد الفقر أيضًا لدى رجال الأدب، فأصبحت جوانب الإيحاء بالنسبة لهم قليلة ، لذلك أهملوا المعنى واهتموا بتجميل الأسلوب فحسب، وبذلوا قصارى جهدهم لكتابة أنواع من القصائد التى تقرأ من اليمين إلى اليسار والعكس، كما كتبوا كثيراً عن الأقاصى التى تشير إلى تاريخ وفاة رجل عظيم أو بناء أثر وهكذا .

وكانت علامات هذا الانحلال فى الحركة الثقافية جلية فى الكتابات التاريخية التى وصلت إلى وقفة حقيقية بعد استمرارها ، دون توقف منذ أيام ابن الحكم ما لم تعتبر كتابات الشعرانى : مثلاً كتاريخ وهو الذى كتب تواريخ حياة الصوفيين فى كتابه الطبقات الكبرى[٣]، وتدهور علم التاريخ، ويرجع ذلك إلى عدم اهتمام كتاب ذلك العصر بكتابات ودراسة علم التاريخ فكانت نظرتهم هابطة إلى هذا النوع من المعرفة[٤].

---

(١) توفيق الطويل، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، ص٢٥ .

(٢) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص٢٦ .

(٣) جرجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤ ، ص٥-٦ ؛ عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، ج١ ، ص٤٨-٤٩ ؛ عبد الله شحاته ، منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم ، ص١٢ ؛ أحمد بدوى، ، رفاعة الطهطاى، ص٦ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ج١ .

وفى الحقيقة ظهر بمصر خلال هذه الفترة عدداً من المؤرخين غير أنهم لم يكونوا ليتعارفوا بأسلافهم مؤرخى القرن الخامس عشر وهناك محاولات قليلة لكتابة التاريخ والبيبلوجرافيا من جانب الشيخ عبدالله الشبراوى الذى كتب تاريخه عن مصر، والجبرتى، وزين الدين أبو الملاح حسن ابن على حجاجى الفرار، وشمس الدين والأمير الحاج مصطفى بك والمرادى وغيرهم[١]. وفى الجغرافيا مثل بيرى بك عن «البحرية» وأورد كل المعلومات عن البحار والملاحة التى طورها رجال البحر والكتاب المسلمون خلال القرون السابقة مضافًا إليها تجاريه وتجارب رجال البحر الغربيين الذين وصلته معلوماتهم [٢].

وإذا كانت بعض المدارس قد تدهور فيها أنظمة التعليم ، نجد أن الأزهر على عكس ذلك. وذكرت بعض المصادر أسماء الأساتذة الذين تخرجوا فى الأزهر مثل الشيخ أحمد الدمنهورى والشيخ أحمد العرشى، والشيخ محمد البليدى والشيخ محمد الخالدى والشيخ الجعرانى وآخرون والشيخ مرتضى الزبيدى الذى تعلم فى جامع الحنفى، والشيخ الجبرتى والشيخ الشنوانى الذى كان يلقى دروسه فى جامع الفاكهانى[٣].

أما التعليم العسكرى فانه لم يكن بالمعنى المفهوم والدراسات الحديثة أثبتت محاولات إصلاح التعليم العسكرى للأتراك العثمانيين التى بدأت منذ عهد على بك الكبير وانتهت بحكم محمد على . على أية حال كان تعليمهم وتدريبهم يرجع إلى استعدادهم حيث أحضر المماليك إلى مصر ودخلوا فى الإسلام وتعلموا التركية والعربية وحفظوا بعض الآيات القرآنية، وتعلموا فن المبارزة واستخدام السيف وإطلاق النار، وكان ذلك كله طيلة العصور الوسطى، ولم يقفوا على التطور فى الأسلحة لدى الأوروبيين، ومن أجل ذلك ضعف نظامهم فى الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر . وبدأوا الاهتمام بالتعليم واستعانوا بالأوروبيين وخاصة اليونانيين ، وغيروا من نظامهم التعليمى ، واستخدموا المعدات الأوربية الحديثة ، رغم ذلك كله لم يهملوا الثقافة التركية . وبدأت الدولة العثمانية نفسها تستعين بالأوروبيين، ففى عهد السلطان عبد الحميد الأول بدأوا فى استخدام المهندسين الإنجليز في الأسطول العثمانى. كما افتتح السلطان مصطفى الثالث مدرسة لتعليم الرياضيات بمساعدة البارون دى توت

---

(١) الجبرتى ، المرجع السابق، ج١، ص٦ .

(٢) H. Dunne, Op. cit., p. 78 .

(٣) Ibid, p. 95 .

Bar on De Tout والمدرسة الفنية. وإنشاء السلطان سليم الثالث العديد من المدارس العسكرية والبحرية واستعان بالسويدين والفرنسيين[١].

وسار على نفس المنهج بكوات مصر، منتهزين فرصة وجود قبطان حسن باشا فى مصر (١٧٨٦-١٧٨٧م) لتطوير ذلك بوجود الضباط اليونانيين، وأراد كل من مراد بك وإبراهيم بك أن يساير هذا التطور، واعتمدوا فى ذلك على الأوروبيين، وكادت محاولاتهم تكلل بالنجاح لولا أنه فوجئوا بوصول الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م[٢].

وانحطت علوم أخرى مثل الفلسفة والفلك وإن كان قد ظهر بعض علماء الفلك فى القرن الثامن عشر ، مثل الشيخ رضوان الفلكى (ت ١١٢٢هـ / ١٧١٠م)[٣] والشيخ رمضان ابن صالح عمار (ت ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م) والشيخ حسن الهندى وغيرهم[٤].

ولكن الرد على ذلك كما أورده محمد شفيق غربال فى نقطتين مهمتين هما[٥]:

أ- ولكن الباحث المنصف لايستطيع أن يسلم بأن الأوروبيين فى القرن السادس عشر وما تلاه من الأونة ، كانوا على استعداد لأن يقدموا للشرقيين المسيحيين والمسلمين من رعايا السلطان ثمرات نهوضهم العلمى هدية خالصة . كما أن الباحث لايستطيع أن يجهل أن تقدم الحضارة كان فى أغلب الأحايين أسمًا مرادفًا لما كانت تقوم به الأسرات المالكة فى أوروبا من الحروب فى سبيل المجد ، ويشد أزر الملوك- ولكن فى سبيل المجد الأعلى- رجال الدين، وفى سبيل الاستقلال - رجال المال. أما والأمر كذلك، فلاسبيل إلى القول بأن الشرق العثمانى كان يستطيع الإفادة من النهضة الأوروبية دون أن ينزل عن رجولته وحريته .

ب- والصحيح فى مسألة الركود هو أن الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الأعياء، لم يكن الحكم العثمانى قادراً على أن يزيله عنها، فالعثمانيين كانوا قومًا يأخذون

---

(١) H. Dunne, op. cit., p. 78 .

(٢) H. Dunne, op. cit., p. 69 .

(٣) الجبرتى ، المرجع السابق، ج١ ، ص٧٤ .

(٤) نفسه، ج١ ، ص١٧٠ .

(٥) محمد شفيق غربال، مقدمة كتاب، حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، ص (هـ) .

ولايعطون ، تشهد بذلك خططهم وفنهم وآدابهم . فلم يكن منهم إلا أن نظموا ما وقع تحت سلطانهم فى ملك عريض وعملوا على ألا يتطرق إليه تغيير أو تعديل، شأنهم فى هذا شأن الدول الكبرى المتعددة الأجناس والأديان ، تتهددها دول أخرى معادية».

ومهما تكن الأسباب فإننا لانستطيع أن ننسى أن هذا الركود الطويل دفع مصر وسكانها إلى الانكماش داخل بلادهم ، كما تنكمش القوقعة داخل صدفتها، وطال إنكماش مصر وسكانها فأصيبت وأصيب سكانها بالضعف ، شأن المريض يطول به الرقاد . وتطول به الوحدة ، ولهذا لاتعجب إذا قرأنا وصف الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا على مصر والشام وسائر بلدان الدولة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر، أمثال سافارى وفولنى وغيرهما. قال فولنى يصف الحالة الصناعية والعلمية وقتذاك[1].

«الجهل عام فى هذه البلاد مثل سائر تركيا ، وهو يتناول كل الطبقات ، ويتجلى ذلك فى كل العوامل الأدبية والطبيعية وفى الفنون الجميلة و حتى الصناعات اليدوية ، فانها فى أبسط أحوالها ، ويندر أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة ، وإذا وجد فهو إفرنجى ، أما الصياغة فأصحابها فيها أكثر من أزمير وحلب ، لكنهم جهلاء ، وإنما يتقنون المنسوجات الحريرية وإن كانت أقل اتقانًا وأغلى ثمنًا من صنع أوروبا ، أما العلم فموجود فى الأزهر ووجوده فيها جعلها مرجع الطلاب فى الشرق الإسلامى».

ومع اقتراب نهاية القرن الثامن عشر ، تكشف أول علامة للإحياء الثقافى التلقائى ، كانت حركة داخلية انبعثت من داخل مصر ، وكانت مستقلة من أى نفوذ خارجى من الشرق والغرب . بدأ جماعة من الكتاب المصريين الذين ظهرو على المسرح الثقافى والذين لم يكن لهم نظير خلال القرون الثلاثة السابقة. لا فى عددهم ولا فى قدرة المادة التى أخرجوها ، فى مجال الدراسات الرياضية والفلكية تفوق الشيخ حسن الجبرتى، وفى مجال الأدب كان هناك الشيخ عبدالله الشبراوى، والشيخ حسن العطار (الذى شغل وقت ما منصب شيخ الأزهر) والشيخ إسماعيل الخشاب، وفى مجال الدراسات اللغوية والفقهية ، كان الشيخ محمد مرتضى الزبيدى، وفى التاريخ كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى.

كان محتملاً أن تأخذ هذه اليقظة شكل الإحياء الوطنى الذى يعيد إلى الوجود الأمجاد القديمة وأساطير الماضى بيد أن هذه اليقظة التلقائية قطعها مجئ الفرنسيين التى صحبها عدد من العلماء ورجال العلم الذين أحضروا معهم ملامح كثيرة لثقافة مغايرة تمام لما عرفه المصريين، اتصل عدد كبير من العلماء المصريين بهؤلاء وزاروا المعهد الذى أسسوه بالقاهرة،

كما زاروا المكتبة وأعجبوا بالمطبعة التى أحضروها معهم، ودهشوا بما رآه وبدأوا فى مقارنة ثقافتهم الخاصة بتلك التى أحضروها معهم الفرنسيون .

وكانت للجهود التى بذلها العلماء الفرنسيون أبعد الأثر فى مستقبل مصر الثقافى والفكرى، إذ أصبحت مصر شديدة الاتصال بفرنسا والتأثر بها فى هذين الميدانين، سيتوجه محمد على إليها ببعثاته ومطالبه من العلماء الاختصاصيين الذين يردهم وستزداد هذه الصلة على مر الأيام حتى يزول كل أثر للعداء بين فرنسا ومصر ، ويحل محل ذلك وئام وصلح وعلاقة هى أشبه بعلاقة التلميذ بالأستاذ ، بل سعتهم مصر فى كل مناسبة بالميل لفرنسا والعمل لمصلحتها ، وسيشقى محمد على بذلك كثيراً إذ لازال بالمرستون يرميه بأنه صنعة الفرنسيين وألعوبة فى أيديهم ويعارضه فى كل مشاريعه[١].

وأصبحت مصر ميدانًا خصبًا للثقافة الفرنسية والعلم الفرنسي وأصبح الأدب الفرنسى أحب ألوان الآداب إلى المصريين وأقربها إلى أنفسهم، وأصبح الفلاسفة الفرنسيون أئمة الفلسفة والفكر عند زعماء النهضة والثقافة فى مصر ، وقد بلغ من عمق هذا الأثر أن الإنجليز لم يفلحوا فى محاربته والقضاء عليه على الرغم مما بذلوا من جهود منذ احتلالهم لمصر[٢].

وحدثت بعد ذلك تطورات كثيرة فى مصر، إذ تم جلاء الفرنسيين عن مصر، وتطورت الأحداث ، وصار محمد على واليًا على مصر، وحل مجد جديد . وأدرك الحاكم الجديد منذ البداية أن مصر عليها أن تقلد الغرب إن كان فى هدفها إحياء حقيقى وإن لم يكن هذا غرضها تترك متخلفة عن التقدم ، ففتحت مدارس جديدة وأرسل الطلبة فى بعثات تعليمية إلى أوروبا. وفى تلك الظروف توقفت حركة الكتابة فى حين أن حركة الترجمة بدأت واستمرت طيلة عهد محمد على[٣].

على الرغم من أن الأزهر وفر المادة التى كونت الطبقة الفكرية الجديدة إلا أن هؤلاء شبوا بعيداً عن التقليدية بسبب تدريبهم الغربى، فرفاعة الطهطاوى- ذات مرة- رأى أن الأزهر ينبغى أن يركز على تدريس الدين واللغة العربية وأن يترك الفروع الأخرى للذين تأهلوا

---

(١) حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، ص٨٩ .

(٢) نفسه، ص٩٠ .

(٣) G.El Shyyal. op. cit., p. 129 جلال يحيى، مصر الحديثة ، ص١٨٥-١٩٢ ؛ توفيق الطويل التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، ص٣١ .

لتدريسها وحتى شيوخ الأزهر مثل حسن العطار شعر برياح التغيير وألح أن الأزهر يجب أن يؤدى دوره فى الإصلاح المقبل نفسه[١].

وقد لوحظ أنه لم يهتم بتعليم اللغات الأجنبية إلا فى عهد محمد على عندما أصدر أوامره بتعيين أحد القسيسين لإعطاء دروس فى اللغة الإيطالية لبعض تلاميذه فى القلعة ويعتبر هو أول أمر بتعلم اللغة الأجنبية بمدارس مصر[٢]، ولكن كان هناك فى مدارس الجاليات الأوروبية مثل مدرسة الرهبان الفرنسيسكان حيث يتعلم هناك الإيطالية بجانب اللغة العربية[٣] وتعلم البعض اللغة الفارسية واللغة التركية، مثل الشيخ حسن الجبرتى[٤] واتقن بعض المماليك اللغة العربية [٥].

وقد شهد القرن الثامن عشر أيضًا محاولات أخرى للنهضة فى علوم أخرى مثل علم الفلك، حيث كان يطلق عليه علم الهيئة ، والعلوم الأخرى فى نطاق ضيق، وهى الطبيعة والأحياء وكان يطلق عليها علم المواليد وكذلك الرياضيات من حساب وجبر وهندسة ومساحة[٦] وقد مهر أيضًا بعض علماء الأزهر فى دراسة الخط العربى وبحث أصوله وبدايته وتجويده وتطور أشكاله وأنواعه[٧] بالإضافة إلى أنه كان هناك بعض العلوم الأخرى مثل علم الفلاحة حيث أنه كان مهتمًا بخدمة الزراعة والفلاحين[٨].

وفى مجال الطب، تفوق بعض الأطباء منهم على سبيل المثال على بن جبريل المتطيب شيخ دار الشفاء بالمارستان المنصورى، والشريف قاسم بن محمد التونسى[٩] والشيخ أحمد

---

(١) Afaf Loutfe El Sayed , the Role of Uama, p. 152 .

(٢) أمين سامى باشا، تقويم النيل وعصر محمد على، ص٥٨٢ ؛ جمال الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى مصر فى عهد محمد على، ص١٢ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر ، عبد الرحمن الجبرتى ونقولا ترك، ص٦ .

(٤) نفسه، ص٧ .

(٥) G. El Din El Shyyal, op. cit., p. 119 .

(٦) الجبرتى، المرجع السابق، ج١ ، صفحات ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ؛ ج٢ صفحات ٢٥، ٢٧ .

(٧) نفسه، ج١ ، ص٢١٩-٣٩٢ ؛ H. Dunne, op. cit., p. 79

(٨) H. Dunne, op. cit., p. 90 .

(٩) الجبرتى ، المرجع السابق، ج٢، ص٢٠-٢٧ .

الدمنهوري ، حيث كان له عدة مؤلفات منها «القول الصريح في علم التشريح» ، و«القول الأقرب في لسع العقرب» ، والشيخ أبو العباس أحمد بن عمر الديربي له مؤلف مشهور سماه «فتح الملك المجيد لنفع العبد» و«مجرية الديربي في الطب»[1].

وهكذا نرى أن نهاية القرن الثامن عشر قد شهد محاولات في جميع المجالات العلمية والأدبية ، وكادت أن تنجح هذه المحاولات لولا أن فوجئت مصر بالحملة الفرنسية، وما لها من نتائج وخاصة في المجال العلمي، وما تتبع ذلك من أحداث في مصر نفسها. وانتهت هذه الأحداث بتولية محمد علي باشوية مصر وما اتخذه من خطوات في جميع المجالات ومنها التعليم.

---

(١) نفسه، ج١ ص١٦١ . H. Dunne, op. cit, p. 77

الفصل الخامس

الأوبئة والأزمات الاقتصادية في مصر العثمانية

(٩٢٣-١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م)

تعرضت مصر فى أثناء الحكم العثمانى للكثير من الكوارث والأزمات ، وكان من أهم هذه الكوارث انتشار الأوبئة فى فترات متعاقبة فعرض ذلك مصر من أقصاها إلى أقصاها لمخاطر جمة ، كما أنها تعرضت لأزمات اقتصادية طاحنة خلال تلك الفترة ، وسوف اتحدث عن :

أ- الأوبئة :

فأما عن الأوبئة - فقد تم التعرُّض للأوبئة التى وقعت فى مصر العثمانية فى الفترة ما بين ٩٢٣-١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م ، وقد نتجت هذه الأوبئة عن سوء الأحوال الصحية ، فضلا على أن الدولة العثمانية لم تهتم بتلك الشئون على الاطلاق ، شأنها فى ذلك شأن الكثير من الدول سواء فى الشرق أو الغرب فى تلك الفترة ، وتركت هذه الأمور للأهالى يتصرفون فيها بوسائلهم الخاصة ، فزاد ذلك من مخاطر تلك الأوبئة على حياةالناس . وكان ما اتخذته الدولة حيال انتشار الوباء أنها كانت تصدر أوامرها إلى الأهالى بضرورة الاهتمام بنظافة شوارع القاهرة ، وترسل المنادين لكى يعلنوا ذلك للسكان فى حوارى المدينة ، يطالبون بكنسها ورشها بالمياه ، كما جرت العادة بذلك ، لكى تكون نظيفة وطاهرة ، ومن لم يقم بتنفيذ هذه الأوامر يعاقب أشد العقاب ، لكى لايترك مكان غير نظيف فى الحوارى والأسواق(١) .

وقد شهدت مصر انتشار الطاعون(٢) فى إبان ولاية مسيح باشا (٩٨٣-٩٨٨هـ/١٥٧٥-١٥٨٠م) فلم يتخذ أية اجراءات لمواجهة هذه المرض ، ومما زاد الموقف سوءا ارتفاع

---

(١) قانون نامه سليمان ، المرجع السابق ، ص٨٤ ، مادة ٤٣ .

(٢) الطاعون : مرض وبائى عفوى معد تتسبب فيه جرثومه من نوع العصبات (Bacilles) تعرف علميا بـ (Yersinia Pesty) نسبة إلى العالم الفرنسى الكسندر ييرسين (A. Yersin) الذى تمكن فى أواخر القرن التاسع عشر من عزل العصبة المتسببة فى هذا المرض ، وذلك خلال وباء الطاعون الذى انتشر أيضا فى بلاد الصين سنة ١٨٩٤ ، كما تمكن باحث آخر هو Pl. Simond عام ١٨٩٨م من اكتشاف الدويبة الطفيلية =

أسعار السلع الغذائية الرئيسية فى الأسواق ، ويرجع ذلك إلى اختلال قيمة النقد والاقتصاد العثمانى بصفة عامة[١] .

وانتشر الطاعون مرة أخرى فى فترة على باشا السلحدار الذى حكم فى الفترة ما بين {١٠١٠-١٠١٣هـ/١٦٠١-١٦٠٣م} وقد أودى هذا المرض بحياة الكثير من السكان بسبب سوء الأحوال الصحية لأن العثمانين لم يهتموا مطلقا بصحة المواطنين اذ كان جل اهتمامهم النواحى العسكرية ، وكان يموت فى القاهرة بسبب هذا الوباء ألف شخص يوميا ، وقد إنتهز الوالى هذه الفرصة فأمر أمين بيت المال[٢] ألا يكشف عن أموال المتوفين وكان هدفه من ذلك

= الناقلة لجرثومة المرض ، وهى برغوت الفأر الذى يتسبب فى نقل الداء من فأر إلى فأر ومن الفأر إلى الانسان ، ويمكن فى هذا العصر الوقاية من الطاعون بالتطعيم والعلاج من اصاباته بالمبيدات الحيوية الخاصة بذلك .

واشتهر هذا الوباء فى أوروبا بالوباء الأسود (بالفرنسية La tpeste noire – وكلمة Peste كانت تعنى فى العصور القديمة "الوباء" أما اليوم فمعناها الطاعون خاصة . وقد اثبتت الدراسات الحديثة أن هذا الوباء كان مبدؤه فى بلاد الصين كما بين ابن خاتمة الانصارى فى كتابة "تحصيل غرض القاصد ، ومنها انتقل إلى معظم البلاد التى اجتاحها (انظر : محمد العربى الخطابى ، الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية ، جـ٢ . بيروت عام ١٩٨٨م ، ص١٥٣) .

ويقرر علم الطب المعاصر أن الإصابة بالطاعون تظهر بصور ثلاث (١) الطاعون الدبلى (ضم الدال) وهو من صنف الطراعين بمعنى الدماميل القاتلة ويسمى باللاتينيه Bubonie مشتق من Bubon أى الدبل ٢١) الطاعون الانتفس وهو تركيب مزجى لعبارة "إنتان دموى" كما جاء فى المعجم الطبى الموحد ويطلق عليه Septiencenic (٣) الطاعون الرئوى "Pulmonaire" وهوأخطرها وأشدها فتكا وكل هذا قريب مما قاله ابن خاتمة فى الأصناف الثلاثة . {انظر ، محمد العربى الخطابى ، المرجع السابق ، ١٥٧} .

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص٥٦-٥٧ .

(٢) بيت المال : التزام ما يعود للخزينة من رسوم وحقوق وميراث من لا وارث له من عامه الناس أو من رجال الدولة وجندها وموظفيها . {انظر : ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٤٤٥} .

مصادرة تلك الأموال لمواجهة الأزمة الاقتصادية التى كانت تمر بها البلاد[١] مراعياً فى ذلك نص قانون نامة على عدم ابتزاز الأموال الخاصة بالمتوفى قبل الاعلان عنه ، حتى لا يوجه إليه تهمة استغلاله لمنصبه فى ابتزاز الأهالى ، قبل التصريح لهم بدفن موتاهم ، ووجوب دفن الموتى فى يوم وفاتهم ، وأن يحصل الأمين من تركته لبيت المال[٢] . ان وجد ، واذا خالف ذلك وقع عليه الدفتردار وناظر الأموال ، عقوبة وقد تكرر انتشار هذا الوباء . ففى حكم جعفر باشا ٩ ربيع الأول ١٠٢٨هـ/١٤ شعبان ١٠٢٨هـ/٢٤ فبراير ١٦١٩م - ٢٧ يوليو ١٦١٩م انتشر الطاعون وعرف باسمه فى مصر[٣] . وقد فتك هذا الوباء بالشباب والفتيات، وبعدد كبير من الأمراء والأعيان وكبار رجال الولاية منهم ناظر الجوالى [٤] وأمير اللواء الشريف ، وقابودان دمياط ، وكتخدا حاكم مكة المشرفة وكانت صلاة الجنازة تقام فى الجامع الأزهر وقدر عدد المتوفين بتسعمائة وثلاثين وقد تم حصر عدد من توفى نتيجة انتشار هذا الوباء فكان نحوا من ستمائة ألف وخمسة وثلاثين هذا بخلاف الذين لم يتم تسجيلهم .

ونتيجة لانتشار هذا الوباء أغلقت جميع أسواق مصر ، عدا الأسواق الخاصة ببيع الأكفان ، وأصدر جعفر باشا أوامره بعدم التعرض لدفن الموتى ، وصار الأهالى يدفنون موتاهم ليلا ونهارا .

ويبدو أن ثمار النارنج كانت تستخدم لعلاج هذا الوباء ، والدليل على ذلك ارتفاع سعرها إلى خمسة عشر نصف فضة[٥] وقد أدى ذلك إلى حدوث أزمة اقتصادية حادة اذ ارتفعت الأسعار بشكل لم يسبق له مثيل[٦] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزارة والباشات ، ص١٢٧-١٢٩ .

(٢) قانون نامه، المرجع السابق، ص٧٥-٧٦ ، مادة ٣٤ .

(٣) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص٧٠.

(٤) ناظر الجوالى : وهو المختص بجميع ايرادات ضريبة الجوالى المقررة على أهل الذمة ، ويصرف على الجزء المخصص منها للانفاق فى مصر على المستحق لذلك . [انظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ، ابان العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص٢٦] .

(٥) محمد بن ابى السرور البكرى ، الروضة الزهية . ص٢٧٦-٢٧٩ ، نفسه ، اللطائف الربانية فى المنح الرحمانية ص٣٠ ، أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص١٣٧ .

(٦) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٣٧ .

الولاة والطاعون :

ومن الملاحظ فى فترات انتشار هذا الوباء . فى مصر أن الحكام والولاء كانوا هم أيضا وباء أشد فتكا من الطاعون ، ومن أمثلة ذلك أن الوالى مصطفى باشا الذى حكم فى الفترة مابين ٢٧ رمضان عام ١٠٢٨هـ و١٧ رمضان عام ١٠٢٩هـ/١٧ سبتمبر ١٦١٩- ١٦ أغسطس ١٦٢٠م استغل الموقف وارتكب الكثير من المظالم ، خاصة ضد التجار وأصحاب الأموال . وكثرت العوانية فى عهده ، ومع ذلك لم يقم الأهالى بثورة ضده أو مقاومته ، ويمكن تفسير ذلك بأن آثار الطاعون قد أضعفت من مقاومة السكان واستعدادهم للثورة كما أن الذين تعرضوا لظلم الباشا كانوا من التجار ، وليسوا من العساكر الذين يمكنهم الثورة بسهولة، وكل مافعله التجار وأصحاب الأموال أنهم أرسلوا شكاوى إلى استانبول[١] واستمر انتشار الطاعون حتى ولاية قرة حسين باشا الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٢٨-١٠٣١هـ/ ١٦٢٠-١٦٢٢م[٢] وظل الوباء منتشرا حتى ولاية مصطفى باشا الجن الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٣٢و١٠٣٥هـ/١٦٢٣-١٦٢٥م ولنا أن نتصور مقدار الخسارة التى حلت بالأهالى نتيجة انتشار هذا الطاعون لطول مدته . وعلى حسب تقدير بيت المال توفى بسببه ثلاثمائه ألف نسمة ، وهذا يعتبر تقريرا رسميا ، بالإضافة إلى من لم يشملهم التقرير ، ونتج عن ذلك الغلاء الفاحش ، وذلك لوقف ورود الغلال والمواشى إلى القاهرة[٣] .

وقد انتشر الوباء فى ولاية مقصود باشا الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٥٢هـ و١٦٤٢-١٦٤٣م مدة سبعة أشهر من مدة حكمه ، وهى نحو سنة واحدة[٤] ، وتوفى بسببه الكثير من الرجال والنساء ، ووقع الرعب فى قلوب الأهالى من انتظار الموت ، وصارت الجنائز تمر فى مثل قطار الجمال كل ثلاثين دفعة واحدة[٥] وأصبح الصراخ والعويل سمة واضحة

---

(١) عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت على مصر ، ص٢٥٦ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ ، يوسف الملوانى المرجع السابق ، لوحة ٩٣ ب .

(٣) نفسه ، نفسه.

(٤) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، بوحة ٩٨ أ .

(٥) ابى السرور البكرى ، الكواكب السائرة ، ورقه ٤٣ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٣٨ .

في جميع المنازل ، وقد ذكرت المصادر المعاصرة لتلك الفترة أن عدد الجنائز في جوامع القاهرة فقط على النحو التالي[١] .

في الجامع الأزهر بلغ عدد المتوفين ستمائة واثنين وستين ، وفي جامع باب النصر خمسائة وأربعين متوفى ، وجامع الشيخوختين خمسائة متوفى ، وجامع الماس أربعمائة متوفى ، وجامع المارداني ثلاثمائة متوفى ، بالإضافة إلى المتوفين الذين تم الصلاة عليهم في منازلهم أو في الجوامع القريبة منهم[٢] .

ونظرا لكثرة عدد المتوفين ، أمر مقصود باشا بعدم الكشف على عدد الأموات ، وترتب على ذلك أزمة اقتصادية وأفلس الكثير من التجار وافتقر الكثير من الناس[٣] وكان نتيجة ذلك أن توفر لدى الوالي مائتا ألف عثماني[٤] واثنا عشر ألف إردب شهريا من القمح من الجرايات إلى مال الخزينة ، أما حلوان البلاد ، فقد ضمة إلى ضريبة الميري .

واستغل حيدر باشا انتشار الطاعون في عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م . ومارس سياسة الظلم ضد الأهالي ، ففي الوقت الذي كان فيه الصراع بين البيوتات المملوكية على أشده ، كان الطاعون يفني الناس ، ولم تتخذ معه أي اجراءات وقائية[٥] .

وأحيانا كان ضمن ضحايا الطاعون ، المعروف بالطاعون الحبشي ، شخصيات كبيرة من العلماء ، والمشايخ ، مثل الشيخ أحمد السويدي ، والشيخ علي الأجهوري ، في ولاية ابوالنور محمد باشا الذي حكم في الفترة مابين١٠٦٣ و١٠٦٦هـ/١٦٥٢ و١٦٥٦م([٦]) .

---

(١) أبي السرور البكري، الكواكب السائحة، ورقة ٤٣ .

(٢) نفسه .

(٣) يوسف الملواني ، المرجع السابق ، لوحة ٩٨ أ .

(٤) عثماني : اسم لعملة تركية فضية سكت في عصر السلطان عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢م) بمعرفة باكبر أفندي بناء على الفرمان الصادر في غرة محرم ١٠٢٨هـ/١٦١٨م ، بعد سبعة أشهر من جلوس السلطان، وكان العثماني يساوي نصف بارة . [انظر ابراهيم يونس ، المرجع السابق ، ص٢٠٢] .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص٢٧١ .

(٦) يوسف الملواني ، المرجع السابق لوحة ١٠١ ، أحمد شلبي عبد الغني ، المرجع السابق ، ص١٥٥ .

ولم يكن الطاعون نوعا واحدا ، بل كان أنواعا ، فهناك الطاعون الأصفر الذى عرف بالموت الأصفر ، لأنه إذا أصيب به أي انسان ، إصفر وجهه وجلده وقد انتشر ذلك الطاعون فى ابان ولاية ابراهيم البستنجي الذى حكم فى الفترة من ٢٠ شوال ١٠٧٧هـ إلى ١٧ رجب ١٠٧٧هـ/ ١٥ ابريل ١٦٦٧ - ٢ يناير ١٦٦٨م[١] .

كما انتشر طاعون الحريق ابان ولاية ابراهيم باشا الوزير الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٨١ و١٠٨٤هـ/ ١٦٧٠-١٦٧٣م وقد استغل بعض الانتهازيين هذا الموقف وقاموا بتزييف العملة ، فإمتنع الناس عن تداولها[٢] .

وشهد عهد الوالى إسماعيل باشا انتشار الطاعون أيضا فى عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م ، ويبدو أن هذا الطاعون كان منتشرا بدرجة كبيرة ، فقد كان الأهالى يتساقطون يوميا بالآلاف ، وامتلأت بهم الأزقة والحارات ، فأدى هذا إلى حدوث أزمة فى القبور ، وقد ساهم أهل الخير فى بناء عدد كثير منها ، وكان اللحادون يقومون بغسل الموتى ويدفنونهم ليلا[٣] ونتيجة لذلك واجهت مصر أزمة اقتصادية طاحنة بسبب تلاعب الملتزمين [٤] بالأموال الأميرية ، وبسبب استيلاء هذا الوالى على أموال المتوفين ، ولكى يخفف من وطأة هذه الكارثة على الناس أمر السناجق والملتزمين بإطعام الفقراء ، وأدى ذلك إلى نقمة السناجق والملتزمين[٥] .

---

(١) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٧ أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧٠ .

(٢) نفسه ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٧ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧٠ .

(٣) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص٢٩ ؛ عبدالله الشرقاوى ، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين ، تحقيق وتعليق رحاب عبد الحميد مدبولى ، القاهرة، ١٩٩٦، ص١١١ .

(٤) الملتزم : كان الالتزام من قديم الزمان مخصصا للأوجاقات والمماليك والجلبية وبعض من التجار والأفندية ، والحريات ، والهوارة ، وأرباب السجاجيد ، وبعض من العلماء والمشايخ . [انظر ، محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٣٦] .

(٥) مؤلف مجهول ، أهل القرن الثانى عشر الهجرى، تاريخ المماليك فى القاهرة ، لوحه ٤٥ أ ، ٤٩ ب ابراهيم الصوالحى ، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، لوحة ٥ ب ٢٨ أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٨٨ ، عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، الاسكندرية عام ١٩٨٨م . ص٥-٥٨ .

وهكذا نرى أن الوالى العثمانى - فى هذه الفترة - بدلا من أن يقوم بواجبه كحاكم مسئول بتدبير الطعام للفقراء نجده يلزم الملتزمين والسناجق بإطعامهم ولم يكتف بهذا العبء بل كان يستغل الموقف ويقوم بمصادرة أموال المتوفين ، ولم يراع فى ذلك حقوق الورثة الشرعيين فى هذه الأموال .

وانتشر طاعون النار كذلك فى مصر العثمانية عام ١١٢٥هـ/١٧١٢م أثناء ولاية ولى باشا ، وتوفى بسبب هذا المرض كثير من الناس ، وتوفى بعض العلماء بسببه فكان منهم الشيخ أحمد النفراوى شيخ الجامع الأزهر[١] .

وأحيانا تكون كارثة الطاعون شاملة لاتقف عند حد معين ، ففى عام ١١٣٠هـ/١٧١٧م أى فى ولاية على باشا الأزمرلى الذى حكم فى الفترة مابين ١١٢٩ و١١٣٣هـ/١٧١٧-١٧٢٠م انتشر هذا المرض الأسود فى كل أنحاء مصر وتوفى على اثره كثير من الشباب والأطفال وبعض أمراء المماليك منهم عثمان بك بارم ديلو فى طيلون[٢] وابراهيم بك أبو شنب دفتردار مصر[٣] .

وفى عام ١١٣٨هـ/١٧٢٦م شهدت مصر طاعونا لم تشهده من قبل توفى على أثره كثير من الناس ، حتى إن الأهالى كانوا يتساقطون على الأرض وهم سائرون ، وأصبحت المنازل خالية من السكان ، وتوفى بسبب هذا شيخ الاسلام محمد الصغير المغربى ، ومحمد بك أبوشنب[٤] واستمر هذا الطاعون فى الانتشار حتى عام ١١٣٩هـ/١٧٢٨م . ولنا أن نتصور أثر استمراره فى صحة الأهالى ، وكان ذلك ابان ولاية محمد باشا النشنجى الذى حكم فى الفترة ما بين ١١ جمادى الآخرة عام ١١٣٨هـ - ١١ محرم ١١٤١هـ/ الموافق ١٥ فبراير ١٧٢٦ - ١٧ أغسطس ١٧٢٨م[٥] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٦١ .

(٢) نفسه ، ص٢٩٣ .

(٣) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، مصطفى بن الحاج ابراهيم ، تابع الأمير حسن كتخدا عزبان ، تحقيق ، صلاح أحمد هريدى ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، ص٣٨ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٨٨ ، ٤٨٩ .

(٥) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٣٣ .

وبالاضافة إلى ذلك تعرض المجتمع المصرى مرة أخرى فى اثناء تلك الفترة لوباء الطاعون الذى وقع عام ١١٤٣هـ/١٧٣١م ، وكان ذلك فى ولاية عبد الله باشا الكبرلى الذى حكم فى الفترة مابين ١١٤٢و١١٤٤هـ/١٧٢٩-١٧٣٢م وتوفى كثير من الأهالى ، على أثر انتشاره ، وكان من الموتى أبناء الوالى ومحظيته ، وعلى الرغم من المحنة التى كانت تمر بها مصر ، الوالى لم يكترث الوالى بها ، فقد بنى مقبرة فخمة ، لمحظيته بالقرب من الامام الشافعى ، برغم استمرار انتشار هذا الطاعون مدة طويلة فقد إستمر من شهر شعبان ١١٤٣هـ/فبراير ١٧٣م وحتى شهر المحرم عام ١١٤٤هـ/يوليو ١٧٣١م) .

ومن العجيب أن مصر قد شهدت طاعونا فى شتاء عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م ، وكان من المعتاد أن ينتشر هذا المرض فى الصيف . ومن خطورة هذا الطاعون أنه إذا انتشر فى منزل ما قضى على جميع سكانه ، ولهذا توفى كثير من السكان وعدد من أمراء المماليك منهم ايوب بك إشراق محمد بك، وأحمد بن عطية ، ومصطفى بك بلفية وزوجته ، ومن الأشراف الشريف بركات ، والشريف حمزة ، وعلى بك حاكم جرجة خازندارة[1] زين الفقار بك ، واسماعيل كتخدا مستحفظان [2] وحسن كتخدا الدمياطى ، ، ويوسف كتخدا عزبان ومصطفى كتخدا الفجمى ، وأحمد أوضا[3] باشا الضرياس ، ومات ولدان لوالى مصر باكير باشا

---

(١) احمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٧٤ ، ٧ ، ٦ ، ٨ ، ٦ ؛ أحمد عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٠٣ مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٤٠٢ .

(٢) خازندار : كان أمين صندوق الحاكم . {انظر محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص١١ هامش٢} . والخزنة دار كان من أهم أتباع الباشا ، وهو المختص بالعناية بخزانة مصر ، وله عوائد على الأمراء والكشاف وأرباب المناصب وقت توليتهم . وكان الخزنه دار يعمل فى خدمة الباشا الخصوصية ، وكان يخدم معه فى أى مكان يذهب إليه فكان مكلفا بحفظ خزانة الباشا الشخصية ، وتسلم الإرادات التى تأتى له عن طريق الكتخدا ، كما كان يقوم بعمل التوزيعات اللازمة ، وكان مكلفا بالإشراف على المبانى التى تحفظ بها الخزانة، وكذلك برج القلعة الذى بنى عام ١٥٢٤م . {انظر ، ابراهيم يونس ، المرجع السابق ، ص٣٦٧} .

(٣) أوضا باشا ، بمعنى حجرة أو غرفة وباش أو باشة كلمة تركية مازال أصلها الاشتقاق موضع خلاف فقيل أنها من باش أغا أى رئيس الأغوات وقيل أنها من الكلمة الفارسية(بادشاه) ويرجع الأصل التاريخى لهذه الوظيفة إلى تنظيم الانكشارية ، اذ أن تلك الفرقة كانت مقسمة إلى وحدات حربية تسمى كل منها أورطة أى فرقة أو كتيبة ، وكانت كل أورطة تقيم فى ثكنة تسمى أوضه (أود) وكان يرأسها (باش أوضه)=

{١١٤٧-١١٤٩هـ/١٧٣٥-١٧٣٧م} كان من نتيجة أنتشار هذه الطاعون أن انتشرت البطالة بين الحرفيين وخاصة الطباخين بسبب موت سادتهم[١] ولم تقف المخاطر عند هذا الحد بل انتشر الطاعون فى عام ١١٧٧هـ/١٧٦٣م ، ونتج عن انتشار القضاء على كثير من الأهالى[٢].

ويجرى اتخاذ تدابير لمكافحة أوبئة الطاعون . ووفقًا للاعتقاد الشائع فى القرن الثامن عشر فى أوروبا، فإن المقابر هى بؤر الوباء بسبب الأبخرة المبنعثة من تحلل الجثث. وهكذا فإن نظرية الأبخرة الفاسدة قد قادت السلطات إلى إزالة المقابر المدنية، ونقل الموتى إلى خارج الضواحى. وكان الحادث الأشهر هو القيام، فى عام ١٧٨٦م، بازالة جبانة سانت، اينوسينت فى باريس، ويجرى تكييف القاهرة مع الواقع الأوروبى، ويتم اغلاق المقابر الموجودة داخل المدينة ويتوجب بشكل الزامى دفن الموتى فى خارج المدينة[٣].

وكان من الكوارث التى حاقت بمصر فى أثناء الحكم العثمانى احتراق سوق البارود المجاور للباسطية وكان ذلك فى ولاية ابراهيم باشا الوزير الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٨١ و١٠٨٤هـ/ ١٦٧٠-١٦٧٣م ، ونتج عن هذا الحريق هذه الحوانيت فضلا عن موت الكثير من الأهالى[٤] .

ومن الكوارث التى حاقت بمصر انه فى ٢ رجب عام ١١٢١هـ/٦ سبتمبر ١٧٠٩م تعرضت البلاد لزلزال أصاب الناس بالخوف والهلع وكاد أن يؤدى إلى هدم المنازل ، وكان ذلك فى ولاية ابراهيم باشا القبطان الذى حكم فى الفترة مابين ١١٢١هـ و١١٢٢هـ/١٧٠٩ - ١٧١٠[٥] .

= ويرأس الأوضه باشيه موظف يسمى باش (انظر ، هاملتون ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب، ج١، ص١٦٨-١٧٥؛ أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص٣٦ عصمت محمد حسن الجبرتى ومنهجه فى كتابة التاريخ ، ص٣٢٥) .

(١) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق . ص٤٠٢ .

(٢) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير ، القاهرة ٩٥١ ، ص٧٣-٧٤ .

(٣) هنرى لورنس، شارل جيليسى- جان - كلود جولتان، كلود تزونيكر ، الحملة الفرنسية فى مصر، بونابرت والاسلام، دار سينا للنشر ترجمة بشير السباعى ، القاهرة ١٩٩٥، ص٢٠٨، ٢٠٩ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧٠ ، يوسف الملوانى المرجع السابق ، لوحة ١٠٧ أ .

(٥) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

ومن الكوارث الطبيعية التى أصابت مصر هطول أمطار غزيرة كانت حبيباتها فى حجم بيض النعام فى كل من بلبيس الشرقية والغربية ، ونتج عن هذا الأمطار تدمير سبع قرى ؛ وهرب سكانها إلى الحقول[١] وقد أصيب الناس كذلك بسبب هذه الأمطار بالخوف والوهم ، وقد توفى الكثير من الأهالى ، وكان من هؤلاء المتوفين أبناء المؤرخ أحمد شلبى عبد الغنى ، وقد توفى له ولدان فى يوم واحد فى عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م[٢] .

هذا عن الكوارث الطبيعية التى تعرضت لها مصر فى ظل الحكم العثمانى وما ترتب عليها من أضرار مادية وبشرية كان لها أثرها السلبى فى التنمية الاقتصادية ، مما جعل مصر تتعرض إلى أزمات اقتصادية خانقة . وهذا ما سوف يتضح بعد قليل .

الأزمات الاقتصادية أسبابها ونتائجها :

وأما بالنسبة للأزمات الاقتصادية التى مرت بها مصر خلال تلك الفترة - موضوع هذه الدراسة- فهى كثيرة ومتنوعة وكان لها آثارها السلبية فى الحياة الاجتماعية فى مصر وسوف نشير إلى تلك الأزمات كل على حده .

كان من أسباب تلك الأزمات الاقتصادية التمردات التى قامت بها الأوجاقات العثمانية التى قام بها جنود الاسباهية التى تعتبر الأولى من نوعها فى مصر العثمانية فى عهد على باشا الصوفى (٩٧١-٩٧٣هـ/ ١٥٦٤-١٥٦٦م) وبدأ خلط العملة بالنحاس زيادة عن القانون فى عهده وكثر المفسدون من اللصوص وقطاع الطرق، وكان لذلك أثره على أحوال البلاد ، وبدأ جند السباهية يستغلون نفوذهم فى فرض الضرائب غير الشرعية على الأهالى ويثيرون ضد الولاة الذين يقفون فى وجه ما يفعلون، محتجين على ذلك بانخفاض القيمة الشرائية لمرتباهم، ومن هنا كانت بداية ثورات جند السباهية[٣]. وأويس باشا الذى حكم فى الفترة مابين (٩٩٤ و٩٩٩/١٥٨٦-١٥٩١م) اذ قام هؤلاء الجنود بالسلب والنهب ، بل خربوا الأسواق والحمامات، بالإضافة إلى أنهم قاموا بنهب بيوت أعيان مصر ، وأثر ذلك سلبيا فى إقتصاديات البلاد[٤] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى، المرجع السابق ، ص٦٠٩ .

(٢) نفسه .

(٣) محمد البرلسى السعدى، بلوغ الأرب برفع الطلب، ص٢٦٩ .

(٤) نفسه ، ص١٢٢ .

والصراع بين أوجاقى مستحفظان، والينكجرية فى ولاية عبد الرحمن باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠٨٧ و١٠٩١هـ/ ١٦٧٦-١٦٨٠م وترجع أسباب هذا الصراع إلى قتل جاويش وكتخدا مستحفظان بجرجا ، بايعاز من كوجك محمد من الينكجرية الذى التجأ إلى باب العزب ، فقامت على أثر ذلك أعمال الشغب على نطاق واسع ، وخربت البيوتات والمخازن . فأدى ذلك إلى أزمة اقتصادية ، تمثل فى ارتفاع سعر أردب القمح إلى مائة وخمسين نصف فضة ، وزاد ثمن أردب الشعير إلى ١٢٠ نصف فضة . وبلغ حمل التبن مائة وخمسين نصف فضة ، ونتج عن هذا الشغب عدم استتباب الأمن ، فنهبت البيوت والمحلات المجاورة لمسجد السلطان حسن بالرميلة[١] ، وتفيد المصادر المعاصرة لتلك الفترة ، أن هذه الفتنة لم تهدأ إلا بعد سفر كوجك محمد إلى استانبول[٣] ولم تذكر هذه المصادر شيئا عن انخفاض الأسعار .

و الصراع الذى وقع بين البيوتات المملوكية ، وكان ذلك فى ولاية أحمد باشا الوزير الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٢٤ و١٠٢٧هـ/١٦١٥-١٦١٨م ونتج عن تلك الصراع ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، فارتفع ثمن أردب القمح إلى تسعين نصف فضة ، وواجه الوالى الموقف بنفسه، فتوجه إلى الخانكة وبلبيس وبصحته المحتسب . خفية وأخرج القمح من المخازن وحمله على الجمال والحمير ، ونقله إلى القاهرة . ومن اجراءات الوالى كذلك أنه أمر بكسر مخازن القمح الأخرى ، وأمر باعدام أصحاب تلك المخازن حتى يكونوا عبرة لمن تسول له نفسه القيام بمثل هذا العمل ، ونتيجة لما قام به الوالى إنخفض سعر أردب القمح إلى ثلاثين نصف فضه[٢] أى أن السعر انخفض إلى الثلث .

ومن هنا نجد أن أسعار المواد الغذائية قد ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، فى فترة زمنية تقدر بثلاثين عاما ، فقد ارتفع سعر إردب الشعير من ثمانية نصف فضه إلى مائة وعشرين نصف فضه ، ويعنى ذلك أن سعره قد تضاعف خمس عشرة مرة ، وينطبق ذلك على سعر أردب

---

(١) الرميلة : هو المكان المعروف الآن بالمنشية (تابع لقسم الخليفة بالقاهرة) ، ومكانه الحالى ميدان محمد على وصلاح الدين بالقلعة ، والرميلة مكان قريب من القلعة الحالية ، وفيه مسجد السلطان حسن ، الذى لايزال قائما إلى اليوم ، وجامع المحمودية ، وكان هذا الميدان يجاور ميدان قرة ميدان جنوب القلعة . (انظر ، عبد الرحمن زكى ، خطط القاهرة ايام الجبرتى ، ضمن ندوة بحوث فى تاريخ الجبرتى ، عام ١٩٧٦ ، ص٤٦٩) .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٣٥-١٣٦ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغزيز ، المرجع السابق ، ص١٧٦ ، يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحه ١٠٩ أ.

القمح فقد ارتفع سعره من عشرين نصف فضة إلى مائة وخمسين نصف فضة أى أنه ارتفع سبعة أضعاف[١] .

وبسبب ارسال حسن باشا السلحدار الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٩٩ و ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩/١٦٨م الكخيا إلى جرجا ، فقد كلفه حسن باشا بالإشراف على الغلال الخاصة بالحرمين الشريفين[٢] ولكن يبدو أن هذا الكخيا تصرف فى هذا الغلال بشكل ردئ ، فأدى هذا التصرف إلى وقوع تصادم بين البيوتات المملوكية ، ونتج عنه أزمة سياسية واقتصادية ، كان من سلبياتها ارتفاع سعر المواد الغذائية ارتفاعا كبيرا[٣] .

ونتيجة للصراعات السياسية التى عرفت بحادثة كوجك محمد وبسبب انخفاض النيل ابان ولاية على باشا الخازندار ، حدثت ازمة اقتصادية فى عام ١١٠٦هـ/١٦٩٤م ارتفعت أسعار المواد الغذائية فى جميع انحاء مصر ، فلم يجد الأهالى الأقوات الضرورية ، وهاجر أهل الريف إلى القاهرة وخاصة من البهنسا والفيوم ، ونظرا لفقر هؤلاء فقد تناولوا الجيف ومات الكثير منهم بسبب الجوع ، وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن على رءوس البائعين[٤] .

وكان من نتيجة تلك الأحداث أن ارتفع سعر اردب القمح إلى ريال حجر (يساوى ستين نصف فضه) وخمسة أنصاف فاضطر كوجك محمد ازاء هذا الموقف أن يتوجه إلى بولاق ويحضر الأمناء والكيالين والرؤساء ، ويحدد لهم سعر أردب القمح بستين نصف فضة أى بريال حجر ، وفى الوقت نفسه - طلب من التجار أن يبيعوا نصف أردب قمح لمن يطلب أردبا ، ويبيعوا ربع أردب لمن يطلب نصف أردب ، ويرجع ذلك إلى اتباع سياسة الترشيد فى استهلاك المواد الغذائية الأساسية وكل من يخالف ذلك يعدم[٥] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، ص١٧٦ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٩ أ .

(٢) غلال الحرمين الشريفين : وهى كميات القمح الميرى ، التى كانت تجبى من ولايات الوجه القبلى ، وتصرف منها الجرايات والعليق لكل من يستحقها وإذا توفرت الغلال بعد ذلك ، تطرح فى أسواق القاهرة والاسكندرية ورشيد ، لتوفير القوت للأهالى أولا ، فإذا تبقى فائض بعدئذ فيجوز لأمين الشونة ، بيعه للتجار الأوربيين القادمين للثغور بعد موافقة الباشا ، والدفتردار . (انظر أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٢٧ مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٢٧ هامش ٢) .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٨٤ .

(٤) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٤٦ ، عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ١ ، ص٢٦ .

(٥) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٧٠ .

وكان رد الفعل من جانب وكلاء الهوارة والملتزمين أن اجتمعوا فى منزل خليل أفندى باش اختيار الجراكسة وقرروا تقديم رشوة قدرها خمسة آلاف دينار[١] إلى كوجك محمد لكى يسمح لهم ببيع أردب القمح بأربعة قروش ولكن رفض كوجك محمد ذلك وأقسم أنه سيقتل كل من يخالف تعليماته ، وحذر الهوارة والملتزمين المتقاعسين عن توريد القمح، وقتل بعض المخالفين[٢] .

وانتهت هذه الأزمة بقتل كوجك محمد ، وسر تجار القمح الذين تضروا من اجراءاته ، لذلك ارتفعت أسعار المواد التموينية حتى وصل سعر أردب القمح إلى مائة وعشرين نصف فضة ، وظل سعره يرتفع حتى وصل إلى ستمائة وستين نصف فضة ، ووصل سعر إردب الشعير إلى أربعمائه وخمسين نصف فضة ، وبلغ سعر أردب الأرز ثمانمائة نصف فضة ، وأردب الفول مائة نصف فضة ، وبلغ سعر رطل اللحم الضانى بخمسة أنصاف - فضة وبلغ سعر رطل اللحم الجاموس الوقيع (*) ثلاثة أنصاف فضة ، وبلغ سعر قنطار السمن ألف نصف فضة وقنطار لعسل النحل ستمائة نصف فضة[٣] .

وترتب على هذه الضائقة الاقتصادية أن ازداد الناس فقراء وانتشر الجوع فمات كثير من الناس فى شوارع المدن والقرى ، واعتاد الفقراء على خطف الخبز العجين اثناء نقله إلى المخبز، وكان على كل من أراد أن يخبز الخبز أن يحمله واحد ويحرسه اثنان ، وصنع الخبازون أقفاصا يحفظون فيها الخبز حتى لايهجم العامة لسرقته ، ورهن كثير من البلاد عند بعض التجار[٤] وازداد اشتداد هذه الأزمة الاقتصادية حتى اضطر إلى أكل القطط والجيف[٥] .

---

(١) الدينار : يعرف باسم الدينار الذهبى الجديد ، يساوى خمسا وعشرين بارة ، ولكن عقب انهيار نظام النقد عام ١٥٨٤م صار كل خمس وثمانين بارة تساوى دينارا شريفيا . (انظر ، عفاف مسعد العبد ، دور الحامية فى مصر العثمانية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، عام ١٩٨٢، ص٤٣) . ولكن فى عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م ، أصبح الدينار الذهبى يساوى نصف فضه . (انظر، سجلات المحكمة الشرعية بالشهر العقارى بالإسكندرية ، سجل رقم٣٢ ، مادة ٥٥٤ ، ص٢٤ محرم عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م) .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٨٩-١٩٠ .

(*) الوقيع تعنى الجاموسة المكسورة أى التى أصيبت بكسر نتيجة سقوطها على الأرض ، فتصبح غير صالحة للعمل ، فيشتريها الجزار ويباع لحمها وأحيانا تعنى الوقيعة الجاموسة الكبيرة السن الهزيلة (الباحث).

(٣) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٧ ؛ مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق، ص٧١ ، ابراهيم الصوالحى ، المرجع السابق ، صلوحة ١٩٣ أ ، ١٩٣ ب ، عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص٥٤-٥ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٩٣-١٩٥ ، عبد الكريم رافق ، ص٢٨٧ ، عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص٢٥٥ . P.M. Holt, op. cit, p. 87 .

(٥) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٩ ؛ أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٩٥ .

ومما زاد الطين بلة أن ارتفع سعر أردب القمح من ١٢٠ نصف فضة إلى ستمائة نصف فضة، ارتفع سعر أردب الشعير من مائة وعشرين نصف فضة إلى أربعمائة وخمسين نصف فضة ، أى أن سعره قد ارتفع إلى ثلاثة أضعاف تقريبا . وارتفع سعر رطل اللحم من نصف فضة إلى خمسة أنصاف فضة كما كان فى عهد الوالى حسنى باشا الذى حكم مصر فى الفترة من ٩٤١ إلى ٩٤٣هـ/١٥٣٥-١٥٣٦ وارتفعت هذه الأسعار فى عهد ايوب باشا الذى حكم فى الفترة من ١٠٥٤-١٠٥٦هـ/ ١٦٤٤-١٦٤٦. ومن الواضح أن هذه الأزمة الاقتصادية لم تكن قاصرة على سلعة بعينها بل شملت سلعا كثيرة[١] .

وكان رد الفعل من جانب الأهالى أن اطلعوا إلى القلعة ، ووقفوا بساحة الديوان وصاحوا من الجوع ، فلما لم يجبهم أحد رجموا بالاحجار موكب الوالى ، وتم طردهم ، فنزلوا إلى ميدان الرميلة ، استولوا على مخزن الحبوب من القمح والشعير ، ولما علم السلطان العثمانى بذلك عزل الوالى على باشا الخازندار، وعين مكانه واليا آخر ، الذى جمع الفقراء والمتسولين ، ووزعهم على الأعيان والأمراء لكى يقوموا باطعامهم حتى انقضت هذه الأزمة[٢] وكانت من أقسى الأزمات التى مرت بمصر فى هذه الفترة ، ودعا الجميع الله عز وجل ألا يعود مثلها مرة أخرى[٣].

وفى عام ١١٢٣هـ/١٧١١م ، تعرضت مصر لأزمة سياسية حادة عرفت بفتنة افرنج أحمد ، فى عهد الوالى ولى باشا الذى حكم فى الفترة مابين ٢٧ رجب ١١٢٣ و١٢ شوال ١١٢٦هـ/ = ١٠ سبتمبر ١٧١١-٢١ اكتوب عام ١٧١٤) وترتب عليها حدوث ازمة اقتصادية تمثلت فى عدم توريد الغلال من الصعيد ، فاضطر الوالى إلى تعيين مسئول خاص عرف بمباشر الغلال[٤] لمراقبة وصول الغلال إلى القاهرة ، فكان هذا المسئول يتابع بنفسه وصول السفن القادمة من الصعيد[٥] .

---

(١) أحمد الدمرداش ، المرجع السابق ، ص٣٠ .

(٢) عمرعبد العزيز عمر ، دارسات فى تاريخ العصر الحديث والمعاصر ، الإسكندرية ، عام ١٩٧٣ ، ص١٦٠ .

(٣) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٣٠ .

(٤) مباشر الغلال : يعرف أيضا بأفندى الغلال ، وهو المسئول عن ولايات الوجه القبلى ، التى تؤدى ما عليها من ميرى غلال من قمح وشعير ، وهو الذى يعطى لسندات للملتزمين الذين يسلمون الحبوب المقررة عليهم . (انظر Shaw, op. cit, p. 150) . فكان يمسك سجل لكل الأراضى التى تسدد الميرى فى شكل حبوب ، وكان يحصل على راتبه من الخزينة العامة ، ويفرض عادات على الملتزم ، الداخل ضمن دائرته . (انظر علماء الحملة الفرنسية ، المجلد السادس ، المرجع السابق ، ص١٢١) .

(٥) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٣٠ .

ونتج عن هذه الأزمة السياسية انقسام الأوجاقات العسكرية إلى قسمين :

القسم الأول : ويتكون من بلوكات الأسباهية الثلاثة والجاويشية والعزب ، ويؤيدها أمير الحج والدفتردار ، وبعض أمراء المماليك ، وهم الذين وقفوا ضد فرنج أحمد .

القسم الثانى : ويتكون من أغاوات الأسباهية وأغا المتفرقة وتتخذا الجاويشية ، وبلوك الانكشارية ، وهم الذين أيدوا فرنج أحمد[١] وتأزم الموقف فى البلاد نتيجة للانقسام الداخلى وأدى ذلك إلى أن انتهز البعض الفرصة وهجموا على حديقة أفرنج أحمد ونهبوها وسرقوا مواشيه وأحرقوا المنازل[٢] وقام القسم المؤيد لفرنج أحمد بالاستيلاء على جمال وحمير السقاين[٣] ومنع الماء عن القاهرة حتى وصل ثمن قربة الماء خمسة أنصاف فضة ، بعد أن كانت بنصف فضة ، وارتفعت أسعار المواد التموينية نتيجة لهذه الأزمة السياسية ، وظهرت بعض العملات النحاسية التى سكت فى اخميم ، واضطر الأهالى لتداولها ، عندئذ تدخلت السلطات الحاكمة ، وأصدرت أوامرها للمعلم داوودأمين دار الضرب[٤]. لسك عملة أخرى ،

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٢٨ ؛ أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص١٤٥ .

(٢) مؤلف مجهول ، أخبار النواب ، لوحة ٧٧ أ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٤٤-٢٤٥ ؛ اندرية ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص٢٤٥ .

(٣) عن السقايين ودورهم فى الحياة السياسية ، انظر ، صلاح أحمد هريدى ، الحرف والصناعات فى عهد محمد على ، الاسكندرية عام ١٩٨٤ ، ص١٢٦-١٣٠ .

(٤) دار الضرب :هى دارسك العملة حسب النظام الذى تقرره الدولة ، وكانت ملحقة بباب الانكشارية ، (انظر ، محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ص٤٩) .

أما مدير الضربخانة أو مدير سك النقود فكان يعين من قبل الباب العالى . وكانت الفوائد التى تؤول إليه عن طريق صنعة للقطع النقدية هى التى تشكل راتبه . ومع ذلك فقد كان يدفع بخلاف الميرى المقرر على وظيفته ، خمسة عشر كيسا إلى الباشا ، ولم يكن له عمل محدد (بلوائح معينة) اذا كان عليه فقط أن يحرص على أن تكون المسكوكات التى يصدرها تتفق مع الشكل المطلوب . ومنذ عهد على بك ، ترك هذا المنصب لباشا القاهرة الذى كان يسدد الميرى المقرر عليه ، والذى كان ويبيع التزامه على الدوام إلى البك شيخ البلد .(انظر ، علماء الحملة الفرنسية ، المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص١١٨).

ومنع تداول عملة اخميم ، وحددت أسعارها على أساس كل ثمانية جدد[١] بنصف فضة ، وكان ثمن البندقي[٢] بمائة وخمسة عشر ونصف والطرلي[٣] بمائة نصف فضة ، والزنجليزي[٤] بمائه وسبعة ، والريال بستين نصف فضة ، والريال ابو كلب بخمس وأربعين نصف فضة[٥] ولم تخمد هذه الأزمة السياسية إلا بموت افرنج أحمد[٦] .

وكان من نتيجة هذه الأزمة السياسية أيضا انخفاض سعر بعض العملات مثل الدينار البندقي الذى انخفض بما قيمته خمسة أنصاف فضة ، وارتفعت أسعار بعض العملات الأخرى

---

(١) جدد : هي نقود نحاسية ، تمثل اجزاء البارة ، وكان الجديد يساوى ربع يارة ، والمقصوص يساوى ٨ جدد ، المرادي يساوى ١٢ جديدا . (انظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ١٦٧) .

(٢) البندقي : بالعربية فندقي (بندقي) وفيما مضى كانت عملات البندقية الذهبية Sequins ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم ، تسمى بندوقي أو محرفة عن الكلمة التركية ، ونديكلي (فنديقلي) بمعنى فندقي (نسبة إلى البندقية) . ويشار اليوم إلى البندقية فى مصر باسم بندق (علماء الحملة الفرنسية ، المجلد السادس ، المرجع السابق ، ص٦٦) .

(٣) الطرلي : ويعرف بالشريفي طره لي أو الطره لي أو الطرلي نسبة إلى الطرا (الطغراء) وهو نقد ذهبي تركي، ضرب فى عهد السلطان مصطفى الثانى (١١٠٦-١١١٥هـ/١٦٩٤-١٧٠٣م) وكان يزن ٦ر٢ جرام . واطلق عليه فى الدولة العثمانية (طغرالي التون) طغرالي نسبة إلى نقش الطغراء أو الطرة باسم السلطان على أحد وجهى العملة (انظر عبد الرحمن فهمى ، المرجع السابق ٥٧٥-٥٧٦) .

(٤) الزنجليزي : وهو نقد ذهبي تركي ، زنجرلي لفظ فارسي يعنى السلسلة ،وقد حرف هذا اللفظ على لسان العامة إلى جنزرلي ، وذكره الجبرتي باسم الجنزرلي أو المحبوب الجنزرلي ، نسبة إلى الحافة المشرشرة لهذا النقد ، وهى أشبه بالإطار أو الجنزير ، وحدد الجبرتي سعره عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦ بمائتى نصف فضة . (أنظر ، عبد الرحمن فهى المرجع السابق ، ص٥٧٥) .

(٥) الريال ابو كلب : كما تكتبه الوثائق بالمحكمة الشرعية ، هو الريال الهولندى ، وكان أقل قيمة من الريال الحجر . وكانت كلها تقدر بقيمة العملة التركية ، والنصف الفضة الديوانى . (انظر ، احمد شلبى المرجع السابق ، ص١٠٩ هامش ٥٧) .

(٦) مؤلف مجهول ، المصدر السابق ، لوحة ٨١ أ ، ٨١ ب ، مصطفى الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص١٦٠ ، اندريه ريمون ،المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

المثلة فى الريال الحجر ، فقد ارتفع بمقدار عشرة أنصاف فضة ، كما ارتفع الريال الكلب بمقدار نصف فضة .

وقد شهدت مصر أزمة سياسية أخرى بعد الأزمة السابقة باثنى عشر عاما ، عرفت بأزمة جركس محمد الكبير ، وترتب على حدوثها ازمة اقتصادية فى عام ١١٣٥هـ/١٧٢٣م . ونتج عن هذه الأزمة ارتفاع أسعار بعض السلع ، اذ ارتفع سعر رطل الصابون إلى ثمانية أنصاف فضة نتيجة لارتفاع أسعار العملات ، ففى هذه الفترة ارتفع سعر الجنزرلى إلى مائة وخمسين نصف فضة ، وارتفع سعر الريال إلى مائة نصف فضة ، وارتفع سعر الريال ابو كلب إلى خمسة وسبعين نصف فضة ، والطرلى إلى مائة وخمسة وثلاثين نصف فضة والعشر الجدد بنصف فضة[١] ومما زاد الطين بلة ، انهيار جسر يدوية نتيجة لاهمال صيانته ونتج عن ذلك غرق البلاد وتهدم كثير من المنازل ، وتشريد الكثير من السكان ، هذا إلى جانب انخفاض منسوب النيل نصف ذراع[٢] .

واستمرت الأزمة إلى عام ١١٣٧هـ/١٧٢٤م ، وزاد من استمرارها أن جركس محمد الكبير أرسل إلى هوارة بالوجه القبلى يبلغهم بعدم ارسال الغلال للقاهرة ، حتى يتم التصرف فى محصوله بالسعر الذى يحدده إلى جانب ان الكشافين[٣] استغلوا الموقف ، ومارسوا ظلمهم للأهالى فاشتكوا للعلماء فطلبوا من الوالى ضرورة عقد إجتماع الديوان بجميع هيئاته من العلماء والبكرية والسادات ونقيب الاشراف وأغوات السبعة بلوكات ، والسناجق ، والسبعة أوجاقات ، وذلك لمناقشة ما حل بالأهالى من ظلم ، وقرروا تشكيل لجنة أقرت ضرورة حل جميع المقاطعات التى أنشئت منذ عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م حتى عام ١١٣٧هـ/١٧٢٤م ، ورد الأموال إلى أصحابها ، وحصر التركات ، والتزام جميع المسئولين بتلك الاجراءات[٤] وعلى الفور بدأت الانكشارية فى التخلى عن مقاطعات وعن المذبح[٥] وتخلت العزب عن

---

(١) احمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٣٦١ .

(٢) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، المرجع السابق ، ص٢٧٨ .

(٣) احمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٤٩ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٤٩ .

(٥) المذبح :يقصد المذبح أى المجزر أو سلخانة القاهرة . (انظر ، محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٢٢ هامش ٢) .

الخـــردة[١] واتخذ الباشا اجراءات أخرى منها تحديد أسعارالعملة ، وكلف فى هذه الصدد أوجاق مستحفظان والأوجاقات الأخرى ، متابعة ذلك ، وطلب هذا الباشا من الأهالى عدم دفع أى مبالغ زائدة للكشاف[٢] .

وعلى الرغم من اتخاذ هذه الاجراءات فإن أوجاق مستحفظان لاحظ ارتفاع أسعار السلع التموينية وغيرها بمقدار ٥٠٪ ، وواجه الباشا والديوان هذا الموقف بالاستعانة بأهل الخبرة فى هذا المجال ، فقرروا اعلان أسعار جديدة ، ومعاقبة كل من يخالفها وكانت هذه الأسعار عليالنحو التالى :

يكون سعر رطل اللحم الضانى نصفين فضة ، ورطل اللحم الجاموسى نصفين فضة ، والزيت الحار ثلاثة أنصاف فضة ، والجبن نصفين فضة ، ورطل الصابون ثمانية أنصاف فضة ، وقنطار البن خمسة وأربعين ريالا ، وتظل عملة الجدد يستخدمها الناس ، ومن الملاحظ ، فإن الفضة لم يكن لها استخدام ، اذ أنها زيفت . ونتج عن هذه الإجراءات إغلاق المحلات ، واختفاء السلع واضطراب الأحوال وتوقف التعامل بالجدد[٣] .

وانتهز أحد الأمراء المماليك ، وهو عثمان بك ذو الفقار ، الصراعات بين البيوتات المملوكية ابان ولاية يحيى باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١١٥٤ و ١١٥٦هـ/ ١٧٤١-١٧٤٣م واستولى على بعض الوكالات وما فيها من سلع تموينية مثل السمن والعسل ، والسيرج والدقيق ، والبقسماط[٤] والأرز فحمل مائة وعشرين جملا ، واتجه بها إلى جبل الطور ، حتى أن قابودان السويس إشتكى للباشا فطلب على الفور عقد اجتماع للديوان

---

(١) الخردة : ويقصد قلم الخردة، وهى الرسوم المفروضة على الملاهى والنساء العوالم والحواة ومن يماثلهم ، وقد تعددت هذه الرسوم فى السنين القريبة من الاحتلال الفرنسى بدرجة جعلت من المستحيل على ولاة الأمور الفرنسيين تحديدها . (انظر ، محمد شفيق غربال ، المرجع السابق . ص٢٢) .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٤٠ .

(٣) أحمد عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٢٦ .

(٤) بقسماط : بالمفاهيم العسكرية لذلك الزمان ، فإن تجهيزه يعنى قيام حملة عسكرية للغزو ، فالبقسماط هو ذلك النوع من الخبز الذى يصلح للفترات طويلة لاستخدام الجنود (انظر عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٣١) .

لمواجـهـة الموقف[1] ولم تشر المصادر المعاصرة لتلك الفترة إلى الإجراء الذى اتخذ فى هذا الصدد[2] .

وكان من العوامل التى ساهمت فى ذلك سلوك بعض الولاة العثمانيين ، نذكر منهم على سبيل المثال الوالى[3] مصطفى باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠٢٨هـ/ ١٠٢٩هـ/١٦١٩-١٦٢٠م ، فقد قام هذا الوالى بفرض ضرائب على التجار وأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار بعض المواد التموينية[3] ومنهم الوالى ابراهيم باشا الذى حكم في الفترة ما بين ١٣ محرم ١٠٨١ آخر جمادى الأولى ١٠٨٣هـ/ ٢ يونيو ١٦٧٠-٢٣ سبتمبر ١٦٧٢م فقد أدى الحريق الذى نشب فى سوق البارودية القريب من باب زويلة نتج عنه تهدم كثير من الحوانيت والمنازل ، وموت كثير من الأهالى ، فقام بسك عملة جديدة مخلوطة بالنحاس الأصفر، وأمر الناس بالتعامل بها ولكنهم امتنعوا عن تداولها[4] فعرضهم هذا الرفض لتجاوزات هذا الوالى ضدهم .

ولم يكن هذا الوالى آخر الولاة العثمانيين الذين تلاعبوا بالعملة يخلطها بالنحاس ، بل نجد أن حسين باشا بن جنبلاط الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠٨٤ و ١٠٨٦ هـ/١٦٧٤-١٦٧٥م يقوم بتحديد أسعار العملة على أساس كل قرش كلب بثلاثين نصف فضة بعد أن كان ثمن هذا القرش يقدر بأربعين نصف فضة ، والريال باثنين وأربعين بعد أن كان ثمنة ستين نصف فضة ؛ والأشرفى المحمدى بخمسة وثمانين نصف فضة والبندقى خمسة وتسعين نصف فضة ، واتفق الأمراء المماليك على أن الريال الشريفى الريال ابو كلب بثلاثين نصف فضة ، وفى المعاملة خمس وثلاثين نصف فضة . ومع ذلك ندر وجود الريال ابو كلب لذلك عادت الأسعار إلى سابق عهدها[5] .

---

(١) أحمد عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٢٦ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧١ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٣ أ .

(٣) نفسه ، المرجع السابق .

(٤) نفسه ، ص١٧١ ، نفسه ، لوحة ١٠٧ أ .

(٥) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧١ ، يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٧ أ.

ومن الجدير ذكره أنه كان هناك سعران للعملة فى مصر العثمانية سعر رسمى وسعر حر كما يقال فى أيامنا هذه ، وهذا بالطبع يؤثر فى القوة الشرائية ، فعادة ما يقبل الناس على السعر المنخفض للعملة .

لذلك اتخذت اجراءات عام ١١٠٩هـ/١٦٩٧م ، ابان ولاية اسماعيل باشا حكم مصر فى الفترة مابين ١١٠٧ و١١٠٩هـ/١٦٩٥-١٦٩٧م كان منها تغيير العملة[١] فقد استبعدت العملة الذهبية المعروفة بالأشرفى وحل محلها العملة الذهبية المعروفة بالذهب الطرلى ، ولذلك عقد الوالى اجتماعا للديوان حضره السناجق ، والأغوات وأمين دار الضرب ، وسلمه السكة الجديدة ، وأمره الديوان بسك تلك العملة من الذهب ، عيار ٢٢ قيراطا ، وكانت المائة طرلى تزن ١٢٥ درهما وفى الوقت نفسه انتشر معدن الفضة ، واعدمت عملات الجدد المسكوكة من النحاس وصار الناس يصرفون الشريفى الطرلى بمائتى نصف فضة . كان كل من أراد من التجار والأهالى شيئا جديدا من العملة لم يجده[٢] .

ومع ذلك ارتفعت الأسعار ، فاشتكى الأهالى للباشا ، فدعا إلى عقد اجتماع فى منزل إسماعيل بك أحد الأمراء المماليك ، وحضر السناجق والأغوات ، واختيارية الأوجاقات السبع، ونقيب الأشراف ونائب القاضى، والسادات والبكرية والعلماء ، وأرباب الخرق وكبار التجار ومشايخ الحرف ، لبحث الوضع الاقتصادى المتدهور ، وأصدر هؤلاء المجتمعون القرارات اللازمة لمواجهة الموقف ، كان منها قرار بابطال الفضة المقصوصة ، والتعامل بالفضة المرادى ، والجدد والنحاس ، وقرروا تعيين لجنة لمراقبة تنفيذ هذا القرار ، ولكنها لم تنفذ أى شئ[٣] فاضطر الوالى إلى أن يعقد اجتماعا آخر حضره زعيم مصر وأمين الحسبة بالإضافة إلى المجلس السابق، وقرروا ابطال الفضة المقصوصة ، وتحديد أسعار بعض العملات ومنع الحمايات[٤] والرشوة[٥] .

---

(١) أحمد شلبى ، المرجع السابق، ص١٧٢، يوسف الملوانى، المرجع السابق، لوحة ١٠٧م ، ص١٧٢ ، لوحة ١٠٨ ب .

(٢) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٩٨ - ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٠٠ .

(٤) الحمايات : أموال يقرضونها بعض أصحاب النفوذ من الجند وغيرهم ، على أصحاب المصالح لحمايتهم . (انظر عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص٢٨٦) .

(٥) أحمد شلبى عبد الغنى، المرجع السابق ، ٢٠٧-٢٠٨ .

وفى عام ١١١٤هـ/١٧٠٣م ظهر تزييف العملة وغشها ابان ولاية فترة محمد باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١١١١-١١١٦هـ/١٦٩٩-١٧٠٤م ونتج عن ذلك ارتفاع الأسعار ، كما نتج أيضا تغيير اسم عطفة الصاغة إلى عطفة المقاصيص ، وتقرر أيضا أن يكون سعر الشريفى طره بمائتى نصف فضة ، والشريفى المحمدى بمائتى وستين نصف فضة ، والريال الحجر بمائة وعشرة أنصاف فضة ، الريال الكلب بستين نصف فضة وقد ساعد اليهود الصيارفة على ازدياد الأزمة ، فأنهم جمعوا العملات التى لايتعامل بها الأهالى وأخفوها ، فاشتد الكرب بالناس ، واجتمع تجار الاسواق ، وعرضوا شكواهم على علماء الأزهر فقاموا بتبليغ شكواهم إلى الوالى فأمر بانعقاد الديوان لمناقشة الأمر . واتفقوا على ابطال المقاصيص فعلا ، وتقرر أن من لديه شئ من هذه العملات فعليه استبدالها فورا من دار الضرب ، أو من الصيارف كما قرر المجتمعون فى الديوان بإغلاق الصاغة ، وكان على الصاغة الجواهرجية تسليم ما لديهم من الفضة والنحاس إلى دار الضرب ، وحددت أسعار العملة على أساس الطرلى بمائة نصف فضة والمحمدى بتسعين نصف فضة ،والبندقى بمائة وعشرين نصف فضة ، والريال الحجر بخمسة وخمسين نصف فضة ، والريال ابو كلب بثلاث وأربعين نصف فضة ، وحددت أسعار السلع التموينية وكل من يخالف ذلك يعاقب طبقا للقانون[١] وبالفعل تم معاقبة اثنين قبانية وثلاثة زياتين وجزار ، لتلاعبهم فى الميزان ، فضربوا حتى الموت[٢] .

ونتيجة لقرارات الديوان انخفض سعر العملة ، فأصبح الشريفى طره لى بمائة نصف فضة بعد أن كان سعره مائتين وخمسين نصف فضة والمحمدى بتسعين نصف فضة بعد أن كان بمائتين وتسعين ، والريال بخمسة وخمسين نصف فضة بعد أن كان بمائة وعشرة أنصاف ، والريال أبوكلب بثلاثة وأربعين نصف فضة ، بعد أن كان بتسعين نصف فضة . ولنا أن نتصور أثر ذلك على الأسعار ، وعلى الأهالى ، فقد أصبحت معيشتهم ضنكا .

ورغم تلك الاجراءات التى اتخذت لمواجهة الموقف الاقتصادى فى البلاد ، فإن الأغا استدعى شيخ الطحانين وشيخ الخبازين وباقى مشايخ الحرف ، وأحضر أردب قمح وطحنه وقدر سعره على حسب الفضة الديوانى ،فقدر الجدد بخمس ، كما حددت الأسعار على النحو التالى :

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٦٨ ، مطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص١٠٤ ؛ أحمد شلبى عبد الغنى، المرجع السابق، ص٢٠٨؛ عمر عبد العزيز، دراسات فى تاريخ مصرالحديث،ص١٦١ .

حدد سعر رطل البن باثنى عشر نصفا ، ورطل السكر الخام بنصفى فضة ، ورطل الشمع بخمسة أنصاف فضة ، ورطل الشمع الشفاف بستة أنصاف فضة ، ورطل السكر المكرر بثمانية أنصاف فضة ، ورطل العسل الحر بنصف فضة ، ورطل العسل المقطر بنصف فضة ، ورطل العسل الأبيض المصرى بخمسة أنصاف فضة ، ورطل العسل الرومى بجميع أنواعه بنصفين وأربعة جدد[١] ورطل الصابون بثلاثة أنصاف فضة ورطل التبغ بخمسة أنصاف فضة ورطل الزيت الطيب المصفى بنصفين وأربعة جدد ورطل الزيتون الأخضر بنصف فضة ، ورطل الزيتون المغربى بنصف فضة وأربعة جدد ، ورطل الزيتون البلدى ، بنصف فضة ، ورطل العسل المقطر المصفى ، بنصف فضة وأربعة جدد ، ورطل السمن الحر بنصف فضة ، والسمن البقرى بثلاثة أنصاف فضة للرطل ، والزهر بنصفى فضة للرطل ، والسمن الشريد مثل الزهر والسيرج بنصفى فضة ، والطحينة بنصف فضة وجديدين للرطل ، والزيت الحار بنصف فضة وستة جدد للرطل ، والزيت الحلو بنصف فضة وجديدين والجبن الجاموسى الوادى بنصف فضة وأربعة جدد ، والجبن الجاموسى الطرى بنصف فضة وجديدين ، الحالوم والسلطان بنصف فضة، والناعمة بنصف جديدين ، والقريش والشلفوطى بخمسة جدد ، والطرية بنصف فضة وستة جدد ، واللحم الضانى بنصف فضة وأربعة جدد ، ولحم الماعز بنصف فضة وجديدين[٢] .

وبمقارنة هذه الأسعار بالأسعار السابقة نجد انخفاضا وارتفاعا فى أسعار السلع . فقد انخفضت أسعار رطل العسل بمقدار نصف فضة ، وانخفض كذلك سعر الصابون والسمن واللحم الضانى والشعير ، وفى الوقت نفسه ارتفعت أسعار القمح ، والأرز والشحم والبن وأدخلت سلع لأول مره فى قائمة الأسعار مثل السيرج ، والجبن الجاموسى ، والطرى والوادى ، والحالوم والسكر بأنواعه الخام والشفاف والمكرر ، وكذا الشمع والتبغ والدجاج .

وفى الوقت نفسه أصدر حسن باشا السلحدار والى مصر السابق الذى حكم فى الفترة مابين ١١١٩ و١١٢١هـ/١٧٠٧-١٧٠٩م أمرا بسك عملة من الذهب الزنجليزى والزلاطة[٣]

---

(١) أحمد الدمرداشى ،المرجع السابق ، ص٦٧ ، عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص١٦٢ .

(٢) نفسه ، ص٦٨ ، مصطفى بن الحاج إبراهيم ،المرجع السابق ، ص ١٠٥؛ أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق، ص٢١٠ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢١٥ .

كما أصدر أمرا بسك عملة من الفضة والأخشا[١] ولكن الأهالى امتنعوا عن تداولها ما عدا الزنجليرى [٢] الذى فضله الأهالى للتعامل به لمعرفتهم أنه أكثر قيمة .

ثم أصدر محمد باشا النشنجي الذى حكم فى الفترة ما ١١٣٤ و١١٣٨هـ/ = ١٧٢١-١٧٢٦م أمرا لتنظيم العملة فاحضر الأغا ومعه أمين دار الضرب وجميع العاملين بهذا الدار ومعهم نقود مسكوكة من الذهب الفندقلى [٢].

لم يكن هذا النوع يستخدم من قبل ، بل كان المستخدم عملة ذهبية تعرف بالاشرفى والطرلى والزنجليرى وقد تم تحديد قيمة الفندقلى باثنين وعشرين قيراطا كما ذكر أحمد شلبى[٣] أما الدمرداشي ومصطفى بن الحاج ابراهيم فقد حددا قيمته بأربعة وعشرين قيراطا[٤] ونميل إلى ترجيح الرأى الثانى ، ويرجع ذلك إلى أن الباشا عندما عرض الرأى الأول على الأوجاقات رفضوه وقبلوا الرأى الثانى ، وعندئذ أصدر أمره بتعيين المعلم داود ناظرا لدار الضرب والبسه الباشا القفطان[٥] الخاص بالمنصب[٦] وبموجب هذا القرار أخذ منه سكه الجنزرلى ، ووضعها فى كيس خاص بذلك ، وتم اغلاقه ووضع الختم عليه ، وسلم إلى خازندار الديوان ،وضعه فى الخزانة ، وأعطى السكة الجديدة للمعلم داود[٧] .

ورغم قيام الوالى بتلك الاجراءات فإنها لم تقضى على الأزمة الاقتصادية ، بل استمرت فى الازدياد ، ولم يجد الاهالى القوت الضرورى مثل السمن والجبن والزيت ولو بأعلى الأسعار، لهذا اشتكى الأهالى إلى باب مستحفظان وكان مسئولا عن مراقبة الأسعار وعن أى ظلم يحيق بالناس من جانب الجهات المسئولة . ومن أجل ذلك أصدر أغا المستحفظان قرارا

---

(١) الاخشا : الأقجة بمعنى السكة البيضاء ، ضربت لأول مرة فى عهد السلطان أورخان فى بروصة عام ١٣٢٨وكان وزنها ربع مثقال أى ستة قراريط ، ١٥٤ر١ جراما وعيارها ٩٠٪ (انظر أحمد فؤاد متولى ،قانون تامة سليمان مصر ص١٦ ، هامش ١) .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢١٥ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٤١ .

(٤) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٥٥ مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٣٠٠ .

(٥) القفطان : أوقفتان اسم لأحد الألبسة الخارجية منذ القدم ، وتقابل كلمة خلعة فى اللغة العربية ، وهى فى اللهجة العثمانية مأخوذة من الفارسية خفتان وهى غطاء خارجي (عنترى) وهى نوع من الملابس البيضاء ، السادة أى خلعة التشريف . (انظر ، ابراهيم يونس ، المرجع السابق ، ص١٧٩) .

(٦) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤١١ .

(٧) نفسه .

ببطلان جمع الحمايات ، ويفهم من ذلك أن الباشا لاحول ولاقوة ، وأن الأمر بيد محمد جركس الكبير وكتخدا المستحفظان اللذين كتبا حجة بذلك وبحضور العلماء البكرية والسادات، ووقع عليها قاضى القضاة . وتم تسليمها إلى الأغا الفندقلى[١] .

ورغم قيام الوالى بتلك الإجراءات فإنها لم تقضى على الأزمة الاقتصادية ، بل استمرت فى الزيادة ، ولم يجد الأهالى القوت الضرورى مثل السمن والجبن والزيت ولو بأعلى الأسعار لهذا اشتكى الأهالى إلى باب مستحفظان وكان مسئولا عن مراقبة الأسعار وعن أى ظلم يحيق بالناس من جانب الجهات المسئولة ومن أجل ذلك أصدر أغا المستحفظان قراراً ببطلان جمع الحمايات ، ويفهم من ذلك أن الباشا لاحول له ولاقوة ، وأن الأمر بيد محمد جركس الكبير وكتخدا المستحفظان اللذين كتبا حجة بذلك وبحضور العلماء البكرية والسادات ، ووقع عليها قاضى القضاة ، وتم تسليمها إلى الأغا بتاريخ السادس من شهرجمادى الآخر عام ١١٣٧هـ/ الاثنين ١٩ فبراير ١٧٢٥م ، ونادى فى الناس بعدم التعامل بالعملة السابقة .

وكان من نتيجة هذا الإجراء اختفاء السلع من الأسواق ، ورغم ارتفاع أسعارها . لهذا قررت السلطات الحاكمة وضع مراقبين على كل مخبز تكون مهمته مراقبة أحوال البيع ، ولكن لم يأت هذا الإجراء بنتيجة ، ومع ذلك نودى بالتعامل بالعملة الجديدة ، ولكن الأهالى خشوا من توقف التعامل بالعملة التى يتعاملون بها . وبدأ العامة يقارنون الأسعار بأسعار فترة ولاية رجب باشا الذى حكم فى الفترة ١١٣٣-١١٣٤هـ/ ١٧٢٠-١٧٢١م ففى تلك الفترة كان سعر أردب القمح يباع بسعة وعشرين نصف فضة ، ويباع الفول بأربعة وعشرين نصف فضة وتباع الشعير بعشرة أنصاف فضة ، وكان هناك عامل آخر ساعد على ازدياد الأزمة ، وهو أن الباشا أراد إخراج الهوارة والتجار من الأوجاقات العسكرية لكى يحرمهم الامتيازات التى كانت لهم، ومنها عدم دخول تركتهم فى الحصر من لكى تؤول إلى بيت المال ، ولكن الأوجاقات تمسكت بهم ، ومن الملاحظ أن الهوارة كانوا منضمين إلى الانكشارية والعزب ، على حين انضم التجار إلى الأوجاقات السبعة منذ ولاية إبراهيم باشا .

ونتيجة لكل ذلك استغل الباشا الموقف المتأزم فى البلاد ، وباع غلال الحرمين الشريفين وغلال الفقراء والمساكين بسعر الأردب بجنزرلى ، لهذا حرم أهالى الحجاز وأهالى مصر من هذه الغلال ، بالإضافة إلى ذلك باع غلال الدشايش[٢] والخواصك وقدرت تلك الكمية بثمانية وعشرين ألف أردب .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٤٠ .

(٢) الدشايش : وهى أوقات الدشيشة الكبرى والمرارية المحمدية والأحمدية ، ووقف الدشيشة الكبرى =

ولهذا تضامن العلماء مع الأهالى فى شكواهم إلى السلطان العثمانى فى استانبول فى عاشر ذى الحجة عام ١١٣٧هـ/٩ أغسطس ١٧٢٥م وعقدوا اجتماعاً فى منزل محمد بك الدفتردار ، وعينوه قائم مقام ، عليهم لمتابعة شكواهم لدى السلطان العثمانى ومن حسن الحظ أن منسوب ماء النيل ارتفع فى هذا العام ، ولكن لم تتراجع على موجة الغلاء الفاحش .

ونتيجة لعدم استقرار الأمور فى البلاد ، ولسوء الأحوال الاقتصادية إبان ولاية حسن على باشا الذى حكم فيما بين ٢١ ربيع الأول ١١٣٨هـ و٨ جمادى آخر عام ١١٣٨هـ/٢٧ نوفمبر ١٧٢٥-١١ فبراير عام ١٧٢٦م ، انتهز اللصوص الفرصة وقاموا بالسطو على الأسواق والمحلات ونهبوا النحاسين والصاغة وخان الخليلى ، واستولوا على الكهرمان ، واستولوا من الغورية ومن الألماطيين والسكرية على الشاش والقطن . ووصل الأمر إلى أن بعض السراجين كانوا يقومون بالاستيلاء على بعض الأشياء من أحد المحلات ، فإذا طالبهم صاحب المحل بأثمانها أطلقوا عليه الرصاص ولم يكتف هؤلاء اللصوص بذلك ، بل قاموا بالهجوم على الحمامات واستولوا على أموالها ، وترتب على عدم استقرار الأحوال الأمنية ، والاستيلاء على أموال بعض التجار ، إلى إفلاسهم كما أن هؤلاء اللصوص قاموا بقتل بعض الأمراء المماليك وقتل بعض الجنود والتمثيل بجثثهم ، ولما علم الباشا بذلك أصدر أوامره بالقبض على هؤلاء وإعدامهم فوراً .

وعلى الرغم من ذلك لم تهدأ الأحوال الأمنية ، بل قام اللصوص بالاستيلاء على أمتعة الأهالى ولم يعبئوا بأى شئ حتى بآراء العلماء ووصل بهم الأمر إلى فرض الإتاوات على الأهالى الذين يقيمون أفراحهم .

ورغم كل هذه الإجراءات التى قام بها الولاة فإن هذه الأزمة بقيت حتى عام ١١٤٠هـ/١٧٢٨م ففى هذا العام أصدر محمد باشا النشنجى الذى حكم فى الفترة مابين ١٣جمادى آخر عام ١١٣٨هـ و١١ محرم ١١٤١هـ/١٥ فبراير ١٧٢٦م - ١٧ أغسطس ١٧٢٨م أوامره بإصدار عملة جديدة حدد أسعارها وأوزانها ، وفى الوقت نفسه أعلن الأغا أن

= سابق على العصر العثمانى ، وهو من أوقاف السلاطين المماليك ،والدشيشة قمح مجروش يرسل لفقراء الحرمين الشريفين .

أما أوقاف المحمدية والمرادية والأحمدية فهى أوقاف وقفها سلاطين العثمانيين فى مصر وخصصوها لأهالى الحرمين الشريفين .

وكلها تكون أوقاف الحرمين الشريفين فى مصر ، وكانت هذه الأوقاف تمثل الايرادات المرسلة مالا أو غلالا إلى الحرمين الشريفين ، وتعرف بصرة الأوقاف . وكانت تسلم لأمير الحاج (انظر ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص١٤٣-١٤٤) .

كل نصف فضة يساوى عدداً من العملة الجديدة ، وأمر بوقف التعامل بالدراهم ، ولذلك أعدم المعلم داود أمين دار الضرب ، لأنه أخذ يضرب الدراهم الملغاة وبخاصة من الذهب الجنزرلى ، وأعدم كذلك أحمد أفندى الروزنامجى[١] .

وعلى الرغم من القيام بكل هذه الإجراءات فإن أسعار السلع التموينية ظلت مرتفعة فلم ينخفض سعر أردب القمح فى مدته عن زنجليزى ، وحددت أسعار القمح والفول فى بولاق بستين نصف فضة ، والحمص بنصفى فضة ، ولم ينخفض السعر عن ذلك ولم ينخفض سعر رطل الصابون عن سبعة أنصاف فضة ، وشهدت مدة ولايته أعمال السلب والنهب رغم أنه قضى على نفوذ الشواربية[٢] .

ومع كل هذه الإجراءات لم تنخفض الأسعار واستمرت فى الارتفاع حتى وصل سعر الأردب القمح ثمانية قروش عام ١١٤٢هـ/١٧٢٩م ، أى فى ولاة باكير باشا الذى حكم فى الفترة مابين ١٤ صفر ١١٤١هـ - غرة محرم ١١٤٢هـ/١٩ سبتمبر ١٧٢٨-٢٧ يوليو ١٧٢٩م وتفاقمت الأزمة السياسية التى كانت تمر بها البلاد ، وخاصة بعد تدهور الموقف فى صعيد مصر ، وترتب على ذلك عدم إبحار السفن إلى الصعيد . وقام جركس محمد الكبير وكان قد وصل إلى البهنسا فى العام نفسه ، بأعمال السلب والنهب ، بل أنه ساعد على ازدياد الأزمة الاقتصادية بمنعه ارسال مراكب من الصعيد ، لهذا قل وجود القمح ، وارتفع سعره . ويبدو أن السلطات الحاكمة فى مصر وكان يتولاها عبد الله باشا الكبرلى الذى حكم فى الفترة ما بين ٦ ربيع الآخر عام ١١٤٢هـ - ١٢ ربيع الأول ١١٤٤هـ/٢٩ أكتوبر سنة ١٧٢٩م - ١٤ سبتمبر عام ١٧٣١م) كانت من الضعف بحيث أنها جهزت خمس تجريدات عسكرية للقضاء على نفوذ جركس محمد لكنها لم تتمكن القضاء عليه[٣] فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار فوصل قنطار القطن أربعين قرشا ديوانيا ، وبلغ سعر قنطار البصل أربعين نصف فضة ، ونتيجة لارتفاع الأسعار بهذا الشكل المخيف صارت حالة الناس يرثى لها[٤] وزاد الأمور تعقيدا أنه فرض على التجار ضرائب عينية ، فقد فرض أربعين كيسا من البهار ، لكى يواجه الباشا نفقات

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٥٠-٤٥١ .

(٢) الشواربية : كان ال الشواربى من كبار التجار ، وكان بينهم من بيوت المجد والعز والفخر ومنهم عائلة مشهورة بالقلوبية.(انظر على مبارك الخطط التوفيقية، الجديدة ومدنها وبلادها القديمة، ج٩،ص١٤٣).

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى المرجع السابق ، ص٥٥٩ .

(٤) نفسه ، ص٥٧٥ .

الحملة المزمع ارسالها ضد جركس محمد الكبير فى صعيد مصر ومن العوامل التى أدت إلى عدم استقرار الأحوال الاقتصادية فى مصر كثرة تغيير العملة ، فعندما تولى السلطان محمود خان العرش صارت أسعارها على النحو التالى :

تغير عملة الفندقلى بزر محبوب صار سعر الفندقلى زرمحبوب ونصف زر محبوب ، مائة وعشرة أنصاف فضة ، والنصف بخمسة وخمسين نصف فضة ، والريال المشط ، والريال ابو طاقة بتسعين نصف فضة ، والريال ابو كلب والريال الحجر بخمسة وخمسين نصف فضة ، والفندقلى الذى ابطل سكه بمائتى نصف فضة ، وأصدر والى مصر أمرا بذلك لأغاوات الإنكشارية ، كى يقوموا بتنفيذ هذه الاجراءات كما نودى بهذا القرار فى البلاد[١] وكان تغيير العملة سمة واضحة من سمات هذا العصر ، فقد تغيرت العملة فى ابان ولاية محمد باشا السلحدار الذى حكم فى الفترة مابين ٨ جمادى الآخر عام ١١٤٤ - ١٥ صفر ١١٤٦هـ/٨ ديسمبر ١٧٣١ - ٢٨ يوليو ١٧٣٣م فأصبح سعر الفندقلى مائتى جنزرلى والزنجليرى بمائة وستين ، ولكن الناس ثاروا على هذه الاجراءات ، وألقوا على موكب الوالى الحجارة فاضطر الوالى إلى الذهاب إلى القلعة ، وطلب قادة الأوجاقات العسكرية لعقد اجتماع فى الديوان ، لمناقشتهم فى الأمر . وبعد المناقشة اتفق المجتمعون على ابطال العمل بأسعار العملة الجديدة حددت أسعار أخرى على أساس الريال بستة وثلاثين نصف فضة ، والزنجليرى بمائة وسبعة نصف فضة ، والطرلى بمائة ، والفندقلى بمائة وثلاثين نصف فضة ، والنصف فضة باثنى عشر جديدا ، وكان قد تم التصديق على هذه الأسعار الجديدة فى ١٦ جماد آخر عام١١٤٧هـ / ١٦ ديسمبر ١٧٣١م [٢] .

وعلى الرغم من اتخاذ هذه الإجراءات فإن الأمور لم تهدأ فلجأ اللصوص إلى الخطف والقتل واستولوا على بغال التجار ، وارتفع سعر قربة الماء فصارت بأربعة أنصاف فضة ، وأغلقت الاسواق محلاتها ، وأصبحت البلاد فى حالة يرثى لها ، بل أن الوالى أصدر أمرا بعدم خروج النساء والأولاد إلى الاسواق ، وامتثلت النساء لذلك[٣] ومن الأمثلة على سوء الأحوال الأمنية والاقتصادية أن عام ١١٤٥هـ/١٧٣٣م شهد ارتفاع الأسعار ارتفاعا هائلا، ومن الأدلة على ذلك أن ارتفع سعر العملة فأصبح الفندقلى بمائتين وأربعين نصف فضة . لهذا شكا الأهالى للعلماء والتجار ، واختاروا الشيخ ابراهيم بسيونى وبعض طلبة الشيخ عبد الله

---

(١) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص١٩٠-١٩٤ .

(٢) نفسه .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٧٦ .

الشبراوى ، وتوجهوا إلى محمد بك قطامش ، ومن بعده توجهوا إلى الوالى ، وقرأوا الشكوى عليه . وأرسل معهم كخيته . وعندما تأكد الوالى من صحة ماقرئ فى شكوى الأهالى أمر بعقد اجتماع للمسئولين فى بيت رضوان بك الدفتردار . وفى يوم الاجتماع امتلأ الأزهر بالأهالى . وخرج عميان الأزهر فى مظاهرة ، واغلقوا المحلات بالقوة إلى أن وصلوا إلى ميدان الرميلة ، وخشى الصناجق من ذلك ، وتحت ضغط هذه المظاهرة صدرت الأوامر بعدم استعمال المقاصيص والدراهم ، وحدد سعر الجدد الديوانية بثمانية أنصاف فضة ، وأمر بمنع تداول الفضة الأخشا . وطالب العلماء الوالى بتحديد الأسعار ، فأمرهم الوالى بضرورة الاجتماع فى منزل شيخ الاسلام واجتمعوا وحددوا أسعار بعض السلع ، وكل من يمتنع عن تنفيذها يقتل فورا ، وامتثل الجميع لذلك .

وعلى الرغم من ذلك شح وجود بعض السلع مثل الخيار ، والبطيخ ، والخضر ، وبعض السلع الضرورية ، واستمر الحال على هذا المنوال ثلاثين يوما ، لم تهدأ الأحوال فى أثنائها إلا بعد أن هدد الباشا بخوزقه كل من يخالف هذه التعليمات(١) .

وعلى الرغم من ذلك استمرت الأسعار فى الارتفاع ،حتى مجئ عثمان باشا والى طرابلس الشام ، الذى حكم فى الفترة ما بين (١٣ جمادى الآخر عام ١١٤٦-٢٧ ذى الحجة عام ١١٤٧هـ/٢١ نوفمبر ١٧٣٣-١٧٣٤م) واشتكى الأهالى إليه من ارتفاع الأسعار ، ولم يلتفت لشكواهم ، فرموه بالحجارة ، وكاد الحرس أن يشتبك معهم ، ومع ذلك استمر التلاعب أيضا بالعملات حتى مجئ باكير باشا وإلى مصر السابق ، الذى حكم فى الفترة ما بين ١٤ شوال عام ١١٤٨هـ و٢٧ ذى الحجة عام ١١٥٠هـ/٨ مارس ١٧٣٥ - ٢٧ إبريل عام ١٧٣٧م. فاشتكى إليه الأهالى من تعدد العملات ، اذا أصبحت ثلاث عملات أخشا ، مرادى ، مقصوص وكان الأخشا بستة عشر جديدا ، والمرادى باثنى عشر جديدا ، والمقصوص بثمانية جدد . وتوقع الأهالى أن يقوم الوالى باستبدال العملة ، ولكن لم يحدث شئ من ذلك، فاغتم التاس غما شديدا ، وامتنعوا عن تداول المقصوص ، واقتصر تعاملهم على الأخشا والمرادى ، لهذا اختفى المقصوص ، فأصبح الذى كان يسعر بالمقصوص يسعر بالديوانى .

وعدلت الأسعار بعد ذلك ، فبعد أن كان سعر رطل اللحم الضانى بثلاثة مقاصيص صار سعره بثلاثة أخشا ، ورطل الجاموس باثنين مرادى بعد أن كان باثنين مقاصيص . لهذا حزن

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٨٥ .

الناس حزنا شديدا ، وما زاد الموقف سوءا أن الدولة العثمانية طلبت من والى مصر ارسالة ثلاثة آلاف جندى ، ولكن لم يتمكن الوالى من تنفيذ المطلوب منه ، اذ لم يحضر جنود من القليوبية ولا من الجيزة ولا من شرقى اطفيح ، بسبب الغلاء الفاحش . لكنه تمكن بعد ذلك من اعداد هذا العدد المطلوب من الغربية والبحيرة والمنوفية والشرقية والمنصورة(١) .

وبالإضافة إلى ذلك أصدر أغا الحسبة أوامره للتجار بدفع ما كان يؤخذ منهم سابقا أى منذ عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م ، فامتثل الجميع ماعدا الشيخ التجار بالغورية والجميلون ، ولانعرف سببا لذلك ، وطلب شيخ التجار هذا عقد اجتماع فى منزله ، ومن الطريف أنه طلب من الجميع المساهمة فى مصاريف هذا الاجتماع ، ولكن شيخ التجار المغاربة امتنع عن الحضور والمساهمة فى مصاريف هذا الاجتماع ، على أساس أن شيخ التجار هو الذى دعا للاجتماع وعليه أن يتحمل تكاليفه . وعندما علم المحتسب بذلك أخبر شيخ التجار بضرورة تنفيذ ما أقره الإجتماع والتزم بذلك(٢) .

وكان من نتيجة تخبط الولاة العثمانيين فى سياستهم المالية فى هذه الفترةوقد تمثل فى تغيير العملة من وقت لآخر ، ان زادت شكاوى الأهالى للدولة العثمانية فأصدرت فرمانا عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م ، ينص على ابطال عملة الفندقلى بعد أن ارتفع سعرها من مائة وأربعةوثلاثين نصف فضة إلى مائة وستة وأربعين نصف فضة على أن يسك بدلا منه زرمحبوب(٣) وحدد سعره بمائة وعشرة انصاف أخشا ، ونص كذلك على ابطال المرادى ، وعدم استخدامه فى البيع والشراء ، وأن يستخدم بدلا منه الدراهم وحدد سعرها بأربعة أنصاف أخشا لكل درهم ، ونودى بذلك بالقاهرة(٤) ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد قامت الدولة العثمانية عام ١١٦٧هـ/١٧٥٤بتبديل العملة فى مصر بمناسبة تولية السلطان عثمان خان عرش السلطانه وكان الوالى فى مصر إذ ذاك مصطفى باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١١٦٧هـ / و١١٦٨هـ / ١٧٥٤-١٧٥٥م فجمعت العملة القديمة ووضعت فى المخازن ، وبدأت دار الضرب تسك العملة الجديدة وهى زر محبوب .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٩٥ ، عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص١٦٤ .

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٢) نفسه ، ص٦١٢ .

(٤) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق، ج٢ ، ص٢٥٥ .

وفى عام ١١٨٦هـ/١٧٧٢م ، أمر محمد بك ابو الذهب بابطال العملة التى سكت فى عهد على بك الكبير ، وأدى هذا القرار إلى فقدان ٢٠٪ من قيمة العملة ، وانتهز التجار الأوربيون هذه الفرصة وجمعوا هذه العملة وحولوها إلى سبائك من الذهب ، وأرسلوها إلى مرسيليا ، وحققوا من وراء ذلك أرباحا طائلة[١] .

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن الأمير المملوكى محمد بك الألفى فرض عام ١٢١١هـ/١٧٩٦م ضرائب جزافية على سكان قرية قرب بلبيس عاصمة مديرية الشرقية فاستغاث الأهالى بالشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وكانت له حصة فيها ، فاتصل بابراهيم بك ، ومراد بك فحاولا منع المظالم المستحدثة والمكوس وكتبا بذلك حجة[٢] .

إلى جانب ذلك كله ، نجد أن اليهود كان لهم دور فى حدث ازمات اقتصادية رهيبة مستغلين فى ذلك خبرتهم بالأعمال المصرفية ، ولكن أحمد باشا الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٨٦-١٠٨٧هـ - ١٦٧٥-١٦٧٦م) فطن لأساليبهم ، فأمر بابعادهم من الديوان وعين بدلا منهم ابراهيم جاويش دلال البلاد[٣] فى وظيفة صراف باش ، وصالح أفندى كاتب الحوالة[٤] ، وبالإضافة إلى ذلك عين عددا من الصيارف المسلمين[٥] .

وقد فرض الباب العالى ضرائب على الأهالى عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥-١٦٩٦ وذلك بايعاز من ياسف اليهودى ملتزم دار سك النقود ، لما سافر إلى استانبول ، سأله الباب العالى عن

---

(١) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير ، ص٨٦ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص٥٩ - ٦٠ .

(٣) جاويش دلال البلاد : أى رئيس السماسرة الوسطاء فى القاهرة فكان يفرض اتاوة على كل الدلالين الذين يبيعون فى الأسواق العامة الأسماك والبياضات والملابس .. الخ ، وبخلاف ذلك فقد كان كل واحد من هؤلاء الشيوخ (شيوخ الدلالية) يستطيع أن يبيع بنفسه ، ذلك أن وظيفة الدلالين فى الأسواق لاغنى عنها ، وكان أحد هؤلاء الشيوخ اثنين أحدهما تركى والآخر مصرى ، (انظر علماء الحملة الفرنسية ، المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص١٠٢) .

(٤) كاتب الحوالة : هو الموظف المسئول عن قيد اسماء الملتزمين وقدر الميرى المقرر عليهم ، والأقساط المطلوبة منهم ، وارسال الحوالات أى الأشخاص الذين يطالبونهم بهذه الأقساط . (انظر ، أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص١٧٤) .

(٥) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص١٧٤ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٨ أ .

أحوال مصر وامكانية زيادة الضرائب المفروضة على أهلها ، أجاب أنه يمكن فرضها وتعهد بتحصيلها ، فأرسل الباب العالى معه الفرمان السلطانى الخاص والقاضى بفرض تلك الضرائب وسلمها ياسف اليهودى للوالى قام بتنفيذها فورا ، وأعلنها فى الطرقات والشوارع(١) ولكن الأهالى ثاروا وطالبوا الوالى بتسليمهم ياسف ، ولكنه رفض، فقبضوا على ياسف وقتلوه حرقا(٢).

وتعرضت البلاد عام ١١٢٨هـ/١٧١٥م ، لأزمة اقتصادية ابان ولاية عابدى باشا الذى حكم البلاد فى الفترة مابين ١١٢٦ و١١٢٩هـ/١٧١٤-١٧١٧م ، ويرجع سبب هذه الأزمة الاقتصادية إلى ثلاثة من اليهود ، كانوا يعملون كتبة فى الديوان فتلاعبوا بأسعار العملة ، وانتهى الأمر باعدامهم ، وطلب الوالى عقد اجتماع للديوان ، لتحديد أسعار العملة ، وكانت تلك الأسعار على النحو التالى :

الجنزرلى بمائة وسبعة أنصاف فضة على حسب السعر السابق ، والطرلى بمائة نصف فضة ، والفندقلى بمائة وعشرين نصف فضة ، والريال بستين نصف فضة ، وابو الكلب بخمسة وأربعين نصف فضة على حسب السعر السابق ، وأصدر الديوان أمرا بوقف التعامل بالأسعار القديمة . وتم اصدار عملة جديدة على أساس كل جديدين بدرهم ، عرفت تلك العملة بجدد طره . ونودى بذلك فى القاهرة لأخبار السكان وبرغم ذلك لم يجد الأهالى السلع الضرورية .

ومن الملاحظ أن سعر الريال فى المنصورة فى الفترة نفسها كان يعادل خمسة وسبعين نصف فضة ، ولانعرف سببا لذلك(٣) .

وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات ارتفعت الأسعار بصورة لم يسبق لها مثيل فقد ارتفع سعر أردب القمح عام ١١٣٠هـ/١٧١٨م إلى جنزبرين فى إبان ولاية على باشا الأزمرلى الذى حكم فى الفترة مابين (١١٢٩-١١٣٣هـ/١٧١٧م - ١٧٢٠م) ثم عادت الأسعار إلى الانخفاض فى إبان ولاية رجب باشا الذى حكم فى الفترة مابين (١١٣٣-١١٣٤هـ/ ١٧٢٠-١٧٢١م) فكان أردب القمح يباع بسبعة وعشرين نصف فضة ، والفول

---

(١) عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص١٦٢ .

(٢) نفسه .

(٣) دار المحفوظات المصرية ، سجل محكمة المنصورة ، سجل رقم ١، ص ١٣٦ ، عام ١١٢٨هـ/١٧٥م.

ثمانية عشر نصف فضة والشعير باثنى عشر نصف فضة والقمح اثنين وثلاثين نصف فضة ثم ارتفع سعرها بعد عزل الباشا ويمكن أن يرجع السبب فى انخفاض الأسعار إلى زيادة المحاصيل واستقرار الأمن .

ومن العوامل الأخرى الاختلاسات ففى عام ١١٠٣هـ/١٦٩١م حصلت الروزنامة على ١٢٠ كيسا دون علم السلطات الحاكمة ، وعندما علمت أرادت معرفت السبب الذى من أجله تم تحصيل هذه الأموال ، ولكنها لم تحصل على الاجابة المطلوبة ، ووجدت أن كل طرف من الأطراف المختلفة يلقى المسئولية على الآخر ، لذلك شكلت لجنة للتحقيق ، وكان من نتيجته أن الروزنامجى اختلس ثمانين كيسا ، وأن كاتب الروزنامة اليهودى اختلس أربعين كيسا ، وانتهى الأمر بإعدامهما[١] .

وعلاوة على كل ذلك اختلس أمين الشون[٢] والكتبة تسعة عشر ألفا أردبا من الفول كان نصيب الأمين أحد عشر ألفا والباقى كان من نصيب الكتبة ، وكان ذلك ابان ولاية محمد باشا النشنجى الذى حكم فيما بين ١١٣٤ و١١٣٨هـ/١٧٢١-١٧٢٦م . وكادت تحدث مجاعة ، لولا أن واجهت السلطات الحاكمة ذلك باستيلاءها على نصف كمية الفول الذى كان مخصصاً للحرمين الشريفين [٣].

---

(١) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢١ .

(٢) أمين الشون :فكان يحكم وظيفته كمدير للمخازن العمومية يحصل على العادات المقررة لصالحة نقدا من الملتزمين الذين يسددون ضرائبهم عينا ، وكان كل الموظفين العاملين تحت امرته يحصلون على رواتب منه، وكان مخولا له عند استلام الغلال من المموليين أن يستخدم مكاييل اكبر حجما على نحو طفيف من تلك التى يستخدمها عن تسليمه هذه الحبوب لتوزيعها على الجهات التى حددتها اللوائح (انظر ، استيف ، النظام المالى والادارى فى مصر العثمانية ضمن مجموعة وصف مصر ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٧٩ ، ترجمة زهير الشايب ، ص١٢٠) .

(٣) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

وفضلاً على ذلك كله ساهم فساد عربان غزالة [١] فى ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية فى إبان ولاية أحمد باشا الحافظ ، الذى حكم فى الفترة مابين (٩٩٩-١١٠٣هـ/ ١٥٩١ -١٥٩٥م) ولكن الحاكم واجه فسادهم بتجهيز حملة ضدهم ، وقتل منهم ثلاثمائة فرد واستولى على أموالهم ونسائهم وذراريهم ، وباعهم فى سوق الرميلة كالأسرى ، فبيع الولد بدينارين والبنت بدينار [٢] ومن الجدير بالذكر أن تجارة الرق كانت منتشرة لا فى مصر العثمانية فحسب بل كانت منتشرة فى أنحاء كثيرة من العالم ، ولم يكن فى ممارسة تلك التجارة غير الإنسانية أية غضاضة .

ولم تتوقف أعمال المفسدين عند هذا الحد ، بل قام عربان المغاربة والضعفا [٣] والنجما [٤] فى البهنسا فى عام ١١١١ هـ / ١٦٩٩- ١٧٠٠م بالهجوم على الأهالى ، ودمروا مزروعاتهم واغتصبوا نساءهم ، فاشتكى السكان للسلطات الحاكمة فلم تتخذ أى إجراء ضد هؤلاء المفسدين مما اضطر الأهالى إلى أن يرسلوا وفداً للشكوى للسلطان العثمانى فى أستانبول [٥].

ومما ساعد علي ازدياد ذلك امتناع عربان الهوارة عن توريد الكمية المفروضة عليهم من إنتاج القمح ، وأدى ذلك إلى ارتفاع سعره فبلغ سعر الأردب منه مائة وعشرين نصف فضة ، فاشتكى الأهالى للسلطان العثمانى فأصدر فرماناً لوالى مصر يحثه فيه على القضاء على فساد هؤلاء العربان [٦].

---

(١) عربان غزالة ، وأماكن إقامتهم ضواحى الجيزة ، والمناطق القاحلة بجوار الأهرام (انظر : علماء الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، جـ ٢ ، ص ٣٩٦) .

(٢) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٨٨أ .

(٣) عربان الضعفا : وهم مستقرون فى ضواحى شمال بنى سويف (انظر : علماء الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ، العرب فى ريف مصر وصحرواتها ، القاهرة ١٩٨١م ، ص ٢٠) .

(٤) عربان النجما : وهم المستقرون بولاية البهنسا (المرجع السابق ، ص ٣٠) .

(٥) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ ؛ أحمد الدمرداش ، المرجع السابق ، ص ٤١ ؛ مصطفى بن الحاج إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٦) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

وعلاوة على كل العوامل السابقة التى أدت إلى سوء الأحوال الاقتصادية فى مصر ، كانت هناك عوامل أخرى ساهمت فى سوء تلك الأحوال ، وهى العوامل الطبيعية ، وانخفاض منسوب النيل أو ارتفاعه ، وقد شهدت مصر إبان ولاية محمد باشا الشهير بدوقة لين الذى حكم فى الفترة مابين ٩٦١ و ٩٦٣ هـ / ١٥٤٤ - ١٥٥٦م انخفاضًا فى مياه النيل ؛ أدى إلى ندرة بعض السلع ، مثل القمح والشعير ما يقتاتون به حتى أصبحوا يقتاتون بذور الترمس ، فهلك الكثير من الفقراء ، ثم تمكن التجار من استيراد القمح من بلاد الشام [١].

وفى إبان ولاية على باشا السلحدار الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠١٠ و ١٠١٣ هـ / ١٦٠١ - ١٦٠٣ م حدث انخفاض لمنسوب مياه النيل فأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار المواد التموينية . وبدلاً من أن يخفف الوالى عن الأهالى ، نجد إنه قد استغل الموقف فباع بعض كميات من القمح المخصص للحرمين الشريفين للتجار الأوربيين على أنه بهار ، ولما علم العسكر بذلك أرادوا قتله ، فتراجع عن ذلك[٢] وارتفع سعر أردب القمح ارتفاعًا هائلاً ، ونتج عن ذلك وفاة الكثير من الأهالى[٣] .

وفى عام ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م ، انخفض منسوب مياه النيل مرة أخرى إبان ولاية محمد باشا المعروف بقول قران ، الذى حكم فيما بين ١٠١٦- ١٠٢٠ / ١٦٠٧ - ١٦١١م[٤] فضعف إنتاج القمح فى مصر فى تلك الفترة من فترات متتالية .

وقد شهدت البلاد فى إبان ولاية قرة حسين باشا ، الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٢٩ و ١٠٣١ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٢٢م فيضانًا شديداً للنيل ، ولم ينخفض عن معدله ، طوال فصل الفيضان (فصل الصيف) ، وترتب عى ذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، بسبب عدم تمكن الفلاحين من القيام بأعمال الزراعة بسبب الفيضان وقد كان العامل الدينى وأثره المهم ؛ فقد دعا العلماء والأشراف الله أن تزول عنهم هذه الكارثة ، فاستجاب الله لهم ، وانخفض النيل إلى معدله الطبيعى فعادت الأسعار إلى سابق عهدها [٥].

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١١٢ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٨٤ أ .

(٢) ابى السرور البكرى الصديقى ، الكواكب السائرة ، لوحة ١٥ ب ، ١٦ ب ؛ نفسه ، المنح الرحمانية، لوحة ٦٤ أ - ٦٥ ب ؛ أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع اسابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) يوسف الملوانى : المرجع الشابق ، لوحة ٨٩ ب .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٥) المرجع السابق ،ص١٢٣ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة٩٣ب.

وتحدثنا المصادر المعاصرة لهذه الفترة عن انخفاضات للنيل فى عهود كثيرة . ترتب عليها حدوث أزمات اقتصادية شهدتها البلاد ، ففى ولاية إبراهيم باشا السلحدار فيما بين (٤ جمادى آخرة عام ١٠٣١ ورمضان عام ١٠٣١هـ / ١٥ أبريل عام ١٦٢٢ - يوليو ١٦٢٢م) حدثت أزمة اقتصادية استمرت أربعة أشهر وهى مدة حكمه بسبب انخفاض النيل[١] وفى أثناء الفترة التى تناولها البحث استمرت الأسعار فى الارتفاع ، ففى عهد ولاية بيرم باشا (٩ شعبان ١٠٣٥ - ٩ محرم ١٠٣٨ هـ / ٦ مايو ١٦٢٦ - ٨ سبتمبر عام ١٦٢٨م) ندر وجود الصابون ، وهنا تدخل قاضى العسكر وأمر بألا يباع الصابون إلا بإشرافه شخصيًا ، إذ بلغ سعر الرطل خمسة عشر نصف فضة ، بعد أن كان يباع فى إبان ولاية قرة حسين باشا بعشرة أنصاف فضة أى أن الأسعار قد زادت بنسبة ٥٠٪ وفى تلك الفترة نفسها قل وجود الماء ، وترتب عى ذلك اختفاء السقائين وارتفعت أسعار القمح ، حى وصل سعر الأردب إلى ثمانية قروش إبان ولاية محمد باشا طبانة الذى حكم في الفترة ما بين ١٠٣٨ و ١٠٤٠هـ / ١٦٢٨ - ١٦٣٠م[٢] ، وشهدت فترات حكم كل من محمد باشا الشهير بزلعة السم ، فيما بين ١٠٤٧ - ١٠٥٠ هـ / ١٦٣٧ - ١٦٤٠م ،ومصطفى باشا البستنجى فى الفترة ١٠٥٠ و ١٠٥٢ هـ / ١٦٤٠ - ١٦٤٢مم انخفاض منسوب مياه النيل ، وترتب على ذلك ارتفاع الأسعار حتى بلغ ثمن ويبة[٣] القمح ، ثلاثين نصف فضة ، وأدى ذلك إلى اضطراب الأمن فكثر اللصوص وقطاع الطرق واستغلوا الفرصة ونهبوا المحلات والمنازل فاضطر السكان إلى اخلائها وفى الفترة نفسها ندر وجود الخبز ، فتعرضت الأسواق مثل سوق ابن طولون والمغاربة للنهب والسرقة[٤] وارتفعت أسعار القمح فوصل سعر الأردب إلى ثلاثة أضعاف سعره فى مدة حكم سنان باشا .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٢) أحمد شلبي عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٤٢ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٩٤ب.

(٣) الويبة : مكيال مصرى ، وهى تساوى ستة عشر قدحًا مصريًا ، والقدح المصرى صغير تقديره بالوزن من الحب المعتدل مائتان وثلاثون درهمًا (انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، ص ٤٤٥) .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ؛ الملوانى، لوحة ٩٨ب .

لهذا يمكن القول بأن الأزمة الاقتصادية لم تتوقف بل استمرت فى ولاية مقصود باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠٥٢ و ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٢ - ١٦٤٣م فلم تكن الغلال ولا المواشى تصل إلى القاهرة ، واستمرت الأسعار فى الارتفاع وصل ثمن أردب القمح إلى ثمانية قروش، وفوق كل ذلك منع إعطاء الأهالى القروض التى كانت تعطى من الخزانة ، وفضلاً على ذلك كثرت المظالم فى إبان ولاية هذا الوالى حتى أفلس كثير من التجار (١).

وشهدت ولاية محمد باشا فيما بين [١١١٦ و ١١١٨ هـ / ١٧٠٥ - ١٧٠٧م] انخفاضاً فى منسوب مياه النيل ؛ ونتج عن ذلك ارتفاع الأسعار حتي وصل سعر أردب القمح إلى مائة وأربعين نصف فضة ، ووصل سعر أردب الشعير إلى مائة و،خمسين نصف فضة ، والفول إلى مائة وثمانين نصف فضة . والأرز إلى أربعمائة نصف فضة ، وقنطار البن إلى اثنين وخمسين ريالاً بعد أن كان واحداً وعشرين ريالاً فقط . وساعد على ارتفاع أسعاره عدم استيراده من اليمن ، ووصل سعر رطل اللحم إلى ثلاثة أنصاف فضة والدجاجة إلى عشرة أنصاف فضة ورطل الشحم بثمانية أنصاف فضة ، وكان نتيجة هذه الأزمة أن كثر المتسولون(٢) .

ونتج أيضًا عن عدم توريد الغلال من الوجه القبلى عام ١١١٩هـ / ١٧٠٧م - أى إبان ولاية حسن باشا السلحدار نقص اللحوم فى الأسواق ، وأدى ذلك إلى حدوث أزمة سياسية عرفت فى المصادر المعاصرة لتلك الفترة بواقعة الرطلين لحم واستغلت الأنكشارية الموقف وأعلنت حمايتها لدار سك النقود ، وكان هدفهم من وراء ذلك إصدار عملة على حسب أهوائهم، وفضلاً على ذلك ارتفعت أسعار الخضر والفاكهة (٣).

ومن الكوارث التى حدثت فى مصر فى عام ١١٣٤ هـ / ١٧٢٢م ، انخفاض منسوب مياه النيل فى إبان ولاية محمد باشا النشنجى صدر أعظم الذى حكم فى الفترة مابين ١١٣٤ و ١١٣٨ هـ / ١٧٢١ - ١٧٢٦م ، ونتج عن ذلك ارتفاع أسعار بعض المواد التموينية فوصل سعر أردب القمح إلى خمسة وثمانية نصف فضة ، بعد أن كان سعره أربعين نصف فضة وقد نقصت الغلال الواردة من الصعيد ، لذلك وصل سعر أردب القمح إلى أربعة قروش ، وواجه

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٩٨ ب.

(٢) أحمد الدمرداشى : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

الوالى الموقف باتخاذ عدة قرارات كان منها وقف التعامل بالعملات ، ولم تحدثنا المصادر المعاصرة لتلك الفترة عن البديل لكن المحتمل أن تكون قد حلت محلها عملة جديدة ودعا إلى عقد اجتماع تقرر فيه تسعير بعض المواد التموينية ، فصار أردب القمح بسبعين نصف فضة والشعير بخمسة وثلاثين نصف فضة . وعلى الرغم من اتخاذ كل هذه القرارات تعذر وجود القمح ، وكاد الأهالى يموتون جوعاً ، ويقال أن أحد أسباب هذه الأزمة أن كتخدا الباشا استغل الموقف وصدر القمح إلى أوربا[١] .

يتضح من ذلك أن سلطة السلطان العثمانى لم تكن قوية على الولاة ، فكانوا يتصرفون على حسب ما تقضى به حاجاتهم ، وقد شهد عام ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ - ١٧٣٧ م وقوع عدد من الكوارث كان منها انخفاض منسوب مياه النيل ، ووقف توريد القمح من الوجه القبلى ، فارتفع بذلك سعر أردب القمح إلى مائة نصف فضة ، والفول إلى خمسة وتسعين نصف فضة[٢].

وفى عهد على بك الكبير وخاصة فى الفترة مابين ١١٨٤ - ١١٨٦ هـ / ١٧٧٠ - ١٧٧٢م . شهدت مصر مجاعة بسبب انخفاض منسوب النيل فى الوقت الذى ازدادت فيه نفقات الجيوش الغازية لبلاد الشام والحجاز ، ولكن حكومة على بك الكبير واجهت ذلك بإلقاء التبعة على المحتسب الذى كان يخرج على ظهر جواده وأمامه تابع يحمل الميزان العيارية ، مع عدد من رجال الشرطة يحملون العصى لمواجهة التجار الذى استغلوا الفرصة ورفعوا أسعار المواد التموينية ، فعملت حكومة على بك على توفيرها بأسعار معقولة ، ولم تتوان الحكومة فى اتخاذ إجراءات رادعة ضد المنحرفين ، كما أمرت حكام الأقاليم بتشجيع الفلاحين على زراعة أراضيهم بالغلال اللازمة للاستهلاك المحلى [٣] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ - ٣٥١ ؛ مصطفي بن الحاج إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٢) نفسه .

(٣) محمد رفعت رمضان ، علي بك الكبير ، ص ٧٣ - ٧٤ .

وفى عـام (١١٩٨هـ / ١٧٨٣- ١٧٨٤م) أدى قـصـور النيل والفتن المستـمـرة وتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار أتباعهم فى النواحى لجبى الأموال من القرى والبلدان واحداث أنواع المظالم ويسمونها مال الجهات ورفع المظالم والفردة حتى اهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم وهربوا من بلادهم فحولوا الطلب على الملتزمين وأرسلوا لهم المعينين فى بيوتهم فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك ما هم فيه من المصادرات الخارجة عن ذلك وتتبع السلف من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلية ، ولما توالى طلب أيديهم إلى المواريث فإذا مات الميت أحاطوا بموجوده تحقق التجار عدم الرد استعوضوا خسارتهم من زيادة الأسعار سواء كان له وارث وفسدت النيات وتغيرت القلوب ، وكثر الحسد والحقد فى الناس لبعضهم البعض فيتتبع الشخص عورات أخيه ويُدلى به إلى الظالم حتى خرب الإقليم وانقطعت الطرق وفقد الأمن ومنعت السبل إلا بالخفارة وركوب الغرور وهرب الفلاحين من قراهم من الشراقى والظلم وانتشروا فى المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلايجد الزبال شيئا يكنسه بذلك ... ومات الكثير من الفقراء بالجوع . ولولا لطف الله تعالى ومجئ الغلال من نواحى الشام والدولة العثمانية لهلكت أهل مصر من الجوع .

وهكذا فإن مصر المصدرة تقليديا للحبوب تجد نفسها مضطرة إلى استيرادها من بقية الامبراطورية العثمانية، ومكة والمدينة المعتمدتان اعتماداً وثيقًا على مصر فى مؤنها تعانيان بدورهما معاناة جسيمة وعم السخط البلاد[1].

كما أن التجار الفرنسيين هم أيضًا ضحايا التعديات المفروضة من جانب البكين ويبدو مور قنصل فرنسا عاجزاً عن التصدى لهذا الوضع . ويرجع الدور الرئيسى إلى تاجر غير عادى هو شارل ماجللون . وهو أحد ممثلى الأمة الفرنسية منذ عام ١٧٦٨ . وفى عام ١٧٧١ يستقر فى البلد ويعمل لحسابه الخاص ويتزوج من أرملة تاجر بندقى. تقوم بتجارة الأقمشة ، وهو ما يسمح لها بالاتصال بنساء المماليك الأعلى مكانة وبسبب هذا الوضع، جرى اعفاء مجاللون من من جانب السلطات الفرنسية من الحظر المفروض على تجار الثغور والذى يحرّم عليهم اصطحاب زوجاتهم معهم .

وتتوسط زوجة مجاللون لدى الست نفيسة زوجة مراد بك ، وتحصل فى أغلب الأحيان على تخفيضات للتعديات التى يتعرض لها الفرنسيون ، وفى عام ١٧٧٧ أثرت البعثة التفقدية

---

(١) هنرى لورانس ، وآخرون، المرجع السابق، ص١١١، ١١٢ .

التى قام بها البارون دوتوت ، والمكلف فى واقع الأمر بدراسة امكانية الاستيلاء على مصر، ويجرى نقل قنصلية القاهرة إلى الاسكندرية وذلك من جراء انعدام الأمن المهيمن على القاهرة. ولايؤدى ذلك إلاَّ إلى تعزيز دور مـاجللون. وفى عـام ١٧٨٥، يوقع البيكان مع المبعوث الفرنسى تروجيه معاهدة تسمح للفرنسيين بالملاحة فى البحر الأحمر، ومن المؤكد أن دور مـاجللون فى المسألة دور مـهم[١] وفى عـام ١٧٧٦ يصل مـراد إلى الاسكندرية ، ويزيد التعديات المفروضة على الفرنسيين ، ويهدد بهدم كنيستهم ، ويطلب القناصل مساعدة سفارتهم فى استانبول ، ومن جديد تتوسط زوجة ماجللون إلى الست نفيسة التى تتدخل لدى زوجها وتتوصل إلى وضع حد للتعديات ، لكن السفراء الأوروبيين فى استانبول كانوا قد احتجوا احتجاجًا شديداً بالفعل لدى الباب العالى وطلبوا الالتزام بالامتيازات[٢]. وترسل الدولة العثمانية حملة تحت قيادة حسن باشا الجزائرلى وتصل إلى رشيد فى يوليو ١٧٨٦ . واعتقادا منهم أن الفرنسيين يتحملون المسئولية عن هذا التدخل، يطلب ابراهيم ومراد بك إلى ماجللون عبر الست نفيسة التدخل لدى القنصل الفرنسى حتى يستطيع وقف الحملة العثمانية، وهم يجهلون أن دوافع العثمانيين أكبر أهمية بكثير من شكايات التجار الفرنسيين . على أن فكرة عمل مشترك من جانب الباب العالى والفرنسيين ضد المماليك تبدو وجيهة فى نظر البكوات. وسوف نجد هذه الفكرة من جديد فى عام ١٧٩٨ . أما فيما يتعلق بآل مجاللون فسوف يتعرضون للخراب من جراء المشروع ، لأن لهم ديونا تزيد عن خمسمائة ألف جنيه مستحقة على البكوات الرئيسيين. ويدعى علماء القاهرة ويذهبون فى وفد إلى رشيد لمقابلة قائد الحملة العثمانية، وهم يشكون عجزهم أمام قوة المماليك[٣].

فى عـهد مراد بك وإبراهيم بك سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م ألم بالبلاد بعد عودة هذين الأميرين إلى مصر جوع هائل ويقال إنه جعل من كثرة ما ضبطاه من الحبوب فى الصعيد طمعًا بالكسب، ثم القيا النظامات التى وضعها حسن باشا قبطان وأبدلاها بما يوافق مطامعهما الشخصية. فكثرت تعديات مماليكها ، وعلى الخصوص تعديات «أحمد محمد الألفى» فثار الأهلون ثورة عامة لم يسعها معها إلا توقيف تلك الإجراءات وقتيا ، فخمدت الثورة . فعاد إلى ما كان عليه فعاد الناس إلى الاضطراب ، وكسدت سوق التجارة لقلة الأمنية، وضربا

---

(١) هنرى لورانس وآخرون، المرجع السابق، ص١١٢ .

(٢) المرجع السابق، ص١١٢، ١١٣ .

(٣) هنرى لورانس وآخرون، المرجع السابق، ص١١٤ ، ١١٥ .

على التجار الأجانب فى الاسكندرية وضرائب فاحشة ، فرفعوا شكواهم إلى قناصلهم ، فلم تكن النتيجة إلا زيادة الاضطهاد[١].

على الرغم من هذه الكوارث الطبيعية التى نتج عنها التدهور الاقتصادى والسياسى ، وشهدت مصر إبان ولاية حسنى باشا الذى حكم فيما بين ٢١ شعبان ٩٤١ و ٦ جمادى الآخرة ٩٤٣ هـ /٢٥ فبراير ١٥٣٥ - ٢٠ نوفمبر عام ١٥٣٦م رخاء إقتصاديًا ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى سياسة الوالى الحاسمة فى القضاء على اللصوص ، والعمل على استتباب الأمن ، فاستقرت الأسعار نتيجة لهذه السياسة ، واتخذ هذا الحاكم بعض الإجراءات الخاصة برفع مستوى معيشة السكان كان منها :

تسعير رطل الحم الضانى بربع نصف فضة ، وتسعير جرة العسل الحر بنصفين (والجرة عشرة أرطال) ، وصار ثمن ربعة الأرز بنصفى فضة ، والشعير بخمسة أنصاف فضة ، ورطل البن أربعة أنصاف فضة وكان من نتيجة رخص سعره انتشار المقاهى ، أما أسعار العملة فكان الريال الحجر بثلاثين نصف فضة ، وأبو كلب بأربعة وعشرين نصف فضة ، وكان الشريفى الجديد بخمسة وستين نصف فضة والبندقى بخمسة وستين نصف فضة[٢] .

وكانت نتيجة ارتفاع النيل إبان ولاية إسكندر باشا فيما بين ٩٦٣ و ٩٦٦ هـ / ١٥٥٦ - ١٥٥٩م انخفاض أسعار المواد الغذائية[٣] كما شهدت ولاية سنان باشا فيما بين ١٤ جماد آخر عام (٩٧٩ وجماد آخر ٩٨٠ هـ / ٣ نوفمبر ١٥٧١ - ١٥٧٢م) ارتفاعًا فى منسوب النيل ، فعم الرخاء البلاد[٤] كما عم هذا الرخاء أيضًا لنفس السبب إبان ولاية خليل باشا فيما بين ١٠٤١ - ١٠٤٢هـ / ١٦٣١ - ١٦٣٢م [٥].

وفى عهد ولاية أيوب باشا فيما بين ١٠٥٤ - ١٠٥٦هـ / ١٦٤٤ - ١٦٤٦م ألغى المظالم التى كانت سائدة ، وأدى ذلك إلى انتشار الرخاء فى البلاد ، وخفض الأسعار فوصل سعر أردب القمح إلى عشرين نصف فضة وسعر أردب الشعير إلى ثمانية أنصاف فضة [٦].

---

(١) جرجى زيدان، مصر العثمانية ، ص١٧٣ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) نفسه ، ١١٢ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٨٥ أ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ١١٢ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٨٥ أ .

(٥) نفسه ، ص ١٤٨ ؛ نفسه أيضًا ، لوحة ٩٧ أ .

(٦) نفسه ، ص ١٥١ ؛ نفسه ، لوحة ٩٩ أ.

وشهدت مصر الرخاء فى عام ١١٠٨ هـ / ١٦٩٧م ، بسبب فيضان النيل ، وقد عبر النساء عن فرحتهن بذلك " بالزغاريد " واستبشر الناس بذلك ، واحتفلوا بختان أبنائهم ، وأقيمت الأفراح ، وساهمت السلطات الحاكمة ، فى ذلك كما ساهم الجميع مثل القرداتية ، والحواة ، والخيالة والأدباء والبهلوانات والمطربين والموسيقيين .

ومن نتائج هذه الدراسة أنها ألقت الضوء على الأوبئة ، والأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها مصر العثمانية ، فقد كانت الأوبئة منتشرة فى تلك الفترة ممثلة فى الطاعون ، حتى أن هذا المرض الأسود كان أحيانًا يسمى باسم الوالى العثمانى مثل طاعون جعفر ، كما سمى باسماء مختلفة مثل الطاعون الحبشى والطاعون الأصفر ، وطاعون الحريق ، وطاعون النار ، والشتاء وشيخه . وقد أوضحت هذه الدراسة أيضًا تحديد فترات انتشار هذه الأوبئة وموقف السلطات الحاكمة الإيجابية والسلبية منها .

وأوضحت الدراسة أيضًا أن مصر أصيبت بكوارث أخرى طبيعية مثل احتراق سوق البارود ، والأمطار الغريبة التى تمثلت فى سقوط ثلوج كثيرة كبيرة مثل بيض النعام .

وأوضحت هذه الدراسة كذلك بعض سنوات الرخاء وأثر ذلك فى حياة الأهالى كما حدث فى عهد ولاية حسنى باشا فيما بين (٩٤١ و ٩٤٣ هـ / ١٥٣٥ - ١٥٣٦م) كما بينت أن الأزمات الاقتصادية قد تكون نتيجة لعوامل طبيعية مثل انخفاض النيل أو تلاعب أحد الولاة العثمانيين بالعملة وخلطها بالنحاس أو ظهور عملة مزيفة أو نتيجة لثورات من جانب العساكر الأسباهية وقيامهم بالسلب والنهب ، أو فساد بعض القبائل العربية ، وقد ظهر ذلك فى قبائل غزالة والمغاربة والضعفا والنجما ، واستغلال بعض الولاة العثمانيين للموقف ببيع القمح للتجار الأوروبيين ، والصراعات بين البيوتات المملوكية وظلم بعض الولاة العثمانيين للأهالى ولم يغفل البحث دور اليهود فى حدوث الأزمات الاقتصادية ، فقد ساهم بعض اليهود ممن عملوا بالأعمال المصرفية فى إحداث الأزمات الاقتصادية ، وقد تنبهت السلطات الحاكمة لذلك ، وأمرت بإبعادهم ، وعينت بدلاً منهم صيارفة مسلمين .

وأوضحت هذه الدراسة كذلك دور الاختلاسات وفرض الضرائب فى إحداث أزمات اقتصادية ، وأبرزت كذلك أثر سنوات الرخاء فى حياة الأهالى وفرحتهم بختان أبنائهم .

وأوضحت هذه الدراسة دور تغيير العملة من حين لآخر فى إحداث تلك الأزمات الاقتصادية، فارتفاعها وانخفاظها وإظهار عملات جديدة كل ذلك أدى بلا شك إلى حدوث تلك الأزمات الاقتصادية التى أثرت فى حياة السكان .

وبينت الدراسة أيضًا أن عدم توريد الغلال من الوجه القبلى قد ساهم إلى حد كبير فى حدوث الأزمات الاقتصادية ، إلى جانب عدم استيراد بعض السلع من الخارج مثل البن من اليمن ، والأقمشة من الهند كل هذه الأمور ساهم بلاشك فى حدوث الأزمات الاقتصادية الطاحنة . كما ذكرت الدراسة موقف علماء الأزهر من هذه الأزمات والتجاء الأهالى إليهم عندما كان الظلم يحيق بهم ، وأظهرت موقف العلماء من هذه الأزمات المختلفة وتضامنهم مع الأهالى زد على ذلك أن الدراسة أوضحت تعرض مصر لعدم استتباب الأمن ، وأوضحت قيام اللصوص بنشاطهم متجاهلين أوامر السلطات الحاكمة ، وكان من نتيجة هذه الأزمات إفلاس بعض التجار .

وأوضحت هذه الدراسة الأوزان التى كانت موجودة فى تلك الفترة مثل القنطار والرطل والمكاييل ، والأردب ، كما أشارت إلى العملات مثل الريال أبو كلب ، والريال الحجر ، والزنجليرى ، والفندقلى ، والنصف فضة والأخشا والزلاطة ، والجديد والبندقى والقرش والمقصوص . كما تعرضت الدراسة أيضًا لبعض الوظائف التى كانت موجودة مثل الكتخدا ، والأغاوات ، والصناجق وأمين دار سك العملة ، ومباشر الغلال ، والدفتردار ، والمحتسب ، والقائم مقام ، وغير ذلك من الوظائف .

ولعلى بذلك أكون قد أبرزت صورة لفترة مهمة من فترات التاريخ المصرى ، ولعلى أيضًا أكون قد أضفت الجديد إلى رصيد تاريخ مصر الحديث فى فترة الحكم العثمانى التى تحتاج منا إلى البحث والاستقصاء لإظهار الحقائق التاريخية المجهولة لتقديمها للباحثين والدارسين .

الفصل السادس

الحملة الفرنسية على مصر ونتائجها

(١٢١٣- ١٢١٦ هـ/ ١٧٩٨- ١٨٠١م)

١ – العالم القديم :

شهد الشطر الثانى للقرن الثامن عشر تحولاً ملحوظًا للجغرافيا السياسية العالمية التى كانت شبه مستقرة منذ الكشوف الكبرى ، فدفعه واحدة ، توصد أمريكا أبوابها فى وجه التوسع الأوروبى : فحرب السنوات السبع تؤدى إلى طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية (١٧٦٣م) . وحرب استقلال الولايات المتحدة تختزل حصة إنجلترا التى تضطر إلى التسليم باستقلال ذاتى متزايد الأهمية لممتلكاتها الأخيرة . وجزر الأنتيل يبدو أنها تضطر – فى مستقبل قريب – إلى الاعتماد على الولايات المتحدة . وكل الاعتبارات تسمح بتصور أن أمريكا اللاتينية – التى تملكها القوتان الايبريتان (أسبانيا والبرتغال) . سوف تتبع تطوراً مماثلاً لتطور أمريكا الشمالية . وينتهى الفصل الأوروبى فى تاريخ القارتين الأمريكيتين وبانتهائه تنتهى أول إمبراطورية استعمارية أقامتها القوى البحرية الأوروبية الغربية . ومع إدراك تحرر القارتين الأمريكيتين ، يحل مصطلح " الغرب " محل مصطلح " أوروبا " للإشارة إلى المجال الجغرافى للثقافة الأوروبية [١].

لم يكن العالم القديم قد تعرّض بالكاد لتغيير يذكر منذ القرن السادس عشر ، ففى أثر التوسع الأوروبى فى هذه الأرجاء يشهد القرن التالى انكفاءً ، فالصين واليابان ، توصدان أبوابهما ، والإمبراطورية العثمانية وفارس لاتسمحان إلا بعلاقات تجارية ودبلوماسية . والانغراس الإقليمى الأوروبى الحقيقى لا يوجد إلا فى أرخبيلات المحيطين الهندى والهادىء وفى بعض أقاليم أفريقيا [٢] .

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية فى مصر ، بونابرت والإسلام ، ص١١ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون، المرجع السابق ، ص١١ .

إلا أن هناك استثناءً ملحوظًا : الهند إن انهيار القوة المغولية يسمح ببروز توازن محلى بين القوى التى تستخدم فى نهاية الأمر مرتزقة أوروبيين لتدريب جيوشها ، ومنذ ذلك الحين ، فى القرن الثامن عشر ، يقف الفرنسيون والإنجليز وجهًا لوجه بالفعل فى " لعبة كبرى " قاصرة على شبه القارة الهندية هدفها السيطرة على تجارتها . وقد كسبتها انجلترا خلال حرب السنوات السبع ، فأصبحت بذلك قوة إقليمية ، تشارك بلا مواربة فى لعبة التوازن المحلى المعقدة ، حيث يؤدى نظام سياسى جديد مزدوج إلى الحفاظ فى آسيا على توازن أوروبى هش، ففرنسا يمكنها العودة بشكل هجومى إلى هذه الأقاليم بحشدها حولها جميع القوى المحلية المناوئة لانجلترا؛ وروسيا وقيصرتها كاترين الثانية تبدأ فى التفكير فى تغلغل صوب المحيط الهندى مروراً بأفغانستان ، الطريق التقليدى للغزوات البرية التى تستهدف شبه القارة الهندية(١) .

إن الهند غواية وانجلترا نموذج . أما فارس فهى غير متاحة إلا لروسيا . ومنذ عصر بطرس الأكبر ، كانت روسيا قد بدأت تعدياتها ، مستفيدة من انهيار الإمبراطورية الصفوية لكن البلد ليس ضعيفًا بالدرجة التى يبدو عليها ، والمغامرة قريبة العهد التى قام بها نادر شاه ، الذى سارت جيوشه من بغداد إلى دلهى فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن ، ماتزال حية فى الأذهان للتذكير بذلك . ومع صعود سلالة القاچاريين الحاكمة ، بيد أن البلد يستقر بعد أكثر من نصف قرن من الاضطرابات التى أثارت مشاعر أوروبا(٢) .

٢ - الإمبراطورية العثمانية :

والإمبراطورية العثمانية أقرب إلى أوروبا ، وهى تجمع تحت سلطتها كل غرب الإسلام ، باستثناء المغرب الأقصى وتوسع نفوذها فى القرن السابع عشر أيضًا ، على حساب أوروبا . وهذه الدولة العظمى تُعد - منذ القرن السادس عشر - مندمجة فى النظام السياسى الأوروبى. وتوجد فى عاصمتها بشكل دائم سفارات أوروبية . ومن حين لآخر ، توفد الحكومة العثمانية رسلاً مفوضين إلى كبرى بلدان أوروبا . ويوجد تحالف تقليدى مع فرنسا .

لكن هذه الإمبراطورية تبدى علامات اضمحلال ، والظاهرة معقدة ، فعملية انهيار المركزية السياسية ، والتى بدأت منذ أواخر القرن السادس عشر ، تشهد عندئذ أوجها . وتحت قيادة

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

سلطوية من جانب الباشوات الولاة على الولايات ، تتشكل أشباه دول فى الأقاليم الرئيسية للإمبراطورية والسلطة المركزية - الباب العالى - تجد صعوبة كبيرة فى كسب الانصياع لها ، لكن الجميع يظلون داخل النظام العثمانى . وإذا كان بوسع حروب أن تدور بين الولاة ، فإنه لا توجد فى الواقع حدود غير الحدود الإدارية ، وجميع هؤلاء الموظفين الإمبراطوريين الكبار شركاء فى اللعبة السياسية . والباب العالى العاجز عن اختزال درجات هذا الاستقلال ، بالشكل الذى يتمناه ، إنما يلعب على هذه التنافسات ويدير بمفرده مايمكن تسميته بالتوازن العثمانى .

ويتمشى مع هذا الانهيار للمركزية ضعف للانضباط الداخلى . ومن جراء التعرض لضغوط قوية ، تجعل من الوحدات العسكرية تعبيراً عن المجتمع المدنى الإسلامى ، لا تتمتع السلطة المركزية بعد بأداة عسكرية متماسكة ومنضبطة بدرجة تماسك وانضباط الإدارة العسكرية التى عرفها زمن العصور العثمانية الأولى . وبينما يبلغ التحكم فى سلوك الرجال فى أوروبا ، ذروته فى الانضباط البروسى ، فإن الجيش العثمانى يبدو مفككًا بشكل مطرد[١] .

والشىء الأهم هو أن الإمبراطورية العثمانية لاتعرف - فى القرن الثامن عشر - نمواً سكانيًا مساويًا لنمو سكان أوروبا ، التى تتحرر من الأسباب الرئيسية للارتفاع الكبير لنسبة الوفيات . فتدشن بذلك ثورتها الديموغرافية . ففى المجال العثمانى الشاسع ، تتكرر أوبئة الطاعون بصورة منتظمة ويصبح الداء متوطنًا هناك . وثقل البداوة وانعدام الأمن - اللذين يؤكد البدو والتركمانيون هيمنتها - يحدان من المجال الزراعى . وتزايد الضرائب ونظام جبارية غير ملائم - بالرغم من التدابير التى اتخذتها السلطة المركزية لإصلاحه - لايحفزان الفلاحين على زيادة انتاجهم ، على الرغم من ظهور تنويع المحاصيل . بسبب طلبات السوق الأوروبية المتزايدة . وعلى المستوى الديمغرافى ، تظل الإمبراطورية العثمانية فى مرحلة تاريخ راكد ، مرحلة تباين لعدد السكان بين قواعد متغيرة وسقف لن يتسنى تجاوزه إلا فى القرن التاسع عشر مع إعادة فرض سلطة مركزية قوية . وعلى مدار زمن جد طويل (من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر) يمكن رصد ارتفاع لعدد السكان فى الولايات الآسيوية على الأقل ، لكن هذا الارتفاع لايتناسب البتة مع الأرقام الأوروبية[٢] .

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ١٣ .

(٢) نفسه ، ص ١٣ ، ١٤ .

وهكذا فإن وزن الإمبراطورية من الناحية الديموغرافية يصبح أقل فأقل قياساً إلى جارتيها الطموحتين اللتين تحت قيادة مستبدين مستنيرين - تعززان قوة الدولة مع تعبيرها العسكرى وتشرفان بذلك - عبر الانضباط على النمو الملحوظ لعدد السكان . وفى الشطر الثانى للقرن، يختل التوازن بين الإمبراطورية العثمانية من جهة ، والنمسا وروسيا ، من جهة أخرى ، اختلالاً حاسمًا ، وتوضح ذلك حربان : حرب / ١٧٦٨ - ١٧٧٤ م ، حيث تهب الإمبراطورية العثمانية استجابة لنداء من فرنسا إلى مساعدة بولندا ضد روسيا كاترين الثانية ، وتُمنى الإمبراطورية بهزائم مريرة بحيث أن مستقبلها يصبح محل شك وحرب / ١٧٨٧ - ١٧٩٢م ، حيث تنضم النمسا إلى روسيا ، متصورة أن بوسعها المشاركة بذلك فى اقتسام للبلقان مطابق لاقتسام بولندا ، أما فرنسا الغارقة فى قلاقل ماقبل الثورة ، ثم فى الثورة نفسها ، فهى لاتهتم باللعبة ، ويضطر العثمانيون المحاصرون إلى مناشدة بروسيا والجلترا ، القادمتين الجديدتين إلى الساحة ، ويؤدى التوتر المتزايد الذى أفرزته الثورة والتقسيم الثانى لبولندا إلى انقاذ الإمبراطورية العثمانية - مؤقتًا فى نظر المعاصرين - من الفناء الذى توقعه المراقبون الأذكياء [١].

٣ - بونابرت والشرق :

إن الانتصارات الخرافية لحملة إيطاليا تبرز بونابرت فى صدارة المسرح ، وجيشه يعبده والفرنسيون - المعادون فى غالبيتهم للحكومة الجمهورية - يرون فيه منقذا محتملاً ، ذلك الذى سوف يضع نهاية للثورة مع حفاظه على مكاسبها . وهوش منافسه الرئيسى الذى قام مثله وربما أكثر منه ، بدعم حكومة الإدارة ضد أغلبية المجالس ، يحدث فى ١٩ سبتمبر ١٧٩٧م . لكن فاتح إيطاليا يدرك أن من شأن فترة عدم نشاط عسكرى ، أو إخفاق فى محاولة انزال فى الجلترا ، التهديد بتعريض وضع لم يتعزز بعد للخطر . ثم إن الشرق يجذبه بشكل عفوى [٢] .

إن مصدر قوة بونابرت إنما يكمن فى هيمنته الأبدية على الوسائل وقدرته ، فى ذلك العصر على الأقل على حسابها بدقة فى الوقت الذى تعتبر فيه الغايات زائدة عن الحد . وعلى الرغم

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ١٤ .

(٢) نفسه ، ص ٢٢ .

من أنه كثير الكلام ، فإنه رجل وحيد . وما أندر الأفراد الكبار الذين كان يمكنهم الإفصاح لهم بما يعتمل فى صدره . وفى خلال صيف ١٧٩٧م ، يكتشف تاليران العائد من منفاه فى الولايات المتحدة ليصبح - بفضل حسه التآمرى - وزيراً للعلاقات الخارجية . أنهما يتبادلان رسائل مهمة يكتشف بونابرت فيها أن الوزير يفكر مثله فى مصر . وهو يكشف له آنذاك عن التوتر القائم فى فكرة بين الخطاب السياسى المهندس الذى يوحى به الأيديولوجيون . والاثنان تلميذان لهما - والبعد شبه الكونى والواقعية الناجمة عن الحساب الدائم للوسائل[1] .

وهو يشير إلى أنه لايؤمن ، من زاوية الفعالية على الأقل ، ببياناته الخاصة بأحياء الإيطاليين . وإن الشىء الجوهرى يكمن فى حسابات الوسائل ... إلخ .

وتكمن المفارقة فى اجتماع وهج الخيال وبرودة الوسائل : " إننا إذا ما اتخذنا كأساس لجميع العمليات السياسية الحقيقية ، وهى ليست غير نتيجة الحساب والتوليفات والفرص فسوف تكون لزمن طويل الأمة العظمى وحكم أوروبا ؛ وأنا أقول على ذلك أننا يجب أن نحافظ على التوازن ، وإننا سوف نجعله يميل كما تشتهى ، بل إننى - وهذا هو حكم القدر - لا أرى استحالة فى أن يصل المرء فى غضون سنوات قليلة إلى هذه النتائج العظيمة التى يحلم بها الخيال الجامح والمتقد ، وأن الإنسان البارد فى تقديره للأمور والدءوب والحكيم إلى أقصى حد هو وحده القادر على بلوغها"[2] .

هذا التوسع الثورى الجديد يزعج كثيرين خاصة العثمانيين والروس . فالبنسبة للأوائل تأسس التحالف مع فرنسا على البعد الجغرافى ، فملكية النظام القديم لم يك بوسعها أن تستهدف الأرض العثمانية . لكن استقرار الفرنسيين فى الجزر الأيونية واتصالاتهم مع اليونانيين المستعدين دائمًا للتمرد ، بينما يميل كبار الباشوات إلى زيادة درجة استقلالهم بلاتوقف ، ليس من شأنه إلا أن يزيد انزعاجات الباب العالى ، أما فيما يتعلق بالروس ، فإن هذه الدعاية نفسها الموجهة إلى اليونانيين ، إنما تهدد بخلق منافسة رهيبة لهم بين صفوف هؤلاء العملاء جد المفيدين لهم من عام ١٧٧٠م . ثم إن سان بطرسبورج ، وهو ما يشمل مفارقة مميزة لكل وضع ديبلوماسى معقد ، تخشى من أن يؤدى التدخل الفرنسى إلى تقديم

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٧ .

عون لإمبراطورية عثمانية بسبيلها إلى الاستسلام فى أوروبا تحت ضربات الهجمات الروسية . إن عملاً فرنسيًا فى البلقان انطلاقًا من البحر الأدرياتى إنما يشكل خطراً أكيداً بالنسبة لتحقيق المشاريع الروسية الخاصة بالسيطرة على تلك المنطقة ، والوجود الفرنسى فى البحر الأدرياتى يعدل التوازن السياسى فى البحر المتوسط ومن ثم فى أوروبا[1].

إن المشجع الآخر على سياسة فرنسا هذه فى البحر المتوسط هو تاليران ، فهو وريث دعاة التدخل فى زمن الملكية الآخذة بالزوال . وقد عرف شواسول وتعرف على المسائل الشرقية من الدبلوماسيين الذين تولوا مناصب فى الشرق . وتردد ، فى الولايات المتحدة على ڤولنى الذى كان عليه أن يكون أول من يطلعه علي شخصية بونابرت وعلى مصر نفسها [2].

وعلى المستوى السياسى ، لم يعد التحالف مع الإمبراطورية العثمانية تشمرشيئًا وقد أدت الحرب البحرية إلى تدمير تجارة الثغور . والانحطاط العثمانى لا علاج له . وقد استنفدت فرنسا بلا طائل فى دعم إصلاحات مستحيلة . واحتلال مصر يفرض نفسه بوصفه الوسيلة الوحيدة لمهاجمة انجلترا فى الهند[3] .

والهند فى أواخر القرن الثامن عشر هذه ، هى العماد الرئيسى للقوة الإنجليزية ، أنها لم تصبح بعد سوقًا كبيرة مصيرها استقبال المنتجات المصنعة التى زادتها الثورة الصناعية الإنجليزية . وهدف جهود الأوروبيين هو السيطرة على الصادرات الهندية وفى ذلك العصر ، يفضل عمل جماهير غفيرة من الحرفيين ، تعتبر صناعة القطن أول صناعة فى العالم ، أكان ذلك من حيث نوعية أم من حيث كمية منتجاتها ، وحجم صادراتها . ثم إن الهند ، عبر شبكاتها التجارية ، تفتح أمام الأوروبيين مجمل الأسواق الآسيوية . وفى أواخر القرن الثامن عشر ، تسيطر انجلترا بفضل عملها الدءوب علي نسبة ٨٥ إلى ٩٠ فى المائة من تجارة الهند الخارجية .

والحال أنه إذا كان هناك من درس هذا الاقتصاد ، فإن تاليران أساسًا . وخلال إقامته فى الولايات المتحدة فكر فى عدة مشاريع للمضاربات التجارية [4].

---

(١) هنرى لويس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٧ .
(٢) نفسه ، ص ٢٨ .
(٣) نفسه ، ص ٢٨ .
(٤) نفسه ، ص ٢٨ .

ومن المؤكد أن التجارة الإنجليزية مع القارتين الأمريكيتين تظل الأهم . والشيء الرئيسي هو أن الفرنسيين يجهلون الدور الذى تلعبه بداية الثورة الصناعية فى اقتصاد الجزر البريطانية ، وذلك بالرغم من احتجاجات على الدخول جد السهل للمنتجات البريطانية إلى فرنسا فى السنوات الأخيرة للنظام القديم . وبالنسبة لأهل القارة ، فإن سر القوة الإنجليزية لايمكن إلا أن يكون كامنًا فى تجارة انجلترا ، وهى ظاهرة جد مصطنعة قياسًا إلى الرسوخ الطبيعى ، الزراعى للسكان الفرنسيين ، وهذا البنيان التجارى الهش سوف ينهار بسرعة إذا ما جرد من عنصره الحيوى ، التجارة الهندية . والمسؤولون الإنجليز يتقاسمون هذا التفسير نفسه للمجريات الواقعية . فبالنسبة لهم هم أيضًا ، لا تُعد انجلترا دولة أوروبية عظمى إلا بفضل تجارتها مع الهند . وقبل أسبوع على تعينه وزيراً يوجه تاليران إلى حكومة الإدارة فى ٢٣ يوليو ١٧٩٧م ، ثلاث مذكرات تدعو فى النهاية إلى الاضطلاع بعمل مشترك مع الأمراء الهنود ضد السيطرة الإنجليزية انطلاقًا من الجزر الفرنسية فى المحيط الهندى[١] .

وثم يجرى تدشين المشروع الهندى عندما يبلغ بونابرت حكومة الإدارة فى ١٦ أغسطس ١٧٩٧م ، بفتح الجزر الأيونية وتختم رسالته قائلاً : " لن يمر وقت طويل حت ندرك أننا لكى ندمر انجلترا فعلاً ، يجب أن نستولى على مصر . إن الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف والتى تهلك كل يوم إنما تملى علينا التفكير فى اللحظة المناسبة لاتخاذ الوسائل التى تسمح لنا بالحفاظ على تجارتنا فى شرق البحر المتوسط " .

وفى اليوم نفسه ، يكتب إلى تاليران : " إن معًا لا طائل من ورائه أن نسعى إلى دعم إمبراطورية تركيا" ، إننا سوف نشهد سقوطها فى أيامنا (...) وكورفو وزانت تجعلانا سادة للبحر الأدرياتى ولشرق البحر المتوسط .

ويحمل رد تاليران تاريخ ٢٣ أغسطس : " لاشيء أكثر أهمية من اعتمادنا على ألبانيا واليونان ومقدونيا والولايات الأخرى للإمبراطورية التركية فى أوروبا ، بل وجميع الولايات المطلة على البحر المتوسط ، كمصر خاصة ، التى يمكنها أن تصبح عظيمة النفع لنا[٢] .

وهكذا فمنذ صيف ١٧٩٧م ، تلتقى أفكار تاليران وبونابرت ، رغم اختلاف الدوافع ، حول حملة مصر ، وهما بحاجة إلى مؤازارات واحدة . ففى ٣ يوليو ١٧٩٧م ، ذكر تاليران الجمهور

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨ - ٢٩ .

فى مذكراته الموجهة إلى المعهد الوطنى ، حول الفوائد المترتبة عى إيجاد مستعمرات جديدة فى الظروف الحاضرة ، بمشروع شواسول . والحال إن المعهد الوطنى ، حديث التأسيس ، إنما ينبثق من وسط الأيديولوجيين جد المؤثرين فى السياسة الجمهورية .

وبونابرت يدرك ذلك ، فهو عند عودته من إيطاليا ، يصبح منتخبًا هو أيضًا فى المعهد ويبرز فى بياناته إلى الجنود انتماءه إلى تلك المؤسسة . وهكذا يظهر بونابرت وتاليران ، فى تلك اللحظة من تاريخهما ، كممثلين للأيديولوجيين فى الأوساط الحاكم(١) .

والواقع أن العودة إلى استقلال أوروبى نسبى ، منذ معاهدات بال فى عام ١٧٩٥م ، إنما تسمح بعودة ظهور مذكرات ، موجهة إلى المسئولين السياسيين الفرنسيين ، ترى إيجاد مستعمرة فرنسية فى مصر ، وما ذلك غير إمارة على أن تراخى الحرب الثورية يعيد المسئولين السياسين تدريجيًا إلى مشكلات ماقبل عام ١٧٩٢م .

وصلح كامبو - فورميو (١٨ أكتوبر ١٧٩٧م) مع النمسا لايترك بعد غير خصم عنيد واحد ، هو انجلترا . وبما أنها لاتملك بعد قاعدة للعمل على القارة فإن الصراع لايمكن مواصلة إلا عبر " نزول " على الجزر البريطانية أو عبر عمل يتم الاضطلاع به ضد الهند . هذا هو الخيار الذى تفرضه قوة الأشياء على زعماء " الأمة العظمى " .

وفى ٢٦ أكتوبر ١٧٩٧م ، يحمل بيرنييه ومونج ، رفيقا بونابرت الوفيان ، نص معاهدة كامبو - فورميو إلى باريس . ويتمثل القرار ، المتخذ فى اليوم نفسه من جانب (حكومة) الإدارة ، فى الأمر بتكوين جيش لحملة انجلترا تحت قيادة بونابرت . ويتولى قيادته بينما يشارك بونابرت فى مفاوضات راستان حول تطبيق بنود معاهدة كامبو - فورميو على ألمانيا(٢).

ومنذ نهاية أكتوبر ١٧٩٧م بدأ الجهاز الإدارى لحكومة الإدارة فى تنظيم جيش انجلترا . إن النزول ممكن ، إذا ما توفرت ، فى لحظة محددة فى نقطة محددة ، هيمنة على البحر تكفى لنقل الجيش الفرنسى . ولكى يتسنى ذلك ، لابد من توافر المبادرة فى العمليات ولابد من توافر عدة نقاط ممكنة لحشد القوات سعيًا إلى إرباك انجلترا فيما يتصل بنوايا القيادة

---

(١) هنرى لورانس ، المرجع السابق ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) نفسه ، ص ٣٠ .

الفرنسية . وسوف يجئ الجانب الرئيسى من " الجيش الكبير " فى إيطاليا بينما يصدر بونابرت الموجود بعد فى موقعة ، الأوامر الضرورية .

وهو يصل إلى باريس فى ديسمبر ١٧٩٧م ، ويقابل لأول مرة تاليران . ويحمل فاتح إيطاليا معه التصديق الذى قدمه الإمبراطور على معاهدة كامبو - فورميو . ويقدمه إلى حكومة الإدارة فى اجتماع مهيب فى ١٠ ديسمبر ١٧٩٧م . ويتميز خطابه بالتصور السياسى شبه الخلاصى الذى تبناه الأيديولوجيين : " إن أجمل جزأين فى أوروبا ، جد الشهيرين فى سالف الزمان بالفنون وبالعلوم وبالعظماء واللذين كانا مهداً لهم ، يتطلعان بأعظم الآمال إلى انبثاق روح الحرية من أرماس أسلافهما " .

والحال أن روح الحرية ، الفكرة المألوفة للبلاغة الثورية ، قد أبرزها ڤولنى فى " الأطلال " فى عام ١٧٩١م . وفى هذا النص ، فإنه يجعل الروح تنبأ بانهيار الإمبراطورية العثمانية ، وببعث الأمم المكونة لها وبالدور القائد لـ " الأمة العظمى " فى هذا المشروع . وفى ذلك العصر ، بعد الأيديولوجى ڤولنى الولى الفكرى والسياسى لبونابرت الشاب[١] .

والصورة واضحة ، فالمسألة هى مسألة بعث قومى ، كما أن بونابرت ينبه حكومة الإدارة : " عندما ترتكز - مادة الشعب الفرنسى على أفضل القوانين الأساسية . سوف تصبح أوروبا كلها حرة " .

والحال أن دستور العام الثالث بعد انقلاب ١٨ فركتيدور ، هو دستور بالغ الهشاشة بالرغم من استئناف الزخم الثورى لـ " الأمة العظمى " . وفى مراسلاته مع تاليران ، كان بونابرت قد فكر بالفعل فى مشروع إصلاح دستورى ينطوى على تعزيز ملحوظ للسلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية [٢].

حدثت بعض التطورات ، فقد كان هناك مشروع لحكومة الإدارة لاحتلال الجزر البريطانية ، وحددت حكومة الإدارة المشاركة فى جيش حملة الجلترا ، ويتجه بونابرت إلى فحص الإماكانات التى تتيحها الموانئ المواجهة للأراضى المنخفضة . ويوجه بونابرت إلى حكومة الإدارة تقريراً لايخفى مصاعب المشروع ، ويقدم مشروعًا ثانيًا فهو القيام بحملة فى شرق البحر المتوسط من شأنها تهديد تجارة الهند[٣] والاستيلاء على مصر . وتجد حكومة الإدارة

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، لحملة الفرنسية على مصر ، ص ٣٠ .
(٢) نفسه ، ص ٣١ .
(٣) نفسه ، ص ٣٤ .

نفسها مضطرة إلى التخلى عن مشروع النزول فى انجلترا والذى اعتبره العسكريون غير عملى. ومن شأن التدخل فى ألمانيا أن يعقد وضعًا شائكًا بالفعل وأن يهدد باشعال الحرب القارية . ومشروع فتح مصر مشروع بالغ الجاذبية . وبوسعه أن يجبر انجلترا على عقد صلح يعترف بهيمنة الأمة العظمى على القارة الأوروبية . وبدأ الاستعداد بالجيش والأسطول ، وصدرت التعليمات إلى نابليون بقيادة الحملة . ولقد اتهمت حكومة الإدارة في قرارها الذى أصدرته بكوات المماليك بالتحالف مع البريطانيين وأنهم نتيجة لذلك قد ضيقوا الخناق على المصالح الفرنسية وعاملوا الرعايا الفرنسيين معاملة سيئة فى مصر . ولقد تعرَّض البيان إلى الاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح وعرقلة وصول الفرنسيين إلى الهند وطلب من نابليون ضرورة فتح طريق آخر إلى الهند . وتتلخص المهام التى كلف بها القائد العام لجيش الشرق فيما يلى : أن يستولى على مالطة ويطرد الإنجليز من مؤسساتهم فى الشرق ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأن يشق برزخ السويس ، وأن يحسن الأحوال المعيشية للوطنيين فى مصر ، وأن يحتفظ بالعلاقات الطيبة مع الباب العالى [1].

وفى مايو ١٧٩٨ غادر جيش الشرق ميناء طولون . وهكذا كان قرار حكومة الإدارة بإرسال حملة عسكرية لاحتلال مصر مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحرب مع انجلترا ، وساد الاعتقاد بأن الحملة لن تلقى فى مصر أى مقاومة عسكرية خطيرة. كما أن الدولة العثمانية لن تعارض هذا الأمر فكانت تأمل أن يرضى السلطان عنها لمحاربها المماليك والقضاء عليهم[2] . وكانت وجهة الحملة هى جزيرة مالطة ، وهكذا أصبح احتلال مصر أمراً مقرراً وبدأ تسلسل الأحداث .

وصلت الحملة الفرنسية إلى جزيرة مالطة فى يونيو ١٧٩٨م ، وكانت تحت حكم فرسان القديس يوحنا ، واستولى عليها بونابرت بسهولة نسبية ، وترك بها ثلاثة آلاف جندى ، وجند بدلهم ما يقرب من الألفين من أبناء الجزيرة أخذهم معه عند سفره منها ؛ كما أخذ معه منها الأسرى من الترك والعرب والمغاربة ، الذين كانوا يعملون فى التجديف ويجبرون على القيام بالأعمال الشاقة لاستغلالهم فى مصر [3].

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ١٧٩٨ - ١٩١٤م ، الاسكندرية ١٩٧٢ ، ص٣٣ .

(٢) نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ١٥١٧ - ١٧٩٨ ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٣٤٣ .

وكان الأسطول البريطانى يراقب البحر المتوسط ، حتى يعرف وجهة الأسطول الفرنسى ، ويشتبك معه ويحطمه . وحضر أسطول الإميرال نلسون إلى الاسكندرية فى يوم ٢٨ يونيو ، ولم يكن الأسطول الفرنسى قد وصل إلي هذه المدينة بعد ، نتيجة لقيامه بالاستيلاء عى مالطة. ووقف الأسطول البريطانى فى عرض البحر ، وإن كانت وحداته فى مدى رؤية أهل الثغر . ثم أرسلوا " فايق " صغير يحمل عشرة أفراد ، للتفاهم مع سلطات الميناء ، وقابلوا السيد محمد كريم أمين الجمرك ، وأفهموه أنهم حضروا للتفتيش عن الفرنسيين الذين خرجوا بعمارة كبيرة ، لايعرفون وجهتها ، وقد يقوموا بمهاجمة الاسكندرية ، ولاتتمكن سلطات المدينة من دفعهم ، ولا من منعهم من الاستيلاء على الاسكندرية . ولكن السيد محمد كريم لم يأمن لهذا القول ، واعتقد فى أنها ربما تكون خدعة من جانب الإنجليز ، لاحتلال المدينة بدعوة مساعدة المصريين على صد الفرنسيين القادمين ؛ وجاوبهم المصريون " بكلام خشن " . وعرض الإنجليز أن تقف سفنهم فى عرض البحر ، لملاقاة القادمين ؛ وقالوا أنهم لايحتاجون إلا للتموين بالماء والزاد وبثمنه ، ولكن سلطات المدينة رفضت هذا العرض ، وذكرت أن هذه البلاد كانت بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا " فاضطر الإنجليز إلى الانسحاب ، واستمروا فى عملية تفتيشهم عن الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط[١].

وفى ٢٨ يونيو أذيع على الجند المنشور الموجه إلى الجيش والذى حرر بونابرت قبل ذلك بستة أيام ، وهذا نصه :

أيها الجنود

إنكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى فى حضارة العالم وتاريخه . وستطعنون انجلترا طعنة تؤذيها لا محالة فى أضعف مواطنها ، انتظاراً لليوم الذى تسددون فيه إليها الطعنة القاتلة .

سيقتضينا الأمر بعض الزحف المضنى ، وسنخوض بعض المعارك ، وسننتصر فى جميع مغامراتنا ؛ لأن الحظ معنا .

ولن تنقضى على نزولنا البر أيام حتى نقضى على بكوات المماليك الذين لايرعون غير التجارة الإنجليزية ، والذين يظلمون تجارنا بمعاكساتهم ، والذين يستبدون بأهل وادى النيل الاشقياء .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٣٤٤ .

إن القوم الذين سنعيش معهم مسلمون . وعقيدتهم الأساسية هى : " لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

فلا تعارضوهم . واسلكوا معهم كما سلكتم فى الماضى مع اليهود والإيطاليين . واحترموا شيوخهم وأئمتهم ، كما احترموا شيوخ اليهود وأساقفة المسيحيين .

وأظهروا من التسامح نحو الشعائر التى يقضى بها القرآن ونحو المساجد مثلما أظهرتم نحو الأديرة ومجامع اليهود ، ونحو ديانة موسى وديانة المسيح .

لقد جرت الفرق الحربية الرومانية على أن تحمى جميع الأديان . وستجدون هنا عادات تختلف تمام الاختلاف عن العادات الأوروبية ؛ فلابد أن تروضوا أنفسكم عليها.

إن أهل البلاد التى سندخلها يعاملون نساءهم معاملة مختلفة : ولكن الرجل الذى يهتك عرض امرأة يعتبر فى جميع البلاد وحشاً .

أما السلب والنهب فلا يثرى منه إلا الأقلون . وهو يجللنا بالعار ، ويقضى على مواردنا ، ويثير علينا عداء الشعب الذى ننشد صداقته .

إن أول مدينة سنشهدها بناها الاسكندر . وسنجد فى كل خطوة آثار أعمال جديرة بأن ينسج الفرنسيون على منوالها "[١].

وفى ٢٩ يونيو وصلت إحدى القطع الحربية الفرنسية إلى الاسكندرية لإحضار قريب مجالون قنصل فرنسا فى الاسكندرية لمقابلة نابليون ، ولقد أخبره مجالون بمجيء الأسطول الإنجليزى إلى شواطىء الاسكندرية بحثاً عن الفرنسيين . ولقد غيرت هذه الأنباء خطة نابليون وقام بإنزال جنوده تجاه ساحل العجمى ظهر أول يوليو ١٧٩٨م . وبدأت فرق كليبر ومينو وبون بالزحف على الاسكندرية فى الفجر ، وفى الصباح وصلت الطوابير الفرنسية إلى حصون الاسكندرية الخارجية وبعد نزول الحملة بادر السيد محمد كريم إلى إخبار مراد بك بقدوم الأسطول الفرنسى ، وأرسل إليه فى تلك الليلة ثلاثة عشر رسولاً يطلب النجدة . وبذل أهل الاسكندرية كل مافى مقدورهم دفاعاً عن المدينة ، ولكن المقاومة لم تدم طويلاً فاقتحم الفرنسيون الأسوار ودخلوا المدينة ، ولقد قاومت قلعة الفنار – التى كان يتولى قيادتها السيد

---

(١) ج . كرستوفر هيرولد ، بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس ، مراجعة محمد أحمد أنيس ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٨٠ – ٨١ .

محمد كريم إلى ساعة متأخرة من الليل كما نشب القتال فى شوارع المدينة ويؤخذ من تقرير نابليـون إلى حكومـة لإدارة أن " كل بيت كـان قلعـة " . وفى رواية لأحد جنود الحملة أن الرصاص انهال عليهم من داخل المساجد ، ولكنهم لم يراعوا حرمة هذه الأماكن فاقتحموها ولم يبقوا فيـها على أحد . ولكن سلمت المدينة فى النهاية وسلم حاكم المدينة القلعة ، وكف عن القتال وأبقاه نابليون حاكمًا للاسكندرية ، وليس أدل على شجاعة السكندريين ما كتبه الجنرال مينو إلى نابليون يقول : إن الجنود يستحقون الثناء العظيم على مابذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الأعداء " الأهالى قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم ".

أما احتلال القاهرة ، فقد ترك بونابرت كليبر حاكمًا على الاسكندرية ، كما قرر أن يعهد إلى الجنرال منو بالحكم فى رشيد عند الاستيلاء عليها ، وانتقلت قيادة جيشه إلى الجنرال فيـال Vial . وفى مساء ٣ يوليو بدأ الزحف على القاهرة . فأرسل بونابرت دوجًا للاستيلاء على رشيد ، وإعداد حملة نيلية تسير فى النيل حتى تلتقى عند الرحمانية بسائر الجيش الزاحف برًا. كما أرسل برى Perrée ، مع أسطول صغير من المراكب الخفيفة ، إلى مصب النهر للدخول في النيل عند استيلاء دوجا على رشيد . وبدأ الجيش زحفه فى طريق الصحراء الشاق إلى القاهرة فاجتمعت مختلف الفرق فى دمنهور فى ٧ يوليو ، وفى هذا اليوم نفسه غادر بونابرت مع هيئة أركان حربه الاسكندرية ثم استأنف الجيش زحفه من دمنهور إلى الرحمانية ثم إلى شبراخيت وبالقرب من شبراخيت اشتبك الفرنسيون مع فرسان مراد بك فى معركة حتكية ١٣ يوليو لم يلبث أن انهزم فيها مراد بك واضطر إلى التقهقر صوب القاهرة . وكان فى هذه المعركة أن شكل بونابرت جيشه فى هيئة مربعات خمسة ، حتى يدفع عنه غائلة فرسان المماليك . ثم واصل الجيش زحفه على القاهرة[١] .

ولم يكن هذا الزحف " نزهة عسكرية " ، بل لقى الجند فى أثنائه شدائد وصعوبات كثيرة ، حتى سرت بينهم روح استياء خطيرة ، وكان أشد الناقمين أولئك الذين رسخ اعتقادهم من ذلك الحين بأن فولنى وسافارى وغيرهما من الرحالين الفرنسيين الذين زاروا هذه البلاد ، ووصفوا خصوبة أرضها ، ووفرة خيراتها ، واعتدال مناخها وما كان بها من مدن جميلة ، قد غرروا

---

(١)محمد فؤاد شكرى ، عبد الله چاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٨٧ -٨٨.

بمواطنيهم الذين صدقوا هذه الأكاذيب وآمنوا بها . فكان هذا الاستياء منشأ ذلك الانقسام، الذى استفحل أمره فيما بعد بين أنصار الاستعمار فى مصر والراغبين فى الجلاء عنها . فأفصح كثيرون من ضباط الحملة عن هذا الاستياء ؛ خصوصًا فى تلك الخطابات التى بعثوا بها إلى ذويهم فى فرنسا ، ووقعت فى أيدى أمراء البحر الإنجليز بعد ذلك . فكتب بوابيه Boyer وغيره عما يقاسيه الجنود الفرنسيون من معاناة ومشقة طوال طريقهم من حرارة الشمس وتعقب العربان لهم ، وقتلهم للجنود المتخلفين . وعلى الرغم من ذلك كسبوا معركة شبراخيت[١] . ثم وصلوا إلى أم دينار فى ١٩ يوليو ثم واصلوا سيرهم ، وفى ٢١ يوليو اشتبكوا مع قوات المماليك بقيادة مراد بك فى معركة إمبابة الفاصلة أو الأهرام . وحلت الهزيمة بمراد ، فانسحب بفلول جيشه إلى الصعيد . أما إبراهيم ، الذى وقف بجيشه على ضفة النيل اليمنى عند بولاق ، ولم يحرك ساكنًا للاشتراك فى المعركة ، فقد حمل أمواله ونفائسه ، وقصد مع جماعته إلى بلبيس فى طريقه إلى الشام ، وقد صحبه أبو بكر باشا نائب السلطان فى حكم مصر ، ولما كان البكوات قد تركوا القاهرة دون اتخاذ أى إجراء للدفاع عنها ، فقد ساد الذعر وعم الاضطراب القاهرة ، وقرر المشايخ والعلماء تسليم المدينة ، فأرسلوا الرسل إلى بونابرت ، وكان لايزال بالجيزة ، يستفسرون عن مقاصد الفرنسيين ، ويطلبون " أمانًا " منهم لبعث الطمأنينة فى نفوس القاهريين ، وأجاب نابليون رغبتهم ، فذهب المشايخ لمقابلته وفى ٢٤ يوليو دخل بونابرت القاهرة ، بعد أن احتل جزء من الجيش مصر القديمة وبولاق والقاهرة ذاتها . ووقف ديزيه على مسافة فرسخين من الجيزة فى طريق الصعيد ، وأرسلت القوات لحراسة طريق الشام ، وفى ٣ أغسطس بدأت مطاردة الفرنسيين لقوات إبراهيم بك ، وأرسل بونابرت الجنرال رينيه لتعزيز طلائع الجيش الزاحف فى الشرقية ، بقيادة الجنرال لكليرك Leclerc ، فاحتلوا الخانكة ، ثم قصد بونابرت نفسه إلى بلبيس فبلغها فى ٩ أغسطس ولكنه لم يجد بها ابراهيم بك الذى غادرها إلى الصالحية . وفى ١١ أغسطس اشتبك الفرنسيون مع ابراهيم بك بالقرب من الصالحية ، فأظهر فرسان المماليك براعة وجسارة فائقة ، حتى كاد النصر يفلت من بونابرت ، لولا أن وصلت إليه النجدات سريعًا ، وقد ساعده انشغال ابراهيم بك برد اعتداء العربان على متاعه فى إحراز نصر كلفه جهداً بالغًا . فانسحب ابراهيم

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص٨٨ .

إلى سيناء ، وعاد بونابرت إلى القاهرة ، وفى أثناء عودته إلى القاهرة بلغه فى ١٣ أغسطس نبأ تحطيم الأسطول الفرنسى فى واقعة أبى قير البحرية [١] .

٤ - معركة أبى قير البحرية :

لكن نلسون هو الذى يصل فى أول أغسطس مع أسطوله . والفرنسيون لايتوقعون وصوله بعد . فقد ركنوا إلى أنه قد اضطر إلى العودة إلى غربى البحر المتوسط لإعادة التزود بالمؤن وللاهتمام بالإصلاحات التى تتطلبها إقامة طويلة فى البحر . ولم يتوقعوا الاستقبال الذى تم فى سيراكوز والذى سمح الإنجليز بكسب وقت ملحوظ للتزود بالمياه والمؤن الغذائية بفضل نفوذ السير ويليام هاميلتون والليدى هاميلتون على بلاط نابلى . وقد تسنى لنلسون العودة بسرعة إلى عرض البحر ، لكن مملكة نابلى تعتبر فى نظر الجمهورية الفرنسية متهمة بانتهاك خطير لحيادها . وهو ما سوف يكون أحد الأسباب الرئيسية لاستئناف الحرب فى إيطاليا .

وفى أول أغسطس ، فى بداية مابعد الظهيرة ، يرصد البحارة الفرنسيون السفن الشراعية الإنجليزية . وبعد مجلس حرب قصير ، يقرر بروى التمسك بقراره الخاص بالقتال من المواقع الثابتة . ويمسك نلسون بزمام المبادرة فى العمليات ، ويرى تركيز نيران سفنه الموضوعة فى المواقع الأنسب ، على رأس ووسط صف السفن الفرنسية . وعندئذ يلاحظ أنه يملك الموقع وخاصة العمق الكافى اللازم للسماح لسفنه بالمناورة بين الضفة والصف الفرنسى . ومن ثم يمكنه اجتياح هذا الأخير بين نارين ، وجسارته تسمح له بألا يقوم إلا باختيارات سريعة فى منطقة لم يقم فيها البحارة الفرنسيون بأى شىء على مدار شهر[٢] وفى خليج أبى قير فاجأه نلسون ، أمير البحر الإنجليزى ، فأنزل بالفرنسيين هزيمة بالغة ، وكان لهذه المعركة نتائج خطيرة [٣].

ذلك أن تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير كبد البحرية الفرنسية خسارة جسيمة ، وقض على كل أمل فى إمكان إحياء هذه البحرية ، التى كانت قد ضعفت ضعفًا كبيراً فى أثناء الحروب الأخيرة ، فى المياه الأوروبية ، وفى المياة الأمريكية وفى مياه الهند الغربية خاصة .

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩٠ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ١٧٨ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

فظل الإنجليز أصحاب السيطرة فى البحار ، وكان من أثر تأييد سلطانهم فى البحر المتوسط ، بعد أن حطموا أسطول بروى ، أن فرضوا حصاراً شديداً على الشواطىء المصرية ، حتى بات من المتعذر تماماً على فرنسا أن ترسل النجدات - العتاد الحربى أو أية إمدادات أخرى - إلى جيش الشرق فى مصر ولم يسع الفرنسيين حينئذ إلا أن يعتمدوا اعتماداً كلياً فى تدبير شئونهم ، وسد حاجات حملتهم فى هذه البلاد ، على موارد القطر الداخلية وحدها . وكان لذلك أكبر الأثر فى تلك السياسة الإسلامية الوطنية ، التى أرشد إليها تاليران فى تقريره إلى حكومة الإدارة (فى ١٣ فبراير سنة ١٧٩٨م) ووطد بونابرت العزم على اتباعها . وكان غرضها استمالة المصريين إلى تأييد الحكم الفرنسى ، وإقناعهم بأن الفرنسيين ما حضروا إلى بلادهم إلا ليعدلوا بينهم ، ويهيئوا لهم سبل العيش السعيد ، فلا يشعر المصريون أنهم إنما استبدلوا بحكم البكوات المماليك حكماً لايقل عنه ظلماً وعدواناً ، أو قد يفوقه فى شروره وآثامه . فأصبح غرض هذه السياسة الإسلامية ، توفير أسباب الحياة للفرنسيين أنفسهم ، وترويض المصريين بشتى الأساليب على قبول حكم أجنبى عنهم ، لم يكن هناك مندوحة عن أن يسبب لهم إرهاقاً عظيماً ، فثاروا ضده ، وتعسف الفرنسيون معهم ، حتى انعدم كل أمل فى حدوث أى " تفاهم " بين الفريقين ، أو إمكان تعاون أهل البلاد مع حكامهم الجدد على الرغم من كل تلك الأساليب التى ابتكرها بونابرت عند " تطبيق سياسته الإسلامية الوطنية فى مصر(١).

واستندت سياسة بونابرت الإسلامية الوطنية إلى قواعد ثلاث : احترام الدين الإسلامى ، والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم الدينية وانتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية ، ببذر بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين ، والقيام بدعاية واسعة بين الشعوب الإسلامية فى الأقطار المجاورة ، لإظهار مبلغ احترام الفرنسيين للدين الإسلامى والمسلمين ، ولإقناع كبار حكامهم بأن إنشاء صلات الود والصداقة مع الفرنسيين فى مصر ، واستئناف النشاط التجارى بين بلادهم وبين مصر ، سوف يعود بفوائد كبيرة على هؤلاء الحكام ، وأخيراً إنشاء حكومة وطنية لتكون أداة تمكنه من معرفة رغبات المصريين ، والوقوف على حقيقة نياتهم وآرائهم ، ويتخذ منها وسيلة لإذاعة أوامره وتحقيق مآربه بصورة تضمن استقرار الحكم الجديد . وعدم انتفاض المصريين عليه . وقد كانت هذه ولاشك وسائل تدل على الحكمة وأصالة

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩١ .

الرأى ، ولم يكن ثم مناص من نجاحها في دعم أركان المستعمرة الجديدة ، لو أن بونابرت نفسه، وقادة الحملة من بعده ، وسائر الفرنسيين ، عرفوا كيف يسلكون الطريق السوى فى علاقاتهم مع المصريين ، أو أن هؤلاء المصريين قد بلغوا من قصر النظر وقلة الدراية حداً ، يسدل ستاراً كثيفًا على أعينهم ، حتى يصدقوا دعاوى الفرنسيين العريضة ويؤمنوا بها[1] .

ومنذ أن دان له الحكم فى القاهرة ، حرص بونابرت على توصية قواده وضباطه ورجال المملكة عمومًا فى القاهرة والأقاليم أن يظهروا على الدوام احترامهم العظيم لعقيدة أهل البلاد وشعائر دينهم وتقاليدهم . وفضلاً عن ذلك فقد رأى بونابرت فى مناسبات عديدة ، أن يظهر هذا الاحترام بصورة واضحة ؛ اعتقد واعتقد كثيرون غيره أن من شأنها إقناع المصريين بصدق دعاوى حكامهم الجدد . وواتت الفرص بونابرت بعد أسابيع قليلة من دخولهم القاهرة ، للاشتراك مع المصريين فى احتفالاتهم القومية وأعيادهم الدينية . فترأس مهرجان قطع الخليج، وأقام الاحتفال بالمولد النبوى الشريف وطلب إلى الجنرال مارمون Marmont (فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م) أن يزور الشيخ المصرى لمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ويبسط له القول عن اجتماعه بالعلماء والمشايخ فى القاهرة ، وعن اقتناعه العظيم بقدسية دين محمد ﷺ وطهره ونشرت « صحيفة لوكوربيه دوليجبت » بأول أعدادها وصفًا رائعًا لهذا الاحتفال، وبعث بونابرت بهذه الصحيفة إلى كليبر حاكم الاسكندرية حتى يطبع من هذا الوصف بعد ترجمته نسخًا عدة يذيعها فى جميع بلاد المشرق [2].

ومع ذلك فقد ثابر بونابرت على سياسته الإسلامية الوطنية ، وكان من وسائله محاولة فصم تلك العلاقات الدينية ، التى ظلت تربط بين المصريين والعثمانين من أزمنة قديمة وبعث آمال المصريين فى نصرة الإسلام ، وإقناعهم بأن الإسلام فى وسعه أن يكسب قوة جديدة ، إذ نهضت القاهرة نهوضًا يرقى بها إلى مصاف المراكز الدينية الهامة فى العالم الإسلامى ، فتشغل إلى جانب مكة المكرمة مكان الزعامة فى هذا العالم على أن يتم ذلك كله بالتعاون بينهم وبين الفرنسيين ، وعلى ذلك فإنه ما إن ساءت علاقة بونابرت بالسلطان العثمانى ، وانضمت الدولة العثمانية إلى جانب الإنجليز والروس فى إعلان الحرب ضد فرنسا ، على أن تحطيم بروى فى معركة أبى قير البحرية خاصة ، حتى شرع بونابرت يبذر بذور التفرقة بين

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله چاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩٢ .

(٢) نفسه ، ص ٩٦ .

المصريين والعثمانيين ، ويظهر السلطان العثمانى فى صورة من أصبح لايهتم بمصلحة الإسلام، ولا يحرص على الشريعة الإسلامية . وكان من دعاواه فى ذلك أن السلطان ظل متمسكًا بعلاقات الود والصداقة مع فرنسا ، طالما أنها كتانت هذه أمة عريقة فى مسيحيتها ، حتى إذا تبدلت الأحوال بها ، وأضحى الفرنسيون أكثر عطفًا على الإسلام والمسلمين ، وأقرب ميلاً إلى تفهم العقيدة الإسلامية ، نبذ السلطان صداقتهم : فإذا كان ذلك مسلك الأتراك العثمانيين مع هذه الدولة الصديقة ، التى ظلت على ولائها لهم من قديم الزمان ، فإن هؤلاء ولاشك سوف يعجزون عن المحافظة عى تراث الإسلام ولامفر من أن تقتسم الدول المسيحية ، وفى مقدمتها روسيا وألمانيا ، أملاك العثمانيين الإسلامية فيما بينها [١].

ومنذ بداية سبتمبر ، بيد امتلاك الدلتا ، بالرغم من العمليات التى ماتزال جارية متقدمًا بما يكفى فى نظر بونابرت ، بحيث يتسنى له اتخاذ قرار بعقد ديوان عمومى فى القاهرة لعموم مصر . ويتعين على كل إقليم أن يرسل إليه وفداً مؤلفًا من ثلاثة " فلاحين من مشايخ البلد وزعماء العرب " . ويتعين على الجنرالات اختيار هؤلاء الأعيان " من بين الأشخاص الأوسع نفوذاً بين الناس ، والأكثر تميزاً فى البلاد بمعارفهم ومواهبهم وأسلوب ترحيبهم بالفرنسيين : وعليهم أن يحرصوا على عدم اختيار أحد من أولئك للذين يقفون ضدنا - الفرنسيين - بشكل سافر " وموعد الاجتماع (الأول من أكتوبر ١٧٩٨م) وبسبب تأخر وصول بعض الوفود يجرى تأجيله إلى (٥ أكتوبر) .

وفى ذلك اليوم ، تبدو عملية تهدئة الدلتا ناجزة وتسمح أمور كثيرة يتوقع انحياز عام إلى صف الفرنسيين . على أن الحدث الرئيسى ، والذى يتمثل فى دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحملة الدعاية التى تلته ، سوف يقلب الوضع [٢].

٥ - موقف الباب العالى :

لم يكتب تاليران إلى روفان Pierre Ruffin القائم بأعمال فرنسا فى أستانبول لينهى إليه نبأ الحملة على مصر إلا فى ١١ مايو قبيل إقلاع الأسطول الفرنسى مباشرة . وطلب إليه أن يقنع الباب العالى بأن الحكومة الفرنسية لاتنوى القيام بأى عمل عدائى ضده ، وأن يعلن قرب

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٢) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٢٢ .

وصول مفاوض فرنسي تخول له كامل السلطات . ولم يصل الخطاب إلى روفان إلا فى ٢٨ يونيو عشية نزول الفرنسيين الاسكندرية . وعلى حين ظل روفان يجهل مشروع الحملة تمامًا ، كانت الحكومة العثمانية على علم بالاستعدادات الفرنسية منذ شهر مايو بفضل سفيرها فى باريس . وفى ١٩ يونيو علم روفان بالحملة فى مقابلة تمت بينه وبين الريس أفندى (وزير خارجية الدولة العثمانية) وثارت شكوك الباب العالى حول أهداف فرنسا لاسيما أن فرنسا لم ترسل سفيراً لها فى الآستانة ليفسر لها نواياها بل إن بونابرت تدخل فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية فأجرى مفاوضات مع على باشا وإلى يانينا وأرسل الرسل إلى اليونان يحرضم على الثورة . وكان مما ضايق الحكومة العثمانية دون إنذار أو إيضاح . ولكن الباب العالى لم يكن من القوة بحيث يعلن الاحتجاج ويندفع ويتهور . وكان على الدولة العثمانية أن تختار بين أمور ثلاثة :

الأمر الأول أن تقاوم الحملة الفرنسية علانية وبقوة السلاح .

والأمر الثانى أن تتحالف مع الجمهورية الفرنسية .

والأمر الثالث أن تتظاهر بموافقتها على بقاء مصر فى أيدى الفرنسيين ولكن تعمل سراً على إقامة العراقيل فى طريقهم [١].

وبالنسبة للأمر الأول فقد كان لدى العثمانيين أكثر من سبب يمنعهم من اتخاذ هذا الإجراء. فلكى يحققوا ذلك كان عليهم أن يعقدوا معاهدات مع أعدائها التقليديين ، وهذا يعرض أمن الإمبراطورية لتهديد القوات الروسية والنمسوية التى ستهرع عندئذ لنجدتها . وبالإضافة إلى ذلك فإن الجنود الفرنسيين الذين يرابطون فى جزر الإيونيان يستطيعون بسهولة السير إلى الآستانة ومعاقبةالباب العالى قبل وصول حلفائه ولم تستطع الإمبراطورية العثمانية بدافع الكرامة أن تختار الطريق الثانى . أما الأمر الثالث فقد كان مطابقًا لروح الحكومة العثمانية ، فقد صرَّح السلطان العثمانى بأنه لن يفرط فى حفنة من رمال مصر ويطالب المماليك بألا يثقوا فى مناورات الكفرة ، ويعدهم بإعطائهم كل مدد ونجدة ، فإنه فى الوقت نفسه يرسل إلى الولايات منشوراً لكى توضح أن الفرنسيين مايزالون أصدقاء الإمبراطورية العثمانية ولابد أن يعاملوا معاملة حسنة بالرغم من أن " شريراً يدعى نابليون قد غزا مصر " ، وهو خارج على

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٠ .

سلطة الحكومة الفرنسية التى لابدلها فى ذلك . وكان هذا ما توهمه العثمانيون ، فلقد أوضح تاليران - بعد معركة أبى قير بيومين - فى خطاب سرى لروفان ، النوايا الحقيقية للحكومة الفرنسية . قال : " إن جميع تجارة البحر المتوسط يجب أن تنتقل إلى أيدى الفرنسيين . تلك هى الرغبة الحقيقية لحكومة الإدارة ، ثم أنها ستكون النتيجة المحتومة لمركزنا فى ذلك البحر . ومصر التى كانت فرنسا تتمنى على الدوام الاستيلاء عليها هى بالضرورة من نصيب الجمهورية . ومن حسن الحظ أن أتاح لنا موقف المماليك ، الذى غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار وعجز الباب العالى عن الانتصاف لنا منهم ، أن ندخل جيشنا فى مصر وأن نثبت أقدامنا فيها دون أن نعرض أنفسنا لتهمتى الاغتصاب والجشع... إن الإدارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها فى مصر بكل الوسائل الممكنة [١].

وهكذا لم تقطع الدولة العثمانية علاقاتها الرسمية بفرنسا ، واكتفى العثمانيون بالتضييق على روفان وظل الأمر كذلك حتى ٢٢ أغسطس عندما وصلت أنباء تدمير الأسطول الفرنسى فى أبى قير والذى وصل إلى إستانبول نحو ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م . إنما يعزز إرادة القتال لدى العثمانيين . وفى ٢ سبتمبر ، يجرى احتجاز الدبلوماسيين الفرنسيين ، وفقًا للعرف فى قصر الأبراج السبعة . والحال أن تاليران ، الذى كان قد أدرك بسرعة أن وضع سفير فى أستانبول ينذر بألا يكون سعيداً البتة ، كان قد تخلى منذ وقت طويل عن هذا المنصب وعين فيه السفير السابق للمؤتمر ، ديكورش دون سان - كروا ، وكان هذا الأخير قد أجرى استعداداته ، لكن قطع العلاقات الدبلوماسية يحول دون رحيله . والواقع أن الباب العالى ينشر فى ٩ سبتمبر ١٧٩٨ بيانه الحربى : إن فرنسا قد خانت بفظاعة الصداقة لتقليدية التى كانت تربطها بالباب العالى وهذه الخيانة جد مشينة ، بقدر ما أن الإمبراطورية العثمانية ، خلال إئتلاف دول أوروبا ضد فرنسا ، قد تمسكت بحياد عطوف وسمحت بإمداد فرنسا التى تتهددها المجاعة بالمؤن ، وكان جزاء ذلك أن فرنسا قد انتهجت سياسة تخريب فى الولايات الأوروبية للأمبراطورية ، ثم أقدمت على مهاجمة مصر مع سعيها إلى كسب الوقت عبر مناورات تسويفية لدى الباب العالى .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥١ .

وأعلن الجهاد ضد فرنسا ، وأرسل الباب العالى سلسلة بأكملها من الفرمانات إلى مختلف الأقسام الإدارية للإمبراطورية لتجنيد القوات [١]. ويصبح الشيء الأهم هو التعرف على رأى أحمد باشا الجزار ، فإذا ما أختار هذا الأخير الوفاق مع الفرنسيين ، فإن وضع الباب العالى سوف يصبح صعبًا . ومما يسعد هذا الأخير أن سيد عكا قد أدرك أن الفرنسيين فى مصر يشكلون خطراً أعظم بكثير على سلطته من خطر الباب العالى ، الأبعد بكثير ، والذى يحتفظ معه دائمًا ، بوجه عام ، بعلاقات طيبة . وهو يتصل من تلقاء نفسه بالإنجليز الذى يبدى لهم رغبة في القتال [٢].

تأثر قرار الدخول في الحرب بالضغوط الروسية أيضًا . على أن بول الأول كان قد أبدى فى بداية عهده رغبته فى اتباع سياسة سلمية وساعية إلى تضميد الجراح بعد الحروب الطويلة التى خيضت فى زمن كاترين العظيمة . ولكن وجود الفرنسيين فى البحر المتوسط ، وخاصة فى البحر الأدرياتى ، إنما يشكل فى نظر حكومته خطراً على الأطماع الروسية فى المنطقة . وقد جرى تفسير حشد القوات فى طولون بوصفه علامة تهديد وشيك لروسيا ، ويتم وضع أسطول البحر الأسود فى حالة استنفار . ويقود الاستيلاء على مالطة إلى اتخاذ قرار بمحاربة فرنسا : فمن اللازم حشد جيش يتألف من ستين ألف رجل على الحدود الروسية - العثمانية ، ويتمركز الأسطول البحرى الروسى على مقربة من المضائق ، ومنذ ٢٤ يوليو يجرى اقتراح تحالف على انجلترا .

وهكذا يجد الباب العالى نفسه مدفوعًا إلى التعاون مع روسيا ، وترسو السفن الروسية قبالة إستانبول فى ٢ سبتمبر ١٧٩٨م ، وتبدأ المحادثات العسكرية فى ٥ سبتمبر . وبالرغم من المطالب الإنجليزية ، فإنه يجرى إيلاء الأولوية للبلقان . والحال أن الجزء الرئيسى من الأسطول العثمانى ، الذى أصبح من جديد مهمًا بفضل عمل سليم الثالث ، يجرى إرساله للاستيلاء على جزر البحر الأيونى ، بالتعاون مع الأساطيل الروسية . وينجز الفريقان حشدهما فى ١٩ سبتمبر فى عرض الدردنيل الذى يغادرانه فى الأول من أكتوبر . وتسقط الجزر بسرعة فى أيدى العثمانيين والروس وعندئذ يجرى حصار كورفو ، القاعدة الفرنسية الرئيسية وسوف يقاومه الجنرال شابو حتى ٣ مارس ١٧٩٩م [٣].

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٠ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤٠ .

وكانت انجلترا قد أولت الأولوية للدفاع عن الهند . وبمجرد تلقى خبر رحيل الفرنسيين فى لندن ، سارع دونداس ، الذى كان آنذاك وزيراً للحربية ، بإصدار الأمر بإرسال تعزيزات إلى الهند . وبما أن قوات انجلترا البرية ضعيفة ، فإنها ستضطر إلى سحب قوات من البرتغال ، بالرغم من التهديدات الفرنسية لهذا البلد . والمسافة جد طويلة لأنه يتعين المرور عبر طريق رأس الرجاء الصالح . ويأمل البريطانيون فى أن تصل قواتهم إلى الهند قبل لجيش الفرنسى الذى تصوروا أنه سوف يتجه إليها عبر البحر الأحمر . ومن ثم فمن باب الاحتياط يتعين حصار ذلك البحر . والباب العالى نفسه هو أول من يقترح إرسال أسطول إنجليزى إلى البحر الأحمر بالرغم من قرب المدينتين المقدستين ، ومن ثم فإن الخطر العثمانى القديم يختفى بسبب الظروف [١] .

وفى ٥ يناير ١٧٧٩م عقدت بريطانيا محالفة مع الدولة العثمانية . وقعها من الجانب البريطانى كل من سدنى سميث Sir Sidney Smith وسبنسر سميث ، وجاء فيها " أن جلالة ملك بريطانيا الذى تربطه بإمبراطورية روسيا أواصر المحالفة الوثيقة ، قد انضم الآن فى هذه المحالفة « المبرمة بين انجلترا والدولة العثمانية » إلى المحالفة الدفاعية التى تم إبرامها أخيراً ، بين السلطان العثمانى وقيصر روسيا "[٢] .

فضمن الطرفان المعاقدان كل منهما أملاك الآخر، وتعهد جورج الثالث ملك انجلترا بضمان جميع ممتلكات الإمبراطورية العثمانية دون أى استثناء ، ولما كانت قبل الغزو الفرنسى فى مصر . وتعهد السلطان العثمانى من جانبه بضمان الممتلكات البريطانية دون استثناء كذلك . وفضلاً عن ذلك فقد نصت المعاهدة على ضرورة مواصلة الحرب بالاشتراك فيما بين الحليفين المتعاقدين ؛ فلا يقدم أحدهما على إبرام الصلح منفرداً مع الأعداء دون موافقة الآخر . وبذلك مهد عقد هاتين المعاهدتين لتأليف المحالفة الدولية الثانية ضد فرنسا . إذ أنه سرعان ما انضمت مملكة نابلى إلى الحلفاء بمقتضى معاهدة القسطنطينية فى ٢١ يناير ١٧٩٩ ، كما ضغطت كل من انجلترا وروسيا على الحكومة النمساوية ، فأعلنت النمسا الحرب على فرنسا فى ٢٤ يناير ، وظلت بروسيا وحدها خارجة عن نطاق هذه المحالفة [٣].

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٤١ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ١٢٣ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

وحاول بونابرت أثناء وجوده فى مصر أن يوطد النفوذ الفرنسى بها وأن يسعى إلى إيجاد نوع من الصداقة والتحالف أن أمكن ذلك - بينه وبين الحكام العرب والمسلمين المحيطين بمصر. فحاول الاتصال بأمراء طرابلس والشام وعرض صداقته ونواياه الطيبة نحوهم ، كما حاول فى نفس الوقت الاتصال بشريف مكة وبأمراء الهند لتأليبهم على الاستعمار البريطانى هناك باذلاً لهم الوعود بمساعدة فرنسا لهم فى التحرر والاستقلال . ولكن لم تأت تلك الجهود بالثمرة المرجوة، لأن الحكم الفرنسى فى مصر لم يكن مستقراً ، كما أن فترة بقاء نابليون فى مصر كانت قصيرة ، وأهم من ذلك أن الدول الأوروبية - كما سبق القول - قد تحالفت على إخراج الحملة من مصر ، وعندما أعلن السلطان العثمانى الحرب على فرنسا ، أصبح مركز بونابرت فى مصر معرضًا لأخطار جديدة داخلية وخارجية ، فلقد كانت الفرمانات الآتية من عند السلطان تتلى فى المساجد لحث المؤمنين على طرد عدو الإسلام . وعندما علم نابليون بعزم الحكومة العثمانية على إرسال حملة إلى مصر لإخراجه منها بمساعدة الأسطول البريطانى المحاصر للشواطىء المصرية ، صمم على الخروج من هذا المأذق وغزو الشام[1].

وكانت عملية الحملة على الشام تهدف فى واقع الأمر محاولة من جانب الفرنسيين للقضاء عى خطر آخر من أخطار المقاومة التى واجهت وجودهم فى مصر ، وهو خطر قوات المماليك التى كانت قد انسحبت بعد معركة الصالحية إلى سوريا الجنوبية ، وخطر التجمعات العثمانية التى أخذت الدولة فى القيام بها ، بعد إعلانها الحرب على فرنسا ، للقيام بعملية غزو لمصر ، تستهدف استخلاصها من أيدى الفرنسيين . وزاد من خطورة الموقف أن الدولة العثمانية جاهرت بالعداء تجاه الجمهورية الفرنسية ، وأخذت فى إعداد قوات أخرى لها فى جزيرة قبرص، لكى تتعاون بها مع القوات البريطانية فى البحر المتوسط ، فى عملية الهجوم على سواحل مصر الشمالية ، وكانت السلطات العثمانية فى سوريا مع من انسحب إلى هذا الإقليم من المصريين ومن المماليك قد أخذت الاتصال بشيوخ مصر وعلمائها وأعيانها ، لكى تدفع المصريين إلى الثورة فى وجه الفرنسيين فى الوقت الذى تقوم فيه القوات العثمانية بالهجوم على مصر ووجد بونابرت أنه من الأصوب أن يلتقى بهذا الخطر الذى يتجمع فى سوريا ، كقوة للمقاومة ، قبل أن يتم استعداده ، ويصل لمصر ، وقد يكون ذلك فى وقت تأتى فيه حملة أخرى ، عثمانية إنجليزية ، إلى سواحل مصر الشمالية ، فكان عليه إذاً أن يأخذ بالمبادأة .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٤ .

ولكن جزءاً كبيراً من قوات الحملة كان مشغولاً فى الصعيد ، وكان خروج حملة جديدة إلى سوريا يستتبع من بونابرت أن يقوم من جديد بمحاولة لاستمالة المصريين ، وإظهار رغبته فى اشراكهم فى حكم البلاد ، حتى يؤمن ، فى عاصمة البلاد ، أمن قواته الموجودة فى الصعيد ، وأمن قواته التى سيسير على رأسها زاحفًا إلى سوريا[1] وقرر بونابرت إعادة الديوان ، الذى كان قد ألغاه بعد ثورة القاهرة وقد أصدر الأمر بإعادة الديوان فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ أى فى الوقت الذى أخذ فيه الاستعداد لحملة سوريا ، ولقد أصدر هذا الديوان بيانًا للشعب فى ٢٨ يناير ١٧٩٩م يحثه فيه على التزام الهدوء والسكينة ، ويعلنه فيه بونابرت قد عفا عفواً كاملاً عن كل ماقام به الثوار وأنه سيعمل على رفع المظالم ، وإجراء المشاريع التى تزيد من رفاهية البلاد . وذكر هذا البيان أن بونابرت سيقوم بفتح الخليج الموصل من النيل إلى بحر السويس إشارة إلى المشروع الخاص بوصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر وكان بونابرت قد عاد فى ذلك الوقت من السويس ، التى تعتبر رحلته نقطة ثانية بعد إعادة العمل بالديوان ، للاستعداد لحملة سوريا [2].

غادر بونابرت القاهرة فى فبراير ١٧٩٩ على رأس قوة تقترب من ١٣,٠٠٠ جندى متجه إلى الشام ، بمحاذاة الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، ووصل الجيش إلى قطيه ، والتحموا مع حامية العريش فى معركة حامية ، وغادر نابليون القاهرة ، ووصل إلى العريش يوم ١٧ فبراير، واحتشدت جموع الفرنسيين ومدفعيتهم تحت أسوارها ، واشتد اطلاق نيران المدافع على العريش ، حتى اضطر إبراهيم أغا حاكمها إلى توقيع شروط التسليم فى ٢٠ فبراير ، فاخليت القلعة واحتل الفرنسيون العريش ، وأستؤنف الزحف بعدها إلى سوريا[3] .

أما الأغراض التى يرجو الوصول إليها ن هذا الزحف ، فقد لخصها نابليون فى قوله أنها :

أولاً : دعم فتوح الفرنسيين فى مصر ، ودفع خطر الهجوم عى هذه البلاد من أية جيوش قد تنوى الزحف عليها من جهة الحدود الشرقية ، أو تريد الاشتراك فى العمل مع جيش أوروبى قد ينزل إلى الشواطىء المصرية .

ثانيًا : إرغام الباب العالى على توضيح موقفه بصورة تساعد على نجاح المفاوضات التى لاشك فى أن حكومة الإدارة قد بدأتها مع الباب العالى فى استانبول ، تأييد (بوشان) الذى أرسله فى مهمة لنفس الغرض إلى استانبول .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٢) جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسين من مصر .

ثالثًا : حرمان الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط من تموين سفنه من سوريا ؛ وذلك عند استطاعة بونابرت خلال شهرى الشتاء اللذين بقيا له أن يجعل الشاطىء السورى منطقة "صديقة" سواء أتحقق ذلك بالطرق الدبلوماسية ، أم بحد السيف والمدفع[1] .

وواصل الجيش زحفه بعد سقوط العريش ، فاحتل الفرنسيون خان يونس ثم سقطت غزة واللد والرملة ، وحاصر الجيش يافا فسقطت فى ٧ مارس ١٧٩٩ ، وفى ٩ مارس أرسل بونابرت إلى شيوخ نابلس يخيرهم بين الحرب والسلام ، حتى إذا اختاروا السلام طردوا من نابلس المماليك ورجال الجزار باشا . كما أصدر فى اليوم نفسه منشوراً موجهًا إلى شيوخ وعلماء وأهل غزة والرملة ويافا ، ويطلب منهم أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة ، ويعدهم باحترام شعائرهم وعقائدهم الدينية ونشر العدالة بينهم . ثم كتب إلى الجزار يدعوه إلى ترك القتال والعيش فى سلام مع الفرنسيين ، والانضمام إليهم ضد أعدائهم المماليك والإنجليز . وفى ١٣ مارس كتب بونابرت تقريراً مفصلاً يصف فيه لحكومة الإدارة موقف الجزار العدائى ، وإخفاق جميع ماقام به من محاولات لاستمالته . كما تضمن هذا التقرير ذكر المعارك التى خاضها جيش بونابرت فى العريش وغزة ويافا خصوصًا . ووجد بونابرت فى يافا عدداً كبيراً من المصريين المحتمين فى قلعتها ، ومن بينهم السيد عمر مكرم . فلم يتعرض لهم بأذى . بل إن بونابرت عى حد قوله فى الرسالة التى وصفت حوادث الغزو فى الرملة ومدينتى اللد ويافا ، وقرئت فى ديوان القاهرة ، قد رق قلبه لأهل مصر الذين كانوا فى يافا من غنى وفقير ، فأعطاهم الأمان ، وأمر برجوعهم إلى بلدهم مكرمين [2].

على أن الوباء سرعان ما انتشر بين الجند المرابطين فى يافا وزاد من خطره وجود حوالى ثلاثة آلاف من أسرى العثمانيين فى حالة سيئة . فكثرت الإصابات بين الفرنسيين ، ولما كان هؤلاء متذمرين من قلة مالديهم من مؤن ، وكان الجيش على وشك استئناف الزحف على العدو ، فقد بات من واجب قائد الحملة العام أن يفصل فى أمر هؤلاء الأسرى . ولهذا عقد بونابرت مجلسًا حربيًا لبحث هذه المسألة ، ورؤى فى بداء الأمر أن يرسل الأسرى إلى مصر ، ولكن صعوبات عدة حالت دون ذلك : منها عدم وجود المؤن اللازمة لهؤلاء الأسرى فى أثناء سيرهم الشاق إلى مصر ، ويتعذر الاستغناء عن عدد من الجنود الفرنسيين لحراستهم ، كما

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ١٢٦.

(٢) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

كان يخشى من وقوعهم فى قبضة الإنجليز إذا هم أرسلوا بحراً إلى مصر . فقر الرأى على إعدامهم رميًا بالرصاص ؟ وذلك بدلاً من أن يتركوا فى يافا يقضى عليهم الجوع بها ، أو ينتهزون الفرصة للانضمام إلى جيش العدو ثانية ، فاعدموا . ولاجدال فى أن إعدامهم كان وصمة عار فى جبين قائد الحملة . وذلك باعتراف المؤرخين الفرنسيين أنفسهم [١]. لأنه مهما كان نوع الأعذار التى انتحلت لارتكاب هذه الجريمة الشنيعة . فإن هؤلاء المقاتلين كانوا قد آثروا التسليم ، وفق شروط اتفقوا عليها مع بوهارنيه Beauharnais وكروازييه Croisier من ياوران بونابرت . وماكان ينبغى بحال من الأحوال ، ومهما كانت الأسباب أت يخالف الفرنسيون وعودهم ، وأن يخرقوا قوانين الحرب المعترف بها . وفضلاً عن ذلك فقد كان فى وسع بونابرت ، كما يقول بعض أنصاره أن يوفق بين مايتطلبه العمل من أجل المحافظة على جيشه ، وماكان يقتضيه واجب التمسك بتلك الشروط التى ارتضاها المحاربون فى ميدان القتال . وقد لقى بونابرت جزاء ما فعلت يداه ، عندما أصر العثمانيون وأحلافهم الذين نجوا من مذابح يافا على المقاومة بكل شدة ، آخذاً بثأر إخوانهم . فجنى بونابرت تحت أسوار عكا ثمار ما غرسه على شاطىء يافا[٢] .

لقد أستأنف الفرنسيون بعد استيلائهم على يافا ، استولوا على حيفا دون مقاومة . ثم وصلوا أمام عكا وبدأت عملية الحصار يوم ١٩ مارس : ثم استمر الفرنسيون فى ضربها بالمدفعية ، دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها . وانسحب بونابرت عن أسوارها ، وكان ذلك أول عملية انسحاب يقوم بها ، ولكنه سرعان ماخشى من أن يؤثر الانسحاب على معنوية جنوده ، فعاد إلى حصارها من جديد وحاول اقتحامها فى أول إبريل وتمكنت المدفعية من فتح ثغرة فى الأسوار . ولكن المدافعين استماتوا فى منع الفرنسيين من المرور منها . الأمر الذى أدى إلى فشل الهجوم الثانى [٣].

ولقد استمات أحمد باشا الجزار فى الدفاع عن مدينته ، وساعده على المقاومة وجود سفينتين حربيتين إنجليزيتين أمام الميناء . ويمثل وصول الإنجليز كارثة بالنسبة للفرنسيين . فأسطولهم الصغير المكلف بنقل مدفعية الحصار ، جد الثقيلة بحيث يصعب نقلها عبر

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ١٢٧.

(٢) نفسه ، ص ١٢٧ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٢٢ .

الصحراء ، يتم اعتراضه على الفور وأسره ، مما يحرم بونابرت بذلك من عتاده المخصص للحصار . ويتعين عليه إصدار الأمر بإرسال قافلة جديدة من الإسكندرية لتحل محل العتاد المفقود . وفي يومي ١٩ ، ٢٠ مارس يبدأ الجيش مع ذلك محاصرة عكا بينما يغطي لان وفرقته لموقع من جهة الجليل . ويمثل عباس ضاهر - حفيد ضاهر العمر أمام بونابرت ، وهذا الأخير يوليه فوراً على المجال التقليدي لآل الزيداني ، إقليم طبرية ، ويرسل رسائل إلى شيعة جبل عامل ويكتب بنفسه إلى الأمير بشير ، مبلغاً إياه بحصار عكا وبعزمه على القضاء على استبداد الجزار [١].

والواقع أن عدداً من الجبليين يحضرون فوراً إلى المعكسر الفرنسي لبيع مؤن من كافة الأنواع للفرنسيين ولشراء أسلحة . ويرى الضباط الفرنسيون في ذلك علامة تحالف سياسي آخذ في التشكل مع الدروز ، والواقع أن الأمر يتصل أساساً بأنصار آل الزيداني وبالشيعة أكثر مما يتصل بالدروز والموارنة . ويكتفي الأمير بشير بالتغاضي عن تجارة يصعب عليها منها على أية حال [٢].

وكان لوصول الأسطول الإنجليزي الصغير أثر ملحوظ على حصار عكا . وإذا كان العثمانيون قد استفادوا بالفعل من إمكانية التزود بالإمدادات عن طريق البحر (فعلوا ذلك في يافا عندما انقطعت الاتصالات البرية) بشكل مستقل عن الإنجليز ، فإنهم سوف يحصلون على مساعدة من عمليات القصف التي تمارسها السفن الإنجليزية وخاصة من وجود متخصصين مثل فيليبو ، عهد إليهم فوراً بالعمل لدى الجزار . وهم لن يشعروا بأنهم وحدهم في المحنة أن سيدني سميث - قائد الأسطول البريطاني - الراغب في الإعلاء من دوره الخاص. سوف يتفاخر بأنه قد رفع معنويات سيد عكا الذي كان يستعد للاستسلام . ولايتفق ذلك بالمرة مع سيكلوجية الرجل الذي كان ينوي منذ البداية المقاومة بقواته الخاصة . وعلاوة على وحداته المألوفة من المرتزقة ، فإن معه جميع سكان المدينة الذين لم يتردد في تسليحهم . وهو يأمر بذبح المسيحيين لتجنب أي طابور خامس محتمل وخاصة لإظهار إصراره ، ومصير يافا و بدلاً من أن يرعب المدافعين ، يوضح لهم أنه ما من مخرج هناك سوى الموت في المعركة أو النصر . وليس أمام الجزار أكثر من اللعب على وتر الذود عن الإسلام لكي يتسنى له

---

(١) هنري لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٤٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٧ .

الوصول إلى إثارة حمية قواته ، وهو من جهة أخرى ، مناوىء لوجود وحدات مهمة تتبع الباب العالى فى إقليمه ، الأمر الذى يوضح أنه يهتم فعلاً بالمستقبل . ويبدو الإنجليز له أكثر حياداً ونافعين فى نهاية الأمر لإبقاء سكان الجبل اللبنانى فى فلكه السياسى (١) .

وفى نفس الوقت أرسلت الدولة العثمانية جيشًا لمهاجمة بونابرت من الخلف أثناء حصاره لعكا ولكنه استطاع التغلب على هذا الجيش والقضاء عليه فى موقعة " تل طابور " فى ١٦ أبريل ١٧٩٩م . ولكن بونابرت وجد أن استيلاءه على عكا عنوة سيكلفه كثيراً فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة والإسراع بالعودة إلى مصر لأنه علم بأنباء إرسال حملة بحرية وبرية إلى مصر . ومهما يكن من أمر فقد حقق بونابرت بعض أهداف تلك الحملة إلى القضاء على قوة المماليك المعتصمة فى تلك الجهات والقضاء على قوة الباشوات ، مثل باشا دمشق وباشا عكا حتى لايفكرا فى الزحف على مصر ، ونجح فى هذا كل النجاح ؛ إذ إن انتصار القوات الفرنسية على القوات العثمانية فى الشام جعل هؤلاء الحكام لايفكرون مطلقًا فى تعقب القوات الفرنسية المتقهقرة إلى مصر . أما فشل نابليون الذى نسبه المؤرخون إلى تلك الحملة استناداً إلى فشل نابليون فى الاستيلاء على عكا فهو قول يجانبه الصواب لأن نابليون لو استطاع الاستيلاء على عكا لما أمكنه تحصينها نظراً لمحاصرة الأسطول الإنجليزى لسواحل الشام (٢).

دخل بونابرت القاهرة بجيشه فى ١٤ يونيو ١٧٩٩م ، ولم يلبث أن علم بوصول حملة عثمانية إلى أبى قير فى ١٤ يوليو ، فأصدر أوامره إلى قواده ليلتقوا به عند الرحمانية حيث قرر اتخاذها قاعدة الهجوم على الجيش العثمانى . كما أصدر تعليماته إلى الجنرال ديزيه فى الصعيد بأن يترك القوة والذخائر الكافية فى قلعة قنا وقلعة القصير ويرسل نصف قوته من الفرسان إلى الرحمانية . وتجمعت القوات الفرنسية عند الرحمانية وقادها نابليون لمواجهة الحملة العثمانية واستطاع نابليون القضاء عليها فى موقعة أبى قير البرية فى ٢٥ يوليو وأسر قائدها مصطفى وفر من بقى وكان من بين الفارين محمد على وعاد بونابرت إلى القاهرة فى ١١ أغسطس . وكانت أبى قير البرية نصراً كبيراً لنابليون لأنها بمثابة فتح جديد لمصر كما كانت واقعة الأهرام من قبل . وزال كل خطر على مصر من جانب العثمانيين على الأقل بضعة

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٣٤٧ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٦ .

أشهر. ولكن ترتب على موقعة أبى قير البرية نتائج أخرى مهمة . فقد حاول الفرنسيون بفضل اتصالاتهم بالعثمانيين والسير سدنى سميث أن يقفوا على كل شىء كثير مما كان يحدث فى أوروبا . أما الأسرى فلم يجد بونابرت بينهم من يستطيع إعطاء صورة حقيقية عن الأوضاع فى فرنسا ، حتى مصطفى باشا قائد الحملة الذى وقع أسيراً فى يده ، لم يكن يعلم عن أحوال أوروبا الشىء الكثير ، لذلك أرسل رسولين عقب الموقعة للسير سدنى سميث ليتفاوضا فى تبادل الأسرى ولكى يحصلا على مزيد من الأخبار عن فرنسا . وفى نفس الوقت كان القائد البريطانى متشوقًا للتعرف عن الأحوال فى مدينة الاسكندرية ، فأرسل سكرتيره إلى الشاطىء ومعه بعض الصحف التى يرجع تاريخها إلى ١٠ يونيو وقرأ فيها نابليون أخبار الكوارث التى حلت بفرنسا ، وعلم من الصحف بطرد الفرنسيين من إيطاليا وأن فرنسا نفسها معرضة لخطر الغزو من جديد . وفضلاً عن ذلك فقد أثبت المعاصرون رسالة من حكومة الإدارة إلى بونابرت محررة فى باريس بتاريخ ٢٦ مايو ١٧٩٩م ، تسلمها بونابرت بعد عودته من سورية إلى القاهرة وتشير هذه الرسالة إلى الأخطار المحيطة بفرنسا بسبب جهود كل من النمسا وروسيا وتطلب منه العودة بالقسم الأكبر من قواته إن لم يكن الجيش كله ، ليقود جيش الإمبراطورية ، وشرع بونابرت يعمل جديًا لمغادرة مصر بكل سرعة (١).

وكان بونابرت قد قرر ، أن يفاتح الباب العالى فى أمر إنهاء الحرب ، وعقد الصلح بينه وبين فرنسا ، وكلف مصطفى باشا أن يتصل بالصدر الأعظم فى هذا الشأن ، وترك له رسالة أعرب فيها عن حسن مشاعر فرنسا تجاه الدولة العثمانية ، والصداقة القديمة التى كانت تربط بين البلدين ، وعدائها التقليدى لكل من روسيا والنمسا . وشرح فيها أن احتلال فرنسا لمصر لم يكن مبنيًا على روح عدائية للدولة العثمانية ، بل كان يهدف محاربة المماليك ؛ وإنه لم يكن يهدف فصل مصر عن الدولة العثمانية ، بل يهدف محاربة انجلترا فى الهند . وذكر أن الحملة الفرنسية قد احترمت حقوق السلطان ورعاياه وسفنه وأعلامه ، وأبدى أسفه لتعجل الدولة العثمانية الأمر ، وإعلانها الحرب على فرنسا ، وأعرب عن أمله فى قيام المفاوضات سريعًا بين الطرفين ، إما عن طريق سفير عثمانى يصل إلى باريس ، أو عن طريق مندوب يصل إلى مصر .

---

(١) عمر عبد العزيز ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٧ .

وهكذا وضع بونابرت قبل ذهابه من مصر ، أسس سياسية جديدة يمكنها أن تغير الموقف فى صالح فرنسا بشكل عام ، وفى صالح الحملة الفرنسية فى مصر بنوع خاص[١] .

وكذلك ترك بونابرت رسالة خاصة إلى أعضاء الديوان ، ذكر لهم فيها أنه ذهب إلى فرنسا من أجل " راحة أهل مصر ، وتسليك البحر ، فيغيب نحو ثلاثة أشهر ، ويقدم مع عساكره " والواقع أن عملية سفره من مصر بهذه الطريقة قد أثارت دهشة المصريين ، خاصة وأنهم كانوا يعلمون بمحاصرة سفن الأسطول البريطانى للسواحل المصرية .

وترك بونابرت رسالة ثانية لكليبر ، عن الأحوال العامة فى مصر ، وأعطاه فيها التوصيات اللازمة ، وهى رسالة هامة ، شرح له فيها اضطراره للإسراع بالسفر قبل أن تعود السفن الإنجليزية أمام السواحل ، وترك له بيانًا بالشفرة لكى يتراسل به مع الحكومة ، وبيانًا ثانيًا لمراسلته هو ، وطلب إليه أن يوفد الأفندى الذى كان قد أسره فى موقعة أبى قير ، وهو رشيد أفندى الكاتب بالديوان الهمايونى ، برسالته التى كتبها إلى الصدر الأعظم يعرض عليه فيها أمر الصلح .

وكان بونابرت يعرف دقة موقف كليبر فى مصر ، فصرح له بأن يتفاوض مع الدول العثمانية فى أمر عقد الصلح[٢] .

ونصح بونابرت كليبر بأن يعمل على كسب ثقة العلماء والمشايخ فى القاهرة ، حتى يحصل على ثقة الأهالى . وأشار عليه بالاستمرار فى عمل الاستحكامات اللازمة للاسكندرية والعريش ، وإقامة خطوط تحصينات واستحكامات عند الصالحية ، إذ أنها مفاتيح البلاد ، ونصحه بالتريث فى إدخال الإصلاحات على نظام الضرائب ، والتريث فى عملية تحصيلها . كما أوصاه باعتقال خمسمائة أو ستمائة من المماليك ، أو من رهائن العرب ، ومشايخ البلاد أو العمد وإرسالهم إلى فرنسا ، فى حالة استئناف المواصلات البحرية ليبقوا بها سنة أو سنتين . وهكذا لم ينس بونابرت وقت سفره من مصر ، إعطاء كل التوجيهات اللازمة ، وكل السلطات المطلوبة لكليبر ، حتى يفيد منها إلى أقصى درجة ممكنة ، من أجل فرنسا أولاً ، ومن أجل الحملة الفرنسية الموجودة فى مصر ثانيًا [٣].

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٤١ .

(٢) نفسه ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٤٤ .

وبعد سفره ، دخلت الحملة فى مرحلة جديدة من تاريخها ، وكانت مرحلة جديدة كذلك فى تاريخ مصر الحديثة .

اتفاق العريش سنة ١٨٠٠ :

مع نبأ وصول بونابرت إلى فرنسا ، أخرت حكومة الإدارة إرسال مبعوثها المكلف باستئناف المفاوضات مع العثمانيين - ديكورش دو سانت - كروا - ومن الواضح تمامًا أن بونابرت يقدم صورة متفائلة نسبيًا لوضع جيش الشرق . وهو يوافق على مشروع بعثة ديكورش ، ويدعو إلى إرسال تعزيزات (يجرى قبول ذلك من حيث المبدأ على الرغم من الافتقار إلى القوات والمال والسفن) . ويحدد ماكان قد أملاه على كليبر : عقد مفاوضات مع العثمانيين بهدف كسب الوقت ، وتقديم وعد لهم برد مصر عند عقد الصلح الشامل والاحتفاظ بها حتى ذلك الحين كأداة موازنة تجاه انجلترا (١).

ولكن كليبر نظر إلى الموقف فى مصر ، بمنظار أسود ، فقد اعتقد أن مصير الحملة المحقق إلى الفشل : فخزانة خاوية ، ومرتبات الجند متأخرة ، والجيش العثمانى على الأبواب ، والمصريون متحفزون للثورة ، وحصار الإنجليز قوى ، وروح الجند ضعيفة . وكان كليبر - وهو الجندى الشجاع - يعز عليه أن يظل مع جنده محصورين فى مصر وفرنسا فى حاجة إلى سيوف أبنائها . لهذا قرر كليبر - منذ تولى القيادة العامة - أن يدعو العثمانيين إلى مفاوضات ، وكان مستعداً لأن يسلم بالجلاء العاجل عن مصر . وليس من شك فى أن العثمانيين - وقد هزموا فى الشام وعلى ساحل مصر وأخفقت محاولاتهم النزول فى أبى قير ودمياط - قد رحبوا برغبة كليبر . ودارت مفاوضات العريش بين بعض قطع الأسطول الإنجليزى فى شرقى البحر المتوسط ، ولكنه لم يكن مندوبًا رسميًا من قبل حكومته ، ولكنه اعتقد أن من صالح بلاده أن يجلو الفرنسيون عن مصر صلحًا قبل أن تضطر انجلترا إلى التقدم لإخراجهم عنوة ، وقد ثبت أن العثمانيين وحدهم غير أكفاء لهذه المهمة . وكان سيدنى يود كذلك - بتدخله فى المفاوضات - أن يعمل لحصرها فى موضوع مصر فقط فلا تتعداه إلى موضوع إنهاء الحرب بين الدولة العثمانية وفرنسا . وكان قائد البحر الإنجليزى يود لو أضاف إلى مركزه البحرى دوراً سياسيًا ينعش به المجد الذى كسبه أمام حصون عكا (٢).

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٤٤٨ .

(٢) حسن عثمان ، ومحمد توفيق ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

وتقضى اتفاقية العريش بجلاء الفرنسيين عن مصر بكامل سلاحهم وعتادهم وعودتهم إلى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم أحد فى البحر . وشرع الفرنسيون فعلاً يخلون بعض المواقع استعداداً للجلاء ، كما شرع العثمانيون يتأهبون لدخول مصر ، ونزلت قوة إنجليزية فى ميناء السويس .

على أن الحكومة الإنجليزية - وقد بلغها أمر المفاوضات - كانت ترى الموقف رأيًا آخر : كانت تخشى أن يعود الجيش الفرنسى المحصور فى مصر إلى ميادين الحرب فى أوروبا فترجح كفة الجيوش الفرنسية المحاربة ، ولهذا فضلت الحكومة الإنجليزية أن يبقى الفرنسيون بمصر ، أو يسلموا أنفسهم كأسرى حرب . وأرسل القائد العام للأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط بلاغًا بذلك إلى كليبر أعتقد أن فى الأمر خيانة من جانب الحكومة البريطانية ورفض الجلاء وهزم العثمانيين المتجمعين لدخول القاهرة فى عين شمس (٢ مارس ١٨٠٠) .

وكان فريق من جيش الصدر الأعظم ومماليك إبراهيم بك قد دخلوا القاهرة وأثاروا أهلها على الفرنسيين ، وقد اعتقد المصريون أن حكم الفرنسيين قد آذن للزوال . واستخدم الفرنسيون العنف فى القضاء على ثورة القاهرة « الثانية » .

وعلى الرغم من وصول موافقة الحكومة الإنجليزية على اتفاقية اشترك فى التمهيد لها أحد قوادها فإن كليبر - وقد وصلته أخبار أنقلاب برومير - تشبث بالبقاء فى مصر ، وانصرف إلى إجراء بعض إصلاحات إدارية ومالية . ولكن لم يتسع الوقت لتنفيذها إذ طعنه « سليمان الحلبى » طعنة قاتلة فى ١٤ يونيو ١٨٠٠م [١].

٧ - منو والجلاء عن مصر :

تسلم القيادة العامة لجيش الشرق عقب مقتل كليبر أقدم قواد الحملة ، ثم وصل قرار بونابرت تثبيته فى هذا المنصب . ولم يكن منو يتمتع بكفاية عسكرية سواء فى فرنسا أو فى مصر تكسبه احترام الضباط والجند ، ذلك لأنه قضى أكثر حياته فى مناصب إدارية . ومنذ وصلت الحملة إلى مصر عين منو حاكمًا لرشيد حتى يونيو ١٨٠٠ حين نقل قائد لموقع القاهرة. وقد أنف أكثر الضباط أن يعملوا تحت أمرة هذا القائد « الإدارى » الذى لم يخض المعارك ولم يكسب له فى القتال مجداً . هذا إلى أنهم لم يرتاحوا لآراء منو وسياسته فى حكم البلاد ،

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

فقد كان منو من الرجال الذين استهواهم حب الاستعمار ، وكان يرى أن مصر خير مستعمرة تستطيع بتنوع مواردها أن تعوض فرنسا عن مستعمرات الأنتيل ، وكان منو يثق فى نجاح الحملة وفى قدرة فرنسا على الاحتفاظ بمستعمراتها الجديدة والقيام على استغلالها ، وأظهر منو - منذ كان حاكمًا فى رشيد - تحمسه للبقاء فى مصر ، فكان يرسل إلى بونابرت التقارير والمذكرات عن موارد البلاد والسياسة التى ينبغى انتهاجها لحكم المصريين والوسائل اللازمة لإيجاد علاقات تجارية بين مصر وداخل أفريقية ، وفى رشيد أعلن منو إسلامه وتزوج بسيدة من أهلها . وعلى أثر توليته القيادة أعلن بجلاء للضباط والجند عزمه على البقاء بمصر . ودعا اتفاقية العريش « تسليمًا » من كليبر . وكان هذا مدعاة لانقسام الضباط والجند بين أنصار البقاء وأنصار الجلاء ، وقد فعل هذا الانقسام فى التعجيل بنهاية الحملة [١].

وكانت انجلترا قد واصلت عدائها لفرنسا بشكل عام ، وعدائها لوجود القوات الفرنسية فى مصر بشكل خاص ، وكان نزول الحملة الفرنسية إلى مصر قد أظهر أهمية موقع مصر الجغرافى ، وبصفته مفرق هام للطرق والمواصلات بين الشرق والغرب ، وبصفته مركزًا يمكن للدولة المسيطرة عليه من أن تقول كلمة لها وزنها فى حوض البحر المتوسط ، ولم تكن أهمية مصر بالنسبة لبريطانيا تقتصر على مجرد الرغبة فى إخراج الحملة الفرنسية منها ، بل كانت تمتد كذلك إلى إمكانية وضع بريطانيا أقدامها فى مصر كنقطة ارتكاز يمكنها أن تفيد منها فى عملياتها الاستراتيجية اللازمة لاحتفاظها بمناطق استغلالها فى الشرق الأقصى . ولذلك فإن بريطانيا قد اختارت أن تعمل في مصر إلى جانب الدولة العثمانية ، حتى تحصل بالود على تلك المزايا التى كانت الحملة الفرنسية قد فشلت فى الحصول عليها بالقوة [٢].

انصرف منو إلى العناية بحالة البلاد ، فقد أخذ يجبى الباقى من الغرامة التى فرضها كليبر ، وفرض عليها هو ضريبة جديدة ، فرضها على ملاك الدور ومستأجريها والملتزمين والتجار وأرباب الحرف ، وعهد إلى الفرنسيين أمر تحصيل الضريبة الجديدة إلى مشايخ الحارات الساكنين بالمدينة[٣] . وجدد ديوان القاهرة وكان قد أهمل اجتماعاته منذ موقعة عين

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٩٦ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

شمس وثورة القاهرة ، وفكر فى إلغاء نظام الالتزام . وأصدر قراراً بإصدار صحيفة عربية تدعى " التنبيه " ، ولكن تطور الموقف لم يفسح له المجال لتنفيذ مشروعاته . وقد لاح أن الصلح العام وشيك الوقوع – أن من من صالحها إجلاء الفرنسيين عن مصر – كما سبق القول- وكانت تخشى أن ينجح بونابرت – بعد أن فشلت محاولة " جانتوم " فى يناير ١٨٠١م- فى إمداد مواطنيه فى مصر بالعتاد والرجال أو فى إقناع العثمانيين بالانسحاب من محالفة انجلترا والروسيا وخاصة بعد أن تغير موقف القيصر « بولس » من عداء فرنسا إلى صداقتها. ولما كانت الحكومة الإنجليزية قليلة الثقة فى كفاية العثمانيين العسكرية ، قررت أن تقوم بدور فعال فى إجلاء الفرنسيين . وضع الإنجليز والعثمانيون خطة محكمة لمهاجمة مصر من نواح متعددة : من ناحية الشمال بجيش إنجليزى عثمانى ، ومن ناحية الشرق بجيش عثمانى ومن الجنوب بحملة إنجليزية هندية تسيرها حكومة شركة الهند الشرقية فى البحر الأحمر ثم تنزل بالقصير وتتقدم نحو القاهرة[1] .

وقد وصلت هذه الحملات كلها واشتركت فى القتال ، ماعدا الحملة الهندية الإنجليزية فقد وصلت بعد أن سلم الفرنسيون . ولكن حضور هذه الحملة إلى مصر من الهند أمر دلالته : فهو يدل على يد الارتباط بين المستعمرات البريطانية فى الشرق ومصر كمركز متوسط فى حلقة المواصلات الإمبراطورية [2].

ارتكب منو خطأ عسكريًا فاحشًا بتقسيم قواته ، خرج بجزء منها للدفاع عن الاسكندرية وأرسل جزءًا آخر إلى بلبيس وآخر إلى دمياط ، وترك بقية القوة بقيادة بليار للدفاع عن القاهرة . واستطاع الإنجليز أن ينزلوا فى أبى قير وهزموا الفرنسيين فى كانوب فى ٢١ مارس ١٨٠١م ، واعتصم منو بالإسكندرية وقنع الإنجليز بترك قوة لحصارها وقطعوا البرزخ الفاصل بين مريوط وأدكو وتقدموا إلى القاهرة .

ويزداد موقف الفرنسيين حرجًا وتزداد روح جندهم المعنوية ضعفًا : فالمساعدة التى مناهم بها بونابرت – الذى تولى منصب القنصل الأول فى فرنسا – لم تصل ، والصدر الأعظم يقترب من القاهرة ، والقوة الإنجليزية الهندية أبحرت من بومباى وتوشك أن تبلغ القصير –

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩٧ .

وستعبر الصحراء إلى قنا ثم تتجه شمالاً فى وادى النيل ، وستنضم إليها قوة محاربة قامت من رأس الرجاء الصالح ، ومراد بك يموت وهو فى طريقه إلى نجدة الفرنسيين ويعتقد مماليكه أن حكم الفرنسيين إلى الزوال فينحازون إلى الإنجليز .

وإزاء هذا كله آثر بليار قائد حامية القاهرة - وكان من أنصار الجلاء - التسليم بشروط اتفاقية العريش (يونيو ١٨٠١م) وشدد الإنجليز حصار الاسكندرية فاضطر منو إلى التسليم بهذه الشروط فى سبتمبر عام ١٨٠١م ، وعلى هذا النحو تم جلاء الفرنسيين عن مصر [١].

نتائج الحملة الفرنسية على مصر :

وقد كان لهذه الحملة الأثر الأول فى تكوين مصر الحديثة إذ قضى الفرنسيون على فرسان المماليك فمكن ذلك محمد على فيما بعد من القضاء عليهم ، خصوصاً وأن السلطان نفسه كان يريد التخلص من نفوذهم فأصدر فى هذه الآونة قراراً بمنع استجلاب المماليك إلى مصر حتى لايتمكن زعماؤهم من تجديد قواتهم التى أنهكتها المعارك [٢].

ولاريب أن وفود طائفة من العلماء إلى مصر للتنقيب عن اثارها والتعرف على أسرار طبيعتها المجهولة قد أيقظ فى المصريين روحاً جديدة ، فقد كان حملة العلم فيهم حملة الشرع وكانوا يتوهمون أنهم محيطون بالعلوم كافة ، فلما رأوا « الفلكيين » وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيأة والنقوشات والرسومات والمصورين ، والكتبة والحساب والمشئين » ورأوا المكتبة الجديدة التى أنشأها الفرنسيون وما حوته من المصنفات ، وترحيبهم بكل من يريد المراجعة من المصريين وخصوصاً إذا رأوا التجارب العلمية الجديدة وغير ذلك ، ورأوا المطبعة التى أتى بها بونابرت ، والصحيفتين اللتين كان يصدرهما ، ورأوا المصانع والمنشآت الحديثة عداهم شىء من الدهشة وحب الاستطلاع [٣].

وأنشأ بونابرت دواوين أو مجالس مؤلفة من كبار العلماء والتجار ، وممثلى الطوائف ، ومشايخ الحرف ، للنظر في الشئون العامة ، وبذلك كان بونابرت أول من أدخل المبدأ النيابى فى مصر ، وعلينا أن نذكر أن العلماء والمشايخ قد اشتد ساعدهم من ذلك الوقت وكان لهم

---

(١) حسن عثمان ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٢) محمد صبرى ، تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣) محمد صبرى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

فيما بعد أثر كبير فى اختيار محمد على لولاية مصر وإرغام الدولة العثمانية على تعيينه سنة ١٨٠٥م[١] .

دعمت الدواوين فى أقاليم مصر تنفيذاً لأمر بونابرت فى ٢٧ يوليو عام ١٧٩٨م ، وكان كل ديوان يتألف من سبعة أعضاء لإدارة مصالح الأقاليم ونظر الشكاوى وفض المنازعات ومعاقبة المفسدين والخطرين ومعاقبتهم وحفظ الأمن داخل القرى وبين القرى المجاورة . أما الإدارة المالية فقد عهد بها إلى « مباشر » ومعه وكيل فرنسى لجباية الأموال والضرائب وكافة الإيرادات . وفى ٢٠ أكتوبر من نفس العام صار الديوان يتألف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة من علماء وأئمة ومشايخ البلاد وأكابر وأعيان التجار والصناع الذين يعينهم قومندان الإقليم ولكل ديوان الرئاسة فى الإشراف على القضاة ومشايخ البلاد على أن يرأس ديوان القاهرة دواوين الأقاليم ، وقد ألغى منو هذه الدواوين وجعل على رأس كل إقليم قائداً فرنسياً [٢].

أما الأثر الاجتماعى ، فإن واقع الأمر أن الفرنسيين فى مدة إقامتهم لم يحاولوا بتاتًا أن يتعرفوا إلى المصريين ، أو يتغلغلوا فى أوساطهم ، حتى يقفوا على حقيقة شعورهم ، وماكان يجول بأذهانهم ، أو ماكانت تحدثه « إصلاحاتهم » العديدة ، والسريعة التى أرادوا منها إلى جانب الحصول على المال لسد نفقات الحملة « أن يخلقوا من عاصمة البلاد بلداً أوروبيًا يضارع عاصمتهم باريس فى بهائها وروائًا ، وكثرة ملاهيها (قهاويها) وأنديتها وملاعبها ، حتى يكفلوا لجنودهم ورجالهم عيشًا هنيئًا سعيداً ، وفاتهم أنه من المتعذر على حكومتهم الجديدة أن تغير أخلاق القوم وعاداتهم ومادرجوا عليه من أساليب العيش القائمة على التمسك بالتقاليد الإسلامية من عصور قديمة بين طرفة عين وانتباهتها . وفاتهم أن هذه « الإصلاحات» التى نظر إليها المصريون كما ينظرون إلى « البدع » وكل أمر مستهجن ممقوت ، إنما تتعارض مع ماكانوا يدعونه ويذيعونه عن إسلامهم واحترامهم لشعائر الدين الحنيف ، ويحاولون إقناع المصريين بأنهم كانوا من حماته ومن المدافعين عنه[٣] .

---

(١) محمد صبرى ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٢) زين العابدين شمس الدين نجم ، إدارة الأقاليم فى مصر ١٨٠٥ - ١٨٨٢م ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٧ - ١٨ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو ، وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٥٥٢ - ٥٥٣ .

ولاجدال فى أن بعض هذه الإصلاحات التى تستلزمها عناية الفرنسيين بشئون الصحة العامة فى القاهرة والمدن الكبرى خصوصًا ، حرصًا منهم على عدم انتشار الأوبئة وفتك الأمراض الخطيرة بجنودهم ، كالطاعون والزهري والرمد وغير ذلك ، كانت إصلاحات ضرورية ، ويصيب المصريين من إجرائها كل فائدة . ولكن تفكير بونابرت وقواده فى المحافظة وعلى سلامة الجنود ورجال الحملة وعلمائها قد طغى على كل تفكير فيما قد ينجم عن هذه الإصلاحات من نتائج يقع أثرها على القاهريين وأهل المدن عمومًا ، ولعل أكبر ما يؤخذ على الفرنسيين فى هذا الشأن أنهم حاولوا أن يفرضوا فرضًا على المصريين نوعًا من الحضارة الأوروبية كان مقضيًا عليها بالفشل لسبب بسيط ظاهر ، هو أن بونابرت وأنصار التجربة الاستعمارية فى مصر لم يكن فى وسعهم أن يعنوا بغير مظاهر هذه الحضارة الأوروبية المادية فى وقت كانت بحوث علمائهم لاتزال فى مراحلها الأولى ، ولم تكتمل بعد تلك الدراسات التى كان من المنتظر أن تكون أساسًا لكل إصلاح يراد إداخله إلى هذه البلاد ، حتى يثمر ثمرته المنشودة بفضل اطمئنان المصريين إليه وقبولهم له[1] .

ولقد كان من مقتضيات تلك السياسة الإسلامية الوطنية التى وضع بونابرت أصولها وأتباعها خلفاؤه ، أن يحتفل الفرنسيون بأعياد أهل البلاد الدينية ، ويحترموا شعائرهم وعاداتهم ، وأن يحاولوا جذب قلوب المصريين إليهم ، باستمالتهم والتقرب منهم ، وعقد أواصر المحبة والصداقة مع كبرائهم ومشايخهم ، ومحاولة الاختلاط مع عامتهم ، حتى يطمئن إليهم سواد الشعب ويرضى الناس بما قدر عليهم .

فكان لامناص من أن ينتهز هؤلاء فرصة الاحتفال بالأعياد الدينية والمواسم إلى جانب أعيادهم الفرنسية ، حتى يخففوا من حدة بلاياهم بالانطلاق وسط صخب الموالد وضجيج الأعياد والاحتفالات ، يتشاجرون مع العامة والدهماء ، بل يتقاتلون معهم ، ويزاحمون أدعياء « الولاية » وغيرهم من الدراويش و « البلة » فى شرورهم ومفاسدهم يعتدون على النساء ويستشيرون بفعالهم أهل النخوة والشهامة من القاهريين فيقتل من يقتل ويقتلون من يقتلون ، ويتدخل (برطلمين) بجماعته الموهوبة المكروهة « لقمع الفتنة » وإعادة النظام[2].

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ١٩٥٢ ، ص ٥٥٣ .

(٢) نفسه ، ص ٥٥٥ .

وأما أعياد المصريين وموالدهم المشهورة التى شهدها الفرنسيون مدة وجود الحملة بهذه البلاد وحرصوا على الاحتفال بها ، وارتكبت فى أثنائها كل هذه الشرور والمفاسد ، فكانت الاحتفال بشهر الصوم والعيدين الصغير والكبير ، وإمارة الحج والكسوة الشريفة ، والمولد النبوى ، ومولد السيدة زينب ، ومولد السيد على البكرى ، ومولد الحسين ، والاحتفال بوفاء النيل ، وعلاوة على ذلك احتفل الفرنسيون بعيد جمهوريتهم كما أكثروا من إقامة الزينات فى كل مناسبة ، فاحتفلوا بذكرى واقعة ريفولى وعند رجوعهم من حملة الشام ، ونظموا مهرجانات عدة كلما عمد « مخترعهم » كونتية إلى إطلاق « بالونة » فى الجو ، وعملوا « شنكًا » وضربوا مدافع كثيرة كلما أتتهم الأخبار بانتصار بونابرت فى حملة الشام أو وصلت إحدى سفنهم إلى الشواطىء المصرية [١].

ونجم عن شدة اشتياقهم إلى خلق هذه العاصمة المرحة أو باريس الصغيرة على حد قولهم ، أو القاهرة الخليعة - على نحو ما اعتقد الشيخ الجبرتى ونظراؤه ولاشك من عقلاء المصريين - أنه لم يمض زمن طويل على وجودهم بالقاهرة حتى كانت القهاوى والمطاعم (ذات الموائد والكراسى على الطراز الفرنسى ، بدلاً من الجلوس على المصاطب أو المقاعد الحجرية) ثم (مشارب البيرة) - أو (البارات) قد أنشئت فى أحياء القاهرة وفتحت أبوابها تستقبل الفرنسيين ومن سار سيرتهم من أفراد الطوائف التى رحبت بهذا النوع الجديد من الحياة . وافتتح أحد صنائع الفرنسيين (قهوة) فى حى المشهد الحسينى ، يسهر الناس فيها حصة من الليل ويعلو صياحهم ، وصخبهم ، وفضلاً عن ذلك فقد افتتح أحد مشارب البيرة فى أهم الطرق بين القاهرة ومصر العتيقة . وأقيمت فى هذه المشارب والمطاعم حفلات رقص المخاصرة وصدحت الموسيقى ، وكان من علامات التحول الجديد التى سر لها الفرنسيون كثرة اللافتات التى وضعها أصحاب المحلات التجارية وغيرها على محالهم ، وكانت الكتابات التى على اللافتات باللغة الفرنسية [٢].

وأقام الفرنسيون مسرحًا لتمثيل الروايات « الكوميدية والتراجيدية والأوبراكوميك » ، وصادفتهم كذلك فى مبدأ الأمر صعوبة العثور على الممثلات ، فصار الرجال يتزيون بزى النساء ، ويقومون بأدوار السيدات فى هذه التمثيليات واستمر الحال على ذلك فترة من الزمن

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٥٥٦ .
(٢) نفسه ، ص ٥٧١ .

حتى رضيت بعض الفرنسيات الاشتراك فى التمثيل ، وقد ظل هذا المسرح قائماً حتى أواخر الحملة الفرنسية (١).

وكان تأثير الحملة الفرنسية على مصر كبيراً من وجهة النظر الاقتصادية ، ذلك أن مجىء الحملة إلى مصر أدى إلى قيام الأسطول البريطانى بفرض الحصار على السواحل المصرية ، الأمر الذى أدى إلى منع الاستيراد والتصدير بطريقة شبه كاملة من ناحية البحر ، رغم استمرار العلاقات التجارية مع الأقاليم المجاورة بطريق البر ، وإن كانت هذه المبادلات البرية قد انخفضت فى قيمتها كذلك بدرجة محسوسة نتيجة لتغيير الوضعية العامة فى البلاد ، ولاستمرار العمليات العسكرية . ولاشك فى أن هذا العامل قد أثر على التجار ، وبشكل جعلها تعيش فى أزمة حادة ، وجعل التجار ينظرون إلى هذه الفترة على أنها فترة بلاء(٢).

وكان الفرنسيون قد حضروا إلى مصر ، وهم يحملون بثرواتها ، وبالمغانم الكثيرة التى سيحصلون عليها من البلاد . وجاء انتقال الحملة عن فرنسا ، بعد موقعة أبى قير البحرية ، عاملاً يدفع المصريين إلى ضرورة الحصول على مايلزمهم من أموال من المصريين أنفسهم ، وأخذ ذلك شكل الغرامات والضرائب والإتاوات ، حتى تتمكن الحملة من الانفاق على نفسها . ومع استمرار الحملة فى مصر ، زاد احتياجها للأموال ، وزاد احتياجها إلى انتهاز كل فرصة لفرض الإتاوات . وكانت الثورات ذريعة لكى يضاعف الفرنسيون الضرائب ، بفرضهم غرامات حربية جديدة على الأهالى . وقد أدى ذلك ، سياسيًا ، إلى تذمر التجار والملاك من الفرنسيين ، ولكنه أدى من وجهة النظر الاقتصادية ، إلى تقليل سيولة رأس المال الموجود فى أيدى التجار، وخوف الأهالى من إظهار مالديهم من أموال ، الأمر الذى انتهى إلى ركود الأموال ، أى إلى ضائقة مالية يقاسى منها كل المصريين .

وكانت الحملة الفرنسية تمثل ، من وجهة النظر الاقتصادية ، قوة تمكنت فى بلادها من توجيه ضربة قوية إلى النظام الإقطاعى ، وتمهد الطريق أمام سيطرة الطبقة الوسطى ، أى الطبقة الرأسمالية ، وكان مجيئها لمصر يحمل هذا المعنى ، ويرسم لها القوى التى كان من الواجب عليها أن تعاديها ، والقوى التى كان عليها أن تتعايش معها ، حتى تتمكن من أن

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٥٧٢ - ٥٧٣ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ١٥١٧ - ١٨٠٥م ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٥٢٦ .

تتكامل معها ، أو أن تقوم بعملية استغلالها ، وفى هذا النطاق ، نجد أن الحملة الفرنسية قد نظرت إلى المماليك نظرة عداء ، وهو عداء حقيقى ، من وجهة النظر الاقتصادية ، إذ أن تنظيمهم لحكم مصر واستغلالها كان يقرب من النظام الإقطاعى ، حتى وإن كان نظامًا إقطاعيًا التزاميًا ، عن قربه إلى النظام الحر ، النظام الرأسمالى ، الذى تسود فيه الطبقة الوسطى[1] .

وعملت الحملة الفرنسية على أن تمول نفسها فى مصر عن طريق الضرائب ، وإن كانت قد فرضتها بطريق مباشر ، وفى شكل غرامات أو إتاوات ، وكان هذا النظام يقرب فى أسسه من نظام التمويل الرأسمالى ، وإن كانت قد احتفظت ببعض الأسس السابقة ، واستعانت ببعض العناصر المملوكية . وفى هذا التسلسل نجد أن الجنرال منو قد فكر فى ضرورة وضع نظام ضرائبى جديد للبلاد ، ترتبط فيه الضرائب بالأرض ، وتدفع مباشرة إلى خزانة الدولة ، دون وساطة الدولة أو صاحب الالتزام . ولو نفذ هذا المشروع لكان ضربة قوية تصيب النظام القديم فى أهم أساس من أسسه ، وهو الأساس الاقتصادى ، وتؤدى بالتالى إلى إضعاف نفوذ السادة فى مناطق الإنتاج الزراعى ، وإلى القضاء على سطوتهم [2].

وعلينا أن نذكر أن مجىء ٣٦,٠٠٠ مقاتل إلى مصر ، قد خلق سوقًا جديدة ، لإشباع ما يحتاجه هؤلاء الرجال من سلع وخدمات ، ودفع بعض المصريين ، حتى وإن كان أكثرهم من النصارى والشوام والأقباط ، إلى النزول إلى هذا المجال ، وإلى فتح المطاعم ودور السهر واللهو ، وتقديم كا يلزم من خدمات ، وكان هذا تطوراً لبعض قطاعات الاقتصاد الموجودة فى مصر فى ذلك الوقت ، وحتى إذا كانت الحملة الفرنسية قد امتصت جزءاً من رأسمال المصريين السائل بالضرائب والإتاوات ، فإنها عادت إلى إنفاق جزء منه على مايلزمها فى نفس البلد ، وأدى ذلك إلى تغلغل اقتصادى ، وإلى حركة إلى أعلى وإلى أسفل بين أصحاب رؤوس الأموال ، وارتفاع البعض ، وهم من يتعاملون مع الفرنسيين ويقدمون لهم الخدمات ، وإلى انخفاض البعض الآخر ، وهم من كانوا يصرون على التعامل فى نفس نطاق نشاطهم ، وهى حركة ستبدأ من هذا العصر ، وتؤثر على توزيع رؤوس الأموال فى السوق خلال فترات

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢٧ .

الاحتلال التى ستشهدها مصر فى تاريخها الحديث . وشهدت القاهرة حركة نشاط واضح فى ذلك الوقت فى كل ما يتعلق بتسلية جنود الاحتلال ، وانتشرت فيها ظاهرة ركوب الخيل والبغال والحمير ، التى أعجب بها الفرنسيون ، أو استخدموها وسيلة للتسلية بدلاً من الملل فى شوارع القاهرة[١] .

ولقد شعر المصريون بشراهية الفرنسيين فى جمع الأموال منهم ، الأمر الذى أدى إلى تحول التجار إلى مجموعات معادية للحكم الأجنبى . ورغم خوف التجار من الفوضى ومن الاضطرابات ، فإنهم قد شاركوا العناصر الوطنية فى الثورة على الحكم الأجنبى ، وأسهموا فى تمويل هذه الثورة ، والإنفاق على الثائرين . وهذا الضغط الفرنسى من أجل المال سيدفع بالتجار إلى الضجيج والشكوى ، وإلى شعورهم بأنهم أصحاب مصلحة ، عليهم أن يدافعوا عنها ، حتى لايكلفوا ما لاطاقة لهم به ، وأدى ذلك إلى انصهارهم ، مع بقية قطاعات المجتمع ، فى اتخاذ موقف معادى للحملة الفرنسية ، واتخاذ مكانهم القومى فى مواجهة قوات احتلال أجنبى .

ولم تسمح الفترة القصيرة التى بقيتها الحملة الفرنسية فى مصر بإنشاء مشروعات اقتصادية جديدة لها أهميتها بالنسبة للبلاد . حقيقة أن الحملة قد شعرت بأن عليها أن تعتمد على نفسها ، وعلى البلاد ، وبخاصة بعد معركة أبى قير البحرية ، ولكن انشغال بونابرت فى حرب الشام ثم اضطراره إلى العودة إلى فرنسا ، وتولى كليبر قيادة الحملة من بعده ، وكان من أنصار الجلاء عن مصر ، كل ذلك لم يسمح للحملة الفرنسية بوضع أسس لنشاط اقتصادى له قيمته من الناحية الإنتاجية فى ذلك الوقت . وتغير الحال بعد تولى منو الحكم ، وكان من أنصار البقاء فى مصر ، والاحتفاظ بها كمستعمرة فرنسية . ولكن ظروفه الخاصة وعلاقته بغيره من القواد ، وخوفه من المصريين من تعليم المصريين أسرار الصناعة ، حرم الحملة من أن تقوم بتجربة لصنع مايلزمها فى مصر ، وحرم مصر بالتالى من مشاهدة مثل هذه التجربة ، التى كانت ستفيد منها بلاشك[٢] .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٢٨ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢٨ - ٥٢٩ .

وبالإجمال فإن الحملة الفرنسية على مصر، قد عملت على هز وقلقلة النظام الاقتصادى الموجود في البلاد ، وساعدت على هدمه دون أن تتمكن من وضع أسس لبنيان اقتصادى جديد، وساعد ذلك على سيادة الفوضى والاضطراب وتسهيل عمل من يأتى بعدها.

أما النتائج العلمية فقد قام علماء الحملة من علماء النبات والكيميائيين والمهندسين والجغرافيين والرسامين والجراحين والمستشرقين والأدباء والفنانيين والميكانيكيين والاقتصاديين وكبار القواد العسكريين من أعضاء المجمع العلمى المصرى، وكان كل هؤلاء من أعضاء لجنة العلوم والفنون أو المجمع العلمى الذى انشأه بونابرت فى القاهرة.[١]

إن بونابرت ، قد حرص على أن يصحب معه علماء ومهندسين ، ومبرراته لذلك عديدة . فالتعلق النزيه الذى يبديه تجاه العلوم يعود عليه بقدر كبير من العطف من جانب جماعة الإيدلوجيين البالغة الأهمية ومع رغبة الفاتح فى الهيمنة على العالم، تتطابق فى مجال العلوم رغبة، توحيد كافة المعارف فى معرفة موحدة ومجد الرجل العظيم «إنما يستند أيضًا إلى العلماء والفنانين والكتاب الذين يحشدهم حوله، والحال أن بونابرت يريد أن يقدم نفسه ، اعتماداً على قوة المفاهيم الجديدة ، بوصفه البطل نصير الحضارة بامتياز. وبرنامجه الخاص بالحضارة التى تواصل مسيرتها إنما يتأسس على الفكرة المستعادة بلا ملل والتى تتمثل فى أن حملة مصر تشكل عودة العلوم والفنون إلى وطنها الأصلى . والعمل الذى يتوجب الاضطلاع به كان قد تم تحديده فى الانسيكلوبيديا نفسها فى مادتها عن «مصر» لقد كانت فى الزمن الغابر بلداً يستحق الإعجاب وهى اليوم بلد يستحق الدراسة فى هذا المشروع، فإنه يجد عونًا قويًا من كافاريللى، الذى يبدو فى أعين الجمهور بوصفه أحد ملهمى هذا المشروع المثير [٢].

وفى باريس ينشغل بونابرت بكل شئ ، فهو مهموم باختيار الضباط كما باختيار العلماء. والاهتمام الذى تستسيره الحملة، التى يظل هدفًا لغزاً ، هو اهتمام عظيم. لكن الخيار الذى يتجه إليه ، يتميز أيضًا باعتبارات سياسية : ففى هذا المجتمع جد الممزق ، مجتمع فرنسا التى تحكمها حكومة الإدارة ، يقترح بالفعل صيغة وحدة قومية حول شخصه. والجانب

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص٥٢٩ .

(٢) هنرى لورنس، شارك جيليسى، جان كلود جولفان كلود تزونيكر، الحملة الفرنسية فى مصر، ترجمة بشير السباعى، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، الطبعة الأولى، ص٣٨ .=

الرئيسى من التجنيد يتألف بوجه خاص من مهندسين شبان ، خاصة خريجى المدرسة الهندسية حديثة الانشاء ، بالرغم من وجود جنود مخضرمين متفانين بواسل مثل مونج أو دولومير.

وسوف تتمثل مهمة العلماء فى توحيد جمع المعلومات المتوافرة عن مصر. وهذا العمل الضخم ، وهو رصد للأحوال الغابرة والحاضرة على شكل بيان وتبيان للتحولات التى يجب الاضطلاع بها، سوف يصبح ذلك الصنف الرائع الذى يحمل عنوان «وصف مصر»[١].

هذا التفاؤل يعاود الظهور فى قيام بونابرت بانشاء المعهد (المجمع العلمى) المصرى فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ وهدف هذه المؤسسة يتطابق تمامًا مع فلسفة الأيديولوجين ، فهو معهد «للعلوم والفنون» يهدف إلى [٢]:

١- ترقية ونشر الأنوار فى مصر .

٢- بحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر.

(٣) ابداء رأيه حول مختلف المسائل التى تستشيره فيها الحكومة.

= يجعل ميشيليه من كافاريللى المسئول الرئيسى عن الجانب العلمى للحملة : «إنه هذه الآلة العظيمة قد جزت ليس عن طريق أنتان، فى بيت جوزفين الصغير، بشارع شانتريان، بل فى باريس الضفة اليسرى، الأقل شرودا بكثير والأوسع خيالا .

وعلى رأس كل ذلك ومن أجل بث الثقة كان هناك (وعو شئ نادر) كان هناك رجل كافاريللى، وهو رجل محب، وهب حبه للناس .

إن شهادة تيبودو لها دالتها:

«لقد اتخذ بونابرت موقف الكاهن الأكبر الذى يملك وحده مفتاح سر عميق؛ ومارس هيمنة عظيمة على كل ما يتعلق بالحملة. وبالنسبة له، لم يكن هناك فرق بين جمهورى أى ملكى، ارستقراطى أو يعقوبى، شريطة أن يتسنى استخدامهم جميعًا فى تحقيق أهدافه .

«لقد جند الجنرال بونابرت من كل حدب وصوب ضباطًا وجنوداً ، علماء وأدباء ، عمالا وفنانيين، وحشد معدات وأدوات وكتبًا آلات، ونماذج ؛ والواقع أنه بدا بكل هذه الاستنادات كما لو كان يتجه فى صورة كولمبوس جديد، إلى اكتشاف عالم وإلى نقل الحضارة إليه . وقد تجمع كل ذلك فى طولون؛ وكان عليه القول إن باريس سوف تهاجر إلى البحر المتوسط. وبالرغم من كل جهاز الحرب، فقد جرى الرحيل كما لو كان إلى نزهة استمتاع وكان الأمر أشبه بمهرجان ؛ وكان عند أولئك الذين اشتركوا فيها حماسة جد مختلفة عن تلك التى تسبق المعارك، ولم يكن دينون يتحدث إلا عن الراقصات الشرقيات، وعن صفو السماء وعن العطور التى تفوح بها أرض الميعاد (انظر ، المرجع السابق، ص٧٠ هامش ٣٥) .

(٢) هنرى لورانس وآخرون، المرجع السابق، ص١٩٨ ، ١٩٩ .

وهو ينقسم إلى أربع شعب (الرياضيات، الاقتصاد السياسى، الآداب والفنون) من اثنى عشر عضوا وسوف تعقد جلستان عموميتان كل عشرة أيام ومن بين المذكرات التى تتلى فى هذه الاجتماعات سوف يجرى نشر المذكرات التى تعتبر أكثر أهمية؛ وأخيراً «فسوف يقدم المعهد كل سنة جائزتين الأولى لموضوع يتصل بتقدم الحضارة المصرية والثانية لموضوع يتصل بتقدم الصناعة.

ويجرى تعيين ستة وثلاثين عضوا للمعهد. وهم أهم شخصيات لجنة العلوم والفنون . والحال أن الأوقات الأولى لإقامة العلماء لم تك جد سعيدة وذلك بسبب الضروريات العسكرية التى دفعت المسئولين إلى مراعاة الأمور الأكثر الحاحًا ، وإهمال الكوادر المدنية . وكان العلماء قد تركوا فى البداية لشأنهم فى الاسكندرية ورشيد إذ أنهم قد رافقوا الأسطول الصغير على النيل ، الأمر الذى عاد عليهم بمحن معارك أكثر قسوة من محن الجيش البرى. وبوجه عام فإن رواتبهم لم تك تدفع. وقد قدم بعضهم مثل كونتيه فى الاسكندرية خدمات جد نافعة لسلاح المهندسين ولسلاح المدفعية . وتجمعهم فى القاهرة وانشاء المعهد يشيران بوضوح إلى أن الاستقرار يبدو الآن بشكل راسخ [١].

وتعقد الجلسة الأولى فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ . ويجرى انتخاب مونج رئيسًا وبونابرت نائبًا للرئيس وفورييه أمينًا دائمًا . وينشر تقرير عمل الجلسة فى العدد الأول من صحيفة المعهد، لاديكاد ايجيسان، والمسائل الواردة فى جدول الأعمال هى بالدرجة الأولى مسائل عملية: تحسين الأفران التى يستخدمها الجيش ، إيجاد بديل لحشيشة الدينار فى صنع البيرة ، تنقية مياه النيل، الاختيار بين طواحين الهواء أو طواحين الماء فى القاهرة ، موارد إنتاج البارود ولكن المشروع التمدينى مائل أيضًا «ما هى فى مصر حالة القضاء ، والنظام القضائى المدنى والجنائى، والتعليم؟ ما هى التحسينات الممكنة فى هذه المجالات والمرغوب فيها من جانب أهل البلد؟

وسوف تكون تلك هى الأسئلة المطروحة على ديوان القاهرة ، ومن جهة أخرى، فإن عدداً من أعضاء المعهد سوف يتولون مهام موفدين إلى الديوان . والحال أن رئيس تحرير الصحيفة ، وهو تاليان على الأرجح ، يختتم هذا العدد باستدعاء الفكرة الأيديولوجية الرئيسية المهيمنة على الحملة:-

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق، ص١٩٩ .

«إن أوروبا المثقفة لايمكنها أن تنظر بلا مبالاة إلى قوة العلوم المطبقة على بلد إعادتها إليه الحكمة المسلحة وحب الإنسانية ، بعد أن نفتها منه لزمن طويل روح البربرية والهوس الديني»[١].

في ٢٩ أغسطس يستكمل بونابرت العدة باصدار صحيفة خاصة بالجيش، هي لوركييه دوليجيت وهي تواصل تقاليد صحيفتي حملة ايطاليا لوكورييه ديتالي ولافرانس ڤودولارمييه ديتالي. ويتوجب عليها أن أداة دعاية وسط جيش يشعر بالفعل بأن وجوده في مصر هو نفي يستحقه . وفي البداية يتحمل مسئولية النشر شخص مستقل ، هو مارك آوريل ، وهو صديق للقائد العام منذ اقامته في فالينس قبل الثورة . والمحرران ليسا غير ڤينتور ذوبارادي وسكرتير بونابرت ، بوريان والصحيفة رسمية تقدم المعلومات بما يتمشى مع آراء القائد العام.

وهكذا يجري التذكير بمسلك بروى البطولي في أبوقير ، حتى يتسنى بعد ذلك على نحو أفضل القاء مسئولية الهزيمة على كاهله . ويجري الحديث عن النجاحات الباهرة للانتفاضة الايرلندية ضد السيطرة الانجليزية . ويجري اختراع رسالة منسوبة إلى بحار إنجليزي وأرسلت إلى مصر عن طريق تونس: حيث يجري التهوين من شأن الانتصار الإنجليزي في أبوقير بينما يجري الادعاء بأن فتح مصر قد جعل من البحر المتوسط بحيرة فرنسية وربما أكثر من ذلك[٢].

«لقد أصبحت مصر بشكل حاسم تحت هيمنة الفرنسيين الذين يمكنهم في غضون خمسين يوما تلقي الرد على رسائلهم المرسلة إلى الهند، أنهم سوف يعززون أمل أنصارهم، ويستثيرون سخط أعدائهم ، وسوف يجتذبون كل التجارة عبر السويس، ولكن ماذا أقول؟ من يدري الآن أين هم بالفعل؟ ولماذا لايصنع هذا الجيش الذي اجتاز الألب الجوليانية والسوداء ، وهي طريق غير معروفة في التاريخ الحديث، لكي ينقض على قلب المانيا ما صنعته المقدونيون والرومان، وإذا ما وصل مجرد ظل هذا الجيش،غير المقهور حتى الآن، إلى هناك ، فما هو مصير القوة الإنجليزية ... أنها ستصبح أثراً بعد عين»[٣].

ويشكل المعهد العلمي المصري مركزاً للتقارير حول مختلف الأمراض في البلاد وينشر التعليمات من أجل منع هذه العلل وعلاجها . وهذا جزء من نشاطاته ، التي لم تكد تتوقف

---

(١) هنري لورنس ، المرجع السابق، ص١٩٩ .

(٢) المرجع السابق، ص١٩٩، ٢٠٠ .

(٣) نفسه، ص٢٠٠ .

من جراء ثورة القاهرة ، الذى كان قد تسبب مع ذلك فى فقدان عديد من الآلات العلمية[١]، ويجرى تكثيف رحلات التنقيب عن الآثار فى أثر الجنود الذين يقومون بالغزو . كما تجرى دراسة الزراعة والحرف المصرية بهدف تسجيلى ونفعى فى آن واحد فالاهتمام باستقلال أكثر عقلانية ماثل باستمرار. وهكذا يقترح المعهد انشاء حديقة للنباتات مكرسة للمحاصيل الكولونيالية (القطن ، البن، النيلة، قصب السكر... الخ)تحت اشراف مستوطنين سابقين فى سانتو دومنجو وسوف تكون بمثابة مدرسة زراعية بالنسبة للمصريين.

إلا أنه لايجرى الاهتمام إلا بالأشياء . وكان ديچينيت قد ارتأى تنظيم خدمة طبية بالنسبة للمصريين، وسعياً إلى احتواء تحفظاتهم تجاه المنشآت الأوربية ، فإنه يرى وزملاؤه التحرك عبر المؤسسات الخيرية الاسلامية. وقد أدت هذه الأخيرة والتى أعاد الفرنسيون تنظيمها ، إلى تعويد السكان على الطب الجديد . وهو يؤكد بشكل خاص على ضرورة انشاء مدرسة للحكيمات ونشر التطعيم. كما أن الملاجئ سوف تصبح مراكز لتعليم ونشر اللغة الفرنسية . وتهيئ لهذا التعليم أنواع من المدارس الأولية. على أن غياب الامكانات المالية يحول دون تحقيق هذا المشروع الذى لن يتجسد إلا بعد ثلاثين سنة فى عهد محمد على [٢].

والمعهد هو أداة الحضارة بامتياز . ومكتبته ومعامله مفتوحة للمصريين الذين يجرى استقبالهم بأقصى حد من الحفاوة. وقد زاره الجبرتى عدة مرات وتفتنه المكتبة التى تسمح بالوقوف على جميع العلوم. ويحوز الفرنسيون صوراً تمثل عديداً من الموضوعات من النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وأماكن الإسلام المقدسة إلى الأدوات التقنية وإلى اللوحات النباتية والتشريحية. وهم يجرون تجارب علمية أمام زائريهم ، دون أن يترددوا فى التأثير عليهم بتلاعبات على الكهرباء . إلا أنه إذا كان العلماء ، يعتبرون ذلك كله، محقين غير عادى ، فإنه بالنسبة لهم ليس غير نتاج العقل الذى يعتبر، فى ترتيب المعرفة، أدنى منزلة من الوحى. وهكذا فإنه الشيخ المهدى، عند حضوره مناقشة فى المعهد حول أسماك النيل، يطلب الكلمة لكى يقول : «إن النبى صلى الله عليه وسلم قد أعلن أن هناك ٣٠٠٠٠

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨م، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج٣ ، ص٥١ .

(٢) هنرى لورنس، المرجع السابق، ص٢٩٦-٢٩٧ .

نوع من المخلوقات ١٠٠٠٠ على الأرض وفى السماوات و ٢٠٠٠٠ فى الماء ». ومن ثم فإنه لايجب التهويل من شأن وقع العلوم الأوروبية، فى عصر كانت الثقافة الاسلامية التقليدية ما تزال مسيطرة فيه سيطرة تامة[١].

ولايهمل المعهد الثقافة العربية . ويعرض مارسيل فى خطوط عريضة أشكال الأدب العربى ترجمة للسورة الاستهلالية للقرآن العظيم (الفاتحة) ، مقتطف من كتابات الجغرافيون العرب عن مصر، لمحة عن الحكايات العربية، وبالنسبة للشعر ، يعرض قصيدة لنقولا الترك حول فتح مصر مهداه إلى بونابرت.

الشـــــهـم بونـابـارتــــه   لـبـث الـوغـى والاقــــتــــدار
من فـــاق قـــدراً وارتقـــى   أوج العـــلا وســمـــا الفـــخـــار
نـــدب توحـــد بالـــــورى   بشـــهـــامـــة ذات اعـــتـــبـــار
قـــهـــر المـــالك جـــمـــة   وغـــزا البـــلاد مـــع الديـــار

وهذا المثال يسمح لمارسيل بأن يفسر لزملائه عناصر الكتابة الشعرية العربية . ويبتهج بونابرت بهذا النص الذى يفكر فى إحدى اللحظات فى نشره مستقبلا ليتم توزيعه فى الشرق كله.

والحال أن مارسيل ، المستشرق والمثقف، وصديق نقولا الترك والمهدى، هو أيضًا مدير المطبعة الوطنية التى تنشر صحيفتى الحملة والبيانات الرسمية والأوامر اليومية واللوائح التنظيمية والتنبيهات الطبية . وهو يقوم بتشغيل أول مطابع بالعربية وبالفرنسية تقام فى القاهرة، ويدرب فى هذه المهنة متدربين مصريين من الشباب .

وهكذا فإن الطباعة هى من عمل الفرنسيين فى مصر فى حين أنها من عمل الحكومة العثمانية فى استانبول ومن عمل الرهبان المسيحيين فى جبل لبنان . وعودة الطباعة إلى الظهور فى عهد محمد على سوف تكون نتاج هذه المؤثرات[٢].

كما يشهد العلم استخدام المناطيد استخدامات سياسية له. ويريد بونابرت التأثير على المصريين باطلاق منطاد فى ساحة الأزبكية (٣ نوفمبر ١٧٩٨) ويعلو المنطاد لبضع دقائق إلا أنه بسبب خلل فنى يسقط على الأرض. وبالنسبة للجبرتى فإن هذه المعجزة التى يجرى القيام

---

(١) هنرى ولرنس وآخرون، المرجع السابق، ص٢٩٧ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون، المرجع السابق، ص٢٩٧ ، ٢٩٨ .

بها على الملأ ليست أكثر من الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح . ويجرى استئناف التجربة فى ١٦ يناير ١٧٩٩، حيث يقطع المنطاد شوطًا أبعد لكن يسقط على الأرض فى مدى بصر المتفرجين ، وهو ما يلهم الجبرتى هذا التعليق الجديد: «لو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا أنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم»[١].

ويضطر الفرنسيون إلى الاعتراف بالفشل التام لهذه المحاولات : «لقد صدمنا من الانعدام المطلق للفضول من جانب بعض الأفراد ولسنا الوحيدين الذين رصدنا ذلك ، وقد رأينا منهم من يجتازون ساحة الأزبكية دون أن يتكرموا بتوجيه أبصارهم إلى الموقع الذى شد أنظار الجميع [٢].

إذا كان كليبر قد توصل بسرعة بالغة إلى إدراك أن الحملة منيت بالفشل ، فإنه يظل عميق التمسك بمكسبها الأكثر دوامًا ، العمل العلمي، وشأنه فى ذلك شأن ديزيه ورينيه ، فإنه يحب صحبة العلماء وهو لايرجع غيابه فى القائمة الأولى لأعضاء المعهد (المجمع العلمى) إلاّ إلى رفض بونابرت لاشراك قادة الفرق. ويجرى إصلاح هذا الخلل فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ عندما يصبح كليبر وديزيه ورينيه أعضاء في المعهد.

ويتواصل اكتشاف مصر وبعد عودة ڤيڤيان دينون من مصر العليا ، فإن لجنة العلماء يرأسها فورييه وكوستاز، تحل محله للاضلاع بعمل منهجى أكثر، صار ممكنا بفضل التهدئة التى قام بها ديزيه . ويرجع الجانب الرئيسى من الكشوف الأركيولوجية إلى صيف وخريف ١٧٩٩ . والحال أن كليبر قبل تعينه قائداً عامًا ، كان قد وصل به الأمر إلى حد التفكير فى المشاركه فى هذه الأعمال .

وعشية معركة أبوقير البرية، فان القائد بوشار المكلف باجراء تحصينات فى رشيد، يكتشف حجراً يحمل نقشًا ثلاث اللغات ، من بينها الهيروغليفية والحروف اليونانية . وقد أدرك العلماء على الفور أهمية هذا الحجر الذى عثر عليه فى رشيد، ويخطو ريج ومومارسيل خطوة كبرى أولى فى فك لغز الحجر بتوضيحها أن الكتابة الثالثة التى يشار إليها على أنها «غير معروفة» هى المصرية القديمة المكتوبة بحروف عادية سريعة[٣].

---

(١) هنرى لورنس وآخرون، نفس المرجع السابق، ص٢٩٨ .

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٨، ٢٩٩ .

(٣) نفسه ، ص٤٣٧- ٤٣٨ .

ويهتم فورييه بالشاب إبراهيم الصباغ ، حفيد ضاهر العمر والذى يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا . وكان كافاريللى قد تعلق به وبدأ فى تعليمه اللغة الفرنسية والجغرافيا والرسم. وهو يعمل كأمين مكتبة مسؤول عن الكتب العربية وكترجمان للعلماء . وكان فورييه ومونج وبيرتولليه قد فكروا فى إرساله إلى فرنسا حتى يستكمل تعليمه . وسوف يوافق كليبر على التصريح له بذلك . والواقع أن الشاب سوف يلحق بالجيش فى فرنسا وسوف يكتب بالعربية تاريخًا لضاهر العمر . ومن المرجح أنه الشاب الشرقى الوحيد الذى تلقى تعليمًا أوروبيا خلال حملة مصر . ولابد من الاشارة إلى أنه كان أيضًا كاثوليكيا يونانيا [١].

ويتمثل أول تجديد كبير من جانب كليبر فى اضافة لجنة جديدة مكلفة بدراسة مصر الحديثة إلى اللجان التى تدرس مصر القديمة. وهذه اللجنة التى تتكون فى ١٩ نوفبر ١٧٩٩م. تتألف بين آخرين من ديجينيت فورييه وتاليان وروزيتى ودوجا. ووجود جميع هؤلاء المقربين إلى كليبر إنما يوضح تمامًا الأهمية التى يوليها لها . إن جميع جوانب مصر الإسلامية وإرادة فى البرنامج : التشريع، الأعراف المدنية والدينية، والإدارة، والشرطة الحكم والتاريخ ، الحالة العسكرية ، التجارة والصناعة، الزراعة، التاريخ الطبيعى للسكان، الآثار النقوش والأزياء ، الجغرافية والهيدروليكا وهدف اللجنة ينم عن اهتمام دقيق من جانب كليبر بالمؤرخين . إن عليها : «اعفاء الأجيال القادمة من البحث، تحت اطلال القرون وفى بحر التخمينات ، عما كانت عليه مصر فى الزمن الذى انتقل فيه الفرنسيون من الملكية إلى الحكم الجمهورى.

ولايسمح كليبر لنفسه بأن تستولى مصر القديمة على جماع فكرة : فهو يفكر فى مشروع عمل علمى ضخم يتناول أيضًا كافة الجوانب الأخرى لمصر، وسوف يشكل العلماء فريقًا تعاونيًا ، أما التاجر هاملان الذى كان كليبر قد استدعاه من مصر العليا - كان بونابرت قد سمح له بشراء الضرائب العينية فى مقابل دفع نقود مباشرة لخزائن الجيش- فانه يتعهد بتقديم الأموال الضرورية للطبع والنشر. ويتخذ القرار التأسيسى فى ٢٢ نوفمبر ١٧٩٩، ويمكن اعتبار أن كليبر هو بالفعل أب هذا الأثر الأدبى الجدير بالاسم الفرنسى، وصف مصر [٢]، وبوسعه أن يكتب بافتخار فى ٨ يناير ١٨٠٠ إلى حكومة لادارة .

---

(١) هنرى لورنس وآخرون، المرجع السابق، ص٤٣٨ .

(٢) المرجع السابق، ص٤٣٨، ٤٣٩ إن هؤلاء السادة (العلماء) الذين انهالت عليهم الغنيمة التى كانوا معتزين بها عن حق، كانوا يجبون فى حذر متواصل أحدهم من الآخر وكانوا =

لقد جرى اعطاء اهتمام خاص لوصف مصر القديمة . والحال أن الخرائط الطوبوغرافية والرسوم التصويرية والخرائط ورسوم العمارة سوف توضح هذه الآثار لأوروبا؛ وترتبط بذلك بحوث جد مسهبة عن التاريخ وعلم الفلك والفنون وعادات المصريين القدماء . وقد طلبت جميع كل أجزاء هذا العمل الأخير المتميز بطبيعة الحال عن الملاحظات الخاصة بمصر الحديثة. إن رجال الأدب والفنانين الذين يملكون هذه المجموعة مستعدون لأن يجعلوا عملهم متاحًا للجميع تحت إشراف الحكومة، وهم يجدون ، فى الاتحاد الذى شكلوه، امكانات التكفل بنفقات النشر، وهذا المشروع الأدبى الذى سوف ترحب به كل حكومات أوروبا سوف يكون محل تقدير أكبر بكثير فى بلد تشجع فيه الحرية جميع الفنون، والكتاب الذين يؤلفون هذا العمل التجميعى إنما يتطلعون إلى شرف منح عملهم طابعًا قوميًا، وهم يعرضون مشروعهم عليهم بشكل محدد.

إن الأبحاث المتعلقة بالحالة الراهنة والحديثة لمصر إنما تقدم موضوعا مهمًا للفلسفة وللسياسة فالقوانين والعادات والتاريخ والحكم والصناعة والتجارة وإيرادات هذا البلد تستحق دراية أشمل بها لايمكن انتظارها من الرحالة الفرنسيين أو الأجانب الذين سبقوهم ، وقد جمعت الأشخاص الذين دوا إلى أكثر ملائمة للتنافس فى هذا العمل ومنحتهم كل السلطة والإمكانات التى يحتاجون إليها[1].

وواقع الأمر أن ميادين نشاط هؤلاء العلماء كانت متعددة وطفقوا يدرسون آثار مصر القديمة وتاريخها وطبيعة أرضها وأجناسها ، وحيواناتها وطيورها وغلاتها الزراعية وصناعاتها وتجارتها وعادات أهلها، وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والجيولوجية ، وكل ما يتعلق بماض البلاد وحاضرها . واستطاع لوبير

= يرفضون تبادل بحوثهم فيما بينهم ، وقد قال لهم فورييه دون طائل إن هذه الأعمال المبعثرة لاتصعد للنشر وأن من الضرورى جمعها وتنسيقها حتى يتسنى تحويلها إلى هيكل عمل كبير عن مصر. والحال أن الجنرال كليبر الذى كان يرى الرأى نفسه قد جمعهم عدة مرات عنده دون أن يتمكن من التوصل إلى شئ حاسم؛ وفى نهاية الأمر، خطر له أن يقترح عليهم أن يكون ناشراً لهذا العمل المهم. وقد وافقوا على ذلك، وأرسل الجنرال فى طلبه . وجرى الاتفاق على عقد اتفاق يدخل فيه واحد من زاوية أهمية ومساحة أعماله. وكان هذا التقييم هو النقطة الأصعب . إلا أنه بفضل قوة كلام الجنرال ، أمكن التغلب عليه ، وقد تعهد - هاملان- بتقديم الأموال اللازمة وخصص لكل واحد جزء من الأرباح فى فرنسا . وقد وقع الجميع على هذا الاتفاق كما وقع عليه (نقلا عن هنرى لورانس وآخرن، المرجع السابق، ص٥٧١٢ هامش ٣٧) .

(١) هنرى لورنس وآخرون، المرجع السابق، ص٤٣٩ .

الأكبر ومساعدوه أن يضعوا خريطة دقيقة لها ، وكذلك حقق نوت وكورابوف مواضع أهم جوامع القاهرة وضواحيها ، وتمكن المذكورين الذين زاروا الأقاليم الشرقية من الوجه البحرى أن يحققوا مواقع دمياط وبلبيس والسويس والصالحية، ورسم الضابط سوهيت مجرى النيل من القاهرة إلى العطف واستكشف جيوفرى سنت هيلير الطريق بين القاهرة والصالحية وجزءاً من الطريق بعد الصالحية إلى الشام. كما استطاع أن يجمع فى أثناء رحلاته العديدة مجموعة من الحيوانات والطيور واهتم فضلاً بدلاً الحيوانات التى حفظها قدماء المصريين كالتمساح والثعابين والطيور ، وذلك عدا الأجسام البشرية التى عثر عليها فى طيبة وسقارة[1].

لقد أسهمت إقامة الفرنسيين فى مصر إسهامًا كبيراً فى توسيع مجال العلوم كلها ». إن لجنة العلوم والفنون ، وهى أول لجنة من نوعها على الإطلاق تشهد ضمها إلى حملة عسكرية، كانت تضم فى البداية نحو ١٥١ عضواً ، كان ٨٤ منهم يتمتعون بتكوين تغنى وكان عشرة منهم من الأطباء ، والحال أن المعهد (المجمع العلمى) المصرى، وهو مثيل فيما وراء البحار للمعهد الفرنسى، قد افتتح جلساته فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ . وخلال السنوات الثلاث التى دام الاحتلال فيها، وعى إلى المشاركة ، فى المعهد ما مجموعه ٥١ عضواً . ومن بين هذا العدد التحق ٢٦ عضواً بهذه الشعبة أو تلك من الشعبتين العلميتين أى شعبة الرياضيات وشعبة الفيزياء، وكانت الشعبتان المكونتان الأخريان هما شعبة الاقتصاد السياسى وشعبة الآداب والفنون[2].

وكان على المعهد أن يجتمع عند الحاجة ، وقد عقد ٦٢ جلسة ، انعقدت الجلسة الأخيرة من بينها ٢٢ مارس ١٨٠١ . وكان الرئيس الأول للجنة هو مونج ، أما النائب الأول لرئيس اللجنة فهو بونابرت ، وقد انتخب الإثنان معا لمدة ولاية من ثلاثة أشهر . وكان فورييه هو السكرتير الدائم للجنة من البداية إلى النهاية . وقد نظمت أعمال اللجنة وفق القواعد التنظيمية لأعمال الأكاديميات الفرنسية. وتمت تلاوة مذكرات أو جرى تقديمها مكتوبة ، وشكلت هيئة مراقبين مكلفة بتقديم تقرير عن هذه الأبحاث، وكان بوسع الحكومة - هى فى هذه الحالة، السلطة العسكرية - أن تطلب رأى المعهد حول مشكلات معينة ؛ وفى كل مرة كان يعهد بهذه المهام، وكذلك بنشاطات مختلفة إلى لجان مشكلة لهذا الغرض [3].

---

(١) نفسه، ص٦٢٦ .

(٢) شارل سى. جيلسبى ، الجوانب العلمية لحملة مصر [١٧٩٨-١٨٠١] ضمن كتاب هنرى لورانس الحملة الفرنسية على مصر، نابليون والإسلام ، ص٧٠١ .

(٣) شارل سى . جيليسى، الجوانب العلمية لحملة مصر، ص٧٠٢ .

ونشرت بحوث المعهد وأعيد نشرها فى غالبيتها، فيما بعد فى المجلدات الأربعة التى صدرت تحت عنوان «مذكرات حول مصر» فى باريس، عن دار نشر ب- ديدور من الكتابات التى لم تتمكن من نشرها صحيفة لايكادايجيبسيان التى توقفت عن الصدور فى عام ١٨٠٠ وقد ظهرت بعض المذكرات أيضًا فى نشرات علمية محكمة، وكتب عدد من أفراد الحملة كتبًا عما شاهدوه وعما وقفوا عليه من معارف، وهذا هو حال ديجينيت، الذى نشر كتابه «التاريخ الطبى لجيش الشرق ١٨٠٢. أما العمل الأشهر فى هذا الباب، فلايزال هو عمل ڤيڤان رينون» رحلة فى مصر السفلى والعليا ١٨٠٢. وأخيراً، الكتاب الضخم «وصف مصر» الذى ظهر من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨٢٨، مؤلفًا من «المقدمة التاريخية» التى كتبها فورييه ومن الأطالس الثلاثة التى تضم ولحات والتى نشرت فى عشرة مجلدات، ومن المجلدات التسعة التى تتضمن النص المكتوب، والموزعة كلها إلى ثلاث أقسام، العصور القديمة «والحالة الحديثة» والتاريخ الطبيعى»، الذى يحوى أطلسًا، يضم خريطة طبوغرافية وجغرافية [١].

١- علوم الرياضيات والفيزياء:

والحال أن تحولاً حاسمًا من جهة أخرى هو الذى تمثله فى المسيرة العلمية لكاتبها «ملاحظات» بيرتوليه» حول كربونات الصوديوم».

كان سواد الشعب يرى هؤلاء العلماء يجوبون القرى والمدن يفحصون ويدققون، كان يشاهدهم يفحصون الأرض والماء، والطير والهواء فلايكترث لهم. أما خاصة الشعب فكانوا يدهشون لأعمالهم هذه ويحاولون تفسيرها، فيرجعون إلى علمهم الذى تلقوه بين جدران الأزهر ولكنه لايسعفهم بالحلول المعقولة، فيصمت البعض منهم عجزاً ويقرنها عدوه- كان يعتقد بقصور العلم الذى تعلمه عن إدراك هذه الظوار العلمية الغريبة. ومن ذلك يمكن أن نتعرف إلى أي مدى أثرت الحملة الفرنسية فى عقلية المصرين وثقافتهم وبعبارة أخرى هل نجحت الحملة الفرنسية فى توجيه المصرين وجهة أخرى: نحو تفكير حديث وثقافة حديثة [١]؟

ولم ينجح الفرنسيين فى مصر أكثر من نجاحهم فى اضعاف قوة المماليك وقوة العثمانيين على السواء وإعداد الطريق لظهور قوة جديدة أخذت تعنى بسير الحوادث وترى لها فيها رأيًا. هذه القوة الجديدة هى الشعب المصرى ولو قد وفقٌ هذا الشعب إذ ذاك لزعيم يحسٌ باحساسه

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ص ٢٢-٢٣.

ويشعر بشعوره ، ويمكنه أن يعبِّر عما يجيش فيه من الآلام والآمال، على أن يكون من طراز آخر غير «السيد عمر مكرم» أو المعلم يعقوب لربما تغيَّر تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر.

على أن التأثير الفكرى للحملة الفرنسية يتضح أكثر من ذلك فى طائفة كانت بيئتها الخاصة تمهد لهذا التأثير : كالجبرتى المؤرخ «وحسن العطار» الأديب «وشهاب الدين» الشاعر، وطائفة أخرى نشأت فى كنف الفرنسيين ورعايتهم «كالياس بقطر» القبطى «ونقولا الترك» السورى المولد والنشأة و«المعلم يعقوب» الزعيم القبطى المعروف .

أما الأول «الشيخ عبد الرحمن الجبرتى «فقد نشأ فى بيئة علمية تدرس كغيره - علوم الأزهر ، إلا أنه أخذ عن أبيه بعضًا من أصول الفلك والرياضة ، فلما جاء الفرنسيون مصر، كان قد نضج عقله فاختاروه فى الديوان الذى انشأوه لمعاونتهم فى حكم البلاد ، فكثر اتصاله بهم وسماعه لأحاديقهم وآرائهم، ولما كان الجبرتى مؤرخًا يعلم قيمة الكتب فقد كان يتردد على مكتبتهم ويزور معاملهم، ويعجب بما يجرونه أمامه من العمليات الكيمائية .

كل أولئك ، مضافًا إليه تمرسه بالأشتراك فى أعباء الحكم والسياسة، صقل من قلمه ، فكانت كتابته فى تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقدا لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة، ويقال إن قلمه الناقد هذا قد أوذى به فى حكم محمد على[١].

ولد الشيخ حسن بن محمد العطار سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م من أسرة مغربية الأصل وكان من علماء الأزهر، ثم شيخًا له . لكنه تميَّز عنهم بتلك الرحلات التى قام بها فى كثير من البلاد. كما تميز بروح تجديدية جعلته يدعو دعوة خافتة لأن تتأثر مصر بالحضارة الأوروبية ، وهذه الدعوة الخافتة ؛ هى بمثابة ثورة إذا راعينا ظروف البيئة والزمن .

ثم جاء الفرنسيون مصر وهو شاب عالم صغير ، فخاف على نفسه منهم وهرب ، كما هرب كثيرون من العلماء ، فنزح إلى الصيعد . ثم عاد إلى القاهرة فاتصل بطائفة من رجال الحملة الفرنسية ، يتعلم منهم أشياء من معارفهم ويعلمهم اللغة العربية . ثم سافر بعد ذلك إلى الشام فأقام فيها زمنًا . يتطارح الشعر مع شعرائها ويراسل علماءها ويصف غوطتها ومنازهها.

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ٢٤٢ .

ورحل بعد ذلك إلى الدولة العثمانية فأقام فيها زمنًا طويلاً. وخاصة فى بلدة سكودرة حيث تزوج من أهلها وأعقب ، ولكن عقبه مات ، ثم عاد بعد ذلك إلى مصر وقد زاد علمًا وخبرة ومعرفة . وجلس يدرس التفسير ، فكان العلماء يتركون حلقات غيره، ويتكاثرون على حلقته يستحقون . وقدم فى أيام محمد على رجل من الدروز اسمه بطرس ، وكان ذا علم بالتواريخ والأنساب، والأيام وعلوم العربية ، فتعرَّف إليه الشيخ فكانت بينها صداقة ، ومدح بطرس الشيخ بشئ من الشعر.

وللعطار عدة مؤلفات فى علوم الفقه والنحو والمنطق، ورسائل فى الهندسة والطب والتشريح، والرمل والزايرجه . وكان يرسم بيده المزاول لمعرفة الوقت بالليل والنهار . وأختاره محمد على محرراً للوقائع، أول صدورها، ثم ولاه مشيخة الأزهر فى الرابع من شوال سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م بعد وفاة الشيخ الدمهوجى . وبقى فى المشيخة إلى أن مات فى سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤ م[١].

أما المعلم يعقوب فقد اتجه تفكره إلى وجهة عملية خالف بها «زميليه» اللذين لم يتجاوزا فى تفكيرهما حدود التمنى والانتظار ، أما يعقوب فقد رأى فى الاحتلال الفرنسى بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية . ومن ثم أخذ عهد السبيل لهذه الحياة الجديدة، وكان يرى الاعتماد على القوة الحربية المدربة ، فكون الفرقة القبطية وخرج بها إلى صفوف الفرنسيين يقاتل معهم ويعاون على تثبيت أقدامهم . وبذلك شاركهم يعقوب حياتهم فى السلم وفى الحرب واستمع إلى أحاديثهم وآرائهم فى النظم والتواريخ . ولاشك فى أنه قد كان كله أثره فى اثارة شتى الأفكار فى نفسه، وأخصًها كان يدور حول التمهيد لمستقبل البلاد السياسى وقد عوَّل يعقوب على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية «فكان سباقًا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية، فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان[٢].

وبعد رحيل الفرنسيين هاجر «يعقوب» إلى أوروبا على رأس «الوفد المصرى» لتحقيق آماله فى استقلال البلاد وكان أن وفته منيَّته فى عرض البحر ودخلت حياة أول مفكر عملى فى استقلال مصر فى ذمة التاريخ.

---

(١) محمود الشرقاوى، مصر فى القرن الثامن عشر، ج١ ، ص٤٩، ٥٠ .

(٢) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص٢٥ .

أما الأزهر - فهو وإن كان معقل المقاومة للفرنسيين ابّان حكمهم مصر- إلا أنه لم يدخل عليه أى تغيير يخرجه عما ألفه منذ قرون ولم يحاول الفرنسيون أثناء احتلالهم للبلاد- أن يدخلوا عليه شيئًا من ذلك، وهم لو شاءوا ذلك لما استجاب لهم الأزهر، فقد كانت بينهم وبينه هوّة عميقة تزيد من تباين اتجاه كل منهم فى التفكير والعمل[1].

٩- الموقف بعد خروج الحملة:

بعد أن خرجت القوات الفرنسية من مصر تصارع على السلطة فيها قوات أربع كل منها تريد أن يكون لها الغلبة وتستأثر بحكم مصر. أولى تلك القوات هى قوة انجلترا التى بذلت جهوداً جبارة لإخراجة الفرنسيين من مصر إلى أن كللت هذه الجهود فى النهاية بالنجاح بانتصارها على قوات وطردها من مصر . وكانت انجلترا تود البقاء فى مصر ، ولكنها كانت تخشى أن يؤدى هذا العمل إلى إغضاب الدولة العثمانية ، وما قد يترتب عليه من زيادة تقربها من فرنسا . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن بقاء قواتها بمصر قد يدفع نابليون إلى إرسال حملة فرنسية جديدة لإخراجهم منها . ولما كانت انجلترا لم تتخذ موقفًا محدداً إزاء تلك الأمور فقد أجلت التفكير فى الجلاء عن مصر إلى فرصة أخرى[2].

ومن المعروف أن انجلترا قد أرسلت قواتها لمصر استناداً إلى معاهدة التحالف التى كانت قد عقدتها مع الدولة العثمانية فى ٥ يناير ١٧٩٩م . وهى المعاهدة التى نصت على ضمان بريطانيا لاستقلال الدولة العثمانية وسلامة أراضيها . ولكن وجود القوات البريطانية فى مصر، وقيامها بدور فعال فى إخراج الفرنسيين من البلاد دفع الحكومة البريطانية إلى محاولة الإفادة من هذه القوات فى عملية الحصول على ميزات فى هذا الإقليم [3]، وبعد جلاء الفرنسيين ومطالبة العثمانيين للإنجليز بالجلاء عن مصر، لم يكن أمام انجلترا سوى قطاع المماليك، أو بعض القطاعات الداخلية منه، لكى تستند إليها، وتتخذها ركائز لها ، وظهر موقف مماليك مراد بك بعد موت سيدهم بالطاعون فى سوهاج ، وهو يتحرك شمالاً لنجدة القوات الفرنسية، واتصال مماليكه، بالإنجليز، نتيجة لمعرفتهم بانتهاء حكم الفرنسيين لمصر

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص٢٦ .

(٢) محمد محمود السروجى، ثورة ٢٣ يوليو جذورها وأصولها التاريخية، ص٤١ .

(٣) جلال يحيى، مصر الحديثة، ص٥٥٤ .

ومحاولتهم الاستناد إلى قوة خارجية جديدة يستندون إليها، ما داموا قد شعروا بعداء كل من العثمانيين والمصريين لهم [١].

أما الدولة العثمانية فانها تطلعت إلى بسط حكمها المطلق فى مصر بحجة أنها فتحتها بحد السيف ، وأرادت أن تجعل منها ولاية أو عدة ولايات تحكمها كما كانت تحكم ولايات السلطنة العثمانية بولاتها الذين لم تر البلاد منهم منذ عهد الفتح العثمانى سوى الظلم والفوضى وسوء الإدارة .

أرادت الدولة العثمانية أن تستخلص مصر لنفسها، لذلك استقر عزمها على محاربة المماليك والقضاء عليهم حتى لاينازعوها سلطة الحكم فى البلاد فكانت تعليماتها للصدر الأعظم يوسف باشا ضيا تقضى بابادة بقية المماليك كيلا تقوم لهم قائمة أو إبعادهم عن مصر وإسكانهم فى ولاية أخرى من ولايات السلطنة العثمانية[٢].

كانت القوات العثمانية فى مصر مؤلفة من جيشين، الجيش الأول عددهم نحو ٢٥ إلى ٢٠ ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ، ويتألف من الإنكشارية وحرس الوزير والجنود الذين تم حشدهم فى سورية ، والمعسكر العام لهذا الجيش فى القاهرة ، وجنوده تحتل العاصمة ومعظم بنادر مصر الوسطى والصعيد كبنى سويف والمنيا وأسيوط .

أما الجيش الثانى فكان مرابطًا شمال الدلتا بقيادة حسين قبطان باشا قومندان الأسطول العثمانى الذى كان راسيًا فى خليج أبى قير، وعدد هذا الجيش نحو ستة آلاف مقاتل معظمهم من الأرناؤود والإنكشارية يحتلون المواقع القريبة من مرسى الأسطول [٣].

أما المماليك فقد كانت قواتهم قد أصيبت بضربة شديدة نتيجة لمجئ الحملة الفرنسية إلى مصر. وكانت قوات المماليك هى التى حاولت جاهدة أن تزيد من سيطرتها على البلاد ، وعلى حساب سلطة العثمانيين، منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ودخلت بذلك فى صراع طويل مع الدولة صاحبة السيادة ، وفقد المماليك الكثير من رجالهم فى أثناء عملية مقاومتهم للفرنسيين ، بعد أن فقدوا بضعة آلاف منهم فى المعارك التى تمكن بها الفرنسيون من السيطرة على البلاد. وتم ذلك فى وقت حاصرت فيه الأساطيل البريطانية سواحل مصر ، واستمرت فيه

---

(١) جلال يحيى، المرجع السابق، ص٥٥٣-٥٥٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ج٢، ص٢٧٨ .

(٣) نفسه، ج١، ص٢٩٧ .

سيطرة الفرنسيين على البلاد ، ويشكل يحرم المماليك من استيراد عناصر جديدة يزيدون بها أعداد قواتهم . هذا علاوة على أن الدولة العثمانية نفسها كانت قد منعت تصدير عناصر الجركس إلى مصر، حتى لايزيد من قوة المماليك، وحتى تفيد الدولة نفسها من هذه العناصر فى قوات الفرسان الخاصة بها، فكان الضعف النسبى إذن هو أول المظاهر التى ظهرت على قوات المماليك [١].

أما الظاهرة الثانية فكانت هى انقسام المماليك على بعضهم . وفى الوقت الذي انسحب فيه مراد بك إلى الصعيد، ومنه إلى الواحات للاستمرار فى مقاومة الفرنسيين من داخل مصر ، خرج منه إبراهيم بك من مصر إلى الشام، وانضم إلى قوات الدولة العثمانية ، وهكذا يمكننا القول بأن المماليك قد انقسموا إلى قسمين الأول يحاول استعادة سيطرته على البلاد ، وانتزاعها من أيدى الفرنسيين، والثانى يحاول الاستعانة بالعثمانيين على إخراج الفرنسيين من مصر ، ويقوم فى ذلك بدور التابع للدولة العثمانية .

وكان اتفاق مراد بك، أمير البكوات المصرية فى الصعيد مع كليبر ، يعنى تحول هذا القطاع مؤقتاً من العمل على استقلال مصر إلى وضعية التابع للسلطات الفرنسية فى مصر، وبهذا تحول المماليك ، نتيجة لضعفهم والضربات العسكرية التى نزلت بقواتهم إلى وضعية التابع لكل من العثمانيين والفرنسيين[٢].

ولكن خروج الحملة الفرنسية من مصر كان يعنى تغيراً للحالة العامة للبلاد، وعودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل مجئ هذه الحملة. وشعر المماليك بأنهم كانوا حكام مصر سابقين وبأنهم كانوا قد أداروا سلطاتها منذ أزمان بعيدة ، فحاولوا إعادة سلطتهم إلى البلاد. وأغراهم الموقف . ووجود الإنجليز إلى جانب العثمانيين ، على محاولة الحصول على كل السلطة لأنفسهم فى البلاد. وشعر المماليك بأن العثمانيين يرغبون فى تقليل نفوذهم فى البلاد، وحتى فى التخلص منهم بشكل نهائى ، ودفعهم هذا الشعور أو دفع بعضهم إلى محاولة الاستناد إلى القوات الإنجليزية لتثبيت أقدامهم فى مصر، ورغم وجود القوات العثمانية[٣].

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة، ص٥٥٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص٥٥٩ .

(٣) نفسه، ص٥٥٨ .

أما المصريين فكانت قوتهم أنهم أصحاب البلاد الفعليين، وقد تصدت هذه القوة لجيش نابليون منذ وأن وطئت أقدامه أرض البلاد، فقاومته في الاسكندرية وتتبعته في الوجهين البحري والقبلي. وتحملت جزءاً من أعباء الحكم في عهد الحملة. وهم الذين قدموا التضحيات من الرجال. فمنهم من أعدم ومنهم من شرد ومنهم من سجن ، وجد هؤلاء أن قوة الدولة العثمانية قد وهنت ، وأن سطوة المماليك قد ذهبت إلى غير رجعة ، وأن قوات انجلترا إن عاجلاً أو آجلاً سترحل عن البلاد، فلابد من الاستعداد لهذا اليوم الذى يتولون فيه الحكم وتقرير مصير البلاد بأنفسهم خصوصًا وقد بدأت بعض الزعامات تخرج من بين صفوف المصريين وتساهم في الأحداث التي مرت بها البلاد مثل السيد عمر مكرم والسادات والشرقاوى وغيرهم.

وقد فطن محمد على بثاقب نظره إلى خطورة هذه القوة الجديدة. ورأى أن يحتضنها وأن يستغلها لصالحه وحده ، فأخذ يتودد للمصريين ويتقرب إلى زعمائهم من أمثال عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ الفيومي وغيرهم لتأييد سلطته في مصر وكسب ثقتهم فيه. وقد آتت هذه السياسة ثمارها حينما قام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى في ١٣ مايو سنة ١٨٠٥م بالباس محمد على حلة الولاية والمناداة به والياً على مصر ، دون أن يصدر فرمان من الباب العالي. وهذا يدل على مدى ما بلغته اليقظة المصرية من قوة في ذلك الوقت[١].

---

(١) محمد محمود السروجي، ثورة يوليو جذورها التاريخية ، ص٤٢ .

الفصل السابع

بعض الجوانب من تاريخ مصر الاجتماعى فى العصر العثمانى

مجتمع الجوارى فى مصر العثمانية (٩٢٣-١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨م) - الأندلسيون ، حياتهم الاقتصادية والاجتماعية فى مصر العثمانية ٩٢٣-١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨م، دراسة وثائقية عن مدينتى الاسكندرية ورشيد.

لقد اهتم العديد من الباحثين فى العصر العثمانى بدراسة الطبقات الحاكمة، وفئات المجتمع البارزة كالجند والتجار والحرفيين..، وأهملوا فئات أخرى كان لها دور كبير فى الحياة العامة والأسرية بوجه خاص فى تلك الآونة. ولقد أطلق البعض على هؤلاء لفظ المهمشين ، ومن ضمن هؤلاء طبقة الرقيق، وهم العبيد والجوارى، وسنقتصر فى بحثنا هذا على مجتمع الجوارى فى ذلك العصر، لما كان لهن من دور فى الحياة العائلية فى تلك الآونة. وقبل الحديث عنهن لابد من التعريف بهن، وما يطلق عليهن من أسماء (الجارية، الآمة، وأم الولد) ثم مصادر الحصول عليهن، وعمليتى الشراء والبيع وطريقة العرض والفحص والمشاكل الناجمة عن ذلك وكذا الطبقات التى اقتنت الجوارى، ودور الجارية ومكانتها بين أفراد العائلة وطرق معاملتها ... الخ . فالجارية قد يقال لها آمة وهى المرأة المملوكة، خلاف الحرة وتقول: يا آمة الله، كما تقول يا عبد الله، والجمع إماء، وآم [(١)]. ووردت اللفظة فى القرآن الكريم، قال تعالى «لآمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم»[(٢)]، وقال تعالى : وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم»[(٣)].

---

(١) المعجم الوسيط.

(٢) سورة البقرة آية ٢٢١ .

(٣) سورة النور آية ٣٢ .

ويقصد بالجوارى كل امرأة أخذت أسيرة فى الحرب، حيث يقضى الشرع الإسلامى على عدم قتل النساء والأطفال ، إذا كانوا من أهل الكتاب [١]، أو كل امرأة نقلت قسراً من بلاد العدو، على شريطة أن تكون غير مسلمة ، لأنه لايجوز فى الشرع الإسلامى لأى سبب من الأسباب، أن تسبى المسلمة أو تسترق . أو هى التى تلدها آمة مملوكة، ويكون أبوها عبداً أو غير مالك لها- مسلمة كانت أو غير مسلمة . أو هي التى تؤخذ بالشراء من أسواق الرقيق، على ألا تكون أصلاً من ديار الإسلام سواء أكانت مسلمة أو كتابية . ولقد فطن فريق من الناس من بلدان الغرب الأوربى إلي ما للاسترقاق من قيمة اقتصادية فأقبلوا على بيع أولادهم وبناتهم من الخصيان والإماء، وكان من بين هؤلاء كثير من الجنس السلافى الذين يبيعون أولادهم وبناتهم[٢].

كما أنه كان يصل إلى بلاد التركستان الكثير من الروايات عن أحوال المماليك، وما يذاع عن ثروة الناس بالقاهرة، فكان ذلك باعثًا لكثير من أهل تلك البلاد على بيع أولادهم وبناتهم بسبب الفقر وقسوة الضرائب، ولكن لم يجد جميع الآباء سوقًا رائجة لبضاعتهم حيث لم يكن يباع إلا سليمو البنية وذو الملامح الجميلة. هذا بجانب أنه قد فطن فريق من تجار الرقيق إلى هذه التجارة الرائجة ، فقاموا بخطف الصغار والكبار، رجالاً كانوا أم نساء ثم باعوهم فى الأسواق على أيدى النخاسين . ولم يكن هؤلاء بوسعهم استرقاق المسلمات أو الكتابيات الذميات اللاتى تعود أصولهن إلى ديار الإسلام ، وإنما كانوا يأتون بالرقيق من البلدان الغربية ويتاجرون بهم[٣]. لقد كانت الجوارى من أربعة أجناس ، قوقازيات ، أو حبشيات أو زنجيات، أو جلايات (نسبة إلى قبائل الجلا) وكن غالبًا أمهات أو محظيات ، أو خادمات لدى الطبقة الحاكمة . ولقد كان الاستراق على ما يتبعه من العتق بعد سبعة أعوام وما ينتظر الرقيق المعتوق بعد ذلك من ضروب التكسب أشهى إلى النفوس من الخدمة المنزلية . ولم يكن ينتظر طبعًا أن يبقى نظام الحريم، وسوق النخاسة طويلاً على هذه الحالة، بعد أن عصفت بها ريح التقلبات الاقتصادية ، فبدلت من شأنها وأصبح الرجل يؤثر الزوجة المتعلمة، والخادمة المحررة على هؤلاء الطاعنات فى السن.

---

(١) أبو الحسن على بن حبيب البصرى البغدادى الماوردى، *الأحكام السلطانية*، القاهرة ١٩٦٠،ص١٣٤ .

(٢) سونياهاو ، *فى طلب التوابل*، ص٤٩ .

(٣) على السيد محمود، *الجوارى فى المجتمع القاهرة المملوكى* ، القاهرة ١٩٨٨، ص٨٠ .

والأموة نظام عرف فى الإسلام، فقد تزوج الآمة من حر[١] أو عبد، غير أن الأولاد الذين تنجبهم يكونون عبيداً لسيدها ، ويستطيع الزوج العبد أن يطلق زوجته الآمة، ويصبح طلاقها بلا رجعة بعد الطلقة الثانية. وعدة الآمة سواء أكانت أرملة أو مطلقة فلها نصف العدة الحرة. ولقد كانت الإماء يمثلن طبقة مهمة في المجتمع ، وكن غالبًا على قسط وافر من الجمال والثقافة، وكان النخاسون أو تجار الرقيق يعنون عناية فائقة بتجميل الإماء وتثقيفهن، وتعليمهن فنونًا ترفيهية مختلفة كالرقص والغناء ، حتى ترتفع أثمانهن . وكثيراً ما حظى بعض الإماء بتقدير أسيادهن[٢]. أما أم الولد ، فهى الجارية أو الآمة التى أنجبت من سيدها ، ذلك أن إنجاب الجارية من سيدها يعطيها بعض الحقوق ، فعلى الرغم من أنها تظل ملكًا له يستمتع بها ، فإنه لايجوز له بيعها ، أو توريثها ، وإذا مات صارت حرة، كما أن طفلها يكون حراً منذ ولادته [٣].

ومن المؤكد أن العائلة كانت تميز بين أبناء الزوجات وأبناء الجوارى ، ولقد دعم التنظيم المساحى للبيت هذا التراتب الاجتماعى، حيث كان الأبناء يقيمون مع أمهاتهم فى المساكن التى خصصت لهن فى البيت ، وبذلك كان أبناء المستولدات يقيمون فى مساكن أقل اتساعا وراحة عن الأماكن التى عاش فيها أبناء الزوجات . ولازال مصطلح ابن الجارية أو بنت الجارية مضربًا للأمثال حتى يومنا هذا للتمييز فى المعاملة بين الناس، هذا وإن كان الأطفال جميعًا يشتركون فى اللعب فى الفناء دون تمييز . كما أن بنات المستولدات حصلن على نصيبهن الشرعى من إرث أبيهن كأبناء الزوجات الحرائر سواء بسواء[٤].

أما مصادر الحصول على الجوارى، فكانت كثيرة ومتعددة ، وكان التجار المصريون يصلون إلى أهم أسواق الرقيق فى بلاد التكرور[٥] حيث كان يتم جلب الرقيق إلى مثل هذه الأسواق عن طريق الإغارات التى تتم على القبائل الوثنية التى تعيش على الحدود الجنوبية لمنطقة

---

(١) جورج يانج ، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ، تعريب على شكرى القاهرة ١٩٣٤، ص٣٨٠ ، ص٣٨٢ .

(٢) حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج١، ص١١٤ .

(٤) نللى حنا، تجار القاهرة فى العصر العثمانى ، سيرة أبوطاقية شاهبندر التجار، ترجمة وتقديم رؤوف عباس، القاهرة ١٩٩٧م، ص٢٣٨ .

(٥) يقصد بها بلاد وسط وغرب أفريقيا، مثل مدينة كمومبى عاصمة غانا آنذاك، (انظر، على السيد محمود، المرجع السابق ص-٨).

السافانا، وهم الذين اشتهروا عند العرب تحت اسم «اللملم» أو «الدموم» أو «الدمادم» ولكن أعداد كبيرة من هؤلاء الرقيق كانت تهلك عقب وصولها إلى مصر، وربما كان السبب في ذلك هو اختلاف المناخ في مصر عنه في البلاد التي كان يتم جلبهم منها، هذا بالإضافة إلى طول الرحلة ومشاق السفر من جهة أخرى. كذلك اعتاد كثير من حجاج بلاد التكرور هذه أن يجلبوا معهم أعداداً كبيرة من هؤلاء الرقيق والجواري أثناء قدومهم في موسم الحج إلى مصر(١).

ولقد كان العبيد السود (من الجنسين) الذين يجلبون من أعماق أفريقيا في كل عام تمتلئ بهم أسواق مصر، وكان عدد النساء منهن غالبًا يتجاوز عدد الرجل منهم. ومن أسواق القاهرة تنتقل أفواج منهم إلى المدن الكبرى في آسيا، مثل: أزمير واستانبول ... الخ، ويبقى عدد كبير منهم في مصر حيث يستخدمون .. أما الجواري البيض فكان يؤتى بهن من أقاليم آسيا المجاورة للبحر الأسود(٢). مثل جورجيا وأرمينيا، وقد رأى الرحالة أعداداً كبيرة منهن في أسواق القاهرة (٣). ومن الطبيعي أن يتطلب قدوم أعداد كبيرة من الجواري، وجود أسواق خاصة بهن، وهي التي عرفت أسواق الرقيق، وكان لكل نوع من هؤلاء الجواري سوق خاصة به. فالجواري السود كن يبعن في أسواق أسيوط والقاهرة التي كان بها أسواق خاصة لجلابة هذا النوع من الجواري، وهي مركز تجمع الرقيق الأسود بصفة خاصة، حيث يستطيع أي فرد أن يشترى منهن ما يشاء وهذه السوق أو الوكالة كانت بالقرب من جامع السلطان قايتباي(٤)، كذلك كانت في الفسطاط دار تسمى دار البركة، أو بركة الرقيق سوقًا يباع فيها هذا النوع من الرقيق(٥)، أما وكالة الجلابة بالقاهرة وهي التي تقع بالقرب من خان الخليلي، فقد اقتصرت على تجارة الجواري السود(٦).

---

(١) علي السيد محمود، نفس المرجع، ص٨٠ .

(٢) ج. دي. شابرول، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٦، ص٢٧ .

(٣) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة العالمية في مصر في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٥، ص٢٢٤ .

(٤) علي السيد محمود، نفس المرجع، ص١٣ .

(٥) أحمد تقي الدين المقريزي، الخطط والآثار، بيروت بدون تاريخ، ج١، ص٤٨ .

(٦) صوفيا لين بول، حريم محمد علي باشا، ترجمة عزة كرارة، القاهرة ١٩٩٩، ص٨٨ .

أما الرقيق الأبيض بوجه عام ، والجوارى البيض بوجه خاص فكانت وكالة كشك ، وخان جعفر من أهم الأسواق التى يباع فيها هذا النوع [١]، وبالإضافة إلى خان سرور وموضعه من باب الزهومة قرب الصاغة الحالية إلى الجامع الأزهر ، وتجاوره حجرتان للرقيق ، ودكة المحتسب لمراقبة ما يجرى من عمليات البيع والشراء، لأن الشرع الإسلامى ، قد حكم على تاجر الرقيق الالتزام بعدة قواعد فيها مراعاة لصالح الجوارى ، فمنها أنه لايجوز أن يفرق بين الجارية وولدها ، ولايجوز بيع هذه الجارية إذا كانت مسلمة لأحد من أهل الذمة [٢]. ولقد كان تاجر الرقيق يعرف باسم الجلاب، وينتمى عادة لطائفة الجلابين التى كان لها شيخ، ونقيب ودلال[٣] ولم يقتصر بيع الجوارى على المصريين فقط، بل شاركهم فى ذلك المغاربة ، والشوام، والأوروبيون ، وخاصة البنادقة والجنويون واليهود [٤].

أما طريقة العرض بالنسبة للجوارى السود، فقد كن يعرضن ملطخات بالشحم الذى يغر من به وهن شبه عاريات ما عدا فى الشتاء فكان يرتدين بعض الملابس[٥]. ويذكر علماء الحملة الفرنسية بأنهم قد غمُّوا بمشهد الكائنات التعسة التى تباع مثل قطيع حقير، ومع ذلك فلايبدو عليهن الكرب لما أصابهن [٦]. ومن أراد شراء جارية جاز له أن ينظر إلى وجهها وكفها ، فان أراد استعراضها فى منزله والخلوة بها، فلايمكنه النخاس من ذلك، إلا أن يكون عنده نساء فينظرون جميع بدنها . أما بعد الاتفاق على البيع ، فله أن ينظر إلى جميع بدن الجارية[٧].

---

(١) نعيم زكى فهمى ، نفس المرجع ، ص٢٢٤ ، جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة أيمن فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢ .

(٢) على السيد محمود، نفس المرجع ، ص١٣ .

(٣) سجلات المحكمة الشرعية رقم ٨ مادة ٣٨٨ ، ص١٠٢ بتاريخ ٢٢ جمادى الأول عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٣م.

(٤) سجلات المحكمة الشرعية رقم ٥، مادة ١٧٦ ،، ص٦٥ بتاريخ ٣ محرم عام ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م، ورقم ٣٦ ، مادة ٢٣٧ ص٨١ بتاريخ ٩ جمادى الأول عام ١٠١٧هـ / ١٦٠٨م، ورقم ٤٤ مادة ٦٩٥ ، ص١٣٥٧ بتاريخ ٨ رمضان عام ١٠٣٠ هـ / ١٦٢١ م.

(٥) صوفيا لين بول ، حريم محمد على باشا ، ص٨٨ ، جومار، وصف مدينة القاهرة، ص٣٢٢ .

(٦) جومار، المرجع السابق، ص٣٢٣ .

(٧) على السيد محمود، نفس المرجع ، ص١١ .

ويصف أحد الرحالة أسواق الرقيق هذه، فيقول، أنه كان يحق للمشترى أن يجرد هؤلاء الجوارى من ملابسهن ويجعلهن يتحركن أمام عينيه ، وربما طلب منهن المشى بعض خطوات أو الجرى لمسافات بسيطة للتأكد من سلامة أجسادهن ، وفى بعض الأحيان - طلب منهن الانحاء يمنة ويسرة ، وهكذا للتأكد من خلوهن من العيوب والتشوهات الجسدية. وقد يطلب المشترى من التاجر فحصها ، فتخرج لسانها ويرى أسنانها ويستعرض جسدها وطولها ، ويحرص المشترى على أن تكون الجارية فى صحة جيدة [١]. وكانت الجوارى اللاتى يتصفن بصفات خاصة لايبعن فى هذه الأسواق علانية، لأن هذا يعتبر إهانة لهن ، لذا جرت العادة على أن يتم البيع فى منزل خاص على يد النخاس ، بعيداً عن هذه الأسواق [٢].ويعطى للمشترى ثلاثة أيام للتجربة . وفى خلال هذه الفترة تبقى الفتاة المشتراة فى حريم المشترى، أو فى حريم أحد من أصدقائه . ويكلف نساء الحريم بابداء تقرير عن القادمة الجديدة . ويعتبر التشخير وصرير الأسنان ، أو الكلام أثناء النوم، أسبابًا كافية لفسخ الشراء وإعادتها للبائع [٣]، ويحق للشارى فى خلال الأربعة أو الخمسة أيام التى تعقب السوق أن يسترد نقوده إذا كان الرقيق غير مسرورين من سيدهن، ويمكنهن إجباره على إعادتهن إلى التاجر [٤]. ولقد كان النخاسون يحتالون فى إبراز جمال بعض الجوارى المعروضات هناك، وفى إخفاء عيوبهن ، وقد كتب بعض العلماء رسائل فى حيلهم وخداعهم، وفى فن تقليب الجوارى لمعرفة الطبيعى من المصطنع بعد أن غالوا فى تمويه ما يريدون ستره عن عين المشترى . ويذكر على سبيل المثال قول بعض النخاسين : «ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية فضة»، حيث كانت الجوارى يخضبن حواجبهن بالدامك، وأطرافهن فان كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأحمر، وإن كانت صفراء بالخضاب الأسود، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة فى كشف الضد بالضد[٥].

كذلك كان من أهم الأهداف من تواجد المحتسب بجوار هذه الأسواق، هو مراعاة تحصيل الرسم الذى كانت تقرره الدولة على كل جارية يتم بيعها بتلك الأسواق، ويتم تحصيل هذه

---

(١) إلهام محمد على ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، ص٢٦١ .

(٢) المرجع نفسه، ص٢٦١ .

(٣) جيرار دى ترفال ، رحلة إلى المشرق ، القاهرة ١٩٥٥، ص٢٤٥ / ٢٤٦ .

(٤) جومار، نفس المرجع ، ص٣٢٣ .

(٥) نفسه، ص٣٢٣ .

الرسم لصالح خزانة الدولة [١]. هذا بجانب أنه كان يشترط على سماسرة العبيدة والجوارى بألا يبيعان لأحد جارية دون أن يعرفوا البائع، أو يأتى البائع بمن يعرفه، ويثبت اسمه وصفته فى دفتر لئلا يكون المباع حراً أو مسروقًا . ويلاحظ أنه كان يزداد الطلب على النساء الحبشيات لجمالهن، حتى أنه بعد إلغاء الرق كان يتم إحضار العديد منهن تحت ستار العمل كخدم فى المنازل وقد أعطى الرحالة وصفًا للحبشيات وهن يجلسن فى انتظار الراغب فى شرائهن وشعرهن مقسم إلى عدة ضفائر ، وأيديهن مزينة بالأساور ، وآذانهن بالأقراط ، وأن الجوارى الحبشيات أجمل من النوبيات، كما أن الحبشيات أكثر توحشًا وشراسة ، ولكنهن مطلوبات للخدمة بالمنازل . ولايتم عرض الجوارى النوبيات والحبشيات فى الأسواق على الملأ بل لابد من الصعود إلى الغرف المخصصة لإقامتهن لرؤيتهن ، وترتفع أثمانهن عن غيرهن خاصة القادمات من دنقلة . وقد روى بعض الرحالة - ترفال- رواية وسردها غيره من الرحالة، وتذكر إلهام ذهنى أنه يبدو أن كل واحد منهم أراد أن ينسبها إلى نفسه لإضفاء البسمة والبهجة فى نفوس القارئ الفرنسى، فلقد ذكر - ترفال- أن إحدى الحبشيات رأته وهو يرتدى قفازاً أسودا، فأخذت تصرخ فى وجهه قائلة: «أنت شيطان وجهك أبيض ويدك سوداء»[٢]. كما كان يذكر فى عقد البيع أنها خالية من الحمل[٣].

ويقدر ثمن الجارية الحبشية المتوسطة الجمال من عشرة إلى خمسة عشر جنيهات إسترلينية. أما ثمن الجارية البيضاء عادة من ثلاثة أضعاف إلى عشرة أضعاف الجارية الحبشية. وثمن السوداء حوالى النصف أو الثلثين أو ما يزيد بكثير إذا كانت تجيد الطهى. وتقوم الجوارى السود بالخدمة [٤]. أما فيما يتعلق بالصحة العامة لهن، فقد كان المرضى يقدرون من ربع إلى عشر ثمن الأصحاء. وينطبق ذلك على المكفوفين وقصارى النظر والذين يعانون من الشلل الارتجافى.

---

(١) آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ج١، ص٢٧٠، ٢٧١ .

(٢) إلهام محمد ذهنى ، نفس المرجع ، ص٢٦ .

(٣) سجل رقم ٥، مادة ٩٥٨٠، ص٢٩٤ بتاريخ ١٧ ربيع الثانى عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م.

(٤) إدوارد وليم لين، المصريون المحدثون وعاداتهم وشمائلهم، ص٢١١ .

ورغم أن حالات الحمل كانت تعتبر من العيوب إلا أن أسعارها لم تكن تبعد كثيراً عن أسعار الحالات العادية (١). وفيما يتعلق بتباين سعر الجارية، فانه يمكن القول أن ثمة عدة عوامل تتحكم فى هذا الشأن من ذلك: الجنس أو اللون والصحة والتدريب والعمر، كما يمكن الأخذ فى الاعتبار عوامل أخرى تتحكم فى الأسعار كالجمال ونوع الخدمة. ويتم بيع الجارية أحيانًا بالتقسيط ، وفى هذه الحالة كان يتم البيع على أن يدفع المشترى مبلغًا محدداً كل شهر للبائع (٢).

ويلاحظ أن حالة الجارية عند دخولها بيت سيدها لأول مرة تكون حزينة على فقدان ذويها أو خوفها من المستقبل (٣).

أما عن ديانة الجوارى، فكما أنهن متعددات المصادر والأجناس والألوان، فهن مختلفات أيضا فى الدين . فمنهن من ينتمين إلى الإسلام، ومنهن من ينتمين إلى النصرانية أو اليهودية، أو العبادات الوثنية التى كانت شائعة آنذاك. ويلاحظ أن الوثنيات الأصل يسارعن إلى اعتناق الإسلام، وكذا كثيراً ما تتحول الكتابيات أنفسهن إلى الدين الإسلامى، وكان إما لما يجدنه فى سماحة الإسلام والمسلمين، وعدم تعصبهم ، وإما تقربًا من أسيادهن الذين كانوا يحررون بعضهن للتزوج منهن زواجًا شرعيًا ، فينتقلن إلى الإسلام ، لأن الاختلاف فى الدين يؤدى حتمًا إلى ألا يرث أحدهما الآخر. لم يكن اعتناقهن الدين الجديد بالأمر الصعب المنال، بل ينحصر ذلك فى أن تنطق الجارية بالشهادتين أمام أحد الشيوخ، والذى كان يقوم بكتابة نص خاص بهذه المناسبة، جرى العرف عليه، يثبت فيه إسلامها . أما الجوارى اللاتى يتبقين فى الرق، فيحافظن فى أغلب الأحيان على دينهن القديم . ويقمن بتأديه شعائره ، ويتساهل أسيادهن معهن فى ذلك ، فلايكرهوهن على تغيير عقيدتهن ، وإنما يحترمون دينهن ويسهلون لهن القيام بالطقوس الدينية الخاصة بهن فى المواسم والأعياد (٤). وتسجل الجارية اعتناقها للإسلام أمام المحكمة الشرعية، وتقر بأنها اعتنقت الدين الإسلامى دون إكراه، ودون ضغط ،

---

(١) جميل عرفه منتصر، التجارة فى مصر العثمانية ، ٩٢٣ / ١٢١٣هـ ، ١٥١٧-١٧٩٨م، رسالة دكتوراه غير منشورة - قسم التاريخ آداب اسكندرية عام ١٩٨٦م، ص١١٤ .

(٢) سجل رقم ١ مادة ١٤٥ ، ص٣٦٥ بتاريخ ١٤ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ / ١٥٧٠م

(٣) إلهام محمد ذهنى، نفس المرجع، ص٢٦ .

(٤) على السيد محمود ، الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية، ص١٨ .

وأنها جاءت طائعة مختارة ، وأصبحت مسلمة من مسلمات المسلمين لها ما لهن وعليها ما عليهن [١]. ويذكر وليم لين أن جميع الجوارى تقريباً يعتنقن الدين الإسلامى، ولكنهن على العموم لايعرفن منه إلا قليلاً [٢].

أما عن مكانة الجارية فى الأسرة فنلاحظ أن الجوارى البيض قد شغلن مكانة أعلى من مكانة الحرائر فى مصر عند الرأى العام، فكثيرات منهم كن رفيقات لعظماء الأتراك العثمانيين أو زوجات لهم، وكان الأتراك يفضلوهن على الأخريات، وتلبس أولئك الجوارى أفخر الثياب، ويتقلدن الحلى النفيسة وينعمن تقريباً بكل مستطاع، ويعتبرن فى بعض الأحوال إذا لم يستعملن للخدمة سعيدات . وتحتشم الزوجات عادة فى حضرة الزوج قليلاً أو كثيراً ، ولذلك يسرهن ألا تتكرر زيارة الزوج للحريم أو تطول أثناء النهار، وكثيراً ما يستسلمن فى غيابه إلى ابتهاج صاخب [٣]. وتلقى الجوارى فى بيوت الطبقة المتوسطة فى مصر معاملة أطيب من تلك التى تتلقاها المقيمات فى حريم الأغنياء . فاذا كن محظيات- وهو أمر لاسبيل إلى تجنبه تقريبًا- فليس لهن غريمات يعكرن صفو بيوتهن. أما إذا كن خادمات ، فإن ما يقمن به من أعمال الخدمة ميسر، وحريتهن أقل تحديداً . وإذا وجد تعلق متبادل بين المحظية والسيد، فإن وضعها يكون أسعد من وضع الزوجة ، ذلك أن الزوجة قد يطلقها زوجها لحظة غضب ، وقد ينطق ضدها بصيغة الطلاق البائن، ويغرقها هكذا فى البؤس، فى حين أنه نادراً أن يسرح أحد جاريته دون أن يوفيها ما تحتاج إليه بسخاء حتى لايضرها تغيير مصيرها إذا لم تكن قد دللت فى حياة مسرفة فى الترف . ولقد كان بيت العائلة الذى يضم فى أغلب الأحيان الزوجات الأربع ، وعديداً من الجوارى والأتباع والخدم والعبيد، كان يخضع لتقسيم مساحى يتفق مع الأوضاع الاجتماعية المختلفة للمقيمين فيه، ولايخضع للتقسيم على أساس النوع، أى جناح للذكور، وآخر للإناث .

---

(١) سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية، سجل رقم ٣٥ مادة ٢٥٥٣ ص٢٢٨ بتاريخ ٥ جمادى الآخر عام ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م، وسجل رقم ٢٤٨ مادة بدون رقم ص٢٧٩ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ١٠٤٩هـ / ١٦٣٩م.

(٢) ادوارد لين، المرجع السابق، ص٣١٣ .

(٣) المرجع السابق، ص٣١٤ .

وتتناول التراتب الاجتماعى داخل البيت الزوجات والجوارى والأطفال. وقد ترتكز مكانة الزوجة على مالها من ثروة خاصة وإنجابها للأطفال . وكان هناك فرق فى المكانة الاجتماعية داخل العائلة بين الزوجة الولود، والزوجة العاقر، وبين الزوجة والجارية المستولدة . وكان التمييز بين الجوارى يقوم على قاعدة الإنجاب، فمن أنجبت من سيدها سميت مستولدة، وكانت تتمتع بعدة مزايا، فلقد وفرت لها الشريعة الإسلامية قدراً من الحماية ، إذا كان لايجوز بيعها كما أن أطفالها كانوا أحراراً ، ولهم حق الإرث فى تركة الأب عند وفاته كغيرهم من ذريته. وعند وفاة السيد تصبح الجارية المستولدة حرة، ولاتعد جزءاً من التركة كغيرها من الجوارى والعبيد. وكثيراً ما كان يخصص للمستولدات نصيب من ريع الوقف يحصلن عليه بعد وفاة السيد، وينص فى الحجج على استمرارهن فى الإقامة ببيت العائلة ، وبذلك يتوفر لهن الحد الأدنى من الضمانات، وقد لا يذكر البعض ذلك فى حججه ، ولايعنى ذلك أنه قد تجاهله تمامًا ولعله كتب لهن ما يوفر لهن الأمان بطرق ودية فيعتبر ذلك نوعًا من التأمين حتى لايقعن فى حرج بعد وفاته . وقد يعتمدن على ما ورثه أولادهن من تركة الأب أو يتزوجهن . ونرى فى حالة إحدى المستولدات التى حصلت على نصيب صغير من تركة سيدها بعد وفاته ، وكان لها ابنتان ، توفيت إحداهما بعد وقت قصير من حصولها على نصيبتها من تركة أبيها، فآل بعض ذلك النصيب إلي أنها بحق الإرث وإضافة إلى ما وفرته الشريعة للمستولدة من حماية، وكان وضعها الاجتماعى فى العائلة يرقى على وضع غيرها من بين الجوارى(١).

وجرى العرف على أنه حين يسرح السيد جاريته ليعتقها على أن يمنحها هبة بمناسبة عتقها، ثم يزوجها من رجل طيب أو يهديها إلى أحد أصدقائه . وعلى العموم، فان بيع جارية قضت مدة طويلة فى خدمة سيدها يعتبر من الأمور التى تستحق اللوم. وإذا رزقت جارية بطفل من سيدها واعترف هذا بأبوته للطفل ، فحينئذ لايمكن بيعها أو إهداؤها ، وتصبح حرة بعد موت سيدها وكثيراً ما يحدث بعد ولادة طفل يعترف به السيد أن تعتق الجارية وتصبح زوجة له ، وذلك لأنه لايمكن- وقد أعتقها- أن يحتفظ بها دون زواج شرعى(٢).

وكثيراً ما تحرم الزوجات والنساء من الجوارى من تناول الطعام على مائدة واحدة مع رب البيت وأسرته. وقد يستدعين لخدمته حينما يتناول غداءه أو عشاءه ، أو حين يدخل إلى الحريم

---

(١) ادوارد وليم لين، المرجع السابق، ص٣١٤ .

(٢) جيراردى ترفال ، نفس المصدر ج٣، ص٢٤٥ .

للتدخين أو تناول القهوة ، وهن عادة يقمن بأعمال الخادمات [١]. وعندما تزور ضيفة عزيزة منزل أحد العظماء ، فلابد أن تقوم إحدى بناته بمقابلة هذه الضيفة ، وتخلع عنها رداءها الخارجي بالرغم من وجود الجواري، ويعتبر ذلك علامة تواضع كبيرة. ومن المعتاد في بيوت الطبقات المتوسطة أن تشرف السيدات زائرتهن بأن يخلعن عنهن «التنزيرة» ولكن في حريم الطبقة العليا مكانة تقوم الجواري بهذه المهمة، ولاتفعل ذلك إحدى أفراد العائلة ، إلا إذا كانت الضيفة ذات مكانة خاصة جداً [٢].

أما عندما تقبل ضيفة على أحد الأمراء المماليك ، فان الجواري البيض يقفن أمام الضيفة في شكل نصف دائرة ، وينقلن من أخريات في حجرة خارجية صينيات من الفضة عليها أطباق زجاجية بها حلوى. وكان كل طبق به ثلاث ملاعق، وفي كل ملعقة قطعتان من الحلوى. ويتبع ذلك في الحال تقديم القهوة فوق صوان من الفضة أيضًا ، وكانت كالمعتاد في أقداح صغيرة من الصيني وضعت في حوامل على شكل كؤوس البيض ، ولكن هذه لم تكن كمشيلاتها في البيوت العادية، حيث تكون بسيطة أو مصنوعة من خيوط الفضة المشتابكة، ولكنها كانت مرصعة بالماس، وكانت بالطبع أنيقة وقيمة جداً أكثر من كونها جميلة. ولاتقدم القهوة أبداً من الصينية رأسًا ، بل تمسك التابعة بين إبهام وسبابة اليد، وتقدمها هكذا برقة فائقة، بعد تقديم هذه المرطبات بفترة وجيزة تظهر جاريتان تحملان صواني فضية عليها الشربات في أكواب غاية في الأناقة من زجاج الكرستال، لها أطباق وأغطية ، والصينية كلها مغطاة بمفرش وردي غني في تطريزه تزيحه، الجارية حين تقترب من الضيفة لتتقبل القدح . وجريا على العادة لاتحسى الضيفة إلا ثلثيه، ثم تتقدم جارية أخرى وفي يدها منديل كبير أبيض مطرز لتجفيف الفم، والمفروض أن يمس الشفاة فقط، ومن تفعل أكثر من ذلك تعتبر غشيمة[٣].

ولايسمح في منازل العظماء أن تدخل الجواري السود الغرفة التي بها ضيوف ، ولكن الطواشية السود، إذا كانوا مقربين للأسياد ، فهم يتجولون بحرية مطلقة في أرجاء أرقى الحريم، ويقوم الجواري السود بالخدمات الوضيعة في الحريم[٤]. وفي منازل الأمراء والعظماء يقمن ويحملن قنينات من الفضة بها ماء معطر للرش، أو مباخر فضية تتدلى من سلاسل ،

---

(١) المرجع نفسه ، ص٢٤٦ .

(٢) نفسه، ص٢٤٧ .

(٣) صوفيا لين بول، المرجع السابق، ص١٧٠ .

(٤) المرجع نفسه، ص١٧١ .

وكذلك القهوة والأراجيل والشربات والحلوى، وترص كل مجموعة من كؤوس القهوة والشربات فوق صنية صغيرة يغطيها فى الغالب غطاء مستدير من القماش الباهر فى تطريزه، تحفه هدابة عريضة من الخيط المذهب. ويلاحظ أنه يوجد بين الجوارى البيض من هن أرفع مرتبة عن الأخريات ، يتنقلن بين الأرجاء ويشرفن على الترتيبات ، ويسود المرح بين هؤلاء السجينات الحسناوات ، مع أنهن يمنعن تماماً من أى اختلاط بأى فرد من الجنس الآخر، ماعدا سيدهن وأقرب أقاربه [١]. وقليل من الجوارى اللاتى جيئ بهن بعد سن الطفولة من بلاد كن يتمتعن فيها بحرية مطلقة، استطعن التعود بالحبس بين جدران الحريم المحدودة الضيقة، إلا أن بعضهن ممن لديهن جاذبية شخصية استطعن أن يكسبن حظوة لدى السيد ، ويجدن دون ريب متعة فى هذا السجن الفخم ، كما أن أخريات يجدن رباطاً أقوى من عطف ورضاء السيد من حنين للوطن الأصلى، ألا وهو ارتباطهن بالطفل الذى أنجبته منه. فمثل هؤلاء يرفضن الحرية، وعادة ما تتربى هؤلاء الفتيات على الشعائر الإسلامية ، فيصبحن من أحسن الأمهات[٢].

أما دور الجوارى فى حفلات الزواج، فهو عندما تسير العروس محجبة من أم رأسها إلى أخمص قدمها، وقد تدلت عملات ذهبية على وجهها، وترتدى الجوارى الملابس الاسطمبولية، وتقتاد بعضهن العروس ، ومنهن واحدة تمسك منشة، وأخريات يقرعن الدفوف[٣] ومنهن من تحمل طبق إحماء فضيا به فحم متوهج تغلى القهوة فوقه فى إناء صغير من الفضة، فى حين تحمل جارية أخرى صنية فضية صغيرة مستديرة ، رصت عليها فنجانين القهوة الصغيرة ، التى زينت أطرافها الرائعة المطعمة بالجواهر كانت كلها نفيسة ، ولكن التى قدمت للعروسة كانت تفوق إبداعها إذ أن الماس كان مرصوصاً بطريقة حلزونية باهرة على طبقة دقيقة الصنع من المينا [٣]. كما تحمل الجوارى الآنية المملوءة بالحناء فى كلتا اليدين، ويرفعنها عالياً فوق رؤوسهن، والعروس تسير بينهن متألقة بجواهرها الماسية التى تعكس مئات الأضواء من حولها، وكانت تتقدمها وترافقها كالمعتاد الراقصات وضاربات الدفوف[٤].

---

(١) المرجع نفسه، ص١٧٦ .

(٢) المرجع نفسه، ص١٧٩ .

(٣) كارستن نيبور، رحلة إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢ ، ترجمة مصطفى ماهر، ١٩٧٧م، ج١، ص٣٣٠ .

(٤) صوفيا لين بول ، حريم محمد على باشا، ص٢٨٣ .

حرف الجوارى :

اتصفت الجوارى المجلوبات من كل بلد بصفة معينة، فمنهن من لاتصلح إلا للخدمة المنزلية أو الرضاع وتربية الأطفال ، ومنهن من تكون للمتعة والغناء الطرب والرقص . ولكل غرض من هذه الأغراض السابقة وغيرها من جنس من الأجناس ، ونذكر على سبيل المثال إن الجوارى الجنكيات (نسبة إلى الجنك ، وهى آلة موسيقية تشبه العود) وهن طبقة من العازفات والراقصات كن فى الأصل من اليهود ، والأرمن واليونان، أو المغول، وعادة ما يلبسن ملابس الرجال والنساء معًا ، وشعورهن طويلة مرخاة بينما نسمع عن كثير من الجوارى الحبشيات أنهن كن يتخصصن فى الغناء ، بينما الجوارى اللاتى من أصول أوربية ، فعادة ما كن يتميزون كمحظيات للأمراء المماليك، وعلية القوم، كما أن منهن من تعمل فى الحانات «الخمارات» [(١)]. ومن الواضح أن هناك عدة عوامل تحكمت فى سعر كل جارية من هذه الجوارى، منها حالة العرض والطلب كأى سلعة من السلع التى يتم عرضها فى أى سوق من الأسواق . كذلك نوع الجارية والغرض الذى سوف تستخدم فيه كان له أثره فى سعر الجارية ، فتباع التى تجيد الغناء بسعر مرتفع، ولذلك كانت أسعار أمثال هؤلاء الجوارى المغنيات كانت ترتفع بشكل كبير جداً، خاصة إذا أخذت الغناء عن مشاهير المغنين ، لذلك حرصت الجوارى من هذا النوع كل الحرص على أن تكون إجازتهن ممن ذاع إسمه واتفق الناس على تقديمه وتفضيله وترديد أصواته . وهذا رأى له وجاهته [(٢)]. وتتعلم بعض الجوارى البيض نوعًا من الثقافة الأولية، إذ يتعلمن الموسيقى وبعض الفنون الأخرى[(٣)].

أما جوارى الخدمة المنزلية ، فكن يختلفن فى أسعارهن أيضًا بحسب مهارتهن فى أداء بعض الأعمال المنزلية، وبخاصة إجادة عملية الطهى، وربما كان هذا السبب وحده كافيًا لارتفاع أسعار بعضهن بشكل ملحوظ عن بقية هذه المجموعة من الجوارى[(٤)]. وفيما يختص بالمهارات فيمكن القول أن التدريب فى مجالات التجارة والحرف والخدمات المنزلية، وفى الأماكن العامة كالحمامات ، كانت صفات مرغوبة ، وأحيانًا تصبح الإماء من الطهاة المهرة فتمنح لقب

---

(١) على السيد محمود، نفس المرجع، ص١٢ .

(٢) المرجع نفسه، ص٢٦ .

(٣) إدوارد لين ، نفس المرجع، ص٢١٣ .

(٤) على السيد محمود، نفس المرجع ، ص٢٨ .

« أوسطى » . ويسكن الخدم والعبيد فى مكان البيت يبعد قليلاً عن مساكن العائلة. ويبدو أن ثمة تراتبا اجتماعيا كان موجوداً بين مختلف الجماعات التى انتموا إليها . وكانت بعض البيوت تشتمل على مكان مخصص للجوارى، أو حجرة كبيرة لهن، ولعلهن كن من اللاتى خصصن للخدمة المنزلية، فيمن لايوليهن السيد اهتماماً خاصاً [١]. أما عقاب الجارية، فان الزوجات والجوارى فى بيوت الطبقة الراقية عادة ما يعاملن الزوج بعطف ولين، كما أنه يبدو من ناحية أخرى أن حال الجوارى أفضل من الزوجات ، إذ أن بيع جارية قضت فى الأسرة فترة طويلة يعتبر مهينًا، إلا فى حالة الضائقة المالية. أما إذا أنجبت من السيد طفلاً واعترف أنه من صلبه، فان بيعها يكون مخلاً بالقانون . ولقد كانت معاملة الزوجات والجوارى بالنسبة للطبقتين الوسطى والدنيا تتسم عامة بالوحشية المتناهية، فكثيراً ما تتعرض الزوجات للضرب المبرح ، بينما قد يؤدى الضرب فى حالات ليست بالقليلة إلى موت الجارية . ولقد قام البعض بضرب جاريته ضربًا مبرحًا ، ظلت تعانى من جرائه حوالى أسبوع ثم ماتت، وانهال آخر بالضرب على جارية له مما جعلها تقذف بنفسها من النافذة فتسقط هامدة[٢].

اقتناء الجوارى :

لقد فشت منذ القدم بين بعض أفراد المجتمع عادة اقتناء الجوارى من قبائل الجلا Galla والأحباش والأحباش ، إما للزواج وإما للتسرى [٣]، أما المعيار الآخر للتمييز بين الجوارى، فيقوم على الأصل العرقى، فهناك تميز بين البيضاوات ذوات الأصول الأوربية كالبوسنيات والروسيات والجورجيات ، والحبشيات السود ، ذوات الأصل الزنجى، وكانت هناك فروق فى أسعار الجوارى بسوق العبيد تبعًا للون البشرة ، والأصل العرقى، مما كان له انعكاسه على المكانة الاجتماعية داخل العائلة [٤]. وكان أحد العثمانيين الذين يشغلون منصبًا مرموقًا يمتلك ما يقرب من عشر جوار بيض، أصبحن وصيفات لزوجته، وعديدا من الجوارى السود للخدمات الوضيعة . ظلت زوجته هذه الوحيدة، واحتفظت بمكانتها الرئيسية فى الحريم وفى قلب زوجها ، مع أن العديد من الجوارى البيض أصبحن محظيات لسيدهن ، إلا أنه لم يتخذ

---

(١) نيللى حنا ، نفس المرجع ، ص٢٣١ .

(٢) صوفيا لين بول ، نفس المرجع، ص١٩٢ .

(٣) إدوارد وليم لين ، المصريون المحدثون ، شمائلهم ، وعاداتهم ، ص٤٨ .

(٤) نيللى حنا ، نفس المرجع ، ص٢٣٠ .

زوجة ثانية ولم يخالج زوجته فى يوم ما أى شعور بالغيرة. وفى الواقع لايصح لزوجة شرقية أن تفصح عن مثل هذه الهواجس طالما لديها الحظوة الكبرى[١].

ولم يكتف علماء الأزهر بزوجة واحدة، بل كان لهم السرارى والإماء، فالقاضى محيى الدين عبد القادر النبراوى الحنبلى (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م) قد أكثر من الزواج . وكان الشيخ محمد عبد الخالق المنزلاوى الشافعى (ت ١٠٨٢هـ / ١٧٠٧م) عدد من السرارى والجوارى والشيخ تاج الدين محمد بن الحسن الحنفى (ت ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م)، كان له أكثر من جارية، بعدد قصوره الأربعين [٢]. كذلك تحدث برسى دافين عن زوجات الشيخ حسن الجبرتى، فقد أحبته زوجته الأولى واشترت له من مالها الخاص عدة جوارى، وعندما ذهب إلى مكة ، اشترى جارية صغيرة السن لاتكاد تتجاوز سن المراهقة ، وعهد بها إلى زوجته ، فقامت بعتقها ، وأقامت لها مسكنًا خاصًا بها وزوجته بها، فرزقت بعدة أولاد ، وعندما مرضت زليخا (وهو اسم الجارية) مرضًا شديداً حزنت زوجة الشيخ حزنًا شديداً عليها وبعد وفاتها بأيام قليلة، توفيت هى أيضًا[٢].

جوارى الزوجات :

لقدكان لبعض الزوجات جوارى خاصة يشترينهن، أو يقدمن إليهن قبل الزواج، وأولئك الجوارى لايصبحن سريات للزوج إلا باذن تسمح به السيدة أحيانًا، ولكن نادراً جداً. وكثيراً ما تأبى الزوجة لجاريتها أن تسفر فى حضرة زوجها، وقد يتسرى الزوج بالجارية دون إذن سيدتها ، وقد تحمل منه، فيصبح الطفل عبداً ، إلا إذا بيعت الأم أو أهديت إلى الأب [٣]. (والدة الطفل) والجوارى البيض غالبًا فى حوزة الأتراك- العثمانيين الأثرياء ، أما سرارى المصريين من الطبقتين العليا والوسطى، فهن من الحبشيات ، وتبدو تلك الحبشيات من سيماتهن ولون وجوههن من جنس وسط بين الزنوج والبيض، وإن كان الفرق بينهن وبين الجنس الأبيض من

---

(١) جميل عرفة منتصر، دور علماء الأزهر فى مصر العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ص١٠٠ .

(٢) الهام محمد على ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، ص٢٧٣ .

(٣) المرجع السابق، ص٢٧٣ .

(٤) إدوارد وليم لين، المرجع السابق ص٢١٠ .

تفاوت قليل فلايمكن حملهن على القيام بخدمة زوجات ساداتهن مع الخضوع الموجب، وتشعر الجارية السوداء نحو الحبشية الشعور نفسه ، ولكنها تخدم البيض بكل ارتياح . ومن المعروف أن الجوارى اللاتى يسمين حبشيات لسن- ما عدا القليل منهن- من بلاد الحبشة، ولكنهن من إقليم الجلا المجاور للحبشة ، وأغلبهن جميلات [١]. ولسيدات الطبقة الراقية جوارى من نفس جنسهن «إما» يعهد إليهن بالعناية بأمورهن ، وعلى رأس هؤلاء جميعًا «الخازنة» وهى التى تعنى بالمجوهرات والنقود وخزينة الملابس، وهى أول من تفوز بالعتق ويليها فى الترتيب والأهمية من حيث الوظائف تلك التى تؤمر باعداد القهوة والشربات ، أى تلك المكلفة برعاية واجبات الضيافة ، وتليها الآمة المكلفة بالتفتيش على المطبخ ، ولها السطوة على كل الإماء، وتتفاوت درجة تقسيم هذه الأعمال بحسب طبقة وثروة ربة البيت . وترعى الزوجة أن تبعد عن نظر زوجها الإماء الجميلات ، ولم يكن من النادر وخاصة فى القرن الثامن عشر ، أن نرى أرملة أحد البكوات تتزوج واحداً من مماليك زوجها، وفى هذه الحالة يظل هذا المملوك يحفظ لها بأكبرقدر من التقدير والرعاية مهما كانت المكانة التى يصل إليها فيما بعد[٢].

وحصلت بعض النساء على تعهد من زوجها بأن يوفر لها جارية واستبدالها بغيرها فى حالة وفاتها [٣]. واهتم العسكر بشراء الجوارى للقيام بأعمال الخدمة فى المنازل أو التسرى بهن، وكان بعض الأجناد يجبرون على شراء جارية أو أكثر لخدمة زوجاتهم المترفات ، وغالبًا ما كانوا يمنعون من التسرى بهن ، طالما كانوا متزوجين . وكان بعض العسكر يتسرون من جواريهم، ثم يعتقونهن ويقدمون لهن صداقًا لاتخاذهن زوجات، وذلك خاصة إذا كان لهم أولاد منهن، حتى يكون الأبناء من بطون حرة[٤]. أما عن عملية إعتاق الجوارى ، فإنه من المعروف أن المجتمع المصرى العثمانى مجتمعا إسلاميا تسوده روح الشريعة الإسلامية. فكان السادة سواء من الحاكمين أو الأهالى يحرصون على عتق العبيد والجوارى أثناء حياتهم، كما أنهم يوصون بعتقهم قبل الوفاة، أملا فى الثواب، بالحديث الشريف: «من أعتق نسمة مؤمنة ، أعتق الله له بكل عضو فيها عضواً من النار»[٥].

---

(١) ادوارد لين، المرجع السابق، ص٢١٠ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٨٩م، ص١٢٧ .

(٣) نللى حنا، نفس المرجع ، ص٢٣٢ .

(٤) عراقى يوسف حمد ، الوجود العثمانى فى مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، ج١، ص٣١٠ .

(٥) المرجع نفسه .

وشهدت سجلات المحاكم الشرعية، إعتاق الجوارى لوجه الله تعالى، وابتغاء مرضاته . فقد اعتق كثير من الأمراء المماليك جواريهم، فمنهم على سبيل المثال: الأمير سليمان ابن عبدالله، من أوجاق كمليان، جاريته الحبشية [١]، والأمير سنان بك أمير اللواء الشريف السلطانى والدفتردار [٢]، والأمير ذو الفقار[٣]، والخواصكى الزينى عبد القادر [٤]، والأمير محمود اغا الينكجرى [٥]، والأمير عيسى بك أمير اللوا السلطانى وأمير الحج الشريف [٦]. والأمير على بن زكريا من أمراء الجراكسة وكتخدا الجاويشية الذى اعتق جاريتين إحداهما روسية الجنسية والأخرى سوداء [٦]، والأمير إبراهيم أفندى خليفة بديوان مصر [٧]، ولم يكتف بذلك هذا الأمير، بل أعتق خمسة أرقاء ثلاثة رجال واثنتين من النساء فى نفس الوقت [٨]، والأمير مصطفى جبريل [٩]، والحاج أويس من أوجاق مستحفظان قلعة مصر المحروسة علوفة ١٠ بلوك ١٦٢ ، ولم يكتف بعتقها ، بل حدد لها مبلغًا وقدره ٦٠٠ قرش من تركته، واستلم المبلغ أحد الأمراء بموجب توكيل منها [١٠]، والأمير محمد أغا من أوجاق الجراكسة وأمين

---

(١) سجل المحكمة الشرعية بالاسكندرية رقم١٤ ، مادة ١٧٣ ص٣٦١ ، بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م.

(٢) المصدر نفسه ، رقم ٥ مادة ٧٦٥ ، ص٢٤٤ بتاريخ ١٧ ذى القعدة سنة ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م.

(٣) سجل رقم ١١، مادة ١٩١، ص٥٥ بتاريخ ٢ شعبان سنة ٩٧٠ / ١٥٥١م.

(٤) القسمة العسكرية ، سجل رقم ٢ وثيقة ٤٧٣، ص ٤٧بتاريخ عام ١٠٠٧هـ / ١٥٩٨م.

(٥) سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٧ وثيقة ٤٤٩ ص٢٩ بتاريخ ٤ ذى الحجة الحرام ١٠١٦هـ / ١٦٠٧م.

(٦) سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٤٣ ، ص٢٢٩ ، وثيقة رقم ٣٧٣ بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م.

(٧) سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٥٥، وثيقة ١٩٨ ص١٥٦ بتاريخ ١٢ صفر الخير ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م.

(٨) المصدر نفسه ، وثيقة رقم ٣٠١ ص٣٢٥ بتاريخ ٩ رمضان عام ١٠٦٢هـ / ١٦٥١م.

(٩) سجلات محكمة الباب العالى ، سجل رقم ١٣٦ ، ص٦ وثيقة رقم ١٤ بتاريخ ١٣ ذى الحجة المحرم ١٠٦٨هـ / ١٦٥٧م.

(١٠) سجلات القسمة العسكرية، سجل رقم ٦٣ وثيقة ٤٣٦ ص٢٦٣ بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ١٠٦٨هـ / ١٦٥٧م .

العسكر سابقًا ، وخصص لها مبلغًا من المال، وحدد لها غرفة فى منزله، اشترط عليها بعدم زواجها ، وإذا تزوجت يسقط حقها فى السكن [١]، والأمير ابراهيم بك أمير اللوا الشريف السلطانى وحاكم ولاية جدة[٢]، وقرا حسن جوربجى من أوجاق مستحفظان ، قام باعتاق أربعة ذكور ، وأنثى واحدة [٣]، والحاج إبراهيم ابن الحاج محمد[٤] والأمير على بن عبدالله من أوجق الجاويشية [٥]، وأيوب ابن درويش من أوجاق عزبان [٦]، والأمير سليمان ابن الأمير محمد العباسى ، أعتق جارية وابنها [٧]، والأمير أحمد جوربجى من أوجاق جراكسة أعتق مرقوقته ، فاطمة بنت عبدالله السمراء اللون [٨]، ولم تقتصر عملية العتق على الأمراء فقط، بل شملت بعض الأهالى [٩]، وقد يقوم البعض باتخاذ الاجراءات لعتق جاريته، وفى أثناء ذلك توافيه المنية، ولكن يؤكد الشهود ذلك، فتصبح حرة من أحرار المسلمات [١٠].

---

(١) سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٦٥، وثيقة رقم ٣٢٠ ، ص١٦٧ بتاريخ ١٩ ذو القعدة عام ١٠١٧هـ / ١٦٦٠م.

(٢) محكمة الباب العالى، سجل رقم ١٩٥ ، ص٥٠٥ ، وثيقة رقم ١٤٨٨ بتاريخ ٩ جمادى الأولى ١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م.

(٣) سجلات القسمة العسكرية، سجل رقم ٨١ وثيقة رقم ٨١٠ ، ص٥٦٧ بتاريخ ١٠ ربيع الأول عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م.

(٤) سجلات القسمة العربية ، سجل رقم ٦٦ وثيقة رقم ٣٥٣ ص٢٧٨ بتاريخ ١٣ جمادى الأولى عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م.

(٥) سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٩١ وثيقة رقم ٤٩٨ ص٣٤٤ بتاريخ ٥ شوال عام ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م.

(٦) سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٩١ وثيقة رقم ٤٩٨ ، ص٣٤٤ بتاريخ ٥ شوال عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م.

(٧) سجلات القسمة العربية سجل رقم ٧٢ وثيقة رقم ٦٦٨ ، ص٣٩٨ بتاريخ ١٧ رجب عام ١١١١هـ/ ١٦٩٩م.

(٨) سجلات محكمة الباب العالى سجل رقم ١٦٧ ، ص٣٢٦ ، وثيقة رقم ٨٣٥ بتاريخ ١٨ ربيع الآخر ١١٣٠هـ / ١٧١٧م

(٩) سجل المحكمة الشرعية رقم ١١، مادة ١١٩١ ، ص٢٥ بتاريخ ٢ شعبان ٩٧٨هـ/ ١٥٥١م.

(١٠) سجل رقم ٢٥، مادة ٧٦٥، ص٢٤٤ ، بتاريخ١٧ ذى القعدة عام ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م.

وقد كانت بعض السيدات يعتقن جواريهن أيضًا ، وكلما ارتفعت مكانة السيدة، وزاد ثراؤها ونفوذها ، كان ذلك من حُسن حظ جواريها، إذ يمكن فى هذه الحالة أن تدفع بهن بعد عتقهن إلى مراكز القوة والنفوذ ، كأن يتزوجن من الأمراء المماليك ، كما فعلت السيدة نفيسة ، زوجة على بك الكبير، التى كانت أكثر نساء الأمراء فى مصر من جواريها [١]. وقد يقوم البعض بعد اتخاذ إجراءات عتق جواريهم للزواج بهن. ولقد جرت العادة على أنه لايرى الرجل من يريد الزواج بها رؤية تامة ، إذا كانت من الحرائر ، وذلك فى حدود ما يسمح له الشرع الإسلامى لمريد الخطبة، بخلاف «الآمة» أو «الجارية» فقد كان يستطيع أن يراها ويعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها له قبل أن يقدم على الاقتران بها.

وعندما يتزوج السيد من جاريته ، جرت العادة وفقًا للشرع الإسلامى، أن يعاملها معاملة النساء الأحرار من حيث تخصيص صداق لها، ولعل دافعه إلى هذا كان إحساس بالمسؤولية نحو جاريه كأفراد من أسرته[٢]، لذلك نجد أنه فى أوجاق مستحفظان أقبل كبار رجالاته من الكتخدوات والاختيارية على الزواج من معتوقات زملائهم فى الأوجاق نفسه أو غيره من الأوجاقات، ويرتبط الصداق بطبيعة الحال بالمستوى الاجتماعى للزوج، فعلى حين نجد ما قدمه أحد كتخدوات مستحفظان من صداق لمعتوقة بيضاء عام ١١١٩هـ / ١٧٠٧م، قد بلغ كيسا مصريا (خمسة وعشرون ألف بارة) ، نجد أن أحد أمراء هذا الأوجاق نفسه يقدم صداقًا (عشرة آلاف نصف فضة) أى أقل من نصف سابقه، كما قد ينخفض إلى ألف وسبعمائة وخمسين نصف فضة لصداق قدمه أحد أفراد الأوجاق [٣]، كما تزوج الأمير عمر بن الأمير عثمان من رحمة خاتون المرأة بنت عبدالله البيضا بمقدم صداق ٤٠ قرشًا، والمؤخر ٢٠ قرشًا. وقد استلمه وكيلها الأمير مصطفى الجميلة وكتخدا الجاويشية ، وقد شهد على عقد قرانها سليمان بن زين عبد المعطى شيخ سوق الوراقين. وقد اتفق على دفع المؤخر عند الطلاق أو موت زوجها، كما نص فى العقد على كسوة زوجته صيفًا وشتاء[٤]. وتزوج على أوده باشى مستحفظان من فاطمة خاتون بنت عبد الله البيضا المعتوقة من الأمير عثمان جوربجى مستحفظان بمقدم صداق ثلاثة

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ج٤، ص٢٨٢ .

(٢) على السيد محمد، نفس المرجع، ص٣٣ .

(٣) عراقى يوسف محمد، نفس المرجع ، ص٣٨٩ .

(٤) سجل محكمة الباب العالى رقم ١٥٦ ، ص١٥٧ وثيقة رقم ٥٠٩ بتاريخ ١٥ ربيع الثانى عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م.

آلاف نصف فضة ، والمؤخر ألف نصف فضة، تبدفع عند موت زوجها أو طلاقها منه[١] كما تزوج الأمير إسماعيل كتخدا مستحفظان قلعة مصر، تابع الأمير إبراهيم كتخدا مستحفظان باشى جاويش اختيار من زينب بنت الأمير يوسف جوربجى تابع الأمير إبراهيم كتخدا مستحفظان باشى، وقد اتفق على مقدم صداق مائة دينار ذهب زنجرلى دفعها إلى وكيلها على أفندى، كاتب كبير مستحفظان أما المؤخر فهو خمسون ديناراً زنجرليًا يدفع عند أقرب الأجلين[٢] ويلاحظ أن الزواج لم يقتصر على معتوقات الرجال فقط بل وصل إلى زواج من معتوقات النساء أيضًا . وفى أوجاق عزبان نلمس الظاهرة السابقة من حيث لجوء غالبية رجاله إلى الزواج بمعتوقاتهم ، أو معتوقات زملائهم من العسكر، ويتزوج أفندية المتفرقة، والجاويشية العاملون بالشؤون المالية من معتوقات المماليك[٣].

وفى أوجاق الجراكسة ، تزوج الأمير أحمد بن الأمير على من أمراء الجراكسة وباشى قافلة من عائشة بنت عبد الله البيضا بمقدم صداق ثلاثة نصف فضة . واستلم مقدم الصداق وكيلها الأمير محمد أغا ابن الأمير حن من أعيان الجراكسة ، والمؤخر ألف وخمسمائة نصف تتسلمها عند موت أو فراق زوجها[٤] . كما تزوج الأمير سليمان جوربجى الجراكسة من رابية بنت الزينى شاهين ابن المرحوم مراد جاويش ، بمقدم صداق ألفان نصف فضة ، والمؤخر ألف تدفع عند الطلاق أو الموت لزوجها [٥]. واتفق أيضًا على كسوتها صيفًا وشتاء، وقد استلم وكيلها الأمير شعبان جاويش بن على جاويش[٦]. كما تزوج الأمير إسماعيل جوربجى أوجاق الجراكسة وباشى جاويش الطايفة المذكورة من عائشة خاتون بنت عبدالله البيضا معتوقة إبراهيم عجم باشى اختيار جراكسة، والمؤخر ٣٦ دينارا [٧]. وفى أوجاق المتفرقة تزوج الأمير

---

(١) سجل محكمة الباب العالى رقم ١٩٧ ، ص٥٣ ، وثيقة رقم ١٨٦ بتاريخ ١٥ شوال عام ١١٦٥ ، ١٧٥١ .

(٢) نفسه .

(٣) محكمة باب سعادة الخرق، سجل رقم ٤٢٣ رقم ١٦٦ بتاريخ ١٥ شوال عام ١١٦٥هـ / ١٧٥١م .

(٤) الباب العالى، رقم ١٥٦ ، وثيقة رقم ٥٠٩ ، ص١٥٧ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثانى عام ١٠٨٢هـ / ١٦٧١م.

(٥) المصدر نفسه ، رقم ١٩٧ ، وثيقة رقم ٨ ص٣ بتاريخ ١٦ صفر عام ١١٢٩هـ / ١٧١٦ .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) سجل رقم ١، وثيقة رقم ٢٦٠ ، ص٩٥ بتاريخ ١٦ صفر عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م.

إبراهيم أغا بن عبدالله تابع الأمير غيطاس بك من خديجة البكر البالغ بنت عبدالله البيضا معتوقة إسماعيل أغا دار السعادة على مقدم خمسة آلاف نصف فضة، قبضها وكيلها الأمير باكير أغا عبدالله من المتفرقة معتوق إسماعيل أغا . أما المؤخر خمسة آلاف نصف فضة تدفع لها عند الموت أو الطلاق [١].

ومن الملاحظ أن صغار المتفرقة من المماليك [المعاتيق] كانوا يتزوجون من معتوقات الأمراء والروزنامجية وغيرهم، كما أن رجال المتفرقة يزوجون معاتيقهم بالمعتوقات العاملات بخدمتهم ليبقوا فى خدمة سادتهم [٢]. وقد يتزوج المملوك المعتق بمحظية أستاذه ، ليرث أملاكه، كما حدث لعثمان كتخدا القازدغلى عندما قام مملوكه بالزواج من محظيته [٣]. وتزوج صغار السباهية معتوقات زملائهم أو معتوقات رجال الإدارة المالية والباشوات وكان سادتهن بمثابة أولياء أمورهن . بينما كثير من الإنكشارية من أصل مملوكى (معاتيق) وقد صاهروا زملاءهم من مختلف الأوجاقات ، وفى الغالب كان كل منهم يصاهر بنى جنسه من البيض أو السود، وقد تراوح صداق الإنكشارية بين عشرة ومائة دينار. وكان رجال أوجاق العزب غالبًا من المماليك (المعاتيق) وقد توزعوا بين جماعتى [عزبان قلعة مصر عزبان السويس] [٤]. ومن الجاويشية رجال تخصصوا فى خدمة بندر السويس، وعرفوا باسم جاويشية جماعة السويس قد اتجهوا للزواج من معتوقات زملائهم من الجاويشية والمتفرقة بديوان مصر، ونادراً ما كانت زوجاتهم يقبلن السفر إلى السويس للإقامة بها [٥]، ويرتفع الصداق الذى يقدمه رجال الجاويشية والمتفرقة وهم من أمراء المماليك إلى كيس مصرى، أو يزيد، بينما يقل يقدمه أحد العسكر منهم إلى خمسمائة نصف فضة [٦].

---

(١) الباب العالى رقم ١٩٢، ثيقة رقم ٢٦٠ ، ص٩٥ بتاريخ ١٦ صفر عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م.

(٢) سجل رقم ١، وثيقة رقم ١٧٤، ص٨٤ / ٨٥ بتاريخ ١٧ شعبان عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م

(٣) عراقى يوسف محمد، نفس المرجع، ج١، ص٣٠٢ .

(٤) عراقى يوسف محمد، نفس المرجع ، ج١، ص٣٠٢ .

(٥) المرجع نفسه، ج١، ص٣٠١ .

(٦) المرجع نفسه، ج١ ، ص٣٩٠ .

ولم يقتصر زواج المعاتيق على رجال الأوجاقات العسكرية من المعاتيق ، بل وصل إلى أحد باشوات مصر (باكير باشا) قد زوج ثلاثة من أبنائه عام ١١٥١هـ / ١٧٣٥م، فقد زوج أكبرهم بابنه شيخ الحرم المكى، والآخران بجاريتين (معتوقتين) وكسيت العروس بملابس فاخرة، وحزامًا من الجواهر يصل ثمنها إلى ثلاثين كيسًا مصريًا وتحلت بأنواع مختلفة من الحلى المصنوعة من الذهب والجواهر واللؤلؤ «كسوة أولاد الملوك »[١]. كما تزوج على بك الكبير من آمنة خاتون بعد عتقها ، ودفع مقدم صداقها خمسمائة دينار ومحبوب، والمؤخر مائتان وخمسون دينار، وتقبضها عندما يحل لهما أقرب الأجلين [٢]. كما تزوج الأمير حسين بك أمير اللوا الشريف السلطانى من معتوقة أميرالشريف الأمير حسين بك سردار الخزينة العامرة ، بمقدم صداق ثلاثمائة شريفًا زنجرليا ، دفعت إلى وكيلها الأمير عثمان بك ذو الفقار ومؤخر مائتان شريفًا زنجرليا، على أن يدفع فى أقرب الأجلين[٣]. وقد لوحظ أن الذين حضروا حفل عقد القران الكثير من الأمراء والأعيان، وتعتبر أهمية هذه الوثيقة أن تدوينها من حضر هذا الحفل، وقد صارت العادة أن وثيقة عقد القران يلون بها الشهود فقط.

وارتفعت مكانة الجوارى البيض حيث يتميزن بصداقات عالية قد تصل إلى أربعة أضعاف ما يقدم للجوارى السود وفى نفس الوقت أكبر من صداقات الحرائر فى المجتمع ، ويتولى المعتق أو ابنه أو خشداشه (زميله) الوكالة عن الجارية المعتوقة فى عقد الزواج ، ويرتبط مستواها الاجتماعى بمنزلة سيدها . ولقد وضعت قيود صارمة من جانب المماليك لضمان حقوق معتوقاتهم من الزوجات تجاه الحرائر . فينص فى العقد على إلزام الزوج بعدم إعادة مطلقته السابقة- من الأهالى- وأن لايتزوج أو يتسرى على زوجته المعتوقة ، وألا تكون طالقًا طلاقًا بائنًا وتخرج بذلك من عصمته [٤].

أما الأهالى فإن كثيراً منهم يشترون الجوارى اللاتى تجلبهن القوافل السودانية ويقومون باعتاقهن والتزوج بهن والإنجاب منهن، مما أوجد جيلاً تجرى فى عروقهن دماء مشتركة ، وكثير من هؤلاء ممن أعتق الجوارى وزوجهن لمماليكه أو لأشخاص آخرين من المصريين الذين

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات، ص٦٠١ .

(٢) محكمة باب سعادة ، سجل رقم ٤٢٣، ص١١٦ ، بتاريخ ٥ شوال عام ١١٦٥هـ / ١٧٥١م.

(٣) محافظ الدشت رقم ٢٥٥، ص١١٠٧ ، بتاريخ ١١ شعبان عام ١١٤٨هـ / ١٧٣٥م.

(٤) عراقى يوسف محمد ، نفس المرجع ، ص٣٩١ / ٣٩٢ .

يعملون فى ميادين العمل التجارى والحرفى، أو حتى لأبناء الجاليات الأخرى التى كانت تعيش فى المجتمع المصرى، والتى أصبحت فيما بعد مصرية دما ولحما . هذا فضلاً عن أن عملية التزاوج هذه كانت بصورة كبيرة بين أبناء الصعيد الأعلى والسودانيات ، وكذلك حدث العكس. وكان لبعض المصريين زوجة سوداء أو زوجات سوداوات من معتوقاته، أو من معتوقات غيره ومعنى ذلك أن تجارة العبيد وبخاصة الجوارى لم تكن بهدف العمل فى المنازل أولاً وأخيراً ، وإنما تعدت هذا الهدف إلى هدف إعتاقهن ، والتزوج منهن ، وربما يفسر هذا التصرف سر ارتفاع نسبة الجوارى بين أعداد العبيد التى كانت تجلب إلى أسواق القاهرة ، سواء أكانت دارفور أم سنار، لأن كثيراً من الذين يشترون الجوارى كانوا يقومون باعتاقهن والزواج بهن . وليس من شك كما عرف أن هذه العملية كانت لها بصماتها على الحياة فى الأجيال الآتية(١).

وقد تزوج أحد أثرياء التجار بالقاهرة فى القرن السابع عشر وهو إسماعيل أبو طاقية ، حيث اتبع النسق المرتبط بالنخبة العسكرية، فبعد عام ١٠١٧هـ / ١٦٠٨م تزوج إسماعيل أبوطاقية من زوجته الأخيرة ، وكان قد تجاوز الأربعين من عمره، وكانت هناء جورجية الأصل، معتوقة وزوجة زميله الخواجا أبو النصر الطرابلسى ، الذى كثيراً ما تعامل معه من قبل . وبعد وفاة أبو النصر الطرابلسى فى عام ١٠١٧هـ / ١٦٠٧م استمر اسماعيل أبو طاقية فى التعامل مع حمد بن أبو النصر الطرابلسى . ولكن لماذا رغب الزواج فى تلك المرحلة من عمره، ورغم وجود أزواجه الثلاث وعدد من الجوارى، ورغم أنه كان - عندئذ- أبا لعدد من الأبناء؟ ولعل السبب الذى دفع إسماعيل لذلك هو جمال هناء وافتتانه بها، ويبدو أن ابنتها الوحيدة ؟ التى أنجبتها من إسماعيل كانت تماثلها جمالا لأنها طلبت كثيراً للزواج أكثر من أخواتها الأخريات اللاتى كن يكبرها سنا. وتشير الوثائق إلى قيام أبو طاقية بتسجيل شراء عدد من الجوارى كن يقمن فى بيته ، وهى سمة أخرى من سمات الثراء والوجاهة ، شاعت بين علية القوم ، وكان الاقتداء ببعض مظاهر الواجهة التى ميزت النخبة الحاكمة أمراً مطلوبًا فى ذلك الوقت من أوقات الحراك الاجتماعى الذى شهدته القاهرة فى تلك الحقبة(٢). وقام أحد الأهالى باعتاق جاريته ثم تزوجها بعد ذلك وحدد لها مقدم الصداق خمسة دينارات ذهب،

---

(١) عراقى يوسف محمد، المرجع السابق، ص٣٩١ ، ٣٩٢ .

(٢) نللى حنا، تجار القاهرة ، نفس المرجع ، ص٢٢٦ ، ٢٢٧ .

وقد لوحظ هنا أنه لم يحدد مؤخر الصداق [١]. ونجد حالة ثانية حدد بها مقدم الصداق خمسة آلاف نصف فضة ومؤخر صداق أيضاً [٢]. كما شمل الزواج من الجوارى بعد إعتاقهن بعض أفراد الجاليات العربية، مثل زواج أحد المغاربة من معتوقته السردينية بعد إشهار إسلامها [٣]، كما تزوج أحد الحجازيين بمعتوقته الحبشية [٤].

وترتدى الجارية يوم زفافها أفخم الثياب، وتفرش أرض الحرملك الذى تنتمي إليه بالشيلان الكشميرية والأقمشة المقصبة لتمشى فوقها، كما تستأجر المغنيات والراقصات لهذه المناسبة وتحيط بالعروس فتيات يحملن المباخر، وينثرن العطور [٥]. ومن الظريف أن فرط باشا اشترى جارية لرجل غير مقتدر، فأمر أغا الحريم بشرائها لحسابه وأعتقها، وعقد قرانها على هذا الرجل، وأسس له منزلاً ، وجعل له علوفة [٦]. وخصصت إحدى السيدات العواجيز التى تزوجت من شاب ، إحدى الحبشيات الجميلات لتكون زوجة له . واتضح بعد ذلك أنها مكيدة دبرت له لأنه وافق على ذلك [٧]. وعلى الرغم من مرور مصر بانتشار وباء الطاعون إبان ولاية عبدالله باشا الكبرلى [١١٤٢-١١٤٤هـ / ١٧٢٩-١٧٣٢م] إلا أنه اهتم ببناء مقبرة فخمة لمحظيته التى توفيت أثناء انتشار هذا الوباء[٨].

وبالنسبة للميراث: فإنه يذكر أن السادة من العسكر وأولادهم كانوا يرثون فى تركات معاتيقهم من العبيد والجوارى كما يرث هؤلاء المعاتيق فى مخلفات سادتهم[٩] وقد تكون

---

(١) القسمة العربية ، سجل رقم ١٧، وثيقة ١٤ ص٦ بتاريخ ٨ رمضان عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م.

(٢) القسمة العسكرية ، سجل رقم ٩١ ، وثيقة ٤٨٨ ، ص٣٤٤ بتاريخ ٥ شوال عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م.

(٣) سجل المحكمة الشرعية بالاسكندرية رقم ٨ ، مادة ٧٦٥ ، ص٢٨٥ بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(٤) المرجع نفسه ، رقم ٧١ ، مادة ٥٦٦ ، ص٢٤٣ بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م.

(٥) صوفيا لين بول، نفس المرجع ، ص١٤٨ .

(٦) أحمد جلبى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة ، تحقيق محمد فؤاد الماوى القاهرة ١٩٧٧، ص١٥٧ .

(٧) صوفيا لين بول ، نفس المرجع ، ص٢٤٠ .

(٨) أحمد شلبى عبد الغنى، أوضح الإشارات، ص٥٧٤ .

(٩) نفسه.

إحدى الجاريات ميراثا لأحد الأبناء وارثها عن والدته، وقاصراً ، ففى مثل هذه الحالة تباع عن طريق الوصى- والده [١]. ويوقف البعض من الأمراء بعض ممتلكاته على بعض عتقائه ولكنه يشترط أن يتزوج المعتق من معتقه مثله وألا يحرم من الوقف لأنه أخلّ بشروط الوقفية. وهناك حالة أخرى بنفس الشروط أنه مقصور فقط على الإماء من ذوى البشرة السوداء، ففى حالة زواج إحداهن بأجنبى يتم حرمان الأبناء من الميراث ولايسمح لهن على أية حال بأن يرث أبناؤهن سوى نصف ما يرثه العبيد أصحاب اللون الأبيض رجالاً ونساء فكل وثائق الوقف يحرص أصحابها على أن يشترط ألا تكون هناك تفرقة بين العبيد من الرجال والنساء ومن ذوى اللون الأبيض والأسود[٢]. وهناك شرط آخر فى وقفية على كتخدا يوضح احترامه لسيده وحرصه على المحافظة على بقاء البيت . فقد اشترط على كتخدا أنه بعد وفاة كل المستفيدين من وقفه يصبح الوقف جزءاً من وقف صالح جلبى. وقد كان كل من على كتخدا وزوجته «حنيفة قادن بنت عبدالله البيضا » من معتوقى صالح جلبى.

ونجد أن إحدى المعوقات التى تزوجت من أحد الأمراء المماليك أنها وضعت شروطا ومن ضمنها شرط اشترطتها صاحبة الوقفية بأن يسمح لناظر وقف زوجها بأن يذهب إلى جورجيا ليشترى من هناك جارية لابد أن تتوفر فيها صفات منها أن تكون رشيدة وصالحة للدين والدنيا، وإذا اتضح أنها غير أمينة على ناظر الوقف أن يقوم بطردها وشراء أخرى، أما إذا كانت لديها الصفات المطلوبة فعليه أن يعتقها ويتزوجها . وإذا ظهر بعد الزواج أن بها عيباً أو خللا فعليه أن يطردها ويشترى أخرى. وقد كان هناك مبلغ مالى منفصل مخصص كثمن للجارية. والهدف من هذا الشرط أن تصبح هذه الجارية ناظرة لوقف الزوجة بعد وفاتها[٣] . وهكذا سلطت الدراسة الأضواء على قيام الجاريات فى المجتمع المصرى العثمانى بدور هام لايقل أهمية عن أى فرد داخل الأسرة. وإن كان يطلق المهمشون داخل الأسرة.

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى، المرجع السابق، ص٥٧٤ .

(٢) عراقى يوسف محمد، المرجع السابق، ج١ ، ص٣٠٧ .

(٣) سجل محكمة اسكندرية ، سجل رقم ١٨ ، مادة ٢٦٧ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٩ ربيع الأول عام ٩٩٠هـ / ١٥٨٠م .

٢- الأندلسيون حياتهم الاقتصادية والاجتماعية فى مصر العثمانية:

دراسة عن مدينتى الاسكندرية ورشيد

تتناول هذه الدراسة ، هجرات المغاربة والأندلسيون إلى مصر فى عصور مختلفة، والأسباب التى من أجلها قصدوا مصر وخاصة الإسكندرية ، ومنها انتشروا إلى بعض المدن المصرية ؛ إلى رشيد والقاهرة ودمياط ، واستقروا بها، ولذلك سنحاول فى هذه الدراسة إلقاء الضوء على هجراتهم ومعهم الأندلسيون وخاصة بعد الكارثة التى حلت بهم فى بلاد الأندلس واستنجادهم بالمغرب أولاً ثم بالقوى الإسلامية فى المشرق والممثلة فى المماليك والدولة العثمانية ، وموقف كل منها تجاههم ، ثم نتابع بعد ذلك استقرارهم فى بعض المدن وممارستهم للحياة الاقتصادية والاجتماعية.

وكان لموقع مدينة الاسكندرية الجغرافى أثر كبير فى توثيق العلاقات بينها وبين بلاد المغرب والأندلس فى العصور الوسطى، فالاسكندرية كانت ثغراً من الثغور الإسلامية الهامة، وكانت رباطا ترابط فيها- منذ أن دخلها المسلمون- حامية مسلحة كبيرة ، فقد خصص عمرو ابن العاص ربع جيشه لرباط الإسكندرية يقيمون بها ستة أشهر ثم يستبدلون بربع آخر، وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط فى الاسكندرية ، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين، وحاولوا الهجوم عليها واستردادها(١).

فالمسلمون الأوائل كانوا يعتقدون أن الإقامة فى الرباطات والحياة فى الثغور نوعًا من الجهاد ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد، ولهذا جذبت الاسكندرية فى العصور الإسلامية الأولى عددا كبيراً من المسلمين ، ومن العلماء بوجه بوجه خاص، ومن علماء المغرب والأندلس بوجه أخص (٢).

كما أن مسلمى المغرب والأندلس كانت تتطلع نفوسهم وتهفوا أرواحهم دائمًا إلى المشرق منبت الدعوة الإسلامية ، ومقر البلدان المقدسة: مكة والمدينة، وبيت المقدس، وموطن العالم الإسلامى، ودار العلماء والمعاهد العلمية المختلفة؛ فقد كانوا فى شوق دائم إلى الرحلة إلى هذا المشرق، وهدفهم الأول أداء الفريضة، والحج إلى بيت الله ، وزيارة قبر الرسول - ﷺ - والإلمام بالمساجد ومعاهد العلم، ومقابلة العلماء والأخذ عنهم.

---

(١) جمال الدين الشيال، أعلام الاسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٦٥ م، ص٥٠ .

(٢) المرجع نفسه، ص٥١ .

وكان المحط الأول لرحلتهم المشرقية هو مدينة الإسكندرية ، الرباط والثغر الإسلامى الكبير، يصلون إليها بعد رحلة طويلة شاقة مضنية عبر الصحراء حينًا، وعلى ظهور السفن حينًا آخر، وكانوا إذا وصلوا إليها أقاموا فيها فأطالوا الإقامة ، طلبًا للراحة من عناء السفر، ولزيارة معالمها التاريخية التى كانت تبهر أنظارهم وقتئذاك ، مثل : المنارة - إحدى عجائب الدنيا- وعمود السوارى، والمسلات ، والقصور والكنائس القديمة. والأسوار الشاهقة وما يتخللها من أبراج وحصون وأبواب، وأخيراً المساجد التى بنيت فى العصر الإسلامى لتكون معابد يذكر فيها اسم الله كثيراً ومدارس لنشر العلم[١].

وكان هؤلاء المغاربة والأندلسيون يستأنفون رحلتهم بعد ذلك فيؤدون الفريضة، وقد تشوق البعض منهم إلى الرحلة ومباهجها ، فينتقلون فى مدن الشرق وأمصاره الكبرى، مثل بغداد أو دمشق أو بيت المقدس، وغيرها، لزيارتها والإفادة من علمائها ثم يعودون بعد هذه الرحلة الطويلة، إلى الإسكندرية ليستأنفوا منها طريق العودة إلى بلادهم ، ولكن كثيرين منهم- وخاصة العلماء وطلاب العلم- كانوا يؤثرون البقاء في الإسكندرية واتخاذها وطنًا ودار إقامة، لينالوا شرف المقام فى هذا الثغر والرباط العظيم، وليستزيدوا من علم يطلبونه، أو لينشروا علمًا حصلوه.

وقد زادت صلة الإسكندرية بالمغرب توثقًا منذ أن أتي الفاطميون بجيوشهم من المغرب وفتحوا مصر واتخذوها مقراً للخلافة، فقد أصبح المغرب منذ ذلك الفتح ولاية تابعة لمصر الفاطمية، ونتيجة لهذا كثرت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى مصر وإلى الاسكندرية بوجه خاص.

وبرغم أن المذهب الرسمى للدولة فى العصر الفاطمى كان هو المذهب الشيعى، وبرغم أن الدولة بذلت جهوداً كبيرة لنشر هذا المذهب بين المصريين جميعًا، فقد ظلت مدينة الاسكندرية مدينة سنية، وكان المذهب المنتشر بين الاسكندريين والمعمول بينهم هو مذهب مالك منذ انتشار هذا المذهب فى المغرب بين المغاربة ، فقد كان عدد كبير من علماء الإسكندرية فى العصر الإسلامى- المصريين منهم والمغاربة - مالكى المذهب[٢].

---

(١) المرجع نفسه، ص٥١ .

(٢) المرجع نفسه، ص٥٢ .

ومن كبار هؤلاء العلماء المالكية الذين رحلوا من المغرب والأندلس إلى الإسكندرية، واستقروا بها فى القرن الخامس الهجرى- أى فى العصر الفاطمى- واتخذوها وطنًا ودار مقام لهم، الفقيه العالم والصوفى الكبير أبوبكر الطرطوشى الأندلسى[١].

أما الهجرة الأندلسية ، فقد حدثت نتيجة للاضطهاد الذى لقيه المسلمون فى الأندلس، وأن الكثير منهم هاجر إلى بلدان المغرب، واستقروا فيها فترة من الزمن وأصبحوا ينتسبون إلى البلدان المغربية، ثم جاء الكثير منهم بعد ذلك إلى الإسكندرية ، ومدن الثغور المصرية، التى يوجد بها عدد لابأس به من العائلات المغربية التى يعود نسبها إلى أسر عربية أندلسية[٢] .

واتجه الأندلسيون أولاً إلى المغرب، لأن هذا الأخير كان دائمًا وراء العمليات الجهادية التى يقوم بها هؤلاء يقول المؤرخ الأندلسى المجهول فى هذا الصدد: «إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا وعدونا قد بنى علينا وسكن وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفًا ، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا».

ويرجع عدم تمكن المغرب من تقديم المساعدة إلى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كان يعيشها آنذاك ، وهى ظروف عاينها الأندلسيون بأنفسهم بعد مجيئهم إلى المغرب، حيث أصيبت مدينة فاس بأزمة اقتصادية حادة، وانتشر وباء الطاعون ، بالإضافة إلى الصراعات السياسية ، مما سهل للأوربيين الاستيلاء على بعض المدن المغربية مثل مدن عنابر العدوة، وطنجة وأصيلا، ومارمول ، ومن شدة الأزمة الاقتصادية فى تلك المناطق اضطر السكان لبيع أطفالهم ونسائهم للحصول على قوتهم اليومى. فلم يبق إذن، بعد هذه الوضعية إلا الاتجاه إلى الشرق الإسلامى [مصر المملوكية، والدولة العثمانية] خاصة أن الأسبان كانوا يربطون دائمًا بين سقوط القسطنطينية وسقوط غرناطة، إذ عوضت هذه الأخيرة الأولى والخطوات التى كان يخطوها الأتراك العثمانيون فى أوربا كانت تقابلها مثيلاتها فى إسبانيا[٣].

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، «الأثر المغربى والأندلسى فى المجتمع السكندرى فى العصور الإسلامية الوسطى، ضمن كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور المختلفة جامعة الاسكندرية، عام ١٩٧٣م، ص٢٠٧ .

(٢) محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٧،١٦ أفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، المغرب ١٩٩٨م، ص٦٣ .

(٣) محمد بن إياس الحنفى المصرى، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج٢، ص٢٩٣ .

وقد تردد صدى هذه المحنة التى نزلت بمسلمى الأندلس بسرعة فى سائر جنبات العالم الإسلامى حيث استولى الأسبان على غرناطة ، وقتلوا المسلمين، الذين لم يتنصروا مما أدى إلى دخول الكثير من المغاربة خوفا على أنفسهم من القتل، ثم ثار المسلمون عليهم ثانيا وانتصروا عليهم بعض شئ واستمرت الحرب بينهم[١].

أما المسلمون الذين بقوا فى مملكة البرتغال ، فقد كان مصيرهم فيما يبدو أفضل من مصير إخوانهم مسلمى الأندلس، فقد قضى العرش البرتغالى باخراجهم من أراضى المملكة فى سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م والسماح لهم بالعبور إلى المغرب أو حيث شاؤوا ، ونظراً لما لقوه من صعاب فى اختراق الأراضى الأسبانية، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان (فرديناند وإيزابيلا) تحقيقًا لرغبة ملك البرتغال مرسومًا فى عام ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م يصرح فيه للمسلمين البرتغاليين ونسائهم وأولادهم وخدمهم، أن يخترقوا أراضى مملكة قشتالة ، وأن يذهبوا بأموالهم وأمتعتهم إلى البلاد الأخرى، وأن يبقوا فى أراضى مملكة قشتالة الوقت الذى يرغبون ثم يغادرونها بأموالهم متى شاؤوا، ولايسمح لهم بحمل الذهب والفضة إلى الخارج، ويؤمنون على أنفسهم وأموالهم ضد كل اعتداء ولايؤخذ منهم شئ بلا حق.

تلك هى المأساة التى تحولت فيها بقية الآمة الأندلسية بالتنصير المفروض، إلى طائفة جديدة عرفت من ذلك التاريخ بالموريسكيين (Moriscos) أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين وقد فرض التنصير على المسلمين فرضًا ، ولم تحجم السلطات الكنسية والمدنية، عن اتخاذ أشد وسائل العنف، ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف دون تذمر ودون مقاومة، وسرت إليهم أعراض الثورة ولاسيما فى المناطق الجبلية. حيث كان ما يزال ثمة قبس من الحماسة الدينية وكانت السياسة الأسبانية تلتمس الوسيلة للتخلص نهائيًا من العهود المقطوعة، فألقت فى التذمر والمقاومة سندها، وقرر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين فى المغرب ومصر وقسطنطينية، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية، ونفى المخالفين من الأراضى الأسبانية. وهكذا حاول مجلس الدولة أن يسبغ صفة الحق والعدالة على التنصير المغصوب ، وعلي كل ما يتخذ لتحقيقه من إجراءات العسف والإرهاق [١].

---

(١)محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الجزء السابع، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠١م، ص٣٢٢ .

(٢) المرجع نفسه، ج١ ، ص٣٢٣ .

وكانت الكلمة لكنيسة دائمًا، ففى عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م أصدر فرناندو ،إيزابيلا أمراً ملكيًا خلاصته «أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة » فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، فاذا كان بها بعضهم فانه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم، خوفًا من أن يتأخر تنصيرهم، أو بأولئك الذين تصروا لئلا يفسدوا إيمانهم، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال (١).

وكان موقف المماليك من مسلمى الأندلس سلبيًا ، ويرى بعض المؤرخين أن السبب فى ذلك يعود إلى بُعد الأندلس الذى كان يمثل عقبة كؤود أمام تقديم هذه المساعدات ، إلى جانب ذلك لم يكن باستطاعة المماليك تجهيز أسطول قوى يستطيع مواجهة البحرية القشتالية ، فلم يكن للمماليك عناية بأمر السفن لأنهم فرسان، قوتهم برية وليست بحرية ، كما أن سلاطين المماليك كانوا قد رسموا سياستهم الخارجية على أساس الاتجاه كلية نحو الشرق، فقد كان لزامًا عليهم دفع خطر المغول، ثم التصدى ذلك لمشاريع الدولة العثمانية التى كانت ترمى إلى الاستيلاء على الدولة المملوكية (٢).

وحاول المسلمون فى يأسهم أن يلجأوا إلى معاونة سلطان مصر الأشرف قايتباى [٨٦٥-٩٠٢هـ / ١٤٦٠-١٤٩٦م] فأرسلوا إليه كتبهم يصفون إكراههم على التنصير، ويطلبون إليه أن ينذر ملك أسبانيا بأنه سوف ينكل بالنصارى المقيمين فى مملكته إذا لم يكف عنهم، فنزل سلطان مصر على هذه الرغبة، وأرسل بعدة رسائل موجهة إلى البابوية فى عهد الباب أنوسنت الثامن وإلى فرديناند وإيزابيلا يخطرهم بما تقدم وانتهز فرناندو هذه الفرصة فأوفد إلى بلاط القاهرة عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م بسفارته فى عهد السلطان الغورى- والتى كان سفيره فيها بترو مارتيرو الحبر الكاتب والمؤرخ فأدى مارتيرى سفارته ببراعة ، واستطاع أن يقنع السلطان بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية، وأن يطمئنه دائمًا على مصيرهم(٣).

---

(١) المرجع نفسه، ج٧، ص٣٢٤ .

(٢) انطونيو دومينقرهورتز ، برناردبنشت ، تاريخ مسلمى الأندلس «الموريسيكيون»، حياة ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال صالح، تقديم وتنقيح ، محمد محيى الدين الأصفر، الدوحة، قطر، ١٩٨٨م، ص٧ .

(٣) محمد عبدالله عنان، المرجع السابق، ج٧، ص٣٢٤ .

وقد وجهت إلى السلطان بايزيد الثانى فى سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م أى قبل سقوط غرناطة بخمس سنين رسالة هى إلى طابع الرثاء العربى أقرب منها إلى شئ آخر، وفيها يشتكى الأندلسيون من المعاناة التى يتكبدها المسلمون وكيف أن سقوط الإسلام فى أسبانيا وشيك الوقوع، وقد طلبت الرسالة بعبارات مؤثرة جداً مساعدة الشعوب والملوك المسلمين ، أن السلطان بايزيد الذى عرف بالتقوى وبالتدين قد رد على هذا الاستنجاد بارسال أسطول عثمانى تحول إلى الشواطئ الأسبانية ، وقد أعطى رئاسة قيادة الأسطول إلى كمال رايس الذى أصبح بعدئذ يجسم، الرعب الذى كانت تشعر به الأساطيل المسيحية فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى[1].

وكان حكام غرناطة المسلمون قد طلبوا مساعدة الدولة العثمانية ضد أراجونة وقشتالة وقد قنع بايزيد الذى كان غير واثق تمامًا من قوته البحرية- بابداء اهتمامه وعطفه، تاركًا «للقراصنة المسلمين فى شمالى أفريقية أن يقدموا المساعدة الفعلية وحين سقطت غرناطة فى عام ١٤٩٢م. وبدأت الدول الإسلامية فى شمالى إفريقية تواجه احتمالات الغزو المسيحى تزايد الضغط على العثمانيين طلبًا لمزيد من المساعدة ، وإن تكن مشاكل بايزيد الشرقية قد حالت دون تقديم المعونة لأخواته المسلمين ، ولو أن كثيراً من «غزاة البحر العثمانيين- الذين أطلق عليهم الغربيون اسم القراصنة- قد التحقوا بخدمة العثمانيين خاصة بعد أن عززوا قوتهم البحرية، وحثوهم على القيام بنشاط بحرى فى المغرب الإسلامى، وإن تكن الخلافات الأسرية قد شلت نشاط بايزيد، وبخاصة ما يتعلق بمصير أخيه جم الذى كان محوراً لتآمر الدول المسيحية ضد الدولة العثمانية [2].

بعثوا برسالة محزنة يصف فيها كاتبها فى شعر ركيك ولكنه مؤثر قوى التعبير ما تفعله أسبانيا برعاياها الجدد، وما يصيب المتنصرين من تعسف محاكم التفتيش ومطارداتها وعقوباتها . ويقول عنان إنها لم تكن أول رسالة من نوعها وجهها مسلمو الأندلس إلى قصور مصر والمغرب واستانبول حيث أرسل السلطان أبى عبدالله الأيسر إلى سلطان مصر الملك

---

(١) عبد الجليل التميمى، الدولة العثمانية وقضية الموريسكين الأندلسيين، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ، زغوان ، تونس ١٩٨٩، ص١١ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى . فى أصول التاريخ العثمانى ،دار الشروق ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٢م، ص٧٤ .

الظاهر جقمق يستدعونه- وسفارة مولاى الزغل سلطان غرناطة إلى بلاد مصر وقسطنطينية يستغيث بهما ويستصرخهما لإنجاده، وما قام به بلاط مصر من توجيه سفارته إلى فرناندو الخامس يحذره من المضى فى إرهاق المسلمين وينذره باضطهاد النصارى الذين يعيشون فى مصر، وما كان تكرار نذيره إلى ملك أسبانيا، حينما اشتدت وطأة التنصير على مسلمى الأندلس ، ولكن تدخل مصر وقسطنطينية على هذا النحو لم يغن شيئًا (١).

الأمر الذى دفعهم إلى الهجرة إلى بعض الأقطار العربية والإسلامية ، منها المغرب ومصر، وبعد استقرارهم فى مصر مارسوا كافة الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتى مارسوها فى مدنهم الرئيسية فى أسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ومارسوا تلك الأنشطة فى داخل المجتمع المصرى، ويذكر عبد الرحيم عبد الرحمن، أن الوثائق الخاصة بالمحاكم الشرعية شملت العمليات الاقتصادية الهائلة، وأظهرت نشاطهم فى مختلف النواحى(٢).

كما أن هذه الوثائق تحتوى على وثائق خاصة بالزواج والطلاق للأندلسيين وأيضًا بالرأسمالية حيث تشمل أنشطتهم الاقتصادية واحتكاراتهم لبعض الأعمال، والبيع والشراء وتعاملهم مع بعضهم البعض ومع أفراد الجاليات الأخرى والميراث (٣).

الحياة الاقتصادية :

وإذا أردنا الحديث عن الحياة الاقتصادية للأندلسيين فى مصر فقد كانت نشطة وقد شاركوا فى جميع أوجه الأنشطة المعروفة فى ذلك الوقت فى التجارة أو الصناعة أو الحرف أو قطاع الأموال ، فلقد تعامل الأندلسيون فى الذهب واللؤلؤ ، مع اليهود وعقدوا معهم صفقة ويبدو أن هذه الصفقة ، كانت كبيرة حيث قدرت بخمسة وأربعين رطلاً(٤) ووضعت فى عبوات

---

(١) محمد عبدالله عنان، المرجع السابق، ج٧ ، ص٣٤٧-٣٤٨ .

(٢) Abdel Rahim Abdel Rahman Abdel Rahim , “ Al- Moriscos Settlement in Egypt Thourght the Religious court Documents of the Ottoman Age”, p. 158 .

(٣) Ibid., p. 159 .

(٤) الرطل (ويلفظ أيضًا رطل ورطل ؛ وعند الأوروبيين فى العصور الوسطى ورتلو Rotolo وما شكل ذلك) من اليونانية لترون Litron هو أكثر وحدات الوزن؛ العربى وأهم أوزان الرطل. وبما أن الرطل يساوى ١٢ أوقية ويساوى لذلك ١ / ١٠٠ فى القنطار .[انظر ، فالتر هنتمس ، المكاييل والأوزان الإسلامية، وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمة كامل العسلى، ص٣٠] .

معينة ، كل عبوة عدد معين من اللؤلؤ وحددت سعر التعبئة الواحدة[١] والجلود وخاصة جلود السخيتان[٢] والجبن، والعسل [٣]، والأرز [٤]، والقمح [٥]، والجمال [٦]، والبقر[٧]، والفلفل الأسود[٨]، والزعفران[٩] والزيت الطيب [١٠]، والزيتون[١١]، وتاجروا أيضًا فى الأقمشة والمنسوجات[١٢] والكتان[١٣] وأحرمة الصوف [١٤]، والأخشاب[١٥] وتجارة الجوارى أيضاً[١٦].

---

(١) سجل محكمة اسكندرية رقم ١٠٣، مادة ٣٧٥، ص٢١٨ بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ١٠٢٢هـ / ١٦١٣هـ نظر الملحق رقم (١) .

(٢) سجل محكمة رشيد محفظة رقم ٧، سجل رقم ٣٠ ، سجل رقم ٨٩ ، مادة ١٦٦ ، ص٢٨٥ ، بتاريخ ٢٠ ربيع الأول عام ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧ م (انظر الملحق رقم٢) .

(٣) اسكندرية ، رقم ١، مادة ١٥٥٠، ص٣٦٥ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٥٨ هـ / ١٥٥١م.

(٤) نفسه رقم ٥، مادة ٥٧٠ ، ص٢٤٧ بدون تاريخ.

(٥) نفسه رقم ٩، ٤٧٠، ص١٦٥ ، بتاريخ ١٦ ربيع الأول عام ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م.

(٦) سجل رقم ١١، مادة ٦٦٣، ص١٦٧ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة عام ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م.

(٧) سجل رقم ١١ ، مادة ١٤٨ ، ص٥٤ ، بتاريخ ١ شعبان عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م.

(٨) نفسه.

(٩) سجل رقم ٦ ، مادة ٣٣٩، ص١٣٥ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م.

(١٠) سجل رقم ٨ ، مادة ٤٢١ ، ص١٤٥ ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م.

(١١) سجل رقم ١١، مادة ١٨٥، ص٥٥ ، بتاريخ ٢ شعبان عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م.

(١٢) سجل رقم ١١ ، مادة ٧٢٦، ص١٨٦ ، بتاريخ ٢٣ شوال عام ٩٨٩هـ / ١٥٧٠م.

(١٣) سجل رقم (٧)، مادة ٧٦ ، ص٢٦، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م.

(١٤) سجل رقم ٣ ، مادة ٧١٤ ، ص٢٤٧ ، بتاريخ غرة صفر الخير، عام ٩٨٢هـ / ١٥٨٥ م.

(١٥) سجل رقم ١، مادة ١٧٨ ، ص٣٨ ، بتاريخ ١٨ رمضان عام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م.

(١٦) سجل رقم ٧ ، مادة ٥٢٠ ، ص٢٥٠ ، بتاريخ ٢٠ صفر الخير عام ٩٨١هـ / ١٥٧٨م.

(١٧) سجل رقم ١٢ ، مادة ٨٥٩ ، ص٢٩٤ بتاريخ ١٧ ربيع الثانى عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م.

أما عن طرق التعامل فى ميدان التجارة فكانت متعددة فقد كان بعض التجار يعمل لحسابه الخاص، سواء على مستوى صغير أو فى حجم تجارة كبير، ونجد أن أرشيف المحاكم يسجل لنا ميادين تعاقده، وخلافاته مع الذين يتعامل معهم وقاموا بأعمال الوكالة لدى الغير فى تجارة الذهب واللؤلؤ [١].

ويشهد قطاع التجارة للأندلسيين الكثير من المنازعات فى هذا الميدان ، تعطينا صورة عن طريقة التعامل البسيطة وطريقة التقاضى والأحكام التى تصدر أو الطرق التى كانت تتبع لتسوية الخلافات الودية وأرشيف المحاكم الشرعية ملئ بهذه الصور المعبرة عن أنماط وأساليب هذا العصر العثمانى . مثال ذلك حين حدث نزاع حول تسديد بقية قيمة صفقة جلود ولكن حدث أن تعهد المشترى بتسديد القيمة الباقية واتفق على ذلك[٢].

وأخيراً علينا أن نذكر أن سجلات المحاكم الشرعية تشتمل على نوع جديد من النشاط المالى، والخلافات التى كانت تحدث فيه، وهو ميدان الاقتراض، ثم ما قد يترتب عليها من خلافات فى تسديد مثل هذه الديون، ولقد شارك الأندلسيون فى النشاط فى هذا الميدان، فكانوا يقترضون من بعضهم، كما كانوا يقترضون ويقرضون بعض أبناء الأهالى من غير موطنهم الأصلى. وكذلك عدداً من الشوام[٣]. وأيضًا عربان هوارة[٤] وحتى بعض أفراد الأوجاقات العسكرية الموجودين فى مدينة رشيد مثلاً [٤].

وكان الكثير من عمليات الاقتراض تنتهى إلى خلافات وتنتهى بسداد القرض الذى قام باقتراضه، ولكن سجلات المحكمة الشرعية لاتحتفظ إلا بالأمور التى حدث فيها خلاف وفي أشكال متعددة.

وقد قام بعض الأندلسيين المقيمين برشيد ، بإقراض بعض أفراد القابى قول[٥] الذى تعثر فى سداد بقية قيمة القرض وقدره اثنان وثلاثون قرشًا من أصل مائتى قرشًا ثمن جلود السختيان وأقر بذلك.

---

(١) سجل رقم ١٠٣، ص٣٧٥ ، ص٢١٨ بتاريخ ١٥ ذى الحجة ، عام ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م.

(٢) محكمة رشيد، محفظة رقم ٣٠ ، سجل رقم ٨٩، ص٢٨٥ ، مادة ١٦٦ ، بتاريخ ربيع الأول عام ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م.

(٣) محكمة اسكندرية رقم ١١ ، مادة ٩٠٣ ، ص٢٢٧ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م.

(٤) سجل رقم ٢١ ، مادة ١٥٨ ، ص٤٦ بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م.

(٥) قابى قول: قبو أو قابى فى التركية بمعنى بمعنى بوابة أو باب وقول بمعنى عبد، واستعمال كلمة قبو بمعنى باب الإشارة إلى بلاط ملكى، فارسى الأصل، وهذا راجع إلى العادة التى جرت بوجوب جلوس العاهل=

واقترض أحدهم مبلغا قدره خمسة آلاف نصف فضة من بعض الجوربجية ووضع المقترض رهن نظير القرض عبارة عن جاموستين وثورين بقر وفحل جاموس، واتضح بعد ذلك أن المقترض تعثر فى الدفع مما اضطر المقرض إلى المطالبة بالقرض بالإضافة إلى المصاريف الإضافية وتشمل الآتى :

٤٦٨ نصف فضة ثمن كسب علف.

٢١٩ نصف فضة ثمن التبن .

١٦ نصف فضة أجرة شيالين .

٥ نصف فضة أجرة كلاف.

٧٠٨ المجموع .

بالإضافة إلى مصاريف أخرى وصلت إلى ثمانمائة نصف فضة شاملة المبلغ كلية وطلب بيع الرهن، واتضح عند البيع أن صافى مبلغ الرهن هو أربعة آلاف نصف فضة ، يصبح المبلغ المتبقى له بعد ذلك ألف وثمانماية ، واتفق على دفع الباقى على دفعات شهرية قيمة الدفعة ثلاثمائة قيمة الدفعة ثلاثمائة نصف فضة [1].

أما الحرف، فقد كان نظام الحرف فى مصر العثمانية قائمًا على التكوين الدينى أو العرقى للطوائف ، فمع استثناءات قليلة كان أعضاء الطائفة ينتمون إلى نفس المجتمع المحلى أو العرقى، وإذا مارس أعضاء نفس الديانة نفس الحرفة، فانهم يشكلون طوائف على حسب بلادهم، ونوع تجارتهم وعبادتهم الدينية[2]. وتدرجوا فى مراتب هذه المهن الطائفية طبقًا لنظام

= فى البوابة الكبرى أمام قصره، لكى يتلقى العرائض ، ويقيم العدالة، وإلى جانب الكلمة التركية توجد أيضًا الكلمة العربية باب والفارسية در فى مصطلحات عثمانية بهذا المعنى، ولم يحدث فى أوقات متأخرة أن استعمل اصطلاح «الباب العالى» للإشارة إلى مقر الحكومة كشئ منفصل عن بلاط السلطان ، ورغم أن لفظ قبوة وللرى كان يصح أن يشمل كل شخص فى وضع العبيد ممن يقومون على خدمة السلطان فانه استعمل بوجه خاص للإشارة إلى القوات التى تتقاضى أجوراً تمييزا لها عن القوات الإقطاعية (انظر، هاملتون جب، هارولد بوون، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى، ج١، ص٦٤ ، هامش ٢) .

(١) محكمة رشيد، محفظة رقم ٣٥، سجل رقم ١٠٨ ، مادة ٧٣١، ص٧٦٩، بتاريخ ٩ جمادى الأولى عام ١١١٤هـ / ١٧٠٢م. (انظر اللحق رقم (٣) .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، الخانجى، القاهرة ١٩٨٢م، ص٨٣ .

الطوائف من صبى إلى أسطى، إلى شيخ حرفة، أو شيخ طائفة[(١)].

ومن الحرف التى احترفوها فكانوا قصابين[(٢)] وزياتين[(٣)] وخياطين[(٤)] وحلاقين[(٥)]

---

(١) سجل رقم ٥٣ ، مادة ٢٦١ ، ص١٢٥ ، بتاريخ ١٤ محرم عام ١٠٨٧هـ / ١٦٨٦م، وانظر أيضًا ، صلاح أحمد هريدى ، الحرف والصناعات فى عهد محمد على، دار المعارف بالإسكندرية، عام ١٩٨٤م، ص٣٨ - ٤٦ .

(٢) سجل رقم ٦، مادة ٢٢٥ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٩١هـ / ١٥٨٣م.

الجزار : هو الذى يقوم بذبح الحيوان وبيع لحمه، وكانت الجزارة من صناعات الأشراف على حد قول ابن رستة فى كتابه الأعلاق النفيسة، حيث ذكر أن عمرو ابن العاص كان جزاراً ويذكر حسن الباشا أن السبكى أورد وصايا الجزار، ونبهه إلى بعض الأمور المتعلقة بالذبح وشرعيته [انظر ، حسن الباشا ، الفنون الإسلامية، ج١، ص٣٥٢] .

(٣) محكمة رشيد، رقم ٣٧ ، مادة ٧٠٦ ، ص٢٠٦ ، بتاريخ ٩ صفر عام ١٠٢٦هـ / ١٦٢٧م انظر الملحق رقم ٤ .

الزيات: هو عاصر الزيت تاجره، وصانعه ، وربما أطلقت على صاحب معصرة الزيت، [انظر حسن الباشا، الفنون الإسلامية ج٢، ص٥٧٢].

(٤) محافظ الدشت رقم ١٠٤٣ ، مادة بدون رقم، بتاريخ ٣ شعبان عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م . انظر الملحق رقم (٥) .

الخياط والخياط هو الذى يخيط الثياب، والخياطة من الصنائع المختصة بالعمران الحضرى ، ونظراً لقدمها كان ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام وهو أقدم الأنبياء ، وربما نسبوها إلى هرمس، وقد يقال إن هرمس هو إدريس ، ويذكر حسن الباشا أن السبكى لفت نظر الخياط إلى الاحتياط فى استخدام الحرير، فلايستخدمه للرجال ، وإن أباح له أن يخيط بالحرير، كما نبهه إلى الإفراز والتقدير عند قطع القماش ليتأكد من الكفاية . (انظر ، حسن الباشا ، الفنون الإسلامية ، ج١، ص٥٠١) .

(٥) سجل رقم ٦ ، مادة ٨، ص٦ ، بتاريخ ١٢ ربيع الأول عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٧ م.

الحلاق ، ويعرف بالمزين الذى يقص الشعر، وكان يعهد إليه القيام بعملية الختان والحجامة وهى امتصاص الدم الفاسد أو الزائد كعلاج لبعض الأمراض. وكان يسند إليه القيام ببعض العمليات الجراحية وأن عليه ما على الطبيب وحذر من جب الذكر كرغبة بعض السفلة والرعاع أو المجانيني الذين غلب عليهم حب من لايصلون إليه، وأن من يأتى إلى المزين لينقب أذنه ويضع فيها حلقتين، وكانت الحمامات تزود بمزين لقص شعور المستحمين ، وكان يشترط فيه أن يكون بصيراً بالحلاقة وأن يكون سلاحه قاطعًا ، وكان يسمى أيضًا بالبلان. (انظر حسن الباشا ، الفنون الإسلامية ج٣، ص١٠٨٢).

وصرافين[١] وحمامين[٢] ودلالين[٣] وبالنسبة لأجورهم إما أن تكون عينية أو نقدية[٤] وعملوا كبحارة على بعض السفن ، وتولى بعضهم رئيسًا للبحارة فى بعض الشايقات[٥] بدمياط[٦] وشاركوا فى تصدير العدس إلى الدولة العثمانية، وقدرت الكمية بتسعة آلاف رطل، حيث

---

(١) سجل رقم ٨ ، مادة ٧٦٥ ، ص٢٨٥ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الأول عام ٩٧٢هـ / ١٥٦٥م.

(٢) سجل رقم ١، مادة ١٣٢٤، ص ٣٠٩ ، بتاريخ ٢ ربيع الأول عام ٩٧٢ هـ/ ١٥٦٥م .

الحمامى: هو أحد العاملين بالحمام ، ومهمته تأجير المازر للمستحمين وتغييرها لهم، وكذلك حفظ ثيابهم وربما أطلقت على صاحب الحمام أو من يعمل به [انظر ، حسن الباشا ، الفنون الإسلامية ، ج١، ص٤٣١) .

(٤) سجل رقم ٦، مادة مادة ٢٢٥ ، ص بدون رقم، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٩١هـ / ١٥٨م.

(٥) محافظة الدشت رقم ٣٤٠١، مادة بدون رقم بتاريخ ٣ شعبان عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م.

شايقة والجمع شايقات ، سفينة شراعية من نوع ثقيل ، استعملها الأتراك واليونانيون والإيطاليون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى نقل الأشخاص والبضائع ، واستخدمت كاحدى القطع الحربية . [انظر ، درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم) .

(٦)محكمة رشيد ، محفظة رقم ٢٩، سجل رقم ٨٧ ، ص٤٣٨ ، مادة ٩٢٤ ، بتاريخ ٨ ذى الحجة عام ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م [انظر الملحق رقم ٦، ص٦٤) .

مدينة دمياط : هى من ثغور مصر القديمة واقعة على الشاطئ الشرقى لفرع النيل الشرقى المعروف بفرع دمياط وبينها وبين مصب هذا الفرع فى البحر الأبيض المتوسط ١٥ ميلو مترا ذكرها جوتيبيه فى قاموسه فقال إن إسمها المصرى القديم Ta mehtومعناه بلد الشمال والرومى تمياتيس Tamiathis والقبطى Temiat ومنها اسمها العربى دمياط، وقال أميلنيو فى ضفة النهر ويعمل بها الثياب النفيسة .وكانت دمياط الأصلية واقعة فى الجهة الشمالية من دمياط الحالية ونقلت إلى مكانها الحالى من سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م . وهى من المحافظات القديمة التى يتولى إدارتها محافظ باعتبار أنها من الثغور أنشئت سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م. وفى سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م صدر قرار من نظارة الداخلية بإلغاء محافظ دمياط وإلغاء مركز فارسكور وضم بلاده إلى دمياط وجعلها مركزاً واحداً باسم مركز دمياط وقاعدته مدينة دمياط ، ولكن هذا التغيير لم يدم طويلاً ، إذ أنه فى سنة١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩م صدر قرار آخر باعادة محافظة دمياط إلى حالتها وجعلها محافظة كما كانت وإعادة مركز فارسكور إلى حالته وجعل فارسكور قاعدة له، كما كانت اعتباراً من أول يناير سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م للمحافظة والمركز (انظر ، محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الأول، ص١٨) .

حضر عملية الوزن شيخ طائفة القبانية[١] بدمياط، ومن الملاحظ إقرار رئيس الشايقة بأنه تسلم مبلغ النولون كاملاً [٢].

الحياة الاجتماعية :

وأما عن حياتهم الاجتماعية فقد تمثلت فى المعاملات اليومية مع بعضهم البعض، وبينهم وبين الجنسيات الأخرى، وظهر ذلك بشكل واضح فى الزواج والطلاق والميراث والخلافات العامة، وإعتاق العبيد والجوارى ، والأوقاف وغير ذلك من المظاهر الاجتماعية الأخرى.

وبالنسبة للزواج، فهى ترتبط بتقاليد معينة، حيث يتقدم الزوج بطلب الزوجة من يد والدها أو موكلها ، وعند الموافقة يدعى الزوج للاجتماع به في المسجد، ويحضر المأذون والشهود لكى يعقدوا القرآن[٣].

ويحدد فى العقد مقدم الصداق على حسب مقدرة الزوج المالية، وقد لوحظ أنه يحدد المقدم والمؤخر الذى يقسط أحيانًا على أقساط معينة متفق عليها [٤].

ومن ذلك ، فقد تزوج أحدهم من بعض المطلقات بعد انقضاء عدتها [٥]، ففى مثل هذه الحالة يتفق على أن يكون مقدم الصداق ثلاثة قروش من الفضة الريال [٦]، والمؤخر سبعة ريالات يدفع على سبعة أقساط سنوية، كل عام قرش واحد، كما يتعهد الزوج بكسوة زوجته صيفًا وشتاءً[٧]. وينطبق نفس الحال عند الزواج بأرامل ، فإنه يشترط أولا انقضاء عدتها ، وعقد قرانها بعد وفاة زوجها بمدة ستة شهور، ولذلك فقد كان مقدم صداقها عشرة

---

(١) القبانى ، نسبة إلى القبان ، وهو نوع من الموازين اشتهر بالدقة فى تقدير الوزن [انظر ، حسن الباشا ، الفنون الإسلامية، ج٢، ص٨٩١] .

(٢) محفظة رقم ٢٩ ، سجل رقم ٨٧ ، مادة ٩٢٤ ، ص٤٣٨ ، بتاريخ ٢٨ ذى الحجة عام ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤ م.

(٣) الحسن محمد الوزان الفاسى ، المعروف بليون الأفريقى ، وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجى، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامى ، ج١ ، ص٢٥٤ ، ٢٥٥ ، بيروت ، الطبعة الثانية.

(٤) سجل رقم ٤، مادة ٨١١، ص٢٤٣ ، بتاريخ ٨ ربيع الأول ٩ صفر عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥ م.

(٥) نفسه ، مادة ٦٩٧ ، ص-٢٢٠ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.

(٦) سجل محكمة رشيد رقم ٣٧، مادة ٧٠٦، بتاريخ ٩ صفر عام ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م.

(٧) سجل محكمة رشيد، ٣٥، مادة ٧٠٨، ص٢٣٩، بتاريخ ١٠ ربيع الأول عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م . انظر الملحق رقم (٧) .

قروش، والمؤخر خمسة وثلاثون قرشًا يقسط على سبعة أقساط كل قسط يدفع مع نهاية العام وقدره خمسة قروش[١].

ويكون مقدم الزواج هنا على حسب مقدرة الزوج المالية، ويختلف إن كانت المخطوبة ثيبًا فيجب أن يذكر ذلك، ويذكر هنا قيمة مقدم الصداق عشرون قرشًا من القروش الفضة الريال، والمؤخر عشرة قروش تدفع على أقساط سنوية قدرها قرش كل عام ، والطريف فى هذا العقد أننا نجد أن الزوجة أقرت أنها فقيرة وأنها تخشى على نفسها من الفتنة والفساد وطلبت ضرورة تزويجها[٢].

وهناك حالة أخرى كمثال ، فانه اتفق على المبلغ المخصص لمقدم الصداق قرشان، وكل قرش قيمته ثلاثون نصف فضة ، والمؤخر قرش يدفع فى كل سنة ربع قرش لمدة أربع سنوات [٣]، وحالة أخرى حيث كان مقدم الصداق ثلاثون قرشًا من الفضة القروش والمؤخر ثلاثون قرشًا تدفع عند الطلاق أو الوفاة [٤]. وأيضًا نجد أن مقدم الصداق أربعون قرشًا ويحدد قيمة كل قرش بمعدل ثلاثون نصفًا من الأنصاف الفضة المرادية أما المؤخر فيدفع على أقساط سنوية كل قسط قرشان أو لأحد الأجلين [٥].

وبالنسبة للزواج من بعض المستولدات ، فقد تزوج أحدهم إحداهن بعد وفاة سيدها الزيات بعد انقضاء عدتها، وحدد مقدم صداقها عشرة قروش والمؤخر عشرة قروش يدفع على أقساط قدرها نصف قرش فى السنة، وتدفع أيضًا لحين الوفاء، وقد لوحظ أن وكيلها شقيق سيدها المتوفى، وكالعادة حدد لها كسوتها شتاء وصيفًا[٦].

---

(١) محكمة رشيد، سجل رقم ٣٧ ، مادة ٧٠٦ ، ص٢٠٦ ، بتاريخ ٩ صفر عام ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م.

(٢) محكمة رشيد، رقم ٣٥ مادة ٨٨٨، ص٢٦٨، بتاريخ ٣ ربيع الثانى عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م انظر الملحق رقم (٨) .

(٣) محكمة رشيد رقم ٤١، مادة ٥١٦ ، ص١٤٢ ، بتاريخ ١٥ محرم عام ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠م. (انظر الملحق رقم (٩) .

(٤) محافظ الدشت، محفظة رقم ١٠٤٣، مادة بدون رقم ، بتاريخ ٣ شعبان عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م.

(٥) سجل محكمة الإسكندرية رقم ٤٤ ، مادة ٣٣٦، ص١٦٢ ، بتاريخ ١٤ صفر عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م انظر الملحق رقم (١٠) .

(٦) محفظة رقم ٢٤ سجل رقم ٦٤ . ص٢٩٠ ، مادة ٢١٢ ، بتاريخ ٨ ذى القعدة عام ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م (انظر املحق رقم (١١) .

وقد انضم أحد الأندلسيين إلى أوجاق المتفرقة[١] وعمل فى نفس الوقت وكيلاً لزوجته، حيث كان له الحق فى تأجير حصتها قدرها قيراط واحد وثلث مشاعًا محدد مساحتها وحدودها، وقد لوحظ أن المدة المقررة للإيجار قدرها ست وستون سنة وأربع وحدد لذلك ثلاثة عشر عقداً متوالية كل عقد منها ثلاث سنوات ما عدا العقد الأخير فكان لمدة تسعة وعشرين يومًا، وله صيغة مميزة وأجرة محددة، وكان المبلغ المحدد للإيجار من القروش الفضية خمسة قروش وخمسة أسداس[٢] حدد كل قرش منها ثلاثين نصفًا فضية حيث حدد الإيجار عن الحصة المذورة أربعة قروش، وأقر الموكل أنه استلم المبلغ المخصص لمساحة الأرض وذلك بشهادة الشهود[٣].

وفى مجال التعليم فقد حضر إلى مصر من المغرب العلامة الأندلسى عبد العزيز بن أبى الصلت. وقد بلغ الإسكندرية سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥- ١٠٩٦م أيام الوزير الأفضل شاهنشاه ٤٨٧١- ٥١٥هـ / ١٠٩٤-١٢١١م ابن بدر الجمالى فى خلافة الآمر بأحكام الله ووقف هذه العلامة الأندلسى من الأزهر موقفًا فاتراً فلم يشد بذكره كما أشاد به بعد ذلك بنحو قرن علماء كبار من طراز عبد اللطيف البغدادى[٤].

وكذا عبد الواحد بن على بن عاشر الأنصارى نسبًا الأندلسى أصلاً الفاسى، دخل مصر عام ١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م قرأ موطأ مالك بن أنس، وكان ذا معرفة بالقراءات وتوجهها وبالنحو والتفسير والإعراب والرسم والضبط وعلم الكلام يحفظ نظم ابن ذكرى عن ظهر قلب وبعلم الأصول والفقه والتوقيت والتعديل والحساب والفرائض والمنطق والبيان والعروض والطب وغير

---

(١) متفرقة : وقد شكل أفرادها الحرس الخاص للباشا. ولايوجد لها مثيل بهذا الاسم فى الولايات العثمانية الأخرى، إلا أن حرس السلطان فى استانبول ان يعرف بهذا الاسم .

ويذكر قانون نامه أنها تأسست فى مصر عام ١٥٥٤م، من مماليك دخلوا فى خدمة العثمانيين ثم انتسب إليها أناس جلبوا خصيصًا من استانبول وقد منح أفرادها كثيراً من الامتيازات، وأعطوا مرتبات عالية، وتفوقوا بذلك على أفراد الطوائف الأخرى. ولكن بازدياد سيطرة الإنكشارية والمماليك فى القرن الثامن عشر، أصبحت هذه الطائفة ميدانًا لنفوذهم، وقد اشترك أفرادها فى حماية تأييد السلطة العثمانية، وفى إخماد القبائل العربية والعصابات المملوكية التى ظلت تقاوم بعد هزيمة الجيش المملوكى (انظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر، ص٢٢٤) .

(٢) محكمة رشيد، محفظة رقم ٢٨ ، ص٢٥١ ، مادة ٨٩ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م.

(٣) محكمة رشيد، سجل رقم ٣٨ ، مادة ٢٤٢ ، ص٥٠ ، بتاريخ ٣٠ محرم عام ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م. انظر الملحق رقم ١٢).

(٤) عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٤ ، عبد العزيز محمد الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٣م، الجزء الأول ، ص٧٨ .

ذلك ، وألف تأليف وكثرة الفوائد والتحقيق وموافقة المشهور ومحاذاة مختصر الشيخ خليل، والجمع بين أصول الدين وفروعه ، وشرحه العجيب، على مورد الظمآن فى علم رسم القرآن . وتوفى فى ثالث ذى الحجة عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م وله العديد من المؤلفات منها كتاب نزهة السامرة فى أخبار مصر والقاهرة وذكر فيه الوزراء الذين تولوا مصر إلى الوزير محمد باشا ١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م) (١).

وهناك رحالة عربى أندلسى أقام فى المغرب يسمى الشيخ شهاب أحمد بن قاسم الحجارى، ثم بعثه السلطان مولاى زيدان ابن السلطان سعد الدين أحمد المنصور الذهبى فى مهمة رسمية إلى فرنسا وهولندة وعاد إلى مراكش . ولكن وقعت اضطرابات داخلية فى هذا الإقليم سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م فآثر الابتعاد عن مراكش وأدى فريضة الحج. وفى عودته من الحجاز أقام فى مصر زهاء سبعة أشهر (١٠٤٦-١٠٤٧هـ / ١٦٣٦م) تردد خلالها على الأزهر وأقيمت له فرصة للاتصال عن كثب بعلماء الأزهر وإقامة علاقات وطيدة معهم وأعجب بعلمهم الغزير وأشاد بفضائلهم وقد وضع فى القاهرة كتاب «رحلة الصحاب إلى لقاء الأحباب» وله كتاب آخر يسمى «ناصر الدين على القوم الكافرين ، وهو السيف الأشهر على كل من كفر وتكلم فى إفاضة فى هذا الكتاب عن عالم أزهرى كبير هو الشيخ نور الدين أبى الأرشاد بن عبدالرحمن الأجهورى (٩٦٧-١٠٦٦هـ / ١٥٥٩-١٦٦٥م) وقد أثنى عليه ووصفه بأنه من أكبر علماء المذهب المالكى وأن شهرته لم تكن مقصورة على مصر، بل امتدت إلى البلاد الإسلامية الأخرى(٢).

وفى مجال الميراث الشرعى، يحدث أن تتوفى الإبنة القاصرة أثناء حياة والدتها ، ففى هذه الحالة تتسلم الأم نصيبها الشرعى من الوصى عليها، وهو أحد أفراد أوجاق مستحفظان(٣) قلعة مصر سابقًا وكان الميراث عبارة عن مصاغ وأمتعة وخلاف ذلك وتقر الأم ذلك(٤).

وحدث أن أدت إحدى الأندلسيات فريضة الحج، وأودعت مبلغًا يقدر بتسعة عشر شريفيًا(٥)، ولكنها توفيت أثناء تأدية الفريضة، وكان الوريثان الشرعيان لها مقيمين

---

(١) محمد المحبى، خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، دار صادر، بيروت، ج٣، ص٩٦-٩٨ .

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة ، ج١ ، ص٢٣٨ .

(٣) مستحفظان : هى كلمة مستحفظ فى اللغة الفارسية، والمستحفظ هو من يقوم بالمحافظة على حدود الدولة أو من يقوم بالدفاع عن القلاع والحدود من الإنكشارية وكانوا يستدعون للحرب عن إعلانهم وكانت تخصص لهم العلوفات . [انظر ، Stanford shaw, Ottoman Egypt, p. 82, 83]

(٤) سجل محكمة رشيد رقم ٩٥ ، ص٣٧١ ، مادة ٥٣٠، بتاريخ ١٨ رجب عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م [انظر الملحق رقم ١٣] .

(٥) سجل محكمة الإسكندرية رقم ٧٥ ، ص٢٤٥ ، مادة ٣٠٧ بتاريخ غزة جمادى الآخرة عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م (ملحق رقم ١٤).

بالإسكندرية ، وتسلما المبلغ وأقرا بذلك أمام المحكمة الشرعية [١]. وهناك حالة أخرى مثل الحالة الأولى حيث إن المتوفاة تركت أمانة لدى أحد الأشراف ، الذى قام بدوره بتسليم الأمانة، وهى عبارة عن اثنين من الأساور الذهب، وقرصين ذهب، ولبسة ذهب وقيطان ذهب بجوهر، وأربعة شمس ذهب، وفردتين عقود فضة بهما اثنا عشر شمروجًا وقام المودع الذى لديه الأمانة لورثتها الشرعيين ، وقد لوحظ فى توزيع هذه التركة اتباع الطرق الشرعية فى التوزيع[٢].

هكذا ساهم الأندلسيون فى الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية ، طوال فترة الحكم العثمانى فى مصر كما كانت تلك المساهمة فى كافة المجالات ، وقد أوضحت هذه الدراسة تعاملهم فى كافة أنواع السلع التى تداولوها ، وتخصص كل منهم فى تجارة سلعة معينة وشاركهم فى ذلك الأهالى أو بعض أفراد الجاليات الأوربية أو الجاليات الأخرى. ومن جانب آخر فقد سلطت الدراسة الأضواء فى جانب التعامل الاقتصادى بين الأفراد، ومن أهم الظواهر التى أبرزتها ظاهرة الاقتراض التى فصلت أغراضه سواء أكانت أغراضًا اقتصادية لتمويل صفقات تجارية أم لأغراض أخرى، ثم عرضت للمشكلات المصاحبة لتسديد هذه القروض وضماناتها.

وقد ختم المجال الاقتصادى بالحرف التى عملوا بها واحترفوها وتخصص كل فئة منهم فى حرفة معينة وصناعة معينة، وقد لوحظ أن نظام الحرف كان قائمًا على التكوين الدينى، العرقى للطوائف فمع استثناءات قليلة كان أعضاء الطائفة ينتمون إلى نفس المجتمع المحلى الدينى أو العرقى، وإذا مارس أعضاء نفس الديانة فانهم يشكلون الطوائف حسب بلادهم ، ونوع تجارتهم وعبادتهم الدينية.

أما الجانب الثانى للدراسة، فيتعرض لحياتهم الاجتماعية ومظاهر هذه الحياة وأهمها ظاهرة الزواج سواء أكان هذا الزواج من بعضهم أم من الأهالى أم من الجوارى بعد اعتاقهن ، وتعرضت لاجراءات الزواج وتقاليده كالمقدم والمؤخر وشروط الزواج التى تدون بالعقد والطلاق والمشكلات المترتبة على ذلك. كما عرضت الدراسة لمظاهر العلاقات الاجتماعية الأخرى التى أظهرت الدراسة مشكلاتها .

كما عرضت الدراسة مدى مساهتهم فى المجالات العلمية والثقافية، ومساهمتهم فى كافة هذه المجالات وتوليهم بعض الوظائف المهمة مثل المفتين والقضاة وغير ذلك من الوظائف المهمة.

---

(١) المصدر نفسه، رقم ١٠١، ص٢٦٢ ، مادة ٣٣١ ، بتاريخ غرة جمادى أولى عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م.
(٢) ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام.. نفس المرجع، ص١٢٢ .

ملاحق

ملحق رقم (١)

سجل محكمة الإسكندرية رقم ١٠٣، مادة ٣٧٥ ، ص٢١٨ ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م :

الموضوع : تجارة ذهب بين أندلسى ويهودى :

بحضرة كل من قدوة الأماجد والأكارم عمدة الأماثل والأماجد يحيي أغا أمين أسكاله الثغر وناظر بيت المال الخاصة والعامة دام عزه وفخر الأماثل والأعيان كتخدا قدوة الأمر الكرام كبير الكبرا الفخام الأمير محمد بك أمير اللوا الشريف السلطانى وقابودان العمارة الشريفة بالثغر دام عزه هو قدوة الأعيان الأمير عبد الرحمن أشهد عليه محمد بن محمد الأندلسى الأشهاد الشرعى وهو بحال الصحة والسلام والطواعية والاختيار من غير إكراه ولا إجبار أنه قبض الريال سبعمائة قرش واحد وثمانون قرشًا وذلك هو القدر الذى لزم لذمة دانيال المذكور أعلاه عن قيمة خمسة وأربعين رطلاً ثمن القرض بالوزن المصرى يعدل ذلك خمسة عشر أقة بالوزن الرومى وعشرة لبدة عن اللؤلؤ الغليظ زنة كل لبدة من ذلك ماية درهم وسبعة عشر أنسية من اللؤلؤ الرفيع زنة كل أنسيه من ذلك تسعة دراهم كل ذلك بصندوق خشب أفرنجى لطيف أسود كان تجديد محمد الأندلسى المذكور سابقا لشخص يدعى موسى أدناردى الأندلسى الغائب الآن بمكة المشرفة وبيعت له على ماية قرش واحدة وخمسة وعشرين قرشًا ، ووثبت الإشهاد بذلك عليهم لدى مولانا الحاكم الشرعى المشار إليه أعلاه دام علاه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتًا شرعيًا وحكم بموجب ذلك حكمًا شرعيًا محرراً مستوفيًا فيه وبه شهد فى اليوم المبارك الخامس عشر من شهر ذى الحجة الحرام ختام سنة اثنتين وعشرين وألف.

ملحق رقم (٢)

سجل محكمة رشيد رقم ٨٩ ، مادة ١٦٦ ، ص٢٨٥ بتاريخ ٢٠ ربيع الأول عام ١٠٨٥هـ / ١٦٧٧م.

موضوع الوثيقة : بخصوص تجارة بعض الأندلسيين فى الجلود

ادعى محمد ابن الحاج على الأندلسى على الحاج محمد بن خليل من طايفة قابى قولى الحاضر معه بالمجلس أنه يستحق بذمة المدعى عليه المذكور مبلغًا قدره من القروش الفضة اثنان وثلاثون قرشًا كل قرش منها ثلاثون نصفًا متأخرة له بذمته من أصل مايتى قرش وستة

قروش عن ثمن جلود من السختيان معلومة عندهما شرعًا ويطالبه بذلك وسأل جوابه عنه فأجاب بأنه كان المتأخر للمدعى بذمته من ثمن الجلود السختيان المذكورة مبلغ الأثنين والثلاثين قرشًا وأن المدعى عليه كان يستحق بذمة أخي المدعى المذكور شقيقه هو محمد الرجل اثنين وخمسين قرشا وأن المدعى المذكور ضمن له ذمة شقيقه محمد المذكور الاثنين وخمسين قرشًا وأنه دفع له من رجل يدعى على الحمصانى عشرين قرشًا وصار المتأخر للمدعى عليه الاثنين والثلاثين قرشًا وأنه قبض المبلغ المدعى عليه فى نظير ما كفل وضمن له المدعى ذمة أخيه محمد المذكور وصار لاحق له قبله بسبب ذلك ، وطلب منه البيان على ذلك فأحضر كل من فخر الأعيان حيدر أغا ابن إبراهيم سردار طايفة القابى قوليه وفخر الأماجد أحمد خوجه ابن عبداله اليازجى فسئلا بوجه المدعى المذكور فأجاب أنه كفل وضمن أخيه محمد المدعى للمدعى عليه فى الاثنين والخمسين قرشًا ثم دفع له على الحمصانى عشرين قرشًا وصار المتأخر بذمته الاثنين والثلاثين قرشًا ، وبمقتضى ذلك منع مولان أفندى المومى إليه المدهى فى معارضة المدعى عليه فى ذلك تحريراً فى العشرين من شهر ربيع الأولى منه ثمانى وثمانين وألف .

ملحق رقم (٣)

سجل محكمة رشيد، محفظة رقم ٣٥، سجل رقم ١٠٨ ، مادة ٧٣١ ، ص٤٦٩ بتاريخ ٩ جمادى الأولى عام ١١١٤هـ / ١٧٠٢م

بخصوص : أندلسى ضد مصرى نظير رهن حيوانات بسبب قرض

بعد أن ثبت معرفة الحاج إسماعيل بن المرحوم محمد المعروف بالمغربى وبالأندلسى ومعرفة فخر الأعيان الأمير حسين جوربجى طايفة مستحفظان قلعة مصر المحروسة المعرفة النافية للجهالة شرعًا أن حسين جوربجى المذكور يستحق بذمة الحاج إسماعيل المرقوم مبلغًا قدره من الأنصاف الفضة العددية خمسة آلاف نصف فضة وأربعمائة نصف فضة وخمسة عشر نصفًا فضة ترتب ذلك له بذمته عن بدل قرض شرعى انظره به إلى غرة شهر تاريخه ووضع الحاج إسماعيل المذكور تحت يد المقرض المرقوم رهنًا على المبلغ المرقوم من جميع جاموستين وثورين بقر وفحل جاموس بموجب تمسك شرعى مكتتب باللغة التركية مؤرخ بخامس عشر شهر ربيع الأول سنة تاريخه ثابت مضمونه لدى مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه بشهادة فخر ذوى الأرقام عبد الرحمن أفندى كاتب سردار مستحفظان المذكورة المرقوم، والمحترم الحاج إبراهيم ابن عبدالله الجورجى الأصل من طايفة مستحفظان بالثغر الدلال هو بالثغر المذكور وأنهى لمولانا الحاكم المشار إليه أعلاه أن مدة الانتظار فى المبلغ المرقوم قضت ولم يدفع المبلغ ذلك ولاشيئًا

منه وأنه صرف على مؤنه الرهن المذكور من ثمن كسب أربعمائة وثمانية وستين نصفًا فضة، وفى ثمن تبن مائتين وتسعة عشر نصفًا فضة ومن أجرة شيالين التبن المذكور ستة عشر نصفًا وذلك خلاف ما هو من لوازم أجرة مكان الحفظ والخفرة وغير ذلك والتمس من مولانا الحاكم المشار إليه الإذن له فى بيع الرهن وقبض ثمنه فأجابه لذلك وأذنه أن يبيع الرهن المرقوم فخرج على ذلك ثم عاد وأخبر مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه أنه عرض الرهن والبيع ، وبيع المبلغ قدره أربعة آلاف نصف فضة واستظهار وقيمة ما هو مبلغ القيمة ثلاثة آلاف نصف فضة وسبعمائة نصف فضة وما هو استظهار ثلثمائة نصف فضة كل ذلك بشهادة كل من حجازى ابن الحاج محمد البهوى الدلال هو فى البهايم بالثغر المرقوم وعلى بن محمد درغام القصاب والمحترم على ابن محمد عزام المؤدين بشهادتهم على ذلك التأدية الشرعية المقبولة شرعًا وقبض المدين المذكور مبلغ ثمن الرهن المرقوم هو الأربعة آلاف نصف فضة المذكور وصار الباقى له من أصل مبلغ الدين المذكور ألفا نصف فضة ثنتان ومايتا نصف فضة ثنتان وثمانية وخمسون نصف فضة وكامل المبلغ المصروف على الرهن المرقوم وهو الثمانماية نصف فضة وثلاثة وأربعون تصفً المعين ذلك أعلاه ليكون جملة ما يطلب به المدين المرقوم أعلاه ألفا نصف فضة ثنتان ومايتا نصف وثمانية وخمسون نصفًا فضة وذلك بعد أن أبرز المرتهن المذكور من يده فتاوى السادة العلما الدالة على فعل ما ذكر أعلاه ، وثبت لدى مولانا أفندى شهوده ثبوتًا شرعيا وبه شهد فى التاسع من جمادى الأولى سنة أربع عشر ومایة وألف .

شهود الحال .

ملحق رقم (٤)

سجل محكمة رشيد، سجل رقم ٣٧ ، مادة ٧٠٦ ص٢٠٦ ، بتاريخ ٩ صفر عام ١٠٢٦هـ/ ١٦٢٧م.

موضوع الوثيقة: زواج أندلسى

تزوج الحاج موسى بن محمد الجزار الأندلسى بمخطوبته الحرمة فاضلة ابنة إبراهيم الزيات الأندلسى وهى التى كانت زوجًا لأبى الفضل ابن منلور الأندلسى وتوفى عنها من مدة ستة أشهر وانقضت عدتها منه شرعا بشهادة شهيدى الإذن على الكتاب والسنة وعلى صداق جملته من القروش الفضة الريال الكبار خمسة وأربعون قرشًا الحال لها عليه من ذلك عشرة قروش مقبوضة بيدها باعترافها بذلك بشهادة شهيدى الإذن منه الآتى ذكرهما فيه القبض والاعتراف الشرعيين والباقى بعد الحال وقدره خمسة وثلاثون قرشا تقسط عليه فى مدة سبع

سنوات تمضى من تاريخه أقساطا متساوية قسط كل سنة خمسة قروش ، زوجها بذلك والدها المذكور شهادة الحاج يحيى بن الحاج أحمد الخبيت الأندلسى والحاج على بن محمد الحينى الأندلسى كل منهما تزويجا شرعيا وقبل الزواج المذكور لنفسه على ذلك قبولا شرعيا متصلا بالإيجاب ورضى به والله مع المتقين ورحمته قريب من المحسنين ثم أقر الزوج المذكور كسوة زوجته المذكورة فى كل سنة فصل كسوة شرعية شتوية وصيفية الإقرار الشرعى، بالطريق الشرعى تحريراً فى تاسع شهر صفر سنة ١٠٢٦هـ .

ملحق رقم (٥)

محافظ الدشت ، محفظة رقم ١٠٤٣ ، مادة بدون رقم ، بتاريخ ٣ شعبان عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م، زواج أندلسى ، واحترفهم حرفة الخياطة.

لدي الحاكم الحنفى

أصدق الحاج أحمد بن الحاج وعلى الأندلسى الخياط على مخطوبته المصونة فاطمة المرأة ابنة الحاج أحمد الأندلسى صداقا قدره من الفضة القروش الأبى مشط الريال ستون غرشًا الحال لها من ذلك عليه ثلاثون غرشًا مقبوض ذلك لها بيد جدها لأمها بالوكالة عنها فى ذلك وفيما سيذكر فيه الثابت ذلك لدى مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه بشهادة شهوده ثبوتًا شرعيا وهو الحاج سعدون بن الحاج على، بتمام ذلك وكماله بحضرة شهوده وعليه الخروج من عهدة ذلك لموكلته المذكورة بالطريق الشرعى والشطر الثانى وقدره ثلاثون غرشًا كل لما عليه بوفاة أو فراق زوجها لها بذلك جدها المذكور أعلاه تزويجًا صحيحًا شرعيا وقبله الزوج المرقوم فيه لنفسه على ذلك قبولا شرعيًا والله مع المتقين وعلى الزوج المذكور أعلاه القيام لزوجته المذكورة أعلاه بكسوتها عليه شتاء وصيفًا أسوة أمثالها ورضى لها بذلك وكيلها المذكور وقبله منه لها قبولاً شرعيًا وتصادقا شرعيا وصدر ذلك بحضور الحاج على بن الحاج أبى الأندلسى والحاج قاسم بن الحاج أحمدى الأندلسى وأطلاعهما على ذلك أعلاه لدى مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه بشهادة شهوده ثبوتًا شرعيًا وحكم بموجب ذلك حكمًا صحيحًا شرعيًا تامًا معتبراً مرعيًا وأشهد على نفسه الكريمة بذلك وبه شهد فى ثالث شهر شعبان المكرم من شهور أربع وثلاثين بعد تمام الأف.

عبد الرحمن الرمضانى

ملحق رقم (٦)

سجلات محكمة رشيد، محفظة (٢٩)، سجل رقم ٨٧ ، مادة ، ص٤٣٨، بتاريخ ٨ ذى الحجة عام ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م.

أشهد على نفسه فليتو رايس النصرانى ولد ياكمو النصرانى الذمى الأندلسى الرايس بشايقة يوسف بن خفاجى الدمياطى الحاضر بالمجلس شهوده الاشهاد الشرعى وهو بأتم الحالات المعتبرة شرعًا أنه قبض ووصل إليه وأشحن بالشايقة المذكورة من العنبر الشريف السلطانى على يد كتخدا قدوة الأمرا الكرام عمد الكبرا الفخام الجناب الجناب العالى حاوى كمالات المعالى الأمير حسين بك وكيل خرج السلطنة الشريفة بالثغر دام إجلاله هو فخر الأماجد الأمير شعبان أغا دام مجده جميع عشر غزاويات من العدس زنتها قايم مع العيار بالوزن المصرى المعتاد تسعة الآف رطل وعشرون رطلا عنها بالكيول الرومى ماية كيلة وخمس وستون كيلة ليوصل ذلك إلي محمية إسلام بول للكلار الشريف السلطانى وتسليم ذلك لمن له ولاية تسلمه شرعًا وذلك قبانة الشيخ العمدة زين الدين أبى السرور شيخ طايفة القبانية بالثغر وذلك من إرسالية سنة اثنين وثمانين وألف لتداخل الأيام فى بعضها وذلك بعد أن قبض الناولون فليتو رايس المذكور عن ذلك من الكتخدا المشار إليه أعلاه دام علاه وثبت ذلك لدى مولانا أفندى المومى إليه أعلاه بشهادة شهوده ثبوتًا شرعيًا وحكم بموجب ذلك حكمًا شرعيًا وبه شهد فى ثامن ذى الحجة سنة خمس وثمانية وألف .

ملحق رقم (٧)

سجل محكمة رشيد رقم ٣٥ ، مادة ٧٠٨ ، ص٢٣٩ ، بتاريخ ١٠ ربيع الأول عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م.

موضوع الوثيقة : زواج أندلسى

تزوج الحاج محمد بن إبراهيم الأندلسى التاجر بمخطوبته الحرمة مريم المرأة ابنة الحاج إبراهيم بن محمد الأندلسى وهى التى كانت زوجًا لعلى بن عبد الرحمن وأبانها من عصمته قبل تاريخه وانقضت عدتها، وعلى الكتاب والسنة وعلى صداق قدره عشرة قروش من القروش الفضة الريال الكبار الحال عليه من ذلك ثلاثة قروش باقية لها على حكما والباقى وهو سبعة قروش تقسط لها فى مدة سبع سنوات كل سنة عند آخرها قرش واحد إلى وفاء زوجها فى ذلك وعقد نكاحها والدها المذكور أعلاه بشهادة الحاج فصلى بن مسعود الأندلسى والحاج محمد بن محمد الأندلسى تزويجًا شرعيًا ، وقبله الزوج المذكور قبولاً شرعيا وعليه كسوة زوجته شتاءً

وصيفًا كسوة شرعية أسوة أمثالها وثبت ذلك لدى مولانا الحاكم الشرعى المشار إليه بالطريق الشرعى وحرر فى عاشر شهر ربيع أول سنة ١٠٢٤هـ .

ملحق رقم (٨)

سجلات محكمة رشيد، رقم ٣٥ ، ص٢٦٨ ، م٨٨٨ بتاريخ ٣ ربيع ثانى ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م.

تزوج الحاج على ابن محمد الأندلسى بمخطوبته حليمة البكر القاصر ابنة المرحوم يوسف ابن غالى الأندلسى على الكتاب والسنة وعلى صداق جملته من القروش الفضة الريال الكبار عشرون قرشًا الحال لها عليه من ذلك عشرة قروش باقية بذمة الزوج المذكور أعلاه على حكمه والباقى وقدره عشرة قروش مقسطة ومنجمة لها عليه فى مدة عشر سنوات أقساط متساوية قسط كل سنة فى سلخها قرش واحد إلى حين الوفا إن شاء الله تعالى زوجها منه بذلك وعقد نكاحها مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه دام علاه باذنها له فى ذلك ويحكم أن لا ولاء عليها إلا الشرع الشريف وأنها فقيرة يتيمة جاوزت عشر سنوات ويخشى عليها الضيعة والفساد ما لم تتزوج بشهادة كل من الحاج على بن محمد بن مسعود والحاج على بن محمد الأندلسى الشهادة الشرعية وعلى الزوج المذكور كسوة زوجته شتاء وصيفًا أسوة أمثالها تحريراً فى ٣ ربيع ثانى سنة ١٠٢٤هـ .

ملحق رقم (٩)

سجل محكمة رشيد رقم ٤١ ، مادة ٥١٦، ص١٤٢ بتاريخ ١٥ محرم عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م.

موضوع الوثيقة : زواج أندلسى وفى نفس الوقت يحترف حرفة الصرافة وفيه لديه أيده الله تعالى

تزوج الحاج على بن محمد الأندلسى الزوجة زاهرة المرأة ابنة محمد الأندلسى الخلية عن نكاح بارضائها بذلك وحلفها عليه بشهادة شهيدى التوكيل الآتى ذكرهما فيه الصداق جملته قرشان اثنان كل قرش منها ثلاثون نصف فضة الحال لها عليه من ذلك قرش واحد مقبوض بيدها باعترافها لشهيدى التوكيل والباقى وهو قرش واحد مقسطة فى مدة أربع سنوات كل سنة ربع قرش إلى حين الوفا إن شاء الله تعالى بيد وكيلها الحاج يحيى بن أحمد الأندلسى بشهادة الحاج على بن محمد والحاج على بن عبدالله الأندلسى كل منهما، وقبل الزوج ذلك قبولاً شرعيًا وعليه كسوتها على العادة تحريراً فى ١٥ محرم سنة ١٠٣٠هـ .

ملحق رقم (١٠)

سجل محكمة إسكندرية رقم ٤٤، مادة ٣٣٦ ، ص١٦٢ ، بتاريخ ١٤ صفر عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م.

موضوع الوثيقة : زواج أندلسي من مصرية

وفيه لديه أحسن الله إليه مضمونة تزوج أحمد بن محمد الأندلسي الجنس بمخطوبته المصونة آمنة البكر البالغ ابنة المحترم قاسم بن بدر على كتاب الله العظيم وسنة سيدنا محمد النبي الكريم وعلى صداق ملك به عصمتها واستحل به خلوتها واستباح به عشرتها مبلغًا قدره ثمانون غرشًا من القروش الفضة الكبار التي يعدل كل قرش منها ثلاثون نصفًا من الأنصاف الفضة المرادية معاملة تاريخه بالديار المصرية الحال لها من ذلك سطرها أربعون غرشًا مقبوضة بيد والدها المذكور باعترافه بذلك وصدقه الزوج المذكور على ذلك التصديق الشرعي وباقي الصداق المعين أعلاه الشطر الثاني أربعون قرشًا منجمة للزوجة المذكورة أعلاه على زوجها المذكور أعلاه السنوات نجم كل سنة تمضي من تاريخه غرشان اثنان من القروش الموصوفة أعلاه إلى الوفا إن شاء الله تعالى زوجها له بذلك وعقد نكاحها عليه به والدها المذكور بولاية الإجبار عليها شرعًا تزويجًا شرعيًا متصلاً بإيجاب وقبول شرعيين ، وقبل الزوج المذكور ذلك بشهادة الرايس على بن مخلوف والزيني إبراهيم بن على كلاهما من طائفة الترسخانة قبولاً شرعيًا والله مع المتقين ورحمته قريب من المحسنين ، وعلى الزوج المذكور كسوة زوجته شتاءً وصيفًا أقمشة لايقة بحالها أسوة مثلها على مثله القيام الشرعي والوفاء الشرعي، وقبل لها منه ذلك والدها قاسم المذكور قبولاً شرعيًا وثبت بيان النكاح بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتا شرعيا وحكم بموجب ذلك حكما شرعيا معتبرا أو محررا مرعيا، وبهد شهد وجرى ذلك وحرر في يوم السبت المبارك رابع عشر شهر صفر الخير سنة أربعين وألف وحسبنا الله ونعم الوكيل.

شهود الحال:

سيدى أحمد كتخدا مولانا أفندى

حسين جاويش المحضر بالمحكمة

ملحق رقم (١١)

سجل محكمة رشيد رقم ٦٤ ، مادة ٢١٢، ص٢٩٠ بتاريخ ٨ ذى القعدة عام ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م

موضوع الوثيقة: زواج أندلسى من مستولدة وكان زوجها الأول زياتا

لدى مولانا القاضى عبد الملك الشافعى دام فضله.

تزوج المحترم محمد بن على الأنصارى الأندلسى بمخطوبته الحرمة شاكر المرأة ابنة عبدالله مستولدة المرحوم صلاح يوسف بن بدر الزيات بالثغر كان التى انقضت عدتها بعد وفاة سيدها المذكور على الكتاب والسنة وعلى صداق جملته من القروش الفضة عشرون قرشًا يعدل كل قرش منها ثلاثين نصفًا فضة الحال لها عليه من ذلك عشرة قروش مقبوضة بيدها القبض التام الشرعى باعترافها بذلك الاعتراف الشرعى بشهادة الآتى ذكرها والباقى لها وهو عشرة قروش يقسط لها عليه فى مدة عشرين سنة تمضى من تاريخه قسط كل سنة عند سلخها من ذلك نصف قرش إلى حين الوفا زوجها وعقد نكاحها ابن سيدها المذكور هو المعلم عبد العزيز الزيات بشهادة شقيقه المعلم سالم والمحترم عبد الجواد بن الحاج أحمد الزيات المؤدين بشهادتهما وبما ذكر لدى مولانا الحاكم المشار إليه الشهادة الشرعية تزويجا شرعيًا قبله الزوج المذكور لنفسه قبولاً شرعيًا متصلا بالإيجاب والقبول ورضى به أقر الزوج المرقوم على نفسه لزوجته المذكورة فى كل سنة فصل كسوة، إقراراً شرعيًا وثبت ذلك لدى مولانا أفندى الموصى إليه ثبوتا شرعيا وبه شهر فى ثامن شهر القعدة سنة ستون.

ملحق رقم (١٢)

سجل محكمة رشيد رقم ٣٨، مادة ٢٤٢ ، ص٥٠ بتاريخ ٣٠ محرم عام ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م

موضوع الوثيقة : أخبار عن ناس أندلسيين ومحاولة العثور عليهم

لدى مولانا القاضى منصور الشافعى أيده الله تعالى

حضر الحاج محمد حسن الأندلسى وذكر أن رجلا يدعى الحاج محمد الأندلسى أخبره أن عمه الحاج إبراهيم بن محمد الأندلسى ورفيقه الحاج عبد العزيز الأندلسى نزلا يوم الأحد الماضى بقارب صغير بوقيرى من ناحية الفرزدق ليحضرا لثغر رشيد المحروس وأنهما فقدا ولم يحضر للثغر وأنه وجد بساحل الثغر قارب بوقيرى به حسن بن على البنا وسليمان بن أحمد

الشربينى والحاج حجازى بن على كنايف والرايس على بن شهاب الدين كنايف البرالسة وأن الذى أخبره ذكر له أن القارب الذى نزل به عمه الحاج إبراهيم ورفيقه الحاج عبد العزيز مثل قارب المذكورين وحضر كل من حسن سليمان والحاج حجازى والحاج على بن شهاب الدين المذكورين أعلاه وسيلوا عن ذلك فأنكروا ذلك وأن القارب الذى هم به لحسن بن على البنا المذكور وأنهم حضروا بالقارب من ناحية شربين ولم يدخلوا لناحية الفرزدق ولم ينظروا أحداً من جنس الأندلسيين مطلقًا ثم حضر محمد بن يوسف دحروج وعبد الرحمن بن الحاج شهاب الدين شهيب وعبد الجواد بن فتح وكفلوا إحضار حسن والحاج حجازى وعلى المذكورين أعلاه حيث طلبوا بينة ذلك الكفالة الشرعية وكتب ذلك ضبطًا للواقع تحريراً فى اليوم المبارك غاية شهر محرم الحرام الذى هو افتتاح سنة ست وعشرين وألف .

ملحق رقم (١٣)

سجل محكمة رشيد رقم ٩٥، مادة ٥٣٠ ، ص٣٧١ بتاريخ ١٨ رجب عام ١٠٩٧هـ / ١٦٨٥م :

موضوع الوثيقة: شهادة من امرأة أندلسية بتسليم أرث بنتها .

لدى سيدنا ومولانا فخر قضاة الإسلام مولانا محمد أفندى الحاكم الشرعى بالثغر دام فضله.

أشهدت على نفسها الحرمة فاطمة المرأة ابنة المرحوم على المغربى الأندلسى شهوة الإشهاد الشرعى وهى بحال الصحة والسلامة والطواعية والاختيار من غير إكراه فى ذلك وا إجبار وجواز الإشهاد عليه شرعًا أنها قبضت وتسلمت ووصل إليها من فخر الأماجد حاوى المحامد قرة إسماعيل جلبى من طايفة مستحفظان قلعة مصر المحروسة الوصى الشرعى سابقًا على بنتها عائشة البكر القاصر المتوفية إلى رحمة الله تعالى فى شهر تاريخه ابنة المرحوم الحاج محمد المغربى المعروف بالبقا من جميع ما خصها إرثًا من بنتها عائشة المذكورة من مصاغ وأمتعة وأسباب ونحاس ونقد الآيل إليها إرثا فى مجلس والدها المذكور بموجب دفتر تزكية ، وأنها صارت من يوم تاريخه لاتستحق ولا تستوجب قبل إسماعيل جلبى المشار إليه حقًا مطلقًا ولا استحقاقًا ولا دعوى ولا طلبا ولافضة ولا ذهبًا ولافلوسًا ولانحاسًا ، ولاقماشًا ولا أثاثًا ولادينًا ولاعينًا ولا مالاً ولا قليلاً ولاكبيراً ولا جليلاً ولا حقيراً ولايمينًا بالله تعالى ولا شئ عمل ولا حل وثبت ذلك لدى الحاكم المشار إليه أعلاه بشهادة شهوده وصدوره لديه الثبوت

الشرعى، وحكم بموجب ذلك حكمًا شرعيًا فى الثامن عشر من رجب سنة سبعة وتسعين وألف.

شهود الحال.

ملحق رقم (١٤)

سجل محكمة الإسكندرية رقم ٧٥، مادة ٣٠٧، ص٢٤٥ ، بتاريخ ١ غرة جمادى الآخر عام ١١٤٩هـ / ١٧٣٦م.

إشهاد من أندلسى

أشهد على نفسه كل من الحاج محمد بن المرحوم قاسم المرابطة والحاج محمد بن المرحوم على المغربى الأندلسى وهما المستحقين لميراث المرحومة الحاجة آمنة المرأة بنت المرحوم الحاج محمد المرابطة شهاداً شرعيصا من غير إكراه لها فى ذلك ولا إجبار وجواز الإشهاد عليهما شرعًا أنهما قبضوا وتسملوا ووصل إليهما من الحاج محمد عبد العزيز مبلغ تسعة عشر شريفى فندقلى[1] وهى الأمانة التى كانت أودعتها الحاجة آمنة المذكورة بطريق الحاج الشريف عدداً

---

(١) فندقلى (فندقى) ، نقد ذهب تركى يختلف عن البندقى، وقد اشتق الفندقى اسمه- ليس من البندقية الإيطالية، كما يطرأ على الذهن لأول وهلة- بل أطلق اسمه استناداً إلى زخرفة الجبيات التى تشبه البندق أو «الفندق» فى أطراف هذا النقد قرب دائرة، ويذكر اسماعيل غالب أن أول ضرب للفندقلى كان فى عهد السلطان سليم الثالث [١٢٠٣-١٢٢٢هـ/ ١٧٨٨-١٨٠٧م] ولكن الجبرتى قد أشار إلى «الفندقلى» فى أحداث سنة ١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م حين صدرت الأوامر من الدولة العثمانية بابطال التعامل الذهبى الفندقلى ، ولكن لايفهم من هذا النص تضارباً بين القرائين ، إذ كثيرا ما كانت الدولة العثمانية تأمر بضرب نقد ويأتى سلطان آخر فيأمر بابطاله ، ثم يعاد سك نفس النقد مرة أخرى، فيسمى ما بقى من النقد الأول فى السوق «فندقلى قديم» بينما يسمى بعد إعادة ضربه بالفندقلى الجديد ، وكما خضع ضرب الفندقلى للمنح أو الإطلاق أحيانًا ، وكما خضع سعره كذلك للزيادة والنقصان ، فقد أضحى سعره سنة ١١٤٨هـ / ١٧٣٦ م ثلثمائة نصف فضة ، بعد أن كان مائة سنت وأربعين نصف فضة، ويقرر إسماعيل غالب أن آخر ذكر للفندقلى كان من ضرب السلطان مصطفى سنة ١٢٢٢ -١٢٢٨هـ / ١٨٠٧-١٨٠٨م ولكن التوقف فى ضرب الفندقلى كان قاصراً وقتذاك على الدولة العثمانية، إذ من الثابت أنه ظل يجرى فى التعامل فى السوق المصرية بعد هذا التاريخ فقد أشار الجبرتى إلى سعره- وهو سبعة عشر قرشًا أى ستمائة وثمانين نصف فضة - فى أحداث ذى الحجة سنة ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م بقوله «ومنها أمر المعاملة وما يقع فيها من التخليط والزيادة حتى بلغ صرف الفندقلى الإسلامى سبعة عشر قرشًا . (انظر عبد الرحمن فهمى، النقود المتداولة أيام الجبرتى، ص٥٧٤).

بالمجلس قبضًا وتسلمًا ووصلاً شرعيات بالطريق الشرعى وبمقتضى ذلك برئت عهدة الحاج محمد المرقوم من مبلغ الأمانة المذكورة وخلت يده من ذلك البراءة الشرعية والخلو الشرعيين بالطريق الشرعى وصدر ذلك بحضور من ذلك أعلاه وثبت ذلك لدى مولانا أفندى المومى إليه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتًا شرعيًا وحكم بموجب ذلك حكمًا شرعيًا مستوفيًا لشرايطه الشرعية ، وأشهد على نفسه الكريمة بذلك وجرى ذلك وحرر وسطر وبه شهر فى غرة شهر جمادى الآخر سنة تسع وأربعين وماية وألف.

ملحق رقم (١٥)

سجل محكمة الإسكندرية رقم ٤٨ ، ص٣٦٨م، ٩٦٩ ، بتاريخ ١١ محرم ١٠٥٠هـ

الموضوع : علاقات اقتصادية- تصادق وتبايع وسحب بين أندلسى ومصرى

لديه دامت النعم عليه.

بعد أن تصادق الأجل المحترم الحاج عثمان الينكجرى ابن المرحوم إبراهيم الشير نسبه الكريم بالأندلسى مع فخر الريسا المعتمدين الرايس محمد ابن المرحوم رمضان الشهير نسبه بابن الأخنف الدمياطى النقارى الحاضر بالمجلس مصادقة صحيحة شرعية عرف كل منهما معناها وما يترتب عليها شرعا وكل منهما بحال صحته وسلامته وطواعيته واختياره من غير إكراه عليه فى ذلك ولا إجبار وجواز الإشهاد عليهما شرعًا أن الذى مرتب بذمة الرايس محمد الأخنف ويستحقه الحاج عثمان المرقوم بذمته مبلغ قدره مايتا قرش ثنتان وخمسة وثلاثون قرشًا من القروش الكبار الفضية التى يعدل الواحد منها ثلاثين نصفًا فضة معاملة تاريخه الآن بالديار المصرية متاجرة للحاج عثمان بذمة محمد المرقوم من أصل ثلاثمائة وخمسون قرشا حسب حجة شرعية مسطرة قبل تاريخه حكم ذلك الحلول الشرعى وسبيله حسبما تصادقا على ذلك كذلك اشترى الأجل الحاج عثمان المرقوم أعلاه بماله لنفسه دون غيره من بايعه الرايس محمد الأخنف المرقوم أعلاه فباعه ما هو جار فى ملكه بيده وحوزه وبتصرفه واختصاصه وذلك جميع الحصة التى قدرها النصف اثنا عشر سهمًا من أصل أربعة وعشرين سهمًا شايعا ذلك فى جميع المركب النقيرة شركة الأجل الحاج محمد ابن حس بلوك باش طبقة الينكجرية سابقًا المشتمل كاملها على صاريتين وقلاع كبيرة ومرستين حديد وأحبال وغير ذلك من جميع آلاتها مرعيا بثمن قدره عن ذلك ثلاثمائة قرش وخمس وثلاثون قرشا من القروش الكبار الموصوفة أعلاه ثمنًا حالا مقبوضا بيد الرايس محمد الأخنف البايع المرقوم أعلاه من مال الحاج عثمان المشترى المرقوم أعلاه وذلك عن نظير ما يستحقه عليه من الدين المذكور وهو المايتان وخمسة وثلاثين قرشا المعينة أعلاه من مال الحاج عثمان، وباقى ذلك خمسة وثمانون قرشًا قبضت بيده

بالمجلس القبض التام الشرعى ولم يتأخر قبل الحاج عثمان المشترى المرقوم أعلاه من مبلغ الثمن وقدره الثلاثمائة وعشرون قرشًا شئ قل ولا جل يمينًا بالله تعالى، واعترف الحاج عثمان المشترى المرقوم أعلاه بتسلم النصف المرقوم أعلاه التسلم الشرعى بعد النظر والمعرفة والأذن والتحلية، وثبت ذلك لدى مولانا أفندى المومى إليه أعلاه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتًا شرعيا تاما مرعيا فى تواريخ غايتها حادى عشر شهر محرم الحرام افتتاح سنة خمسين وألف.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

شهود الحال

محمد بن محمد

ملحق رقم (١٦)

سجل محكمة الإسكندرية ، ص٧٥ ، ص٢٦٢ ، م ٣٣١ بتاريخ غرة جمادى آخر ١١٤٩هـ

الموضوع : شهاد من أندلسى

لدى مولانا أفندى دام فضله

أشهد على نفسه كل من الحاج محمد بن قاسم المرابطة والحاج محمد بن على الشهير بالأندلسوهما المستحقين لميراث المرحومة الحاجة آمنة المرأة بنت المرحوم الحاج محمد المرابطة إشهاداً شرعيًا من غير إكراه لهما مما سيذكر فيه ولا إجبار وجواز الإشهاد عليهما شرعًا أنهما قبضوا وتسلموا ووصل إليهما الأمانة التى كانت أودعتها الحاجة آمنة المتوفية المورثة المذكورة للحاج قاسم من المرحوم الحاج مصطفى الصيرفى وأخته الحاجة آمنة المتوفيون بطريق الحاج الشريف وحصلت الأمانة عند السيد الشريف الحاج محمد الحاج محمد بن المرحوم والحاج عبدالعزيز المعروف بابن أخت الحاج قاسم وهم جوز يساور ذهب وجوز أقراص ذهب ،ولبسه ذهب، وقفطان ذهب بجور، وأربعة شمس ذهب، وفردتين عقود فضة بهم اثنتى عشر شمروج بغير زايد على ذلك عدداً بالمجلس قبضا وتسلما ووصولاً شرعيات بالطريق الشرعى وبمقتضى ذلك برئت عهدة السيد محمد ورثة خاله الحاج قاسم من عهدة ذلك البراءة الشرعية بالوجه الشرعى، وصدر ذلك بحضور شعبان الدوج ولد أخت المتوفية الموصى له بالثلث الحايز من تركة المتوفية والأسطى حسن الحلاق والحاج محمد عبد العزيز وإطلاعهم على ذلك وبحكمهم الإشهاد بذلك وثبت ذلك لدى مولانا أفندى المومى إليه بشهادة شهوده لديه ثبوتا شرعيا وحكم بموجب ذلك حكما شرعيا مستوفيا لشرايطة الشرعية ، وأشهد على نفسه الكريمة بذلك وجرى ذلك وحرر وسطر فى شهر فى غرة جمادى الآخر سنة تسع وأربعين ومائة وألف.

المصادر والمرجع

أولا : وثائق غير منشورة :

أرشيف الوثائق القومية بالقاهرة :

١- سجلات محكمة الاسكندرية .

٢- سجلات محكمة المنصورة .

٣- سجلات محكمة رشيد .

٤- سجلات محكمة إسنا .

٥- سجلات محكمة قنا .

٦- سجلات محكمة القسمة العربية .

٧- سجلات محكمة القسمة العسكرية.

٨- سجلات محكمة الباب العالى .

٩- سجلات الديوان العالى .

١٠- سجلات اسقاطات القرى .

١١- دفاتر الرزق .

١٢- سجلات الروزنامة .

١٣- محافظ الدشت .

١٤- سجلات الالتزام .

ثانيًا : المخطوطات :

١- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى: اللطائف الربانية على المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ورقمه ٨٠ تاريخ- دار الكتب المصرية.

٢- تحفة الظرفاء فى ذكر دولة الملوك والخلفاء ، ويليه الفتوحات العثمانية للديار المصرية ورقمه ٦٨٩ / ٢٣٥ج . مكتبة البلدية بالاسكندرية .

٣- الكواكب السائرة فى أخبار مصر القاهرة، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٤١٩ .

٤- النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، رقم ٢٢٦٦ - مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج.

٥- المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية ، رقم ٥٤٢٤ تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة .

٦- الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة .

٧- مرعى بن يوسف الحنبلى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين .

٨- مصطفى الشافعى القلعاوى : صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان. ورقمه ٤٥٦ تاريخ- مكتبة رفاعة الطهطاوى ، سوهاج.

٩- مؤلف مجهول : أخبار أهل القرن الثانى عشر الهجرى «تاريخ المماليك فى القاهرة» ورقمه ١٣٤١، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

ثالثًا : المراجع العربية :

١٠- إبراهيم حسن سعيد (دكتور) : البحرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك، الاسكندرية ١٩٨٣ .

١١- إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية، المعروف بكتاب التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية، القاهرة ١٩٨٨ .

١٢- إبراهيم زكى: الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهد الحملة الفرنساوية وفى عهد محمد على، القاهرة، بدون تاريخ.

١٣- إبراهيم الصوالحى العوفى: تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق الدكتور عبدالرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٨٧ .

١٤- إبراهيم طرخان (دكتور) : النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٨ .

١٥- إبراهيم طرخان (دكتور) : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢ / ١٥١٧، القاهرة ١٩٥٩ .

١٦- إبراهيم عامر : الأرض والفلاح فى المسألة الزراعية فى مصر، القاهرة ١٩٥٨ .

١٧- إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى «الشهير بابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار، بيروت، بدون تاريخ.

١٨- إبراهيم المويلحي: الأرض والفلاح في العصر العثماني، ضمن كتاب الأرض والفلاح في مصر، القاهرة ١٩٧٤م.

١٩- أبي الضياء عبد الرحمن بن على الديبع الشيباني .

٢٠- أبو الحسن على بن حبيب البصرى البغدادى الماوردى الأحكام السلطانية، القاهرة.

٢١- أحمد أحمد بدوى (دكتور) : رفاعة رافع الطهطاوى ، القاهرة ١٩٧٥م.

٢٢- أحمد بدوى : تاريخ مصر الاجتماعى ، الاسكندرية ، بدون تاريخ.

٢٣- أحمد أحمد الحتة (دكتور) : تاريخ الزراعة فى عهد محمد على الكبير، القاهرة ١٩٥٠ .

٢٤- أحمد تقى الدين المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٣٢٦هـ .

٢٥- أحمد جلبى عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق الدكتور محمد فؤاد الماوى، القاهرة ١٩٧٧ .

٢٦- أحمد بن زنبل الرمال: آخرة المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٢ .

٢٧- أحمد السعيد سليمان (دكتور) تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، القاهرة ١٩٧٨م.

٢٨- أحمد شلبى عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة ، من الوزراء والباشات ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٧٨ .

٢٩- أحمد شلبى (دكتور) تاريخ التربية الإسلامية .

٣٠- أحمد شلبى (دكتور) مصر مركز للدراسات الإسلامية فى عصر الجبرتى، ضمن أبحاث ندوة عبد الرحمن الجبرتى، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٧٦ .

٣١- أحمد فؤاد متولى (دكتور) الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع المصادر التركية والعربية المعاصرة ، القاهرة ١٩٧٦ .

٣٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) فى أصول التاريخ العثمانى، بيروت ١٩٨٢ م.

٣٣- أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي : كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، فى أخبار ما وقع فى عصر دولة المماليك والسناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمان وستين ومائة وألف، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٨٩ .

٣٤- أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) دراسات فى تاريخ العرب الحديث، بيروت ١٩٧٣ .

٣٥- أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) تاريخ التعليم فى عهد محمد على، القاهرة ١٩٣٨ .

٣٦- آدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، أو عصر النهضة فى الاسلام، الجزء الأول، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبوريدة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة .

٣٧- الحسن محمد الوزان الفاسى، المعروف بليون الأفريقى وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجى، محمد الأخضر، بيروت، بدون تاريخ.

٣٨- إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم ، ترجمة عدلى طاهر نور ، القاهرة ١٩٧٦ .

٣٩- استيف: النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٩ .

٤٠- الهام محمد على ذهنى (دكتور) مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، القاهرة .

٤١- الزبيدى: الفضل المزيد على بقية المستفيد فى أخبار يزيد، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عيسى صالحية، الكويت ١٩٨١ م.

٤٢- أمين سامى باشا : تقويم النيل وعصر محمد على ، القاهرة ١٩١٧ .

٤٣- أمين مصطفى عفيفى عبداللاه (دكتور) تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٥٣ .

٤٤- اندريه ريمون : الولايات العربية (القرن السادس عشر - القرن الثامن عشر) ، ضمن كتاب الدولة العثمانية ، اشراف روبير مانتزان، ترجمة بشير السباعى، القاهرة ١٩٩٣ .

٤٥- اندريه ريمون : فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٤ .

٤٦- انطونيو دومينقر هورنز برنارت بلشت : تاريخ مسلمى الأندلس «الموريسيكيون» حياة ومأساة أقلية ، ترجمة الدكتور عبد العال صالح، تقديم وتنقيح الدكتور محمد حجى الدين الأصفر، الدوحة قطر، ١٩٨٨ .

٤٧- إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل، جزآن ، القاهرة ١٩٤٢ .

٤٨- أوليا چلبى : سياحتنامه مصر ترجمة دكتور محمد على عونى، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام ، الدكتور أحمد السعيد سليمان، القاهرة ٢٠٠٣ .

٤٩- توفيق الطويل (دكتور): التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، القاهرة ١٩٤٦ .

٥٠- جابريل بيير: دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، ترجمة الدكتور عبدالخالق لاشين ، عبد الحميد فهمى الجمال، القاهرة ١٩٧٦ .

٥١- جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، القاهرة ١٩٦٣ .

٥٢- ج. دى . شابرول : دراسات فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٦ .

٥٣- ج. كريستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد انتدراوس ، مراجعة الدكتور محمد أحمد أنيس، القاهرة ١٩٦٢ .

٥٤- جلال يحيى (دكتور) مصر الحديثة «١٥١٧-١٨٠٥» الاسكندرية ، بدون تاريخ.

٥٥- چورچ يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل تعريب على شكرى، القاهرة ١٩٣٤ .

٥٦- جمال الدين الشيال (دكتور) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى مصر فى عهد محمد على، القاهرة ١٩٤٢ .

٥٧- جمال الدين الشيال (دكتور) اعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٥ .

٥٨- ـــــــ : تاريخ الترجمة فى عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة ١٩٤٢ .

٥٩- ـــــــ : تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبى والمملوكى، القاهرة ١٩٦٥ .

٦٠- ـــــــ : مجمل تاريخ دمياط ، دمياط ١٩٤٧ .

٦١- ـــــــ : تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الإسلامى، الاسكندرية ١٩٦٧ .

٦٢- جومار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة الدكتور أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٩ .

٦٣- جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الرابع، بيروت، بدون تاريخ .

٦٤- حسن الباشا (دكتور) الفنون الاسلامية ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦١-١٩٦٣ .

٦٥- حسن عثمان (دكتور) محمد توفيق : تاريخ مصر فى العهد العثمانى ١٥١٧-١٧٩٨، نشر فى كتاب المجمل فى التاريخ المصرى، ضمن أعضاء هيئة التدريس وإشراف الدكتور حسن إبراهيم، القاهرة ١٩٤٢، ومنهج البحث التاريخى القاهرة، ١٩٧١م.

٦٦- حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، القاهرة ١٩٣٨ .

٦٧- ـــــــ : المساجد، الكويت ١٩٨١ .

٦٨- خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، أصولها المشرقية وتأثيرها الغربية ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى، القاهرة ١٩٨٠ .

٦٩- زريجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية فى أوروبا ، بيروت ١٩٨٦ .

٧٠- زين الدين شمس الدين نجم (دكتور) إدارة الأقاليم «١٨٨٢-١٩٠٥م». القاهرة ١٩٨٥ .

٧١- س.ب. جيرار : الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٩ .

٧٢- سعاد ماهر محمد (دكتورة): مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، الجزء الخامس القاهرة ١٩٨٣ .

٧٣- سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) الأثر المغربى والأندلسى فى المجتمع السكندرى فى العصور الإسلامية الوسطى، ضمن كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور المختلفة ، جامعة الاسكندرية، ١٩٧٣ .

٧٤- سعيد أحمد برجاوى : الامبراطورية العثمانية تاريخها السياسى والعسكرى، بيروت، ١٩٩٣ .

٧٥- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥ .

٧٦- ـــــــ : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة ١٩٥٩ .

٧٧- ـــــــ : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك، فى ضوء كتابات ابن إياس القاهرة ١٩٧٣ .

٧٨- ـــــــ : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٣ .

٧٩- سيد إبراهيم الجيار (دكتور) : تاريخ التعليم الحديث فى مصر، وأبعاده الثقافية القاهرة، ١٩٧٧ .

٨٠- سيد محمد السيد (دكتور) تاريخ مصر فى العصر العثمانى فى القرن ١٦ ، دراسة وثائقية فى النظم الادارية والقضائية والمالية والعسكرية، القاهرة ١٩٩٧

٨١- سيد مصطفى سالم (دكتور) الفتح العثمانى الأول لليمن (١٥٣٨-١٦٣٥م) الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٨ .

٨٢- عباس العقاد : الإمام محمد عبده عبقرى الإصلاح والتعليم، القاهرة ١٩٨١م.

٨٣- عبد الرازق الطنطاوى القرموط (دكتور) : العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ١٩٨٤م.

٨٤- عبد الرازق ابراهيم عيسى: تاريخ القضاء فى مصر العثمانية «١٥١٩»، القاهر ١٩٩٨م.

٨٥- عبدالله الشرقاوى: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين ، تحقيق وتعليق، رحاب عبد الحميد، الاقهرة ١٩٩٦ .

٨٦- عبد الجليل التميمى (دكتور) : الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين والأندلس، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية، والتوثيق والمعلومات ، زغوان ، تونس ١٩٨٩ .

٨٧- عبد الحميد البطريق (دكتور) من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٧-١٨٤٠م) القاهرة ١٩٦٩ .

٨٨- عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، الجزء الثانى، القاهرة١٩٢٩ .

٨٩- عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٠ .

٩٠- عبد الحليم منتصر (دكتور) دور العرب فى تقدم العلوم، الاقهرة ١٩٨٣ .

٩١- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، ٤ أجزاء، القاهرة ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩-١٨٨٠ .

٩٢- عبد الرحمن زكى (دكتور) : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير، القاهرة، ١٩٥٠ .

٩٣- ــــــــــ : خطط القاهرة أيام الجبرتى : ضمن ندوة بحوث فى تاريخ الجبرتى، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٧٦ .

٩٤- ــــــــــ : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، القاهرة ١٩٦٠ .

٩٥- عبد الرحمن فهمى: (دكتور) النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٥٠ .

٩٦- ــــــــــ : النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ضمن ندوة بحوث فى تاريخ الجبرتى ، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٧٦ .

٩٧- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٧٤ .

٩٨- ــــــــــ : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى «٩٢٣-١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨»، تونس ١٩٨٢ .

٩٩- ــــــــــ : القضاء فى مصر فى العصر العثمانى ، ضمن بحوث ندوة القضاء فى مصر، بجامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٥ .

١٠٠- عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الأزهر جامعًا وجامعة ، الجزء الأول، القاهرة ١٩٨٣ .

١٠١- ــــــــــ : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، أربعة أجزاء، ١٩٧٨-١٩٨٣ .

١٠٢- عبد الغنى محمود عبد العاطى (دكتور) التعليم فى مصر فى زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة ١٩٨٤ .

١٠٣- عبد الكريم رافق (دكتور): بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني حتى حملة نابليون بونابرت على مصر، دمشق ١٩٦٨ .

١٠٤- عبدالله عزباوى (دكتور) الشوام فى مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، القاهرة ١٩٨٦ .

١٠٥- عبدالله محمود شحاته (دكتور) منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم، القاهرة ١٩٥٨ .

١٠٦- عبد المنعم ماجد (دكتور) طومان باى آخر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٧ .

١٠٧- ــــــــ : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار، القاهرة ١٩٨٨ .

١٠٨- عبد الوهاب بكر (دكتور) : ميناء دمياط ودوره فى العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الليفانت خلال القرن الثامن عشر، بحث مقدم لندوة مصر وعالم البحر المتوسط، بجامعة القاهرة ١٩٨٥ .

١٠٩- ــــــــ : الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٨٢ .

١١٠- عراقى يوسف محمد (دكتور) الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٨٥ .

١١١- علماء الحملة الفرنسية : الموازين والنقود لصامويل برنارد ، الجزء الثالث، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٨٠ .

١١٢- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ٢٠ جزء، بولاق ١٣٠٥ .

١١٣- عمر عبد العزيز عمر (دكتور) : دراسات فى تاريخ العرب الحديث، الفتح العثمانى حتى القرن الثامن عشر الميلادى، بيروت ١٩٧٥ .

١١٤- ــــــــ : دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر، بيروت ١٩٨٠ .

١١٥- ــــــــ : دراسات فى تاريخ مصر الحديث «١٧٩٨-١٩١٤» الإسكندرية ١٩٧٣ .

١١٦- ـــــــ : عبد الرحمن الجبرتى ونقولا ترك، دراسة مقارنة ، بيروت ١٩٧٦ .

١١٧- ـــــــ : مجتمع الإسكندرية فى العصر العثمانى ، ضمن بحوث مجمتع الإسكندرية عبر العصور المختلفة، الاسكندرية ١٩٧٣ .

١١٨- ـــــــ : مصادر تاريخ مصر العثمانية ، بيروت ١٩٧٢ .

١١٩- عمر ممدوح مصطفى (دكتور) : أصول تاريخ القانون، الإسكندرية ١٩٥٤ .

١٢٠- درويش النخيلى (دكتور) السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية ١٩٧٤ .

١٢١- دى بوا ايميه : القبائل العربية فى صحروات مصر ، ترجمة زهير الشايب القاهرة ١٩٨٠ .

١٢٢-فائق بكر الصواف (دكتور) العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز فى الفترة ما بين ١٢٩٣-١٣٣٤هـ / ١٨٧٦-١٩١٦، القاهرة ١٩٨٠ .

١٢٣- فالتر هنتس : المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمة الدكتور كامل العسلى، عمان، الأردن، ١٩٧٠ .

١٢٤- فوزى جرجس سلامة : دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى، القاهرة ١٩٥٨ .

١٢٥- قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٧ .

١٢٦- ـــــــ : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٩ .

١٢٧- ـــــــ: النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٩ .

١٢٨- قانون نامه مصر : ترجمه وعلق عليه الدكتور أحمد فؤاد متولى، القاهرة ١٩٨٦ .

١٢٩- قطب الدين محمد بن أحمد النهروانى المكى: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى فى القرن العاشر الهجرى، مع توسع فى أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر، اشرف على طبعه، حمد الجاسر ، الرياض ، ١٩٦٧ .

١٣٠- صوفيا لين بول : حريم محمد على باشا ، ترجمة الدكتورة عزة كرارة، القاهرة ١٩٩٩ .

١٣١- كارستن نيبور : رحلة إلى مصر (١٧٦١-١٧٦٢)، ترجمة الدكتور مصطفى ماهر، القاهرة ١٩٧٠ .

١٣٢- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، الطبعة العاشرة، بيروت ١٩٨٤ .

١٣٣- كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود بك، جزءان القاهرة ١٩٥٠ .

١٣٤- ليلى الصباغ (دكتورة) معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى ، ضمن كتاب الدولة العثمانية ، تاريخ وحضارة ، اشراف وتقديم الدكتور أكمل الدين احسان أوغلى، نقله إلى العربية الدكتور صالح السعداوى، استانبول ، ١٩٩٩ .

١٣٥- ــــــــ : الجاليات الأوروبية فى الشام ، الجزء الثانى ، بيروت ١٩٨٦ .

١٣٦- ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتور): الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، القاهرة ١٩٧٨ .

١٣٧- ــــــــ : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ، إبان العصر العثمانى، القاهرة ١٩٧٩ .

١٣٨- ــــــــ : شيخ العرب همام وحكم جرجا، القاهرة ١٩٨٤ .

١٣٩- ــــــــ : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، القاهرة ١٩٨٩ .

١٤٠- ل .م . ماير : الملابس المملوكية - ترجمة صالح الشينى، مراجعة دكتور عبدالرحمن فهمى ، القاهرة ١٩٧٢ .

١٤١- لويس عوض (دكتور) : تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل، القاهرة ١٩٨٧ .

١٤٢- محمد بن إياس الحنفى: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، الأجزاء ٣، ٤، ٥ ، القاهرة ١٩٦٠-١٩٦١-١٩٦٢ .

١٤٣- محمد رفعت الإمام (دكتور) : تاريخ الجالية الأرمنية فى القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٩٩ .

١٤٤- محمد رفعت رمضان (دكتور) : على بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠ .

١٤٥- محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ . الأقسام الثلاثة ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٤٦- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، دراسة وتحقيق وتعليق عبد الرازق عيسى عبد الرازق ، القاهرة ١٩٩٨ .

١٤٧- محمد أحمد أنيس (دكتور) الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٤ ، القاهرة ١٩٨١ .

١٤٨- محمد سيد الكيلانى : الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، القاهرة ١٩٨٤ .

١٤٩- محمد رزوق (دكتور) الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ ، ١٧ ، الدار البيضاء المغرب، ١٩٩٨ .

١٥٠- محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقى .

١٥١- محمد صبرى (دكتور) تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث، القاهرة ١٩٩٦ .

١٥٢- محمد عبد الستار عثمان (دكتور) : وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار ، دراسة أثرية الإسكندرية ١٩٨٢ .

١٥٣- محمد العربى الخطابى : الطب والأطباء فى الأندلس الإسلامية، بيروت ١٩٨٨ .

١٥٤- محمد عبد العزيز عجمية : (دكتور) دراسات فى التطور الاقتصادى ، الإسكندرية ١٩٦٥ .

١٥٥- محمد فاتح عقيل (دكتور) : أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية ضمن أبحاث البحرية المصرية، الاسكندرية ١٩٧٤ .

١٥٦- محمد فؤاد شكرى (دكتور) : عبد الله جاك منو، وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة ١٩٦٠ .

١٥٧- ــــــــ : بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) القاهرة ١٩٤٨ .

١٥٨- محمد كامل الفقى (دكتور) : الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة، القاهرة ١٩٨٣ .

١٥٩- محمد محمد أمين (دكتور) : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر «١٢٥٠-١٥١٧» دراسة وثائقية ، القاهرة ١٩٨٢ .

١٦٠- محمد مختار : التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية ، بولاق ١٣١١هـ .

١٦١- محمود حامد الحسيني (دكتور) : الأسبلة في مصر في العصر العثماني، القاهرة ١٩٨٦ .

١٦٢- محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٦٣- مصطفى بن الحاج إبراهيم : تاريخ الأمير حسن كتخدا عزبان الدمرداشي ، تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة ، كنانة الله في أرضه ، تحقيق الدكتور صلاح أحمد هريدي ، الاسكندرية ١٩٨٩ .

١٦٤- نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، ٤ أجزاء ، بيروت بدون تاريخ.

١٦٥- نعيم زكي فهمي (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٣ .

١٦٦- نيقولاي ايفانوف : الفتح العثماني للأقطار العربية(١٥١٦-١٥٧٤) نقله إلى العربية يوسف عطا الله ، راجعه وقدم له الدكتور مسعود ضاهر ، بيروت ، ١٩٨٨ .

١٦٧- نيللي حنا (دكتورة) : تجار القاهرة في العصر العثماني، سيرة أبوطاقية ساهبندر التجار، ترجمة وتقديم الدكتور رؤوف عباس، القاهرة ١٩٩٧ .

١٦٨- هاملتون جب، هارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسيني، الجزء الأول ، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٧١-١٩٧٢ .

١٦٩- هنري لورنس ، شارل جيليس، جان كلود جولفان كلود تروينكر: الحملة الفرنسية في مصر، بونابرت والاسلام، ترجمة بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٥ .

١٧٠- هيلين آن ريفلين : الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة ١٩٧٢ .

١٧١- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول، استانبول ١٩٨٥ .

١٧٢- يوسف النحاس : الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٣٤ .

رابعًا : المراجع الأوروبية :

173-Afaf Loutfy El Sayed , The Role of the ulama in Egypt during the Early Nineteenth Century, Political and social change in Modern Egypt . Historical Studies from Ottoman conquest to the united Arab Republic, London , 1968 .

174- Baer Gabrial, Egyptian Guilds in Modern times, Jerusalem, 1964 .

175- Butcher El , The Story of the Church of Egypt, 2 vols , London , 1897 .

176- Combé , Etienne , L'Egypté Ottoman En Precis de L'histoire d'Egypté ed Mohamed Zaky El ebrach, T.3 Le Caire , 1933 .

177- Estéve Comte Mémoine Sur Les tribus Arabs des deserts de L'Egypté. T.2 . Paris, 1809 .

178- D, Kalimachs. Pattrah's of Alexandria Greek School at Cairo , 1940 .

179- Gamal El Din El Shayyal, Some Aspects of the inttellectual and social life in Eighteenth century in Egypt , Poltical and Social change in modern Egypt, Histroical Studies from Ottoman conquest to the united Arab Republic, London , 1968 .

180- Heyworth Dunne, An introduction to the History of Education in Modern Egypt, London, 1938 .

181- Heyed W, Historie du Commerce du Levant au Moyen Age. T.II Lepzig , 1925 .

182- Holt, P.M. Egypt and the Fertile crescent , (1516-1922) , London , 1966 .

183- Lane Pool Stanely , Social Life in Egypt in the Middle Ages, London ,, 1961 .

184- Lancret Michel Agge, Territorial et sur L'Administration des Provnces de L'Egypté dans Les deruicus années du goverment de Mamlouks, en Description d;Egypté Atat modern ist ed T.2. Paris, 1813 .

185- M. Papastetanou , Greek Education in Egypt, London , 1940 .

186- P.J. Vatikiotis , The Modern History of Egypt, London , 1938 .

187- Poliak , A. W , Feudalism in Egypt , Syria , Palastine and Lebanon 1250-1900, London 1909 .

188- Poocek, Adescription of the East , V.1, London , 1743 .

189- Stanford, J, Shaw Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution Cambridge Massachustts, 1964 .

190- Ottoman Egypt in the Egitheenth century , Tge Nizammama Misr of Gézzar Psha Translated from Original Turkish by Stanford Shaw, Harvard 1962 .

191- The Fianancial and Adminstrative Organization and development in Ottoman Egypt (1517-1798) New Jersy , 1962 .

خامسًا : الدوريات :

١- المجلة المصرية للدراسات التاريخية:

١٩٢- صبحى لبيب (دكتور) : التجارة الكارميلية وتجارة العصور الوسطى عدد ٤ ، القاهرة ١٩٥٢ .

١٩٣- على الشاذلى الفرا: ذكر ما وقع لعسكر مصر المحروسة، تحقيق الدكتور عبد القادر طليمات ، العدد (١٤) ١٩٦٨ .

١٩٤- محمد بن أبى السرور البكر الصديق: كشف الكربة برفع الطلبة، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، العدد (٢٣) القاهرة ١٩٧٣ .

١٩٥- محمد البرلس السعدى : بلوغ الأرب برفع الطلب، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم، العدد ٢٤، القاهرة ١٩٧٧ .

١٩٦- نسيم مقار (دكتور) : أضواء على تاريخ الهوارة فى صعيد مصر ، العدد ٢٦، القاهرة ١٩٧٦ .

١٩٧- يوسف الشربينى: دراسات نصية لكتاب هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلد العاشر، القاهرة ١٩٧٥ .

٢- المجلة العربية للعلوم الإنسانية :

١٩٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : حفاظ العثمانيين على التراث الإسلامى ، الكويت، ١٩٨٨ .

١٩٩- عبد الرحيم عبد الرحمن (دكتور): العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية فى العصر العثمانى (١٥١٧-١٧٩٨) العدد التاسع، المجلد الثالث، الكويت ١٩٨٣ .

٣- مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة :

٢٠٠- محمد شفيق غربال: مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١ ، ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية، كما شرحه حسين أفندى الروزنامجى فى عهد الجملة الفرنسية، المجلد الرابع، الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٦ .

٤- مجلة كلية الآداب بسوهاج - جامعة أسيوط:

٢٠١- أحمد محمد محمود الطوخى (دكتور): القيسارات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس، العدد ١٨ ، سوهاج ١٩٨٢ .

سادسًا : الرسائل العلمية:

٢٠٢- ابراهيم يونس محمد: تاريخ مصر العثمانية من ٩٢٣-١١٣١هـ / ١٥١٧-١٦٨١م من خلال تحقيق مخطوط «يوسف الملواني الشهير بابن الوكيل تحفة الأحباب عن ملك مصر من الملوك والنواب، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨١ .

٢٠٣- اسامة أحمد إسماعيل: الإسكندرية فى عصر دولة المماليك، رسالة ماسجتير غير منشورة- قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨٧ .

٢٠٤- جميل عرفة منتصر: دور علماء الأزهر فى مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٨٣ .

٢٠٥- جميل عرفة منتصر : التجار فى مصر العثمانية، ٩٢٣-١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، قسم التاريخ، كلية الآداب الاسكندرية، ١٩٨٦ .

٢٠٦- سميرة فهمي عمر : إمارة الحج فى مصر العثمانية ٩٢٣-١٢١٣هـ ١٥١٧-١٧٩٨م، رسالة ماجستير غير منشورة من قسم التاريخ ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨٣م.

٢٠٧- عصمت محمد حسن: الجبرتى ومنهجه فى كتابة التاريخ ، رسالة ماجستير غير منشورة- قسم التاريخ - كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨٠ .

٢٠٨- عفاف مسعد العبد: دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر العثمانية ، رسالة ماجستير غير منشورة - قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٣ .

٢٠٩- محمود محمود الشال: تاريخ مدارس الطوائف الدينية ومدارس الجاليات الأوروبية فى مدينة الاسكندرية فى القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة- قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة الاسندرية ١٩٨٤م.

المحتويات

رقم الإيداع ٣٧٠٥ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 157 - 1

مطابع زمزم ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق



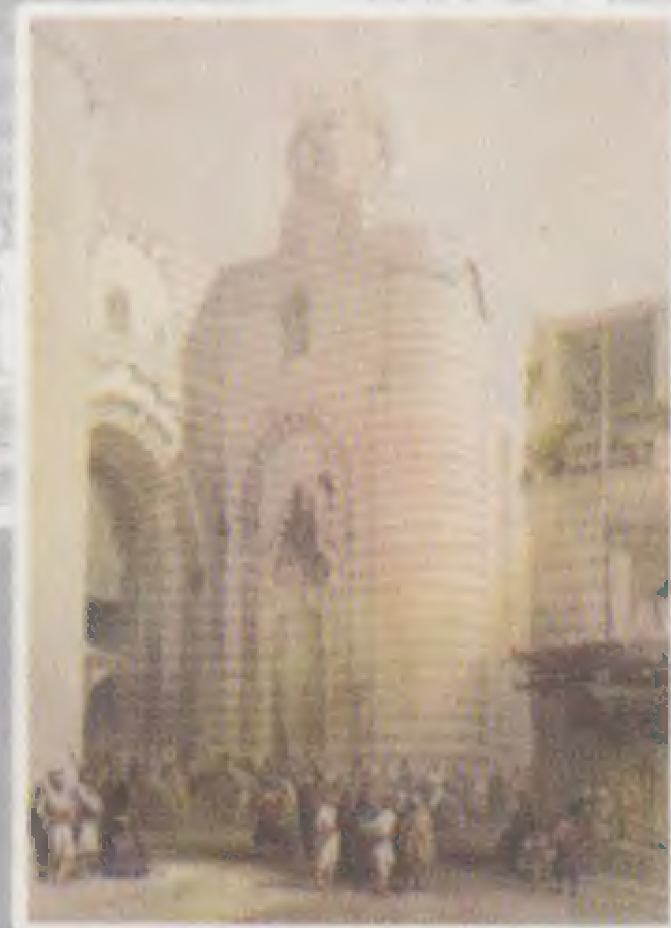




دكتور صلاح أحمد هريدى

دراسات فى

تاريخ مصر الحديث والمعاصر





للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES